عوارف المعارف

تأليف

شيخ الإسلام الإمام الفقيه العارف المربي

شهاب الدين أبي حفص عمر البكري السهروردي

(٥٣٩ - ٦٣٢ هـ)

طبع بالاعتماد على أصول عديدة نفيسة

بعضها مقروء على المصنف أو قريب العهد به

ومعه

وصيته، ونبذة من عقيدته، ورائيته الشريشي البديعة المسماة بـ:

أنوار السرائر وسرائر الأنوار

قدم له

الدكتور محمد ياسر القضماني

حققه وعلق عليه

بلال محمد حاتم السقا

الجزء الأول

دار التقوى

دمشق الشام

عوارف المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

عوارف المعارف

تأليف

شيخ الإسلام الإمام الفقيه العارف المربّي

شهاب الدين أبي حفص عمر البكريّ السُّهروردي

(٥٣٩-٦٣٢هـ)

يُطبع بالاعتماد على أصولٍ عديدةٍ نفيسةٍ، بعضها مقروءٌ على المصنّف أو قريبُ العهد به

ومعه

وصيّته، ونبذةٌ من عقيدته، ورائيّته الشّريشيّ البديعة المسمّاة بـ:

أنوار السّرائر وسرائر الأنوار

قدّم له

الدكتور محمّد ياسر القضماني

حقّقه وعلّق عليه

بلال محمّد حاتم السّقا

الجزء الأوّل

دار التقوى

دمشق الشام

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : عوارف المعارف

المؤلف : عمر البكري السهروردي

الطبعة الأولى : ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

الرقم الدولي : 978-9933-610-35-7

9789933610357

دار التقوى

دمشق الشام

هاتف : ٢٢١٥٤٦٤ ١١ ٩٦٣+ / ص . ب : ٣٠٧٢١

جوال : ٩٣٣٢٠٦٠٠٧ ٩٦٣+ / ٩٤١٩٤٤٣٨٧ ٩٦٣+

daraltaqwa.pu@gmail.com

مما قالوه في وصف مؤلفات السهروردي لا سيما «عوارف المعارف»:

السهروردي مصنف كتاب «العوارف»، المشتمل على مكنونات المعارف ومصونات المحاسن واللطائف، وغير ذلك من التصانيف الحسنة، الجامعة من بلاغة الملاحة وبراعة الفصاحة وحلاوة العبارة، المشتملة على درر المعارف ويواقيت الحكم وطلاوة الإشارة.

الإمام اليافعي

ومما قالوه في القصيدة الشريشية:

إن هذه القصيدة حجة عند أهل هذه الطريقة، ولم يزل المشايخ رضي الله عنهم يحضون عليها ويوصون تلامذتهم بالعمل بها.

الإمام ابن عجلات المراكشي

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المُحتجبِ بذاته ، الظاهرِ بنعوته وصفاته ، المُنعمِ بعطاياه وهباته ، المُكرِمِ مَنِ اصطفاه بعظيم تجلّياته ، ولطيفِ إشاراته

والصلاةُ والسلام علىٰ مَن شرب مِنْ قَدَح الحُبِّ فامتلىٰ ، وخاض في بحار شهود الأحديَّة فارتوىٰ ، وارتقى إلىٰ مقامات العِرْفان الربَّانية فاستوىٰ

وعلىٰ عترته وأصحابه معادنِ الأسرار والمعارف ، ومنابعِ العلوم والعوارف ، وعلىٰ مَنْ لاح لهم معشوقُهُم بنعوت الجمال والجلال ، وأكرمهم بلذيذ مناجاته في سُدَف الليال .

وبعد :

فإنَّ التصوُّفَ أساسٌ مِنْ أساسات الإسلام القَويمة ، وسبيلٌ واضح للنجاة من الفتن البَهيمة ، وهو مقامُ الإحسان ، المشارُ إليه في كلام سيِّد الأكوان : « أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ »

وهو طريقٌ مُؤيَّدٌ ومُقيَّدٌ بكلام الله تعالى القديم ، ومُشبَّكٌ وممزوج بحديث رسوله صلى الله عليه وسلم العظيم ، وهو مبنيٌّ علىٰ ثلاث خصال التمسُّك بالفقر والافتقار ، والتحقُّق بالبَذْل والإيثار ، وتَرْك التعرُّضِ والاختيار

وهو عبارةٌ عن التسربل بالآداب المرضيَّات ، والدخولِ في الأخلاق السَّنِيَّات ، والخروجِ من الأوصاف الدَّنِيَّات ، والاكتناهِ بذلك في جميع الساعات والأوقات ، ولله دَرُّ سيِّدي أبي حفص النيسابوري الحدَّاد في قوله (التصوُّفُ كلُّهُ آدابٌ ؛ لكلِّ وقتٍ أدب ، ولكلِّ حالٍ أدب ، ولكلِّ مقامٍ أدب ؛ فمَنْ لزِمَ آدابَ الأوقات بَلَغَ مبلغَ الرجال ، ومَنْ ضيَّع الآدابَ فهو بعيدٌ مِنْ حيثُ يظنُّ القُرب ، ومردودٌ مِنْ حيثُ يرجو القَبول)

۞ ۞ ۞

هٰذا ؛ وقد اعتزى إلى التصوف أقوامٌ وقفوا علىٰ رسومه ، وانتسب إليه أصنافٌ لم يمتزجوا بعلومه ، فاكتفَوا باسمه وسُدَاه ، وابتعدوا عن جوهره ومُسمَّاه ، وجعلوه سُلَّماً يرتقون به إلى أعراضٍ فانية ، وأطلالٍ بالية ، ومُتَعٍ زائلة ، ونَسَوا قولَ إمام هٰذه الطائفة سيِّدي أبي القاسم الجُنيد : (ما أَخَذْنا التصوُّفَ مِنَ القيل والقال ، ولٰكن عن الجوع ، وتركِ الدُّنيا ، وقطعِ المألوفات والمُستحسَنات) .

ولله دَرُّ سيِّدي أبي سعيد الخَرْكُوشي في إبراز حقيقة التصوُّف عندما قال[1] :

ليس التصوُّفُ حِيلةً وبطالةً ... وتكلُّفاً وتواجُداً بصِياحِ
ليس التصوُّفُ كذبةً وتظالماً ... وجَهالةً ودُعابةً بمُزاحِ

---

(١) تهذيب الأسرار (ص٣٨)

بــل عِفَّــةٌ وفُتُــوَّةٌ ومــروءةٌ وزَهــادةٌ وطهــارةٌ بصــلاحِ
وتَيَقُّــنٌ وتصبُّــرٌ وتــوكُّــلٌ وتــورُّعٌ وتخشُّــعٌ بسمــاحِ
مَـنْ قـام فيـه بحقِّـهِ وحقـوقِـهِ وخلا عنِ الحَدَثانِ والأشباحِ
تتشعشـعُ الأنـوارُ مِـنْ أسـرارِهِ كتشعشعِ المِشْكاةِ في المصباحِ
لـم تَخطُرِ الدُّنيا لـه في بالِـهِ هانتْ عليه حُظُوظُ كلِّ مباحِ

❁ ❁ ❁

كما فَوَّق طَغَامٌ وأغتامٌ مِنَ الناس أَسِنَّةَ الطعنِ على هٰذا الطريق المُنيف ، وطمسوا أساسه وتعاليمه التي لا تتعارضُ مع ديننا الحنيف ، وطعنوا في رجاله الذين حازوا كلَّ مقامٍ شريف ، وادَّعَوا أنَّ التصوُّفَ بقايا فلسفاتٍ بائدة ، وانحلالٌ عن الدِّين ورهبانيةٌ زائدة ، والتصاقٌ بزوايا الضعف والخمول ، وتلبُّسٌ بعقائد الاتحاد والحلول ، وهو ابتداعٌ في الدين ، وهجرةٌ لسنة سيِّد المرسلين

وفـي سيـر الأعـلام النبـلاء ، وطبقـاتِ الأوليـاء الأصفيـاء ، ودواويـنِ المصادر التاريخيَّة ، وأُمَّاتِ الكتب التصوفيَّة . . نفيٌ لِمَا زعموه ، وتكذيبٌ لِمَا نسبوه ، وتبيينٌ بأنَّ التصوفَ ملازمةٌ لكتاب الله وسنة سيد الأنبياء ، وتركٌ للبدع والأهواء ، ومُداومةٌ على الأذكار والصلوات ، وتركٌ للرخص والتأويلات ، وبأنَّهُ طريقٌ للتحرُّر من أَسْر النفس وآفاتِها ، والتخلُّص من قيودها وشهواتها .

❁ ❁ ❁

هـٰذا ؛ وإنَّ من التصانيف المفيدة الرئيسة ، والتآليفِ السديدة النفيسة ، في علم التصوُّف والتزكية ، والسلوك والتربية . . كتابَ « عوارف المعارف » للإمام الصوفي الربَّاني ، والعارفِ الصَّمَداني ؛ سيِّدي أبي حفصٍ عمرَ السُّهْرُوردي البكري الصِّدِّيقي ، الذي نهله من معين « قوت سيدي أبي طالب المكي » ، وقد اشتمل الكتاب علىٰ بعض علوم الصوفيَّة وأحوالِهِم ومقاماتهم، وآدابِهِم وأخلاقهم ، ودقيقِ إشاراتهم ، ولطيفِ اصطلاحاتهم .

ونظراً لأهميَّته وقيمته ، وعمومِ نفعه ونفاسته ، واعتمادِهِ لدى الأئمَّة المُربِّين والعارفين ، وانتشاره في زوايا المريدين والعابدين . . جعله الإمامُ الفقيه المُحقِّقُ شيخُ الإسلام ابنُ حجر الهيتميُّ أحدَ الكتب الأربعة التي عليها المدارُ والمُعوَّل في طريق القوم ؛ فقال : (وعليكَ إن أردتَ أن يظهرَ لك الحقُّ ، وأنَّك تتحلَّىٰ بالصدق . . بمطالعة « إحياء الغزالي » رحمه الله تعالىٰ ، و« رسالة الإمام العارف القُشَيري » ، و« عوارف المعارف » للسُّهْرُوَرْديِّ ، و« القوت » لأبي طالب المكِّي ؛ فإنَّ هـٰذه هي الكتبُ النافعة المُبيِّنةُ لأحوال الصادقين ، وتلبيساتِ المُبطِلين ، والحاملةُ علىٰ معالي الأخلاق ، وإيثارِ الفقر والإملاق ، وإدمانِ الطاعات ، وملازمة العبادات ، سيَّما الجماعات ، والإعراضِ عن سفاسف أقوامٍ غَلَبَ عليهم الشيطان)[1]

❁ ❁ ❁

---

(1) الفتاوى الحديثية (ص١٤٣) .

وقد حوتْ جوهرَ هـٰذا الكتاب وثمرتَه ، وضمَّتْ مقاصدَهُ وعصارتَه . . القصيدةُ البديعة الرائقة للإمام الأديبِ العارف تاجِ الدين أبي العباس الشَّرِيشي ، المُسمَّاةُ بـ « أنوار السرائر وسرائر الأنوار » ، والتي قال فيها صاحبُ « إثمد العينين » : (إنَّ هـٰذه القصيدةَ حُجَّةٌ عند أهل هـٰذه الطريقة ، ولم يَزَلِ المشايخُ رضي الله عنهم يَحضُّون عليها ويُوصُون تلامذتَهُم بالعمل بها)[1] ، وحثَّ عليها صاحبُ « الإبريز » بقوله : (وهـٰذه القصيدةُ مِنْ أنفس ما يُسمَعُ ، وينبغي للمريد أن يحفظَ هـٰذه القصيدةَ ؛ فإنَّها قصيدةٌ مُنوَّرة)[2]

❁ ❁ ❁

وقد عرا (دار التقوىٰ) هِزَّةٌ وسرور ، وعلاها نشوة وحُبور ، عندما ارتأتْ إصدار هـٰذا المَعْلَم النفيس « عوارف المعارف » ، فاستجلبتْ له أعتق النسخ الخطية ، وأولته في جميع مراحل تحقيقه العنايةَ العلمية الدقيقة ، وزيَّنته بما يُبهِرُ القلوبَ والسرائر ، وزركشته بما يُبهِجُ الألباب والخواطر

ونظراً إلى أنَّ القصيدة الشَّريشيَّةَ شديدةُ اللصوق بكتابنا هـٰذا ، ومن أنفس وأبدع ما نُظِمَ في علم السلوك . . فقد قامت الدار بإحيائها ونشرها مُحقَّقةً مُدقَّقة في هـٰذا الإصدار ، والحمد لله علىٰ ذلك .

وفي الختام : فإنَّنا نسأل المولى الكريم أنْ يجعلَنا من الصُّوفيَّة

---

(١) انظر « شرح الفاسي على القصيدة الشريشية » (ص٣) .

(٢) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز (ص٢١٤) .

المُتحقِّقين ، ويحشرَنا مع رجال الله المُقرَّبين ، ويُكرِمَنا بعلومهم وإمدادتهم ، وينفعَنا بأنفاسهم وإشاراتهم ، ويُذِقَنا من معارفهم ونفحاتهم .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

❁ ❁ ❁

تقريظ الكتاب

بقلم الدكتور الداعية محمد ياسر القضماني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذين زيَّن من شاء مِنْ عباده بزِينة المعارف ، وأتْحفَ صَفْوةَ الصَّفْوةِ بأَزهى العوارف

وصلَّى الله وسلَّم وبارك علىٰ مَنْ كان ولا يزالُ السَّببَ لكلِّ الكرامات واللطائف ، والمَدَدَ الأعظمَ لكلِّ عالم وعارف ، وعلىٰ كلِّ صادقٍ محبٍّ أو واصف أو ذائق أو غارف ، وعلى التابعين ومَنْ تبعهم بإحسان وعنَّا معهم إلىٰ يوم الأُنْس والأَمْن أو الهَول والمخاوف .

وبعـد :

فإنَّ هـٰذا الكتابَ الذي بين يديك كتابٌ عظيم ؛ فقد كنَّا ولا نزالُ نسمع من شيوخنا وساداتنا ـ رحمنا الله بحُرْمتهم ـ بأنَّهُ من أهمِّ كتب السَّادة الصُّوفيَّة ، أهلِ المسالك السَّويَّة ، التي أصَّلتْ لمنهجهم ، وركَزَت الصُّوىٰ علىٰ طريقهم .

ومن أشهر الإشادات والثناءات علىٰ هـٰذا الكتاب ـ ضمن جُمْلة من كُتُب السُّلوك ـ : ما قاله الإمام شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر الهَيْتَميُّ المكيُّ (٩٠٩ ـ ٩٧٤ هـ) في كتابه القيِّم الشهير « الفتاوى الحديثية » : (وعليك إنْ أردتَ أن يَظْهر لك الحقُّ وأنَّك تتحلَّىٰ بالصِّدق . . بمطالعة « إحياء الغزالي » رحمه الله تعالىٰ ، و« رسالة الإمام العارف القُشَيري » ، و« عوارف المعارف » للسُّهْرُوَرْديِّ ، و« القُوت » لأبي طالب المكي ؛ فإنَّ هـٰذه هي الكتبُ النافعة المُبيِّنةُ لأحوال الصادقين ، وتلبيساتِ المُبْطِلين ، والحاملةُ علىٰ معالي الأخلاق ،

وإيثارِ الفقر والإملاق ، وإدمانِ الطاعات ، وملازمةِ العبادات ، سيَّما الجماعات ، والإعراضِ عن سفاسف أقوامٍ غَلَبَ عليهم الشيطان)[1]

ومن ثناءات المتأخرين : ثناءُ الإمامِ عَيْدَرُوس بن عمر الحَبْشي ؛ يقولُ العلّامةُ الحبيبُ زين بن إبراهيم ابن سُمَيط باعلوي الحُسَيني حفظه الله تعالىٰ في كتابه « المنهج السَّويّ » (قال سيِّدُنا الإمام عَيْدَرُوسُ بنُ عمرَ الحَبْشيُّ رضي الله عنه « ١٢٣٧ ـ ١٣١٤هـ » : الأمهاتُ السِّتُّ في التصوف ستَّةُ كتب : « الإحياء » ، و« منهاج العابدين » ، و« الأربعين الأصل » للغزالي ، و« رسالة القُشَيري » ، و« عوارف السُّهْرُوَرْدي » ، و« القُوت » لأبي طالب المكيِّ)[2]

سببُ تسمية الكتاب :

وقد تأمَّلتُ في سِرِّ اختيار الإمام أبي حفص السُّهْرُوَرْديِّ رحمه الله لكلمة (عوارف) في عنوان « كتابه » ، ثمَّ فرحتُ بقول الإمام الزَّبيدي في « التاج شرح القاموس » في مادة (عرف) : (و« العَارِفةُ » المعروف ؛ كـ « العُرْف » بالضم ؛ يُقالُ : أَوْلاه عارفةً ؛ أي : معروفاً ، كما في « الصحاح » ، وجمعُها « عوارف » ؛ ومنه سمَّى السُّهْرُوَرْديُّ كتابَهُ : « عوارف المعارف ») .

إذاً : بانَ لنا أنَّ إضافةَ (عوارف) إلىٰ (معارف) ؛ لِذِكْر غُرَرِ علومٍ ومعارف العارفين ، ومباحثِ السادة الصالحين .

والمُطالِعُ لفهرست الكتاب يجدُ أنَّهُ يَحْوي : زُبْدَةَ الكلام عن ماهيَّة التصوف ، ومنشأ علومه ، ونماذج من رجاله ، وعن رِباطِهم ، وخِرْقتِهم ، ولباسهم ، وخصائصهم ، وأسفارهم ، وسَمَاعهم ، وأربعينيَّتِهم المُصَفِّية ، وآداب عباداتهم ، وتوزيع وظائفهم ، وأهمِّ حقوق صُحْبتهم ، وكُشُوفهم وخواطرهم ،

---

(١) الفتاوى الحديثية (ص ١٤٣)

(٢) المنهج السوي شرح أصول طريقة السادة آل باعلوي (ص ٢٥٥) .

وأحوالهم ومقاماتهم ، وأهمِّ مصطلحاتهم الدائرةِ على ألسنتهم ، وغير ذلك ، رضي الله عنهم .

كلماتٌ في حقِّ الكاتب :

في نَسَب أبي حَفْصٍ السُّهْرُوَرْديِّ عند الإمام تاج الدين السُّبْكيِّ في كتابه العظيم « طبقات الشافعيَّة الكبرىٰ » . . نجدُ أنَّ الأبَ السادسَ عشرَ له هو الصدِّيقُ الأكبرُ لهٰذه الأمة ؛ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ ولذا يقال له : (البَكْري)

فبالله عليكم ؛ إذا قرأتم للسُّهْرُوَرْديِّ في « عوارفه » . . فاشهدوا نَبْرَةَ الصِّدق فيها ، واستشعروا قَدْرَها الغالي ، وشَرَفها العالي .

وأكتفي بكلماتٍ ممَّا في « طبقات السُّبْكيِّ » تُلْقي بظلالٍ عن حال هٰذا العارف من أهل الكمال : (قال ابنُ النجَّار : كان شيخَ وقتِهِ في علم الحقيقة ، وانتهتْ إليه الرِّئاسةُ في تربية المريدين ، ودعاءِ الخلق إلى الله ، وتسليكِ طريقِ العبادة والزُّهد ، صَحِبَ عمَّهُ حتىٰ مات ، وسلك طريقَ الرياضات والمجاهدات ، وقرأ الفقهَ والخلافَ والعربيَّة ، وسمع الحديثَ ، ثمَّ انقطع ولازم الخَلْوة ، وداوم الصومَ والذِّكْر والعبادة .

ومات ولم يُخلِّفْ كَفَناً ، مع ما كان يدخل له)(١)

شُجُوني مع الكتاب :

بعد عودتي من موسم حجِّ عام (١٤٢٧هـ) . . بدأتُ بخدمة هٰذا الكتاب ، وكانت الخدمةُ محصورةً في توضيحِ ما أَمْكَنَ من الغريب ، وشَكْلِ ما يُشكِلُ لغةً ، وتراجمَ موجزةٍ لبعض الأعلام ، وذلك بنَظَرِ ودعاء سيِّدي الحبيب عمرَ بن محمد بن سالم بن حفيظ ، أمتعنا الله بحياته .

وانتهيت من الخدمة المذكورة في ضُحَى الخميس (٥) من جُمادى الأُولى

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٣٣٨ـ٣٤١) .

(١٤٢٧هـ) ، الموافق (١/٦/٢٠٠٦م) ، وقد كنتُ مُغتبِطاً بإهدائي النسخةَ مع الخدمة لسيِّدي الحبيب عمرَ بن حفيظ ، وهي الآن بتريمَ الغنَّاء

ومن الموافقات العجيبة : أنَّ الخامسَ من جُمادى الذي نحن فيه وافق أيضاً أنَّهُ يوم الخميس !! ووافقَ أنِّي أضعُ كلماتٍ في أوَّل هـٰذه الطبعة الجديدة المُتميِّزة للكتاب ، التي تشرَّفت (دار التقوىٰ) في دمشقَ بإخراجه في هـٰذه الحُلَّة القَشِيبة

والشكرُ لكلِّ مَنْ ساهم بخدمةٍ لظهور هـٰذه الطبعة ؛ يُخَصُّ منهم : الأخُ محقق الكتاب الأستاذ بلال محمد حاتم السَّقَّا ، حفظه الله وزاده من فضله وتوفيقه ، والأستاذُ المبارك الأخ لؤي الأحمر ، حفظه الله وأيَّده وحَرَسَهُ ودارَهُ مِنْ كلِّ سوء ، وكنتُ قد شجَّعتُهُ على إخراج الكتاب ، فحالفه التوفيقُ وساعدتْهُ العناية حتىٰ برز لأهل العلم والسلوك

ما تمتازُ به هذه الطبعة :

إنَّ ما يَسُرُّ خاطرَ كلِّ محبٍّ لهـٰذا الكتاب أنْ تجتمعَ له عشرُ مخطوطات ، وأن يُرىٰ فيه مُضافاً أوَّلَ مرَّة : « وصيةُ هـٰذا الإمام » بعد الرجوع إلىٰ ثلاث مخطوطات ، و« القصيدةُ الرائيةُ الشَّرِيشية » الناظمةُ لمسائل الكتاب ومُهِمَّاته ، وهـٰذا من عنايات الله تعالىٰ للدَّار العامرة

هذا وبالله التوفيق وله الحمد أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً

حرر في دمشق الشام

ليلة الخميس (١٢) جمادى الأولى (١٤٤٣هـ)

الموافق (١٦) كانون الأول / ديسمبر (٢٠٢١م)

وكتبه

راجي الجود الرباني

محمد ياسر القضماني

ترجمة شيخ الإسلام الإمام الفقيه العارف الرباني

شهاب الدين أبي حفص عمر البكري السهروردي (١)

نسبه ومولده

هو الإمام الكبير، والصوفيُّ الشهير، قُدوةُ العارفين، وعُمدةُ السالكين، أستاذُ الشيوخ الأكابر، الجامعُ بين علمَيِ الباطن والظاهر،

(١) مصادر ترجمته: « مشيخة السهروردي » من مواضعَ متفرقة، « التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد » (ص٣٩٨ـ ٣٩٩)، « إكمال الإكمال » (٣/ ٥٥٥ـ ٥٥٦)، « تاريخ دُنَيْسَر » (ص١٤٣ـ ١٤٧)، « ذيل تاريخ بغداد » (١٥/ ٢٨٧)، « تاريخ إربل » (١/ ١٩٢ـ ١٩٤)، « مرآة الزمان » (٢٢/ ٣٢١ـ ٣٢٢)، « ذيل الروضتين » (ص٢٤٨)، « التكملة لوفيات النقلة » (٣/ ٣٨٠ـ ٣٨١)، « معجم البلدان » (٣/ ٢٩٠)، « وفيات الأعيان » (٣/ ٤٤٦ـ ٤٤٨)، « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » (ص٧٤ـ٧٥)، « نجم المهتدي ورجم المعتدي » (١/ ٥٩٥ـ ٥٩٦)، « سير أعلام النبلاء » (٢٢/ ٣٧٣ـ ٣٧٨)، « تاريخ الإسلام » (٤٦/ ١١٢ـ ١١٥)، « المعين في طبقات المحدثين » (ص١٩٦)، « العبر » (٣/ ٢١٣)، « المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ الدُّبَيْثي » (ص٢٩٣)، « تاريخ ابن الوردي » (٢/ ١٥٨ـ ١٩٥)، « المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » (٢٠/ ١١١ـ ١١٢)، « طبقات الشافعية الكبرى » (٨/ ٣٣٨ـ ٣٤١) لابن السبكي، « طبقات الشافعية » (١/ ٣٤٢) للإسنوي، « مرآة الجنان » (٤/ ٧٩ـ ٨٢)، « البداية والنهاية » (١٣/ ١٣٨ـ ١٣٩)، « طبقات الشافعيين » (ص٨٣٥ـ ٨٣٦) لابن كثير، « روضة الحبور ومعدن السرور » (ص١٧٨ـ ١٩١)، « النجوم الزاهرة » (٦/ ٢٨٣ـ ٢٨٥)، « طبقات الأولياء » (ص٢٦٢ـ ٣٦٥)، « العقد المذهب في طبقات حملة =

شيخُ الإسلام ، وبركة الأنام ، الفقيهُ المُحدِّثُ المُحقِّق ؛ شهابُ الدين أبو حفص وأبو نصر وأبو القاسم وأبو عبد الله[1] ، عمرُ بنُ محمَّدِ بنِ عبد الله بن محمَّد بن عبد الله بن عَمُّويه ـ وهو عبد الله ـ بن سعد بن الحسين بن القاسم[2] بن النضر[3] بن القاسم بن محمَّد بن عبد الله بن فقيه المدينة وابن فقيهها عبد الرحمـٰن بن القاسم بن محمَّد بن الصحابي الجليل خليفةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أبي بكر الصِّدِّيق عبد الله بن أبي قُحافةَ رضي الله عنهما ، القرشيُّ التَّيْميُّ البَكْريُّ السُّهْرُوَرْديُّ البغداديُّ الشافعي ، رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه وأرضاه

ويلتقي نسبه مع الإمام الحافظ المُؤرِّخ أبي الفرج ابن الجوزي . . في القاسم بن النضر بن القاسم[4]

والسُّهرُوَرْديُّ نسبةٌ إلىٰ (سُهرُوَرْد) بلدةٍ قريبة من زَنْجانَ ، وتقعُ الآن

= المذهب » (ص٣٥٧ـ ٣٥٨) ، « نزهة الأنام » (ص٦٠ـ ٦٢) ، « طبقات الشافعية » (٢/ ٨١ ـ ٨٢) لابن قاضي شهبة ، « المقفى الكبير » (٤/ ٣٧٩ـ ٣٨٠) ، « الفلاكة والمفلوكون » (ص١٢٠) ، « كنوز الذهب في تاريخ حلب » (١/ ٣٨٩ـ ٣٩١) ، « التاريخ المعتبر » (٣/ ٧٤) ، « شذرات الذهب » (٧/ ٢٦٨ـ ٢٧٠) ، « كشف الظنون » من مواضع متفرقة ، « هدية العارفين » (١/ ٧٨٥ـ ٧٨٦) ، « الأعلام » (٥/ ٦٢) ، « تاريخ مساجد بغداد وآثارها » (ص٥٣ـ ٥٦) ، « معجم المؤلفين » (٢/ ٥٧٥) .

(١) أورد جميع هـٰذه الكُنى ابنُ كثير في « طبقات الشافعيين » (ص٨٣٥) ، ودون ذكر أبي القاسم ابنُ المستوفي في « تاريخ إربل » (١/ ١٩٢) ، وقال : (إن الأكثر : أبو نصر) ، والمشهور في كنيته : (أبو حفص) .

(٢) زاد السمعاني في « الأنساب » (٧/ ٣٠٧) : (بن علقمة) .

(٣) زاد السمعاني في « الأنساب » (٧/ ٣٠٧) : (بن معاذ) .

(٤) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢٢/ ٣٧٦) .

في الشمال الغربي من جمهورية إيران ، وهي على الأكثرِ والأشهرِ بضم السين وإسكان الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء ودال مهملة ، وضَبَطَ ابنُ نقطة الراء الأولىٰ بالضم(١)

ويَخلِطُ بعضُ الباحثين بينه وبين شهاب الدين يحيى بن حَبَش السُّهْرُوَرْدي المقتولِ الفيلسوف المشهور (ت٥٨٧هـ) ؛ وذلك بسبب اتفاق اللقب والنسبة ، وكان الفيلسوفُ يقطن حلب ، فأفتىٰ علماؤها بقتله لأمور صدرت منه ليس هنا محلُّ عرضِها ، وكتب السلطان صلاح الدين الأيُّوبي بذلك(٢)

وأمّا عن مولد إمامنا السُّهْرُوَرْدي : فقد سأله عنه تلميذه الإمام المُؤرِّخ أبو عبد الله الدُّبَيْثي ، فقال :(وُلِدتُ بسُهْرُوَرْدَ في أواخر رجبٍ أو أوائل شعبانَ من سنة تسع وثلاثين وخمس مئة)(٣) ، وظاهرٌ أنَّ الشكَّ منه رحمه الله تعالىٰ .

أسرته

ينتمي إمامُنا المُترجَم إلىٰ عائلةٍ كبيرة مشهورة بالعلم والولاية ، ولا شكَّ أنَّ هـٰذه العائلةَ الكريمة قد شَمِلَتْها أنفاسُ ونَفَحاتُ مَنْ ينتهي نسبُها إليه ؛ وهو إمامُ الصِّدِّيقين وسيِّدُ العارفين ، سيِّدُنا الصحابيُّ الجليل أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه ، وكان مِنْ ذُرِّيَّة المُترجَم أيضاً فُضَلاءُ وكُبَراءُ

(١) انظر « توضيح المشتبه » (٥/ ٣٧٣) .
(٢) انظر « وفيات الأعيان » (٦/ ٢٦٨ـ ٢٧٤)، و« سير أعلام النبلاء » (٢١/ ٢٠٧ـ ٢١١) .
(٣) انظر « تاريخ إربل » (١/ ١٩٣) .

ومِنْ أبرز رجالات هٰذه الأسرة :

ـ والدُ جدِّ المُؤلِّف الشيخُ الصُّوفي المُعمَّر : محمَّد بن عبد الله المعروفِ بـ (عمُّويه) بن سعد ، تُوفِّيَ سنة (٤٦٨ هـ) وقد بلغ في العمر مئةً وعشرين سنة[١]

ـ وعمُّ أبيه الشيخ الصُّوفي الواعظ : أبو حفص عمر بن محمَّد بن عمُّويه ، كان جميلَ الأمر ، مرضيَّ الطريقة ، سمع منه : الحافظُ السِّلَفيُّ ، ولبس منه الخرقةَ : ابن أخيه أبو النَّجيب ، ومنه إمامُنا المُترجَم ، تُوفِّيَ سنة (٥٣٢هـ)[٢]

ـ وأبوه الفقيه الواعظ : أبو جعفر محمَّدٌ ، تفقَّهَ ببغدادَ : علىٰ أسعدَ المِيهَنيِّ ، وكانت تُعقد له مجالسُ الوعظ في جامع القصر وفي المدرسة النِّظَاميَّة ببغداد ، وتولَّىٰ قضاء سُهْرُوَرْدَ ، ومات مقتولاً سنة (٥٣٩هـ)

ـ وعمُّ المؤلف وشيخُهُ ، الإمام الكبير ، والوليُّ الشهير ، نُخبة العلماء العاملين ، وصفوةُ الأولياء العارفين ، شيخ الإسلام ، ومُفتي الأنام : ضياء الدين أبو النَّجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمَّد البكري السُّهْرُوَرْدي الشافعي ، وهو من أشهر رجالات هٰذه العائلةِ الكريمة المباركة بعدَ إمامنا المترجم .

ولد في صفر سنة (٤٩٠هـ) ، وأخذ العلم علىٰ كبار علماء عصره ؛

(١) انظر « تاريخ الإسلام » (٣١/٢٦٨ـ٢٦٩) .

(٢) انظر « تاريخ الإسلام » (٣٦/٢٨٩ـ ٢٩٠) ، وسيأتي سند الخرقة من طريق إمامنا السهروردي في (٢/٦٠٨ـ٦١٣) .

فسمع أبا علي بن نبهان ، وعصام الدين أبا حفص الصفَّارَ ، وأبا منصور ابنَ خَيْرون ، وزاهر بن طاهر الشَّحَّاميَّ ، والقاضيَ أبا بكر الأنصاريَّ ، والشريفَ نور الهدىٰ أبا طالب الزَّينبيَّ ، وغيرَهُم رحمهم الله تعالىٰ ، وتفقَّه بالمدرسة النِّظَاميّة على الإمام أبي الفتح أسعد المِيهَني ، وتأدَّب علىٰ أبي الحسن عليِّ بن محمد الفَصِيحيِّ ، وسَلَكَ الطريقَ علىٰ يد الإمام القُدوة أبي عبد الله حمَّاد الدبَّاس ، والإمام المُربِّي أبي الفتوح أحمد الغزالي أخي الإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد ، وظهرت عليه أنوارُهُ ، وسَرَتْ إليه أسرارُهُ ، واشتَهَرَ اسمُهُ ، وبَعُدَ صِيتُهُ ، واستفاضت كراماتُهُ ، وبنىٰ رِباطاً ، وبنىٰ إلىٰ جانبه مدرسة ، فصار كعبةً للمريدين والسالكين ، وحِمىً لِمَنِ التجأ إليه من الخائفين ، يُجِيرُ من السلطان والخليفة وغيرهما ، وأفلح بسببه خلقٌ كثيرون ، وأملىٰ مجالسَ كثيرةً ، وصنَّف كتباً عديدةً .

وسمع منه أبو القاسم ابن عساكر ، وابنه القاسم ابن عساكر ، وابن سعد السَّمْعاني ، وزين الأمناء أبو البركات ، وأحمد ابن سُكَينة ، وابنُ أخيه المُترجَمُ شهاب الدين السُّهْرُوَرْديُّ ، وخلقٌ سواهم رحمهم الله تعالىٰ

وقد اتَّفق له في بدايته مجاهداتٌ كثيرة ؛ حكىٰ عن نفسه رضي الله عنه قال (كنتُ أدخل علىٰ شيخي وربَّما يكون اعتراني بعضُ الفُتُور عمَّا كنت عليه من المجاهدة ، فيقول لي أراك قد دخلتَ وعليكَ ظُلْمةٌ ، فأعلمُ سببَ ذلك وكرامةَ الشيخ

وكنتُ أبقى اليومين والثلاثةَ لا أستطعمُ بزاد ، وكنتُ أنزل إلىٰ دِجْلةَ وأتقلَّب في الماء ليسكن جوعي ، حتىٰ دَعَتْني الحاجةُ إلىٰ أنِ اتَّخذتُ قِرْبةَ

أستقي بها الماء للقوت ، فمن أعطاني شيئاً أخذته ، ومن لم يُعطِني تركته ، ولمَّا تعذَّر عليَّ ذلك في الشتاء خرجتُ يوماً إلىٰ بعض الأسواق ، فوجدتُ رجلاً وبين يديه طَبَرْزَدٌ وعنده جماعةٌ يدقُّون الأَرُزَّ[١] ، فقلت : هل لك أن تستأجرَني ؟ فقال : أَرِني يديك ، فأَرَيتُهُ ، فقال هـٰذه يدٌ لا تصلح إلا للقلم ، ثمَّ ناولني قِرْطاساً فيه ذهب ، فقلت ما آخذ إلا أجرةَ عملي ، فاستأجِرْني على النَّسْخ ؛ إن كان لك نَسْخٌ وإلا انصرفتُ ، وكان رجلاً يَقِظاً ، فقال : اصعد ، وقال لغلامه : ناوِلْهُ المِدَقَّةَ ، فناولَني فدققتُ معهم وليس لي عادةٌ وصاحبُ الدُّكَّان يَلحَظُني ، فلمَّا عملتُ ساعةً قال : تعالَ ، فجئت إليه فناولَني الذهبَ ، وقال : هـٰذه أجرتُكَ ، فأخذتُهُ وانصرفت

ثمَّ أَوْقعَ اللهُ في قلبي الاشتغالَ بالعلم ، فاشتغلتُ حتىٰ أتقنتُ المذهب ، وقرأتُ أصولَ الدين وأصولَ الفقه ، وحفظتُ « وسيط الواحدي » في التفسير ، وسمعتُ كتبَ الحديثِ المشهورةَ)[٢]

تُوفِّيَ في جُمادى الآخرةِ سنة (٥٦٣هـ)

وقد أسند عنه إمامُنا السُّهْرُوَرْدي في كتابنا هـٰذا كثيراً من الأخبار والآثار ، وأورد له بعضَ الحكايات والقصص النافعة ، كما سيأتي الحديث عنه إن شاء الله تعالىٰ[٣]

---

(١) الطَّبَرْزَد : السُّكَّر ، أو نوع منه ، وهو فارسي مُعرَّب ، ويُقال بالذال والنون واللام بدل (الدال) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٧/ ١٧٥) .

(٣) انظر (١/ ٢٤ـ٢٦) .

نشأته ولمحة من سيرته العلمية والسلوكية والتربوية

وُلِدَ إمامُنا المُترجَم بسُهْرُوَرْدَ ونشأ بها ، ثمَّ قَدِمَ به عمُّهُ أبو النَّجيب عبدُ القاهر إلىٰ بغدادَ التي كانت في تلك الآونة كعبةَ المعارف ، ومنبعَ الأسرار والعوارف ، فصحبه بها وتَسَرْبَلَ بطريقته الصوفيَّة ، وارتوىٰ من إخاذاته الهنيَّة ، وصحب أيضاً الإمام القُطْبَ عبدَ القادر الجيلانيَّ ، وانحدر إلى البَصْرة ، فأخذ بها عن الولي الكبير أبي محمَّد بن عبد البَصْري ، وقرأ الفقه والخلاف والعربية ، وسمع الحديث : من عمِّه ، وأبي المُظفَّر الشِّبْلي ، وأبي زُرْعة المقدسي ، ومعمر ابن الفاخر ، وأبي الفتح ابن البَطِّي ، وعبد الوهاب ابن سُكَينة ، وغيرِهِم رحمهم الله تعالىٰ ، وسيأتي الحديث عن بعض مرويَّاته بعد قليل إن شاء الله تعالىٰ .

ومن القصص العجيبة التي حَدَثَتْ له مع شيخه ابنِ عبد البَصْريِّ . . ما حدَّث به رضي الله عنه أنَّهُ قال : (انحدرتُ إلى البَصْرة لأزورَ الشيخَ أبا محمَّد البصريَّ بن عبد ، فمررتُ في طريقي بمواشٍ وزروع ونخيل كثيرة ، وكنتُ كلَّما اجتزتُ بشيء منها سألتُ عنه راعيَهُ ومن يقوم به ، فيقولون : هـٰذا للشيخ [أبي] محمَّد بن عبد ، فخَطَرَ في نفسي أنَّ هـٰذا حالُ الملوك ، فدخلتُ البَصْرة وأنا أتلو سورة « الأنعام » ، وقلت في نفسي : أي آية انتهيتُ إلىٰ دار الشيخ وأنا أقرأها . . فهي حالي معه ، قال : فوصلت إلىٰ باب داره ، ووضعت رِجْلي علىٰ باب عَتَبة داره وأنا أتلو : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام : ٩٠] ، فخرج إليَّ خادمُهُ على الفور مُسرِعاً قبل

أن أستأذنَ وقال : إنَّ الشيخ يدعوك ، فدخلتُ عليه وقال لي ابتداءً : يا عمرُ ؛ جميعُ ما رأيتَهُ على الأرض هو على الأرض ، وليس في قلب عُبيدِ منه شيءٌ ، فاشتدَّ تعجُّبي من علمه بحالي في شيء لم يعلمه إلا اللهُ تعالىٰ)[1]

وأمَّا شيخُ فَتْحِهِ في الوعظ والتألُّهِ والسلوك ، إلىٰ حضرة ملك الملوك . . فهو عمُّهُ ومُربِّيه أبو النَّجيب السُّهْرُوَرْدي الذي سلك طريقَهُ واهتدىٰ بهديه ، وقد استنار من ضوء مِشْكاته ، واستجابتْ أعضاؤه إلىٰ نَظَراته ، ولانتْ نَفْسُهُ إلىٰ مُجاهداته ، وقد عاين بعَيْن رأسِهِ وقلبه منهجَهُ الربَّانيَّ في التربية والهداية والإرشاد ، وروىٰ في كتابنا هـٰذا نبذةً يسيرة منه

فمن ذلك : أنَّهُ قال : (رأيتُ شيخَنا ضياءَ الدين أبا النَّجيب وكنتُ معه في سفره إلى الشام وقد بعث بعضُ أبناء الدنيا له طعاماً علىٰ رؤوس الأُسارىٰ من الإفرنج وهم في قُيُودهم ، فلمَّا مُدَّت السُّفْرةُ والأُسارىٰ ينتظرون الأوانيَ حتىٰ تَفرُغَ . . قال الشيخ للخادم : أَحضِرِ الأُسارىٰ حتىٰ يقعدوا على السُّفْرةِ مع الفقراء ، فجاء بهم وأقعدهم على السُّفْرةِ صفّاً واحداً ، وقام الشيخ من سَجَّادته ومشىٰ إليهم وقعد بينَهُم كالواحد منهم ، فأكل وأكلوا ، فظهر لنا علىٰ وجهه ما نازلَ باطنَهُ من التواضع لله ، والانكسارِ في نفسه ، وانسلاخِهِ من التكبُّر عليهم بإيمانه وعِلْمِهِ وعَمَله)[2]

وقال أيضاً : (وقد كان شيخُنا أبو النَّجيب السُّهْرُوَرْديُّ لا يتقيَّدُ بهيئة من الملبوس ، بل كان يَلبَسُ ما يتَّفقُ من غير تعمُّلٍ وتكلُّف واختيار ، وقد كان

---

(١) انظر « خلاصة المفاخر » (ص١١٢)

(٢) انظر (٢/ ٣٠) .

يَلبَسُ العِمامةَ بعشرة دنانيرَ ، ويَلبَسُ العِمامةَ بدانقٍ)[1]

وقال أيضاً (وقد كنتُ أُحَمُّ ، فيدخلُ عليَّ عمِّي وشيخي أبو النَّجيب السُّهْرُوَرْديُّ رحمه الله ، فيَرشَحُ جسدي عَرَقاً ، وكنتُ أتمنَّى العرقَ لتَخِفَّ عنِّي الحُمَّىٰ ، فكنتُ أجدُ ذلك عند دخول الشيخ عليَّ ، ويكونُ في قُدُومه بركةٌ وشفاء

وكنتُ ذاتَ يومٍ في البيت خالياً ، وهناك منديلٌ وهبه لي الشيخ ، وكان يتعمَّمُ به ، فوقع قدمي على المنديل اتِّفاقاً ، وتألَّم باطني من ذلك ، وهالني وَطْئي بالقَدَم منديلَ الشيخ ، وانبعث من باطني من الاحترام ما أرجو بركتَهُ)[2]

وقال أيضاً (وسمعتُ شيخَنا يقول : لي سنينَ ما أكلت شيئاً بشهوةِ نَفْسٍ ابتداءً واستدعاء ، بل يُقدَّمُ لي الشيءُ فأرىٰ فضلَ الله ونعمتَهُ وفِعْلَهُ ، فأُوافِقُ الحقَّ في فعله .

وذَكَرَ أنَّهُ ذاتَ يومٍ اشتهى الطعام ولم يَحضُرْ مَنْ عادتُهُ تقديمُ الطعام إليه ، قال : ففتحتُ باب البيت الذي فيه الطعامُ ، وأخذتُ رُمَّانةً لآكلَها ، فدخلتِ السِّنَّورُ وأخذتْ دجاجةً كانت هناك ، فقلتُ : هـٰذا عقوبةٌ لي علىٰ تصرُّفي في أَخْذِ الرُّمَّان)[3]

وقال أيضاً (وقد كان شيخُنا يطوف في مسجد الخَيْف بمنىً ،

---

(١) انظر (٢/ ٢٥٣) .
(٢) انظر (٢/ ٣٤٣ـ ٣٤٤) .
(٣) انظر (٢/ ٢١٠) .

ويتفحَّصُ وجوه الناس ، فقيل له في ذلك ، فقال لله عبادٌ إذا نَظَرُوا إلى الشخص أَكْسَبُوهُ سعادة ، فأنا أتطلَّب ذلك)[١]

ثمَّ انقطع إمامُنا السُّهْرُوَرْديُّ ، ولازم الخلوة ، وداوم على الصوم والذكر والعبادة ، فلاحت له أسرارُ المعارف ، وغَرَفَ من بحار العوارف ، وارتوتْ نَفْسُهُ من الفيوضات الربَّانية ، وغُمرت بالمعاني العِرْفانيَّة ، وارتقىٰ أعلى المقامات ، ولاح له دقيقُ الإشارات .

وبعد تحقُّقِهِ بذلك بدأ بدعاء الخَلْق إلىٰ ربِّ الأرباب ، وتسليكهم طريقَ الزهد والعبادة ، وعَقَدَ مجالسَ الوعظ والإرشاد بمدرسة عمِّهِ أبي النجيب علىٰ شاطئ دِجْلةَ ، وكان يتكلَّم بكلامٍ حديث العهد بربِّه من غير تكلُّف أو تزويق ، واشتَهَرَ اسمُهُ ، وقُصد من جميع الأقطار ، وظهرتْ بركاتُ أنفاسِهِ على المذنبين والعُصاة ، ووصل به خلقٌ إلى الله تعالىٰ ، وصار له أصحابٌ كالنجوم ، وكان مجلسُ وعظِهِ يَحضُرُهُ العلماءُ والصالحون ، والأولياءُ والعارفون ، والصغيرُ والكبير ، والعبد والأمير

يُروىٰ : أنَّهُ أنشد يوماً على الكرسي (من الكامل)

لا تَسْقِني وَحْدي فما عوَّدْتَني ... أنِّي أَشُحُّ بها علىٰ جُلَّاسي
أنتَ الكريمُ ولا يليقُ تكرُّماً ... أنْ يَعبُرَ النُّدَماءَ دَوْرُ الكاسِ

فتواجد الناسُ لذلك ، وقُطِّعتْ شعورٌ كثيرة ، وتاب خَلْقٌ عظيم[٢]

---

(١) انظر (١/ ٣٨٠) .
(٢) انظر « وفيات الأعيان » (٣/ ٤٤٦) ، و« مرآة الجنان » (٤/ ٨٠)

ويُروىٰ أيضـاً أنَّهُ جلـس يومـاً ببغدادَ ، فذَكَرَ أحوالَ القوم ، ثمَّ أنشد (من البسيط)

ما في الصِّحابِ أخو وَجْدٍ نُطارِحُهُ   حديثَ نَجْدٍ ولا صَبٌّ نُجارِيهِ

وجَعَلَ يُرَدِّدُ البيتَ ويَطرَبُ ، فصاح شابٌّ من أطراف المجلس ، وعليه قَبَاءٌ وكَلُوتَّة[1] ، وقال : يا شيخُ ؛ إلىٰ كم تَشطَحُ وتنتقصُ بالقوم ؟! واللهِ ؛ إنَّ فيهم مَنْ لا يرضىٰ أن يُجارِيَكَ ، ولا يصلُ فَهْمُك إلىٰ ما يقول ، هلَّا أنشدتَ : (من البسيط)

ما في الصِّحابِ وقد سارتْ حُمُولُهُمُ   إلَّا مُحِبٌّ له في الرَّكْبِ محبوبُ
كأنَّما يوسفٌ في كلِّ راحلةٍ   والحيُّ في كلِّ بيتٍ منهُ يعقوبُ

فصاح الشيخُ ، ونزل مِنْ على المنبر ، وقَصَدَ الشابَّ ليعتذرَ إليه ، فلم يَجِدْهُ ، ووَجَدَ موضعَهُ حُفْرةً فيها دمٌ ممَّا فَحَصَ برِجْلَيهِ عند إنشاد الشَّيخ البيتَ[2]

وكان أربابُ الطريقِ من مشايخ عصره يكتبون إليه من البلاد صورةَ فتاوىٰ يسألونه عن شيء من أحوالهم ؛ يُروىٰ : أنَّ بعضَهُم كتب إليه يا سيِّدي ؛ إنْ تركتُ العملَ أخلدتُ إلى البَطَالة ، وإن عَمِلْتُ دَاخَلَني العُجْبُ ، فأيَّتُهُما أَوْلىٰ ؟ فكتب جوابَهُ : اعْمَلْ واستغفرِ اللهَ من العُجْب[3]

وحجَّ مرَّاتٍ عديدةً ، وربَّما جاور في بعضها ، وهناك التقىٰ به بعضُ

---

(١) الكَلُوتَّة : ضرب من القلانس ، وهي كلمة مُعرَّبة
(٢) انظر « مرآة الزمان » (٢٢/ ٣٢٣) ، و« البداية والنهاية » (١٣/ ١٣٩) .
(٣) انظر « وفيات الأعيان » (٣/ ٤٤٧) ، و« مرآة الجنان » (٤/ ٨٠ ـ ٨١)

المريدين ، فأجازهم وألبسهم خِرْقتَهُ الشريفة ، ونُفِّذَ رسولاً إلى الشام مرَّات ، وإلى السلطان خوارزم شاه ، وإلىٰ كثير من البلاد ، ورأىٰ من الحُرْمة والجاه ما لم يَرَهُ أحد ، وحَصَلَ له بذلك أموالٌ جزيلة ، ففرَّقها على الفقراء والمحتاجين ، ولم يأخذ منها شيئاً ، وحدَّث في أسفاره ووَعَظَ ، وانتفع بطريقته خَلْقٌ كثيرون ، ورُتِّب بالرِّباط المنصوريِّ ورِباط المأمونيَّة ورباط البِسْطامي ، وأَضَرَّ وأُقعِدَ في آخر عمره ، فما أخلَّ بالأوراد ودوامِ الذِّكْر والعبادة وحضور الجُمَعِ في مِحَفَّتِهِ[1] ، إلىٰ أنْ دَخَلَ في عُشْر المئة وعَجَزَ وضَعُفَ ، فانقطع في منزله إلىٰ حينِ وفاته ، رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه وأرضاه .

هٰذا ؛ وقد كان الإمام السُّهْرُوَرْديُّ من أهل العلم بالحديث ، وهو معدودٌ في طبقاتهم ورُواتهم ، وله ذِكْرٌ طافحٌ في كتب الفهارس والأثبات ، وقد ذَكَرَ في كتابنا هٰذا بعضَ أسانيده إلىٰ بعض المصادر والأجزاء الحديثيَّة وغيرها

فنجد علىٰ سبيل المثال سندَهُ إلىٰ « صحيح البخاري » ، و« سنن أبي داود » ، و« سنن الدارمي » ، و« الزهد » لابن المبارك ، وبعضِ كتب السُّلَميِّ . . من طريق عمِّهِ أبي النَّجيب السُّهْرُوَرْدي رحمه الله تعالىٰ .

ونجد سندَهُ إلىٰ « سنن الترمذي » من طريق شيخه ضياء الدين عبد الوهاب ابن سُكَينة البغدادي .

وسندَهُ إلىٰ « حلية الأولياء » ، وبعضِ كتب السُّلَميِّ ، و« العُزْلة »

---

(١) المِحَفَّة : المركب

للخطَّابي ، و« غريب الحديث » للحَرْبي . . من طريق شيخه أبي الفتح محمَّد بن عبد الباقي البغدادي .

وسندَهُ إلىٰ « صفوة التصوُّف » ، و« سنن ابن ماجه » ، وبعضِ كتب السُّلَميِّ ، و« مسند ابن الجَعْد » . . من طريق شيخه أبي زُرْعة طاهر المَقْدِسي

وسنَدَهُ إلى « الكشف والبيان » للثعالبي ، و« الرسالة » للإمام القُشَيري . . من طريق شيخه رَضِيِّ الدين أحمد بن إسماعيل القَزْوِيني .

شيوخه

أخذ الإمامُ السُّهْرَوَرْديُّ عن كبار الأئمَّة والعلماء ، وأسند أُمَّاتِ كتبِ الحديث والرواية عن كبار المُحدِّثين النُّبلاء ، وله « مشيخة » رواها عنه أبو المعالي أحمدُ بنُ إسحاقَ الأَبَرْقُوهيُّ ، ولم يستوعبْ فيها جميعَ شيوخِهِ ، بل إنَّما ذكر ستة عشر شيخاً[١] ، وسأذكرُ في هٰذه العُجالةِ أبرزَهُم وأشهرَهُم ؛ فمنهم :

ـ الإمامُ الفقيه الواعظ ذو الفنون : رضيُّ الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف القَزْوِينيُّ الطَّالْقَانيُّ الشافعي (ت ٥٩٠هـ) ، كان رئيسَ أصحابِ الشافعيِّ في وقته ، وكان إماماً في المذهب والخلاف والأصول والتفسير والوعظ والزهد ، وليس له ذِكْرٌ في « المشيخة » مع أنَّ إمامَنا

(١) وانظر خاتمة النسخة (هـ) ؛ ففيها ذكر بعض شيوخه في لبس الخرقة الشريفة .

السُّهْرُوَرْديَّ أسند عنه كثيراً في كتابنا هٰذا[1]

ـ الإمامُ الصُّوفيُّ المسند : أبو الرشيد أحمد بن محمَّد بن أبي القاسم الخَفِيفيُّ الأَبْهَري الشافعي (ت٥٧٧هـ) ، كان من أعيان أصحاب أبي النَّجيب السُّهْرُوَرْدي ، وكان ذا مجاهدات وكرامات[2]

ـ الإمامُ الفقيه المسندُ الثقة أبو بكر أحمد بن المُقرب بن الحسين البغداديُّ الكَرْخي الشافعي (ت٥٦٣هـ) ، كان صدوقاً متواضعاً صحيحَ السماع ، وقرأ القراءاتِ وتصوَّف وحدَّث بالكثير[3]

ـ الإمامُ المسند الصدوق الصُّوفيُّ : أبو زُرْعة طاهر بن الحافظ محمَّد بن طاهر الشَّيْبانيُّ المَقْدسي الهَمَذَاني (ت٥٦٦هـ) ، تفرَّد برواية الكتب والأجزاء ، وأسند عنه المُترجَمُ كثيراً في كتابنا هٰذا[4]

ـ الإمامُ الكبير القُطْبُ المُربِّي ، عُمْدةُ المريدين والسالكين ، وقُدْوةُ الأولياء والعارفين سيِّدي الشريفُ شيخُ الإسلام محيي الدين أبو محمَّد عبدُ القادر بنُ أبي صالح عبد الله الجِيلانيُّ الحَسَني البغدادي الحنبلي (ت٥٦١هـ) ، كان سلطانَ أولياءِ زمانه ، وملجأَ أهلِ أوانه ، تخرَّج على

(١) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٥٩ـ ٦١) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢١/ ١٩٠ـ١٩٣) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ٧ـ ١٣) .

(٢) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٧٠ـ ٧١) ، و« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي » (ص١١٩) .

(٣) انظر « ذيل تاريخ بغداد » (١٥/ ١٢٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٤٧٣) .

(٤) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٥٥ـ ٥٧) ، و« ذيل تاريخ بغداد » (١٥/ ٢٠٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٥٠٣ـ ٥٠٤) .

يديه كبارُ العلماء والنُّجَباء ، ونُخْبةُ الصُّلَحاء والأولياء ، ولعلَّ إمامَنا السُّهْرُوَرْديَّ أبرزُ مثالٍ علىٰ ذلك ، وقد ذكره في كتابنا هـٰذا في أكثرَ من موضع[1]

ـ عمُّ المؤلفِ الإمامُ الفقيه المفتي الواعظُ المُربِّي العابدُ القُدْوة : ضياء الدين أبو النَّجيب عبدُ القاهر بن عبد الله بن محمَّد البَكْريُّ السُّهْرُوَرْدي الشافعي (ت٥٦٣هـ) ، كان إماماً من أئمَّة الشافعيَّة ، وعَلَماً كبيراً من أعلام الصوفيَّة ، وهو ممَّنْ أخذ الطريقَ عن الإمام المُربِّي الصُّوفي أحمد الغزالي أخي حُجَّة الإسلام أبي حامد ، وهو من كبار شيوخ المُترجَم ، بل هو شيخُ فَتْحِهِ في علوم الظاهر والباطن ، وأسند عنه كثيراً في كتابنا هـٰذا ، وأورد له قصصاً عديدةً مفيدة قيِّمة ، وقد ترجمتُهُ ترجمةً موجزة أثناءَ الحديث عن هـٰذه الأسرة الكريمة المباركة[2]

ـ الإمامُ المُحدِّث الثقةُ : أبو المُعمَّر عبد الله بن سعد بن الحسين بن الهاطرا الوزَّانُ الأَزَجيُّ (ت٥٦٠هـ) المشهور بـ (خُزَيفة)[3]

ـ الإمامُ الفقيه الصُّوفيُّ شيخُ الإسلام مسندُ العراق ومُحدِّثُهُ : ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهَّاب بن علي بن علي ابنُ سُكَينةَ البغداديُّ الشافعي (ت٦٠٧هـ) ، كان شيخَ وقتِهِ في عُلُوِّ الإسناد والمعرفة والإتقان ، والزهدِ والمعرفة وحُسْنِ السَّمْت ، وموافقةِ الكتاب والسُّنَّة ، وسلوكِ طريق السلف

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥٠) ، و« مرآة الزمان » (٢١/ ٧٧ـ ١٠٨) وترجمته فيه ترجمة حافلة ، و(١/ ٤٤٩ ، ٤٦٧ ، ٢/ ٢٥٣ ، ٣٤٩) .

(٢) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٤٧ـ ٤٩) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٤٧٥ـ ٤٧٨) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٧/ ١٧٣ـ ١٧٤) ، و(١/ ٢٠ـ ٢٢)

(٣) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٦٥ـ ٦٦) ، و« ذيل تاريخ بغداد » (١٥/ ٢١٥) .

الصالح ، أسند عنه سيِّدي السُّهْرُوَرْديُّ في كتابنا هـٰذا كثيراً من الأحاديث إلىٰ « سنن الإمام الترمذي »[1]

ـ الإمامُ الصدوق مسندُ العراق : أبو الفتح محمَّد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان ابنُ البَطِّي البغداديُّ الحاجب (ت٥٦٤هـ) ، كان شيخَ أهلِ بغداد في وقته ، وكانتْ أكثرُ سماعاته علىٰ أبي الفضل ابن خَيْرون ، وحدَّث بكتبٍ عديدة ، وقد ذكر السُّهْرُوَرْدي أسانيدَهُ لبعضها في كتابنا هـٰذا[2]

ـ الإمامُ المُحدِّث الثقةُ الواعظ الرحَّال أبو أحمد معمر بن عبد الواحد ابن رجاء ابنُ الفاخر القرشيُّ الأَصْبهاني المُعدَّل (ت٥٦٤هـ) ، كان موسوماً بالحفظ والمعرفة والثقة والصلاح والمروءة والورع[3]

ـ الإمام الفقيه أبو القاسم واثق بن علي ابن فضلان الشافعي (ت٥٩٥هـ) ، كان من كبار الفقهاء وأعلام العلماء[4]

ـ الإمامُ المسند المُعمَّرُ : أبو المُظفَّر هبة الله بن أحمد بن محمَّد الشِّبْليُّ البغدادي المُؤذِّن (ت٥٥٧هـ) ، وهو خاتمةُ مَنْ روىٰ عن الإمام الشريف

---

(١) انظر « ذيل تاريخ بغداد » (١٦/ ٢١٢ـ ٢١٨) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢١/ ٥٠٢ـ ٥٠٥) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/ ٣٢٤ـ ٣٢٥)

(٢) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٥٣ـ ٥٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٤٨١ـ ٤٨٣) ، و« المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » (٢١/ ١٦) .

(٣) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٧٦ـ ٧٨) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٤٨٥ـ ٤٨٧) ، و« المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » (٢١/ ١٧٤ـ ١٧٥) .

(٤) انظر « طبقات الشافعية الكبرى » (٧/ ٣٢٢) .

أبي نصر الزَّيْنبيِّ ، وهو أكبرُ شيخٍ روىٰ عنه إمامنا السُّهْرُوَرْدي[1]

ـ الإمامُ المسند : أبو القاسم يحيى بن ثابت بن بُنْدار الدِّينَوَريُّ البغدادي البقَّال (ت٥٦٦هـ)[2]

ـ الإمام الفقيه الواعظ الصُّوفي : أبو الحجَّاج وأبو الفتح يوسف بن محمَّد بن مقلد الدمشقيُّ التَّنُوخي الشافعي (ت٥٥٨هـ) المشهور بـ (ابن الجماهري) ، وبـ (ابن بنت الدَّوَانِيقي)[3]

ـ ومن شيوخه أيضاً الوليُّ الكبير أبو محمَّد بن عبد البَصْريُّ ، وقد أوردتُ قبلَ قليل قصَّةً لطيفة جرت لإمامنا المُترجَم معه[4]

ـ وممَّن روىٰ عنهم من النساء : المُحدِّثةُ بِشارةُ بنتُ أبي السعادات مسعودِ بن موهوب ، وكان سماعُ السُّهْرُوَرْديِّ منها سنة (٥٥٦هـ)[5]

ثناء العلماء عليه

أجمع جميعُ مَنْ تَرْجَمَ لإمامنا السُّهْرُوَرْديِّ علىٰ أنَّهُ من كبار العارفين ، وقُدوةُ الزاهدين ، وبقيَّةُ السلف الصالحين ، وبُغيةُ المريدين السالكين ، وأنَّهُ بَلَغَ في الولاية والتربية مبلغاً كبيراً لم يَصِلْ إليه أحدٌ غيرُهُ في زمانه ، وسأكتفي بهٰذه العُجالة بذكرِ نزرٍ يسيرٍ جامع من كلامهم في مدحه والثناء عليه .

---

(١) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٥٠ـ ٥٣) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٣٩٣ـ ٣٩٤) .

(٢) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٦١ـ ٦٢) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٥٠٥ـ ٥٠٦) .

(٣) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٦٨ـ ٧٠) ، و« تاريخ دمشق » (٧٤/ ٢٥٥) .

(٤) انظر (١/ ٢٣ـ ٢٤) .

(٥) انظر « مشيخة السهروردي » (ص٧٤ـ ٧٦) ، و« إكمال الإكمال » (٣/ ٢٦٨) .

فقال فيه تلميذُهُ الإمام الحافظ المُؤرِّخ ابنُ النجّار : (كان شيخَ وقتِهِ في علم الحقيقة وطريق التصوُّف ، وإليه انتهتِ الرِّئاسةُ في تربية المريدين ودعاءِ الخَلْق إلى الله عزَّ وجلَّ ، وسلوكِ طريقِ العبادة والزهدِ في الدنيا)[1]

وقال تلميذُهُ الإمام الحافظ المُؤرِّخ ابنُ نقطة : (شيخ العراق في وقته ، يرجعُ إلىٰ فضلٍ وإيثار ومُرُوءةٍ تامَّة ، وأورادٍ دائمة علىٰ كِبَرِ سِنِّهِ ، ووَعَظَ الناسَ مُدَّةً ببغدادَ وغيرِها ، فما أُخِذَ عليه شيءٌ ممَّا يُكرَهُ مِنْ قولٍ ولا حركة)[2]

وقال تلميذُهُ الإمام الحافظ الفقيه المُحقِّق زَكِيُّ الدين المُنذريُّ : (كان شيخَ وقته في الطريقة وتربيةِ المريدين ، ودعاءِ الخلقِ إلى الله تبارك وتعالىٰ ، وكان مع عُلُوِّ سِنِّهِ كثيرَ العبادة. . . وكان له المحلُّ الرفيعُ عندَ الخاصِّ والعامِّ)[3]

وقال الإمامُ قاضي القضاة المُؤرِّخ الأديب شمسُ الدينِ ابن خَلِّكان : (كان شيخاً صالحاً وَرِعاً كثيرَ الاجتهاد في العبادة والرياضة ، وتخرَّج عليه خَلْقٌ كثير من الصُّوفيَّة في المجاهدة والخَلْوة ، ولم يكن في آخر عُمُرِهِ في عصره مِثْلُهُ. . . وكان شيخَ الشيوخِ ببغداد ، وكان له مجلسُ وعظ ، وعلىٰ وعظه قَبولٌ كثير ، وله نَفَسٌ مبارك)[4]

---

(١) ذيل تاريخ بغداد (٢٠/ ١١١) .

(٢) إكمال الإكمال (٣/ ٥٥٦)

(٣) التكملة لوفيات النقلة (٣/ ٣٨٠ـ ٣٨١)

(٤) وفيات الأعيان (٣/ ٤٤٦) .

وقال الإمامُ الحافظ المُؤرِّخ شمسُ الدين الذَّهَبي : (الشيخُ الإمام العالم ، القُدوةُ الزاهد العارف ، المُحدِّثُ شيخُ الإسلام ، أوحدُ الصُّوفيَّة)[1].

وقال الإمامُ الفقيه القاضي الأصوليُّ المُحقِّق تاج الدين السُّبْكي (كان فقيهاً فاضلاً ، صوفيّاً إماماً وَرِعاً زاهداً عارفاً ، شيخَ وقتِهِ في علم الحقيقة ، وإليه المُنتهىٰ في تربية المريدين ، ودعاءِ الخَلْق إلى الخالق ، وتسليكِ طريقِ العبادة والخَلْوة)[2]

وقال الإمامُ الفقيه المُؤرِّخ الصُّوفيُّ المُحقِّق الأديب الشاعر عفيفُ الدين اليافعي : (أستاذُ زمانه ، وفريدُ أوانه ، مَطلَعُ الأنوار ، ومَنبَعُ الأسرار ، دليل الطريقة ، وتَرْجُمانُ الحقيقة ، أستاذُ الشيوخ الأكابر ، الجامعُ بين علمَيِ الباطنِ والظاهر ، قُدوةُ العارفين ، وعُمدة السالكين ، العالمُ الربَّاني)[3]

تلامذته

سَلَكَ على الإمام السُّهْرُوَرْديِّ جملةٌ وافرة من المريدين ، وغَرَفَ من بحر عوارفه ثُلَّةٌ من السالكين ، وتَسَرْبَلَ بخِرْقته الشريفة ثُبَةٌ من الصادقين ، وقد ذُكر في خاتمة النسخة (ب) و(هـ) أسماءُ كثيرٍ من المريدين الذين سمعوا منه كتابَنا هـٰذا « عوارف المعارف » ، وبعضٌ من الذين لَبِسُوا منه خِرْقة التصوُّف[4]

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٧٣ـ ٣٧٤) .

(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٣٤٠) .

(٣) مرآة الجنان (٤/ ٧٩) .

(٤) انظر (٢/ ٦٠٢ـ٦١٣) .

ومِنْ أشهر هـٰؤلاء التلاميذ وأبرزِهِم :

ـ الإمامُ الفقيه المُحدِّث المُقرِئُ الزاهد العابد عزُّ الدين أبو العبَّاس أحمدُ بن إبراهيم بن عمر الواسطيُّ الفارُوثي الخطيب الشافعي (ت٦٩٤هـ)، كان له قَبولٌ تامٌّ من الخواصِّ والعوام ، ومحبَّةٌ في القلوب ووقعٌ في النفوس ، وكان حُلْوَ المجالسة طيِّبَ الأخلاق ، وأجازه السُّهْرُوَرْديُّ ، وألبسه الخِرْقة[١]

ـ الإمامُ المسند الرحَّال الصُّوفي شهابُ الدين أبو المعالي أحمدُ بن إسحاق بن محمَّد الهَمَذانيُّ المِصْري الأَبَرْقُوهي (ت٧٠١هـ) ، كان خيِّراً متواضعاً ، حَسَنَ القراءة للحديث الشريف ، قارئاً مُرتِّلاً لكتاب الله تعالىٰ ، ومات بمكَّة بسبب بِشارة وعِدَة نبويَّة بذلك[٢] ، وكان يُعرف بين الصُّوفيَّة بالسُّهْرُوَرْدي ؛ لأنَّهُ كان يَلبَسُ عنه الخِرْقة[٣]

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/ ٦ـ٨) ، و(٢/ ٦٠٨)

(٢) ولا بأس بذكر هـٰذه البشارة إفادةً للقارئ ؛ روى الذهبي في « معجم الشيوخ » (١/ ٧٤) عن شيخه تاج الدين أبي العباس المارديني قال : (ذهبنا إلىٰ شهاب الدين الأَبَرْقُوهِيِّ لنَلبَسَ منه الخِرْقةَ عن السُّهْرُوَرْدِيِّ ، فوَجَدْناهُ في مرضٍ شديد ، فقُمْنا وذهبنا ، فنفَّذ مَنْ ردَّنا ، وقال ما تطلبونه تنالونه إن شاء الله ، وأنا فما أموتُ في مرضي هـٰذا ، فأنكر باطني هـٰذا منه ، فاستدرك وقال : لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَعَدَني أنَّني أموت بمكَّةَ ، فلمَّا كان بعدَ مُدَّةٍ جاء إلىٰ مدرستنا اتِّفاقاً ، فرحَّب به الوالد ، فقال : لا تتكلَّفوا ، قلنا : قد هيَّأنا طعاماً لنا ، ثم بعث أبي رجلاً يشتري طاقيَّاتٍ ، فقال : إلىٰ أين يذهبُ هـٰذا ؟ قلنا : يا سيِّدي ؛ يُحضِرُ طاقيَّاتٍ لتُلبِسَنا ، فقال : اللَّهمَّ ؛ اجْعَلْنا ممَّنْ يُلبِسُ لنبيِّك صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، فألْبَسَنا الخِرْقة ، وسمعنا منه شيئاً ، وسار من يومه إلى الحج ، فحَضَرَهُ أجلُهُ بمكَّةَ) .

(٣) انظر « معجم الشيوخ » للذهبي (١/ ٣٧ـ ٣٨ ، ٧٤) ، و« الدرر الكامنة » (١/ ١١٦ـ ١١٧)

ـ الإمامُ الأصولي الصُّوفي النَّحْوي الشاعر تاجُ الدين أبو العبَّاس أحمدُ بن محمَّد بن العبَّاس البَكْريُّ الشَّرِيشي المالكي (ت٦٤١هـ) ، دخل بغدادَ فلَقِيَ الإمامَ السُّهْرُوَرْديَّ وأخذ عنه ، وله رائيَّةٌ نفيسة أَوْدَعَ فيها زُبدةَ كتاب شيخه « عوارف المعارف » ، ونظراً لقيمتها الأدبيّة والسُّلُوكيّة فقد أوردتُها تامَّةً قبل الشروع في كتابنا هـٰذا ، وعرَّفت بها وبمُؤلِّفها تعريفاً مُوجَزاً(١)

ـ الإمامُ الفقيه الصُّوفي الأديب نجمُ الدين أبو البقاء ثابتُ بن تاوان بن أحمد التَّفْلِيسيُّ (ت٦٣١هـ) ، كان صوفيّاً جليلاً مُعظَّماً نبيلاً ، وكان من كبار تلاميذ السُّهْرُوَرْدي ، وأَذِنَ له أن يُصلِحَ ما رأىٰ في تصانيفه من الخلل ، وسمع ثابتٌ عليه مُصنَّفَهُ « عوارف المعارف » ، وقال السُّهْرُوَرْديُّ في تقييد هـٰذا السماع (قَرَأَ عليَّ هـٰذا الكتابَ : الولدُ الصالح العالم الزاهد العارف ، نجمُ المِلَّة والدِّين ثابتُ بنُ تاوانَ ، قراءةَ مَنْ تفهَّم ما فيهِ من المعاني والإشارات والغرائب التي يختصُّ بمعرفتها مَنْ سَلَكَ طريقَ مشايخ الصُّوفيّة ، واللهُ تعالىٰ يَزيدُهُ تأييداً وتوفيقاً)(٢)

ـ الإمامُ الحافظ الكبير الفقيهُ المُحقِّق المُؤرِّخ شيخُ الإسلام : زَكِيُّ الدين أبو محمَّد عبدُ العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المُنذريُّ الشامي المِصْري الشافعي (ت٦٥٦هـ) ، كان عديمَ النظير في علم الحديث على اختلاف فُنُونِهِ ، ثَبْتاً حُجَّة ، وَرِعاً مُتحرِّياً ، كَتَبَ إليه الإمام السُّهْرُوَرْديُّ

---

(١) انظر « تاريخ الإسلام » (٤٦/ ٤٢٧ـ٤٢٨) ، و(١/ ١١٩ـ١٤٨) .

(٢) انظر « تاريخ الإسلام » (٤٦/ ٥٧ـ٥٨) ، و(٢/ ٥٩٦) .

بالإجازة غيرَ مرَّة ، منها في سنة (٦١٨هـ)[١]

ـ الإمام الحافظ المؤرِّخ الطبيب : كمالُ الدين أبو حفص عمرُ بن الخضر بن اللَّمْش التُّرْكيُّ الدُّنَيْسَري الشافعي (ت٦٤٠هـ) ، قال في « تاريخه » (حضرتُ له مجالسَ كثيرةً وشاهدت ذلك ، وكلامُهُ على الناس بغير سَجْع ، وهو مُطَّرِحُ التكلُّف في لُبْسِهِ)[٢]

ـ الإمامُ المُحدِّث الصُّوفي المُعمَّر : ضياءُ الدين أبو الهدىٰ عيسى بنُ يحيى بن أحمد الأنصاريُّ السَّبْتي الشافعي (ت٦٩٦هـ) ، لَبِسَ خِرْقةَ التصوُّف من إمامنا المُترجَم بمكَّةَ سنة (٦٢٧هـ) ، ولَبِسَها منه بالقاهرة تلميذُهُ الإمام الذَّهَبي[٣]

ـ الإمامُ الفقيه المُحدِّث الأديب الصُّوفي : قُطْبُ الدين أبو بكر محمَّدُ بن الولي الكبير أبي العبَّاس أحمدَ القَسْطلَّانيُّ التَّوْزَري المكِّي الشافعي (ت٦٨٦هـ) ، كان ممَّن جَمَعَ العلمَ والعمل والهيبة والورع والكرم ، روىٰ عن الإمام السُّهْرُوَرْديِّ « عوارف المعارف » ، وأَلْبسه السُّهْرُوَرْديُّ طاقيةً أرسلها له من بغداد ، ثمَّ أَلْبسه إيَّاها مِنْ يده المباركةِ بالحرم الشريف تُجاهَ الكعبة المُكرَّمة عندما وَرَدَها حاجّاً[٤]

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢٣/٣١٩ـ ٣٢٤) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/٢٥٩ـ٢٦١) .

(٢) تاريخ دُنَيْسَر (ص١٤٣) ، وانظر « تاريخ الإسلام » (٤٦/ ٤٦٤ـ ٤٦٥) .

(٣) انظر « معجم الشيوخ » (٢/ ٨٧ ـ ٨٨) ، و« تاريخ الإسلام » (٤٦/ ١١٥) .

(٤) انظر « تاريخ الإسلام » (٥١/ ٢٧٧ـ ٢٧٩) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/ ٤٣ـ ٤٤) ، و(٢/ ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٢) .

ـ الإمامُ الحافظ المُؤرِّخ أبو عبد الله محمَّدُ بن سعيد بن يحيىٰ الدُّبَيْثيُّ الواسطي الشافعي (ت٦٣٧هـ) ، كان واحداً من الحُفَّاظ المُكثِرين مِنْ حفظ التواريخ والسِّيَر وأيَّام الناس[(١)]

ـ الإمامُ الحافظ المُؤرِّخ المُتقن الرحَّال : مُعِينُ الدين أبو بكر محمَّدُ بن عبد الغنيِّ بن أبي بكر البغداديُّ الحنبلي (ت٦٢٩هـ) الشهير بـ (ابن نقطة) ، كان من كبار أئمَّة الحديث في زمانه ، ورحل في طلبه وتحصيله إلىٰ أماكنَ كثيرةٍ[(٢)]

ـ الإمامُ الحافظ المُؤرِّخ الرحَّال مُحِبُّ الدين أبو عبد الله محمَّدُ بن محمود بن الحسن ابنُ النجَّار البغداديُّ الشافعي (ت٦٤٣هـ) ، كان مُتبحِّراً في علم الحديث واسعَ الحفظ فيه ، وكان إماماً ثقة حُجَّة ، مُتواضِعاً صالحاً مُتنسِّكاً ، وقال مُؤرِّخاً أَخْذَهُ عن إمامنا السُّهْرُوَرْديِّ : (كتبتُ عنه ، وقرأت عليه كثيراً ، وصَحِبتُهُ مُدَّةً ، وكان صدوقاً نبيلاً)[(٣)]

شذرة من شعره

ذكر الأستاذ الزِّرِكْلي أنَّ مِنْ مقتنياته شعراً حسناً للإمام السُّهْرُوَرْديِّ في كُنَّاش ، ولم يتيسَّر لي الوصولُ إليه ، وقد عثرتُ له علىٰ بعض الأشعار

---

(١) انظر « تاريخ إربل » (١/ ١٩٤ـ ١٩٥) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/ ٦١ـ ٦٢).

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢٢/ ٣٤٧ـ ٣٤٩)

(٣) انظر « ذيل تاريخ بغداد » (٢٠/ ١١٢) ، و« تاريخ الإسلام » (٤٧/ ٢١٧ـ ٢٢٠) ، و« طبقات الشافعية » للإسنوي (٢/ ٢٨٢) .

منثورةً ومُتفرِّقةً في مصادرِ ومراجع ترجمته .

فممَّا قاله رضي الله عنه[1] (من البسيط)

رَبْعُ الحِمىٰ مُذْ حَلَلْتُم مُعشِبٌ نَضِرُ ... تروقُ أكنافُهُ يَزْهُو بها النَّظَرُ
لا كانَ وادي الغَضَا لا ينزلونَ بهِ ... ولا الحِمىٰ سَحَّ في أرجائِهِ مَطَرُ
ولا الرِّياحُ وإنْ رَقَّتْ نسائمُها ... إنْ لم تُفِدْ نشرَكُم لا ضمَّها سَحَرُ
ولا خَلَتْ مُهْجَتي تشكو رَسِيسَ جَوىً ... وحَرُّ قلبي برَيَّا حُبِّكُم عَطِرُ
ولا رَقَتْ عَبْرَتي حتَّىٰ تكونَ لمَنْ ... ذاقَ الهوىٰ وَصِباً في عَبْرتي عِبَرُ

ومِنْ بديعِ ما ترجمه لسانُهُ عن قلبه وحاله[2] : (من مخلع البسيط)

تصرَّمتْ وَحْشةُ اللَّيالي ... وأقبلتْ دَوْلةُ الوِصالِ
وصار بالوصلِ لي حَسُوداً ... مَنْ كانَ في هَجْرِكُم رثىٰ لي
وحقِّكُم بعدَ أنْ حَصَلْتُم ... بكُلِّ ما فاتَ لا أُبالي
أَحْيَيْتُمُوني وكنتُ مَيْتاً ... وبِعتُمُوني بغيرِ غالي
تقاصرتْ عنكُمُ قلوبٌ ... فيا لهُ مَوْرِداً حَلَا لي
عليَّ ما للوَرَىٰ حرامٌ ... وحُبُّكُم في الحَشَا حَلَالي
تشرَّبتْ أعظمي هَوَاكُم ... فما لغيرِ الهوىٰ وما لي
فما علىٰ عادمٍ أُجَاجاً ... وعندَهُ أَعيُنُ الزُّلالِ

---

(١) انظر « المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » (٢١/١٥٧) ، و« المقفى الكبير » (٤/٣٨٠) .

(٢) انظر « وفيات الأعيان » (٣/٤٤٧) ، و« تاريخ إربل » (١/١٩٤) .

وقيل كان الشيخ جمال الدين الخُوزيُّ مُغرىً ـ أي : مُولعاً ـ بالسماع ، فلمَّا وَقَفَ علىٰ (باب السماع) من كتاب « العوارف ».. كتب إلى الإمام السُّهْرُوَرْديِّ هٰذه الأبياتَ : (من الكامل)

يا مَنْ حَبَاهُ اللهُ صَفْوَ وِدادِهِ ... وأنالَهُ مِنْ قُرْبِهِ مأمولَهُ
ماذا النَّكيرُ على السَّماعِ لعاشقٍ ... جَعَلَ السَّماعَ إلى الحبيبِ رسولَهُ
ولقد عَلِمْتَ بأنَّ هٰذا مَوقِفٌ ... يشكو المُحِبُّ إلى الحبيبِ عَلِيلَهُ

فأجابه الإمام السُّهْرُوَرْديُّ بقوله

إنِّي لأَعلَمُ ما تقولُ وأَرتجِي ... لكَ قُرْبَ مَنْ تختارُهُ ووصولَهُ
وأرى السَّماعَ مُحلَّلاً لكَ دائماً ... لٰكنْ لغيرِكَ لا أرىٰ تحليلَهُ
يا حبَّذا قُرْبُ الحبيبِ ووَصْلُهُ ... لمُتيَّمٍ أضحىٰ لديهِ قتيلَهُ[1]

وممَّا قاله مُستدِلّاً علىٰ وجود المولىٰ وتوحيده[2] : (من المتقارب)

أَلَا أيُّها العابدُ الجاحدُ ... عَصَيتَ إلٰهكَ يا راقدُ
عَمِيتَ فجاهدتَ في حقِّهِ ... لكَ الويلُ يا للهوىٰ عابدُ
براهينُنا واضحٌ بيِّنٌ ... دلائلُنا حاضرٌ شاهدُ
دليلُ صنائعِهِ كلِّها ... علىٰ أنَّهُ واحدٌ ماجدُ

---

(١) وُجدت هٰذه القصة علىٰ هامش من هوامش النسخة (ح) نقلاً عن « حاشية زين الدين الخَوَافي » ، وانظر (١/٥٠٨) .
(٢) رسالة الفقر في مخالفة النفس والقهر (ص١٢١)

مؤلفاته

وَصَفَ الإمامُ اليافعيُّ تصانيفَ السُّهْرُوردي فقال : (له التصانيفُ الحَسَنةُ الجامعةُ من بلاغة الملاحة وبراعة الفصاحة وحلاوة العبارة ، المُشتمِلةُ علىٰ دُرَر المعارف ويواقيتِ الحِكَم وطَلاوة الإشارة ، المُحتوِيةُ علىٰ حياة القلوب وشفائها من السقم)[1]

فمِنْ مُؤلَّفاته[2] :

ـ أجوبة علىٰ أسئلة بعض أئمَّة خراسان ، وهي عبارة عن ثمانيةَ عشرَ سؤالاً في التصوُّف والتزكية والسلوك ، وقد وقفتُ عليها ، وأوردت بعضاً منها في كتابنا هـٰذا ، ومضمونُ أغلبِ هـٰذه الأجوبةِ موجودٌ فيه مُفصَّلاً مُطوَّلاً

ـ أدلة العِيان والبرهان .

ـ إرشاد المريدين وإنجاد الطالبين ، وهو مجموعٌ مختصر في بيان مذهب أصحاب السلوك ، وشرح بعض مصطلحاتهم المتداولة في كتب التصوُّف ؛ كـ (القبض والبسط ، والهيبة والأُنْس ، والتواجد والوجد والوجود) ، وغيرها .

ـ أعلام الهدىٰ وعقيدة أرباب التقىٰ ، وهي عقيدةٌ نفيسة مختصرة قال

---

(١) مرآة الجنان (٤/ ٧٩) .

(٢) انظر « معجم تاريخ التراث الإسلامي » (٣/ ٢٢٩٥ـ ٢٢٩٧) ، بالإضافة إلىٰ مصادر ترجمته السابقة .

عنها الإمامُ اليافعيُّ : (وعقيدتُهُ معروفةٌ مشهورة ، موصوفة مشكورة ، رَوَيْتُها عن غير واحدٍ من شيوخنا بسندهم العالي الذي بينهم وبين مُصنِّفه ، وأخذ في تصنيفها بمكَّةَ المُشرَّفة ، وكان إذا أشكل عليه شيءٌ منها يرجع فيه إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، ويستخيرُهُ حولَ بيته ، ويتضرَّعُ إليه في التوفيق ، لإصابة الحقِّ والتحقيق)[1] ، وعدَّها في « روض الرياحين » من مِلَاح عقائد الأولياء العارفين[2] ، وقد أوردتُ جزءاً منها في بداية الكتاب

- جذب القلوب إلىٰ مواصلة المحبوب .

- رسالة إلى الإمام فخر الدين الرازي .

- رسالة السَّيْر والطَّيْر ، وهي رسالة في التصوُّف .

- رسالة الفتوح ، وهي رسالة في التصوُّف أيضاً

- رسالة الفقر في مخالفة النفس والقهر ، وهي رسالةٌ مختصرة نفيسة في نصح الفقير الصُّوفي ، ومعرفةِ النَّفْس وعاداتها ، وتفضيلِ الفقر علىٰ ما سواه ، وغير ذلك .

- رسالة في خواصِّ أسماء الله الحسنىٰ .

- رسالة في فضل الدعاء أولَ السنة ويومَ عاشوراء .

- رشف النصائح الإيمانيّة وكشف الفضائح اليونانيّة ، وقد ألَّفه في أُخريات حياته

---

(١) مرآة الجنان (٤/ ٧٩ـ٧٨) .

(٢) روض الرياحين (ص٥٨١) .

ـ زاد المسافر وأدب الحاضر

ـ شرح كلمات لأبي محمَّد الجُريري ، وهي كلمات قالها في آداب الحضرة الإلـٰهيَّة .

ـ عوارف المعارف ، وهو من أنفس وأشهرِ كتبه على الإطلاق ، وقد اشتمل علىٰ مكنونات المعارف ، ومَصُونات المحاسن واللطائف ، وهو كتابنا هـٰذا ، وسيأتي الحديث عنه مختصراً إن شاء الله تعالىٰ[1]

أ ـ وقام بشرحه والتعليق عليه جملةٌ من العلماء ؛ ومنهم[2] :

ـ الإمامُ الولي الصُّوفي فريدُ الدين مسعودُ بن سليمان بن شعيب الأجودهنيُّ (ت٦٦٤هـ) ، علَّق عليه تعليقاتٍ نفيسةً .

ـ والإمام الصُّوفيُّ صدرُ الدين جُنيدُ بن فضل الله بن عبد الرحمن الشِّيرازيُّ (ت٧٩١هـ) ، وهو شرح مختلط بالفارسيَّة والعربيَّة ، وقد وقفت عليه ونقلت منه بعض التعليقات المفيدة .

ـ والإمام الصوفي المُربِّي زين الدين أبو بكر محمَّد بن محمَّد بن علي الخَوَافيُّ (ت٨٣٨هـ) ، وهي حاشيةٌ نفيسة قيِّمة ، وقد نقلت منها النسخة (ح) كثيراً من التعليقات ، وانتقَيت بعضاً منها وأثبتُّها في مكانها

ـ والإمامُ الولي الصُّوفي عبد القُدُّوس بن إسماعيل الكنكوهيُّ

---

(١) انظر (١/٤٨ـ٦٥) .

(٢) انظر « جامع الشروح والحواشي » (٢/ ١٢٤٠ـ ١٢٤١) ، و« نزهة الخواطر » (١٢٨/١)

(ت٩٤٤هـ) ، وسمَّىٰ شرحه بـ : « ذوارف اللطائف شرح عوارف المعارف » ، وقد وقفت عليه ونقلت منه بعض التعليقات المُهِمَّة

ب ـ وقام باختصاره

ـ الإمام الفقيه أبو العبَّاس مُحِبُّ الدين أحمدُ بن عبد الله بن محمد الطَّبَريُّ (ت٦٩٤هـ) ، وسمَّاه بـ : « غرر اللطائف مختصر عوارف المعارف »

ـ والإمامُ الولي الشريفُ محمَّدُ بن زين بن سُمَيط باعلوي الحسينيُّ (ت١١٧٢هـ) ، وسمَّاه بـ : « الدرر واللطائف في اختصار عوارف المعارف »

ج ـ وخرَّج أحاديثه :

ـ الإمامُ الفقيه المحدِّث زينُ الدين أبو العدل القاسم بن قُطْلُوبُغا السودونيُّ الجمالي (ت٨٧٩هـ) .

ـ والعلَّامة المُحدِّث أحمدُ ابن الصِّدِّيق الغُمَاريُّ المغربي (ت١٣٨٠هـ) ، وله عليه تخريجان ؛ مُطوَّلٌ سمَّاه بـ : « عواطف اللطائف من أحاديث عوارف المعارف » ، ومُختصَرٌ سمَّاه بـ : « غنية العارف بتخريج أحاديث عوارف المعارف »

د ـ ونَظَمَ زُبْدَتَهُ وحوىٰ عُصارتَهُ :

ـ الإمامُ الأصوليُّ الصُّوفي النَّحْوي الشاعر تاج الدين أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد البَكْريُّ الشَّرِيشي (ت٦٤١هـ) ، وسمَّىٰ نَظْمَهُ بـ : « أنوار السرائر وسرائر الأنوار » ، وهو نظم بديع علىٰ بحر الطويل ، وقد أثبتُّهُ كاملاً في إصدارنا هـٰذا ، ولله الحمد علىٰ ذلك

هـ - وتُرجم إلى الفارسيّة والتركيّة والإنكليزيّة وغيرها

- مشيخة السُّهْرُوَرْدي ، وهي برواية تلميذَيه ؛ الإمامِ عماد الدين أبي الفضل محمَّد بن محمَّد الشِّيرازي ، والإمامِ شهاب الدين أبي المعالي أحمد بن إسحاق الأَبَرْقُوهي ، وتخريجِ الإمام الحسن بن محمَّد ابن جَرَوَيْه الشَّيْباني المَوصِلي

- مغاني العاني[1] ، في التصوُّف وآداب القوم وأحوالهم ، وقد حدَّث به مراراً

- نخبة البيان في تفسير القرآن .

- وصيّة ، وهي لتلميذه نجم الدين ثابت بن تاوان التَّفْلِيسي .

- وصيّة ، وهي لولده وتلميذه عماد الدين السُّهْرُوَرْدي ، وهي مختصرةٌ نفيسة نافعة ؛ ونظراً لقيمتها ونفاستها ونفعها أوردتُها تامَّةً في بداية الكتاب ، والحمد لله علىٰ ذلك .

وفاتـه

ارتقتْ روحُ إمامِنا السُّهْرُوَرْديِّ الزكيّة ، وانتقلت إلىٰ ربِّها راضية مَرْضيّة ، وكان ذلك في بغدادَ في أوائل سنة (٦٣٢هـ) ، ودُفن قريباً مِنْ سُور الرُّصَافة من الجانب الشرقي من بغدادَ في وسط المقبرة المعروفة بالوَرْديّة ، وقد بُني بجانب قبره جامعٌ حَمَلَ اسمَهُ بعد ذلك

(١) كذا في « المقفى الكبير » (٤/٣٧٩) ، ويحتمل : أنه (المعاني) بدل (العاني) ، والله تعالىٰ أعلم .

وبذلك طُوِيتْ صحيفتهُ المضيئة المشرقة ، بعدَ حياةٍ حافلة قضاها في سلوك طريق العارفين ، وتربية المريدين ، وإرشاد السالكين ، ومات ولم يُخلِّفْ كفناً ، ولا شيئاً من متاع الدنيا الزائف ، مع كثرة الأموال التي كانت تأتيه وتُبذل له .

رحمه الله رحمة الأبرار، وأسكنه جنات تجري من تحتها الأنهار

* * *

كلمة موجزة

عن التصوف ، وكتاب « عوارف المعارف »

إنَّ التصوُّفَ ركنٌ مَتِين من أركان الإسلام ، وأساسٌ عظيم للنَّجاة يوم الزِّحام ، وحصنٌ حصين في وجوه الأراذل والطَّغَام ، وقلعةٌ منيعة يُلجأ إليها في ليالي الفِتَن والظلام ، وسبيلٌ مُمهَّد لمن أراد أن يصلَ إلىٰ حضرة الملك العلَّام ، ومَسْبَأٌ مُذلَّلٌ لمَنِ ابتغىٰ أن يَرقىٰ إلىٰ أعلىٰ مَقام .

تعريفُ التصوُّف ، والمعنى الجامعُ في تحديده

وقد اختُلف في تحديده وبيانِ ماهيَّته ؛ فمِنْ قائلٍ (إنَّهُ التمسُّكُ بالفقر والافتقار ، والتحقُّقُ بالبذل والإيثار ، وتركُ التعرُّضِ والاختيار)(١)

ومِنْ قائلٍ : (إنَّهُ الأخذُ بالحقائق ، واليأسُ ممَّا في أيدي الخلائق)(٢)

ومِنْ قائلٍ (إنَّهُ تصفيةُ القلب عن مُوافقة البَريَّة ، ومُفارقةُ الأخلاق الطبيعيَّة ، وإخمادُ الصفات البشريَّة ، ومُجانبةُ الدواعي النَّفْسانيَّة ، ومُنازلةُ الصفات الروحانيَّة ، والتعلُّقُ بالعلوم الحقيقيَّة ، واتِّباعُ الرسولِ في الشريعةِ الحَنيفيَّةِ)(٣)

---

(١) قائله رُوَيم رحمه الله تعالى . انظر (١/ ٢٤٦) .

(٢) قائله معروف الكرخي رحمه الله تعالى انظر (١/ ٢٤٦)

(٣) قائله الجنيد أو أبو عبد الله بن خَفيف رحمهما الله تعالى . انظر (١/ ٢٥٤)

ومِنْ قائلٍ (إنَّهُ لُبْسُ الصوفِ على الصَّفا ، وإذاقةُ الهوىٰ طعمَ الجَفَا ، ولزومُ طريق المُصطفىٰ ، وكونُ الدنيا على القَفَا)[١]

وقال بعضهم : (أصلُ التصوُّف : مُلازمةُ الكتاب والسُّنَّة ، وتركُ الأهواء والبِدَع ، وتعظيمُ حُرُمات المشايخ ، ورؤيةُ أعذارِ الخَلْق ، والمُداومةُ على الأوراد ، وتركُ ارتكاب الرُّخَص والتأويلات)[٢]

وقد ذكر إمامُنا السُّهْرُوَرْديُّ أقوالاً عديدة في بيان ماهيَّته ، ثمَّ قال (وأقوالُ المشايخ في ماهيَّة التصوُّف تزيد علىٰ ألف قول ، ويطولُ نقلُها ، ونذكرُ ضابطاً يجمعُ جُمَلَ معانيها ؛ فإنَّ الألفاظَ وإن اختلفتْ متقاربةُ المعاني ؛ فنقولُ :

الصُّوفيُّ هو الذي يكونُ دائمَ التصفية ، لا يزالُ يُصفِّي الأوقاتَ عن شَوْبِ الأكدار ؛ بتصفية القلب عن شَوْبِ النَّفْس ، ويُعينُهُ علىٰ هـٰذه التصفية دوامُ افتقاره إلىٰ مَوْلاه ؛ فبدوام الافتقارِ يتفطَّنُ للكَدَر ، وكلَّما تحرَّكتِ النفسُ وظهرتْ بصفةٍ من صفاتها . . أدركها ببصيرتِهِ النافذةِ ، وفرَّ منها إلىٰ ربِّهِ ، فبدوام تصفيتِهِ جَمْعِيَّتُهُ ، وبحركة نَفْسِهِ تفرقتُهُ وكَدَرُهُ ، فهو قائمٌ بربِّهِ علىٰ قَلْبه ، وقائمٌ بقَلْبه علىٰ نَفْسه ؛ قال الله تعالىٰ ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [المائدة : ٨] ، وهـٰذه القَوَّاميَّةُ لله على النَّفْس هو التحقُّقُ بحقيقة التصوُّف)[٣]

---

(١) قائله أبو علي الرُّوذْباري رحمه الله تعالى انظر « التعرف لمذهب أهل التصوف » (ص١٨)

(٢) قائله أبو القاسم النصراباذي رحمه الله تعالى . انظر « الرسالة القشيرية » (ص٢٢٦)

(٣) انظر (١/ ٢٥٥ـ٢٥٦) .

نعوتُ الصوفيّة في كلام بعض الأئمَّة المُحقِّقين

فالصوفيّةُ هم الساداتُ البَرَرة ، المُصطفَون الخِيَرة ، الجامعون بين الشريعة والحقيقة ، المُؤيَّدون بعوارف المعارف الدَّقيقة ، الذين تُرتجى الرحمةُ بذكرهم ، ويُستنزَلُ الغيثُ بدعائهم .

ولله دَرُّ الإمامِ القُشَيريِّ عندما قال : (جَعَلَ اللهُ هٰذه الطائفةَ صَفْوةَ أوليائِه ، وفضَّلَهُم على الكافَّة من عباده بعدَ رُسُلِهِ وأنبيائه ، صلواتُ الله عليهم ، وجعل قلوبَهُم معادنَ أسراره ، واختصَّهُم من بين الأُمَّة بطوالع أنواره ، فهم الغِياثُ للخَلْق ، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحقِّ بالحقِّ ، صفَّاهُم مِنْ كُدُورات البشريَّة ، ورقَّاهُم إلىٰ مَحَالِّ المُشاهدات بما تجلَّىٰ لهم من حقائق الأَحَدِيَّة ، ووفَّقَهُم للقيام بآداب العُبُوديَّة ، وأشهدهم مَجارِيَ أحكام الرُّبُوبيَّة ، فقاموا بأداءِ ما عليهم مِنْ واجبات التكليف ، وتحقَّقُوا بما منه سبحانه لهم مِنْ التقليب والتصريف)[١]

وقد أبدعَ إمامُنا السُّهْرُوَرْديُّ في الكشف عن بعض أوصافهم ؛ فقال : (ألبسَ قلوبَ الصَّفْوة من عباده ملابسَ العِرْفان ، وخصَّهُم من بين عباده بخصائص الإحسانِ ، فصارتْ ضمائرُهُم من مواهب الأُنْس مَمْلُوَّةً ، ومرايا قلوبِهِم بنور القُدْس مَجْلُوَّةً ، فتهيَّأَتْ لقَبول الأمداد القُدْسيَّة ، واستعدَّتْ لوُرُود الأنوار العُلْويَّة ، واتَّخذتْ من الأنفاس العَطِرة بالأذكار جُلَّاساً ، وأقامتْ على الظاهر والباطن من التقوىٰ حُرَّاساً ، وأشعلتْ في ظُلَم البشريَّة

(١) الرسالة القشيرية (ص٨٠) .

من اليقين نِبْراساً ، واستحقرتْ فوائدَ الدنيا ولذَّاتِها ، وأنكرتْ مَصَايدَ الهوىٰ وتبعاتِها ، وامتطتْ غواربَ الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت ، واستفرشتْ بعُلُوِّ همَّتِها بساطَ الملكوت ، وامتدَّتْ إلى المعالي أعناقُها ، وطَمَحَتْ إلى اللامع العُلْويِّ أحداقُها ، واتَّخذتْ من الملأ الأعلىٰ مُسامِراً ومُحاوِراً ، ومن النور الأعزِّ الأقصىٰ مُزاوِراً ومُجاوِراً . . . لا يزالُ في كلِّ عصرٍ وزمان منهم علماءُ قائمونَ بالحقِّ ، داعون للخَلْق ، مُنحوا بحُسْن المتابعة رتبةَ الدعوة ، وجُعلوا للمتقين قُدوةً ، فلا يزالُ تظهرُ في الخَلْق آثارُهُم ، وتُزهِرُ في الآفاق أنوارُهُم ، مَنِ اقتدىٰ بهم اهتدىٰ ، ومَنْ أنكرهم ضلَّ واعتدىٰ)[1]

وقال الإمامُ الكَلَاباذيُّ فيهم : (جَعَلَ فيهم صَفْوةً وأخياراً ، ونُجَباء وأبراراً ، سبقتْ لهم من الله الحُسْنىٰ ، وألزمهم كلمةَ التقوىٰ ، وعَزَفَ بنفوسهم عن الدنيا ، صدقتْ مجاهداتُهُم فنالوا علومَ الدِّراسة ، وخَلَصَتْ عليها معاملاتُهُم فمُنحوا علومَ الوِراثة ، وصَفَتْ سرائرُهُم فأُكرموا بصِدْق الفِراسة)[2]

نشأةُ علم التصوُّف

والتصوُّف بثمراته وجوهرِه ولُبِّهِ قديمٌ نشأ مع الإسلام ؛ وهو عِلْمُ الحقيقةِ المشارُ إليه في حديث أمينِ الوحي جبريلَ عليه السلام ، عندما سأل سيِّدَ الأنام صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإحسان ، فأجابه بقوله : « أنْ تعبدَ اللهَ

(١) انظر (١/ ١٥٢ـ١٥٤) .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص٥ـ٦)

كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ »[1]

ولم يكن التصوُّف ـ كمدرسة وطُرُق يُدعىٰ إليها ـ معروفاً في العصر الأوّل ؛ لأنَّ أهلَهُ كانوا أهلَ تقوىٰ ووَرَعٍ ، وأربابَ مُجاهدةٍ وإقبالٍ على العبادة بطبيعتهم وقُرْب اتِّصالهم برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فكانوا يتسابقُون ويتبارَون في الاقتداء به في جميع ما صَدَرَ منه ، فلم يكن ثَمَّةَ ما يدعو إلىٰ تلقينهم علماً يُرشِدُهُم إلىٰ أمرٍ هم قائمون به فعلاً

فلمَّا تقادم العهدُ ، ودخل في حظيرة الإسلام أممٌ شتَّىٰ وأجناسٌ عديدة ، واتَّسعتْ دائرةُ العلوم ، وتقسَّمت وتوزَّعت بين أرباب الاختصاص . . قام كلُّ فريقٍ بتدوين الفنِّ والعلم الذي يجيده أكثرَ من غيره ، وحَدَثَ بعد هٰذه الفترة أنْ أخذ التأثيرُ الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً ، وأخذ الناسُ يتناسَون ضرورةَ الإقبال على الله بالعبوديَّة والقلبِ والهمَّة ، ممَّا دعا أربابَ الرياضة والزهد إلىٰ تدوين علم التصوُّف والتأليف فيه[2]

قال الإمامُ المُؤرِّخ الكبير ابنُ خلدون في « مُقدِّمته » الشهيرة : (عِلْمُ التصوُّفِ من العلوم الشرعيَّة الحادثة في المِلَّة ، وأصلُهُ : أنَّ طريقةَ هٰؤلاء القوم لم تَزَلْ عند سلف الأمَّة وكبارِها من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدَهُم طريقةَ الحقِّ والهدايةِ ، وأصلُها : العُكُوف على العبادة ، والانقطاعُ إلى الله تعالىٰ ، والإعراضُ عن زُخْرُف الدنيا وزينتِها ، والزهدُ فيما يُقبِلُ عليه الجمهورُ من لذَّةٍ ومال وجاه ، والانفرادُ عن الخَلْق في الخَلْوة للعبادة ،

---

(١) رواه مسلم (٨) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) انظر « حقائق عن التصوف » (ص٢٢ـ ٢٣) .

وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف ، فلمَّا فشا الإقبالُ على الدنيا في القرن الثاني وما بعدَهُ ، وجَنَحَ الناسُ إلىٰ مخالطة الدنيا . . اختصَّ المُقبِلون على العبادة باسم « الصُّوفيّة » و« المُتصوِّفة »)[١]

نسبةُ عِلْمِ الحقيقة مِنْ عِلْمِ الشريعة

ونسبةُ علم التصوُّف والحقيقة إلىٰ علم الشريعة ـ كما قال الإمام السُّيُوطيُّ ـ كنسبة علم المعاني والبيان إلىٰ علم النحو ، فهو سرُّهُ ومبنيٌّ عليه ؛ فمَنْ أراد الخوضَ في علم الحقيقة مِنْ غير أنْ يعلمَ الشريعة . . فهو من الجاهلين ، ولا يحصلُ علىٰ شيء ، كما أنَّ مَنْ أراد الخوضَ في أسرار علم المعاني والبيان مِنْ غيرِ أنْ يُحكِمَ النحو . . فهو يَخبِطُ خَبْطَ عَشْواءَ ، وكيف يُدرِكُ أحوالَ الإسناد والمسند إليه والمسند ومُتعلِّقات الفعل مَنْ لم يعرفِ المبتدأَ من الخبر والفاعلَ من المفعول ؟! هٰذا بيِّنٌ لكل أحد ، والحقيقةُ سِرُّ الشريعة ولُبّنُها الخالص ، كما أنَّ المعانيَ والبيانَ سِرُّ النحو ولطائفُهُ[٢]

ويُقوِّي هٰذا الكلامَ ويُؤيِّدُهُ : ما قاله الإمام الحُجَّةُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ : (أمَّا الإسلامُ : فيتكلَّمُ الفقيهُ فيما يصحُّ منه وما يفسد ، وفي شروطه ، وليس يلتفتُ فيه إلا إلى اللِّسان ، وأمَّا القلبُ فخارجٌ عن ولاية الفقيه . . . وأمَّا الصلاةُ فالفقيهُ يُفتي بالصحَّة إذا أتىٰ بصورة الأعمال معَ ظاهرِ الشروط ، وإن كان غافلاً في جميع صلاته مِنْ أوَّلها إلىٰ آخرها ،

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٦١١) ، وانظر « الرسالة القشيرية » (ص١٠٠) ، وكتابنا هٰذا في (١/ ١٦١ ، ١٦٧) وما بعدها

(٢) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص٢١)

مشغولاً بالتفكُّر في حساب معاملاتِهِ في السوق إلا عندَ التكبير ، وهـٰذه الصلاةُ لا تنفعُ في الآخرة ، كما أنَّ القولَ باللسان في الإسلام لا ينفع ، ولـٰكنَّ الفقيهَ يُفتي بالصحَّة ؛ أي : أنَّ ما فَعَلَهُ حَصَلَ به امتثالُ صيغة الأمر ، وانقطع به عنه القتلُ والتعزير ، فأمَّا الخشوعُ وإحضارُ القلبِ الذي هو عملُ الآخرة وبه ينفعُ العملُ الظاهر . . لا يتعرَّضُ له الفقيه ، ولو تعرَّض له لكان خارجاً عن فَنِّهِ)[١]

تبيين كذب المُفترِين والظالمين ، فيما نَسَبُوا إلى الأئمَّة الربَّانيِّين

أمَّا ما ينسبُهُ الزنادقةُ والمستشرقون والتنويريُّون وكثيرٌ من المبتدعة إلى التصوُّف والصُّوفيَّة دونَ تقييدٍ وتفصيل ، وبيان وتأويل ؛ مِنْ عقائد الاتِّحاد والحُلُول ، وروايةِ القصص والخُرافات بزعمهم التي تأباها العقول ، وهِجْرةِ الفروع والأصول ، وإيثارِ الضعف والخُمُول ، والابتعادِ عن شريعة سيِّد المرسلين ، والابتداعِ في المِلَّة والدِّين ، ومُوالاةِ الطُّغاة والظالمين ، إلىٰ غير ذلك من الأمور . . فهو كذبٌ وبُهْتان ، وظلم وعُدْوانٌ ، جرَّهم إليه جهلٌ فاضح ، وعُدْوانٌ لائح ، ودرايةٌ من بعضهم ويقينٌ أنَّ التصوُّفَ هو رُوحُ الإسلام وقلبُهُ ، وجوهرُهُ ولُبُّهُ ، وأنَّهُ الطريق الوحيد الذي يَصِلُ فيه العبد إلى الحُرِّية ، ويتخلَّصُ من رِقِّ الأغيار بالكُلِّية .

وفي كتب الصوفيَّة الكثيرةِ ـ وخصوصاً كتابَنا هـٰذا « عوارف المعارف » ـ نفيٌ لجميع هـٰذه المزاعم والأباطيل ، ودَحْضٌ لِزَغْبَر الافتراءات

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٦٩ ـ ٧٠)

والأضاليل ، ويكفي في ردِّ جميع ذلك قولُ إمامِ الصُّوفيّة وسيِّدِهم وهاديهم ومُرشِدِهم أبي القاسم الجُنيد البغدادي رحمه الله تعالىٰ (مَنْ لم يحفظِ القرآنَ ، ولم يكتبِ الحديثَ . . لا يُقتدىٰ به في هٰذا الأمر ؛ لأنَّ عِلْمَنا هٰذا مُقيّدٌ بالكتاب والسُّنَّة)[1]

ويُروىٰ : أنَّ أبا يزيدَ البِسْطاميَّ قال ذاتَ يومٍ لبعض أصحابه : قُمْ بنا حتىٰ ننظرَ إلىٰ هٰذا الرجلِ الذي قد شَهَرَ نفسَهُ بالولاية ، وكان الرجلُ في ناحيته مقصوداً مشهوراً بالزهد والعبادة ، قال : فمضَيْنا إليه ، فلمَّا خرج من بيته يَقصِدُ المسجدَ . . رمىٰ بُزَاقَهُ نحوَ القِبْلة ، فقال أبو يزيدَ انصرفُوا ، فانصرفَ ولم يُسلِّم عليه ، وقال هٰذا رجلٌ ليس بمأمون علىٰ أدب من آداب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فكيف يكون مأموناً علىٰ ما يدَّعيه من مقامات الأولياء والصِّدِّيقين ؟ ![2]

وسُئل خادمُ الشِّبْليِّ : ماذا رأيتَ منه عندَ موته ؟ فقال : لمَّا أُمسك لسانُهُ ، وعَرِقَ جبينُهُ . . أشارَ إليَّ أنْ وضِّئْني للصلاةِ ، فوضَّأتُهُ ، فنسيتُ تخليلَ لِحْيته ، فقبض علىٰ يدي ، وأدخلَ أصابعي في لِحْيته يُخلِّلُها[3]

وقد مَدَحَ الصوفيّةَ وأشاد بهم كبارُ الأئمَّة والعلماء ، وعظماءُ المُحدِّثين والفقهاء ، وأقوالُهُم فيهم كثيرةٌ منثورة ، وثناءاتُهُم عليهم عديدةٌ مشهورة ، وما نُقل عن بعضهم من ظاهرِ ذمٍّ وقَدْح ، أو صريحِ نقد وجَرْح . . فإنَّما يعنون به بعضَ مَنْ لَبِسَ لباسَهُم ولم يُحكِمْ شيئاً من أساسِهِم ، ومَنْ جَلَسَ علىٰ

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ١٥٥) .

(٢) انظر (١/ ٢٤٣) .

(٣) انظر (١/ ٢٤٣ـ٢٤٤) .

أحلاسهم ولم يذُقْ رَشْفةً مِنْ كاسِهِم ، بل إنَّ الصُّوفيَّة أنفسَهُم ـ ومنهم إمامُنا السُّهْرُوَرْديُّ ـ نبَّهوا علىٰ ضلالاتهم ، وحذَّروا من جهالاتهم

« قوتُ القلوب » من أوائل الكتب المُدوَّنةِ في علم التصوُّف

هٰذا ؛ ومِنْ أوائل الكتب التي دُوِّنت في التصوُّف تدويناً واضحَ المعالم ، مُحكَمَ الأساس ، مُشيَّدَ البُنيان . . كتابُ « قوت القلوب » للإمام الربَّانيِّ أبي طالبٍ المَكِّيِّ ، الذي قال فيه وفي كتابه تلميذُ السُّهْرُوَرْديِّ نجمُ الدين ابنُ تاوانَ التَّفْليسيُّ (من المتقارب)

سقى اللهُ تُرْبَ أبي طالبٍ ... مِنَ السَّلْسَبيلِ بمُزْنٍ سَكُوبِ
وجازاهُ بالفضلِ أَسْنى الجزاءِ ... علىٰ حُسْنِ تأليفِ « قوتِ القلوبِ »
ولقَّاهُ نضرةَ دارِ النعيمِ ... وأَسْكَنَهُ في جِوارِ الحبيبِ
كما ضمَّنَ « القوتَ » سِرَّ العلومِ ... وأودعَهُ كلَّ معنىً عجيبِ
إشارتُهُ مِنْ وراءِ العُقُولِ ... وأسرارُهُ مِنْ مَطَاوِي الغُرُوبِ
ويكشفُ للمرءِ عن نفسِهِ ... مكانَ الهوىٰ وخفايا العيوبِ
متىٰ خُصَّ عبدٌ بهٰذا الكتابِ ... وفهَّمَهُ اللهُ فهمَ اللَّبيبِ
فلا مسَّهُ نَصَبٌ بعدَهُ ... ولا مسَّهُ أبداً مِنْ لُغُوبِ

كتابُ « عوارفِ المعارف » مِنْ أركان عِلْمِ التصوُّف

ومِنَ الكتب التي نَهَلَت مِنْ مَعِينِ « القوت » . . كتابُ « عوارف المعارف » للإمام الكبيرِ المُربِّي الصُّوفي المُحقِّق شيخ الإسلام شهاب الدين أبي حفصٍ عمرَ البَكْريِّ السُّهْرُوَرْديِّ ، الذي انتشر في حياته انتشاراً واسعاً ،

وحدَّث به مراراً ، وقرأه عليه المريدونَ والسالكون ، والأولياءُ والفقهاء والمُحدِّثون ، وانتفعوا به انتفاعاً كبيراً ، وغَرَفُوا من بحر عوارفه علماً غزيراً ، وانتشر بعدَ وفاته في كلِّ قُطْرٍ ومكان ، واستمرَّ ذلك وامتدَّ في كافَّة الأزمان ، وقُرئ في الجوامع والمساجد ، واهتدىٰ به أصحابُ الزوايا والمعابد .

وقد جعله الإمامُ الفقيه المُحقِّقُ شيخُ الإسلام ابنُ حجر الهيتميُّ أحدَ الكتب الأربعة التي عليها المدارُ والمُعوَّل في طريق القوم ؛ فقال : (وعليكَ ـ إن أردتَ أن يظهرَ لك الحقُّ ، وأنَّك تتحلَّىٰ بالصدق ـ بمطالعة « إحياء الغزالي » رحمه الله تعالىٰ ، و« رسالة الإمام العارف القُشَيري » ، و« عوارف المعارف » للسُّهْرُوَرْديِّ ، و« القوت » لأبي طالب المكِّي ؛ فإنَّ هٰذه هي الكتبُ النافعة المُبيِّنةُ لأحوال الصادقين ، وتلبيساتِ المُبطِلين ، والحاملةُ علىٰ معالي الأخلاق ، وإيثارِ الفقر والإملاق ، وإدمانِ الطاعات ، وملازمة العبادات ، سيَّما الجماعات ، والإعراضِ عن سفاسف أقوامٍ غَلَبَ عليهم الشيطان ، فسوَّل لهم القبيحَ حَسَناً ، والمنكَرَ معروفاً ، والمذمومَ ممدوحاً ، فاستغرقوا في بحار شهواتهم ، وقبيحِ اعتقاداتهم وإراداتهم ، وهم مع ذلك يحسبون أنَّهم يُحسِنون صنعاً ، أو يُحْكِمون وضعاً)(١)

الحاملُ والباعثُ علىٰ تأليف « عوارف المعارف »

وكان داعيةُ إمامنا السُّهْرُوَرْديِّ إلىٰ تأليفه ، والنيةُ الحاملةُ له علىٰ ذلك . . ما ذكره بقوله : (ثمَّ إنَّ إيثاري لهَدْي هٰؤلاء القوم ، ومحبَّتي لهم ، عِلْماً

---

(١) الفتاوى الحديثية (ص١٤٣) .

بشرف حالهم ، وصحّةِ طريقتهم المبنيّةِ على الكتاب والسُّنَّة ، المُتحقِّقِ بها مِنَ اللهِ الكريم الفضلُ والمِنَّة . . حَدَاني أنْ أَذُبَّ عن هٰذه العِصابة بهٰذه الصُّبابة ، وأُؤلِّفَ أبواباً في الحقائق والآداب ، مُعرِبةً عن وجه الصواب فيما اعتمدوه ، مُشعِرةً بشهادةِ صريحِ العِلْمِ لهم فيما اعتقدوه ، حيثُ كَثُرَ المُتشبِّهون واختلفتْ أحوالُهُم ، وتستَّر بزيِّهم المُتسترِّونَ وفَسَدتْ أعمالُهُم ، وسَبَقَ إلىٰ قلبِ مَنْ لا يعرفُ أصولَ سلفهم سوءُ ظنٍّ ، وكاد لا يسلمُ مِنْ وقيعة فيهم وطَعْن ؛ ظنّاً منه أنَّ حاصلَهُم راجعٌ إلىٰ مُجرَّد رَسْم ، وتخصُّصَهُم عائدٌ إلىٰ مُطلَقِ اسم

وممَّا حَضَرَني فيه مِنَ النيَّة أنْ أُكثِّرَ سوادَ القوم بالاعتزاء إلىٰ طريقهم ، والإشارةِ إلىٰ أحوالهم)[١]

نظرةٌ موجزة علىٰ أهمِّ أبواب « عوارف المعارف »

وقد جعله الإمام السُّهْرُوَرْديُّ في ثلاثةٍ وستين باباً مُحرَّرة ، مُشتمِلةً علىٰ بعض علوم الصوفيَّة وأحوالِهم ومقاماتهم ، وآدابِهم وأخلاقهم ، وغرائبِ مَوَاجيدِهم ، وحقائقِ معرفتهم وتوحيدهم ، ودقيقِ إشاراتهم ، ولطيفِ اصطلاحاتهم[٢]

❁ ❁ ❁

وقد عَقَدَ الإمامُ السُّهْرُوَرْديُّ الأبوابَ الأُولىٰ للحديث عن ماهيَّة التصوُّف

---

(١) انظر (١/١٥٥) .

(٢) انظر (١/١٦١)

واختلافِ الأقوال في تحديده ، ثمَّ ذَكَرَ كلاماً جامعاً في ذلك أوردتُهُ قبل قليل[1] ، وذَكَرَ سببَ تخصيصهم بهٰذا الاسم دون غيرهم .

كما تحدَّث عن فضيلة علم التصوُّف علىٰ غيره من العلوم ، وأنَّ الصُّوفيَّة رُزقوا سائرَ العلوم من المأمورات والمنهيَّات وغيرها ، ثمَّ تفرَّدوا بعلوم امتازوا بها عن غيرهم ، ومِنْ هٰذه العلوم : علمُ اليقين ، وعلم الإخلاص ، وعلمُ معرفة أقسام الدنيا ، ووجودِ دقائق الهوىٰ وخفايا شهوات النَّفْس ، وعلمُ المراقبة ، وعلم المَحَبَّة ، وعلومُ المشاهدات ؛ كعلم الهيبة والأُنْس ، والقَبْض والبَسْط ، والفناء والبقاء ، وغيرها ، وقد حوىٰ هٰذا المختصرُ مِنْ هٰذه العلوم علىٰ طَرَف صالح ، وقد ذكر المُؤلِّفُ أنَّ علومَ هٰؤلاءِ القوم لا تحصلُ مع محبَّة الدنيا ، ولا تنكشفُ إلَّا بمجانبة الهوىٰ ، ولا تُدرَّسُ إلَّا في مدرسة التقوىٰ ، وإنَّما حصلت لهم بسبب إقبالهم على الله تعالىٰ والانقطاع إليه ، وخُلُوصِ أرواحِهِم إلىٰ مَقام القرب منه ، فأفاضتْ أرواحُهُم علىٰ قلوبهم أنواراً تهيَّأت بها قلوبُهُم لإدراك العلوم

وتكلَّم في هٰذه الأبواب أيضاً عن الفَرْق بينَ الصُّوفي والمُتصوِّفِ والفقير والمُتشبِّه ، وخصَّص باباً للحديث عن المَلَامَتِيَّة ، وهي طائفةٌ مشهورة في زمان المؤلف كانت تعتني بالإخلاص اعتناء شديداً ، وذكر أنَّ حالَهُم حالٌ شريف ، ومقامٌ عزيز ؛ وهو عبارةٌ عن التمسُّك بالسُّنَن والآثار ، والتحقُّقِ بالصدق والإخلاص

* * *

---

(١) انظر (١/ ٤٩) .

وأَفْرَدَ البابَ التاسعَ للكلام عن أقوام انتسبوا إلى الصُّوفيّة وليسوا منهم ؛ كالقَلَنْدَرِيَّة الذين خرَّبُوا العادات ، وطَرَحُوا التقيُّد بآداب المُجالساتِ والمُخالطات ، وساحوا في ميادين طِيبةِ قلوبهم ، فقلَّتْ أعمالُهُم من الصوم والصلاة إلا الفرائضَ ، ولم يُبالُوا بتناول شيء من لذَّات الدنيا من كلِّ ما كان مُباحاً برخصة الشرع ، وربَّما اختصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائقَ العزيمة ، بل إنَّ بعضَهُم قد ينتهجُ مناهج أهل الإباحة ، ويزعُمُ أنَّ ضمائرَهُم خَلَصَتْ إلى الله تعالىٰ ، ويقولون هـٰذا هو الظَّفَر بالمراد ، والارتسامُ بمراسم الشريعة رتبةُ العوامِّ ، وقاصِرِي الأفهام ، المُنحصِرينَ في مَضِيق الاقتداء تقليداً ، وأَوْرَدَ المُؤلِّفُ ضابطاً نفيساً مُهِمّاً يزيل كثيراً من التُّهم عن هـٰذا الطريق بسبب بعض المُنتسِبين إليه رَسْماً ، لا حقيقةً وعَزْماً ؛ فقال : (فإذا رَأَينا مُتهاوِناً بحدود الشرع ، مُهمِلاً للصلوات المفترَضات ، لا يعتدُّ بحلاوة التلاوة والصوم والصلاة ، ويدخلُ في المداخل المكروهةِ المُحرَّمة . . نردُّهُ ولا نقبلُهُ ، ولا نقبلُ دَعْواهُ أنَّ له سريرةً صالحة)[1]

وذَكَرَ أيضاً أقواماً من الحُلُوليَّة والإباحيَّة ، وردَّ دعاويَهُم الكاذبة ، ومذاهبَهُم الفاسدة ، ونفىٰ عن أقوامٍ من أئمَّة التصوُّف عُرفوا بالاستقامة والولاية والزهد في الدنيا . . ما صَدَرَ عنهم في حال غَلَباتهم وسُكْرهم في حُبِّ الذَّات المُقدَّسة ، أو نُسب إليهم ؛ من عباراتٍ ظاهرُها الاتِّحاد والحلول ، ونزَّه مقامَهُم الشريفَ مِنِ اعتقاد هـٰذا الظاهر المُوهِم ، أو الانتسابِ إلىٰ هـٰذا المذهب المُظلِم .

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر (١/ ٢٩٩)

وعَقَدَ باباً مُهمّاً للكلام عن رُتْبة المَشْيخة ، وذَكَرَ أنَّ هـٰذه الرتبةَ هي أعلى الرُّتَب عند الصُّوفيَّة ؛ لأنَّها نيابةٌ عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة الحقيقيَّة إلىٰ طريق الولاية ؛ لأنَّ الشيخَ يسلك بالمريد طريقَ الاقتداء برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

وعَقَدَ أبواباً مُهِمَّةً مُحقَّقةً في السماع وحُكْمِهِ وآدابه وشروطه ، وأنَّهُ لا يصحُّ إلا لعارفٍ مَكِين ، ولا يصلحُ لمُريدٍ مبتدئ ، وما اختاره مَنِ اختاره مِنْ أئمَّة التصوُّف إلا بشروطٍ وقيود وآداب ؛ يذكرون به الآخرة ، ويرغبون به في الجنَّة ، ويُحذِّرون من النار ، ويزدادُ به طلبُهُم ، وتَحسُنُ به أحوالُهُم .

❁ ❁ ❁

والأخلاقُ عندَ سادتِنا الصُّوفيَّة من أهمِّ مدارج مقامات أرباب السلوك ، بل إنَّ سيِّدي المُربِّيَ أبا بكر الكتَّاني عرَّف التصوُّفَ بقوله : (التصوُّفُ خُلُقٌ ، فمَنْ زَادَ عليكَ في الخُلُقِ زادَ عليكَ في التصوُّفِ)[1] ؛ ولذلك عَقَدَ السُّهْرُوَرْديُّ باباً قيِّماً للكلام عن أخلاق الصُّوفيَّة ، وشَرْحِ ماهيَّة الخُلُقِ عندهم ، وذَكَرَ فيه أنَّ الصُّوفيَّةَ هم أوفرُ الناس حظّاً من الاقتداء برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وأحقُّهُم بإحياء سُنَّته ، والتخلُّقِ بأخلاقه ؛ لأنَّهُم وُفِّقُوا في بداياتهم لرعاية أقواله ، وفي وسط حالهم اقتدَوا بأعماله ، فأثمرَ لهم ذلك أنْ تحقَّقوا في نهاياتهم بأخلاقه ؛ والسببُ الجوهريُّ في ذلك أنَّهُم راضُوا نفوسَهُم بالمُكابدات والمُجاهدات حتىٰ أجابتْ إلىٰ تحسين الأخلاق الكريمةِ كلِّها

(١) انظر (٢/ ٢٠) .

وأَتْبَعَهُ بباب مُطوَّل في تفصيل أخلاقِهم المُستقاةِ من نور مِشْكاة النُّبوَّة ؛ كالتواضع ، والمُداراة ، واحتمال الأذىٰ من الخَلْق ، والتجاوزِ عنهم والعفو ولِينِ الجانب لهم ، والإيثار والمواساة ، والإنفاق مِنْ غيرِ إقتارٍ وتركِ الادِّخار ، والقناعة باليسير من الدنيا ، وتركِ المراء والمجادلة . . . إلىٰ غير ذلك ، ودلَّل لجميع ذلك من الكتاب وسُنَّةِ سيِّد المرسلين ، وأقوالِ السلف والتابعين ، وأئمَّة التصوُّف المُعتبَرين ، وهـٰذا الباب يُبرِزُ التصوُّفَ العمليَّ الحقيقيَّ المُتجلِّيَ في مقام الإحسان ، ويَرُدُّ علىٰ أباطيل أهل الإفك والعدوان ، ومزاعمِ أُولي البغي والبُهْتان .

* * *

وأَفْرَدَ المُؤلِّفُ أبواباً كثيرةً للحديث عن آداب الصُّوفيَّة مع الحضرة الإلـٰهيَّة ، وفي طهارتهم وصلاتِهم وصيامهم ولباسهم وأَكْلِهم وغيرِ ذلك ، وقد أَطْنَبَ المُؤلِّفُ في الحديث عن الآداب وأَوْلاه عنايةً كبيرة ؛ وذلك أنَّ الأدبَ أساسٌ مِنْ أساسات الوصول والمعرفةِ عند سادتنا الصُّوفيَّة ؛ ولذلك قال سيِّدي الصُّوفيُّ يوسف بن الحسين الرازي : (بالأدب يُفهَمُ العلم ، وبالعلم يصحُّ العمل ، وبالعمل تُنالُ الحكمة ، وبالحكمة يُقام الزهد ، وبالزهد تُترَكُ الدنيا ، وبترك الدنيا يُرغَبُ في الآخرة ، وبالرغبة في الآخرة تُنالُ الرتبةُ عند الله تعالىٰ)(١)

وقال بعضهم (الزَمِ الأدبَ ظاهراً وباطناً ، فما أساء أحدٌ الأدبَ في

(١) انظر (٢/ ١٠٥ـ١٠٦)

الظاهر إلا عُوقب ظاهراً ، وما أساء أحدٌ الأدبَ باطناً إلا عُوقب باطناً)[1]

***

وتكلَّم في بعض الأبواب عن كيفيّة وهيئة بعض العبادات التي تتكرَّر في حِلِّهم وتَرْحالهم ؛ كالصلاة وما يتقدَّمُها من الوضوء والتيمُّم والمسح على الخُفَّين ، وانتقىٰ من « قوت القلوب » وغيرِهِ بعضَ الأوراد والأذكار التي ينبغي أن يُحافِظَ عليها السالكُ ليلاً ونهاراً ، وهـٰذه الأبوابُ من الأبواب المهمَّة التي انفرد بها كتابُنا هـٰذا عن « رسالة الإمام القُشَيريِّ » رحمه الله تعالىٰ .

ومِنَ الأبواب المُهِمَّة في هـٰذا الكتاب : أدبُ الصُّحبة والأُخُوَّةِ في الله ، وأدبُ المُرِيدِ مع شيخه المُربِّي ، وأدبُ الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والمريدين ، وقد أورد المُؤلِّفُ جملةً من الآداب المُهِمَّة في هـٰذين البابَينِ ، وضمَّنها قصصاً ماتعة ، وتوجيهاتٍ نافعةً ، وحِكَماً مفيدة ، ووصايا سديدة .

***

وتكلَّم في الأبواب الأخيرة من الكتاب عن الخواطر التي تَرِدُ على القلب وأنواعِها وتفصيلها ، وذَكَرَ أنَّ أقومَ الناس بتمييز الخواطر الإيمانيَّةِ من الخواطر الشيطانيَّة . . أقومُهُم بمعرفة النَّفْس التي لا تكاد تتيسَّر إلا بعد الاستقصاء في الزُّهْد والتقوىٰ ، وأنَّ مَنْ كان أكلُهُ من الحرام لا يُفرِّق بين الإلهام والوسوسة .

---

(١) انظر (٢/ ١١٠) .

وأَفْرَدَ بابَينِ مُهِمَّينِ للحديث عن بعض مقامات الصُّوفيَّة وأحوالهم ، وشَرَحَ بعضَ المصطلحات التي يَكثُرُ دَوَرانُها في كتب سادتنا الصُّوفيَّة .

السُّهْرَوَرْديُّ مِنْ مُحقِّقي علم التصوُّف والمُنظِّرِين فيه

وإمامُنا السُّهْرَوَرْديُّ مِنْ مُحقِّقي الصُّوفيَّة ، وإمامٌ كبير من أئمَّتهم ، وإليه انتهت رئاسةُ التصوُّف والوعظ والإرشاد ، ودلالة المريدين إلىٰ ربِّ العباد ؛ فلذلك نجدُ رأيَهُ طافحاً في هٰذا الكتاب في كثير من المسائل ؛ نقداً وتصحيحاً ، أو توجيهاً وترجيحاً

ومن ذلك : ما اعتمده وحرَّره في تحديد العلم المُفترَض ؛ إذ قال بعدَ ذِكْرِ كثير من الأقوال : (وعندي في ذلك حدٌّ جامع لطلب العلم المُفترَض ، والله أعلم ؛ أقولُ العلمُ الذي طَلَبُهُ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلم علمُ الأمر والنهي ، والمأمورُ : ما يُثاب علىٰ فعله ويُعاقَب علىٰ تركه ، والمنهيُّ ما يُعاقَب علىٰ فعله ويُثاب علىٰ تركه ، والمأموراتُ والمنهيّات منها : ما هو مُستمِرٌّ لازم للعبد بحُكْم الإسلام ، ومنها : ما يتوجَّه الأمرُ فيه والنهيُ عندَ وجود الحادثةِ ؛ فما هو لازمٌ مُستمِرٌّ لزومُهُ مُتوجِّهٌ بحُكْم الإسلام. . علمُهُ واجبٌ من ضرورة الإسلام ، وما يتجدَّدُ بالحوادث ويتوجَّهُ الأمرُ والنهيُ فيه . . علمُهُ عندَ تجدُّدِهِ فرضٌ لا يَسَعُ مسلماً على الإطلاق أنْ يجهلَهُ .

وهٰذا الحدُّ أعمُّ من الوجوه التي سبقت ، والله أعلم)[1]

❁ ❁ ❁

(١) انظر (١/ ٢٠٥ـ٢٠٦) .

وبالجملة : فالكتاب مَعْلَمٌ من معالم علم التصوُّف ، وركنٌ من أركانه الضروريَّة التي لا بدَّ للسالك من دراسته والاهتداءِ بتعاليمه وتوجيهاته التي تُمثِّل قلبَ الإسلام وروحَهُ ، وقد نال قَبولاً وشهرة واسعة في زمان مؤلِّفه وحتىٰ يومنا هـٰذا ؛ نَظَراً لما حواه من العلوم المُوصِلةِ إلىٰ ربِّ العالَمين ، وما بيَّنه ووضَّحه وفصَّله للمُريدين السالكين ، كلُّ ذلك بعباراتٍ سهلة رائقة ، ومعانٍ غزيرة فائقة .

* * *

منهج العمل في الكتاب

تمَّ بفضل الله تعالى استجلابُ أهمِّ النسخ الخطيّة لهـٰذا الكتاب النفيس ، واعتمادُها جميعِها في إخراج نصٍّ سليمٍ خالٍ من الأخطاء والتحريفات التي وقعتْ في نسخه المطبوعة التي وقفتُ عليها ، وممَّا تفرَّد به عملُنا زيادةً علىٰ ذلك : توثيقُ وتخريجُ أخبارِهِ وآثاره التي أَوْردَها المُؤلِّفُ أو أَسْنَدَها ، وتصحيحُ أسانيده والتحقُّقُ منها ، وضبطُ نصِّهِ وشكلُهُ بحيثُ يكون سهلَ التناولِ للقارئ ، ولله الحمد علىٰ ذلك

وقد نَهَجْتُ في سبيل ذلك مراحلَ علميَّةً دقيقةً ، تمثَّلتْ فيما يأتي

ـ مقابلةُ الكتاب علىٰ نسخه المعتمدةِ مقابلةً متأنِّية ، مع تَجَنُّب الفروقِ التي هي عبارةٌ عن تحريف وتصحيف وخطأٍ إملائي أو نحوي بعيد عن سياق المؤلف وأسلوبه ، ولا يندرج تحت وجه من الوجوه التي ذكرها أئمَّةُ النحو في كتبهم .

ـ ثمَّ اتَّبعتُ منهج التلفيق بين النسخ ، ورأيتُهُ أسلمَ وأَمْتَنَ وأوضح في توثيق النصِّ واعتماده ، وخصوصاً في مثل هـٰذا الكتاب وكثرة النسخ المعتمدة فيه ؛ وذلك بعد مقارنتها وإجراء دراسة بينها ، وقد أَثْمَرَ اعتمادُ هـٰذا المنهج نصّاً دقيقاً صحيحاً سليماً خالياً من التصحيف والتحريف والسقط ، وهـٰذا مِنْ أهمِّ مراحل تحقيق كتاب ما ، بل لقد عُرِّفَ التحقيقُ ـ كما

ذكره الأستاذ الأديب محمود شاكر ـ بأنَّهُ إخراجُ النصِّ كما أراده مؤلفه ، فأسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يكونَ قد وَفَّقَني لذلك وأعانني عليه .

ـ ذكرتُ في الهامش أهمَّ الفروق والمغايرات الخطِّية التي تُضفِي معنىً جديداً ، أو تندرجُ تحت وجهٍ لغوي أو نحوي أو صرفي

ـ أثبتُّ أهمَّ التعليقات والحواشي الموجودةِ علىٰ هوامش بعض النسخ الخطِّيَّة ، وخصوصاً النسختين (ج) و(ح) ، وهي حواشٍ قيِّمةٌ نفيسة أَثْرَتِ النصَّ المُحقَّق ؛ بالبيان والتوضيح ، والشرح والتعليل ، والتقسيم والتفصيل ، وسأتكلَّم عن هـٰذه الحواشي قريباً أثناء وصفي للنسخ الخطية[1]

ـ وكما هي عادتي غالباً أثناءَ تحقيق أيِّ كتاب . . حاولتُ الاهتداءَ إلىٰ مصادر مُؤلِّفه ومراجعِهِ ، وقد تحصَّلتُ بفضل الله ومَنِّه وعونه علىٰ كثير من ذلك ، وهـٰذه الخطوةُ من أهم الخطوات في تحقيق النصِّ وضبطه واعتماده ؛ إذ يظهرُ من خلالها تصويبُ بعض التحريفات ، وإثباتُ بعضِ الزيادات التي لا يستقيمُ ولا يتَّضحُ النصُّ إلا بها ، وتبيينُ ما تهرَّأ من أصله بسبب الرطوبة أو الأَرَضة أو غيرهما ، ومن المصادر التي أخذ منها إمامُنا السُّهْرُوَرْديُّ كثيراً : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي ، و« إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي ، و« اللمع » لأبي نصر السرَّاج الطُّوسي ، و« تهذيب الأسرار » لأبي سعد الخَرْكوشي ، و« الرسالة القشيرية » للإمام أبي القاسم القُشيري ، و« التعرُّف » للكلاباذي

---

(١) انظر (١/ ٧٧، ٨٣ـ ٨٤) .

ـخرَّجتُ الآياتِ القرآنيةَ ؛ بذكر اسم السورة ورقم الآية في صلب الكتاب ضمن معقوفين ، ومع حصر الآية ضمنَ قوسين مُزهَّرين ، ورسمِها برسم المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم ، وقد أرسمُها أحياناً برواية غيره من القُرَّاء .

ـخرَّجتُ الأحاديث والأخبار والآثار التي أوردها المُؤلِّفُ أو رواها بإسناده ؛ من أُمَّات المصادر والمراجع المعتمدة في ذلك ، وقد استفدت كثيراً في تخريج الأحاديث المرفوعة من كتاب « غنية العارف » للعلامة المُحدِّث أحمد ابن الصِّدِّيق الغُماري ، وكان التخريج غالباً مختصراً مفيداً ، مع رعاية وتقديم كتب الأئمَّة الواردين في سند « العوارف » علىٰ غيرهم إن كان النقل مسنداً

ـ وثَّقتُ ما صرَّح المؤلف بنقله عن العلماء والأئمَّة ، أو نسبه لبعضهم دون تصريح ؛ بالعزو إلىٰ مؤلفاتهم أو المصادر والمراجع التي نقلت كلامهم أو أشارت إليه ، ونادراً ما يُصرِّح المؤلف بالنقل عن العلماء والمُصنَّفات

ـشرحتُ بعض الألفاظ الغامضة والمُبهَمة ، ورجعت في ذلك إلى الكتب المُختصَّة في ذلك دون التصريح غالباً بأخذي عنها والنقل منها ، وكان رجوعي في الغالب إلىٰ كتاب « الصحاح » و« مختاره » ، و« المصباح المنير » ، و« تاج العروس » ، وبعض شروح الصِّحاح والسنن وكتب الغرائب الحديثيّة ؛ كـ « إرشاد الساري » ، و« مرقاة المفاتيح » ، و« النهاية في غريب الحديث والأثر » ، وقد استفدت أحياناً في ذلك من هوامش بعض النسخ الخَطِّيّة

ـ ضبطتُ الرِّجال الواردين في أسانيد الكتاب ، وعرَّفتُ ببعض منهم بشكلٍ لطيفٍ مختصر ، وصحَّحت وصوَّبت أسماء بعضهم ، وقد وفَّقني الله سبحانه وتعالىٰ للوقوف علىٰ كثير من ذلك ممَّا تحرَّف وتصحَّف في غالب النسخ المطبوعة

ـ خرَّجتُ الأبياتَ الشعرية ؛ بعزوها إلىٰ دواوين قائليها أو المصادر والمراجع المعتمدة في ذلك ، ونِسْبَتِها إلىٰ بحورها الشعرية ، وقد كانت الأبياتُ قليلةً في كتابنا هـٰذا

ـ شَكَلْتُ الأحاديثَ المرفوعة والأبياتَ الشعرية شكلاً تامّاً ، وباقيَ الكتاب شكلاً إعرابيّاً ، وصرفيّاً لبعض الكلمات المشكلة والمُوهمة ، وهي خطوةٌ مفيدة ونافعة في هـٰذا الكتاب وأمثاله ؛ نَظَراً لتداوله من قِبَلِ كثير من الطلبة المُتنوِّعين في معارفهم وتحصيلهم العلمي ، وقد استفدتُ واستأنستُ من شَكْلِ بعض النسخ التي جاء الضبط فيها غالباً دقيقاً مستقيماً ، وقد أَشْكُلُ الكلمةَ بعضَ الأحيان بأكثرَ من وجه إفادةً للقارئ .

ـ أحلتُ جميعَ ما صرَّح المؤلفُ بتقدُّمه أو تأخُّرِهِ ؛ بعزوه إلىٰ مكانه المُحدَّد والمناسب ، وهو علىٰ قلَّته في كتابنا هـٰذا مفيدٌ معين علىٰ ربط فقراته ومقاطعه

ـ ليَّنتُ الكتابَ من خلال ترقيمه ترقيماً مُحكَماً دقيقاً ، ويدخلُ في ذلك تقسيمُهُ إلىٰ فقراتٍ ومقاطعَ تُيسِّر للقارئ الإلمامَ بأفكار الموضوع

ـ جعلتُ رقماً متسلسلاً لجميع الأحاديث والآثار والأخبار المرويَّة المسندة ، وهي خطوة مفيدة في كتابنا هـٰذا ؛ إذ تُيسِّر الوصول إلى الصنعة

الحديثية الموجودة فيه ، وتُعرِّف برواياته المسندة ، وتحصر ما انفردت به منها

ـ وشَّيتُ الكتاب بإضافة اللون الأحمر العريض لعناوين الأبواب وبعض الجمل والعبارات المُهِمَّة والمفيدة ، كما أضفتُ اللون الأحمر لصيغ الأداء والتحمُّل الواردة في الأسانيد ، وقد نحوتُ في تلوين الكتاب عموماً مَنْحاً ذوقياً جمالياً ، ولم أَتَّبِعْ منهجاً علمياً مُحدَّداً ومُطَّرِداً في ذلك .

ـ ذكرتُ في بداية الكتاب ترجمةً متوسِّطة مُعرِّفة بمؤلِّفه ، تناولتُ فيها جانباً من الحديث عن أسرته ، وطلبه العلم ، ومراحل سلوكه طريق التصوُّف ، وذكرت بعضَ الشيوخ الذين أخذ عنهم ، وبعضَ المريدين الذين لبسوا خِرْقَتَهُ واهتدوا بطريقته ، وأهمَّ مؤلفاته في التصوُّف وغيره .

ـ وصفتُ النسخَ المعتمدة والمستأنس بها في تحقيق هـٰذا الكتاب . . وصفاً عامّاً كاشفاً مفيداً ، وابتعدتُ عن الوصف المُتعلِّق بماهيَّة الورق وطبيعة المِداد وغير ذلك .

ـ أوردتُ قبل الشروع بالنصِّ المُحقَّق عقيدةً مُختصَرة نفيسة للإمام السُّهرُوَرْديِّ ؛ وعمدت إلىٰ ذلك ؛ إشهاراً لعقائد أئمَّتنا الصُّوفيَّة ، واستئناساً بصنيع الإمام القُشَيري في بدئه « رسالتَهَ » بذكر اعتقاد أئمَّة التصوُّف في مسائل الأصول

ـ كما أوردتُ له وصيَّةً نافعة أوصىٰ بها ولدَهُ عماد الدين ، وهي وصيَّة مُختصَرة قيِّمةٌ مشهورةٌ .

ـ وإتماماً للفائدة فإنَّني أوردتُ القصيدةَ البديعة البليغة للإمام الشاعر

الصُّوفي تاج الدين أبي العبَّاس الشَّرِيشيِّ المُسمَّاةَ بـ « أنوار السرائر وسرائر الأنوار » مضبوطةً مُحقَّقة ، والشَّرِيشيُّ من تلاميذ السُهْرُوَرْدي ، وقد ذكر في قصيدته زُبْدةَ ما حوىٰ كتابُ شيخِهِ « عوارفُ المعارف » ، وذكرتُ قبل ذلك كلمةً موجزة عن فضل القصيدة وأهمِّيَّتِها ، وتعريفاً مختصراً بمؤلفها ، وقد ضبطتُها ضبطاً تامّاً ، وذكرتُ بعضَ رواياتها ، وأهملت الكثير منها ، وخصوصاً ما كان بعيدَ المعنىٰ ومُعقَّدَ اللفظ ، وشرحتُ بعض أبياتها شرحاً لطيفاً مختصراً يحُلُّ ألفاظَها ، ويفتح مُغلَقَها ، وقد رجعتُ في ذلك كثيراً إلىٰ « شرح الإمام الفاسي » لهـٰذه القصيدة المباركة

ـ وإفادةً للباحث فقد تمَّ تزويد الكتاب ببعض الفهارس العلميّة المهمَّة ؛ وهي :

ـ فهرس الآيات القرآنية .

ـ فهرس الأحاديث النبوية .

ـ فهرس الآثار والأقوال والأخبار .

ـ فهرس الأبيات الشعرية .

ـ فهرس القصص والمنامات والوصايا

ـ فهرس أهم مصادر ومراجع التحقيق .

ولا يَسعُني بعدَ إتمام هـٰذا العمل المبارك إلا أن أتقدَّمَ بالشكر الجزيل إلىٰ فضيلة شيخِنا المُربِّي ياسر القضماني الذي شَمِلَتْنا عينُ عنايته في تحقيق هـٰذا الكتاب ، والذي كان له الفضلُ الكبير في تشجيعنا علىٰ إعادة نشره

وإحيائه ، فجزاه الله عنّا خير الجزاء

كما أتقدَّم بالشكر الوافر إلىٰ صاحب (دار التقوىٰ) الأخِ الكريم لؤي الأحمر علىٰ بذله وتيسيره ما يُعين علىٰ تحقيقه ، وهمَّتِهِ العالية وخدمته الظاهرة والواضحة في طباعة كتب سادتنا الصوفيّة وأئمَّتنا الأشاعرة رحمهم الله تعالىٰ ورضي عنهم ، وإلىٰ جميع الإخوة الأفاضل العاملين في (دار التقوىٰ) ، وكلِّ مَنْ ساهم منهم في إفادتي ببعض التصويبات والملاحظات .

وفي الختام : فإنَّني أسأل المولى الكريم أن يشملَنا بلطفه وعنايته ، ويجعلَنا من أهل مرضاته ورعايته ، ويُمِدَّنا بأنظار الأولياء والمُقرَّبين ، ويحشرَنا مع السعداء والصالحين

وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد نور الأنوار
وزين المرسلين الأخيار

حرر في دمشق الشام

(١٢) ربيع الأنور (١٤٤٣هـ)

الموافق (١٩) تشرين الأول / أكتوبر (٢٠٢١م)

وكتبه

المفتقر إلى من هو خير وأبقى

بلال محمد حاتم السقا

وصف النسخ الخطية

تمَّ بعون الله وفضلِهِ الاعتمادُ على ثماني نسخ خطِّيّة في تحقيق الكتاب ، إحداها قريبة العهد بوفاة المؤلف ، وثلاثة منها مكتوبة في القرن الذي تُوفِّي فيه ، وجميع النسخ اتَّسمت عموماً بالنَّفاسة والعناية والجودة والدقَّة والضبط ، وتعانقت على نسجِ نصٍّ سليمٍ خالٍ من التحريف والتصحيف والسقط ، مشفوعٍ ببعض التعليقات القيِّمة الهامَّةِ المأخوذة من هامشها ، ولله الحمد والمِنَّة على ذلك ، ورتَّبتُها على حسب قِدَمِها وتمامها ، وقد أُراعي الأهميّة بعضَ الأحيان

وإليك وصفَ هٰذه النسخ :

النسخة الأولى

مخطوطة مكتبة حكيم أوغلو علي باشا (إستانبول ـ تركيا) ، وهي من محفوظات المكتبة السليمانية ، ذات الرقم : (٤٨٣) ، وتقع في : (٢٣٠) ورقة ، وعدد أسطر كل صفحة : (٢١) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحد : (١٣) كلمة تقريباً .

وهي نسخة تامَّة في غاية النَّفاسة والضبط والصحَّة ، وخطُّها نسخي معتاد واضح مقروء ، وقد اعتنى بها ناسخها ومقابلها اعتناء كبيراً ، تجلَّى ذلك

في ضبط أغلب كلمات الكتاب ضبطاً صحيحاً دقيقاً ، وتلوين عناوينه وبعض العبارات والأفكار الرئيسة باللون الأحمر العريض ، وإثبات بعض المغايرات والفروق المهمَّة والتعليقات المفيدة والمطالب المتناثرة على الهامش .

وقبل طُرَّة المخطوط أبياتٌ رقيقة عَذْبة كتبها أبو المعالي بن أبي حامد بن أبي بكر بن أبي عمر بن أبي بكر بن أبي غانم ، دون نسبتها إلىٰ قائلها ، ويحتمل أنها لكاتبها ؛ والأبيات هي

يا لمعةَ البرقِ بل يا نسمةَ الرِّيحِ رُوحي برُوحي إلىٰ مَنْ عندَهُ رُوحِي
خُذي لهم مِنْ سلامي عنبراً عَبِقاً وأَوْقِـديـهِ بنـارِ مـن تَبَـارِيحِـي
هُبِّي لهم بالذي حُمِّلتُ مِنْ كُرَبٍ ففي هبوبِكِ تَفْرِيجِي وتَفْرِيحِي
وعَرِّضِي لي بذكرٍ إنْ مررتِ بهم وَهناً وإيَّاكِ أنْ تأتِيْ بتصريحِ
فإنَّ في الحي غَيراناً يغارُ إذا قَرُبْتِ منه على القَيْصُومِ والشِّيحِ

وكتب أسفل هـٰذه الأبيات : فرع فقهي مفيد مأخوذ من « روضة الطالبين » للإمام النووي رحمه الله تعالىٰ ؛ وهو (لا يجوز أن يضاجع الرجل الرجل ، ولا المرأة المرأة وإن كان كلُّ واحد في جانب من فراش ، وإذا بلغ الصبي والصبيَّة عشر سنين . . وجب التفريقُ بينه وبين أمِّه وأبيه وأخته وأخيه في المضجع) .

وقبل الطُّرَّة أيضاً : إجازةٌ عامَّة وإجازة خاصَّة بالخِرْقة الشريفة من قبل الشيخ عبد الصمد بن عبد السلام ، وقد كتبتُ نصَّ الإجازة بعد خواتيم النسخ الخطية آخر الكتاب(١)

---

(١) انظر (٢/ ٦٠٨ـ٦٠٩)

وعلىٰ طُرَّة المخطوط : عنوان الكتاب وعَزْوُهُ إلىٰ مؤلفه الإمام السُّهْرُوَرْدي ، مع ذِكْرِ نسبه تاماً إلىٰ سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وعليها أيضاً أسماءٌ لبعض المُتملِّكين للنسخة ، وختم باسم المكتبة الواقفة ، وتوسَّطها حديثان معزوَّان إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ وهما : « إذا أحب الله عبداً لم يضرُّهُ الذنب » ، و : « كلُّ إناء يترشَّح بما فيه »

وهي من أقدم النسخ التي اعتمدنا عليها أثناء تحقيق الكتاب ؛ إذ كان الفراغ من نسخها : عصر يوم السبت من شهر جمادى الآخرة سنة (٦٧٧هـ) ، وكان علىٰ يد : إسماعيل بن سالار بن زكي بن سالار الكازروني .

ورمزت لهـٰذه النسخة بـ (أ)

النسخة الثانية

مخطوطة المكتبة الأزهرية (القاهرة ـ مصر) ، ذات الرقم العام : (٩١٧٦١) ، والخاص : (٢٤٦٧) ، وتقع في : (٢١٣) ورقة ، وعدد أسطر كل صفحة : (٢١) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحد : (١٣) كلمة تقريباً .

وهي نسخة تامَّة نفيسة ، وخطُّها نسخي معتاد واضح مقروء ، وضُبط كثير من عبارات الكتاب ضبطاً متناثراً مفيداً ، وكُتبت عناوينه وبعض العبارات المُهِمَّة باللون الأحمر العريض

وتظهر نفاسةُ هـٰذه النسخة : بأنَّها مسموعة على الإمام علاء الدين

أبي الحسن القونوي ، كما قُيِّد ذلك في خاتمتها ، وقد ذكرتُ نصَّ السماع هناك[1] ، وبأنَّها مسموعة أيضاً على الإمام الحافظ المُحدِّث عبد الملك ، وكان هٰذا السماع في مجالسَ عديدةٍ بقراءة مالك النسخة الإمام الفقيه المُحدِّث المُتفنِّن عز الدين عبد السلام بن داود المقدسي ، كما قُيِّد ذلك علىٰ هوامشِ كثيرٍ من ورقاتها ، وجميع هٰذا يشير إلىٰ كثرة المُتملِّكين لهٰذه النسخة

وتظهرُ نفاستُها أيضاً : بأنَّها مُعتنىً بنصِّها من خلال مقابلتها مقابلةً تامَّةً كما نُصَّ علىٰ ذلك في هامشها[2] ، وكُتب في الخاتمة : (بلغ مقابلةً حسب الطاقة فوافق ، والحمد لله رب العالمين ، وصلَّى الله علىٰ سيدنا محمَّد خاتم النبيِّين)

وعلىٰ طُرَّة المخطوط : عنوانُ الكتاب مع إيراد زيادة لم توجد في النسخ الأخرىٰ ، ونصُّ العنوان : (كتاب عوارف المعارف في شرح أحوال المشايخ الصُّوفيَّة) ، ونسبةُ الكتاب إلىٰ مؤلِّفه وتفخيمُهُ وبيانُ قدرِهِ ومنزلته بأرقىٰ وأسمىٰ عبارات المدح والثناء ، وذكرُ نسبه تامّاً إلىٰ سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وذُيِّل الكتاب بشرحٍ مفيد وقيِّم للمُؤلِّف لبعض كلمات الإمام الصُّوفي المُربِّي أبي محمَّد الجُرَيري في آداب الحضرة الإلـٰهيَّة ، وأتبع ذلك بوصيَّة نفيسة مختصَرة للإمام السُّهْرُوَرْدي منقولة من خطه رحمه الله تعالىٰ

---

(١) انظر (٢/ ٦٠٢ـ٦٠٣)

(٢) وقد ذكرت أثناء التحقيق جميع ذلك في مكانه المناسب

وكان الفراغ من نسخه : يوم الأربعاء في التاسع عشر من شهر جمادى الأولىٰ سنة (٦٩٢هـ) ، وكان علىٰ يد محمَّد بن يوسف بن عبد الرحمـٰن الحوراني

ورمزت لهـٰذه النسخة بـ (ب)

النسخة الثالثة

مخطوطة مكتبة تُرْخان والدة السلطان محمد الرابع (إستانبول ـ تركيا) ، وهي من محفوظات المكتبة السليمانية ، ذات الرقم : (١٨٦) ، وتقع في : (٤١٩) ورقة ، وعدد أسطر كل صفحة : (١٥) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحد : (٧) كلمات تقريباً

وهي نسخة تامَّة نفيسة ، وخطُّها نسخي واضح مقروء ، وكُتب غالب كلمات عناوين الكتاب وبعض العبارات المُهِمَّة بالخط الأحمر العريض

وتتجلَّىٰ نفاستُها : في أنَّها تمَّ مقابلتها على النسخة المقابلة بالنسخة المقابلة علىٰ نسخة المؤلف المكتوبة بخطِّه والمقروءة عليه مراراً ، وفي أنَّها مقروءة ومُعتنىً بها ، كما يظهر ذلك في الحواشي والفروق والمغايرات المفيدة التي كُتبت على الهامش ، وقد كُتبت بعض الحواشي باللغة الفارسية ممَّا يشير إلىٰ كثرة المُتملِّكين لهـٰذه النسخة

وعلىٰ طُرَّة الكتاب : عنوان الكتاب ، ونسبته إلىٰ مؤلفه ، وتصريحٌ بأنَّهُ من تلاميذ سيِّدي المربِّي الصُّوفي عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالىٰ ، وختمٌ باسم المكتبة التي تملَّكت الكتاب آخراً

وكان الفراغ من نسخه في مكَّة المكرَّمة في الربع الثاني لسنة (٧٦٨هـ) ، وكان علىٰ يد : محمَّد بن إسحاق بن أبي العباس بن إسحاق الأَبَرْقُوهي ، وقد قابله مع الإمام الفاضل علاء الدين محمود عرب الخراساني ، وقد كتب الأَبَرْقُوهي هٰذه النسخةَ للإمام أبي المكارم شهاب الدين أحمد بن محمَّد بن أحمد الدَّشْتي الكيلاني ، وفي خاتمة الكتاب وصف مُطوَّل لهٰذه المقابلة ، وأبيات في مدح « العوارف » ومؤلفه ، وقد أوردت جميع ذلك فيها[1]

ورمزت لهٰذه النسخة بـ (ج)

النسخة الرابعة

مخطوطة المكتبة الأزهرية (القاهرة ـ مصر) ، ذات الرقم العام (٩٣٩٣٣) ، والخاص : (٢٥٥٦) ، وتقع في (٢٢٩) ورقة ، وعدد أسطر كل صفحة (٢١) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحد (١٢) كلمة تقريباً

وهي نسخة مفيدة تامَّة ، خلا صفحة في بدايتها ، فتمَّ استكمالها من نسخة مغربية مجهولة ، وخطُّها نسخي واضح مقروء ، وكُتبت كلمة (الباب) بالخط الأسود العريض ، وهو كافٍ في التمييز وسرعة الوصول إلى المطلوب ، وضُبطت الأبيات ضبطاً تامّاً ، وبعض الكلمات ضبطاً بسيطاً غيرَ مُطَّرد في جميع الكتاب .

---

(١) انظر (٢/ ٥٩٣ـ٥٩٨)

وكُتب علىٰ هامشها بعض الفروق المفيدة المأخوذة من نسخة أخرىٰ ، ممَّا يَدُلُّ علىٰ أنَّ هـٰذه النسخة مقابلة ومُعتنىً بها

وهـٰذه النسخة هي أقدمُ النسخ التي استطعنا تحصيلها والوصول إليها ؛ إذ كان الفراغ من نسخها يومَ الأربعاء السابع من صفر سنة (٦٥٦هـ) ؛ أي : بعد وفاة المؤلف بثلاث وعشرين سنةً تقريباً ، وكان ذلك علىٰ يد : محمَّد بن عبد الله بن محمَّد السورباني بالمدرسة العادلية في دمشق ، ولولا التحريفُ أحياناً وبُعدُ بعض الكلمات والعبائر عن مراد المؤلف وسياقه . . لقُدِّمت علىٰ غيرها من النسخ

ورمزت لهـٰذه النسخة بـ (د) .

النسخة الخامسة

مخطوطة الجامع الأحمدي (طنطا ـ مصر) ، الذي آلتْ مخطوطاته إلى المكتبة المركزيَّة للمخطوطات الإسلاميَّة في جامع السيدة زينب (القاهرة ـ مصر) ، ذات الرقم العام : (١١٣) ، والخاص : (١٤٣) ، وتقع في : (١٤٨) ورقة ، وعدد أسطر كل صفحة : ما بين (٢١) و(٢٧) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحد : (١٦) كلمة تقريباً

وهي نسخة تامَّة نفيسة ، وقد تمَّ الاستفادة منها كثيراً في ضبط بعض الكلمات والعبارات ، وتصحيح بعض الأخطاء والتصحيفات ، وخطُّها نسخي واضح مقروء ، وكُتبت عناوين الكتاب بالخط الأحمر العريض ، ونَدَرَ أن نرى اللون الأحمر فيها لغير ذلك

وعلىٰ طُرَّة المخطوط عنوان الكتاب واسم مؤلفه مختصراً ، وختمٌ بمالك الكتاب ؛ وهو العلامة الشيخ محمَّد الإمام القصبي شيخ الجامع الأحمدي بطنطا ، وترجمةٌ موجزة للإمام السُّهْرُوَرْديّ منقولةٌ من كتاب « شرح المواهب اللدنيَّة » للإمام الزرقاني رحمه الله تعالىٰ

وتظهر نفاسةُ هـٰذه النسخة بأنَّها تامَّة ومُعتنىً بها من حيثُ المقابلةُ ، وضبطُ كثير من كلمات وعبائر الكتاب ضبطاً تامّاً دقيقاً ، إلا ما شذَّ ونَدَرَ ، وبأنَّ عليها سماعاتٍ كثيرةً لكتابنا « عوارف المعارف » ، وهي للإمام المسند أحمد بن محمَّد بن محمَّد البخاري النجَّاري ، وقد تضمَّنت هـٰذه السماعاتُ إجازاتِهِ وإجازاتِ بعض أولاده بالكتاب المذكور وبالخِرْقة الشريفة[1]

وكان الفراغ من نسخها في ظهر يوم الخميس غُرَّة المحرَّم من سنة (٧٤٣هـ) ، علىٰ يد خلف بن أبي زيد بن الحسين الصَّبَّاغي الكاشغري ، في خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة .

ورمزت لهـٰذه النسخة بـ (هـ)

النسخة السادسة

مخطوطة مكتبة هُدائي أفندي الرومي (إستانبول ـ تركيا) ، وهي من محفوظات المكتبة السليمانية ، ذات الرقم (٣٨٧) ، وتقع في (١٦٨) ورقة ، وعدد أسطر كل صفحة : (٢٩) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحد : (١٢) كلمة تقريباً

(١) وقد أوردت جميع هـٰذه السماعات والإجازات في خاتمة الكتاب انظر (٢/ ٦٠٣ـ ٦٠٧ ، ٦٠٩ـ ٦١٤) .

وهي نسخة تامَّة نفيسة ، وخطُّها نسخي معتاد واضح مقروء ، وعلىٰ هامشها فروقٌ مأخوذة من نسخةٍ أخرىٰ ، وبعضُ التصحيحات والتصويبات ، ممَّا يَدُلُّ علىٰ أنَّها نسخةٌ مصحَّحة ومقابلة ومُعتنىً بها ، بل إنَّهُ نُصَّ علىٰ ذلك في طُرَّتها ، وقد تمَّ الاستفادة والاستئناس من هٰذا الهامش في تصحيح نصِّ الكتاب وضبطه

وضُبط كثير من كلماتها ضبطاً صحيحاً دقيقاً غالباً ، وأُحيط متنُ الكتاب وعناوينُهُ بإطارٍ أحمرَ ، وكُتبت العناوينُ وبعضُ الكلمات ؛ كالصلاة على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وعبارةِ (قال الله تعالىٰ) ، وكلمة (قال) المتكررة في الأسانيد ، وغيرها . . باللون الأحمر العريض .

وعلىٰ طُرَّة المخطوط عنوان الكتاب ، وكُتب بعده (من فوائد شيخ الإسلام ، مرشد الأنام ، شهاب المِلَّة والدين ، إمام المُتَّقين ، كهف الطالبين ، قدَّس الله روحه العزيز ، أبي عبد الله عمر بن محمَّد بن عبد الله السُّهْرُوَرْدي) ، وعليها أيضاً تأريخ بولادة المؤلف ووفاته ، وسندُهُ بالخرقة الشريفة المباركة إلى الإمام الجنيد رحمه الله تعالىٰ وأعاد علينا من بركاته .

ويوجد قبل طُرَّة الكتاب : ختم باسم المكتبة المالكة ، ووقف باسم (محمود بن فضل الله بن محمود) ، وهو الشيخ الواعظ المشهور بـ (هدائي الرومي) صاحب المكتبة المأخوذِ منها كتابُنا هٰذا ، وعلىٰ طُرَّته وفي خاتمته : فوائدُ نافعة ، ونِكاتٌ ماتعة ، وأشعار رائقة ، وأقوال فائقة

وكان الفراغ من نسخه يوم الأحد السابع والعشرين من شهر رمضان

المبارك ، سنة (٦٧٤هـ) ، وكان النسخ علىٰ يد : محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن عمر بن الحسين الدافري .

ورمزت لهـٰذه النسخة بـ (و) .

النسخة السابعة

مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام فيض الله أفندي (إستانبول ـ تركيا) ، ذات الرقم : (١٢٦٢) ، وتقع في : (٢٤٠) ورقة ، وعدد أسطر كل صفحة : ما بين (٢١) و(٢٣) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحد : (١٣) كلمة تقريباً

وهي نسخة جيدة عموماً ، وخطُّها نسخي معتاد واضح مقروء ، وكُتبت العناوين والآيات بالخط الأسود العريض ، وأحياناً تُكتب العناوين باللون الأحمر ، وعلىٰ هامشها بعض الفروق المنقولة من نسخة أخرىٰ ، وهي قليلة جداً مقارنة ببعض النسخ السابقة .

ويوجد قبل الطُّرَّة كلام باللغة الأعجمية بحدود الورقة ، ولم يُعتن بالطُّرَّة كما هو العادة في هـٰذا الكتاب وأمثاله ، ولم يُذكر فيها سوىٰ دعاء وفائدة في سبب تسمية الكتاب بـ « عوارف المعارف »

وكان الفراغ من نسخه : يوم الجمعة وقت الضحىٰ في السادس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة (٧٠٣هـ) ، ولم يُذكر فيها اسم الناسخ

ورمزت لهـٰذه النسخة بـ (ز)

النسخة الثامنة

مخطوطة دار الكتب القطرية (الدوحة ـ قطر) ، ذات الرقم : (٩٧٩) ، وتقع في : (١٧٩) ورقة ، وعدد أسطر كل صفحة : ما بين (٢٣) و(٢٤) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحد ما بين (١٥) و(١٧) كلمة تقريباً

وهي نسخة نفيسة مُتقَنة ، إلا أنَّها سقط منها قريب من ستة أبواب في بدايتها ، فتمَّ استدراكها من نسخة أخرىٰ ، وخطُّها نسخي معتاد في الأوراق المُستدرَكة وفارسي في باقي الكتاب ، وهو واضح ومقروء ، وكُتبت العناوين بالخط الأحمر العريض ، وضُبط غالب كلماتها ضبطاً صحيحاً مُتقَناً عموماً .

وتتجلَّىٰ نفاسةُ هٰذه النسخة : في أنَّها مقروءةٌ ومقابلة ومُعتنىً بها مِنْ ناسخها ومَنْ تداولها وتملَّكها ، ويظهرُ ذلك جَلِيّاً من خلال الفروق المأخوذة من نسخ أخرىٰ ، وهي مفيدة ونافعة ، ومن خلال إرجاع الكثير من الضمائر الموهمة الموجود في ثنايا الأسطر ، والتعليقات العلميَّة الكثيرة التي تناثرت في جميع النسخة الأصلية علىٰ هامشها وبين سطورها ، وقد خُتِمَ كثير من هٰذه التعليقات بالرمز (ح) ، ولعلَّ المراد بها : « حاشية الإمام زين الخَوَافي » كما صرَّح بذلك في بعض المواضع[1] ، وكاتب هٰذه التعليقات

(١) وزين الدين الخَوَافي : هو من شيوخ الإمام المحقق الكمال بن الهمام . انظر ما كتبته عن هذه « الحاشية » في (١/ ٤٤)

هو حنفي المذهب كما هو الظاهر من مضمونها في بعض الأماكن ، وكما نُصَّ علىٰ ذلك في بعضها ، وقد تمَّ انتقاء وإثبات كثير منها في هامش الكتاب ؛ نظراً لفائدتها وإيضاحها لكثير من عباراته

ويوجد في بداية الكتاب وفي خاتمته حوالي ثلاث عشرة ورقة احتوت علىٰ بعض الفوائد المتنوِّعة وعلىٰ تفسير وشرح آيات قرآنية معزوٌّ إلىٰ بعض التفاسير ؛ كـ « تفسير أبي الليث السمرقندي » ، و« تفسير الكواشي » ، « وتفسير الوسيط » ، وغيرها ، كما احتوتْ هـٰذه الأوراق علىٰ شرح لديباجة الكتاب ، ولعلها للإمام زين الدين الخوافي المذكور آنفاً ، والله تعالىٰ أعلم

وكان الفراغ من نسخه : يوم الاثنين من شهر رمضان المبارك سنة (٨٦٦هـ) ، علىٰ يد : يعقوب بن بدر بن مصطفى بن خضر بن ميكائيل

وكُتب في الخاتمة على الهامش : (بحمد الله ومَنِّه تمَّت مطالعته ومقابلته وقت الظهر من يوم الأحد في نصف شهر الله المبارك المُسمَّىٰ بـ « الرمضان » ، من شهور سنة أربع وسبعين وثمان مئة في بورسة المحروسة ، في أيام الجلوة للشيخ العالم العامل الكامل المُكمَّل المُحقَّق في الإرشاد والتحقيق شيخي عبد الله ، سلَّمه الله سلامة دائمة ، ثمَّ بعد ذلك إني قرأت هـٰذا الكتاب تماماً على الشيخ المذكور في أوقات الخدمة والمصاحبة)

ورمزت لهـٰذه النسخة بـ (ح)

وقد تمَّ أيضاً الاستئناس بنسختين أخريين ؛ وهما

النسخة التاسعة

مخطوطة أكاديمية محمد الكبير (السند ـ باكستان) ، وتقع في (٥٩٨) صفحة ، وعدد أسطر كل صفحة ما بين (١٥) و(١٩) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحد : (٩) كلمات تقريباً

وهي نسخة جيدة عموماً ، وخطُّها نسخي معتاد واضح مقروء ، وكُتب على هامشها بعض التعليقات باللغة العربية والأعجمية ، وقد أوردت قليلاً منها في الهامش ، وتفرَّدت هـٰذه النسخة عن باقي النسخ بحذف ناسخها لأسانيد الكتاب ، هـٰذا من جملة أسباب عدم اعتمادها والرجوع إليها كثيراً أثناء التحقيق ، إلا أنَّهُ تمَّ الاستفادة منها أحياناً في تصويب بعض العبارات أو ترجيحها

وكان الفراغ من نسخه : ضحىٰ يوم الخميس من شهر المُحرَّم الحرام سنة (١١٢٥هـ) ، علىٰ يد : أحمد بن عبد النبي ترك الغوري .

ورمزت لهـٰذه النسخة بـ(ي) .

النسخة العاشرة

نسخة المطبعة الأزهرية (القاهرة ـ مصر) ، المطبوعة في شهر رمضان سنة (١٣١٦هـ) ، والمكتوبة علىٰ هامش « إحياء علوم الدين » المُكوَّن من أربعة مجلدات ، وقد تمَّ الاستفادة من هـٰذه الطبعة في إثبات بعض

الزيادات ، وتصويب وترجيح بعض الألفاظ والعبارات .

ورمزت لهٰذه النسخة بـ (ط)

* * *

وأمّا « وصيّة الإمام السُّهْرُوَرْدي » فقد تمَّ الرجوع إلىٰ ثلاث نسخ منها :

الأولىٰ : مخطوطة شيخ الإسلام فيض الله أفندي ، ذات الرقم (١٢٦٣) ، وقد كُتبت هٰذه الوصية في بداية نسخةٍ من « العوارف » ، وتاريخ نسخها : سنة (٩٦٢هـ) ، ورمزت لها بـ (أ)

والثانية : مخطوطة المكتبة الأزهرية ، ذات الرقم العام : (١٣٢٩٠٥) ، والخاص : (٢٢٨١) ، وهي ضمن مجموع يحوي رسائل وكتباً لطيفة ، وتبدأ الوصية من الورقة (١٩) وتنتهي بالورقة (٢١) ، ورمزت لها بـ (ب) .

والثالثة : مخطوطة المكتبة الأزهرية ، ذات الرقم العام : (٣٤٧٨٨) ، والخاص : (٧٤١) ، وهي ضمن مجموع أيضاً يحوي وصايا ورسائل في علم العقيدة ، وتبدأ الوصية من الورقة (٣٦) وتنتهي بالورقة (٣٧) ، ورمزت لها بـ (ج) .

* * *

وأمّا « القصيدة الرائيّة الشَّرِيشيّة ».. فقد اعتمدتُ على النسخة التي شَرَحَ عليها الإمام أبو العباس أحمد الفاسي هٰذه القصيدةَ المباركة ، وهي

مطبوعة المكتبة العامرة التي صدرت في سنة (١٣١٦هـ) ، كما اعتمدت أيضاً علىٰ نسخة المكتبة الأزهرية ، ذات الرقم العام (٩٧٥٨٦) ، والخاص : (٢٠٤٠) ، وتقع ضمن مجموع ، وتبدأ القصيدة من الورقة (١٩٠) وتنتهي بالورقة (١٩٦) ، وتمتاز هـٰذه النسخة بأنَّها جاءت معنونةً لجميع أفكار ومواضيع القصيدة

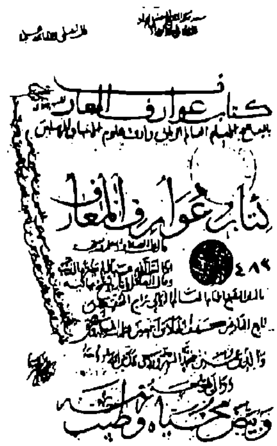
❁ ❁ ❁

ولا بدَّ من التنبيه : أنَّ غالب نسخ « العوارف » وخصوصاً (ج ، ح ، ي) قد كُتب كثير من هوامشها باللغة الأعجمية ، وأنَّ صيغ التحمل والأداء التي وردت في الأسانيد جاءت غالباً مختصرة مرموزة علىٰ حسب ما اصطلح وتواضع عليه أئمة الحديث في كتب الرِّواية ، وقد كتبتها تامَّةً حتىٰ لا تُشوِّشَ القارئ ولا تختلطَ بصيغ أخرىٰ ، وخصوصاً أنَّ هـٰذا الكتاب كثير التداول من كافَّة الاختصاصات والمستويات .

ولا بدَّ من التنبيه أيضاً : أنَّ بعض النسخ ـ وخصوصاً (أ ، و ، ح ، ي) ـ جاءت صيغة الصلاة على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيها مختصرةً مرموزة ؛ هـٰكذا : (صلعم) ، وذلك في كثير من المواضع ، وقد نصَّ أئمَّة الحديث ومنهم الإمام النووي علىٰ كراهة ذلك وعدم حسنه ، وقد أثبتُّها تامَّة علىٰ حسب الصيغة المتداولة كثيراً في الكتاب .

❁ ❁ ❁

صور من المخطوطات المستعان بها



راموز ورقة العنوان من النسخة (أ)

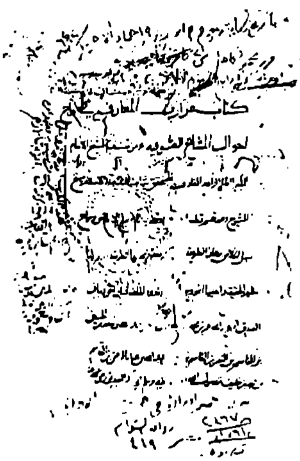


راموز الورقة الأولى من النسخة (أ)



اللهم انفعنا بمتابعتهم واحشرنا في زمرتهم جميعا يا أرحم الراحمين

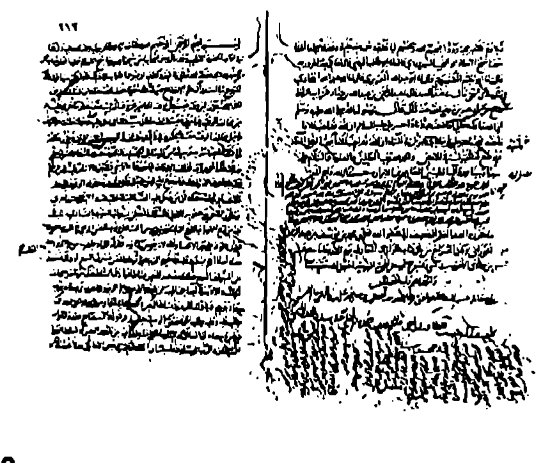
راموز الورقة الأخيرة من النسخة (أ)



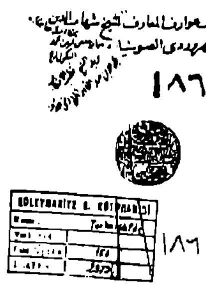
راموز ورقة العنوان من النسخة (ب)



راموز الورقة الأولى من النسخة (ب)



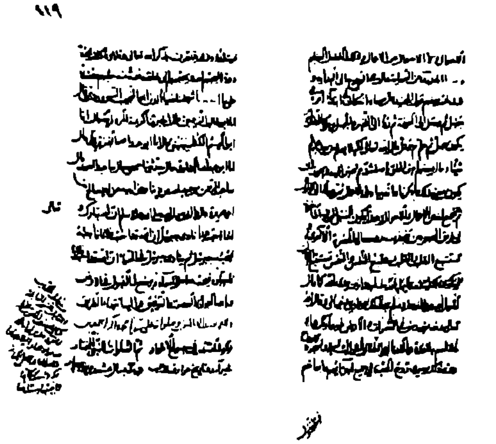
راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ب)



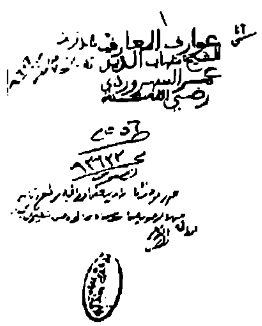
رأموز ورقة العنوان من النسخة (ج)



رأموز الورقة الأولى من النسخة (ج)

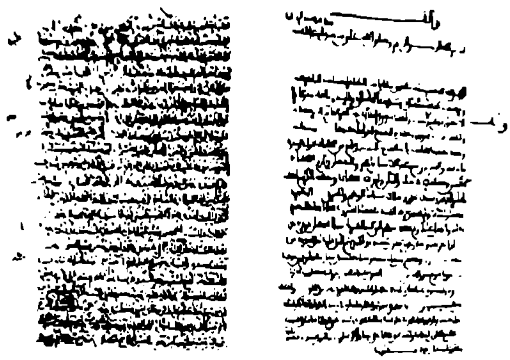


راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ج)

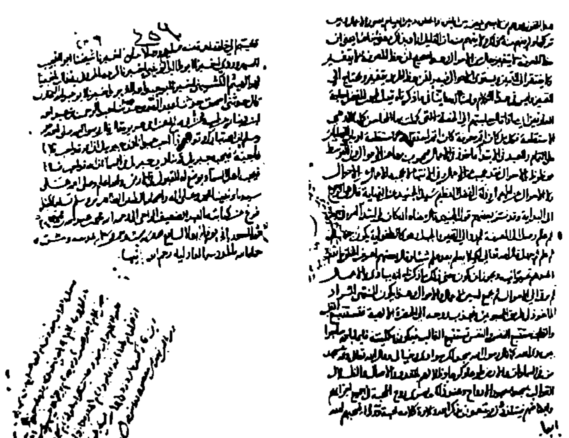


عوارف المعارف
للشيخ شهاب الدين
عمر السهروردي
رضي الله عنه

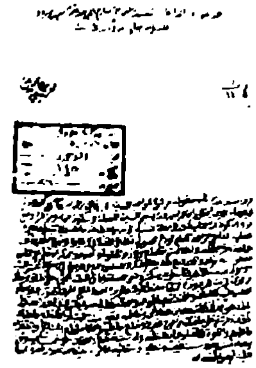
راموز ورقة العنوان من النسخة (د)



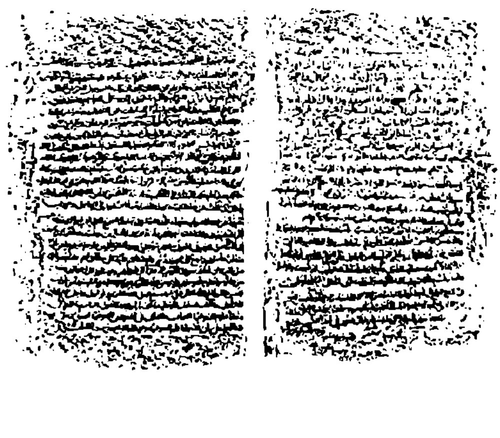
راموز الورقة الأولى من النسخة (د)



راموز الورقة الأخيرة من النسخة (د)



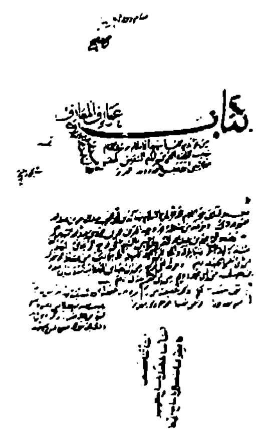
راموز ورقة العنوان من النسخة (هـ)



راموز الورقة الأولى من النسخة (هـ)



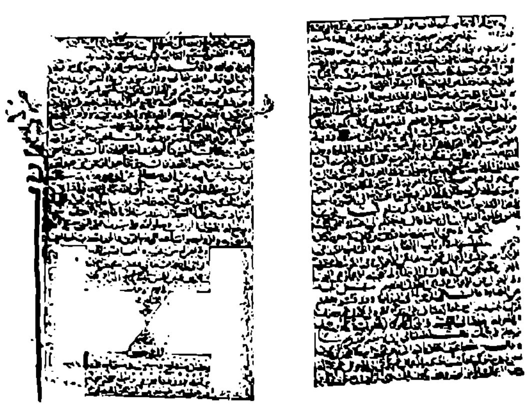
راموز الورقة الأخيرة من النسخة (هـ)



راموز ورقة العنوان من النسخة (و)



راموز الورقة الأولى من النسخة (و)

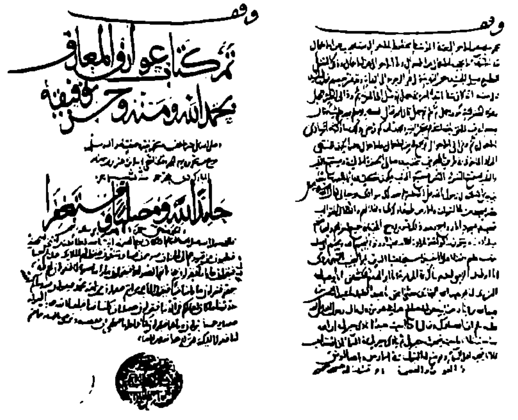


راموز الورقة الأخيرة من النسخة (و)



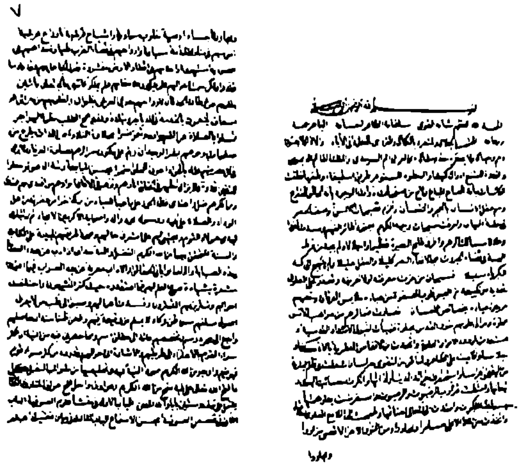
بسم الله الرحمن الرحيم

راموز الورقة الأولى من النسخة (ز)

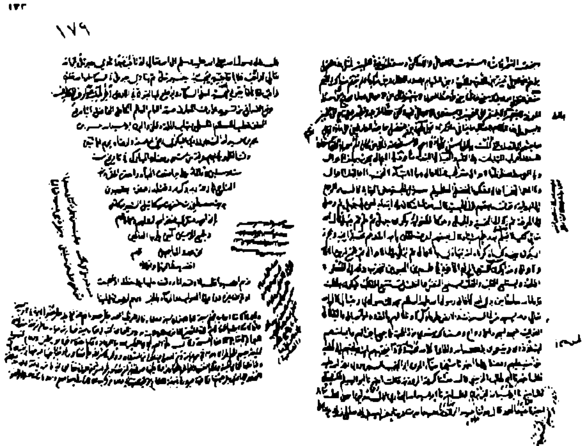


تم كتاب عوارف المعارف بحمد الله ومنه وحسن توفيقه

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ز)



راموز الورقة الأولى من النسخة (ح)



راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ح)

عقيدة السهروردي
المستلة من عقيدته النفيسة
«أعلام الهدى وعقيدة أرباب التقى»

[عقيدة السهروردي]

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي[1]

تعالى اللهُ لا إلـٰهَ إلا هوَ ، لا ضدَّ لهُ ، ولا ندَّ لهُ ، ولا شَبَهَ لهُ ، ولا مِثْلَ لهُ ، ولا ولدَ لهُ ، ولا والدَ لهُ ، ولا وزيرَ لهُ ، ولا نظيرَ لهُ

لا تُدرِكُ كُنْهَ عَظَمتِهِ الأوهامُ ، ولا تَبلُغُ شَأْوَ كِبْريائِهِ الأفهامُ ، ولا يَعْترِي ذاتَهُ المُقدَّسَ التأثُّرُ والآلامُ ، والتغيُّرُ والأَسْقامُ ، والسِّنَةُ والمنامُ ، والافتراقُ والالتئامُ .

جَلَّ عمَّا يجولُ بهِ الوَسْواسُ ، وعَظُمَ عمَّا تتكيَّفُهُ الحواسُّ ، وكَبُرَ عمَّا يحكمُ بهِ القياسُ ، لا يُصوِّرُهُ خيالٌ ، ولا يُشاكِلُهُ مِثالٌ ، ولا يَنُوبُهُ زوالٌ ، ولا يَشُوبُهُ انتقالٌ ، ولا يلحقُهُ فِكْرٌ ، ولا يَحصُرُهُ ذِكْرٌ ، قَيُّومٌ أَزَليٌّ ، دَيْمُومٌ سَرْمَديٌّ ، لا تُحَدُّ أَزَلِيَّتُهُ بـ (متىٰ) ، ولا تُقيَّدُ أَبَدِيَّتُهُ بـ (حتَّىٰ) ، لا ينطلقُ عليهِ التعيينُ ، ولا يتطرَّقُ إليهِ التَّأْيِينُ .

إنْ قلتَ : (أين) فقد سَبَقَ المكانَ ، وإنْ قلتَ : (متىٰ) فقد تَقَدَّمَ

---

(١) هـٰذه العقيدة مُستلَّةٌ من عقيدته النفيسة : « أعلام الهدىٰ وعقيدة أرباب التقىٰ » ، وهي عبارة عن الفصل الثاني منها ، الذي تناول الحديثَ عن شهادة (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) والتوحيدِ والتنزيهِ ونفي التشبيه ، وقد عدَّها الإمامُ العارف المُحقِّق عفيفُ الدِّين اليافعيُّ مِنْ مِلاح عقائد الأولياء العارفين ، واكتفىٰ في كتابه « روض الرياحين » (ص٥٧٦-٥٧٧) بإيراد هـٰذا الفصل منها ؛ نظراً لأهمِّيَّته ومدارِ علم التوحيد عليه .

الأزمانَ ، وإنْ قلتَ (كيف) فقد جاوَزَ الأشباهَ والأمثالَ والأقرانَ ، وإنْ طلبتَ الدليلَ فقد غَلَبَ الخبرَ العِيانُ ، وإنْ رُمْتَ البيانَ فذرَّاتُ الكائناتِ بيانٌ وبُرْهانٌ .

أوَّلٌ آخِرٌ ، ظاهرٌ باطنٌ ، تفانتِ الأوائلُ والأواخرُ في أَزَلِيَّتِهِ وأَبَدِيَّتِهِ ، تَفَرَّدَ في الأَزَلِ بنَعْتِ العَظَمةِ والجلالِ قبلَ الكَوْنِ والمكانِ ، والدُّهُورِ والأَزْمانِ ، والحِينِ والأَوَانِ ، فالمكانُ جواهرُ وأجسامٌ خَلَقَها ، والدُّهُورُ أوقاتٌ وأزمانٌ قَدَّرَها ، كلُّ ذلكَ موسومٌ بالحَدَثِ .

عَرَفْنا المكانَ والزمانَ بتعريفِهِ إيَّانا ، وإنْ شاءَ كَوَّنَنا ولم نعرفْ زماناً ولا مكاناً ، وكوَّنَنا في المكانِ ، ولو شاءَ كَوَّنَنا ولا مكانَ ، فعِلْمُنا بأنَّنا لا نكونُ إلا في مكانٍ . . مِنْ قضايا عَقْلِنا ، وهٰذهِ القضايا هيَّأَها لنا نعقلُ بها المعقولَ ونعلمُ بها المعلومَ ، ولو شاءَ هَيَّأَ لنا غيرَ هيئاتِنا

فعَوَالِمُ قُدْرتِهِ غيرُ محصورةٍ ، وغرائبُ مَشِيئتِهِ غيرُ منكورةٍ ، وما نحنُ فيهِ مِنَ العالَمِ بما نحنُ عليهِ مِنَ العقلِ والعِلْمِ . . عالَمٌ مِنْ عوالِمِهِ

ولا تَستبعِدْ قولي : (لو شاءَ كوَّنَنا في غيرِ مكانٍ) ؛ فقد كَوَّنَ المكانَ لا في مَكَانٍ ؛ إذ لو كانَ في مكانٍ لَتَسَلْسَلَ

فلا تَحصُرِ القُدْرةَ بعقلِكَ ؛ إذ العقلُ قُوَّتُهُ أنْ يَحصُرَ الحِكْمةَ ، فأمَّا القُدْرةُ فلا تَحصُرُها ، فحَدِّثْ عنِ البحرِ ولا حَرَجَ .

ومِنْ هٰذا الأساسِ تَمَشَّتْ وتبيَّنتِ الأمورُ الأُخْرَوِيَّةُ ، وعَلِمَها مَنْ عَلِمَها ، وأنكرَها مَنْ عَجزَ عقلُهُ عن إدراكِها .

فمَنْ يكونُ المكانُ والمُكوَّنُ فيهِ والزمانُ والمُقدَّرُ فيهِ عالَماً مِنْ عوالِمِهِ ،

ويسيراً مِنْ عَمِيمِ قُدرتِهِ . . كيف يَحصُرُهُ الزمانُ والمكانُ ؟!

فما أُظهِرَ في عالَمِ المُلْكِ والشهادةِ عالَمُ الحِكْمةِ ، والعقلُ الموهوبُ لنا مُوكَلٌ بهٰذا العالَمِ ، وهٰذا العالَمُ مِنَ العَرْشِ إلى الثَّرَىٰ . . عالَمٌ مِنْ عوالِمِهِ ، فصُوَرُ العالَمِ ، وكلُّ ما حواهُ ؛ مِنَ الأرضِ والسماءِ ، والماءِ والنارِ والهواءِ ، والعرشِ والكُرْسيِّ ، والجِنِّيِّ والإِنْسيِّ ، والأَفلاكِ والأَمْلاكِ ، والأَلْوانِ والأَكْوانِ ، والأَجْرامِ والاصْطِكاكِ ، والشمسِ والقمرِ والنجومِ ، إلىٰ أعماقِ أطباقِ التُّخُومِ ؛ بالنسبةِ إلى العَظَمةِ الإلـٰهيَّةِ . . أقلُّ وأَحْقرُ مِنْ خَرْدَلةٍ بالنسبةِ إلىٰ جميعِ العالَمِ .

ففَرِّغْ بالَكَ عندَ ذلكَ مِنْ قياسِكَ أنَّهُ سبحانَهُ داخلُ العالَمِ أو خارجُ العالَمِ ، فما أَحْقَرَكَ وأَحْقَرَ عِلْمَكَ !! فلو فتحتَ عينَ بصيرتِكَ . . استَحْيَيْتَ مِنْ قياسِكَ وفِكْرِكَ ، ووَهْمِكَ وخيالِكَ

أيُّها المحدودُ المحصورُ ؛ لا ينتجُ فكرُكَ إلا محدوداً محصوراً ، وأيُّها المُحِيطُ بهِ الجهاتُ ؛ لا يحكمُ علمُكَ إلا بالجهاتِ ؛ فالجهاتُ مِنْ جُمْلةِ العالَمِ ، وقد علمتَ نسبتَهُ إلىٰ عظمةِ اللهِ

فتبارك الله رب العالمين

❁ ❁ ❁

وصية السهروردي
الى ولده وتلميذه
عماد الدين أبي محمد السهروردي

[وصية السهروردي]

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه الإعانة(١)

يا بُنيَّ ؛ أُوصِيكَ بتقوى اللهِ تعالىٰ وخَشْيتِهِ في السرِّ والعلانيَةِ ، ولُزُومِ حُقُوقِ اللهِ تعالىٰ ، وحقِّ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وحقِّ والدَيكَ ، وحقِّ المشايخِ أجمعِينَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يرضىٰ عنكَ ، واحْفَظِ اللهَ تعالىٰ في السِّرِّ والعلانيَةِ .

ولا تَدَعْ قراءةَ القرآنِ ظاهراً وباطناً ، وسِرّاً وعلانيَةً ؛ بالفهمِ والتدبُّرِ والتفكُّرِ ، والحُزْنِ والبكاءِ ، وارجعْ إلى القرآنِ في جميعِ الأحكامِ ؛ فإنَّ القرآنَ حُجَّةُ اللهِ تعالىٰ على خَلْقِهِ ، واحْفَظْ حقَّهُ

ولا تَعدِلْ عنِ العِلْمِ خَطْوةً ، وتَعَلَّمِ الفقهَ ، ولا تَكُنْ مِنْ جُهَّالِ الصُّوفيَّةِ وعوامِّهِم ، وقُرَّاءِ الأسواقِ(٢) ؛ فإنَّهُم لُصُوصُ الدِّينِ ، وقُطَّاعُ الطريقِ على المسلمينَ .

---

(١) هـٰذه الوصيَّة من أنفس الوصايا لدىٰ سادتنا الصوفيَّة ، وهي مأخوذةٌ من مِشْكاة النبوَّة ، وتُلخِّص طريقَ القوم المُتجلِّيَ بمقام الإحسان الذي تميَّزوا ببيانه وشرحه وتفصيله ، وقد أوصىٰ بها إمامُنا السُّهْرُورديُّ ولدَهُ عماد الدين أبا محمَّد عبد الله السُّهْرُوردي ، قدَّس الله روحهما الطاهرة .

(٢) في (أ ، ب) : (واهجر أهل الأسواق) بدل (وقراء الأسواق) ، وفي (ج) : (وفِرَّ من الأسواق) ، والمثبت من نسخة مستأنس بها ، ويُؤَيِّدُهُ : ما أورده السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٣٥٨) عن سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ أنَّهُ قال : (إيَّاكم وجيرانَ الأغنياءِ ، وقُرَّاءَ الأسواق ، وعلماءَ الأمراء) .

وعليكَ بالسُّنَّةِ ، وكُنْ على اعتقادِ أهلِ التوحيدِ ، واجتنبِ المُحدَثاتِ ؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بِدْعةٌ ، وكلَّ بِدْعةٍ ضلالةٌ .

ولا تصحبِ الأحداثَ والنِّسْوانَ ، والمُبتدِعةَ والأغنياءَ وأهلَ الهوىٰ[(١)] ؛ فإنَّها تُذهِبُ دِينَكَ

واقنَعْ مِنَ الدُّنيا باليسيرِ ، والْزَمِ الخَلْوةَ ، وابْكِ علىٰ خطيئتِكَ .

وكُلِ الحلالَ ؛ فإنَّهُ مِفْتاحُ الخيراتِ ، ولا تَمَسَّ الحرامَ ، فتَمَسَّكَ النارُ يومَ القيامةِ ، والْبَسِ الحلالَ تَجِدْ حلاوةَ الإيمانِ والعبادةِ ، وكُنْ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ وَجَلٍ[(٢)] ، ولا تنسَ مَوقِفَكَ بينَ يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وأَكْثِرْ مِنْ صلاةِ الليلِ وصيامِ النَّهارِ ، ولا تتخلَّفْ عنِ الجماعةِ غيرَ أنْ تكونَ إماماً ومُؤذِّناً

ولا تَطلُبِ الرِّئاسةَ ؛ فإنَّ مَنْ أحبَّ الرِّئاسةَ لم يُفلِحْ أبداً ، ولا تُوقِعْ في القَبالةِ شهادةً[(٣)] ، ولا تَحضُرْ مجالسَ القُضاةِ والسَّلاطينِ ، ولا تَدخُلْ في الوَصايا

وفِرَّ مِنَ الناسِ كما تَفِرُّ مِنَ الأسدِ ، وعليكَ بالخَلْوةِ حتىٰ لا يذهبَ دِينُكَ .

---

(١) في (ج) : (والعوام) بدل (وأهل الهوىٰ) .

(٢) في (ب) : (وكن في الدنيا علىٰ وجل) .

(٣) القَبالة : الورقة التي يُكتَبُ فيها الحق والتوثُّق ، ورُوي عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما أنَّهُ قال : (إيَّاكم والقَبالاتِ ؛ فإنَّها صَغارٌ وفضلُها رباً) ؛ وهو أن يتقبَّلَ بخراج أو جباية أكثرَ ممَّا أُعطي ، فذلك الفضل رباً . انظر « تحفة المحتاج » (٥/١٠٦) ، و« النهاية في غريب الحديث والأثر » (٤/١٠)

وعليكَ بالسَّفرِ لتُذَلِّلَ نفسَكَ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال « صُومُوا تَصِحُّوا ، وَسَافِرُوا تَغْنَمُوا »[1]

واحفَظْ قلوبَ المشايخِ ، ولا تغترَّ بقولِ مَنْ يمدحُكَ ، ولا تغتمَّ بقولِ مَنْ يَذمُّكَ ، ولْيَكُنِ المدحُ والذمُّ عندَكَ سواءً

وحَسِّنْ خُلُقَكَ مَعَ الخَلْقِ أجمعَ ، والْزَمِ التواضعَ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلهِ رَفَعَهُ ٱللهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ ٱللهُ »[2]

وعليكَ بالأدبِ في جميعِ الأحوالِ معَ كلِّ بَرٍّ وفاجرٍ ، وارْحَمْ جميعَ الخلائقِ صغيرِهِم وكبيرِهِم ، ولا تَنظُرْ إليهِم إلا بعينِ الرحمةِ

ولا تضحكْ ؛ فإنَّ الضَّحِكَ مِنَ الغَفْلَةِ ، وهوَ يُميتُ القلبَ ؛ فقد قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً »[3] ، ولا تأمنْ مِنْ مَكْرِ اللهِ ، ولا تَقنَطْ مِنْ رحمةِ اللهِ ، وعِشْ بينَ الخوفِ والرجاءِ .

يا بُنيَّ ؛ اترُكِ الدُّنيا ؛ فإنَّ في طَلَبِها ذهابَ دِينِكَ ، وعليكَ بالصومِ والصلاةِ ، وكُنْ معَ الفقرِ خفيفاً عَفِيفاً نَظِيفاً[4] ، مُتأدِّباً مُتواضِعاً مُتورِّعاً[5] ، عالماً مُتفقِّهاً ، بائناً عن جُهَّالِ الصُّوفيَّةِ وعوامِّهِم ، خادماً للمشايخِ بالمالِ

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٣١٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧٦) ، وأحمد (٣/٧٦) ، وابن حبان (٥٦٧٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٦٤٨٦) ، ومسلم (٢٣٥٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) في (ج) : (حنيفاً) بدل (خفيفاً) .

(٥) في (أ) : (مُتديِّناً) بدل (مُتأدِّباً) .

والبدنِ والجاهِ ، واحْفَظْ قلوبَهُم وأوقاتَهُم وسِيرتَهُم ، ولا تُنكِرْ عليهِم شيئاً إلا ما خالفَ الجماعةَ ؛ فإنَّكَ إنْ أنكرتَ عليهِم لم تُفلِحْ أبداً

ولا تَسْأَلْ عنِ الناسِ شيئاً أبداً ، ولا تَسْأَلِ الناسَ شيئاً ، ولا تُعارِضْهُم ، ولا تدَّخِرْ شيئاً لغدٍ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يأتي كلَّ يومٍ برزقٍ مقسومٍ[1]

وكُنْ سَخِيَّ النَّفْسِ والقلبِ ، باذلاً ما رزقَكَ اللهُ تعالىٰ ، وإيَّاكَ والبُخْلَ والحسدَ والغِلَّ والغِشَّ ؛ فإنَّ البخيلَ والحَسُودَ في النارِ .

ولا تُظْهِرْ حالَكَ للخَلْقِ في جميعِ الأحوالِ[2] ، ولا تُزيِّنِ الظاهرَ ؛ فإنَّ تزيينَ الظاهرِ مِنْ خرابِ الباطنِ[3] ، وثِقْ بما وَعَدَ اللهُ تعالىٰ مِنْ أمرِ الرِّزْقِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قد تكفَّلَ برِزْقِ كلِّ حيوانٍ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود : ٦] .

وأْيَسْ مِنْ جميعِ الخلائقِ ، ولا تَأْنَسْ بهِم ، وقُلِ الحقَّ ولو كانَ مُرّاً ، ولا تَرْكَنْ إلىٰ المخلوقينَ ؛ فإنَّ الخالقَ يطردُكَ عن بابِهِ[4] ، وعليكَ بخاصَّةِ نَفْسِكَ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ »[5] ، وكُنْ ناصحاً للخَلْقِ أجمعينَ .

وأَقْلِلْ مِنَ الطعامِ والشرابِ والنومِ والكلامِ ، ولا تأكلْ إلا عن فاقةٍ ،

---

(١) في (ب) : (يأتي برزق غد) ، ونحوه في (أ) .
(٢) في (ج) : (الأحكام) .
(٣) في (ب ، د) : (من خراب السر) ، وفي (أ) : (من خراب النفس) .
(٤) في (ج) : (المخلوق) بدل (الخالق) .
(٥) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) ، وابن حبان (٢٢٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ولا تتكلَّمْ إلا عن ضرورةٍ ، ولا تَنَمْ إلا عن غَلَبَةِ النومِ .

والزَمْ صلاةَ الليلِ وصومَ النهارِ ، ولا تُكثِرِ الجلوسَ في السَّماعِ ؛ فإنَّهُ يُنبِتُ النِّفاقَ ، ثمَّ يُمِيتُ القلبَ ، ولا تُنكِرْهُ ؛ فإنَّ لهُ أرباباً ، والسماعُ لا يَصلُحُ إلا لمَنْ قلبُهُ حيٌّ ، ونَفْسُهُ ميتةٌ ، فمَنْ كانَ علىٰ غيرِ هـٰذهِ الحالةِ . . فاشتغالُهُ بالصومِ والصلاةِ والأورادِ أَوْلىٰ .

وليَكُنْ قلبُكَ حزيناً ، وبدنُكَ عَلِيلاً ، وعيناكَ دامعةً ، وعَمَلُكَ خالصاً ، ودعاؤُكَ حَمْداً ، وثيابُكَ خُلْقاناً ، ورُفَقاؤُكَ فقراءَ ، وبيتُكَ مسجداً ، ومالُكَ فِقْهاً ، وزِينَتُكَ زُهْداً ، ومُؤْنِسُكَ ربّاً كريماً .

ولا تُؤَاخِ أحداً حتىٰ يتبيَّنَ لكَ منهُ خمسُ خِصَالٍ : يختارُ الفقرَ على الغنىٰ ، ويختارُ العملَ على العلمِ ، ويختارُ الآخرةَ على الدُّنيا ، ويختارُ الذُّلَّ على العِزِّ ، ويكونُ بصيراً بعِلْمِ السِّرِّ والعلانيَةِ ، ويكونُ مُستعِدّاً للموتِ .

يا بُنيَّ ؛ لا تَغُرَّنَّكَ الدُّنيا بزُخْرُفِها ؛ فإنَّ الدُّنيا خَضِرةٌ نَضِرةٌ حُلْوةٌ ؛ مَنْ تعلَّقَ بها تعلَّقتْ بهِ ، ومَنْ رَفَضَها رفضتْهُ ؛ لأنَّهُ لا سبيلَ لإبقائِها ، وكُنْ في الليلِ والنهارِ مُستعِدّاً للارتحالِ ، مائلاً إلى الآخرةِ[1]

يا بُنيَّ ؛ عليكَ بالخَلْوةِ ، وكُنْ وحيداً فَرِيداً مُنكسِرَ القلبِ مِنْ خوفِ اللهِ تعالىٰ حتىٰ تغرقَ في كراماتِ اللهِ تعالىٰ ، وكُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ ، وعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أصحابِ القبورِ ، واخرجْ منها كما دَخَلْتَها ؛ فإنَّكَ لا تدري ما اسمُكَ غداً يومَ القيامةِ .

---

(١) في (أ ، ب) : (وكن مستعداً للارتحال إلى الآخرة) بدل (وكن في الليل . . .) .

وفَّقَنا اللهُ تعالىٰ للعملِ بما فيهِ مِنَ الوصيَّةِ ، ويَعصِمُنا مِنْ خلافِهِ .

واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أعلمُ .

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تسليماً كثيراً إلى يوم الدين

* * *

القصيدة الشريشية

المسمّاة بـ:

أنوار السرائر وسرائر الأنوار

للإمام العارف الصوفي

تاج الدين أبي العباس أحمد بن محمد البكري الشريشي

(٥٨١-٦٤١هـ)

حققها وعلّق عليها

بلال محمد حاتم السقا

دار التقوى

دمشق الشام

كلمة موجزة
عن « القصيدة الرائية »
ومؤلفها تاج الدين الشريشي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله حمداً كثيراً يَجِلُّ عن العدِّ والحَصْر ، والصلاةُ والسلام على مَنِ ارتقى مقاماتٍ كثيرةً دونها رُتْبةُ النَّسْر ، وعلى آله وأصحابه الذين شَهِدُوا مَوْلاهم في السِّرِّ والجَهْر ، وعلى أولياء الله وأصفيائه الذين غابوا عن كلِّ كَوْنٍ ومُكوَّن ولو كانوا بين المُثقَّفة السُّمْر

وبعـد :

فإنَّ القصيدةَ النفيسةَ المُسمَّاةَ بـ : « أنوار السرائر وسرائر الأنوار ».. مِنْ أجلِّ القصائد التي نُظِمتْ في تدريج السلوك ، إلى حضرة مَلِك الملوك ؛ لكونها مع صِغَر جِرْمها.. غزيراً عِلْمُها ، مُضِيئاً نجمُها ، حُلْواً طعمُها ، بديعاً نظمُها ، ذاتَ عبارات رائقة ، وعُذُوبةٍ في لفظها ومعانٍ فائقة ، قد احتوتْ على جملةٍ من آداب الطريق ومُهِمَّاتِهِ ، وتدريجِ سلوكِهِ وذِكْرِ أحواله ومقاماتِهِ .

قال في « إثمد العينين في مناقب الأخوين » : (إنَّ هـٰذه القصيدةَ حُجَّةٌ عند أهل هـٰذه الطريقة ، ولم يَزَلِ المشايخُ رضي الله عنهم يَحضُّون

عليها ويُوصُون تلامذتَهُم بالعمل بها) .

ثمَّ نَقَلَ عن الشيخ أبي عبد الله محمَّد الهِزْمِيريِّ رضي الله عنه أنَّهُ كثيراً ما كان يُحرِّض عليها أصحابَهُ وجميعَ تلامذته ، وكان شديدَ العناية بها ، مُلتزِمَ الخيرِ للمُداوم عليها ، قال : (وكان هو يُدِيم الكلامَ عليها ، ويشرحُ بعضَ مقاماتها)[1]

وقال الفاسيُّ في « شرحه لهـٰذه القصيدة » عند قوله : (وإنَّ اشتياقي. . .) البيتَ : (وهـٰذا شأنُهُ رضي الله عنه في هـٰذه القصيدة ؛ لا يكادُ يأتي بثلاثة أبياتٍ فأكثرَ علىٰ صفةٍ واحدة ، بل يُنوِّعُ الأسباب ، ويُخالف بين صفات التراكيب ، ويُبدِلُ الكلامَ فهو علىٰ أنواع ، فهي كروضةٍ مُتعدِّدة الأزاهير ، مُتنوِّعة النواوير ، تجذبُ داخلَها قهراً بجَوَلان جميعِها ، وهـٰذا المعنىٰ من المَقَال ، هو المُسمَّىٰ بالسِّحْر الحلال ، وأنَّىٰ يَفِي مِثْلي بوصف هـٰذا العجب العُجاب ؟!)[2]

وقال أيضاً عند قوله : (فلا تكُ إلا تالياً. . .) البيت : (إنَّ مِنْ جملة محاسن هـٰذه القصيدة : أنَّ مَنْ نَظَرَها ببادئ الرأي هابها ، ومَنْ أَمْعنَ النَّظَرَ فيها أَلِفَها ، وبقَدْرِ مَضْغها تُستحلىٰ ، وهـٰذا شأنُ كلام الربَّانيِّين)[3]

وقال سيِّدي السِّجِلْمَاسيُّ في « الإبريز » في نهاية شرحه للأبيات المتعلِّقة

---

(١) انظر « شرح الفاسي على الرائية » (ص٣) ، و« الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز » (ص٢١٤) ، ووقع في « شرح الفاسي » : (الدميري) بدل (الهِزْميري) ، ولعلَّ الصواب ما أثبت من « الإبريز » ، والله تعالىٰ أعلم .

(٢) شرح الفاسي (ص١٥١)

(٣) شرح الفاسي (ص١٢٥) .

بالشيخ المربِّي وآدابِهِ وآداب المريد معه : (وهـٰذه القصيدةُ مِنْ أنفس ما يُسمَعُ ، وينبغي للمريد أن يحفظَ هـٰذه القصيدةَ ؛ فإنَّها قصيدةٌ مُنوَّرة ، فإن لم يُمكِنْهُ حفظُها كلِّها . . فليحفظِ الأبياتَ المُتعلِّقةَ بالشيخ المُربِّي)[1]

وممَّا يَدُلُّ علىٰ عَظَمة هـٰذه القصيدةِ وأهمِّيتها . . أنَّها أتتْ بجوهر ومضمونِ كتابِ أساس في علوم السلوك والتصوُّف ؛ وهو كتابنا هـٰذا « عوارف المعارف » ؛ فهي زُبْدةُ هـٰذا الكتاب وخُلاصتُهُ ، وفيها لُبُّهُ وعُصارتُهُ .

ومِنَ المَرائي والمُبشِّرات في قَبُول هـٰذه القصيدة الجليلة والعناية بها . . ما نقله الفاسيُّ أثناء شرح قول الناظم : (ففي التَّوب والزُّهدِ المقاماتُ كلُّها . . .) عن صاحب « إثمد العينين » ؛ وهو أنَّ أحدَ أكابر تلامذة الشيخ أبي عبد الله الهِزْميري ـ وهو الشيخ العارف أبو عثمانَ سعيدُ بنُ سليمان بن زاهد رضي الله عنه ـ قال : كنتُ ليلةً نائماً ، فرأيتُ كأنَّ الشيخَ ـ أعني : سيِّدي أبا عبد الله ـ في جامع الجزَّارين مِنْ مُرَّاكُشَ قاعداً علىٰ يسار الداخل من الباب الشرقي ، وعليه جماعةٌ من الناس جلوساً لأخذ العلم عنه ، فدخلتُ من الباب ، فلمَّا انتهيتُ إلى الحَلْقة وأنا أريدُ الجلوسَ معهم . . إذ رأيتُ جماعةً مُقبِلينَ من جهة القِبْلة ولهم نورٌ ساطع وجمالٌ ظاهر ، فنظرتُ إليهم ، فإذا هم أربعةُ نَفَرٍ ؛ نبيُّنا محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وإبراهيمُ صلواتُ الله عليه ، وموسىٰ صلواتُ الله عليه ، وعيسىٰ صلواتُ الله عليه وعليهم أجمعين .

فقام الشيخ رحمه الله وكلُّ مَنْ كان معه ، فلَقِيَهُم في نصف المسافة التي

---

(١) الإبريز (ص٢١٤) .

كانت بينهم ، فلَقِيَهُ صلَّى الله عليه وسلَّم بالبِشْر والسرورُ ظاهرٌ في وجهه ، فتعلَّقتُ به صلَّى الله عليه وسلَّم ، وجعلتُ أبكي وأتضرَّعُ وأُنادي : يا سيِّدي يا رسولَ الله ؛ عساك أنْ تُلقِّنَني شيئاً أنجو به مِنْ هـٰذه الدُّنيا ، وأتخلَّصُ به عند ربِّي ، فينظرُ إليَّ ويرجعُ إلىٰ إقباله على الشيخ مَرَّاتٍ ، ثمَّ التفتَ إليَّ وردَّ وجهَهُ للشيخ وقال له ألْقِ إليه يا فلانُ ، فقال له : يا رسولَ الله ؛ قد ألقيتُ إليهم ما عندي وبلَّغت حبَّهُم ، فردَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وجهَهُ إليَّ وإذا بهـٰذه القصيدة في يدي ، وكنتُ كثيراً ما أُلازِمُها ، فأخذها من يدي ، وجعل يتصفَّحُها إلىٰ أنْ وصل إلىٰ بيت من أبياتها ، فوضع عليه إِصْبَعَهُ ، وناولني الكُرَّاسةَ ، وأَوْمأ إلى البيت وقال لي عليك بهـٰذا ، والبيتُ قولُهُ رحمه الله تعالىٰ

ففي التَّوبِ والزُّهدِ المقاماتُ كلُّها فرَوْضُهُما مِنْ طِيبِهِ عَبَقُ النَّشْرِ (١)

ثمَّ قال الفاسيُّ : (وأخبرني الأخ في الله ، والحبيبُ في ذاته ؛ الشيخ أبو عبد الله محمَّدُ بنُ علي النبجي الزروالي . . أنَّهُ وجد بخطِّ شيخِهِ الأوَّل الشيخ العارف أبي محمَّدٍ عبدِ الوارث بن عبد الله اليالصوتيِّ رضي الله عنه علىٰ حاشية هـٰذا البيت : رُوِي [أنَّ] الناظمَ رحمه الله لمَّا كَمَّلَ هـٰذه القصيدةَ رأى النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في المنام وقد وضع صلَّى الله عليه وسلَّم مُسبِّحتَهُ الكريمةَ علىٰ هـٰذا البيتِ وهو يقولُ له : لُبابُ قصيدتِكَ هـٰذا البيتُ)(٢)

❁ ❁ ❁

---

(١) شرح الفاسي (ص١١٩) .

(٢) شرح الفاسي (ص١١٩) .

وأمّا الحائكُ لألفاظِ هٰذه القصيدةِ الرفيعة ، والمُطرِّزُ لمعانيها البديعة . .

فهو سيِّدي العارف المُربِّي الصُّوفي ، الأصولي النَّحْوي الشاعر الأديب ؛ تاج الدين أبو العبَّاس أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ أحمد بن محمَّد بن خلفِ القرشيُّ البكري الصِّدِّيقي السَّلَوي الشَّرِيشي المالكي .

وُلِد رضي الله عنه بـ (سَلَىٰ) بالمغرب سنة (٥٨١هـ) ، ونشأ بـ (مُرَّاكُشَ) ، واستوطن الفَيُّومَ من مصرَ ، وبها تُوفِّيَ في ربيع الأنور سنة (٦٤١هـ) ، وقيل : سنة (٦٤٠هـ) .

كان رضي الله عنه وافرَ الحظِّ من علم البيان نحواً وأدباً ، شاعراً مُحسِناً ، مُحقِّقاً لعلم الكلام ، بارعاً في أصول الفقه ، مُتقدِّماً في التصوُّف ، وإليه انقطع ، وعليه عوَّل ، وفيه صنَّف .

وأخذ بالمغرب : عن الإمام الأصوليِّ الزاهد أبي عبد الله محمَّدِ بن علي بن عبد الكريم الكَتَّانيِّ (ت٥٩٥هـ) ، والإمامِ النَّحْويِّ أبي ذرٍّ مصعبِ بن محمَّد بن مسعود الخُشَنيِّ الأندلسي الجَيَّاني (ت ٦٠٤هـ) .

ثمَّ شرَّق وحجَّ ، فروىٰ ببغدادَ : عن الإمام قاضي القضاة عمادِ الدين أبي صالحِ نصرِ بن عبد الرزَّاق بن القطب الكبير سيِّدي الشريف عبد القادر الجِيلانيِّ (ت ٦٣٣هـ) ، والإمامِ المُحدِّث المؤرِّخ أبي الحسن محمَّدِ بن أحمد ابن خَلَف القَطِيعيِّ (ت ٦٣٤هـ)

وأخذ التصوُّفَ ذوقاً وإشراقاً : عن شيخ شيوخ وقته ، وقُدْوةِ أهل عصره ، الإمامِ الفقيه الصُّوفيِّ شهابِ الدين أبي حفصٍ عمرَ بن محمَّد بن

عبد الله السُّهرُوَرْديّ البَكْري الصِّدِّيقي (ت ٦٣٢هـ)[١]

وأخذ علمَ الكلام : عن الإمام الأصوليّ المُتكلِّم تقيِّ الدين أبي العِزِّ مُظفَّرِ بن عبد الله المعروف بـ (المُقترَح)

وأصولَ الفقه عن الإمام الأصوليِّ المُتكلِّم شمسِ الدين أبي الحسن عليِّ بن إسماعيل بن علي الأبياريِّ (ت ٦١٦هـ)

ومن مؤلفاته غير « القصيدة الرائيَّة » : « أسرار أصول الدين » ، و« أسرار الرسالة » ، و« الأسرار » ، و« أسنى المواهب » ، و« صحبة المشايخ » ، و« عوارف الهدىٰ وهدى العوارف » ، وكتابٌ في السماع ، و« شرح المُفصَّل » في النحو ، و« شرح الجُزُوليَّة » في النحو أيضاً[٢]

❁ ❁ ❁

(١) وذكرت في (١/ ٤٥) أنه نَظَمَ لبَّ كتابه « عوارف المعارف »

(٢) انظر ترجمة الشَّريشي : في « التكملة لوفيات النقلة » (٣/ ٦٠٠) ، و« نجم المهتدي » (٢/ ٨) ، و« تاريخ الإسلام » (٤٦/ ٤٢٧ـ ٤٢٨) ، و« المقفى الكبير » (١/ ٤٣٢) ، و« بغية الوعاة » (١/ ٣٦٠ـ ٣٦١) ، و« شرح الفاسي على الشَّريشية » (ص٣ـ ٤) ، و« الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز » (ص٢١٤ـ ٢١٥)

[القصيدة الشريشية]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

قالَ الشيخُ الإمامُ المُحقِّقُ تاجُ الدِّينِ الشَّرِيشيُّ ، رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ورضيَ عنهُ ونفعَنا به :

مُقدِّماتُ التوبةِ الأُولىٰ[1]

١ـ إِذَا مَا بَدَا مِنْ بَاطِنٍ حَالَةُ ٱلزَّجْرِ   فَمَا هُوَ إِلَّا ٱلْبِرُّ مِنْ مِنَحِ ٱلْبَرِّ[2]

٢ـ وَمِنْ حُكْمِ حَالِ ٱلإِنْتِبَاهِ إِذَا بَدَا   شُهُودُكَ حَالَ ٱلنَّفْسِ فِي غَايَةِ ٱلْفَقْرِ

علامةُ الانتباهِ خمسٌ

٣ـ فَتَسْتَغْفِرُ ٱلرَّحْمَـٰنَ مِنْ كُلِّ زَلَّةٍ   وَتَسْأَلُهُ عَفْواً يُرِي ٱلْبِشْرَ فِي ٱلنَّشْرِ[3]

٤ـ وَإِنْ ذُكِرَتْ دُنْيَا ٱعْتَبَرْتَ وَإِنْ جَرَىٰ   لِأُخْرَاكَ ذِكْرٌ كُنْتَ مُنْشَرِحَ ٱلصَّدْرِ[4]

---

(١) جميع العناوين مُستلَّةٌ من المخطوطة الأزهرية ، مع تصرُّف يسير في بعضها ، ولعلَّها من وضع الناسخ ، والله تعالىٰ أعلم ، وأضفتُ بعض العناوين من عندي .

(٢) لم يبدأ الناظم بالبسملة والحمدلة خطّاً ، ولعلَّهُ فعل ذلك بلسانه أو في نَفْسه ، قال الفاسي في « شرحه » (ص٥) : (ولعلَّ الناظم رضي الله عنه لشِدَّة تعطُّشه إلىٰ ذكر ما بُيِّن من المسالك ، ومحبَّةِ سُرْعةِ [الائتمار] للأمر الوارد بذلك . . شَرَعَ في مقصوده من أوَّل وَهْلةٍ مُكتفِياً بحمد الله في نفسه ؛ إذ ذاك كان بحُكْم وقته ؛ أي : لكونه مأخوذاً عن نفسه ، مُقتطَعاً عن دائرة حِسِّه ، ناطقاً لا بلسانه ، مُسطِّراً لا ببَنانه) .

(٣) أي ومن حكم حال الانتباه أيضاً : استغفارُكَ الرحمـٰنَ من كلِّ زلَّة وخطيئة ، وسؤالُكَ منه عفواً يُرِيكَ السرورَ والفرح في الحياة الثانية يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين ؛ بخلاصك من ألم العذاب ، وسقوطِ العقاب . « شرح الفاسي » (ص٨ ـ ٩) .

(٤) في بعض النسخ : (اعتزلت) بدل (اعتبرت) ، والمعنىٰ عليهما واضح ، والمثبت أوفق لـ « العوارف » ، كما سيأتي في (٢/ ٤٦٢)

٥ـ وَإِنْ ذُكِـرَ ٱلْجَبَّـارُ جَـلَّ جَـلَالُـهُ نَشَرْتَ عَلَى ٱلْعَلْيَاءِ أَلْوِيَةَ ٱلْفَخْرِ[١]

حالُ اليَقَظةِ

٦ـ وَمِنْ بَعْدِهِ ٱلْحَالُ ٱلَّذِي هُوَ يَقْظَةٌ وُرُودٌ يَرُدُّ ٱلْكَسْرَ فِي غَايَةِ ٱلْجَبْرِ[٢]

٧ـ تُشَاهِـدُ أَنْحَـاءَ ٱلنُّحَـاةِ فَتَنْتَحِي عَلَىٰ ثِقَةٍ مَا لَيْسَ بِٱلْمَسْلَكِ ٱلْوَعْرِ[٣]

مَقَامُ التوبةِ

٨ ـ فَيَبْدُو مَقَامُ ٱلتَّوْبِ وَهْوَ مُمَهَّدٌ فَدُونَكَ فَٱقْرَعْ بَابَهُ قَرْعَ مُضْطَرٍّ[٤]

٩ـ وَمِنْ بَعْدِهِ ٱلشَّيْخُ ٱلَّذِي هُوَ قُدْوَةٌ يُلَقِّي مُرَادَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلسِّرِّ وَٱلْجَهْرِ[٥]

المُرادُ بالتوبةِ

١٠ـ فَقُمْ وَٱجْتَنِبْ مَا ذَمَّهُ ٱلشَّرْعُ وَٱجْتَلِبْ لِمَا خَصَّهُ بِٱلْمَدْحِ فَهْوَ جَنَى ٱلدَّبْرِ[٦]

---

(١) ويُلخِّص هٰذه الأبياتَ الثلاثةَ : قولُ سيِّدي العارف أبي يزيد البِسْطامي : (علامةُ الانتباه خمسٌ : إذا ذَكَرَ نفسه افتقر ، وإذا ذكر ذنبَهُ استغفر ، وإذا ذكر الدنيا اعتبر ، وإذا ذكر الآخرة استبشر ، وإذا ذكر المَوْلىٰ افتخر) ، وسيأتي في (٢/ ٤٦٢)

(٢) في النسخة الأزهرية : (يُريكَ الكسرَ عاريةَ الجبر) بدل (يَرُدُّ. . .) إلىٰ آخره ، وفي البيت روايات أخرىٰ ذكرها الفاسي ، والمعنىٰ على المثبت : وينزل بالعبد بعدَ حال الانتباه مِنْ رَقْدة الغفلة . . حالُ اليَقَظة ، وهو واردٌ من الحقِّ يهجم علىٰ قلبه ، فيَرُدُّ ما كان فيه مكسوراً بصدمة المخالفة في غاية الجبر والتلافي . انظر « شرح الفاسي » (ص١٠)

(٣) أي تشاهدُ وترىٰ بسبب هٰذا الواردِ مقاصدَ القاصدين ـ أي طُرُقَ المُتوجِّهين ـ فتقصدُ منها علىٰ بصيرة ومعرفة منك بما قصدته . . طريقاً ومسلكاً سهلاً للمرور فيه ، ليس فيه وُعُورةٌ ولا صعوبة . « شرح الفاسي » (ص١٠) .

(٤) أي : يظهر وينشأ مقامُ التوبة مُوطَّأً مُمهَّداً بعدَ المُقدِّمات السابقة ، فالزَمْ حِصْنَ هٰذا المقام ، واقرَعْ بابَهُ قرعَ مُضطرٍّ صادقٍ في الولوج . انظر « شرح الفاسي » (ص ١٠)

(٥) قوله : (ومن بعده) : أي ومن بعد مقام التوبة ، وفي بعض النسخ : (يُلقِي) من الإلقاء بدل (يُلقِّي)، وفي بعضها : (يُلاقي). انظر « شرح الفاسي » (ص ١١ـ١٢).

(٦) في نسخة الشرح (العلم. . . الدُّر) بدل (الشرع. . . الدَّبْر) ، والمُراد بالشرع : =

١١ـ وَإِنْ تَسْمُ نَحْوَ ٱلْفَقْرِ نَفْسُكَ فَٱطَّرِحْ هَـوَاهَـا وَجَـانِبْـهُ مُجَـانَبَـةَ ٱلشَّـرِّ

١٢ـ وَضَعْهَا بِحِجْرِ ٱلشَّيْخِ طِفْلاً فَمَا لَهَا خُرُوجٌ بِلَا فَطْمٍ عَنِ ٱلْحِجْرِ وَٱلْحَجْرِ[(١)]

١٣ـ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ سَلْبَ ٱلْإِرَادَةِ وَصْفُهُ فَلَا يَطْمَعَنْ فِي شَمِّ رَائِحَةِ ٱلْفَقْرِ[(٢)]

١٤ـ وَهَـٰذَا وَإِنْ كَانَ ٱلْعَزِيزَ وُجُودُهُ وَلَـٰكِنَّهُ فِي ٱلْحَزْمِ خَالٍ مِنَ ٱلْعُسْرِ[(٣)]

علامةُ الشيخِ

١٥ـ وَلِلشَّيْخِ آيَاتٌ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ فَمَا هُوَ إِلَّا فِي لَيَالِي ٱلْهَوَىٰ يَسْرِي

١٦ـ إِذَا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ لَدَيْهِ بِظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ فَٱضْرِبْ بِهِ لُجَجَ ٱلْبَحْرِ[(٤)]

= الشارع ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ حقيقةً ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم نائبٌ عنه ومُبلِّغ ، ويُطلَقُ ويُرادُ به : القواعد الدِّينيَّة والأحكام السمعيَّة ، ويجوز إرادته هنا أيضاً ، والدَّبْر : جماعة النحل والزنابير ، والمُراد به هنا النحل ، وانظر « شرح الفاسي » (ص ١٥ـ١٦) .

(١) الحجر الأوَّل : هو الحِجْر المعروف الذي هو مُقدَّم القميص ، والحجر الثاني : معناه المنع ؛ فالأوَّلُ : كنايةٌ عن نَظَر الشيخ وتصرُّفه ، والثاني : كناية عن منعه للمريد ما لا يليق به . « الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز » (ص٢٠١ـ٢٠٢) .

(٢) قوله : (سلبَ الإرادة) ؛ أي : مسلوبَ الاختيار والتصرُّف مع الشيخ المُربِّي ، وهـٰذا السَّلْبُ لا يَجْري في الواجبات ولا في الضروريَّات ؛ لأنَّ الشيخَ معزولٌ عن النَّظَر فيها ، والمريدَ ممنوعٌ من الاختيار فيها ؛ للزومها له علىٰ كل حال ، فاستئذانُهُ جهل واشتراطه ضلال . انظر « شرح الفاسي » (ص٢١ـ٢٢) .

(٣) قوله : (وهـٰذا) ؛ أي : الاتصافُ بسلب الإرادة .

(٤) أي : فانبِذْهُ وأَخرِجْهُ من دائرة سفينة المشيخة ، وأَلْقِهِ في لُجَجِ بحر النِّفاق ؛ بإيهامه وإظهارِهِ خلافَ ما هو به . « شرح الفاسي » (ص٢٣) .

١٧ـ وَإِنْ كَـانَ إِلَّا أَنَّـهُ غَيْرُ جَامِعٍ لِوَصْفَيْهِمَا جَمْعاً عَلَىٰ أَكْمَلِ ٱلْأَمْرِ[1]

١٨ـ فَأَقْرَبُ أَحْوَالِ ٱلْعَلِيلِ إِلَى ٱلرَّدَىٰ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا ٱلطَّبِيبُ عَلَىٰ خُبْرِ[2]

١٩ـ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا ٱلْوُجُودُ أَقَامَهُ وَأَظْهَـرَهُ مَنْشُـورُ أَلْـوِيَـةِ ٱلنَّصْـرِ[3]

٢٠ـ فَـأَقْبَـلَ أَرْبَـابُ ٱلْإِرَادَةِ نَحْـوَهُ بِصِدْقٍ يُخَلِّي ٱلْهَشَّ فِي جَلَدِ ٱلصَّخْرِ[4]

٢١ـ وَآيَتُـهُ أَلَّا يَمِيـلَ إِلَـىٰ هَـوىً فَدُنْيَاهُ فِي طَيٍّ وَأُخْرَاهُ فِي نَشْرِ[5]

٢٢ـ وَإِنْ كَانَ ذَا جَمْعٍ لِأَكْلِ طَعَامِهِ مُرِيدُ فَلَا تَصْحَبْهُ يَوْماً مِنَ ٱلدَّهْرِ[6]

---

(١) قوله : (وإن كان) ؛ أي وُجد ، وفاعلُ (كان) : إمَّا الشيخ ، أو عِلْمُ الظاهر والباطن . انظر « شرح الفاسي » (ص٢٧) ، و« الإبريز » (ص١٩٩) .

(٢) العليل المريض ، وفي بعض النسخ : (منه) بدل (منها) ؛ أي : من العليل ، وعلى التأنيث يرجع إلىٰ (أحوال العليل) ، وانظر « شرح الفاسي » (ص ٢٧) .

(٣) المراد بالوجود هنا : الناس ، وقولُهُ : (منشور ألوية النصر) فاعل (أظهره) إن قُرئ بالرفع ، وإن قُرئ بالنصب كان حالاً ، وفاعل (أظهره) ضمير يعود على (الوجود) . « شرح الفاسي » (ص٢٨) .

(٤) قوله : (فأقبلَ) معطوف علىٰ (أظهره) ، وجواب الشرط في البيت السابق محذوف ؛ أي : فهو كذلك ؛ أي : غير مقبول كالذي قبله ، وقوله : (يُخلِّي الهشَّ . . .) إلىٰ آخره ؛ أي : يترك الأثر في الصخر الشديد الصلابة ، وفي النسخ التي شرح عليها السِّجِلْماسي في « الإبريز » : (جَلْمَد) بدل (جَلَد) ، وفي نسخة أشار إليها الفاسي : (جامد) ، وانظر « شرح الفاسي » (ص٢٨) ، و« الإبريز » (ص١٩٩) .

(٥) أي : تكون دنياه عنده في استتار ، وآخرتُهُ في انتشار ؛ فقوله : (فدنياه في طي) كنايةٌ عن الزهد فيها والإعراضِ عنها ، كما أنَّ قوله : (وأُخراه في نشر) كنايةٌ عن الرغبة والإقبالِ عليها . « الإبريز » (ص١٩٩) .

(٦) في بعض النسخ : (لبيت طعامه) بدل (لأكل طعامه) ؛ أي : يجمع الناس عنده لأكل الطعام ولا أَثَرَ له فيهم بتربية وسلوك وتزكية ، وقوله : (مريد) ؛ أي : يا مريد ، وفي بعض النسخ : (مريداً) علىٰ أنه لم يقصد مريداً مُعيَّناً ، وفي النسخ اختلاف ذكره الفاسي في « شرحه » (ص٣٣ـ ٣٤) .

٢٣ـ وَأَمَّـا بَيَـانُ ٱلشَّيْـخِ عَيَّنَـهُ لَنَـا وَتَعْيِينُهُ يُغْنِي عَنِ ٱلْبَحْثِ وَٱلسَّيْرِ[١]

مَنْ يُسأَلُ عنِ الشيخِ ويَدُلُّ عليهِ

٢٤ـ وَلَا تَسْأَلَنْ عَنْهُ سِوَىٰ ذِي بَصِيرَةٍ خَلِـيٍّ مِـنَ ٱلْأَهْـوَاءِ لَيْـسَ بِمُغْتَـرِّ
٢٥ـ فَمَنْ صَدِئَتْ مِرْآةُ نَاظِرِ فَهْمِهِ أَرَتْهُ بِوَجْهِ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَلَفِ ٱلْبَدْرِ[٢]
٢٦ـ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَدْرِي ٱلْعَرُوضَ فَرُبَّمَا يَرَى ٱلْقَبْضَ فِي ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ أَظْهَرِ ٱلْكَسْرِ[٣]

حالُ المُرِيدِ معَ الشيخِ

٢٧ـ وَلَا تُقْدِمَنْ قَبْلَ ٱعْتِقَادِكَ أَنَّهُ مُرَبٍّ وَلَا أَوْلَىٰ بِهَا مِنْهُ فِي ٱلْعَصْرِ
٢٨ـ فَـإِنَّ رَقِيـبَ ٱلْإِلْتِفَـاتِ لِغَيْـرِهِ يَقُولُ لِمَحْبُوبِ ٱلسِّرَايَةِ لَا تَسْرِ
٢٩ـ وَلَا تَعْتَرِضْ يَوْماً عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَفِيلٌ بِتَشْتِيتِ ٱلْمُرِيدِ عَلَىٰ هَجْرِ
٣٠ـ وَمَنْ يَعْتَرِضْ وَٱلْعِلْمُ عَنْهُ بِمَعْزِلٍ يَرَ ٱلنَّقْصَ فِي عَيْنِ ٱلْكَمَالِ وَلَا يَدْرِ
٣١ـ وَمَنْ لَمْ يُوَافِقْ شَيْخَهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ يَظَلَّ مِنَ ٱلْإِنْكَارِ فِي لَهَبِ ٱلْجَمْرِ
٣٢ـ فَذُو ٱلْعَقْلِ لَا يَرْضَىٰ سِوَاهُ وَإِنْ نَأَىٰ عَنِ ٱلْحَقِّ نَأْيَ ٱللَّيْلِ عَنْ وَاضِحِ ٱلْفَجْرِ[٤]

---

(١) فاعل (عيَّنه) يعود إلىٰ ما ذُكر في الأبيات قبله . « شرح الفاسي » (ص٣٥) .

(٢) أي : فمن صَدِئتْ عينُهُ يرى السوادَ في وسط القمر علىٰ وجه الشمس التي لا سواد فيها أصلاً ؛ لانعكاس الحقائق في حقِّهِ ، ومُرادُهُ : أنَّ مَنْ لم يكن ذا بصيرة فإنَّهُ يرى العيبَ في الشيخ الكاملِ فيُنفِّرُ عنه ، ويرى الكمالَ في السالك فيدلُّ عليه . « الإبريز » (ص٢٠٠) .

(٣) أي : ومن لم يكن يعرف علمَ ميزان الشعر . . فإنَّهُ ربَّما يظنُّ أنَّ القبضَ في (مفاعيلن) ـ وهو حذف الخامس الساكن منها ـ من أقبح العيوب ، وقوله : (في التطويل) ؛ أي في البحر الطويل .

(٤) قوله : (سواه) ؛ أي سوىٰ شيخه ، أو سوىٰ ما صدر منه ، والمعنىٰ على الأوَّل : فذو العقلِ الكاملِ السليم من آفات غلبة الهوىٰ وحكمِ الطبع السقيم . . لا يرضىٰ سوىٰ=

٣٣ـ وَلَا تَعْرِفَنْ فِي حَضْرَةِ ٱلشَّيْخِ غَيْرَهُ   وَلَا تَمْلَأَنْ عَيْناً مِنَ ٱلنَّظَرِ ٱلشَّزْرِ [١]

٣٤ـ وَلَا تَنْطِقَنْ يَوْماً لَدَيْهِ فَإِنْ دَعَا   إِلَيْهِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ ٱلْكَلِمِ ٱلنَّزْرِ [٢]

٣٥ـ وَلَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِهِ   وَلَا تَجْهَرُوا جَهْرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي قَفْرِ [٣]

٣٦ـ وَلَا تَرْفَعَنْ بِٱلضَّحْكِ صَوْتَكَ عِنْدَهُ   فَلَا قُبْحَ إِلَّا دُونَ ذَلِكَ فَٱسْتَقْرِ [٤]

٣٧ـ وَلَا تَقْعُـدَنْ قُـدَّامَـهُ مُتَـرَبِّعـاً   وَلَا بَادِياً رِجْلاً فَبَادِرْ إِلَى ٱلسَّتْرِ

٣٨ـ وَلَا بَاسِطاً سَجَّادَةً بِحُضُورِهِ   فَلَا قَصْدَ إِلَّا ٱلسَّعْيُ لِلْخَادِمِ ٱلْبَرِّ

٣٩ـ وَسَجَّادَةُ ٱلصُّوفِيِّ بَيْتُ سُكُونِهِ   وَلَا وَكْرَ إِلَّا أَنْ يَطِيرَ عَنِ ٱلْوَكْرِ [٥]

= شيخِهِ صاحباً ، ولا تميلُ نفسُهُ لغيره ؛ لِمَا شاهد منه بسرِّه ، وإن بَعُدَ شيخُهُ عن الحقِّ في بادئ الرأي بُعْدَ الليل عن الفجر الواضح البيّن ، والمعنىٰ على الثاني : فذو العقل لا يرضىٰ سوىٰ ما صدر من شيخه بالتسليم وحُسْنِ الظنِّ وجميلِ الاعتقاد ، وإن بَعُدَ ما صدر عن الشيخ في الظاهر بُعْدَ الليل عن الفجر الواضح البيِّن ؛ لكونه لا يقفُ مع ظواهر الأشياء ، بل يتعدَّاها وينظرُ إلىٰ بواطنها ، ويستخرجُ الحقَّ والحقيقة من ذلك . « شرح الفاسي » (ص٤٦) بتصرف .

(١) قوله : (النَّظَر الشَّزْر) يُقال : شَزَرَهُ : نظَرَ منه في أحد شِقَّيه ، أو نَظَرَ الغضبان بمُؤْخِرِ العين ، أو هو نَظَرٌ فيه إغضاءٌ ، أو النَّظَر عن يمين وشمال ، وكلُّها مُرادةٌ هنا إلا الأخير ؛ فإنَّهُ داخلٌ في قوله : (ولا تعرفن. . .) ؛ لأنَّهُ حثٌّ على الإقبال على الشيخ بالقلب والقالَب . « شرح الفاسي » (ص٤٧) بتصرف .

(٢) النَّزْر : القليل .

(٣) القَفْر : المفازة لا ماء بها ولا نبات .

(٤) أي : تتبَّعْ أنواع القبائح وصُوَرَها ؛ فإنَّكَ تجدُها دون هٰذه القبيحة ؛ وهي الضَّحِكُ أمامَ الشيخ وفي حضرته .

(٥) أي : محلُّ سجَّادة الصُّوفيِّ بيتُ سُكْناه ، لا مجلسُ شيخِهِ ، بل ينبغي له في مجلس شيخه التواضعُ والتصاغرُ والاشتغالُ بالخدمة ، وقولُهُ : (ولا وَكر. . .) الوَكْر عُشُّ الطائر الذي يأوي إليه ، وأطلقه هنا علىٰ مجلس الشيخ الذي يأوي إليه المريدون . « الإبريز » (ص٢٠٧) . =

٤٠ـ وَمَا دُمْتَ لَمْ تُفْطَمْ فَلَا فَرَجِيَّةٌ	عَلَيْكَ وَلَا تُلْفَ عَلَيْهَا بِمُسْتَجْرِي[(١)]
٤١ـ وَلَا تُرَيَنْ فِي ٱلْأَرْضِ دُونَكَ مُؤْمِناً	وَلَا كَافِراً حَتَّىٰ تُغَيَّبَ فِي ٱلْقَبْرِ
٤٢ـ فَإِنَّ خِتَامَ ٱلْأَمْرِ عَنْكَ مُغَيَّبٌ	وَمَنْ لَيْسَ ذَا خُسْرٍ يَخَافُ مِنَ ٱلْمَكْرِ
٤٣ـ وَلَا تَنْظُرَنْ يَوْماً إِلَى ٱلْخَلْقِ إِنَّهُ	يُخَلِّي طَلِيقَ ٱلصَّفْوِ فِي كَدَرِ ٱلْأَسْرِ[(٢)]
٤٤ـ وَإِنْ نَظَمَ ٱلْحَقُّ ٱلْكَرَامَاتِ أَسْطُراً	فَلَا تُبْدِيَنْ حَرْفاً لِغَيْرِكَ مِنْ سَطْرِ
٤٥ـ سِوَى ٱلشَّيْخِ لَا تَكْتُمْهُ سِرّاً فَإِنَّهُ	بِسَاحَةِ كَشْفِ ٱلسِّرِّ يَجْرِي عَلَىٰ بَحْرِ
٤٦ـ وَفِي ٱلْكَشْفِ إِنْ كُوشِفْتَ رَاجِعْهُ إِنَّهُ	لِإِيضَاحِ سِرِّ ٱلْكَشْفِ مُبْتَسِمُ ٱلثَّغْرِ
٤٧ـ وَلَا تَنْفَرِدْ عَنْهُ بِوَاقِعَةٍ جَرَتْ	فَفِي عَشاً عَيْنَاكَ وَٱلسَّمْعُ فِي وَقْرِ[(٣)]
٤٨ـ وَفِرَّ إِلَيْهِ فِي ٱلْمُهِمَّاتِ كُلِّهَا	فَإِنَّكَ تَلْقَى ٱلنَّصْرَ فِي ذَلِكَ ٱلْفَرِّ
٤٩ـ وَلَا تَكُ مِمَّنْ يَحْسُنُ ٱلْفِعْلُ عِنْدَهُ	فَيَفْسُدَ إِلَّا أَنْ تَفِرَّ إِلَى ٱلْكَرِّ[(٤)]

= والمعنىٰ : أنَّهُ لا ينبغي للمريد أن يجلس مكانَ الشيخ ويصرفَ الوجوه إليه ، إلا إذا كَمَلَ أمرُهُ ووصله الفِطَام ، وطار عن شيخه واستقلَّ بنفسه ؛ كالفرخ الذي كَمَلَتْ تربيتُهُ وقَدَرَ على الطيران ؛ فإنَّهُ يستقلُّ بأمره ولا يحتاج إلىٰ مَنْ يُربِّيه ويُغذِّيه .

(١) الفَرَجِيَّة : ثوبٌ واسع طويل الأكمام يتزيَّا به المشايخ ، وهـٰذا الحُكْمُ جارٍ في كلِّ زيٍّ للشيوخ ؛ لأنَّ العِلَّة واحدة ، وهو يختلف باختلاف الأعراف ، والمُستجرِي : هو الذي له جرأة على الشيء . « الإبريز » (ص٢٠٨) بتصرف

(٢) أي : لا تنظرَنْ لحظةً من اللَّحَظَات ووقتاً من الأوقات إلى الخَلْق فتُراعِيَهُم في أحوالك وأفعالك وأقوالك وشؤونك كلِّها من عبادات وعادات ؛ فإنَّ هـٰذا النظرَ يُخلِّي الطليقَ الصافيَ من العِلَل والآفات في كَدَرِ أسرِهما ؛ لأنَّكَ حيثُ نظرتَ إلى الخَلْق يدخل عليك الرياء والتصنُّع « الإبريز » (ص٢١٠) بتصرف .

(٣) العَشَا : ضعف البصر ، والوَقْر : ثِقَلٌ في الأذن ، وقيل : ذهاب السمع كلِّهِ . « شرح الفاسي » (ص٦٦) ، والشطر الثاني غير موزون ، إلا إذا استبدلنا (عشاً) بـ(عَشْوَةٍ) ، والله تعالىٰ أعلم .

(٤) الكَر : الرجوعُ ضد الفَرِّ ؛ أي لـٰكن إذا فررتَ من ذلك العُجْبِ والاستحسان إلى =

٥٠- وَمَنْ حَلَّ مِنْ صِدْقِ ٱلإِنَابَةِ مَنْزِلاً يَرَ ٱلعَيْبَ فِي أَفْعَالِهِ وَهْوَ مُسْتَبْرِي (١)

مَقَامُ المُجاهَدةِ

٥١- وَإِنَّ مَقَامَ ٱلتَّوْبِ فِيهِ لَحِفْظُهُ مُجَاهَدَةً لَا تُنْتَحىٰ بِسِوَى ٱلصَّبْرِ (٢)

٥٢- فَصَبْرٌ عَلَى ٱلمَفْرُوضِ وَقْتَ أَدَائِهِ وَصَبْرٌ مَعَ ٱلْأَزْمَانِ عَنْ مَوْرِدِ ٱلْحَظْرِ (٣)

٥٣- وَصَبْرٌ عَلَى ٱلْمَنْدُوبِ فِي كُلِّ حَالَةٍ وَصَبْرٌ عَلَى ٱلْمَكْرُوهِ مِنْ غَيْرِ مَا قَهْرِ

مَقَامُ المُحاسَبةِ

٥٤- وَفِيهِ بِذَاكَ ٱلحِفْظِ حِفْظُ مَقَامِهِ مُحَاسَبَةٌ لَا وِزْرَ تُبْقِي مَعَ ٱلْأَجْرِ (٤)

= الرجوع إلىٰ ربِّكَ . . فإنَّ فعلَكَ لا يفسد ؛ لأنك إذا رجعت إلى الله تعالىٰ تجدُهُ هو المُتصرِّفَ فيك والمُجرِيَ ذلك عليك ، وترىٰ نفسك فيما صدر منك كمَنْ يفتخرُ بفعل غيره ، فيتبدَّل العُجب بالحياء من الله ، والخوفِ من مَقْته ، والشكرِ له علىٰ جزيل نعمته . انظر « الإبريز » (ص٢١٣) ، و« شرح الفاسي » (ص٦٩ـ ٧٠) .

(١) أي : ومَنْ حلَّ ونزل من صدق الإنابة إلى الله تعالىٰ والرجوعِ إليه الرجوعَ الكُلِّيَّ منزلاً . . يرَ العيبَ في أفعاله التي تقرَّب إلىٰ مولاه بها وهو مُستبرِئٌ ؛ أي : وهو بريءٌ ، وإنَّما كان بريئاً من ذلك العيب الذي رآه ؛ لكونه قد أتىٰ به علىٰ ما ينبغي شريعةً وحقيقةً في ظاهره وفي باطنه ، لٰكنَّهُ يتَّهم نفسه ، ولا يأمنُ أن يكون قد خَفِيَ عليه شيءٌ من دسائسها . « الإبريز » (ص٢١٤) .

(٢) قوله : (لَحِفْظُهُ مُجاهدةً) ؛ أي : حفظُهُ كائن بمجاهدة فيه ؛ فـ (مجاهدة) منصوب علىٰ إسقاط الخافض ، وهو خبر المبتدأ ، والجملة خبر (إنَّ) « شرح الفاسي » (ص٧٢) ويجوز صناعةً أن يُضبط : (لِحِفْظِهِ مجاهدةٌ) ؛ أي : فيه مجاهدةٌ لأجل حفظه ، وقوله : (لا تُنتحىٰ) ؛ أي : لا تُقصد ولا تُطلب .

(٣) أي : عن وُرُود الموضع المحظور والممنوع منه ؛ أي : أن يصبرَ مُدَّةَ حياته عما نُهي عنه .

(٤) أي : ويحتاجُ في مقام التوبة مع الحفظ المُتقدِّم بالمجاهدة إلىٰ حفظٍ ثانٍ يكونُ بمحاسبةٍ من صفتها أنَّها لا تُبقي وِزْراً بين عَيْنَيْ قلبِ صاحبها « شرح الفاسي » (ص٧٥)

٥٥ـ بِحِفْظِكَ لِلأَنْفَاسِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَوَصْفِ ٱلْحَوَاسِّ ٱلْخَمْسِ بِٱلضَّبْطِ وَٱلْحَصْرِ (١)

٥٦ـ وَأَنْ تَكُ لِلأَوْقَاتِ رَاعٍ وَمُؤْثِراً لِكُلِّ مُهِمٍّ فِي ٱلسَّمَاحَةِ وَٱلْقَهْرِ (٢)

٥٧ـ وَفِي ٱلتَّوْبِ حَالُ ٱلْخَوْفِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلرِّضَا فَأَكْرِمْ بِهِ لِلْحَقِّ مِنْ تَائِبٍ بَرِّ

٥٨ـ وَفِيهِ مَقَامُ ٱلْخَوْفِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلرِّضَا كَذَاكَ ٱلرَّجَاءُ ٱلْمَدُّ أَوْلَىٰ مِنَ ٱلْقَصْرِ (٣)

مَقَامُ المُرَاقَبَةِ

٥٩ـ وَيَلْزَمُ عَنْهُ أَنْ يُرَاعِيَ سِرَّهُ فَلَا خَاطِرٌ مُزْرٍ عَلَيْهِ بِذِي أَمْرِ (٤)

---

(١) **المُراد بالخمس هنا** : الأذن ، والعين ، والفمِ ، واليد ، والرِّجْل . « شرح الفاسي » (ص٧٤) .

(٢) **قوله** : (**وأنْ تكُ**) **الأصل** : (وأنْ تكون) ، والجزمُ بـ (أنْ) ذكره بعضُ الكوفيِّين وأبو عبيدة عن بعض العرب ، ونقله اللِّحْياني عن بعض بني صباح من ضَبَّةَ ، وأنشدوا عليه : (من الطويل)

إذا ما غَدَوْنا قالَ وِلْدانُ أهلِنا تعالَوْا إلىٰ أنْ يأتِنا الصيدُ نَحطِبِ

وقوله : (راعٍ) هو خبر (تك) فحقُّهُ النصبُ بفتحة ظاهرة ، إلا أنَّهُ سكَّن الياء علىٰ لغة ؛ ومنه قول الشاعر : (من الطويل)

ولو أنَّ واشٍ باليمامةِ دارُهُ وداري بأعْلىٰ حَضْرَمَوتَ اهتدىٰ لِيَا

وهو جائزٌ في السَّعَة كما صحَّحه الصبَّان ؛ بدليل قراءة جعفر الصادق : (من أوسط ما تطعمون أهاليْكم) بسكون الياء . انظر « مغني اللبيب » (١/ ٤٣) ، و« حاشية الصبَّان » (١/ ١٧٤) .

(٣) **قوله** : (**والمدُّ أَوْلىٰ من القصر**) زيادةُ بيانٍ في مُعاد الإشارة ، علىٰ أنَّ فيه توريةً ؛ وهو أن يُطلقَ لفظٌ له معنيان قريبٌ وبعيدٌ ويُرادَ البعيدُ اعتماداً علىٰ قرينة [خفيَّة] ، وذلك موجود هنا ؛ فإنَّ المتبادرَ من سماعِ هـٰذا التركيبِ كونُ المدِّ والقصر من صفتَي اللفظ ، والمقصودُ أنَّ مقامَ الرجاء مدُّهُ وجَعْلُهُ حالاً ومقاماً في التوبة . . أَوْلىٰ مِنْ قَصْره على المقام فقط، وقرينة [البسط] تُعيِّن هـٰذا المعنى البعيد. « شرح الفاسي » (ص٧٦ـ ٧٧).

(٤) **قوله** : (**ويلزم عنه**) الضمير في (عنه) يعود على المحاسبة وعلى التوبة علىٰ ما هي =

٦٠- مُلاَحَظَةَ لِلْحَقِّ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَفِي لَفْظَةٍ لَوْ لَمْ يَفُهْ بِسِوَىٰ عَمْرِو[1]

مَقَامُ الوَرَعِ

٦١- وَهَـٰذَا مَقَامٌ لَا يَفُوزُ بِـدَرْكِـهِ سِوَىٰ وَرِعٍ فِي صَفْوِ بَاطِنِهِ يَسْرِي[2]

٦٢- وَلاَ وَرَعٌ حَـــقٌّ وَلَا مُتَــوَرِّعٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ بِٱلصَّبْرِ مُعْتَضَدَ ٱلأَزْرِ[3]

٦٣- فَصَبْرٌ عَلَى ٱلنَّعْمَاءِ مِنْهُ إِذَا سَمَتْ إِلَيْكَ سُمُوَّ ٱلطَّيْرِ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ[4]

٦٤- وَصَبْرٌ عَلَى ٱلضَّرَّاءِ يَبْلُغُ أَنْ يَرَىٰ سَـوَاءً إِلَيْـهِ وَارِدَ ٱلنَّفْـعِ وَٱلضُّـرِّ

٦٥- فَمَا يَغْتَذِي إِلَّا بِمَا بَانَ أَصْلُهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لَيَالِيَ فِي ٱلشَّهْرِ[5]

٦٦- فَلَا تَكُ مِمَّنْ لَا يُفَارِقُ خُبْزَهُ فَدِيمَةُ جُودِ ٱلْحَقِّ دَائِمَةُ ٱلْقَطْرِ[6]

= عليه . « شرح الفاسي » (ص٧٨) .

(١) يَفُهْ ؛ أي : ينطق .

(٢) قوله : (وهـٰذا) ؛ أي : مقامُ التوبة بمُقدِّماته ومُتمِّماته .

(٣) أي : ولا ثبوتَ لمُتَّصِفٍ بصريح الورَع ولا لمُحاوِلٍ له ومُتكلِّفٍ حصولَهُ إذا لم يكن الشخصُ مُعاناً بالصبر ومشدودَ الظهر به ؛ فقولُهُ : (ولا وَرَعٌ) ؛ أي : ولا ذو وَرَعٍ .

(٤) أي : وبيانُ كونِهِ مشدودَ الظهر بالصبر أن يصبرَ علىٰ أنواع الرِّفْق والإكرام ، وضروبِ الامتنان والإنعام ، ولا يزدريَ بسبب ذلك واحداً من الأنام ، وقَصَدَ بالبَرِّ : النعم الظاهرة ، وبالبحر : المنح الباطنة . انظر « شرح الفاسي » (ص٨٦) .

(٥) قوله : (فما يغتذي) الفاء فاء النتيجة بالصبرَينِ المذكورَينِ قبلُ ، وفي بعض النسخ : (فلا تَغْتَذِ) ، والفاء عليه فصيحةٌ ؛ وذلك أنَّهُ لمَّا ذكر الورع . . قدَّر سائلاً سأله عن بيان مُتعلَّقه ليستعملَهُ فيه ، فقال : إن أردتَ ذلك فلا تغتذِ . . . إلىٰ آخره ، واسمُ (يكن) يعود على الاغتذاء المفهوم من الفعل (يغتذي) . انظر « شرح الفاسي » (ص٨٨)

(٦) أي : لا تكنْ أيُّها المريدُ من الذين همُّهُم بطنُهُم المُلازِمينَ لخبزهم وغيره من المطعومات في كلِّ وقتٍ وأوان ، بل اقتدِ بنبيِّك صلَّى الله عليه وسلَّم في كونه كان لا يَدَّخِرُ لغدٍ وينهىٰ عنه ، ولا تلتفتْ إلى الخواطر التي تمنعُكَ من ذلك ؛ فإنَّ مطرَ عطاء الله وجودِهِ دائمٌ لا ينقطع ، وشاملٌ لجميع الخلائق .

٦٧ـ وَفِي ٱلنَّاسِ مَنْ لَا يَنْتَمِي لِتَوَرُّعٍ ... وَيَكْفِيهِ عِنْدَ ٱلْجُوعِ مَصُّ نَوَى ٱلتَّمْرِ[1]

٦٨ـ وَأَيُّ يَقِينٍ فِي ٱدِّخَارِكَ كِسْرَةً ... لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً عِيبَ مِنْ أَضْعَفِ ٱلذَّرِّ[2]

٦٩ـ وَأَقْبَحُ مِنْهُ أَنْ تُقَدِّمَ لِلْقِرَىٰ ... سِوَاهَا وَتُبْدِي ٱلنُّكْرَ فِيمَا بِهِ تَقْرِي[3]

٧٠ـ وَإِنْ كُنْتَ فِي ٱلْأَسْفَارِ كَانَ مَكَانُهَا ... أَمَامَكَ دُونَ ٱلْكُلِّ مِنْ سُفَرِ ٱلسَّفْرِ[4]

٧١ـ وَهَـٰذَا وَإِنْ لَمْ يَبْدُ مِنْكَ لِضِنَّةٍ ... فَلِلْبُخْلِ مِنْهُ جَانِبٌ غَيْرُ مُزْوَرِّ[5]

---

(١) أي : وفي الناس مَنْ لا ينتسبُ لتَوَرُّعٍ ومع ذلك فإنَّهُ يكفيه عند الجوع مصُّ نوى التمر ، ويَقصِدُ بهم الأعرابَ وسكَّانَ القِفار والفيافي الذين اعتادوا ذلك بحكم العادة التي جُبِلوا عليها ، لا ثقةً بالرَّازق جلَّ جلاله ، فإذا كان هـٰؤلاء كذلك فالمريدُ أَوْلىٰ أن يُسارِعَ إلىٰ هـٰذه الخصلة .

(٢) الذَّر : صغار النمل ، وقد عدَّد الشيخ أبو طالب والإمامُ الغزاليُّ رضي الله عنهما مَنْ يدَّخر من الحيوانات ، وذكراهم في سياق الذمِّ ؛ فقالا : (وقد قيل : لا يدَّخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة ، والنملة ، وابن آدم). انظر « شرح الفاسي » (ص٩٢).

(٣) أي وأقبحُ من ادِّخار الكِسْرة أَلَّا تُقدِّم للضيف سواها ؛ لكونك لا تجد في الوقت غيرَها ، ثمَّ تُظهِرَ التحقيرَ لما قدَّمتَهُ ؛ لكونه قليلاً أَنْزَلَ مِنْ قَدْرِ المُقدَّمِ إليه ، فـ (تقدم) علىٰ تقدير (لا) ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء : ١٧٦] ، أو دون تقدير ، ومعناه ذكره الفاسي في « شرحه » ، وقوله : (تُبْدي) حقُّهُ بفتح الياء ؛ لكونه معطوفاً على المنصوب ، إلا أنَّهُ سكَّنه للضرورة ، ودليل هـٰذا البيت : ما أورده السُّهْرُوَرْدي عن أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّهُم كانوا يقولون : (ما ندري أيُّهم أعظمُ وِزْراً ؛ الذي يحتقرُ ما يُقدَّم إليه ، أو الذي يحتقرُ ما عنده أن يُقدِّمَهُ) ، وانظر « شرح الفاسي » (ص٩٣)

(٤) هـٰذا البيت داخلٌ في الأقبحيَّة أيضاً ، والسُّفَر : جمع (سُفْرة) ؛ وهي ما يُوضَع عليه الطعام ، والسَّفْر : جمع (سافر) ؛ كـ (رَكْب وراكب) ، والهاء في (مكانها) راجعة على السفرة ، وعلىٰ هـٰذا التفسير والبيانِ فمعنى البيت واضح .

(٥) أي : وكونُ مكانِ خبزك أمامَكَ دونَ مَنْ معك من رفقائك وإنْ فَرَضْنا أنَّهُ صَدَرَ منك [لا] لأجل بخل وشُحٍّ . فللبخل فيه جانبٌ قائم معتدل غير مائل ؛ أي : هو فعلٌ صورتُهُ واضحةُ الدَّلالة على البخل وقِلَّة المروءة ، وهو كذلك . « شرح الفاسي » (ص٩٤) .

٧٢ـ وَلَنْ يَخْلُصَ ٱلْإِخْلَاصُ يَوْماً لِتَارِكٍ طَعَاماً لِمَا ضَاهَاهُ كَٱلْأُرْزِ وَٱلْبُرِّ[(١)]

٧٣ـ وَفِي كُلِّ مَطْعُومٍ وَفِي كُلِّ مَلْبَسٍ تَوَرَّعَ أَصْحَابُ ٱلتَّوَرُّعِ لَوْ تَدْرِي

٧٤ـ فَلَا تَكُ مِمَّنْ خَصَّ بِٱلْبَعْضِ حُكْمَهُ وَأَهْمَلَهُ فِيمَا سِوَىٰ ذَلِكَ ٱلْقَدْرِ

٧٥ـ وَفِي ٱلْبَقْلِ يَجْرِي حُكْمُهُ وَهْوَ ظَاهِرٌ وَفِي ٱلْمِلْحِ وَٱلْكَمُّونِ وَٱلسَّعْتَرِ ٱلْبَرِّي

٧٦ـ وَفِي ٱلْخَلِّ وَٱلْمَاءِ ٱلَّذِي هُوَ لَازِمٌ وَلَا سِيَّمَا مَاءِ ٱلصَّهَارِيجِ فِي ٱلثَّغْرِ[(٢)]

٧٧ـ وَمَنْ كَانَ هَـٰذَا عَنْ يَقِينٍ مَقَامَهُ فَلَا يَشْتَرِي شَيْئاً بِنَقْدٍ وَلَا يَشْرِي[(٣)]

مَقَامُ الزُّهدِ

٧٨ـ وَقَدْ جَاءَ وَقْتُ ٱلزُّهْدِ أَهْلاً وَمَرْحَباً مَكَانُكَ بَيْنَ ٱلسَّحْرِ مِنِّيَ وَٱلنَّحْرِ[(٤)]

---

(١) الأُرْزُ : لغة في (الأَرُزِّ) ، والبُر : القمح ؛ أي : ولن يَخلُصَ ويصفوَ ويثبتَ الإخلاصُ حيناً من الأحيان لمَنْ ترك طعاماً كان عنده من غير عُذْرٍ أَحوجَهُ لتركه إلىٰ طعامٍ آخَرَ ، وتكلَّف إحضاره ؛ وذلك كترك الرُّزِّ للبُر أو العكس . « شرح الفاسي » (ص٩٥)

(٢) ذكر في هـٰذا البيت وما قبله بعضَ ما يُتورَّع عنه ؛ وهو ما ينبتُ بنفسه أو يُستنبَت ؛ لأنَّهُ قد يكون مجهولاً أربابُهُ ، أو معلوماً ولم يُصرِّحوا بالأخذ منه ، والخلُّ ؛ لأنَّهُ قد يكون أصلُهُ خمراً فتخلَّل بفعل الغير ، فيحصلُ فيه خلاف ، والماءُ الذي يُبنىٰ في الطرقات وخصوصاً ماءَ الصهاريج التي تكون في الثغور ؛ وهي ما يبنيها السلاطينُ غالباً ؛ لأنَّها قد تكون مغصوبة ، أو مجهولاً أصلُها ، أو غير ذلك ، فينبغي أن يحتاطَ في ذلك جميعِهِ .

(٣) ذكر في هـٰذا البيت مَنْ رسختْ في الورع قدمُهُ ، وصار يجري فيه مَجْرى الدم ، وهـٰذا النوع نادرٌ في خير القرون فضلاً عن زماننا هـٰذا ؛ ولذلك كان سيِّدي سَرِيٌّ السَّقَطيُّ رضي الله عنه يقول : (كان أهلُ الورع في وقتهم أربعةً : حُذيفة المرعشي ، ويوسف بن أسباط ، وإبراهيم بن أدهم ، وسليمان الخوَّاص ، فنَظَرُوا في الورع ، فلمَّا ضاقت عليهم الأمورُ فَزِعُوا إلى التعلُّل) ، وقوله : (بنقد) خرج مخرجَ الغالب ، وإلا فالمُراد : أنَّهُ لا يبيع ولا يشتري مطلقاً ؛ لقلَّة الحلال المحض الخالص ، وانظر « شرح الفاسي » (ص١٠٠) .

(٤) السَّحْر الرِّئة ، والنَّحْر موضع القلادة من الصدر؛ أي جاء وقتُ الزهد وحان =

٧٩ـ خَلَوْتُ عَنِ ٱلْأَمْلَاكِ طُرّاً فَلَا أُرَىٰ أَمِيلُ إِلَىٰ مَلْكٍ وَلَوْ كَانَ ذَا خَطْرِ (١)

٨٠ ـ لَكَ ٱلصَّبْرُ عَنْ حَمْدِ ٱلْوَرَىٰ وَلَكَ ٱلثَّنَا وَلَا خَيْرَ فِي عِزٍّ يُفَارِقُ فِي ٱلْحَشْرِ (٢)

مَقَامُ التَّوَكُّلِ

٨١ ـ وَإِنَّ مَقَامَ ٱلزُّهْدِ مَا حَلَّهُ سِوَىٰ بَرِيءٍ مِنَ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْحَوْلِ وَٱلْجَبْرِ (٣)

٨٢ ـ يُشَاهِدُ وَعْدَ ٱلْحَقِّ عَيْنَ يَقِينِهِ فَلَا أَمْنَ فِي وَفْرٍ وَلَا خَوْفَ فِي فَقْرِ (٤)

٨٣ ـ فَفِي ٱلتَّوْبِ وَٱلزُّهْدِ ٱلْمَقَامَاتُ كُلُّهَا فَرَوْضُهُمَا مِنْ طِيبِهِ عَبَقُ ٱلنَّشْرِ (٥)

مَقَامُ العُبُودِيَّةِ

٨٤ ـ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُدَاوِمَ كُلَّ مَا تَكُونُ بِهِ عَبْداً إِلَىٰ آخِرِ ٱلْعُمْرِ

= أوانُهُ ، وصادف محلاً لقَبوله ؛ لإحكام الركنِ الأوّل ، والبلوغ في الورع إلىٰ ترك الكلّ والإقبالِ على الله تعالىٰ .

(١) الخَطْر ـ ويُحرّك ـ : الشرف والمال والمنزلة .

(٢) الورىٰ : الخَلْق ، واللامُ في قوله : (لك) في كلا الموضعَين : بمعنىٰ (علىٰ) ؛ أي : يجب عليك الصبر عن حمد الخَلْق وثنائهم عليك اللذَين سيجلبان لك العزَّ في الدنيا والشرف ؛ فإنَّهما لا خير فيهما ؛ لأنَّهما سيُفارقانك في الآخرة ، ولن ينفعَكَ فيها إلا عملُكَ ، وهـٰذا الصبر داخلٌ في الزهد ومُشتمِلٌ عليه .

(٣) الجَبْر الاستطاعة والقوة وارتفاعُ القدر ، وأصل البيت : ما ذكره السُّهْرُوَرْدي في (٢/ ٤٨٥) عن سيِّدي الجُنيد رضي الله عنه أنَّهُ قال : (الزهدُ : خُلُوُّ الأيدي مِنَ الأملاك ، والقلوبِ من التتبُّع)

(٤) الوَفْر المال والمتاع الكثير الواسع ؛ أي : لا فرق عنده بين حالي الفقر والغنىٰ ؛ لوثوقِ قلبِهِ بما وعد الله ، واطمئنانِهِ بذلك .

(٥) الضمير في (طيبه) : يعود على الرَّوْض والمقامات بتأويل ما ذكر . « شرح الفاسي » (ص ١١٧) ، وعَبَقُ النَّشْر ظهور وانتشار الرائحة الطيِّبة ، ولهـٰذا البيت بشارةٌ عظيمة ضمن قصَّةٍ بديعة ، وقد ذكرتُها في (١/ ١٢١ـ ١٢٢) .

٨٥ ـ وَتُكْمِلَ أَرْكَانَ ٱلْوِلَادَةِ فَأخْتَرِقْ بِهَا مَلَكُوتَ ٱلسَّبْعِ مِنْ غَيْرِ مَا حَجْرِ[(١)]

٨٦ ـ وَمِنْ خَيْرِ مَا تُعْطَى ٱلدَّوَامُ فَلَا تَزَلْ تَطِيرُ إِلَى ٱلْعَلْيَا بِأَجْنِحَةِ ٱلشُّكْرِ[(٢)]

٨٧ ـ فَلَا تَكُ إِلَّا تَالِياً أَوْ مُصَلِّياً وَدَائِمَ ذِكْرِ ٱلْقَلْبِ أُيِّدَ مِنْ ذِكْرِ[(٣)]

٨٨ ـ وَأَفْضَلُ ذِكْرِ ٱلْمَرْءِ حِينَ لِقَلْبِهِ حُضُورٌ يَغِيبُ ٱلذِّكْرُ فِيهِ عَنِ ٱلذِّكْرِ[(٤)]

٨٩ ـ فَإِنْ يَكُ تَلْوِينٌ فَذُو ٱلْعِلْمِ حَسْبُهُ مُحَاضَرَةٌ مِنْ خَلْفِ مُنْسَدِلِ ٱلسِّتْرِ[(٥)]

٩٠ـ وَإِنْ يَكُ ذَا عَيْنِ ٱلْيَقِينِ فَحَظُّهُ مُكَاشَفَةٌ جَلَّتْ عَنِ ٱلنَّظَرِ ٱلْفِكْرِ

---

(١) أركان الولادة : هي الإيمان ، والتوبة النصوح ، والزهد ، وتحقيقُ مقامِ العُبُوديَّة بدوام العمل لله ، والمُراد بالولادة هنا : الولادة المعنويَّة ؛ وهي الخروج من مَشِيمة النَّفْس وبطنِ العادة والتقييد بعالم المُلْك إلىٰ عالم الملكوت وفضاء القدرة . انظر « شرح الفاسي » (ص١٢١ـ ١٢٢) .

(٢) أي : الدوامُ علىٰ أسباب العبوديَّة لله في الظاهر والباطن . . من أفضل ما تُعطاه وتنالُهُ أيها السالكُ طريقَ الآخرة ، فابقَ مُستمِرَّ الصعود إلىٰ معالي الأمور بأجنحة شكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما أَوْلاك من المِنَن ، وأَسْدىٰ إليك من المِنَح ، وفي بعض النسخ : (النَّشْر) بدل (الشكر) ، وانظر « شرح الفاسي » (ص١٢٤) .

(٣) قوله : (أُيِّد من ذكر) كان أصل التركيب (أَيَّده اللهُ مِنْ ذاكر) ؛ فـ (ذاكر) تمييزٌ لضمير المفعول أُظهرت معه (مِنْ) ، وذلك جائز في تمييز العدد والتمييزِ المنقول من الفاعل ، وليس هـٰذا منهما ، ثمَّ بُني لِمَا لم يُسمَّ فاعلُهُ . « شرح الفاسي » (ص١٢٥)

(٤) أي : وأفضلُ ذِكْرِ المرء حين يكونُ قلبُهُ حاضراً حضوراً يغيبُ فيه عن الذِّكْر نَفْسِهِ وعن غيره من المخلوقات ؛ فلا يبقىٰ له عن نَفْسه إخبار ، ولا مع غير الله قرار . انظر « شرح الفاسي » (ص ١٢٧) .

(٥) التلوين صفة أرباب الأحوال ، ومعناه : ما اقتضاه لفظُهُ من الانقلاب وعدمِ الثبات علىٰ صفةٍ واحدة ، بل كلُّ واردٍ يَرِدُ عليه يصرفه علىٰ مُوجَبه وحكمه ، وهو صاحبُ مقام علم اليقين ، فحسبُ صاحبِ هـٰذا المقام من حضوره المحاضرةُ التي هي النظرة من وراء حجابِ وجودِهِ المَرْخيِّ بينه وبين ربِّهِ . انظر « شرح الفاسي » (ص١٢٩ـ ١٣٠) .

٩١ـ وَإِنْ يَكُ تَمْكِينٌ فَذُو ٱلْحَقِّ حَقُّهُ   مُشَاهَدَةٌ مِنْ غَيْرِ حَجْبٍ وَلَا سَتْرِ[١]

٩٢ـ يُشَاهِدُ أَنْوَارَ ٱلتَّجَلِّي حَقِيقَةً   فَلَا خَوْفَ يَوْماً مِنْ حِجَابٍ وَلَا سِتْرِ

٩٣ـ يُشَاهِدُهَا سِرُّ ٱلَّذِي ذِكْرُ قَلْبِهِ   عَتِيدٌ وَإِنْ كَفَّ ٱللِّسَانَ عَنِ ٱلذِّكْرِ[٢]

مَقامُ المحبَّةِ

٩٤ـ وَلِلْكُلِّ مِنْ كَأْسِ ٱلْمَحَبَّةِ شَرْبَةٌ   سَرَتْ فِيهِ سَرْيَ ٱلْمَاءِ فِي ٱلْغُصُنِ ٱلنَّضْرِ[٣]

[المحبَّةُ عندَ صاحبِ علمِ اليقينِ]

٩٥ـ فَذُو ٱلْعِلْمِ طَوْعُ ٱلْحُبِّ وَٱلْحُبُّ عِنْدَهُ   مُوَافَقَةُ ٱلْمَحْبُوبِ فِي ٱلْعُسْرِ وَٱلْيُسْرِ[٤]

٩٦ـ فَلَوْ قَالَ طَأْ فِي ٱلنَّارِ وَٱلنَّارُ جَمْرُهَا   لَهُ لَهَبٌ يَرْمِي ٱلشَّرَارَةَ كَٱلْقَصْرِ

٩٧ـ لَمَا كَانَ لَمْحُ ٱلْبَرْقِ أَسْرَعَ مَا يُرَىٰ   بِأَسْرَعَ مِنِّي فِي ٱمْتِثَالِيَ لِلْأَمْرِ[٥]

٩٨ـ وَلِي مِنْهُ بُشْرَىٰ لَوْ حَلَلْتُ بِقَعْرِهَا   أَبَتْ لِيَ أَنْ أَدْرِيْ بِبَرْدٍ وَلَا حَرٍّ[٦]

---

(١) التمكين : صفة أهل الحقائق والرسوخ الذين وصلوا إلىٰ مقام حق اليقين .

(٢) العَتِيد : الحاضر المُهيَّأ ، وفي بعض النسخ تقديمُ هـٰذا البيت علىٰ ما قبله ، والمثبت أَوْلىٰ وأنسب علىٰ ما وضَّحه الفاسي في « شرحه » (ص١٣٤) .

(٣) قوله : (للكل) ؛ أي : لكل واحد من المقامات الثلاثة السابقة ؛ وهي علمُ اليقين ، وعينُهُ ، وحقُّهُ ، والنَّضْر : الحُسْن والرَّوْنق .

(٤) قوله : (فذو العلم) ؛ أي : صاحب المقام الأوَّل ؛ وهو علم اليقين .

(٥) قوله : (أسرعَ) حال ، وقوله : (بأسرعَ) خبر (كان) ، وفي معنىٰ هـٰذا البيت : ما قاله سلطان العاشقين عمر بن الفارض رحمه الله تعالىٰ : (من الوافر)

ولـو عـذَّبْتَنـي فـي النـارِ حَتْمـاً   دخلـتُ مُطـاوِعـاً وَسْـطَ الجحيـمِ
إذا كـانَ الجحيـمُ رضـاكَ عنِّـي   فمـا ذاكَ الجحيـمُ سـوى النعيـمِ

(٦) أي : لي من الله تعالىٰ بُشْرىٰ بإثابتي على العمل القليل بما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خَطَرَ علىٰ قلب بشر ، وهـٰذه البُشْرى استولتْ علىٰ أحاسيـي ؛ حتىٰ لو حللتُ معها بقعر جهنَّمَ لغيَّبتْني عن الإحساس بألمها ، والمبالاةِ ببرد زَمْهَرِيرها وحرِّ=

الفناءُ عندَ صاحبِ علمِ اليقينِ

٩٩ـ وَإِنَّ وُجُودِي أَنْ أُرَىٰ فِيكَ فَانِياً وَلَا حَظَّ لِي مِنْ دُونِ أَمْرِكَ فِي أَمْرِ

القُرْبُ والأُنْسُ

١٠٠ـ فَطَاعَتُهُ قُرْبِي وَأُنْسِي عِبَادَتِي فَلَا أُنْسَ إِلَّا فِي ٱلْعِبَادَةِ لِلْحُرِّ

التَّجلِّي بطريقِ الأفعالِ

١٠١ـ أَرَىٰ بِطَرِيقِ ٱلْفِعْلِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وُجُودَ يَقِينٍ مِنْ وُجُودِكَ فِي سِرِّي(١)

١٠٢ـ فَأَنْفِي صُدُورَ ٱلْفِعْلِ عَنْ كُلِّ مُمْكِنٍ وَأَبْقَىٰ عَلَىٰ حُكْمِ ٱلْمَشِيئَةِ فِي أَمْرِي(٢)

التَّجلِّي بطريقِ الصفاتِ

١٠٣ـ وَهَـٰذَا مَقَامٌ فِي ٱلْوُصُولِ وَفَوْقَهُ مَقَامَاتُ أَقْوَامٍ عَلَا قَدْرُهُمْ قَدْرِي

= لَهَبِها ، كما رُوي أنَّ امرأةَ فتحٍ الموصليِّ عَثَرتْ فانقطع ظفرُها ، فضحكت ، فقيل لها أَمَا تجدين الوجع ؟ فقالت : إنَّ لذَّةَ ثوابه أزالتْ عن قلبي مرارةَ وجعه ، وانظر « شرح الفاسي » (ص١٤٣) .

(١) أي : أرىٰ وأجدُ يا مولاي بطريق تجلِّي فعلِكَ وظهورِ أَثَرِكَ في كلِّ لحظةٍ وطَرْفة . . وجودَ يقين وزيادةَ اطمئنان في سِرِّي ؛ من أجل وجودك في ذلك الملحوظ بعموم التصرُّف ابتداءً ودواماً ، وفي تلك الطَّرْفة . « شرح الفاسي » (ص١٤٨) .

(٢) شطره الأوَّل واضح ، ومعنىٰ شطرِه الثاني : أنَّني أبقىٰ في شأني علىٰ حكم الإرادة الإلـٰهيّة والمشيئة السابقة الأزليّة ، مقطوعَ الاعتماد والاستناد لغيرك ، لا وقوفَ لي إلا ببابك ، ولا لواذَ إلا بجنابك ، غيرَ مُتطلِّع لغيرك ، ناظراً لفضلك ، مُنتظِراً لأمرك ، راضياً بقضائك ، ساكناً تحت مجاري أقدارك ، مُستسلِماً لحكمك . « شرح الفاسي » (ص١٤٨) .

الشوقُ إلى اللهِ

١٠٤ـ وَإِنَّ ٱشْتِيَاقِي نَحْوَهَا لَيَطِيرُ بِي لِأَقْـرَبِهَـا مِنِّـي بِـأَجْنِحَـةِ ٱلنَّسْـرِ[١]

[المحبَّةُ عندَ صاحبِ عينِ اليقينِ]

١٠٥ـ وَذُو ٱلْعَيْنِ لِٱسْتِيلَاءِ سُلْطَانِ حَالِهِ عَلَيْهِ لَهُ سُكْرٌ يَزِيدُ عَلَى ٱلسُّكْرِ[٢]

١٠٦ـ أَدَارَ عَلَيْهِ ٱلْحُبُّ كَأْسَ مُدَامِهِ فَلَا سُكْرَ إِلَّا دُونَ ذَلِكَ مِنْ خَمْرِ[٣]

القبضُ والبسطُ

١٠٧ـ وَلَا بَسْطَ إِلَّا فِي أَوَائِلِ حَالِهِ فَلَا صَدْرَ فِي قَبْضٍ وَلَا قَبْضَ فِي صَدْرِ[٤]

الغَلَبةُ

١٠٨ـ وَفِي غَلَبَاتِ ٱلْوَجْدِ مَكْنُونُ سِرِّهِ مُذَاعٌ فَلَا سَدْلٌ بِسِتْرٍ عَلَىٰ سِرِّ[٥]

---

(١) في نسخة : (ليصيرني) بدل (ليطير بي) ، وفي أخرىٰ : (الشكر) بدل (النسر) ، وفي ثالثة : (النشر) ، وفي هٰذا البيت نهي بغير صيغةٍ على الوقوف في مقام من المقامات ، أو حالة من الحالات ، أو تبَرُّجِ ظواهر كائنات ، وأمرٌ بغير صيغة أيضاً بالتسبُّب ما أمكن في الارتقاء وطلبِ المزيد ، والعبدُ لا يزال سائراً أبداً إلىٰ أخصِّ حَضَرات الوصول أو فيها . « شرح الفاسي » (ص١٥٠ـ١٥١) .

(٢) أي : لصاحب عين اليقين سكرٌ يزيد علىٰ سكر صاحب علم اليقين ؛ وذلك بسبب ما فاجأه وسَطَعَ من نور جمال محبوبه ، وانظر « شرح الفاسي » (ص١٥٤) .

(٣) هٰذا البيت بيانٌ لمنشأ الاستيلاء السابق ، ومعنىٰ شطره الثاني أنَّهُ لا سكرَ حاصلٌ من شرب الخمر المعهودة وإن بلغ بصاحبه ما بلغ . . إلا دون السكر الحاصلِ لمَنْ شرب كأسَ المحبَّة الناشئةِ عن شهود الجمال ونعوت الكمال . « شرح الفاسي » (ص١٥٥).

(٤) المراد بالصَّدْر هنا : قلب السائر إلى الله تعالىٰ ، والبسطِ : واردٌ من الحقِّ ينزل بالعبد فيُمازجه وينصبغ به انصباغاً بحيث لا يمكنه التخلُّفُ عن موجبه ، والقبض كذلك . « شرح الفاسي » (ص ١٥٦) .

(٥) أي صاحبُ هٰذا المقام مكنونُ سرِّ محبَّتِهِ مُذاعٌ عند غلبة الوجد عليه ، فلا سَدْلَ له=

١٠٩ـ وَمُظْهِرُ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ يُوشِكُ أَنْ يُرَىٰ   قَتِيلاً لِمَحْبُوبٍ يَغَارُ عَلَى ٱلسِّرِّ[(١)]

[الفناءُ عندَ صاحبِ عينِ اليقينِ]

١١٠ـ وَإِنَّ وُجُودِي فِي فَنَائِي فَإِنَّهُ   فَنَاءُ صِفَاتِ ٱلنَّفْسِ عَنْ مَحْكَمِ ٱلْبَشْرِ[(٢)]

المَحْوُ والإثباتُ

١١١ـ وَفِيهِ لَنَا مَحْوٌ وَإِثْبَاتُنَا لَدَىٰ   طُلُوعِ كُؤُوسِ ٱلْحُبِّ كَٱلْأَنْجُمِ ٱلزُّهْرِ[(٣)]

١١٢ـ تَجَرَّدْتُ عَنْ كُلِّي وَعَنْ كُلِّ خَاطِرٍ   يُلِمُّ سِوَى ٱلْمَحْبُوبِ بِٱلْقَلْبِ وَٱلْفِكْرِ[(٤)]

= ولا تغطية بسترٍ ما من الأستار ، كما يفعله الأصحَّاء أرباب التمكين علىٰ أسرار الحقِّ التي منحهم إيَّاها ، وهو معذور في تلك الإذاعة ؛ لسقوط التكليف عنه حينئذ

(١) في بعض النسخ : (سر الحب) بدل (هـٰذا الحب) ؛ أي : ومُظهِرُ هـٰذا الحبِّ وهو قادرٌ علىٰ كتمانه يوشك ويَقرُبُ أن يُرىٰ قتيلاً حقيقةً ، أو معنىً بإبعاده وسَلْبه ، وقد يتفق له الاثنان والعياذ بالله تعالىٰ ، فيخسر الدنيا والآخرة ؛ وذلك لإظهاره أسرارَ الحقِّ التي يُودِعُها قلوبَ أوليائه ، وبَذْلِها لمن ليس من أهلها ، ومن النوع الأوَّل : الحسين بن منصور الحلَّاج الذي أظهر أسرار المحبَّة فأدَّىٰ إلىٰ صَلْبه وقتله ، وفي ذلك يقول بعضهم : (من الوافر)

فمَـنْ شهِـدَ الحقيقـةَ فليَصُنْهـا   وإلا سـوفَ يُقتَـلُ بـالسِّنـانِ
كحـلَّاجِ المحبَّـةِ إذ تبـدَّتْ   لـهُ شمـسُ الحقيقـةِ بـالتـدانـي

وكلامنا عن الحلَّاج سيأتي مُفصَّلاً في (١/ ٣٠١، ٢/ ٥٢٠) ، وانظر « شرح الفاسي » (ص١٥٩ـ ١٦١) .

(٢) في بعض النسخ : (في فناء فنائه) بدل (في فنائي فإنه) ، والبَشْر : بإسكان الشين للوزن ؛ أي : إنَّ وجودي وبقائي ثابتٌ في عين فنائي ؛ وذلك بأنْ تفنىٰ صفاتُ نفسي وتضعفَ أن تكون حاكمةً عليَّ وقاهرةً لي ، وانظر « شرح الفاسي » (ص١٦٢) .

(٣) قوله : (وفيه)؛ أي : في مقام عين اليقين ، والمَحْوُ عند القوم : عبارةٌ عن إزالة معلولات النَّفْس ورفع أوصافها علىٰ مراتب أهلها ؛ فهو بمعنى التخلية ، والإثباتُ : كنايةٌ عن الإتيان بدلَ ذلك بالأوصاف الحميدة ؛ فهو بمعنى التحلية . انظر « شرح الفاسي » (ص١٦٤) .

(٤) التجرُّد : التعرِّي عن الشيء والخروجُ عنه ، وعن كُلِّي : عن دائرة حسِّي وحكمِ وجودي ، ويُلِمُّ : مضارع (أَلَمَّ) ؛ أي : نزل . « شرح الفاسي » (ص١٦٥) .

القُرْبُ

١١٣ـ تَعَرَّفْتُ مِنْهُ ٱلْقُرْبَ وَهْوَ مُؤَيِّدٌ   بِهِ فَوُجُوهُ ٱللُّطْفِ ظَاهِرَةُ ٱلْبِشْرِ (١)

التجريدُ والتفريدُ

١١٤ـ وَلِي مِنْهُ تَجْرِيدٌ وَتَفْرِيدُ غَائِبٍ   عَنِ ٱلْكَسْبِ لَا يَدْرِي بِشَفْعٍ وَلَا وِتْرِ (٢)

الحُضُورُ والغَيبةُ

١١٥ـ وَهَـٰأَنَا مِنْهُ حَاضِرٌ غَيْرُ غَائِبٍ   وَلِي غَيْبَةٌ بِٱلْحَقِّ عَنْ كُلِّ مَا يَجْرِي (٣)

الجَمْعُ والفَرْقُ

١١٦ـ وَإِنِّي بِهِ فِي عَيْنِ جَمْعٍ فَإِنْ أَقِفْ   لَدَيْهِ بِلَا فَرْقٍ فَإِنِّيَ فِي خُسْرِ (٤)

---

(١) أي : تعرَّفتُ من هـٰذا المقام قُربَ محبوبي منِّي على ما يليقُ به والحالُ أنَّهُ مُؤيِّد لي بذلك القُرب وناصرٌ لي به ؛ يتولَّاني ويُعينني حتىٰ لا يراني حيث نهاني ولا يفقدني حيث أمرني ، ومِنْ ثمرات هـٰذا التأييد أنَّهُ يمنُّ عليَّ بوجوه ألطافه الظاهرة ، وإنعاماته المتواترة .

(٢) التجريد : أن يتجرَّدَ العبدُ عن الأغراض ، فلا يأتيَ ما أُمر به ولا ينتهيَ عمَّا نُهي عنه نظراً إلى الأعواض في الدنيا والآخرة ، بل ما كُوشف به من حقِّ العَظَمة يُؤدِّيه حسبَ جهدِهِ عبوديَّةً وانقياداً ، والتفريدُ : ألَّا يرىٰ نفسَهُ فيما يأتي به ، بل يرىٰ منَّةَ الله عليه فيه ، وقوله : (بشفع ولا وِتْر) كَنَىٰ بهما عن كلِّ ما يجري بالعالم ؛ لاستغراق الزوج والفرد لذلك ، وانظر « شرح الفاسي » (ص١٧٠) .

(٣) الغَيْبة : عدمُ الإشعار بالخَلْق ، والحُضُور : حُضُور الحقِّ بالقلب . « شرح الفاسي » (ص١٧٢) .

(٤) الجمع : عين الفناء بالله ، والتفرقة : العبوديَّة مُتَّصِلٌ بعضُها بالبعض ، وهو حكم الرُّوح ، والتفرقةُ حكم القالَب ، قال السُّهْرُوَرْدي في : (٢/ ٥٥٥) : (وقد غَلِطَ قومٌ ، وادَّعَوا أنَّهُم في عين جمع الجمع ، وأشاروا إلىٰ صِرْف التوحيد ، وعطَّلوا الأسباب ، فتزندقوا) ، وبهـٰذا البيان يتَّضح معنى البيت .

[نفيُ الاتِّحادِ]

١١٧ـ وَإِنَّ ٱعْتِقَادَ ٱلْإِتِّحَادِ جَهَالَةٌ ... فَسَلْ عَنْهُ مَنْ يَدْرِيهِ إِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي(١)

١١٨ـ إِذَا كَانَ مَنْ لَا تَقْبَلُ ٱلضِّدَّ ذَاتُهُ ... بِحَالٍ مُحَالٌ أَنْ يُرَىٰ قَابِلَ ٱلضَّرِّ(٢)

١١٩ـ فَلَيْسَ يُجِيزُ ٱلْإِتِّحَادَ بِرَبِّهِ ... سِوَىٰ فَاقِدٍ لِلْعَقْلِ أَوْ جَاهِلٍ غُمْرِ(٣)

التَّجَلِّي بطريقِ الصِّفاتِ

١٢٠ـ إِذَا طَالَعَ ٱلْقَلْبُ ٱلْكَرِيمُ صِفَاتِهِ ... فَلِي أُنْسُ ذِي أَمْنٍ وَهَيْبَةُ ذِي ذُعْرِ(٤)

١٢١ـ وَهَـٰذَا مَقَامٌ فِي ٱلْوُصُولِ وَفَوْقَهُ ... مَقَـامُ مُحِـبٍّ دُونَـهُ رُتْبَـةُ ٱلنَّسْـرِ(٥)

---

(١) الاتِّحاد لغةً صيرورة الذاتَينِ أو الذوات ذاتاً واحدة ، وهو المُراد هنا ؛ أي : وإنَّ اعتقادَ الاتِّحاد ، والاغترارَ في ذلك بظاهرِ ما وقع لمَنْ يَحسُنُ بهم الظنُّ ـ كما هو مسطور ـ . . جهالةٌ من مُعتقِدِهِ ، وخلافٌ للحقِّ نقلاً وعقلاً ؛ فإنَّهُ يُؤدِّي لنفي الأُلُوهيَّة رأساً ، وإذا وقع ما ظاهرُهُ اتِّحادٌ . . فسَلْ عنه مَنْ يدريه إن كنتَ جاهلاً ؛ ليُبيِّنَهُ لك ويُزيلَ عن عقلك اللَّبْسَ والوهم في ذلك . انظر « شرح الفاسي » (ص١٧٥) .

(٢) في بعض النسخ : (الضَّيْر) بدل (الضر) ، وكلاهما صحيح .

(٣) الغُمْر الذي لم يُجرِّب الأمور ، ولا خَبَرَ شيئاً منها ؛ فأشار المؤلف بقوله : (فاقد للعقل) : إلىٰ مَن فَقَدَ العقلَ الوَهْبيَّ الذي يتفضَّل به الله سبحانه وتعالىٰ بلا تعمُّل من العبد ولا تسبُّب ، وأشار بقوله : (أو جاهلٍ غُمْر) : إلىٰ مَنْ عنده نُبْذةٌ من العقل الوَهْبيِّ ، إلا أنَّهُ عارٍ من العقل الكَسْبيِّ التجريبيِّ ، وانظر « شرح الفاسي » (ص١٧٦)

(٤) أشار بالصِّفات : إلى الصِّفات الجماليَّة؛ من الكرم والفضل والحلم والرحمة واللطف وغيرها ، والجلاليَّة؛ من العزة والبطش والسطوة وغيرها ؛ يريد : أنَّهُ في حال مُطالعةِ صفاتِ جماله تعالىٰ لا يأمنُ بطشَهُ ومكره ، وفي حال مُطالعةِ صفاتِ جلاله لا يغيبُ عنه فضلُهُ ورحمته .

(٥) أي : وفوقَ مقام عين اليقين في الوصول والمحبَّة . . مقامُ حقِّ اليقين الذي ليس فوقَهُ مقامٌ إلا الزيادة منه والعروجُ في مراتبه ، وكلُّ مقامٍ ورتبة فهي دونه وتحته ، كمقام النَّسْر ورتبته في عُلُوِّهِ ؛ فإنَّهُ لا ينالُها ولا يرتقي إليها غيرُهُ من الطيور ، هـٰذا ما يتعلَّقُ بألفاظ البيت ، وأمَّا المعاني والأسرار ، وما تحملُهُ من الحِكَم والأنوار . . فدونك كتابَنا هـٰذا « العوارف » ، و« شرحَ الفاسي » علىٰ هـٰذه القصيدة ، ومثل ذلك يُقال في جميع أبيات=

[المحبّةُ عندَ صاحبِ حقِّ اليقين]

١٢٢ـ وَذُو ٱلْحَقِّ لَمَّا طَالَعَ ٱلذَّاتَ صَاحِياً ... بِرُوحٍ سَمَاوِيٍّ لَدَىٰ عَالَمِ ٱلْأَمْرِ[١]

حالُ المَحبّة

١٢٣ـ سَقَتْهُ بِرَاحَاتِ ٱلْمَحَبَّةِ رَاحُهَا ... فَلَوْلَا دَوَامُ ٱلشُّرْبِ لَمْ يَصْحُ مِنْ سُكْرِ[٢]

١٢٤ـ وَلَمَّا سَرَتْ فِي ٱلنَّفْسِ زَكَّتْ وَطَهَّرَتْ ... وَطَارَتْ بِرُوحِ ٱلْبَرِّ فِي مَنْهَجِ ٱلْبَرِّ[٣]

١٢٥ـ فَمَدَّتْ إِلَيْهِ رَحْمَةً يَدَ جَاذِبٍ ... فَنَاهِيكَ مِنْ بِرٍّ وَنَاهِيكَ مِنْ بِشْرِ[٤]

تَجلِّي الذّاتِ

١٢٦ـ هُنَالِكَ لِلْأَوْصَافِ أَشْرَفُ خِلْعَةٍ ... عَلَيْهِ وَلِلْأَخْلَاقِ فَخْرٌ عَلَىٰ فَخْرِ[٥]

= هـٰذه القصيدة النفيسة المباركة .

(١) عالَم الأمر عالَم الأرواح ، يُقالُ له باعتبار عدم الواسطة ، وهو احترازٌ عن عالَم الخَلْق الذي هو عالم الأشباح . انظر « شرح الفاسي » (ص١٨٢ـ١٨٣)

(٢) الراح : الخمر ، سُمِّيت بذلك : لأنَّها تُناوَل بالراحات ؛ وهي الأكفُّ ، وقوله : (سَقَتْهُ. . .) إلىٰ آخره ؛ أي : سقتِ الذاتُ الأقدسُ هـٰذا المحبَّ خمرةَ الحب وداومتْ علىٰ ذلك ؛ فلولا دوامُ الشرب المفرَّعُ عن دوام سَقْيها . . لم يصحُ ولم يُفِقْ من غَلَبات سكره الحاصلِ له قبل التدرُّب مع خمرها انظر « شرح الفاسي » (ص١٨٥) .

(٣) قوله : (ولمَّا سَرَت)؛ أي: المحبَّة أو خمرها، والبَر : البار ؛ أي : الكثير الخير المتقرِّب إلىٰ مولاه بالنوافل الظاهرة والباطنة ، ومنهج البَر : طريق الله ؛ فالبَرُّ الأوَّل : هو العبد البارُّ المحب علىٰ حسب مقامه ، والبَرُّ الثاني : اسم من أسماء المولىٰ سبحانه وتعالىٰ .

(٤) قوله : (فمدَّت) ؛ أي : الذاتُ الكريمة ، والمُراد بمدِّ اليد : التنبيه علىٰ غاية التقريب والاصطفاء ، وهو من باب التمثيل الذي هو إبرازُ المعاني العقليّة في الصُّوَر الحسِّيَّة قصداً إلىٰ كمال السائر ، وإلا فالمدُّ واليد والجَذب الحِسِّيَّاتُ مُنتفِيةٌ في هـٰذا المقام ، وقوله : (فناهيك) كلمة تُستعمل في التفخيم والتعظيم ، ومعناها أنَّ ما بَعُدَ لكماله في مقامه ينهاك عن تَطَلُّب غيره في ذلك المقام . انظر « شرح الفاسي » (ص١٨٦ـ١٨٧).

(٥) قوله : (هنالك) ؛ أي : في هـٰذا الموطن والمقام ، وقوله (للأوصاف. . .) ؛ =

١٢٧ـ وَهَـٰذَا مَقَامٌ فِي ٱلْوُصُولِ وَحِفْظُهُ بِبَاعِثِ شَوْقٍ مِنْ فُؤَادٍ عَلَىٰ جَمْرِ (١)

نفيُ الحُلُولِ

١٢٨ـ وَإِنَّ ٱعْتِقَادَاتِ ٱلْحُلُولِ ضَلَالَةٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ كُفْرٌ فَلَا يَخْلُ مِنْ كُفْرِ (٢)

١٢٩ـ وَلَيْسَ يَحُلُّ ٱلْحَادِثَاتِ مُنَزَّهٌ عَنِ ٱلنَّقْصِ وَٱلتَّغْيِيرِ فَٱهْجُرْ ذَوِي ٱلْهُجْرِ (٣)

١٣٠ـ وَلِلرُّوحِ إِطْرَاقٌ لِأَجْلِ جَلَالِهِ وَإِجْلَالِهِ إِنَّ ٱلْحَيَاءَ لَذُو حَصْرِ (٤)

= أي هنالك يكون للأوصاف القُدْسيّة الكماليّة ، والأخلاق الإلـٰهيّة الربّانيّة . . أشرفُ خِلْعةٍ لهـٰذا المُحِبِّ ، ولمّا كان في كلٍّ من خِلَع الأوصاف والأخلاق سُؤْدَدٌ وشرف لا يُسبَحُ له تيّار ، ولا يُشَقُّ له غبار . . كان قولُهُ : (فخر علىٰ فخر) في غاية التمكُّن ؛ وهو خبر لمبتدأ محذوف ؛ أي وذلك فخرٌ علىٰ فخر ؛ أي : سؤددٌ علىٰ سؤدد ، وشرفٌ علىٰ شرف . انظر « شرح الفاسي » (ص١٨٦ـ ١٨٧)

(١) قوله : (وهـٰذا) إشارةٌ إلىٰ مقام حقِّ اليقين ، وقوله : (وحفظُهُ) ؛ أي : حمايته وحراسته والثبوت فيه بحيثُ لا يرجع فيه صاحبُهُ القهقرىٰ ، وقوله : (بباعث شوق . . .) إلىٰ آخره ؛ أي : كائنٌ بباعثِ شوقٍ وطلبٍ ناشئ من فؤاد علىٰ جمرٍ مُتلهِّب من نار المحبّة الخاصّة الذاتيّة . انظر « شرح الفاسي » (ص١٩٠) .

(٢) يُقال الحُلُول : بمعنى القيام بالغير ؛ كحلول اللون بالجسم ، وبمعنى الاستقرار ؛ كحلول الجسم في الحيّز ، وقد يُقال على الاتّصاف ؛ كحلول الصفة بالموصوف ، وقد يُقال على التقدُّم ؛ كحلول الصورة في المادّة ، والجميعُ باطلٌ ومحال على الله سبحانه ، ولذلك جمع الناظم الاعتقادَ فقال : (اعتقادات) ، وقوله : (فلا يخلُ) بحذف الواو للضرورة ، وجعل الفاسيُّ (لا) ناهيةً ، فلا ضرورة حينئذ . انظر « شرح الفاسي » (ص١٩١ـ ١٩٢) .

(٣) الهُجْر الفُحْش والقبيح من الكلام ، وفي البيت تقديم وتأخير لضرورة الوزن ، والتقدير : (وليس مُنزَّهٌ عن النقص والتغيير يَحُلُّ الحادثات) . « شرح الفاسي » (ص ١٩٢) .

(٤) أي : لرُوحِ هـٰذا المُحِبِّ إطراقٌ وإغضاء لأجل عظمة الله وتعظيمه ؛ فإنَّ حياءَهُ وخجلَهُ حبساه ومنعاه عن المباسطة بالمشاهدة والمكالمة والإقدام إلى التقبُّض والإحجام . انظر « شرح الفاسي » (ص ١٩٥ـ ١٩٦) .

١٣١ـ وَإِنَّ لَدَيْهِ فِي كَمَالِ جَمَالِهِ لَلَذَّةَ أَمْنِ أَمَّنَتْ طَارِقَ ٱلذُّعْرِ

مَقَامُ الفناءِ

١٣٢ـ وقَدْ كَانَ فِي كَشْفِ ٱلصِّفَاتِ فَنَاؤُهُ يَغِيبُ بِهِ عَنْ عَالَمِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْأَمْرِ(١)

١٣٣ـ وَفِي ٱلنُّورِ مَهْمَا شَاهَدَ ٱلنُّورَ سِرُّهُ وَلَوْ أَنَّهُ بَيْنَ ٱلْمُثَقَّفَةِ ٱلسُّمْرِ(٢)

مَقَامُ البقاءِ

١٣٤ـ وَهَـٰذَا لِأَهْلِ ٱلقُرْبِ فِي ٱلْوَصْلِ رُتْبَةٌ وَلَـٰكِنَّهَا مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فِي ٱلْقَدْرِ(٣)

١٣٥ـ وَكَانَ وُجُودُ ٱلْهَجْرِ هَجْرَ ٱخْتِيَارِهِ فَنَاءً فَأَفْنَاهُ ٱلْبَقَاءُ عَنِ ٱلْهَجْرِ(٤)

١٣٦ـ فَلَا عَدَمٌ بَعْدَ ٱلْوُجُودِ فَإِنَّهُ بِمُودَعِ سِرِّ ٱلْعَيْنِ فِي بَاطِنِ ٱلسِّرِّ(٥)

---

(١) قوله : (وقد كان في كشف . . .) البيتَ : هو حكايةٌ لِمَا طَرَأ له في مقام عين اليقين . « شرح الفاسي » (ص١٩٨) ، وسبق في (١/ ١٤٥) الإلماح إلىٰ معنىٰ عالَم الخَلْق والأمر .

(٢) قوله : (وفي النور . . .) البيتَ : هو حكايةٌ لِمَا كان وقع في أوّل مقام حق اليقين قبل أن يتدرَّب مع شربها ويتجوهرَ به ، والمُثقَّفة : الرماح المُقوَّمة المُسوَّاة ، والسُّمْر : المائلة إلى السواد ، وُصِفتْ بذلك ؛ لصفائها وقوّة زُرْقتها ؛ لأنَّها إذا بلغتْ غايتَها يَقرُب لونها إلى السواد ، وهي أجود أنواع الرماح ؛ أي : يصلُ المُحِبُّ في هـٰذا الفناء إلىٰ أنَّهُ يغيب عن الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات ، ولا يشعر بشيء من ذلك ولو كان بين الرماح المُثقَّفة السمراء . انظر « شرح الفاسي » (ص١٩٨) .

(٣) قوله : (دون ذلك) ؛ أي : دون رتبة وصفة صاحب حقِّ اليقين .

(٤) أي : وكان صاحبُ هـٰذا المقام في مقام علم اليقين وتجلّي الأفعال هاجراً اختياراته ، فانياً عن مُراداته ، فأَفْناه البقاءُ بالله الحاصلُ له عند تمكُّنه في مقام حقِّ اليقين بدوام شربه ، حتىٰ تَجَوْهَرَ به ، وتخلَّص من وجوده بنفسه عن ذلك الهَجْر الذي تقدَّم له في ذلك المقام المُتقدِّم . « شرح الفاسي » (ص١٩٩) .

(٥) في النسخة الأزهرية : (الكشف) بدل (العين) ، و(أل) في (الوجود) للعهد ، والمعهودُ ما تقدَّم في البيت قبله من ذكر البقاء ، والضميرُ في (فإنَّهُ) عائدٌ لـ(الوجود) ، والباء في (بمودع) سببيَّة ، وسرُّ العين : خالص الشهود ،=

١٣٧ـ وَإِنِّي بِهِ فِي جَمْعِ جَمْعٍ مُؤَيَّدٌ   وَمَحْوٌ وَإِثْبَاتٌ إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ عُمْرِي[(١)]

ما للخواصِّ في الدُّنيا مِنْ حقِّ اليقينِ

١٣٨ـ وَلِلنُّورِ فِي كُلِّيَّةِ ٱلْعَبْدِ سَارِيٌ   سِرَايَةَ مَاءِ ٱلزَّهْرِ فِي وَرَقِ ٱلزَّهْرِ[(٢)]

١٣٩ـ فَيَحْظَىٰ بِهِ رُوحاً وَقَلْباً وَقَالَباً   وَنَفْساً أَلَا أَكْرِمْ بِذَٰلِكَ مِنْ بِرِّ

١٤٠ـ وَهَـٰذَا لِأَهْلِ ٱلْقُرْبِ أَشْرَفُ رُتْبَةٍ   وَمِنْ فَوْقِهَا مَا لَمْ يَمُرَّ عَلَىٰ فِكْرِ[(٣)]

تمت الرائية المباركة

بحمد الله وتوفيقه

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

= وانظر « شرح الفاسي » (ص٢٠٠) .

(١) قوله : (به) ؛ أي : بالوجود بالله ، وقوله : (محو) بالجر ، وهو واضح ، وبالرفع علىٰ معنىٰ : (ولي محوٌ) ، ومقامُ جمع الجمع هو شهود الحقِّ والخَلْق وإعطاءُ المراتب حقَّها ، والمَحْوُ هنا : رفع الأوصاف البشريَّة عيناً وأثراً وإذهابُ العِلَّة ، والإثبات : إثباتُها بالحق سبحانه وتعالىٰ ، وقوله : (إلىٰ منتهىٰ عمري) تنازع فيه المصادر السابقة ، وانظر « شرح الفاسي » (ص٢٠١) .

(٢) قوله : (وللنور) ؛ أي : نورِ المشاهدة ، وقوله : (العبد) هو صاحبُ مقام حق اليقين ، وقوله : (ساريٌ) ظهرت حركة الرفع على الياء لضرورة الوزن

(٣) قوله : (وهـٰذا) ؛ أي : مقام حق اليقين ، وقال أبو طالب المكي رضي الله عنه في تقريب معنى الشطر الثاني : (ولا نهايةَ لعلم التوحيد ، ولا غايةَ لمزيد عطاء المُوحِّدين ، ولـٰكن لهم نهاياتٌ يُوقَفون تحتَها ، وغاياتٌ يَصدُرون عنها ، تُجعَلُ أماكنَ لمزيدهم ، ويزدادون في وسعها ، ويُمَدُّون بعلوم يطلبون بها ما يُكاشَفون به لما وراءها أبدَ الآباد ، بلا آخِرٍ ولا أمد) ، وانظر « شرح الفاسي » (ص٢٠٣)

عَوارِفُ المَعارِف

تأليفُ

شيخِ الإسلامِ الإمامِ الفقيهِ العارفِ المُربّي

شِهابِ الدّينِ أبي حفصٍ عُمَرَ البكريّ السُّهْرَوَرْديّ

(٥٣٩-٦٣٢هـ)

طُبِعَ بالاعتمادِ على أصولٍ عديدةٍ نفيسةٍ، بعضها مقروءٌ على المصنّف أو قريبُ العهدِ به

حقّقه وعلّق عليه

بلال محمّد حاتم السّقا

الجزء الأوّل

دار التّقوى

دمشق الشام

[خطبة الكتاب]

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

الحمدُ للهِ العظيمِ شانُهُ ، القويِّ سلطانُهُ ، الظاهرِ إحسانُهُ ، الباهرِ حُجَّتُهُ وبُرهانُهُ ، المُحتجِبِ بالجلالِ(١) ، والمُتفرِّدِ بالكمالِ ، والمُتردِّي بالعظمةِ في الآبادِ والآزالِ(٢) ، لا يُصوِّرُهُ وَهْمٌ ولا خيالٌ ، ولا يحصُرُهُ حدٌّ ولا مثالٌ ، ذي العزِّ الدائمِ السَّرْمَديِّ ، والمُلْكِ القائمِ الدَّيْمُوميِّ ، والقدرةِ الممتنعِ إدراكُ كُنْهِها ، والسَّطْوةِ المُستوعِرِ طريقُ استيفاءِ وصفِها .

نطقتِ الكائناتُ بأنَّهُ الصانعُ المُبدِعُ ، ولاحَ مِنْ صَفَحاتِ ذرَّاتِ الوجودِ بأنَّهُ الخالقُ المُخترِعُ

(١) المُحتجب : الذي دخل الحجاب ؛ فالمُحتجب المستتر ، ويُقال في الله تعالىٰ محتجب لا محجوب ؛ لأنَّ المحجوبَ ممنوع ، والممنوعَ مقهور للمانع ؛ لأنَّهُ ستره ، والمقهورُ يليق بالعبد ، وأيضاً : المحجوب مَنْ حجابُهُ من خارج ومن غير ، والمحتجبُ مَنْ حجابُهُ من نفسه ؛ فالله تعالىٰ محتجبٌ لا محجوب لأنَّ صفاتِهِ حجابُهُ ، كما رُوي : « حجابُهُ النورُ ، لو كشفَهُ لأحرقتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهىٰ إليه بصرُهُ مِنْ خلقِهِ » .

(٢) المُتردِّي : المُتَّصف ، والآباد جمع (أَبَد) ؛ وهو ما لا آخر له ، والآزال جمع (أَزَل) ؛ وهو ما لا أوَّل له .

وَسَمَ عقلَ الإنسانِ بالعجزِ والنُّقصانِ ، وألزمَ فصيحاتِ الأَلْسُنِ وصفَ الحَصَرِ في حَلْبَةِ البيانِ[1] ، وأَحْرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ الكريمِ أجنحةَ طائرِ الفهمِ[2] ، وسدَّتْ تعزُّزاً وجلالاً مسالكَ الوَهْمِ ، وأَطْرقَ طامحُ البصيرةِ تعظيماً وإجلالاً ، ولم يجدْ مِنْ فَرْطِ الهَيبةِ في فضاءِ الجَبَروتِ مجالاً[3] ، فعادَ البصرُ كَليلاً ، والعقلُ عَليلاً ، ولم ينتهِجْ إلىٰ كُنْهِ الكبرياءِ سبيلاً

فسبحانَ مَنْ عزَّتْ معرفتُهُ لولا تعريفُهُ ، وتعذَّرَ على العقولِ تحديدُهُ وتكييفُهُ !!

ثمَّ ألبسَ قلوبَ الصَّفوةِ مِنْ عبادِهِ ملابسَ العِرْفانِ ، وخصَّهُم مِنْ بينِ عبادِهِ بخصائصِ الإحسانِ ، فصارتْ ضمائرُهُم مِنْ مواهبِ الأُنْسِ مَمْلُوَّةً ، ومَرَايا قلوبِهِم بنورِ القُدْسِ مَجْلُوَّةً ، فتهيَّأَتْ لقَبولِ الأمدادِ القُدْسيَّةِ ، واستعدَّتْ لوُرُودِ الأنوارِ العُلْويَّةِ ، واتَّخذتْ مِنَ الأنفاسِ العَطِرةِ بالأذكارِ جُلَّاساً ، وأقامتْ على الظاهرِ والباطنِ مِنَ التقوىٰ حُرَّاساً ، وأَشْعلَتْ في ظُلَمِ البشريَّةِ مِنَ اليقينِ نِبْراساً[4] ، واستحقرتْ فوائدَ الدنيا ولذَّاتِها ، وأنكرتْ مَصَايدَ الهوىٰ وتَبِعاتِها[5] ، وامتطتْ غواربَ الرَّغَبوتِ

---

(١) الحَصَر : العِيُّ ، وعدم القدرة على البيان

(٢) سُبُحات وجهه : جلال الله وعظمته ونوره وبهاؤه

(٣) أي : لم يجد في عالم الأسماء والصفات دخولاً يدرك به كنه حقائقها ، وفي هامش (ج) : (الجبروت : عالَم أفعال الحق الذي هو مظهر صفاته ، وسُمِّي به ؛ لأنه جبرٌ محضٌ خالٍ عن الوسائط والأسباب الملكية والملكوتية ، وهو في عالَم المَلَكوت الذي هو مَحَل تصرفات الملك ، وفوق الجَبَروت مَحَل الرَّغَبوت ؛ وهو عالَم الصفة) .

(٤) النِّبْراس : المصباح

(٥) في (أ) ونسخة على هامش (ج) : (مصائب) بدل (مصايد) ، والمصايدُ هنا : =

والرَّهَبوتِ[1] ، واستفرشتْ بعلوِّ همَّتِها بِساطَ المَلَكوتِ ، وامتدَّتْ إلى المعالي أعناقُها ، وطَمَحَتْ إلى اللَّامعِ العُلْويِّ أحداقُها[2] ، واتَّخذتْ مِنَ الملأِ الأعلىٰ مُسامِراً ومُحاوِراً[3] ، ومِنَ النورِ الأَعَزِّ الأقصىٰ مُزاوِراً ومُجاوِراً[4]

أجسادٌ أَرْضيَّةٌ بقلوبٍ سماويَّةٍ ، وأشباحٌ فَرْشيَّةٌ بأرواحٍ عَرْشيَّةٍ ، نفوسُهُم في منازلِ الخدمةِ سيَّارةٌ ، وأرواحُهُم في فضاءِ القُرْبِ طيَّارةٌ ، ومذاهبُهُم في العُبوديَّةِ مشهورةٌ ، وأعلامُهُم في أقطارِ الأرضِ منشورةٌ

يقولُ الجاهلُ بهِم فُقِدُوا ، وما فُقِدوا ، ولٰكن سَمَتْ أحوالُهُم فلَمْ يُدرَكوا ، وعلا مقامُهُم فلمْ يُملَكوا[5] ، كائنينَ بالجُثْمانِ[6] ، بائنينَ بقلوبِهِم عن أوطانِ الحِدْثانِ .

= اللذَّات ؛ لأنَّها هي التي تصيدُ نفوساً بنصالها

(١) امتطت : ركبت ، والغَوارب جمع (غاربة) ؛ وهي في الأصل ما بين سنام الإبل وعنقها ، والرَّغَبُوت والرَّهَبُوت : الرجاء والخوف ، وتاؤهما زائدة ، ومثلهما (الرَّحَموت) و(الجَبَروت) و(المَلَكوت) ، وانظر « تاج العروس » (١٠/ ٣٥٦)

(٢) طَمَحَت : ارتفعت ، واللامعُ العُلْوي : النور الأزلي .

(٣) الملأ الأعلىٰ : الملائكة المقربون .

(٤) المراد بالنور : نور الذات ، وقوله (مُزاوراً ومُجاوراً) ؛ أي : حالاً ومقاماً ، وإنَّما سُمِّي الحالُ حالاً ؛ لتحوُّله تحوّلَ الزُّوَّار ، والمقامُ مقاماً ؛ لثبوته واستقراره استقرارَ المجاورين .

(٥) وفي ذلك يقول سيِّدي العارف الفقيه عبد الرحمٰن بَلْفقيه باعلوي :

يقولُ قومٌ عن هُداهمْ ضَلُّوا ... قد عُدِمُوا في عصرِنا أو قَلُّوا
فقُلْ لهُم كلَّا ولٰكنْ جَلُّوا ... عن أنْ تراهُمْ أَعْيُنُ الجُهَّالِ

(٦) في هامش (ج) : (أي لا يعرفهم الجاهل ؛ لعدم استعداده ، فيقولُ : هم معدومون ، وما هم بمعدومين ؛ فإنهم لم يُدرَكوا لعُلُوِّ أحوالهم عن نظر الجاهل ، =

لِأَرواحِهِم حولَ العرشِ تَطْوافٌ ، ولقلوبِهِم مِنْ خزائنِ البِرِّ إسعافٌ ، يتنعَّمونَ بالخدمةِ في الدَّياجرِ[1] ، ويتلذَّذونَ مِنْ وَهَجِ الطلبِ بظَمَأِ الهواجرِ[2] ، تسلَّوْا بالصَّلَواتِ عنِ الشهواتِ ، وتعوَّضوا بحلاوةِ التِّلاوةِ عنِ اللذَّاتِ ، يلوحُ مِنْ صَفَحاتِ وجوهِهِم بِشْرُ الوِجْدانِ ، وينُمُّ علىٰ مكنونِ سرائرِهِم نَضَارةُ العِرْفانِ[3]

لا يزالُ في كلِّ عصرٍ وزمانٍ منهُم علماءُ قائمونَ بالحقِّ ، داعونَ للخَلْقِ ، مُنِحُوا بحُسْنِ المتابعةِ رُتْبةَ الدَّعْوةِ ، وجُعلوا للمتقينَ قُدْوةً ، فلا يزالُ تظهرُ في الخلقِ آثارُهُم ، وتُزهِرُ في الآفاقِ أنوارُهُم ، مَنِ اقتدىٰ بهِمُ اهتدىٰ ، ومَنْ أنكرَهُم ضلَّ واعتدىٰ .

فللّٰهِ الحمدُ علىٰ ما هيَّأَ للعبادِ ؛ مِنْ بركةِ خواصِّ حضرتِهِ مِنْ أهلِ

= وقولُهُ : « كائنين » نصب على المدح ، أو حال من الضمائر المتقدمة الراجعة إلى « الصفوة » وأمثالها فيما بعدها)

(١) الدَّياجر جمع (دَيْجُور) ؛ وهو الظلام أو الظُّلمة ، وخُصَّ بذلك ؛ لأنه وقت ارتفاع الموانع من رؤية الأشياء وسماع الأصوات ، فيتم بذلك الإخلاص والمناجاة مع الله تعالىٰ والأنس به .

(٢) أي : بالعطش في فصل الصيف في صومهم ، والهواجر : جمع (هاجرة) ؛ وهي نصف النهار عند اشتداد الحر .

(٣) قوله : (يَنِمُّ) كذا ضبط في (ج) بالوجهين ، وهو بناء علىٰ ما أورده ابن سيده وابن مالك ، وقال الزَّبيدي في « تاج العروس » (٩/ ٣٤) نقلاً عن شيخه الطيب الفاسي (ورأيت المِزِّيَّ قد تفقَّه فيه وفصَّل ؛ فقال : « يَنِمُّ » بالكسر في اللازم ؛ أي : يَظْهَرُ ، وبالضم في المتعدِّي ؛ أي : ينقل ، فتأمَّلْ) .

وفي هامش (ج) : (يُقال : « إبِلٌ نمَّةٌ » : إذا لم تُبْقِ في أجوافها ماءً ، والنَّمَّام منه ؛ لأنه لا يُبقي الكلامَ في جوفه ؛ يعني ظواهرُهُم تحكي عن مكنونات سرائرهم) .

الوِدادِ ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ نبيِّهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الأكرمينَ الأمجادِ

[الداعي إلىٰ تأليفِ الكتابِ]

ثمَّ إنَّ إيثاري لهَدْيِ هـٰؤلاءِ القومِ ، ومحبَّتي لهُم عِلْماً بشرفِ حالِهِم ، وصحَّةِ طريقتِهِمُ المبنيَّةِ على الكتابِ والسنَّةِ ، المُتحقِّقِ بها مِنَ اللهِ الكريمِ الفضلُ والمِنَّةُ[1] . . حَدَاني علىٰ أنْ أذُبَّ عن هـٰذهِ العِصابةِ بهـٰذهِ الصُّبابةِ[2] ، وأؤلِّفَ أبواباً في الحقائقِ والآدابِ ، مُعرِبةً عن وجهِ الصوابِ فيما اعتمدُوهُ[3] ، مُشعِرةً بشهادةِ صَريحِ العلمِ لهُم فيما اعتقدُوهُ[4] ؛ حيثُ كثُرَ المُتشبِّهونَ واختلفتْ أحوالُهُم ، وتستَّرَ بزيِّهِمُ المُتستِّرونَ وفسدتْ أعمالُهُم ، وسبقَ إلىٰ قلبِ مَنْ لا يعرفُ أصولَ سلفِهِم سوءُ ظنٍّ ، وكادَ لا يسلمُ مِنْ وقيعةٍ فيهِم وطَعْنٍ ؛ ظنّاً منهُ أنَّ حاصلَهُم راجعٌ إلىٰ مُجرَّدِ رَسْمٍ ، وتخصُّصَهُم عائدٌ إلىٰ مُطلَقِ اسمٍ .

وممَّا حَضَرَني فيهِ مِنَ النيَّةِ : أنْ أُكثِّرَ سوادَ القومِ بالاعتزاءِ إلىٰ طريقِهِم[5] ، والإشارةِ إلىٰ أحوالِهِم ، وقد وردَ : « مَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ . . فَهُوَ مِنْهُمْ »[6] ،

---

(١) في (أ ، ج ، و ، ز ، ي) : (ذي الفضل) بدل (الفضل) .

(٢) حَدَاني : دعاني وحرَّضني ، وأَذُبُّ : أدفع وأمنع ، والعِصابة : الجماعة ، والمراد : جماعة الصوفية المارُّ سَمْتُهم ، والصُّبابة في الأصل : البقيّة من الماء واللبن .

(٣) مُعرِبة : مُبيِّنة وكاشفة .

(٤) مُشعِرة : مُعلِنة

(٥) الاعتزاء : الانتساب

(٦) رواه أبو يعلىٰ وعلي بن معبد في « الطاعة والمعصية » ، كما في « كشف الخفاء » (٢/ ٢٧٤) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، والديلمي في =

وأرجو مِنَ اللهِ الكريمِ صحَّةَ النيَّةِ فيهِ ، وتخليصَها مِنْ شوائبِ النَّفْسِ

وكلُّ ما فتحَ اللهُ تعالىٰ عليَّ فيهِ . . مِنَحٌ مِنَ اللهِ الكريمِ وعَوارفُ ، وأَجَلُّ المِنَحِ عَوارفُ المعارفِ(١)

[محتوى الكتاب]

والكتابُ يشتملُ علىٰ نيِّفٍ وستِّينَ باباً ، ومِنَ اللهِ تعالى العونُ والتوفيقُ

البابُ الأوَّلُ : في مَنْشأِ علومِ الصُّوفيَّةِ .

البابُ الثاني : في تخصيصِ الصُّوفيَّةِ بحُسْنِ الاستماعِ(٢)

البابُ الثالثُ : في بيانِ فضيلةِ علومِ الصُّوفيَّةِ والإشارةِ إلىٰ أُنْمُوذجٍ منها .

البابُ الرابعُ : في شرحِ حالِ الصُّوفيَّةِ واختلافِ طريقِهِم

البابُ الخامسُ : في ذكرِ ماهيَّةِ التصوُّفِ .

البابُ السادسُ : في ذكرِ تسميتِهِم بهـٰذا الاسمِ .

= « الفردوس » (٥٦٢١) ، وابن المبارك في « الزهد » (٤٢) ضمن « زيادات نعيم بن حماد » ، وانظر « كشف الخفاء » (٢/ ٢٧٤) ، و« غنية العارف » (١/ ٤) .

(١) العوارف : جمع (عارفة) ؛ يُقال : أَوْلاه عارفةً ؛ أي : معروفاً ، قال الزَّبيدي في « التاج » (٢٤/ ١٣٨) : (ومنه سمَّى السُّهْرُوَرْديُّ كتابَهُ « عوارف المعارف ») ، وإنَّما كانت أجلَّ المنح ؛ لأنَّ المعرفة أشدُّ عروةً وأحسنُ وسيلةً من غيرها من الأحوال والمقامات .

(٢) في (ب) هنا وفيما سيأتي (في تخصص) بدل (في تخصيص) ، والمعنىٰ عليهما ظاهر

البابُ السابعُ : في ذكرِ المُتصوِّفِ والمُتشبِّهِ بهِ

البابُ الثامنُ في ذكرِ المَلامَتِيِّ وشرحِ حالِهِ[1]

البابُ التاسعُ : في ذكرِ مَنِ انتمىٰ إلى الصُّوفيَّةِ وليسَ منهُم

البابُ العاشرُ : في شرحِ رُتبةِ المَشْيَخَةِ

البابُ الحادي عَشَرَ : في شرحِ حالِ الخادمِ ومَنْ يتشبَّهُ بهِ .

البابُ الثاني عَشَرَ : في شرحِ خِرْقةِ المشايخِ الصُّوفيَّةِ .

البابُ الثالثَ عَشَرَ : في فضيلةِ سُكَّانِ الرُّبُطِ[2]

البابُ الرابعَ عَشَرَ : في مشابهةِ أهلِ الرِّباطِ بأهلِ الصُّفَّةِ

البابُ الخامسَ عَشَرَ : في خصائصِ أهلِ الرُّبُطِ فيما يتعاهدونَهُ بينَهُم .

البابُ السادسَ عَشَرَ : في اختلافِ أحوالِ المشايخِ بالسفرِ والمقامِ

البابُ السابعَ عَشَرَ : فيما يحتاجُ المسافرُ إليهِ مِنَ الفرائضِ والفضائلِ

البابُ الثامنَ عَشَرَ : في القدومِ مِنَ السفرِ ودخولِ الرِّباطِ والأدبِ فيهِ .

البابُ التاسعَ عَشَرَ : في حالِ الصُّوفيِّ المُتسبِّبِ[3]

البابُ العشرونَ : في حالِ مَنْ يأكلُ مِنَ الفتوحِ[4]

---

(١) الملامتي : هو الذي لا يُظهِر خيراً ولا يُضمِر شرّاً ، وهو الذي تشرَّبتْ عروقُهُ طعم الإخلاص ، وتحقَّقَ بالصدق ، فلا يحبُّ أن يطَّلع أحدٌ علىٰ حاله وأعماله ، وسيأتي أصل اشتقاقه وبيان أحواله وأقسامه في بابه في (١/ ٢٨٤ـ ٢٩٥) .

(٢) الرُّبُط : جمع (رِباط)؛ وهو مُتعبَّد الصوفية ، وسيأتي شرحه مؤصَّلاً في (١/ ٣٤٦ـ ٣٥٤).

(٣) وتكلَّم فيه عن اختلاف أحوال سادتنا الصوفية في الوقوف مع الأسباب والإعراض عنها .

(٤) وذكَرَ فيه أنه إذا كَمَلَ شغل الصوفي بالله يُفتح له بابٌ من التعريف بطريق المقابلة علىٰ كل=

البابُ الحادي والعشرونَ : في شرحِ حالِ المُتجرِّدِ مِنَ الصُّوفيَّةِ والمُتأهِّلِ .

البابُ الثاني والعشرونَ : في القولِ في السماعِ قَبولاً وإيثاراً

البابُ الثالثُ والعشرونَ : في القولِ في السماعِ ردّاً وإنكاراً

البابُ الرابعُ والعشرونَ : في القولِ في السماعِ ترفُّعاً واستغناءً .

البابُ الخامسُ والعشرونَ : في القولِ في السماعِ تأدُّباً واعتناءً .

البابُ السادسُ والعشرونَ : في خاصِّيَّةِ الأَرْبعينيَّةِ التي يتعاهدُها الصُّوفيَّةُ(١)

البابُ السابعُ والعشرونَ : في ذكرِ فتوحِ الأربعينيَّةِ .

البابُ الثامنُ والعشرونَ : في كيفيَّةِ الدخولِ في الأربعينيَّةِ .

البابُ التاسعُ والعشرونَ : في ذكرِ أخلاقِ الصوفيَّةِ وشرحِ الخُلُقِ

البابُ الثلاثونَ : في ذكرِ تفاصيلِ أخلاقِ الصوفيَّةِ .

البابُ الحادي والثلاثونَ : في ذكرِ الأدبِ ومكانِهِ مِنَ التصوُّفِ .

البابُ الثاني والثلاثونَ : في آدابِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ لأهلِ القُرْبِ .

البابُ الثالثُ والثلاثونَ : في آدابِ الطهارةِ ومُقدِّماتِها

البابُ الرابعُ والثلاثونَ : في آدابِ الوضوءِ وأسرارِهِ

= فعل يصدر منه ، ثم يتجرَّد له فعل الله تعالىٰ ، وأورد في ذلك قصصاً جليلة عجيبة

(١) الأربعينيَّة : عبارةٌ عن خلوة بين العبد وربِّه يلتزمُها سادتنا الصوفية ، وتُقدَّر بأربعين يوماً

فهٰذهِ الأبوابُ تحرَّرتْ بعونِ اللهِ تباركَ وتعالىٰ مُشتمِلةً علىٰ بعضِ علومِ الصُّوفيّةِ وأحوالِهِم ومقاماتِهِم ، وآدابِهِم وأخلاقِهِم ، وغرائبِ مواجيدِهِم ، وحقائقِ معرفتِهِم وتوحيدِهِم ، ودقيقِ إشاراتِهِم ، ولطيفِ اصطلاحاتِهِم .

فعلومُهُم كلُّها إنباءٌ عن وِجْدانٍ ، واعتزاءٌ إلىٰ عِرْفانٍ ، وذوقٌ تحقَّقَ بصدقِ الحالِ ، ولم يَفِ باستيفاءِ كُنْهِهِ صريحُ المقالِ ؛ لأنَّها مواهبُ ربَّانيَّةٌ ، ومنائحُ حَقَّانيَّةٌ ، استنزلَها صفاءُ السرائرِ ، وخُلُوصُ الضمائرِ ، فاستعصَتْ بكُنْهِها على الإشارةِ ، وطَفَحَتْ على العبارةِ(١) ، وتهادَتْها الأرواحُ بدَلالةِ التَّشَامِّ والائتلافِ(٢) ، وكَرَعَتْ حقائقُها مِنْ بحرِ الألطافِ(٣)

وقد اندرسَ كثيرٌ مِنْ دقيقِ علومِهِم ، كما انطمسَ كثيرٌ مِنْ حقائقِ رُسومِهِم ، وقد قالَ الجُنيدُ رحمَهُ اللهُ : (عِلْمُنا هٰذا قد طُوِيَ بِساطُهُ منذُ كذا

(١) طَفَحت : امتلأت حتىٰ فاضت ؛ أي : أنَّ علوم سادتنا الصوفية لا تدخل في العبارة ؛ لدقَّتها وغلبتها على الفهوم .

(٢) في هامش (ج) : (التهادي : مراسلة الهدية من الجانبين ، والتشامُّ : الشمُّ من الجانبين أيضاً ، لا تدخل تلك العلوم في العبارة ؛ [لدقَّتها] وغلبتها على الفهوم ، بل تهادتها الأرواح بدَلالة التشامِّ ، [والتشامُّ] ها هنا : عبارةٌ عن فتح مَشامِّ قلب الطالب لأخذ الأنفاس العَطِرَةِ من صفاء ضمائر أهل الله ، والمعنىٰ : أنَّ كلَّ روح من الأرواح قَبِلَ في القرب موهبةً خاصة من الله ، ثم أهدىٰ بعض الأرواح إلىٰ بعضها شيئاً من موهبته ؛ بدلالة تشامِّ كلِّ واحدٍ ذلك من الآخر عند الطلب ؛ بدلالة ائتلاف الرُّوحية فيهم .
والحاصل : أنَّ الأرواح شمَّت تلك العلومَ والمنائح من مقام القرب من الله ، ثم أهدتها إلىٰ قلوب أصحابها ، ولم تقدر الأرواح أن تأخذ المواهب منه بوصولها إليها وإحاطتها بها ، بل بطريق التشامِّ لقربها وائتلافِها ومناسبتها بذلك العلم ، والله أعلم) .

(٣) كَرَعتْ : شربت وتناولت .

سنةً ، ونحنُ نتكلَّمُ في حواشيهِ)[1]

وبدا هـٰذا القولُ منهُ في وقتِهِ معَ قُرْبِ العهدِ بعلماءِ السلفِ وصالِحِي التابعينَ ، فكيفَ بنا ذلكَ معَ بُعْدِ العهدِ وقلَّةِ العلماءِ الزاهدينَ ، والعارفينَ بحقائقِ علوم الدِّينِ ؟!

واللهُ المأمولُ أنْ يُقابِلَ جُهدَ المُقِلِّ بحسنِ القَبولِ ؛ إنَّهُ خيرُ مسؤولٍ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ[2]

۞ ۞ ۞

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٤٤٨) ، وفيه : (منذ عشرين سنةً) ، وأورد عن الجنيد أيضاً قوله : (كنتُ أجالس قوماً سنين يتحاورون في علوم لا أفهمُها ، ولا أدري ما هي ، وما بُليتُ بالإنكار قط ، كنتُ أتقبَّلُها وأُحِبُّها من غير أن أعرفها) ، وكان يقول أيضاً : (كُنَّا نتجارىٰ مع إخواننا قديماً في علومٍ كثيرة ما تُعرَف في وقتنا هـٰذا ، ولا سألني عنها أحدٌ)

(٢) في هامش (ب) : (بلغ سماع الجماعة على الشيخ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي الشافعي) ، وفيه أيضاً : (بلغ قراءةً على الشيخ جلال الدين (. . .) ، كاتبه عبد السلام المقدسي)

الباب الأول

في ذكر منشأ علوم الصوفية

(١) ـ حدَّثَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهرِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ السُّهْرُوَرْدِيُّ إملاءً مِنْ لفظِهِ في شوَّالٍ سنةَ ستينَ وخمسِ مئةٍ ، قالَ : أخبرَنا الشريفُ نورُ الهدىٰ أبو طالبٍ الحسينُ بنُ محمَّدٍ الزَّيْنَبيُّ ، قالَ : أخبرَتْنا كَريمةُ بنتُ أحمدَ بنِ محمَّدٍ المَرْوَزِيَّةُ المُجاوِرةُ بمكَّةَ حرسَها اللهُ ، قالتْ أخبرَنا أبو الهيثمِ محمَّدُ بنُ المكيِّ الكُشْمِيهَنيُّ[1] ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ يوسفَ الفِرَبْريُّ[2] ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ إسماعيلَ البُخاريُّ ، قالَ : حدَّثَنا أبو كُرَيبٍ ، قالَ : حدَّثَنا أبو أسامةَ ، عن بُرَيدٍ ، عن أبي بُرْدةَ ، عن أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُم أجمعينَ ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ

---

(١) نسبة إلىٰ (كُشْمِيهَنَ) قرية بمرو ، وقد حدَّث الكُشْمِيهَني بـ « صحيح البخاري » عن الفِرَبري مراتٍ عديدةً حتى اشتهر بذلك ، توفي في يوم عرفة سنة (٣٨٩هـ) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ٤٩١) ، و« إكمال الإكمال » (٢/ ٦٥٠) .

(٢) نسبة إلىٰ (فِرَبْرَ) بُليدة بين جَيْحُونَ وبُخارىٰ ، قال ياقوت الحموي : (بكسر أوَّله ، وقد فتحه بعضهم) انظر « معجم البلدان » (٤/ ٢٤٥) ، و« تبصير المتبه » (٣/ ١١٠١) ، و« تاج العروس » (١٣/ ٣١١) ، والفربريُّ من أشهر وأوثق مَنْ روى « الصحيح » عن البخاري رحمهما الله تعالىٰ ، توفي سنة (٣٢٠هـ) وقد أشرف على التسعين .

مَا بَعَثَنِي ٱللهُ بِهِ . . كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْماً فَقَالَ يَا قَوْمِ ؛ إِنِّي رَأَيْتُ ٱلْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ ، وَإِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْعُرْيَانُ ، فَٱلنَّجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا ، فَٱنْطَلَقُوا عَلَىٰ مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ ٱلْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَٱجْتَاحَهُمْ ـ أي : استأصلَهُمْ ، ومِنْ ذلكَ : الجائحةُ التي تُفسِدُ الثمارَ ـ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَٱتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ ٱلْحَقِّ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي ٱللهُ بِهِ مِنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْعِلْمِ . . كَمَثَلِ ٱلْغَيْثِ ٱلْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضاً ، فَكَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ ٱلْمَاءَ ، فَأَنْبَتَتِ ٱلْكَلأَ وَٱلْعُشْبَ ٱلْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ إِخَاذَاتٌ أَمْسَكَتِ ٱلْمَاءَ ، فَنَفَعَ ٱللهُ تعالىٰ بِهَا ٱلنَّاسَ ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً ؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي

---

(١) صحيح البخاري (٧٢٨٣) ، ورواه مسلم (٢٢٨٣) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٢) ، وفي (أ ، ج) : (فالنجاء النجاء) مكرَّراً ، وهي رواية في « البخاري » (٦٤٨٢) ، وقوله : (أنا النذير العُرْيان) قال الملا علي القاري في « المرقاة » (١/ ٢٣١) : (مثل مشهور سائرٌ بين العرب ، يُضرب لشدة الأمر ودُنُوِّ المحذور ، وبراءة المُحذِّر عن التُّهَمة ، وأصلُهُ : أنَّ الرجل إذا رأى العدوَّ قد هجم علىٰ قومه وأراد أن يُفاجئهم وكان يخشىٰ لحوقَهُم قبل لحوقه . . تجرَّد عن ثوبه وجعله علىٰ رأسِ خشبةٍ وصاح ليأخذوا حِذْرهم ، وقيل : هو الذي غَشِيَهُ العدوُّ وكان ربيئةَ قومِهِ ـ أي : جاسوسَهُم ـ فأخذوه وتعلَّقوا بثيابه ، فانسلَّ منها ولحق بقومه فأنذرهم ، فلمَّا رأَوه علىٰ حالته تلك ارتحلوا عن آخرهم ، وقيل : إنه الذي سَلَبَ العدوُّ ما عليه من الثياب ، فأتىٰ قومه عُرْياناً يخبرهم ، فصدَّقوه ؛ لما عليه من آثار الصدق ، وخُصَّ العريان بالذكر ؛ لأنه أبينُ في العين ، وأغرُّ وأشنعُ عند البصر) ، وقوله : (فالنجاء) جاء في غالب النسخ مكرراً ، والمثبت موافق لـ« الصحيح » ، وجاء فيه مكرراً في (باب الانتهاء عن المعاصي) برقم : (٦٤٨٢)

دِينِ ٱللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي ٱللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَٰلِكَ رَأْساً وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى ٱللهِ ٱلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ »(١)

قالَ الشيخُ رضيَ اللهُ عنهُ : أعدَّ اللهُ تعالىٰ لقَبولِ ما جاءَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسلم . . أَصْفى القلوبِ وأَزْكى النفوسِ ، وظهرَ تفاوتُ الصفاءِ والتزكيةِ في تفاوتِ الفائدةِ والنفعِ

فمِنَ القلوبِ : ما هوَ بمثابةِ الأرضِ الطيِّبةِ التي أنبتتِ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ ، وهـٰذا مثلُ مَنِ انتفعَ بالعلمِ في نفسِهِ واهتدىٰ ، ونفعَهُ علمُهُ ، وهداهُ إلى الطريقِ القويمِ مِنْ متابعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ومِنَ القلوبِ : ما هوَ بمثابةِ الإخاذاتِ ؛ أيِ : الغُدْرانِ ؛ جمعُ (إخاذةٍ) ؛ وهوَ المصنعُ والغَديرُ الذي يجتمعُ فيهِ الماءُ(٢) ؛ فنفوسُ العلماءِ الزاهدينَ مِنَ الصُّوفيَّةِ والشيوخِ تزكَّتْ ، وقلوبُهُم صَفَتْ ، فاختصَّتْ بمزيدِ الفائدةِ ، فصاروا إخاذاتٍ

قال مسروقٌ : (صحبتُ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ،

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٣) ، وقوله : (إخاذات) في نسخة علىٰ هامش (ج) : (أجادب) ، وسيأتي شرح المثبت بعد قليل في كلام المؤلف ، وقيعان : جمع (قاع) ؛ وهي الأرض المستوية الملساء .

(٢) وهـٰذا الشرح من المؤلف بناء علىٰ رواية أبي ذر الهروي للحديث ، والمثبت في « الصحيحين » وغيرهما : (أجادب) بدل (إخاذات) ، والأجادب : جمع (جَدَب) ؛ وهي الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء . انظر « فتح الباري » (١/ ١٧٦) ، و« مرقاة المفاتيح » (١/ ٢٣٤)

فوجدتُهُم كالإخاذِ)[١] ؛ لأنَّ قلوبَهُم كانتْ واعيةً ، فصارتْ أوعيةَ العلومِ ؛ بما رُزِقتْ مِنْ صفاءِ الفُهُومِ .

(٢) ـ أخبرَنا الشيخُ الإمامُ رَضِيُّ الدِّينِ أبو الخيرِ أحمدُ بنُ إسماعيلَ القَزْوينيُّ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو سعدٍ محمَّدٌ الخَليليُّ[٢] ، قالَ أخبرَنا القاضي أبو سعيدٍ محمَّدٌ الفَرُّخْزَاديُّ[٣] ، قالَ : أخبرَنا أبو إسحاقَ أحمدُ بنُ محمَّدٍ الثعالبيُّ[٤] ، قالَ : أخبرَنا ابنُ فَنْجُويَهْ ، قالَ : حدَّثَنا ابنُ حيَّانَ ، قالَ : حدَّثَنا إسحاقُ بنُ محمَّدٍ ، قالَ : حدَّثَنا أبي ، قالَ : حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ عيسىٰ ، قالَ : حدَّثَنا عليُّ بنُ عليٍّ ، قالَ : حدَّثَنا أبو حمزةَ الثُّماليُّ ، قالَ : حدَّثَني عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ ، قالَ : حينَ نزلتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٢] . قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « سَأَلْتُ ٱللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ يَا عَلِيُّ » ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : فما نسيتُ شيئاً بعدُ ، وما كانَ لي أنْ أنسىٰ[٥]

---

(١) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٤٢) ، والفسوي في « المعرفة والتاريخ » (٢/ ٥٤٢) ، وزادا (فالإخاذ يُرْوي الرجل ، والإخاذ يُرْوي الرجلين ، والإخاذ يُرْوي العشرة ، والإخاذ يُرْوي المئة ، والإخاذ لو نزَلَ به أهلُ الأرض لأَصْدَرَهُم ، فوجدتُ عبدَ الله بنَ مسعود من ذلك الإخاذ)

(٢) هو النَّوْقاني . انظر (١/ ٣٤٢) تعليقاً

(٣) في (أ ، ب ، و) : (الفرخزاذي) بالمعجمة ؛ وهو محمد بن سعيد بن محمد الطوسي القاضي (ت٤٧٧هـ) ، وانظر « المنتخب من كتاب السياق » (١/ ٧٠) ، و« تاريخ الإسلام » (٣٢/ ٢٠٦) .

(٤) هو المُفسِّر المشهور ، ويُقال له : الثعلبي ، كما جاء كذلك في (د) ، وهو لقب له لا نسب . انظر « اللباب في تهذيب الأنساب » (١/ ٢٣٨) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٤٣٦) .

(٥) الكشف والبيان (٢٧/ ٢٨٨) ، والحديث مرسل ، ورواه ابن جرير الطبري في =

قالَ أبو بكرٍ الواسِطِيُّ : (آذانٌ وَعَتْ عنِ اللهِ أسرارَهُ)(١)

وقالَ أيضاً : (واعيةٌ في معادنِها ، ليسَ فيها غيرَ ما شاهدَها شيءٌ ، فهيَ الخاليةُ عمَّا سواهُ ، فما اضطرابُ الطبائعِ إلا ضربٌ مِنَ الجهلِ)(٢)

فقلوبُ الصُّوفيَّةِ وَعَتْ ؛ لأنَّهُم زَهِدُوا في الدنيا بعدَ أنْ أَحْكَمُوا أساسَ التقوىٰ ، فبالتقوىٰ زَكَتْ نفوسُهُم ، وبالزُّهدِ صَفَتْ قلوبُهُم ، فلمَّا عَدِمُوا شواغلَ الدنيا بتحقيقِ الزهدِ.. انفتحتْ مَسامُّ بواطنِهِم ، وسمعتْ آذانُ قلوبِهِم ، وأعانَهُم علىٰ ذلكَ زهدُهُم في الدنيا

فعلماءُ التفسيرِ ، وأئمَّةُ الحديثِ ، وفقهاءُ الإسلامِ.. أحاطُوا عِلْماً بالكتابِ والسنةِ ، واستنبطُوا منهُما الأحكامَ ، وردُّوا الحوادثَ المُتجدِّدةَ إلىٰ أصولٍ مِنَ النصوصِ ، وحمى اللهُ تعالىٰ بهمُ الدِّينَ .

وعرفَ علماءُ التفسيرِ وجهَ التفسيرِ ، وعلمَ التأويلِ ، ومذهبَ العربِ في اللغةِ ، وغرائبَ النحوِ والتصريفِ ، وأصولَ القصصِ ، واختلافَ وجوهِ القراءةِ ، وصنَّفُوا في ذلكَ الكتبَ ، فاتَّسعَ بطريقِهِم علومُ القرآنِ على الأُمَّةِ .

= « تفسيره » (٢٣/ ٥٧٩) مرسلاً عن مكحول رحمه الله تعالىٰ . وانظر « تخريج أحاديث الكشاف » للزيلعي (٤/ ٨٤) ، و« غنية العارف » (١/ ١٥) .

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٣٤٧) .

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٣٤٧) ، وقوله : (فما اضطراب) ؛ أي فما اضطراب الطبائع لبعض الناس في حفظ العهود والأسرار.. إلا بظهور النفس وصفاتها ؛ لأنها منبعُ الجهالات ؛ يعني : ليس نسيان البيان ، ومانع الوعي والتذكر لأسرار الرحمـٰن.. إلا لاضطراب الطبائع عند التقلُّب في الأطوار والأزمان . من هامش (ج)

وأئمَّةُ الحديثِ ميَّزُوا بينَ الصِّحاحِ والحِسانِ ، وتفرَّدُوا بمعرفةِ الرُّواةِ وأسامي الرجالِ ، وحكمُوا بالجَرْحِ والتعديلِ ؛ ليتبيَّنَ الصحيحُ مِنَ السقيمِ ، ويتميَّزَ المُعْوَجُّ مِنَ المستقيمِ ، فيتحفَّظَ بطريقِهم طريقُ الروايةِ والسندِ حفظاً للسُّنَّةِ(١)

وانتدبَ الفقهاءُ لاستنباطِ الأحكامِ ، والتفريعِ في المسائلِ ، ومعرفةِ التعليلِ ، وردِّ الفروعِ إلى الأصولِ بالعِلَلِ الجوامعِ ، واستيعابِ الحوادثِ بحكمِ النصوصِ

وتفرَّعَ مِنْ علمِ الفقهِ والأحكامِ علمُ أصولِ الفقهِ ، وعلمُ الخلافِ ، وتفرَّعَ مِنْ علمِ الخلافِ علمُ الجَدَلِ ، وأَحْوجَ علمُ أصولِ الفقهِ إلىٰ شيءٍ مِنْ علمِ أصولِ الدِّينِ(٢)

وكانَ مِنْ علمِهِم علمُ الفرائضِ ، ولزِمَ منهُ علمُ الحسابِ والجبرِ والمقابلةِ . . . إلىٰ غيرِ ذلكَ .

فتمهَّدتِ الشريعةُ وتأيَّدتْ ، واستقامَ الدِّينُ الحَنيفيُّ ، وتفرَّعَ وتأصَّلَ الهديُ النبويُّ المُصطَفَويُّ ، فأنبتتْ أراضي قلوبِ العلماءِ الكلأَ والعشبَ ؛ بما قَبِلتْ مِنْ مياهِ الحياةِ مِنَ الهدىٰ والعلمِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧]

---

(١) في (ب ، د ، و) : (فينحفظ) بدل (فيتحفظ) ، وفي نسخة على هامش (د) : (فانحفظ) .

(٢) في نسخة علىٰ هامش (ج) : (واحتاج) بدل (وأحوج)

قالَ ابنُ عباسٍ : (الماءُ : العلمُ ، والأوديةُ : القلوبُ)(١)

وقالَ أبو بكرٍ الواسِطِيُّ : (خلقَ اللهُ تعالىٰ دُرَّةً صافيةً ، فلاحظَها بعينِ الجلالِ ، فذابتْ حياءً منهُ ، فسالتْ ، فقالَ : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ ، فصفاءُ القلوبِ مِنْ وصولِ ذلكَ الماءِ إليها)(٢)

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ هـٰذا مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ تعالىٰ للعبدِ إذا سالَ السيلُ في الأوديةِ ، لا يبقىٰ في الأوديةِ نجاسةٌ إلَّا كَنَسَها وذهبَ بها ؛ كذلكَ إذا سالَ النورُ الذي قَسَمَ اللهُ تعالىٰ للعبدِ في نفسِهِ ؛ لا يبقىٰ فيهِ غفلةٌ ولا ظُلْمةٌ ؛ ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ يعني قسمةَ النورِ ، ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ يعني في القلوبِ الأنوارُ علىٰ ما قَسَمَ لها في الأزلِ ، ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ ، فتصيرُ القلوبُ مُنوَّرةً لا يبقىٰ فيها جَفْوةٌ(٣) ، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تذهبُ البواطلُ وتبقى الحقائقُ)(٤)

وقال بعضهم : (﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أنواعَ الكراماتِ ، فأخذَ كلُّ قلبٍ بحظِّهِ ونصيبِهِ ؛ فسالتْ أوديةُ قلوبِ علماءِ التفسيرِ والحديثِ والفقهِ . . بقَدَرِها ، وسالتْ أوديةُ قلوبِ الصُّوفيَّةِ مِنَ العلماءِ الزاهدينَ في الدنيا المُتمسِّكينَ بحقائقِ التقوىٰ . . بقَدَرِها)(٥)

---

(١) أورده الماوردي في « النكت والعيون » (٣/ ١٠٦) ، والراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ٨٨) .

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٣٣٠) ، وفيه (بعين الجمال) بدل (بعين الجلال)

(٣) أي : صفة ذميمة من الغِلْظة وغيرها

(٤) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٣٣٠ـ٣٣١)

(٥) انظر « تفسير السلمي » (١/ ٣٣١)

فمَنْ كانَ في باطنِهِ لَوْثُ محبَّةِ الدنيا مِنْ فضولِ المالِ والجاهِ ، وطَلَبِ المناصبِ والرِّفْعةِ . . سالَ وادي قلبِهِ بقَدَرِهِ ، فأخذَ مِنَ العلمِ طَرَفاً صالحاً ولمْ يحظَ بحقائقِ العلومِ ، ومَنْ زَهِدَ في الدُّنيا اتَّسعَ وادي قلبِهِ ، فسالتْ فيهِ مياهُ العلومِ ، واجتمعتْ وصارتْ إخاذاتٍ .

قيلَ للحسنِ البَصْريِّ هكذا قالَ الفقهاءُ ، فقالَ وهلْ رأيتَ فقيهاً قطُّ ؟! إنَّما الفقيهُ الزاهدُ في الدنيا[1]

فالصُّوفيَّةُ أخذُوا حظّاً مِنْ علمِ الدِّراسةِ ، فأفادَهُم علمُ الدِّراسةِ العملَ بالعلمِ ، فلمَّا عَمِلُوا بما عَلِمُوا . . أفادَهُمُ العملُ علمَ الوِراثةِ ، فهم معَ سائرِ العلماءِ في علومِهِم ، وتميَّزُوا عنهُم بعلومٍ زائدةٍ ؛ هيَ علومُ الوِراثةِ ، وعلمُ الوِراثةِ : هوَ الفقهُ في الدِّينِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

فصارَ الإنذارُ مُستفاداً مِنَ الفقهِ ، والإنذارُ : إحياءُ المُنذَرِ بماءِ العلمِ ، والإحياءُ بالعلمِ رُتبةُ الفقيهِ في الدِّينِ ، فصارَ الفقهُ في الدِّينِ مِنْ أكملِ الرُّتَبِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٣٦) ، والدارمي في « المسند » (٣٠٢) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣٠) ضمن « زوائد نعيم بن حماد » ، والطبراني في « الأوسط » (٢٠٨٥) ، فالفقه في العصر الأول إنما كان ينصرف إلىٰ علم طريق الآخرة ، والزهد في الدنيا ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ، وغير ذلك ، إلىٰ أنْ حُوِّرَ ونُقِلَ إلىٰ علم الفروع الفقهية وما يتعلَّق بها ، وراجع « إحياء علوم الدين » (١/ ١٢٠) وما بعدها ؛ ففيه بحث نفيس مُحرَّر في ذلك .

وأعْلاها ؛ وهوَ علمُ العالمِ الزاهدِ في الدُّنيا المُتَّقي ، الذي يبلُغُ رُتبةَ الإنذارِ بعلمِهِ

فمَوْرِدُ الهدىٰ والعلمِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوَّلاً ؛ وَرَدَ عليهِ الهدىٰ والعلمُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فارتوىٰ بذلكَ ظاهراً وباطناً ، فظَهَرَ مِنِ ارتواءِ ظاهرِهِ الدِّينُ .

والدِّينُ : هوَ الانقيادُ والخضوعُ ؛ مُشتقٌّ مِنَ الدُّونِ ، فكلُّ شيءٍ اتَّضعَ فهوَ دُونٌ ، والدِّينُ : أنْ يَضَعَ الإنسانُ نفسَهُ لربِّهِ عزَّ وجلَّ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ : ١٣] .

فبالتفرُّقِ في الدِّينِ يستولي الذُّبولُ على الجوارحِ ، ويذهبُ عنها نَضارةُ العلمِ ، والنَّضارةُ في الظاهرِ بتزيينِ الجوارحِ بالانقيادِ في النَّفْسِ والمالِ . . مُستفادٌ مِنِ ارتواءِ القلبِ ، والقلبُ في ارتوائِهِ بالعلمِ بمثابةِ البحرِ .

فصارَ قلبُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالعلمِ والهدىٰ . . بحراً مَوَّاجاً ، ثمَّ وصلَ مِنْ بحرِ قلبِهِ إلى النَّفْسِ ، فظهرَ علىٰ نفسِهِ الشريفةِ نَضارةُ العلمِ ورِيُّهُ ، فتبدَّلَتْ نعوتُ النَّفْسِ وأخلاقُها ، ثمَّ وصلَ إلى الجوارحِ جدولٌ فصارتْ ريَّانةً ناضرةً ، فلمَّا استتمَّ نَضارةً وامتلأَ رِيّاً . . بعثَهُ اللهُ تعالىٰ إلى الخلقِ ، فأقبلَ على الأمَّةِ بقلبٍ مَوَّاجٍ بمياهِ العلومِ ، واستقبلَتْهُ جداولُ الفُهُومِ ، وجرىٰ مِنْ بحرِهِ في كلِّ جدولٍ قِسْطٌ ونصيبٌ ، وذلكَ القِسْطُ الواصلُ إلى الفهومِ هوَ الفقهُ في الدِّينِ .

روىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَا

عُبِدَ ٱللهُ بِشَيءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ فِي ٱلدِّينِ ، وَلَفَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى ٱلشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ ، وَعِمَادُ هَـٰذَا ٱلدِّينِ ٱلْفِقْهُ »[1]

(٣) ـ حدَّثَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ رحمةُ اللهِ عليهِ إملاءً ، قالَ أخبرَنا أبو طالبٍ الزَّينبيُّ ، قالَ أخبرَتْنا كَريمةُ بنتُ أحمدَ بنِ محمَّدٍ المَرْوَزيَّةُ ، قالتْ أخبرَنا أبو الهيثمِ ، قالَ : أخبرَنا الفَرَبْرِيُّ ، قالَ : أخبرَنا البُخاريُّ ، قالَ : حدَّثَنا سعيدُ ابنُ [عُفيرٍ][2] ، قالَ حدَّثَنا عبدُ اللهِ بنُ وَهْبٍ ، عن يونسَ ، عنِ ابنِ شهابٍ ، عن حُميدِ بنِ عبدِ الرحمـٰنِ ، قالَ : سمعتُ معاويةَ خطيباً يقولُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ يُرِدِ ٱللهُ بِهِ خَيْراً . يُفَقِّهْهُ فِي ٱلدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَٱللهُ يُعْطِي »[3]

قالَ الشيخُ رضيَ اللهُ عنهُ : إذا وصلَ ماءُ العلمِ إلى الفهمِ . انفتحَ بصرُ القلبِ ، فأبصرَ الحقَّ والباطلَ ، وتبيَّنَ لهُ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ .

ولمَّا قرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الأعرابيِّ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧ـ٨] . .

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ١٠٩) دون قوله : « ولَفقيهٌ واحد. . . » ، ورواه بلفظه الدارقطني في « السنن » (٣٠٨٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٦١٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٠)

(٢) في النسخ : (سعيد بن حفص) ، والمثبت من « صحيح البخاري » ، وهو سعيد بن كثير بن عُفير أبو عثمان المصري . انظر « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ٥٨٣) ، و« تهذيب الكمال » (١١/ ٣٦ـ٣٧)

(٣) صحيح البخاري (٧١) ، ورواه مسلم (١٠٣٨) .

قالَ الأعرابيُّ : حَسْبي حَسْبي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فَقُهَ الرَّجُلُ »[1]

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما (أفضلُ العبادةِ : الفقهُ في الدِّينِ)[2]

والحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ جعلَ الفقهَ صفةَ القلبِ ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف ١٧٩] ، فلمَّا فَقُهُوا عَلِمُوا ، ولمَّا عَلِمُوا عَمِلُوا ، ولمَّا عَمِلُوا عَرَفُوا ، ولمَّا عَرَفُوا اهتدَوْا ؛ فكلُّ مَنْ كانَ أفقهَ كانتْ نفسُهُ أسرعَ إجابةً وأكثرَ انقياداً لمعالمِ الدِّينِ ، وأوفرَ حظّاً مِنْ نورِ اليقينِ

فالعلمُ جملةٌ موهوبةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ للقلوبِ ، والمعرفةُ تمييزُ تلكَ الجملةِ ، والهدىٰ وِجْدانُ القلوبِ ذلكَ ؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قالَ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي ٱللهُ بِهِ مِنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْعِلْمِ »[3] . . أخبرَ أنَّهُ وجدَ القلبُ النبويُّ الهدىٰ والعلمَ ، فكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هادياً مَهْديّاً ، وعلمُهُ

---

(١) قوله : (فقُه) يُقال بكسر القاف وضمها ، والضمُّ أشهر وأجود . انظر « مرقاة المفاتيح » (١/ ٢٨٤) ، والحديث رواه أحمد (٥/ ٥٩) ، والحاكم (٣/ ٦١٣) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١١٦٣٠) ، وليس فيها زيادة : (فقال رسول الله . . .) ، **والأعرابي المذكور في الحديث** : هو صعصعة بن معاوية عم الأحنف بن قيس ، كما صوَّبه ابن حجر وغيره ، ووقع في « المسند » و« سنن النسائي » وغيرهما أنه عم الفرزدق . انظر « أسد الغابة » (٣/ ٢١) ، و« الإصابة » (٣/ ٣٤٦) ، و« غنية العارف » (١/ ٢١ـ ٢٢)

(٢) رواه القضاعي في « المسند » (١٢٩٠) عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٩٢٦٤) عن ابن عمر وحده ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٢) .

(٣) سبق تخريجه (١/ ١٦٤ـ ١٦٥) .

صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ منها وراثةٌ معجونةٌ فيهِ مِنْ آدمَ أبي البشرِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ؛ حيثُ عُلِّمَ الأسماءَ كلَّها ، والأسماءُ سِمَةُ الأشياءِ ، فكرَّمَهُ اللهُ تعالىٰ بالعلمِ فقالَ : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق ٥] .

فآدمُ عليهِ السلامُ بما رُكِّبَ فيهِ مِنَ العلمِ والحكمةِ . . صارَ ذا الفهمِ والمعرفةِ والفطنةِ ، والرَّأفةِ واللُّطفِ ، والحبِّ والبُغْضِ ، والفرحِ والغمِّ ، والغضبِ والرِّضا ، والكِياسةِ ، ثمَّ اقتضاهُ استعمالُ كلِّ ذلكَ[1] ، وجُعِلَ لقلبِهِ بصيرةٌ واهتداءٌ إلى اللهِ تعالىٰ بالنورِ الذي وُهِبَ لهُ ؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بُعِثَ إلى الأمَّةِ بالنورِ الموروثِ والموهوبِ لهُ خاصَّةً .

وقيلَ : لمَّا خاطبَ اللهُ تعالى السماواتِ والأرضَ بقولِهِ سبحانَهُ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] . . نطقَ مِنَ الأرضِ وأجابَ موضعُ الكعبةِ ، ومِنَ السماءِ ما يُحاذيها ، وقد قالَ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أصلُ طينةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . مِنْ سُرَّةِ الأرضِ بمكَّةَ) .

فقالَ بعضُ العلماءِ : هٰذا يُشعِرُ بأنَّ ما أجابَ مِنَ الأرضِ ذَرَّةُ المُصطفىٰ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، ومِنْ موضعِ الكعبةِ دُحِيتِ الأرضُ ، فصارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هوَ الأصلَ في التكوينِ ، والكائناتُ تبَعٌ لهُ .

وإلىٰ هٰذا الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ ٱلْمَاءِ وَٱلطِّينِ » ، وفي روايةٍ « بَيْنَ ٱلرُّوحِ وَٱلْجَسَدِ »[2] ، وقيلَ : لذلكَ سُمِّيَ

---

(١) اقتضاه ؛ أي : دلَّ عليه .

(٢) رواه الترمذي (٣٦٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وأحمد (٥/٥٩) ، =

أُمِّيّاً ؛ لأنَّ مكَّةَ أمُّ القُرىٰ ، وذَرَّتَهُ أمُّ الخليقةِ

وتُرْبةُ الشخصِ مَدْفنُهُ ، فكانَ يقتضي أنْ يكونَ مَدْفنُهُ بمكَّةَ حيثُ كانتْ تُرْبتُهُ منها ، ولـٰكن قيلَ : الماءُ لمَّا تموَّجَ رمى الزَّبَدَ إلى النَّواحي ، فوقعتْ جوهرةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ ما يُحاذي تُرْبتَهُ بالمدينةِ ، فكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَكِّيّاً مدنيّاً ، حنينُهُ إلىٰ مكَّةَ ، وتُرْبتُهُ بالمدينةِ

والإشارةُ فيما ذكرْناهُ مِنْ ذَرَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . هوَ ما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وردَ في الحديثِ (أنَّ اللهَ تعالىٰ مسحَ ظهرَ آدمَ وأخرجَ ذُرِّيَّتَهُ منهُ كهيئةِ الذَّرِّ)[١] ، استخرجَ الذَّرَّ مِنْ مَسَامِّ شَعَرِ آدمَ عليهِ السلامُ ، فخرجَ الذَّرُّ كخروجِ العرَقِ .

وقيلَ : كانَ المَسْحُ مِنْ بعضِ الملائكةِ ، فأضافَ الفعلَ إلى المُسبِّبِ .

وقيلَ : معنى القولِ بأنَّهُ مَسَحَ ؛ أي : أحصىٰ ؛ كما تُحصى الأرضُ بالمساحةِ .

وكانَ ذلكَ ببطنِ نَعْمانَ ؛ وادٍ بجنبِ عرفةَ بينَ مكَّةَ والطائفِ

فلمَّا خاطبَ اللهُ تعالى الذَّرَّ وأجابُوا بـ (بلىٰ) . . كتبَ العهدَ في رَقٍّ

= والحاكم (٢/٦٠٨ـ٦٠٩) عن ميسرة الفجر رضي الله عنه ، وأما الرواية الأولىٰ : فقال السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص٥٢١) : (وأمَّا الذي على الألسنة بلفظ « كنتُ نبيّاً وآدمُ بين الماء والطين » . . فلم نقفْ عليه بهـٰذا اللفظ)

(١) رواه أحمد (٦/٤٤١) ، والبزار في « المسند » (٤١٤٣) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٤ـ٢٥) .

أبيضَ[1] ، وأشهدَ عليهِ الملائكةَ ، وألْقمَهُ الحجرَ الأسودَ[2] ، فكانتْ ذَرَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هيَ المُجيبةَ مِنَ الأرضِ ، والعلمُ والهدىٰ فيهِ معجونانِ ، فبُعِثَ بالعلمِ والهدىٰ موروثاً لهُ وموهوباً

وقيلَ لمَّا بعثَ اللهُ جبريلَ وميكائيلَ ليقبِضا قبضةً مِنَ الأرضِ . . فأَبَتْ[3] ، حتىٰ بعثَ اللهُ عزرائيلَ ، فقبضَ قبضةً مِنَ الأرضِ ، وكانَ إبليسُ قد وَطِئَ الأرضَ بقدمَيْهِ ، فصارَ بعضُ الأرضِ بينَ قدمَيْهِ ، والبعضُ بينَ موضعِ أقدامِهِ ، فخُلِقَتِ النَّفْسُ ممَّا مسَّ قدمُ إبليسَ ، فصارتْ مأوى الشرِّ ، وبعضُها لم يصلْ إليهِ قَدَمُ إبليسَ ، فمِنْ تلكَ التُّرْبةِ أصلُ الأنبياءِ والأولياءِ

وكانتْ ذَرَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ موضعَ نظرِ اللهِ تعالىٰ مِنْ قبضةِ عزرائيلَ ، لم تمسَّها قَدَمُ إبليسَ ، فلم يُصِبْهُ حظُّ الجهلِ ، بل صارَ منزوعَ الجهلِ ، مُوَفَّراً حظُّهُ مِنَ العلمِ ، فبعثَهُ اللهُ تعالىٰ بالهدىٰ والعلمِ ، وانتقلَ مِنْ قلبِهِ إلى القلوبِ ، ومِنْ نَفْسِهِ إلى النُّفوسِ ، فوقعتِ المناسبةُ في أصلِ طهارةِ الطِّينةِ ، ووقعَ التأليفُ بالتعارفِ الأوَّلِ .

فكلُّ مَنْ كانَ أقربَ مناسبةً بنسبةِ طهارةِ الطِّينةِ . . كانَ أوفرَ حظّاً مِنْ قَبولِ ما جاءَ بهِ ، فكانتْ قلوبُ الصُّوفيَّةِ أقربَ مناسبةً ، فأخذتْ مِنَ العلمِ حظّاً

---

(1) الرَّق في الأصل : جلدٌ رقيق يُكتب فيه ، وكسرُ الراء لغة قليلة فيه .

(2) رواه الحاكم (١/٤٥٧) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (٣٧٤٩) ، وانظر « تفسير الطبري » (١٣/ ٢٢٢ـ٢٥٠) ، و« الدر المنثور » (٣/ ٥٩٨ـ٦٠٧) ، وفيهما روايات متعددة فيما يتعلَّق بتفسير الآية السابقة ، وفيما أورده المؤلف ها هنا .

(3) كذا في النسخ بدخول الفاء على الجواب ، وهو جائز علىٰ قلَّة ، كما صرَّح به بدر الدين ابن مالك في « تكملة شرحه على التسهيل » (٤/ ١٠٣)

وافراً ، وصارتْ بواطنُهُم إخاذاتٍ ، فعَلِمُوا وعَمِلُوا ؛ كالإخاذِ الذي يُسقىٰ منهُ ويُزرَعُ منهُ ، وجمعُوا بينَ فائدةِ علمِ الدِّراسةِ وعلمِ الوِراثة بإحكامِ أساسِ التقوىٰ .

ولمَّا تزكَّتِ النفوسُ انجلتْ مرايا قلوبِهِم بما صَقَلَها مِنَ التقوىٰ ، فانجلىٰ فيها صُوَرُ الأشياءِ علىٰ هيئتِها وماهيَّتِها ، فبانتِ الدُّنيا بقُبْحِها فرفضُوها ، وظهرتِ الآخرةُ بحُسْنِها فطلبُوها ، فلمَّا زَهِدُوا في الدنيا انصبَّتْ إلىٰ بواطنِهِم أقسامُ العلوم انصباباً ، وانضافَ إلىٰ علمِ الدِّراسةِ علمُ الوراثةِ

واعلمْ أنَّ كلَّ حالٍ شريفٍ نعزوهُ إلى الصُّوفيِّ في هٰذا الكتابِ[١] . . هوَ حالُ المُقرَّبِ ، والصُّوفيُّ هوَ المُقرَّبُ ، وليسَ في القرآنِ اسمُ الصُّوفيِّ ، واسمُ الصُّوفيِّ تُرِكَ ووُضِعَ للمُقرَّبِ علىٰ ما سنشرحُ ذلكَ في بابِهِ[٢]

ولا يُعرَفُ في طَرَفَيْ بلادِ الإسلامِ شرقاً وغرباً هٰذا الاسمُ لأهلِ القُرْبِ ، وإنَّما يُعرَفُ للمُترسِّمينَ ، وكم مِنَ الرجالِ المُقرَّبينَ في بلادِ المغربِ وبلادِ تُرْكستانَ وما وراءَ النهرِ وفَرْغَانَةَ ولا يُسمَّونَ صُوفيَّةً !! لأنَّهُم لا يتزيَّونَ بزيِّ الصُّوفيَّةِ ، ولا مُشاحَّةَ في الألفاظِ

فيُعلَمُ أنَّا نعني بالصُّوفيَّةِ : المُقرَّبينَ .

---

(١) في (أ ، و) ونسخة علىٰ هامش (د) : (نعزيه) بدل (نعزوه) ، وكلاهما صحيح ، إلا أنَّ الواو أفصحُ ، كما نصَّ عليه الإمام النووي في « تحرير ألفاظ التنبيه » (ص٣٤٤)

(٢) انظر (١/ ٢٦٧ـ٢٦٩) .

فمشايخُ الصُّوفيّةِ الذينَ أسماؤُهُم في الطبقاتِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الكتبِ[١] . . كلُّهُم كانُوا في طريقِ المُقرَّبينَ ، وعلومُهُم علومُ أحوالِ المُقرَّبينَ .

ومَنْ تطلَّعَ إلىٰ مقامِ المُقرَّبينَ مِنْ جملةِ الأبرارِ . . فهوَ مُتصوِّفٌ ، ما لم يتحقَّقْ بحالِهم ، فإذا تحقَّقَ بحالِهم صارَ صُوفيّاً ، ومَنْ عداهُما مِمَّنْ تميَّزَ بزيٍّ ونُسِبَ إليهِم . . فهوَ مُتشبِّهٌ ، وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ ، واللهُ أعلمُ[٢]

* * *

(١) يحتمل : أنه يريد بـ (الطبقات) « طبقات الصوفية » للسلمي ، ويحتمل العموم .

(٢) في هامش (ب) : (بلغ سماعاً في الثاني للجماعة على الشيخ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي) ، وفيه أيضاً : (بلغ قراءةً في الثاني علىٰ جلال الدين ، كاتبه عبد السلام) .

الباب الثاني

في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع

(٤) ـ حدَّثَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ إملاءً ، قالَ : أخبرَنا الشيخُ أبو منصورٍ المُقرِئُ ، قالَ أخبرَنا الإمامُ الحافظُ أبو بكرٍ الخطيبُ ، قالَ أخبرَنا أبو عمرَ الهاشميُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو عليٍّ اللُّؤْلُؤيُّ ، قالَ أخبرَنا أبو داودَ السِّجِسْتانيُّ ، قالَ : حدَّثَنا مُسدَّدٌ ، قالَ : حدَّثَنا يحيىٰ ، عن شُعبةَ ، قالَ : حدَّثَني عمرُ بنُ سليمانَ مِنْ ولدِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، عن عبدِ الرحمـٰنِ بنِ أَبَانٍ ، عن أبيهِ ، عن زيدِ بنِ ثابتٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ « نَضَّرَ اللهُ ٱمْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثاً فَحَفِظَهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ »(١)

قالَ الشيخُ : أساسُ كلِّ خيرٍ : حُسْنُ الاستماعِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣]

---

(١) سنن أبي داود (٣٦٦٠) ، ورواه الترمذي (٢٦٥٦) ، والدارمي (٢٣٥) ، وفي الباب عن غير زيد بن ثابت رضي الله عنه . انظر « غنية العارف » (١/ ٢٨-٢٩) ، وقد أفرد مؤلفها المحدث الشريف أحمد ابن الصدِّيق الغماري رسالةً في طرق هـٰذا الحديث سمَّاها : « المسك التبتي في طُرُق حديث نضَّر الله امرأ سمع مقالتي »

يقولُ بعضُهُم : (علامةُ الخيرِ في السَّماعِ : أنْ يسمعَ العبدُ بفَناءِ أوصافِهِ ونُعُوتِهِ ، ويسمعَهُ بحقٍّ مِنْ حقٍّ)[1]

وقالَ بعضُهُم (لو عَلِمَهُم أهلاً للسماعِ لفتحَ آذانَهُم للاستماعِ)[2] ، فمَنْ تملَّكَتْهُ الوساوسُ ، وغلبَ علىٰ باطنِهِ حديثُ النفسِ . . لا يقدِرُ علىٰ حُسْنِ الاستماعِ

فالصُّوفيَّةُ وأهلُ القُرْبِ لمَّا عَلِمُوا أنَّ كلامَ اللهِ تعالىٰ رسائلُهُ إلىٰ عبادِهِ ومخاطباتُهُ إيَّاهُم . . رأَوْا كلَّ آيةٍ مِنْ كلامِ اللهِ تعالىٰ بحراً مِنْ أَبْحُرِ العلمِ ؛ بما يتضمَّنُ مِنْ ظاهرِ العلمِ وباطنِهِ ، وجَلِيِّهِ وخَفِيِّهِ ، وباباً مِنْ أبوابِ الجنةِ ؛ باعتبارِ ما تُنبِّهُ أو تدعو إليهِ مِنَ العملِ

ورأَوْا كلامَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ الذي لا ينطِقُ عنِ الهوىٰ ، إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يُوحىٰ ـ مِنْ عندِ اللهِ يتعيَّنُ الاستماعُ إليهِ ، فكانَ مِنْ أهمِّ ما عندَهُمُ الاستعدادُ للاستماعِ

ورأَوْا أنَّ حُسْنَ الاستماعِ قَرْعُ بابِ المَلَكُوتِ ، واستنزالُ بركةِ الرَّغَبُوتِ والرَّهَبُوتِ .

ورأَوْا أنَّ الوساوسَ أَدْخِنةٌ ثائرةٌ مِنْ نارِ النفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ، وقَتَامٌ يتراكمُ مِنْ نَفْثِ الشيطانِ[3] ، وأنَّ الحظوظَ العاجلةَ والأقسامَ الدُّنيويَّةَ التي هيَ مَناطُ الهوىٰ ومَثارُ الرَّدىٰ . . بمثابةِ الحَطَبِ الذي تزدادُ النارُ بهِ تأجُّجاً ،

---

(١) انظر « تفسير السلمي » (١/ ٢٦٣) .

(٢) انظر « تفسير السلمي » (١/ ٢٦٤) .

(٣) القَتَام : الغبار .

ويزدادُ القلبُ بهِ تحرُّجاً ، فرفضُوا الدنيا وزَهِدُوا فيها ، فلمَّا انقطعتْ عن نارِ النفسِ أحطابُها ، وَفَتَرتْ نِيرانُها ، وقلَّ دُخانُها . . شَهِدتْ بواطنُهُم وقلوبُهُم مصادرَ العلومِ ، فهيَّؤوا مواردَها بصفاءِ الفُهُومِ ، فلمَّا شَهِدُوا سمعُوا ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق ٣٧]

قالَ الشِّبْليُّ رحمَهُ اللهُ : (موعظةُ القرآنِ لِمَنْ قلبُهُ حاضرٌ معَ اللهِ لا يَغفُلُ عنهُ طَرْفةَ عينٍ)[١]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ (القلبُ قلبانِ قلبٌ قدِ احتشىٰ بأشغالِ الدُّنيا ؛ حتىٰ إذا حضرَ أمرٌ مِنْ أمورِ الطاعةِ[٢] . . لم يدرِ صاحبُهُ ما يصنعُ ؛ مِنْ شغلِ قلبِهِ بالدُّنيا ، وقلبٌ قدِ احتشىٰ بأحوالِ الآخرةِ ؛ حتىٰ إذا حضرَ أمرٌ مِنْ أمورِ الدُّنيا . . لم يدرِ صاحبُهُ ما يصنعُ ؛ لذهابِ قلبِهِ في الآخرةِ ، فانظرْ كم بينَ بركةِ تلكَ الأفهامِ الثابتةِ[٣] ، وشُؤْمِ هٰذهِ الأشغالِ الفانيةِ التي أقعدتْكَ عنِ الطاعةِ)[٤]

قالَ بعضُهُم : (لِمَنْ كانَ لهُ قلبٌ سليمٌ مِنَ الأغراضِ والأمراضِ)[٥]

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٦٩) ، والثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٤/ ٤٩١) .

(٢) وهي أمور الآخرة ، كما صُرِّح بذلك في « الكشف والبيان » بدل المثبت ، وجاء كذلك في نسخة على هامش (أ ، هـ)

(٣) في (أ ، ب ، هـ ، و) : (الأوهام) بدل (الأفهام) ، وفي (ج) ونسخة على هامش (د) : (الأحوال) .

(٤) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٦٩) ، والثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٤/ ٤٩١) .

(٥) انظر « تفسير السلمي » (٢/ ٢٦٩) ، وفيه وفي (ب) : (الأعراض) بدل (الأغراض)

قالَ الحسينُ بنُ منصورٍ : لمَنْ كانَ لهُ قلبٌ لا يخطرُ فيهِ إلا شهودُ الربِّ ، وأنشدَ [من البسيط]

أَنْعِي إِلَيْكَ قُلُوباً طَالَمَا هَطَلَتْ سَحَائِبُ الْوَحْيِ فِيهَا أَبْحُرَ الْحِكَمِ[1]

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (قلبٌ لاحظَ الحقَّ بعينِ التعظيمِ ، فذابَ لهُ وانقطعَ إليهِ عمَّا سواهُ)[2]

وقالَ الواسِطيُّ : (أي لَذِكْرىٰ لقومٍ مخصوصينَ لا لسائرِ الناسِ ، لمَنْ كانَ لهُ قلبٌ ؛ أي : في الأَزَلِ ؛ وهمُ الذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهم : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام : ١٢٢])[3]

وقالَ أيضاً : (المشاهدةُ تُذهِلُ ، والحَجْبَةُ تُفهِمُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ إذا تجلَّىٰ لشيءٍ خضعَ لهُ وخشعَ) .

وهٰذا الذي قالَهُ الواسطيُّ صحيحٌ في حقِّ أقوامٍ ، وهٰذهِ الآيةُ تَحكُمُ بخلافِ هٰذا لأقوامٍ آخرينَ ؛ وهمْ أربابُ التمكينِ ؛ يجمعُ لهم بينَ المشاهدةِ والفهمِ ؛ فموضعُ الفهمِ مَحَلُّ المحادثةِ والمكالمةِ ؛ وهوَ سمعُ القلبِ ، وموضعُ المشاهدةِ بصرُ القلبِ

وللسمعِ حُكْمُهُ وفائدتُهُ ، وللبصرِ حُكْمُهُ وفائدتُهُ ؛ فمَنْ هوَ في سُكْرِ الحالِ يغيبُ سمعُهُ في بصرِهِ ، ومَنْ هوَ في حالِ الصَّحْوِ والتَّمْكينِ لا يغيبُ سمعُهُ في بصرِهِ ؛ لتملُّكِهِ ناصيةَ الحالِ ، ويفهمُ بالوِعاءِ الوجوديِّ المُستعِدِّ

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٦٩) ، والبيت في « أخبار الحلاج » (ص٦٥) .
(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٦٩) .
(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٦٩)

لفهمِ المقالِ ؛ لأنَّ الفهمَ مَوْرِدُ الإلهامِ والسماعِ ، والإلهامُ والسماعُ يستدعيانِ وِعاءً وجوديّاً ، وهٰذا الوجودُ يكونُ موهوباً مُنْشَأً إنشاءً ثانياً للمُتمكِّنِ في مقامِ الصَّحْوِ ، وهوَ غيرُ الوجودِ الذي يتلاشىٰ عندَ لمَعَانِ نورِ المشاهدةِ لمَنْ جازَ علىٰ مَمَرِّ الفناءِ إلىٰ مَقَارِّ البقاءِ(١)

وقالَ ابنُ سَمْعُونٍ(٢) : (إنَّ في ذلكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كانَ لهُ قلبٌ يعرفُ آدابَ الخِدْمةِ ، وآدابُ القلبِ ثلاثةُ أشياءَ : فالقلبُ إذا ذاقَ طعمَ العبادةِ عَتَقَ مِنْ رِقِّ الشهوةِ ؛ فمَنْ وقفَ عن شهوتِهِ وجدَ ثُلُثَ الأدبِ ، ومَنِ افتقرَ إلىٰ ما لمْ يجدْ مِنَ الأدبِ بعدَ الاشتغالِ بما وَجَدَ . . فقدْ وجدَ ثُلُثَيِ الأدبِ ، والثالثُ امتلاءُ القلبِ بالذي بدأَ بالفضلِ عندَ الوفاءِ تفضُّلاً)(٣)

وقالَ محمَّدُ بنُ عليٍّ الباقرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (موتُ القلبِ مِنْ شهواتِ النفسِ ، فكلَّما رفضَ شهوةً نالَ مِنَ الحياةِ بقِسْطِها)(٤) ، فالسماعُ للأحياءِ لا للأمواتِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ [النمل : ٨٠] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رحمَهُ اللهُ : (القلبُ رقيقٌ تُؤَثِّرُ فيهِ الخَطَراتُ المذمومةُ ، وأَثَرُ القليلِ عليهِ كثيرٌ)(٥) ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن

---

(١) في (أ) ونسخة علىٰ هامش (هـ) : (مقام) بدل (مقار) ، وفي (د) : (مقر) .
(٢) يجوز في (سَمْعون) الصرفُ وعدمه ، ومثله : (سمنون) و(سحنون) و(حمدون) .
(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٧٠) ، وقوله : (عند الوفاء تفضُّلاً) ؛ أي : عند الوفاء بما يوجبه الاستحقاق . من هامش (ز) ، وفي بعض النسخ المطبوعة : (فالذي بدأ بالفضل عند الوفاء تفضُّلاً . . فقد وجد كلَّ الأدب)
(٤) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٧٠) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٨٠) ، وأورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٧٠)

﴿يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف : ٣٦]

فالقلبُ عَمَّالٌ لا يفتُرُ ، والنفسُ يَقْظَىٰ لا تَرقُدُ ، فإنْ كانَ العبدُ مُستمِعاً إلى اللهِ[١] ، وإلَّا فهوَ مُستمِعٌ إلى الشيطانِ والنفسِ ، فكلُّ شيءٍ سدَّ بابَ الاستماعِ فمِنْ حركةِ النفسِ ، وفي حركتِها يَطرُقُ الشيطانُ[٢] ، وقد وردَ « لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَىٰ قُلُوبِ بَنِي آدَمَ . . لَنَظَرُوا إِلَىٰ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ »[٣]

وقالَ الحسينُ بنُ منصورٍ الحلَّاجُ : (بصائرُ المُبصِرينَ ، ومعارفُ العارفينَ ، ونورُ العلماءِ الربَّانيِّينَ ، وطُرُقُ السابقينَ الناجينَ ، والأَزلُ والأَبدُ وما بينَهُما مِنَ الحَدَثِ . . لِمَنْ كانَ لهُ قلبٌ أو ألقى السمعَ وهوَ شهيدٌ)[٤]

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (هوَ القلبُ الذي يُلاحِظُ الحقَّ ويُشاهدُهُ ، ولا يغيبُ عنهُ خَطْرةً ولا فَتْرةً ، فيسمعُ بهِ بل يسمعُ منهُ ، ويشهدُ بهِ بل يشهدُهُ ، فإذا لاحظَ القلبُ الحقَّ بعينِ الجلالِ . . فَزِعَ وارتعدَ ، وإذا طالعَهُ بعينِ الجمالِ . . هَدَأَ واستقرَّ)[٥]

وقالَ بعضُهُم : (لِمَنْ كانَ لهُ قلبٌ بصيرٌ يَقْوىٰ على التجريدِ معَ اللهِ تعالىٰ

---

(١) في نسخة علىٰ هامش (ب) : (القلب) بدل (العبد) .

(٢) أو يُضبط : (تطَرَّقُ الشيطان) ، كما في بعض النسخ ، وفي بعضها : (يتطرَّق الشيطان) .

(٣) رواه بنحوه أحمد (٢/ ٣٥٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٧٧٢٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٣٣ـ ٣٤) .

(٤) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٧٠) ، وفيه : (المناجين) بدل (الناجين)

(٥) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٧٠)

والتفريدِ لهُ ، حتىٰ يخرجَ مِنَ الدُّنيا والخَلْقِ والنَّفسِ ، فلا يشتغلُ بغيرِه ، ولا يركَنُ إلىٰ سواهُ)[1]

فقلبُ الصُّوفيِّ مُجرَّدٌ عنِ الأكوانِ ، أَلقَىٰ سمعَهُ ، وشَهِدَ بصرُهُ ؛ فسمِعَ المسموعاتِ ، وأَبصرَ المُبصَراتِ ، وشاهدَ المشهوداتِ ؛ لتَخَلُّصِهِ إلى اللهِ تعالىٰ ، واجتماعِهِ بينَ يَدَيِ اللهِ تعالىٰ ، والأشياءُ كلُّها عندَ اللهِ ، وهوَ عندَهُ ، فسَمِعَ وشاهدَ ، فأَبْصرَ وسَمِعَ جُمَلَها ، ولم يسمعْ ولم يُشاهِدْ تفاصيلَها ؛ لأنَّ الجُمَلَ تُدرَكُ لسَعَةِ عينِ الشهودِ ، والتفاصيلَ لا تُدرَكُ لضِيقِ وِعاءِ الوجودِ ، واللهُ تعالىٰ هوَ العالِمُ بالجُمَلِ والتفاصيلِ

وقد مثَّلَ بعضُ الحُكَماءِ تفاوتَ الناسِ في الاستماعِ وقالَ : إنَّ الباذرَ خرجَ ببَذْرِهِ فملأَ منهُ كفَّهُ ، فوقعَ منهُ شيءٌ علىٰ ظهرِ الطريقِ ، فلمْ يلبَثْ أَنِ انحطَّ عليهِ الطيرُ فاختطفَهُ .

ووقعَ منهُ شيءٌ على الصَّفْوانِ ـ وهوَ الحجرُ الأملسُ عليهِ ترابٌ يسيرٌ وندىً قليلٌ ـ فنبتَ ، حتىٰ إذا وصلتْ عُرُوقُهُ إلى الصَّفا . . لمْ تجدْ مَساغاً تَنفُذُ فيهِ ، فيَبِسَ .

ووقعَ منهُ شيءٌ علىٰ أرضٍ طَيِّبةٍ فيها شوكٌ نابتٌ ، فنبتَ ، فلمَّا ارتفعَ خَنَقَهُ الشوكُ فأفسدَهُ واختلطَ بهِ .

ووقعَ منهُ شيءٌ علىٰ أرضٍ طَيِّبةٍ ليسَ علىٰ ظهرِ الطريقِ ولا على الصَّفْوانِ ولا فيها شوكٌ ، فنبتَ ونما وصَلَحَ .

فمَثَلُ الباذرِ مَثَلُ الحكيمِ ، ومَثَلُ البَذْرِ كمَثَلِ صوابِ الكلامِ .

---

(١) عزاه السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٧٠) إلى ابن عطاء رحمه الله تعالىٰ .

ومَثَلُ ما وقعَ علىٰ ظهرِ الطريقِ . . مَثَلُ الرجلِ يستمعُ إلى الكلامِ وهوَ لا يريدُ أنْ يسمعَهُ ، فما يلبَثُ الشيطانُ أنْ يَخطَفَهُ مِنْ قلبِهِ فينساهُ

ومَثَلُ الذي وقعَ على الصَّفْوانِ . . مَثَلُ الرجلِ يستمعُ إلى الكلامِ فيستحسنُهُ ، ثمَّ تُفضِي الكلمةُ إلىٰ قلبٍ ليسَ فيهِ عزمٌ على العملِ ، فيُنسَخُ مِنْ قلبِهِ

ومَثَلُ الذي وَقَعَ في أرضٍ طَيِّبَةٍ فيها شوكٌ . . مَثَلُ الرجلِ يستمعُ إلى الكلامِ وهوَ ينوي أنْ يعملَ بهِ ، فإذا اعترضتْ لهُ الشهواتُ قيَّدتْهُ عنِ النهوضِ إلى العملِ ، فيتركُ ما نوىٰ عملَهُ لغلبةِ الشهوةِ ؛ كالزرعِ يختنقُ بالشوكِ .

ومَثَلُ الذي وَقَعَ في أرضٍ طَيِّبَةٍ لاشوكَ فيها . . مَثَلُ المُستمِعِ الذي ينوي عملَهُ ، فيفهمُهُ ويعملُ بهِ ويُجانبُ هواهُ

وهٰذا الذي جانبَ الهوىٰ ، وانتهجَ سُبُلَ الهدىٰ . . هوَ الصُّوفيُّ ؛ لأنَّ للهوىٰ حلاوةً ، والنفسُ تشرَّبَتْ حلاوةَ الهوىٰ ، فهيَ تَركَنُ إليهِ وتَستلِذُّهُ ، واستلذاذُ الهوىٰ هوَ الذي يَخنُقُ النَّبْتَ كالشوكِ ، وقلبُ الصُّوفيِّ نازلَهُ حلاوةُ الحُبِّ الصافي ، والحبُّ الصافي يُعلِّقُ الروحَ بالحضرةِ الإلٰهيَّةِ[1] ، ومِنْ قُوَّةِ انجذابِ الروحِ إلى الحضرةِ الإلٰهيَّةِ بدَاعِيَةِ الحبِّ . . تستتبعُ القلبَ والنَّفْسَ[2]

وحلاوةُ الحبِّ للحضرةِ الإلٰهيَّةِ تَغلِبُ حلاوةَ الهوىٰ ؛ لأنَّ حلاوةَ الهوىٰ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثَّتْ مِنْ فوقِ الأرضِ ما لها مِنْ قرارٍ ؛ لكونِها لا ترتقي عن حدِّ النَّفْسِ ، وحلاوةَ الحبِّ كشجرةٍ طيِّبَةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ ؛

---

(١) قوله : (يُعلِّقُ الروحَ) ضُبط في بعض النسخ : (تَعلُّقُ الروحِ)

(٢) في (ج) : (يستتبع القلب النفس) .

لأنَّها مُتأصِّلةٌ في الرُّوحِ ، فرعُها عندَ اللهِ وعروقُها ضاربةٌ في أرضِ النفسِ

فإذا سمعَ الكلمةَ مِنَ القرآنِ أو مِنْ كلامِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . يتشرَّبُها بالروحِ والقلبِ والنفسِ ، ويُفدِّيها بكُلِّيَّتِهِ ويقولُ[1] [من البسيط]

أَشَمُّ مِنْكَ نَسِيماً لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَظُنُّ لَمْيَاءَ جَرَّتْ فِيكَ أَرْدَانَا

فتَعُمُّهُ الكلمةُ وتشملُهُ ، وتصيرُ كلُّ شعرةٍ منهُ سمعاً ، وكلُّ ذرَّةٍ منهُ بصراً ، فيسمعُ الكلَّ بالكلِّ ، ويُبصِرُ الكلَّ بالكلِّ ، ويقولُ[2] : [من الخفيف]

لِي حَبِيبٌ خَيَالُهُ نُصْبُ عَيْنِي سِرُّهُ فِي ضَمَائِرِي مَدْفُونُ
إِنْ تَأَمَّلْتُكُمْ فَكُلِّي عُيُونٌ أَوْ تَذَكَّرْتُكُمْ فَكُلِّي قُلُوبُ

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر : ١٧-١٨] .

قالَ بعضُهُم : (اللُّبُّ والعقلُ مئةُ جزءٍ ؛ تسعةٌ وتسعونَ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وجزءٌ في سائرِ المؤمنينَ ، والجزءُ الذي في سائرِ المؤمنينَ أحدٌ وعشرونَ سهماً ؛ فسهمٌ تَساوَى المؤمنونَ كلُّهُم فيهِ ؛ وهوَ شهادةُ : « أنْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّداً رسولُ اللهِ » ، وعشرونَ سهماً يتفاضلونَ فيها علىٰ مقاديرِ حقائقِ إيمانِهم)[3]

قيلَ : في هـٰذهِ الآيةِ إظهارُ فضيلةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛

---

(١) البيت للشريف الرضي في « ديوانه » (٢/ ٤٠٥) ، ولمياء : مؤنث (ألمىٰ) ، واللَّمَىٰ : سُمْرة في الشفة ، والأَرْدان : جمع (رُدْن) ؛ وهو أصل الكُمِّ .
(٢) أورد البيتين أسامة ابن منقذ في « البديع في نقد الشعر » (ص١٨٤) .
(٣) انظر « تفسير السلمي » (٢/ ١٩٥) .

أيِ : الأحسنُ ما يأتي بهِ ؛ لأنَّهُ لمَّا وقعتْ لهُ صُحْبةُ التمكينِ ، ومقارنةُ الاستقرارِ قبلَ خَلْقِ الكونِ . . ظهرتْ عليهِ الأنوارُ في الأحوالِ كلِّها ، وكانَ معَهُ أحسنُ الخطابِ ، ولهُ السَّبْقُ في جميعِ المقاماتِ ؛ أَلَا تراهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « نَحْنُ ٱلآخِرُونَ ٱلسَّابِقُونَ »[1] ؛ أيِ الآخِرونَ وجوداً ، السابقونَ في الخطابِ الأوَّلِ في الفضلِ في محلِّ القُدْسِ

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

قالَ الحارثُ المُحاسِبيُّ (مَنْ لم يسمعْ نداءَ اللهِ تعالىٰ . . كيفَ يُجيبُ داعيَ اللهِ ؟!)[2]

قالَ الجُنَيدُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (تنسَّمُوا رُوحَ ما دعاهُم إليهِ ، فأسرعُوا إلىٰ مَحْوِ العلائقِ الشاغلةِ ، وهَجَمُوا بالنفوسِ علىٰ مُعانقةِ الحَذَرِ ، وتَجرَّعُوا مرارةَ المُكابدةِ ، وصَدَقُوا اللهَ في المُعاملةِ ، وأَحْسَنُوا الأدبَ فيما تَوَجَّهُوا إليهِ ، وهانتْ عليهِمُ المصائبُ ، وعَرَفُوا قَدْرَ ما يَطلُبونَ ، وسَجَنُوا همومَهُم عنِ التقلُّبِ إلىٰ مذكورٍ سوىٰ وليِّهِم ، فحَيُوا حياةَ الأبدِ بالحيِّ الذي لم يَزَلْ ولا يزالُ)[3]

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨) ، ومسلم (٨٥٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٧٥ ـ ٧٦)

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦٢) ضمن كلام طويل ، وأورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٦٤) ، وفي (ب ، ج ، و) (همهم) بدل (همومهم) ، وفي « الحلية » : (همومهم عن التلفُّت)

وقالَ الواسِطِيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (حياتُها تصفيتُها عن كلِّ معلولٍ لفظاً وفعلاً)[1]

وقالَ بعضُهُمْ : (استَجِيبُوا للهِ بسرائرِكُم ، وللرسولِ بظواهِرِكُم ؛ فحياةُ النفوسِ بمتابعةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وحياةُ القلوبِ بمُشاهدةِ الغيوبِ ؛ وهوَ الحياءُ مِنَ اللهِ تعالىٰ برؤيةِ التقصيرِ)[2]

وقالَ ابنُ عطاءٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (في هـٰذهِ الآيةِ الاستجابةُ علىٰ أربعةِ أوجهٍ : أوَّلُها : إجابةُ التوحيدِ ، والثاني إجابةُ التحقيقِ ، والثالثُ : إجابةُ التسليمِ ، والرابعُ : إجابةُ التقريبِ)[3]

فالاستجابةُ علىٰ قَدْرِ السماعِ ، والسماعُ مِنْ حيثُ الفهمُ ، والفهمُ علىٰ قَدْرِ المعرفةِ بقَدْرِ الكلامِ ، والمعرفةُ بالكلامِ علىٰ قَدْرِ المعرفةِ والعلمِ بالمُتكلِّمِ ، ووجوهُ الفهمِ لا تَنحصِرُ ؛ لأنَّ وجوهَ الكلامِ لا تَنحصِرُ ؛ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّي ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

فللهِ تعالىٰ في كلِّ كلمةٍ مِنَ القرآنِ كلماتُهُ التي يَنفَدُ البحرُ دونَ نَفادِها[4] ؛ فكلُّ الكلامِ كلمةٌ ؛ نظراً إلىٰ ذاتِ التوحيدِ ، وكلُّ كلمةٍ كلماتٌ ؛ نظراً إلىٰ سَعَةِ العلمِ الأزليِّ

(٥) ـ حدَّثَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمةُ اللهِ

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٦٤)
(٢) انظر « تفسير السلمي » (١/ ٢٦٤) .
(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٦٤)
(٤) في (د) : (كلمات) بدل (كلماته التي) .

عليهِ ، قالَ أخبرَنا الرئيسُ أبو عليٍّ بنُ نَبْهانَ ، قالَ : أخبرَنا الحسنُ بنُ شَاذانَ ، قالَ أخبرَنا دَعْلَجُ بنُ أحمدَ ، قالَ أخبرَنا أبو الحسنِ عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ البغويُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو عُبيدٍ القاسمُ بنُ سَلَّامٍ ، قالَ : حدَّثنا حَجَّاجٌ ، عن حمَّادِ بنِ سلمةَ ، عن عليِّ بنِ زيدٍ ، عنِ الحسنِ ، يرفعُهُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَا نَزَلَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ[1] ، وَلِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ ، وَلِكُلِّ حَدٍّ مُطَّلَعٌ » ، قال فقلتُ يا أبا سعيدٍ[2] ؛ ما المُطَّلَعُ ؟ قالَ : يطَّلِعُ قومٌ يعملونَ بهِ

قالَ أبو عُبيدٍ : (أَحسَبُ أنَّ قولَ الحسنِ هٰذا إنَّما ذهبَ إلىٰ قولِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ)[3]

قالَ أبو عُبيدٍ : حدَّثَني حَجَّاجٌ ، عن شُعبةَ ، عن عمرِو بنِ مُرَّةَ ، عن مُرَّةَ ، عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (ما مِنْ حرفٍ أو آيةٍ إلَّا وقدْ عَمِلَ بها قومٌ ، أو لها قومٌ سيعملونَ بها)[4]

فالمُطَّلَعُ : المَصعَدُ يُصعَدُ إليهِ مِنْ معرفةِ علمِهِ ، فيكونُ المُطَّلَعُ الفهمَ

---

(1) في (د) : (ظاهر وباطن) .

(2) القائل هو علي بن زيد التيمي الوارد في السند ، وأبو سعيد : كنية الحسن البصري التابعي الشهير رحمه الله تعالىٰ .

(3) فضائل القرآن (ص٩٨) دون قول أبي عبيد آخراً ، غريب الحديث (٢/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩) ، ورواه المؤلف في « مشيخته » (ص٤٩) بالسند نفسه ، والحسن : هو البصري ؛ فالحديث مرسل ، وروي مرفوعاً عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . انظر « غنية العارف » (١/ ٣٨ ـ ٣٩)

(4) فضائل القرآن (ص٩٩) ، غريب الحديث (٢/ ٢٣٩) ، وانظر « مشيخة السهروردي » (ص٤٩)

بفتحِ اللهِ علىٰ كلِّ قلبٍ بما يُرزَقُ مِنَ النورِ .

واختلفَ الناسُ في معنى الظهرِ والبطنِ

فقالَ قومٌ : (الظهرُ : لفظُ القرآنِ ، والبطنُ : تأويلُهُ)[١]

وقيلَ : الظهرُ صورةُ القصَّةِ ممَّا أخبرَ اللهُ تعالىٰ عن غضبِهِ علىٰ قومٍ وعقابِهِ إيَّاهُم ؛ فظاهرُ ذلكَ إخبارٌ عنهُم ، وباطنُهُ عِظَةٌ وتنبيهٌ لمَنْ يقرأُ ويسمعُ مِنَ الأُمَّةِ[٢]

وقيلَ : ظاهرُهُ : تنزيلُهُ الذي يجبُ الإيمانُ بهِ ، وباطنُهُ : وجوبُ العملِ بهِ[٣]

وقيلَ : ظهرُهُ : تلاوتُهُ كما أُنزلَ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل : ٤] ، وبطنُهُ : التدبُّرُ والتفكُّرُ فيهِ ؛ قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص : ٢٩] [٤] .

وقيلَ : قولُهُ : « لكلِّ حرفٍ حدٌّ » ؛ أي : في التلاوةِ لا يُجاوَزُ المصحفُ الذي هوَ الإمامُ ، وفي التفسيرِ لا يُجاوَزُ المسموعُ المنقولُ[٥]

وفرقٌ بينَ التفسيرِ والتأويلِ

فالتفسيرُ : عِلْمُ نزولِ الآيةِ وشأنِها وقصَّتِها والأسبابِ التي نزلتْ فيها ،

---

(١) انظر « غريب الحديث » لأبي عبيد (٢/ ٢٤٠ـ٢٤١) .
(٢) انظر « غريب الحديث » لأبي عبيد (٢/ ٢٤٠) .
(٣) انظر « شرح السنة » للبغوي (١/ ٢٦٤)
(٤) انظر « شرح السنة » للبغوي (١/ ٢٦٤) .
(٥) انظر « شرح السنة » للبغوي (١/ ٢٦٤) .

وهـٰذا محظورٌ على الناسِ كافَّةً القولُ فيهِ إلَّا بالسماعِ والأثَرِ

وأمَّا التأويلُ : فصَرْفُ الآيةِ إلىٰ معنىً تحتملُهُ إذا كانَ المُحتمِلُ الذي يراهُ يُوافِقُ الكتابَ والسنةَ[1] ؛ فالتأويلُ يختلفُ باختلافِ حالِ المُؤوِّلِ علىٰ ما ذكرْناهُ ؛ مِنْ صفاءِ الفهمِ ، ورُتْبةِ المعرفةِ ، ونصيبِ القُرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا يفقهُ الرجلُ كلَّ الفقهِ حتىٰ يرىٰ للقرآنِ وجوهاً كثيرةً)[2]

فما أعجبَ قولَ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ (ما مِنْ آيةٍ إلَّا ولها قومٌ سيعملونَ بها) !!

وهـٰذا الكلامُ مُحرِّضٌ لكلِّ طالبٍ صاحبِ همَّةٍ أنْ يُصفِّيَ مواردَ الكلامِ ، ويفهمَ دقيقَ معانيهِ وغامضَ أسرارِهِ مِنْ قلبِهِ .

فللصُّوفيِّ بكمالِ الزهدِ في الدُّنيا ، وتجريدِ القلبِ عمَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ . . مُطَّلَعٌ مِنْ كلِّ آيةٍ ، ولهُ بكلِّ مرَّةٍ في التِّلاوةِ مُطَّلَعٌ جديدٌ وفهمٌ عتيدٌ ، ولهُ بكلِّ فهمٍ عملٌ جديدٌ ؛ ففهمُهُم يدعو إلى العملِ ، وعملُهُم يَجلِبُ صفاءَ الفهمِ ودقيقَ النَّظَرِ في معاني الخطابِ ؛ فمِنَ الفهمِ علمٌ ، ومِنَ

---

(١) انظر الفرق بين التفسير والتأويل في « البرهان في علوم القرآن » (٢/١٤٩ـ١٥٣) ، و« الإتقان في علوم القرآن » (٤/١٩٢ـ١٩٥) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٧٨٩) ، وابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٥٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٦) ، ورواه ابن عبد البر أيضاً مرفوعاً (١٥١٥) من حديث سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه ، وقال : (وهـٰذا حديث لا يصحُّ مرفوعاً ، وإنما الصحيح فيه أنه من قول أبي الدرداء)

العلمِ عملٌ ، والعلمُ والعملُ يتناوبانِ فيهِ

وهٰذا العملُ آنفاً إنَّما هوَ عملُ القلوبِ ، وعملُ القلوبِ غيرُ عملِ القالَبِ ، وأعمالُ القلوبِ للُطْفِها وصَقَالتِها مُشاكِلَةٌ للعلومِ[1] ؛ لأنَّها نيَّاتٌ وطَوِيَّاتٌ وتملُّقاتٌ رُوحيَّةٌ[2] ، وتأدُّباتٌ قلبيَّةٌ ، ومُسامراتٌ سِرِّيَّةٌ .

وكلَّما أَتَوا بعملٍ مِنْ هٰذهِ الأعمالِ . . رُفِعَ لهم عَلَمٌ مِنَ العلمِ ، واطَّلعُوا علىٰ مُطَّلَعٍ مِنْ فهمِ الآيةِ جديدٍ .

ويُخالِجُ سِرِّي أنْ يكونَ المُطَّلَعُ ليسَ بالوقوفِ بصفاءِ الفهمِ علىٰ دقيقِ المعنىٰ وغامضِ السرِّ في الآيةِ ، ولٰكنَّ المُطَّلَعَ أنْ يَطَّلِعَ عندَ كلِّ آيةٍ علىٰ شهودِ المُتكلِّمِ بها ؛ لأنَّها مُستودَعُ وصفٍ مِنْ أوصافِهِ ونعتٍ مِنْ نعوتِهِ ، فيتجدَّدُ لهُ التجلِّياتُ بتلاوةِ الآياتِ وسماعِها ، وتصيرُ لهُ مَرَاءٍ مُنْبِئَةٌ عن عظيمِ الجلالِ .

ولقد نُقِلَ عن جعفرٍ الصادقِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ (لقد تجلَّى اللهُ لعبادِهِ في كلامِهِ ، ولٰكنْ لا يُبصِرُونَ)[3] ، فيكونُ لكلِّ آيةٍ مُطَّلَعٌ مِنْ هٰذا الوجهِ ؛ فالحدُّ حدُّ الكلامِ ، والمُطَّلَعُ الترقِّي عن حدِّ الكلامِ إلىٰ شهودِ المُتكلِّمِ .

---

(١) في النسخ ما عدا (ي) : (وصلافتها) بدل (وصقالتها) ، وفي (ي) (وصداقتها) ، والمثبت نسخة من هامش (ز) ؛ بمعنىٰ جلائها وصفائها

(٢) التملُّقات : التودُّدات ؛ يُقال : تملَّق له : إذا تودَّد ، وقال في « الذوارف » (١/ق٥٠) : (أي : تضرُّعات من الروح مع الحضرة الإلٰهيَّة) .

(٣) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/ ١٤٥) ، والغزالي في « الإحياء » (٢/ ٣١٦) ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٤/ ٥٢٣) .

وقد نُقِلَ عن جعفرِ الصادقِ أيضاً أنَّهُ خرَّ مَغْشِيّاً عليهِ وهوَ في الصلاةِ ، فسُئِلَ عن ذلكَ ، فقالَ ما زلتُ أُردِّدُ الآيةَ حتىٰ سمعتُها مِنَ المُتكلِّمِ بها[1]

فالصُّوفيُّ لمَّا لاحتْ لهُ ناصيةُ التوحيدِ ، وألقىٰ سمعَهُ عندَ سماعِ الوعدِ والوعيدِ ، وصفَّىٰ قلبَهُ بالتخلُّصِ عمَّا سوى اللهِ . . صارَ بينَ يَدَيِ اللهِ حاضراً شهيداً ، يرىٰ لسانَهُ أو لسانَ غيرِهِ في التِّلاوةِ كشجرةِ موسىٰ عليهِ السلامُ ؛ حيثُ أَسْمعَهُ اللهُ منها خطابَهُ إيَّاهُ بأنِّي أنا اللهُ[2] ، فإذا كانَ سماعُهُ مِنَ اللهِ واستماعُهُ إلى اللهِ . . صارَ سمعُهُ بصرَهُ ، وبصرُهُ سمعَهُ ، وعلمُهُ عملَهُ ، وعملُهُ علمَهُ ، وعادَ آخرُهُ أوَّلَهَ ، وأوَّلُهُ آخرَهُ .

ومعنىٰ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خاطبَ الذَّرَّ بقولِهِ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فسمعتِ النداءَ علىٰ غايةِ الصفاءِ ، ثمَّ لم تَزَلِ الذَّرَّاتُ تتقلَّبُ في الأصلابِ وتنتقلُ إلى الأرحامِ ؛ قالَ اللهُ تعالى ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء ٢١٨ـ ٢١٩] ؛ يعني : تقلُّبَ ذرَّتِكَ في أصلابِ أهلِ السجودِ مِنْ آبائِكَ الأنبياءِ ، فما زالتْ تنتقلُ الذَّرَّاتُ حتىٰ برزتْ إلىٰ

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/ ١٤٥) ، والغزالي في « الإحياء » (٢/ ٣١٦) ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٤/ ٥٢٣ـ٥٢٤) .

(٢) الذي كان مسموعاً من الشجرة : هو الصوت والحرف ، وهما مخلوقان ، وكلامُ اللهِ القديمُ القائم بذاته غيرُ مسموع ، وإلىٰ هـٰذا ذهب أبو منصور الماتريدي في تفسير الآية ، وقال أبو الحسن الأشعري : إنَّ الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعاً ، كما أنَّ الذات التي ليست بجسم ولا عَرَض يمكن أن تكون مرئيَّة ، وعليه : فلا يَبعُدُ أن يكون قد سمع الحرف والصوت من الشجرة ، وسمع الكلام القديم من الله تعالىٰ لا منها ، فلا مُنافاةَ بين الأمرين . انظر « تفسير الرازي » (٢٤/ ٥٩٣)

أجسادِها ، فاحتجبتْ بالحكمةِ عنِ القدرةِ ، وبعالَمِ الشهادةِ عن عالَمِ الغيبِ ، وتراكمَ ظُلْمتُها بالتقلُّبِ في الأطوارِ .

فإذا أرادَ اللهُ بالعبدِ حُسْنَ الاستماعِ بأنْ يُصيِّرَهُ صُوفيّاً صافياً . . لا يزالُ يُرقِّيهِ في رُتَبِ التزكيةِ والتحليةِ حتىٰ يَخلُصَ مِنْ مَضيقِ عالَمِ الحكمةِ إلىٰ فضاءِ القدرةِ ، ويُزالَ عن بصيرتِهِ النافذةِ سُجُفُ الحكمةِ[1] ، فيصيرُ سماعُهُ ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ كشفاً وعِياناً ، وتوحيدُهُ وعِرْفانُهُ تِبْياناً وبُرْهاناً ، وتندرجُ لهُ ظُلَمُ الأطوارِ في لوامعِ الأنوارِ .

قالَ بعضُهُم (أنا أذكرُ خطابَ ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾) ؛ إشارةً منهُ إلىٰ هـٰذا الحالِ .

فإذا تحقَّقَ الصُّوفيُّ بهـٰذا الوصفِ . . صارَ وقتُهُ سَرْمداً ، وشهودُهُ مُؤبَّداً ، وسماعُهُ مُتوالياً مُتجدِّداً ، يسمعُ كلامَ اللهِ وكلامَ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حقَّ السماعِ[2]

قالَ سفيانُ بنُ عُيَيْنةَ : (أوَّلُ العلمِ : الاستماعُ ، ثمَّ الفهمُ ، ثمَّ الحفظُ ، ثمَّ العملُ ، ثمَّ النَّشْرُ)[3]

وقالَ بعضُهُم : (تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ كما تتعلَّمُ حُسْنَ الكلامِ)[4]

---

(١) السُّجُفُ : جمع (سِجاف) ؛ وهو السِّتْر .

(٢) في نسخة على هامش (د) : (ليسمع) بدل (يسمع)

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٧٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٥٨) ، وروي بنحوه عن ابن المبارك وسفيان الثوري والفضيل بن عياض وغيرهم رحمهم الله تعالىٰ .

(٤) هو من جملة وصايا ابن المُقفَّع في « الأدب الكبير » (ص١٢٩) ، ورواه بنحوه =

وقيلَ : مِنْ حُسْنِ الاستماعِ : إمهالُ المُتكلِّمِ حتىٰ يقضيَ حديثَهُ ، وقِلَّةُ التلفُّتِ إلى الجوابِ[1] ، والإقبالُ بالوجهِ ، والنظرُ إلى المُتكلِّمِ ، والوعيُ[2] .

قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ [طه : ١١٤] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ [القيامة : ١٦] ، هٰذا تعليمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ رسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حُسْنَ الاستماعِ .

قيلَ : معناهُ : لا تُمْلِهِ على الصحابةِ حتىٰ تتدبَّرَ معانيَهُ ، حتىٰ تكونَ أنتَ أوَّلَ مَنْ يحظىٰ بغرائبِهِ وعجائبِهِ .

وقيلَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا نزلَ عليهِ جبريلُ عليهِ السلامُ وأوحىٰ إليهِ . . لا يَفتُرُ مِنْ قراءةِ القرآنِ ؛ مخافةَ الانفلاتِ والنِّسيانِ ، فنهاهُ اللهُ تعالىٰ عن ذلكَ[3] ؛ أي : لا تعجَلْ بقراءتِهِ قبلَ أن يَفرُغَ جبريلُ عليهِ السلامُ مِنْ إلقائِهِ إليكَ .

وقد تكونُ مُطالَعةُ العلومِ وأخبارِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمعنى السماعِ ، ويحتاجُ المُطالِعُ للعلومِ والأخبارِ وسِيَرِ أهلِ الصلاحِ وحكاياتِهِم وأنواعِ الحِكَمِ والأمثالِ التي فيها نجاةٌ مِنْ عذابِ الآخرةِ . . أنْ يكونَ في ذلكَ كلِّهِ مُتأدِّباً بآدابِ حُسْنِ الاستماعِ ؛ لأنَّهُ نوعٌ مِنْ ذلكَ ، وكما أنَّ القلبَ استعدَّ

= الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٣١) عن الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

(١) في (ي) ونسخة علىٰ هامش (أ) : (إلى الجوانب) .

(٢) هو من جملة وصايا ابن المقفع في « الأدب الكبير » (ص١٢٩ـ ١٣٠) .

(٣) رواه البخاري (٥) ، ومسلم (٤٤٨) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

بحُسْنِ الاستماعِ بالزَّهادةِ والتقوىٰ حتىٰ أخذَ مِنْ كلِّ ما سمعَ أحسنَهُ . . فيكونُ آخِذاً بالمُطالَعةِ مِنْ كلِّ شيءٍ أحسنَهُ .

ومِنَ الأدبِ في المطالعةِ : أنَّ العبدَ إذا أرادَ أن يُطالِعَ شيئاً مِنَ الحديثِ والعلمِ . يعلمُ أنَّهُ قد تكونُ مطالبةُ ذلكَ[1] بداعيةِ النفسِ وقِلَّةِ صبرِها على الذِّكْرِ والتِّلاوةِ والعملِ ، فتَستروِحُ بالمطالعةِ ، كما تتروَّحُ بمجالسةِ الناسِ ومكالمتِهِم

فليتفقَّدِ المُتفطِّنُ نفسَهُ في ذلكَ ، ولا يستحلي مطالعةَ الكتبِ إلىٰ حدٍّ يأخذُ ذلكَ مِنْ وقتِهِ ويُراعي الإفراطَ فيهِ ، وإذا أرادَ مطالعةَ كتابٍ أو شيءٍ مِنَ العلمِ . . لا يُبادِرُ إليهِ إلَّا بعدَ التثبُّتِ والإنابةِ والرجوعِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وطلبِ التأييدِ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ فيهِ ؛ فإنَّهُ قد يُرزَقُ بالمطالعةِ ما يكونُ مَزيداً لحالِهِ ، ولو قدَّمَ الاستخارةَ لذلكَ كانَ حَسَناً ؛ فإنَّ اللهَ يفتحُ عليهِ بابَ الفهمِ والتفهيمِ موهبةً مِنَ اللهِ[2] ، زيادةً علىٰ ما يتبيَّنُ مِنْ صورةِ العلمِ ؛ فللعلمِ صورةٌ ظاهرةٌ ، وسرٌّ باطنٌ ؛ وهوَ الفهمُ .

واللهُ تعالىٰ نبَّهَ علىٰ شرفِ الفهمِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٩] ؛ أشارَ إلى الفهمِ بمزيدِ اختصاصٍ وتميُّزٍ عنِ الحُكْمِ والعلمِ[3]

قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر ٢٢] ، فإذا كانَ المُسمِعُ

---

(١) كُتب علىٰ هامش (ب) : (لعله : « يطالعه ») ؛ أي : بدل (مطالبة ذلك) ، وعليه يكون الفعل قبله بالياء .

(٢) في بعض النسخ : (والتفهم) بدل (والتفهيم) .

(٣) في بعض النسخ : (وتمييز) بدل (وتميز) .

هوَ اللهَ تعالىٰ ؛ يُسمِعُ تارةً بواسطةِ اللِّسانِ ، وتارةً بما يرزقُ بمطالعةِ الكتبِ مِنَ التِّبْيانِ . فصارَ ما يفتحُ اللهُ تعالىٰ بمطالعةِ الكتبِ علىٰ معنىٰ ما يرزقُ مِنَ المسموعِ ببركةِ حُسْنِ الاستماعِ

فليتفقَّدِ العبدُ حالَهُ في ذلكَ[1] ، ويتعلَّمْ علمَهُ وأدبَهُ ؛ فإنَّهُ بابٌ كبيرٌ مِنْ أبوابِ الخيرِ ، وعملٌ صالحٌ مِنْ أعمالِ المشايخِ والصُّوفيَّةِ والعلماءِ الزاهدينَ المُتبتِّلينَ لاستفتاحِ أبوابِ الرحمةِ ، والمزيدُ مِنْ كلِّ شيءٍ ينفعُ لسلوكِ الآخرةِ ، واللهُ أعلمُ[2]

❁ ❁ ❁

---

(١) قوله : (فليتفقد) جاءت في النسخ ما بين المثبت و(ليتفقدَ) و(فليفتقدْ) و(ليفتقدَ) ، والتعليل يكون لما سبق ، والمثبت أنسب مع السياق ، والله تعالىٰ أعلم

(٢) في هامش (ب) : (بلغ سماعاً في الثالث للجماعة على الشيخ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي)

الباب الثالث

في بيان فضيلة علوم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها

(٦) ـ حدَّثَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمٰنِ الصُّوفيُّ[١]، قالَ : أخبرَنا عبدُ الرحمٰنِ ابنُ محمَّدٍ[٢]، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ السَّرَخْسِيُّ ، قالَ أخبرَنا أبو عِمْرانَ السَّمَرْقَنديُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمٰنِ الدَّارِميُّ ، قالَ : حدَّثَنا نُعَيمُ بنُ حمَّادٍ ، قالَ : حدَّثَنا بَقِيَّةُ ، عنِ الأحوصِ بنِ حَكيمٍ ، عن أبيهِ قالَ : سألَ رجلٌ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الشرِّ ، فقالَ : « لَا تَسْأَلُونِي عَنِ ٱلشَّرِّ ، وَٱسْأَلُونِي عَنِ ٱلْخَيْرِ » ، يقولُها

---

(١) هو الإمام شيخ الإسلام الزاهد الصوفي أبو عبد الرحمٰن وأبو الوقت عبد الأوَّل أو محمد بن عيسى بن شعيب السِّجْزي الهروي المالِيني (ت ٥١٢هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٢٠/٣٠٣)

(٢) هو الإمام الورع المسند أبو الحسن الدَّاوُدي البُوشَنْجي ، (ت٤٦٧هـ) ، وهو مِنْ أجلِّ مَنْ روىٰ عن أبي محمد السَّرَخسي ، ومن شعره : (من السريع)

كانَ اجتماعُ الناسِ فيما مضىٰ ... يُورِّثُ البهجةَ والسَّلْوهْ
فانقلبَ الأمرُ إلىٰ ضدِّهِ ... فصارتِ السَّلْوةُ في الخَلْوهْ

وفي (د) : (عبد الرحمٰن بن محمد السجزي) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٨/٢٢٣) .

ثلاثاً ، ثمَّ قالَ : « إِنَّ شَرَّ ٱلشَّرِّ شِرَارُ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَإِنَّ خَيْرَ ٱلْخَيْرِ خِيَارُ ٱلْعُلَمَاءِ »[1]

فالعلماءُ أَدِلَّاءُ الأُمَّةِ ، وعُمُدُ الدِّينِ ، وسُرُجُ ظُلُماتِ الجَهالاتِ الجِبِلِّيَّةِ ، ونُقَباءُ ديوانِ الإسلامِ ، ومَعادنُ حِكَمِ الكتابِ والسنةِ ، وأُمَناءُ اللهِ تعالىٰ في خَلْقِهِ ، وأَطِبَّاءُ العبادِ ، وجهابذةُ المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ ، وحَمَلَةُ عظيمِ الأمانةِ ، فهم أحقُّ الخَلْقِ بحقائقِ التقوىٰ ، وأحوجُ العبادِ إلى الزهدِ في الدُّنيا ؛ لأَنَّهُم يحتاجونَ إليها لنفسِهِم ولغيرِهِم ؛ ففسادُهُم فسادٌ مُتعَدٍّ ، وصلاحُهُم صلاحٌ مُتعَدٍّ

قالَ سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ : (أجهلُ الناسِ : مَنْ تركَ العملَ بما يعلمُ ، وأعلمُ الناسِ : مَنْ عَمِلَ بما يعلمُ ، وأفضلُ الناسِ أخشعُهُم للهِ سبحانَهُ)[2]

وهٰذا قولٌ صحيحٌ ، يَحكُمُ بأنَّ العالِمَ إذا لم يعملْ بعلمِهِ فليسَ بعالِمٍ ، فلا يَغُرَّنَّكَ تشدُّقُهُ واستطالتُهُ وحَذاقتُهُ وقوَّتُهُ في المناظرةِ والمجادلةِ ؛ فإنَّهُ جاهلٌ وليسَ بعالِمٍ ، إِلَّا أنْ يتوبَ اللهُ عليهِ ببركةِ العلمِ ؛ فإنَّ العِلْمَ في الإسلامِ لا يُضيِّعُ أهلَهُ ، ويُرجَىٰ عَوْدُ العالمِ ببركةِ العلمِ .

والعلمُ : فريضةٌ وفضيلةٌ .

فالفريضةُ : ما لا بُدَّ للإنسانِ مِنْ معرفتِهِ ؛ ليقومَ بواجبِ حقِّ الدِّينِ

---

(١) مسند الدارمي (٣٨٢) ، والحديث مرسل ؛ لأن حكيم بن عمير والد الأحوص تابعي ، ورُوي الحديث موصولاً من حديث سيدنا معاذ بن جبل ، كما في « مسند البزار » (٢٦٤٩) ، و« مسند الشاميين » للطبراني (٤٤٧) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٤٦-٤٧)

(٢) رواه الدارمي (٣٤٢) .

والفضيلةُ : ما زادَ على قدرِ حاجتِهِ ممَّا يُكسِبُهُ فضيلةً في النفسِ موافقةً للكتابِ والسُّنَّة ، وكلُّ علم لا يُوافِقُ الكتابَ والسُّنَّةَ ، وما هوَ مُستفادٌ منهُما ، أوْ مُعِينٌ على فهمِهِما ، أو مُستنِدٌ إليهِما كائناً ما كانَ . . فهوَ رذيلةٌ وليسَ بفضيلةٍ ، يزدادُ الإنسانُ بهِ هَواناً ورَذالةً في الدُّنيا والآخرةِ .

فالعلمُ الذي هوَ فريضةٌ لا يَسَعُ الإنسانَ جهلُهُ ؛ على ما :

(٧) ـ حدَّثَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ رحمةُ اللهِ عليهِ ، قالَ : أخبرَنا الحافظُ أبو القاسمِ المُستمْلِي ، قالَ أخبرَنا الشيخُ العالمُ أبو القاسمِ عبدُ الكريمِ بنُ هَوَازِنَ القُشَيْرِيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ الأَصْفَهانيُّ ، قالَ أخبرَنا أبو سعيدِ بنُ الأعرابيِّ ، قالَ : حدَّثَنا جعفرُ بنُ عامرٍ العَسْكَرِيُّ ، قالَ حدَّثَنا الحسنُ بنُ عطيَّةَ ، قالَ : حدَّثَنا أبو عاتكةَ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱطْلُبُوا ٱلْعِلْمَ وَلَوْ بِٱلصِّينِ ؛ فَإِنَّ طَلَبَ ٱلعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ »(١)

واختلفَ العلماءُ في العلمِ الذي هوَ فريضةٌ(٢) :

قالَ بعضُهُم : (هوَ طلبُ علمِ الإخلاصِ ، ومعرفةِ آفاتِ النفوسِ وما يُفسِدُ الأعمالَ ؛ لأنَّ الإخلاصَ مأمورٌ بهِ ، كما أنَّ العملَ مأمورٌ بهِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ؛ فإنَّ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٥٤٣) ، و« المدخل » (١٤٤٢) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠) ، وانظر « كشف الخفاء » (١/١٣٨ ـ ١٣٩) ، و« غنية العارف » (١/٤٨ ـ ٤٩) ، وانظر (١/٣٧٦) .

(٢) في نسخة على هامش (د) : (الذي طلبه فريضة) .

الإخلاصَ مأمورٌ بهِ ، وخُدَعُ النفسِ وغُرُورُها ودسائسُها وشهواتُها الخَفِيَّةُ . . تُخرِّبُ مبانيَ الإخلاصِ المأمورِ بهِ ، فصارَ عِلْمُ ذلكَ فرضاً حيثُ كانَ الإخلاصُ فرضاً ، وما لا يصلُ العبدُ إلى الفرضِ إلَّا بهِ صارَ فرضاً)(١)

وقالَ بعضُهُم : (معرفةُ الخواطرِ وتفصيلُها فريضةٌ ؛ لأنَّ الخواطرَ هيَ أصلُ الفعلِ ومَبْدؤُهُ ومَنْشؤُهُ ، وبذلكَ يُعلَمُ الفرقُ بينَ لَمَّةِ المَلَكِ ولَمَّةِ الشيطانِ(٢) ، فلا يصحُّ الفعلُ إلا بصحَّتِها ، فصارَ علمُ ذلكَ فرضاً حتىٰ يصحَّ الفعلُ مِنَ العبدِ للهِ)(٣)

وقالَ بعضُهُم : (هوَ طلبُ علمِ الوقتِ)(٤)

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (هوَ طلبُ علمِ الحالِ)(٥) ؛ يعني : حكمَ

---

(١) وهو مذهب عبد الرحيم بن يحيى الأُرْمَوي ومن تابعه . انظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٢) ، و« إحياء علوم الدين » (١/ ٥٥) .

(٢) اللَّمَّة ـ بالفتح ـ : النزول والقرب والإصابة ، والمراد بها : ما يقع في القلب بواسطة المَلَك أو الشيطان ، وروى الترمذي (٢٩٨٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٩٨٥) ، وابن حبان (٩٩٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « إنَّ للشيطانِ لَمَّةً بابنِ آدمَ ، وللمَلَكِ لَمَّةً ؛ فأمَّا لَمَّةُ الشيطانِ : فإيعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ ، وأمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحقِّ ، فمَنْ وَجَدَ ذلكَ فليعلمْ أنَّهُ مِنَ اللهِ ، فليحمَدِ اللهَ ، ومَنْ وَجَدَ الأخرىٰ فليتعوَّذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ » ، ثمَّ قرأ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] ، وانظر « مرقاة المفاتيح » (١/ ١٤٣) .

(٣) وهو مذهب مالك بن دينار وفَرْقَد السَّبَخي وعبد الواحد بن زيد ، وكان أستاذهم الحسنُ البصري يتكلَّم في ذلك ، وعنه حملوا علوم القلوب . انظر « قوت القلوب » (١/ ٢٦٤) .

(٤) انظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٣) .

(٥) تفسير التستري (ص٧٥) ، وفيه زيادة : (وما علم الحال ؟ قال : من الباطن =

حالِهِ التي بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ في دنياهُ وآخرتِهِ .

وقيلَ : هوَ طلبُ علمِ الحلالِ حيثُ كانَ أكلُ الحلالِ فريضةً[1] ، وقد وَرَدَ : « طَلَبُ ٱلْحَلَالِ فَرِيضَةٌ بَعْدَ ٱلْفَرِيضَةِ »[2] ، فصارَ علمُهُ فريضةً مِنْ حيثُ إنَّهُ فريضةٌ .

وقيلَ : هوَ طلبُ علمِ الباطنِ ؛ وهوَ ما يزدادُ بهِ العبدُ يقيناً ، وهـٰذا العلمُ هوَ الذي يُكتسَبُ بالصُّحْبةِ ومُجالَسةِ الصالحينَ ؛ مِنَ العلماءِ المُوقِنينَ ، والزُّهَّادِ المُقرَّبينَ ، الذينَ جعلَهُمُ اللهُ تعالىٰ مِنْ جنودِهِ ، يسوقُ الطالبينَ إليهِم ، ويُقوِّيهِم بطريقِهِم[3] ، ويُرشِدُهُم بهِم ، فهم وُرَّاثُ علمِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ومنهُم يُتعلَّمُ علمُ اليقينِ[4] .

وقالَ بعضُهُم : (هوَ علمُ البيعِ والشراءِ ، والنكاحِ والطلاقِ ؛ إذا أرادَ الدخولَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ يجبُ عليهِ طلبُ علمِهِ)[5] .

وقالَ بعضُهُم : (هوَ أنْ يكونَ العبدُ يريدُ عملاً يجهلُ ما للهِ عليهِ في

= الإخلاصُ ، ومن الظاهر الاقتداءُ ، فمن لم يكن ظاهِرُهُ إمامَ باطنه ، وباطنُهُ كمالَ ظاهره . . فهو في تَعَبٍ من البدن . . .) ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٣) .

(١) ومال إلىٰ هـٰذا القول إبراهيمُ بن أدهم ويوسف بن أسباط وغيرهما انظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٤) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/ ٩٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ١٢٨) ، و« الشعب » (٨٣٦٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وانظر « كشف الخفاء » (٢/ ٤٦ ، ١١٠) ، و« غنية العارف » (١/ ٥٠) .

(٣) في (ي) ونسخة علىٰ هامش (د) : (ويُقرِّبهم) بدل (ويقويهم) .

(٤) انظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٤) ، و« إحياء علوم الدين » (١/ ٥٥) .

(٥) وذهب إلىٰ ذلك بعضُ فقهاء الكوفة ، ومال إليه سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابهما . انظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٥) ، و« إحياء علوم الدين » (١/ ٥٥) .

ذلكَ ، فلا يجوزُ لهُ أنْ يعملَ برأيِهِ ؛ إذ هوَ جاهلٌ فيما لهُ وعليهِ في ذلكَ ، فيُراجِعُ عالماً يسألُهُ عنهُ ليُجيبَهُ علىٰ بصيرةٍ ولا يعملَ برأيِهِ ، وهـٰذا علمٌ يجبُ طلبُهُ حيثُ جُهِلَ)[1]

وقالَ بعضُهُم : (طلبُ علمِ التوحيدِ فرضٌ) ؛ فمِنْ ذلكَ قائلٌ يقولُ : إنَّ طريقَهُ النَّظَرُ والاستدلالُ ، ومِنْ قائلٍ يقولُ : إنَّ طريقَهُ النقلُ[2]

وقالَ بعضُهُم : (إذا كانَ العبدُ علىٰ سلامةِ الباطنِ ، وحُسْنِ الاستسلامِ والانقيادِ في الإسلامِ ، ولا يَحِيكُ في صدرِهِ شيءٌ . فهوَ سالمٌ ، فإنْ حاكَ في صدرِهِ شيءٌ ، أو توسوسَ بشيءٍ يَقدَحُ في العقيدةِ ، أو ابتُليَ بشُبْهةٍ لا يُؤمَنُ غائلتُها أنْ تَجُرَّهُ إلىٰ بدعةٍ أو ضلالةٍ . فيجبُ عليهِ أنْ يستكشِفَ عنِ الاشتباهِ ، ويُراجِعَ أهلَ العلمِ ومَنْ يُفهِّمُهُ طريقَ الصوابِ)[3]

وقالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكِّيُّ رحمَهُ اللهُ في «كتابِهِ» : (هوَ علمُ الفرائضِ الخمسِ التي بُنِيَ عليها الإسلامُ ؛ لأنَّها افتُرِضتْ على المسلمينَ ، وإذا كانَ عملُها فرضاً صارَ علمُ العملِ بها فرضاً) .

وذَكَرَ أنَّ علمَ التوحيدِ داخلٌ في ذلكَ ؛ لأنَّ أوَّلَها الشهادتانِ ، والإخلاصُ داخلٌ في ذلكَ ؛ لأنَّ ذلكَ مِنْ ضرورةِ الإسلامِ ، وعلمُ

---

(١) وقال هـٰذا القولَ بعضُ المتقدمين من علماء خراسان ، وحُكي عن عبد الله بن المبارك وبعض أصحاب الحديث . انظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٥) .

(٢) انظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٥) ، و« إحياء علوم الدين » (١/ ٥٤) .

(٣) وهو مذهب أبي ثور وداود الظاهري والحسين الكرابيسي والحارث المحاسبي ، ومَنْ تابعهم من المتكلمين . انظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٥ـ ٣٦٦) .

الإخلاصِ داخلٌ في صحَّةِ الإسلامِ(١)

وحيثُ أَخْبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ . . يقتضي ألَّا يَسَعَ مسلماً جهلُهُ ، وكلُّ ما تقدَّمَ مِنَ الأقاويلِ أكثرُها ممَّا يَسَعُ المسلمَ جهلُهُ ؛ لأنَّهُ قد لا يعلمُ علمَ الخواطرِ ، وعلمَ الحالِ ، وعلمَ الحلالِ بجميعِ وجوهِهِ ، وعلمَ اليقينِ المُستفادَ مِنْ علماءِ الآخرةِ ، كما ترىٰ أكثرَ المسلمينَ على الجهلِ بهٰذهِ الأشياءِ ، ولو كانتْ هٰذهِ الأشياءُ فُرِضتْ عليهِم . . عَجزَ عنها أكثرُ الخلقِ إلَّا ما شاءَ اللهُ

ومَيْلي في هٰذهِ الأقاويلِ : إلىٰ قولِ الشيخِ أبي طالبٍ المكِّيِّ رحمَهُ اللهُ . . أكثرُ ، وإلىٰ قولِ مَنْ قالَ : يجبُ عليهِ علمُ البيعِ والشراءِ والنكاحِ والطلاقِ إذا أرادَ الدخولَ فيهِ ، وهٰذا لَعَمْري فرضٌ على المسلمِ عِلْمُهُ ، وهكذا الذي قالَهُ الشيخُ أبو طالبٍ .

وعندي في ذلكَ حدٌّ جامعٌ لطلبِ العلمِ المُفترَضِ ، واللهُ أعلمُ :

أقولُ : العلمُ الذي طلبُهُ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ : علمُ الأمرِ والنهيِ ، والمأمورُ : ما يُثابُ علىٰ فعلِهِ ويُعاقَبُ علىٰ تركِهِ ، والمَنْهِيُّ : ما يُعاقَبُ علىٰ فعلِهِ ويُثابُ علىٰ تركِهِ ، والمأموراتُ والمَنهيَّاتُ منها : ما هوَ مُستمِرٌّ لازمٌ للعبدِ بحُكْمِ الإسلامِ ، ومنها : ما يتوجَّهُ الأمرُ فيهِ والنهيُ عنهُ عندَ وجودِ الحادثةِ

فما هوَ لازمٌ مُستمِرٌّ لزومُهُ مُتوجِّهٌ بحُكْمِ الإسلامِ . . علمُهُ واجبٌ مِنْ ضرورةِ الإسلامِ .

---

(١) انظر « قوت القلوب » (١/ ٣٦٧)

وما يتجدَّدُ بالحوادثِ ويتوجَّهُ الأمرُ والنهيُ فيهِ . . علمُهُ عندَ تجدُّدِهِ فرضٌ لا يَسَعُ مسلماً على الإطلاقِ أنْ يجهلَهُ .

وهٰذا الحدُّ أعمُّ مِنَ الوجوهِ التي سبقتْ ، واللهُ أعلمُ[(١)]

ثمَّ إنَّ المشايخَ مِنَ الصُّوفيَّةِ وعلماءِ الآخرةِ الزاهدينَ في الدُّنيا . . شمَّرُوا عن ساقِ الجِدِّ في طلبِ العلمِ المُفترَضِ حتىٰ عَرَفُوهُ ، وأقامُوا الأمرَ والنهيَ ، وخرجُوا مِنْ عُهْدةِ ذلكَ بحُسْنِ توفيقِ اللهِ ، فلمَّا استقامُوا في ذلكَ مُتابِعِينَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ أمرَهُ اللهُ تعالىٰ بالاستقامةِ فقال : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود : ١١٢] . . فتحَ اللهُ عليهِم أبوابَ العلومِ التي سَبَقَ ذكرُها

قالَ بعضُهُم : (مَنْ يُطِيقُ مثلَ هٰذهِ المخاطبةِ بالاستقامةِ إلَّا مَنْ أُيِّدَ بالمشاهداتِ القويَّةِ ، والأنوارِ البيِّنةِ ، والآثارِ الصادقةِ ، ثمَّ عُصِمَ ببرٍّ عظيمٍ بالتثبيتِ[(٢)] ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ ﴾ [الإسراء : ٧٤] ، ثمَّ حُفِظَ في وقتِ المشاهدةِ ومشافهةِ الخطابِ ، وهوَ المُزيَّنُ بمقامِ القُرْبِ ،

---

(١) وسُئل المؤلف رضي الله عنه : ما الأَولىٰ بالمريد الاشتغالُ بالعلم ليعلم الأحكام ممَّا وجب عليه أو نُدِبَ إليه ، أو الانقطاعُ إلى الله بالتجرُّد عمَّا سواه ؟

فأجاب : بأنَّ المريد إذا علم من الأحكام ما لا بدَّ منه . . فالأَولىٰ به : الانقطاع إلى الله ودوامُ التبتُّل ، إلا أن يكونَ غيرَ صابر على الحقِّ الصِّرْف ، ونفسُهُ لا تُجيبُهُ على الدُّؤوب على العمل والذكر ، وتُنازِعُهُ بالفُتُور ومطالبة البطالة ؛ فعند ذلك يشتغل بشيء من العلم من قبيل فروض الكفايات ؛ ليكون تبتُّلُهُ عزيمةَ حاله ، واشتغالُهُ رخصةَ حاله . « أجوبة السهروردي » (ق/ ٢٤) .

(٢) في النسخ ما عدا (أ ، ي) : (ببر عظيم بالتثبيت) ، بدل (ثم عصم . . .) ، وفي بعض النسخ المستأنس بها : (بالتثبيت ببرهان عظيم)

والمُخاطَبُ علىٰ بِساطِ الأُنْسِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وبعدَ ذلكَ خُوطِبَ بقولِهِ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ ، ولولا هٰذهِ المُقدِّماتُ ما أطاقَ الاستقامةَ التي أُمِرَ بها)(١)

قيلَ لأبي حفصٍ الحدَّادِ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : الاستقامةُ ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ٱسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا »(٢)

وقالَ جعفرٌ الصادقُ رضيَ اللهُ عنهُ في قولِهِ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ : (افتقرْ إلى اللهِ بصِحَّةِ العزمِ)(٣)

ورأىٰ بعضُ الصالحينَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ رُوِيَ عنكَ أنَّكَ قلتَ : « شَيَّبَتْنِي سُورَةُ (هُودٍ) »(٤)، فقالَ : « نَعَمْ » ، فقلتُ لهُ : ما الذي شيَّبَكَ منها ؟ قِصَصُ الأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ وهلاكُ الأممِ ؟ فقال : « لَا ، وَلَٰكِنْ قَوْلُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ »(٥)

---

(١) انظر « عرائس البيان » (ص٤٠١) .

(٢) روىٰ قولَ النبي صلى الله عليه وسلم ابنُ ماجه (٢٧٧) ، والدارمي (٦٨١) ، والحاكم (١/ ٣٠) من حديث سيدنا ثوبان رضي الله عنه ، وقوله : (لن تُحصُوا) ؛ أي : لن تطيقوا أن تستقيموا حقَّ الاستقامة لعُسْرها ، أو لن تطيقوها بقوَّتكم وحولكم وإن بذلتُم جهدَكم ، بل تكونُ توفيقاً من الله تعالى . انظر « فيض القدير » (١/ ٤٩٧) .

(٣) أورده الزمخشري في « الكشاف » (٢/ ٤٣٣)، والبقلي في « عرائس البيان » (ص٤٠١).

(٤) زاد في (ط) : (وأخواتها) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٢١٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٤٧٣) ، وفيهما : أن الرائي هو أبو علي الشَّبُّويُّ رحمه الله تعالىٰ ، وقولُهُ صلَّى الله عليه وسلَّم : « شيبتْني سورةُ (هودٍ) » رواه الترمذي (٣٢٩٧) ، والحاكم (٢/ ٣٤٣) عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه . انظر « غنية العارف » (١/ ٥٤ـ٥٥) .

فكما أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ مُقدِّماتِ المشاهداتِ خُوطِبَ بهٰذا الخطابِ ، وطُولِبَ بحقائقِ الاستقامةِ . . فكذلكَ علماءُ الآخرةِ الزاهدونَ ، ومشايخُ الصُّوفيّةِ المُقرَّبُونَ ؛ منحَهُمُ اللهُ تعالىٰ مِنْ ذلكَ بقِسْطٍ ونصيبٍ ، ثمَّ ألهمَهُم طَلَبَ النهوضِ بواجبِ حقِّ الاستقامةِ ، ورأَوُا الاستقامةَ أفضلَ مطلوبٍ وأشرفَ مأمولٍ .

قالَ أبو عليٍّ الجُوزْجَانيُّ[1] : (كُنْ طالبَ الاستقامةِ لا طالبَ الكرامةِ ؛ فإنَّ نفسَكَ مُتحرِّكةٌ في طلبِ الكرامةِ ، وربُّكَ يطلبُ منكَ الاستقامةَ)[2]

وهٰذا الذي ذكرَهُ أصلٌ كبيرٌ في البابِ ، وسِرٌّ غَفَلَ عن حقيقتِهِ كثيرٌ مِنْ أهلِ السلوكِ والطلبِ ؛ وذلكَ أنَّ المُجتهدينَ والمُتعبِّدينَ سمعُوا بسِيَرِ الصالحينَ المُتقدِّمينَ ، وما مُنِحُوهُ مِنَ الكراماتِ وخوارقِ العاداتِ ، فأبداً نفوسُهُم لا تزالُ تَتَطَلَّعُ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ ، ويُحِبُّونَ أنْ يُرزَقُوا شيئاً مِنْ ذلكَ ، ولعلَّ أحدَهُم يبقىٰ مُنكسِرَ القلبِ ، مُتَّهِماً لنفسِهِ في صِحَّةِ عملِهِ ؛ حيثُ لمْ يُكشَفْ لهُ بشيءٍ مِنْ ذلكَ ، ولو علمُوا سِرَّ ذلكَ لهانَ عليهِمُ الأمرُ فيهِ .

فليُعلَمْ أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ قد يفتحُ علىٰ بعضِ المُجتهدينَ الصادقينَ

---

(١) في النسخ ما عدا (ج ، و) : (الجرجاني) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والجُوزْجاني هو أبو علي الحسن بن علي ، من كبار مشايخ خراسان ، صحب الحكيم الترمذي ومحمد بن الفضل البلخي وغيرهما ، وجُوزْجان أو جُوزْجَانان كُورةٌ واسعة من كُوَرِ بلخ بخراسان . انظر « طبقات الصوفية » (ص٢٤٦) ، و« معجم البلدان » (٢/ ١٨٢)

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤٧٣) .

مِنْ ذلكَ باباً ، والحكمةُ فيهِ : أنْ يزدادَ بما يرىٰ مِنْ خوارقِ العاداتِ وآثارِ القدرةِ يقيناً ، فيقوىٰ عَزْمُهُ على الزهدِ في الدنيا ، والخروجِ مِنْ دواعي الهوىٰ

وقد يكونُ بعضُ عبادِهِ يُكاشَفُ بصِرْفِ اليقينِ[1] ، ويُرفَعُ عن قلبِهِ الحِجابُ ، ومَنْ كُوشِفَ بصِرْفِ اليقينِ أُغْنِيَ بذلكَ عن رؤيةِ خوارقِ العاداتِ ؛ لأنَّ المرادَ منها كانَ حُصولَ اليقينِ وقد حَصَلَ اليقينُ ، فلو كُوشِفَ هـٰذا المرزوقُ صِرْفَ اليقينِ بشيءٍ مِنْ ذلكَ . . ما ازدادَ يقيناً

فلا تقتضي الحكمةُ كشفَ القدرةِ بخوارقِ العاداتِ لهـٰذا ؛ لِمَوضِعِ استغنائِهِ ، وتقتضي الحكمةُ كشفَ ذلكَ للآخَرِ ؛ لِمَوْضِعِ حاجتِهِ ، فكأنَّ هـٰذا الثانيَ يكونُ أتمَّ استعداداً وأصحَّ أهليّةً مِنَ الأوَّلِ ؛ حيثُ رُزِقَ حاصلَ ذلكَ ـ وهوَ صِرْفُ اليقينِ ـ بغيرِ واسطةٍ مِنْ رؤيةِ قدرةٍ ؛ فإنَّ فيهِ آفةً ؛ وهوَ العُجْبُ ، فأُغنِيَ عن رؤيةِ شيءٍ مِنْ ذلكَ .

فسبيلُ الصادقِ مُطالَبةُ النفسِ بالاستقامةِ ؛ فهيَ كلُّ الكرامةِ .

ثمَّ إذا وقعَ في طريقِهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ ، وسَلِمَ فيهِ مِنَ العُجْبِ بنفسِهِ . . جازَ وحَسُنَ ، وإنْ لم يقعْ فلا يُبالي ، ولا يَنقُصُ بذلكَ ، وإنَّما يَنقُصُ بالإخلالِ بواجبِ حقِّ الاستقامةِ .

فليُعلَمْ هـٰذا ؛ لأنَّهُ أصلٌ كبيرٌ للطالبينَ .

فالعلماءُ الزاهدونَ ومشايخُ الصُّوفيّةِ المُقرَّبُونَ حيثُ أُكرِمُوا بالقيامِ

---

(١) أي : اليقين الصِّرف الخالص من طلب خوارق العادات .

بواجبِ حقِّ الاستقامةِ . . رُزِقُوا سائرَ العلومِ التي أشارَ إليها المُتقدِّمونَ ـ كما ذكرْنا ـ وزعمُوا أنَّها فرضٌ

فمِنْ ذلكَ : علمُ الحالِ(١) ، وعلمُ القيامِ(٢) ، وعلمُ الخواطرِ ، وسنشرحُ علمَ الخواطرِ وتفاصيلَها في بابٍ إنْ شاءَ اللهُ(٣)

وعلمُ اليقينِ ، وعلمُ الإخلاصِ ، وعلمُ النفسِ ومعرفتِها ومعرفةِ أخلاقِها ، وعلمُ النفسِ ومعرفتِها مِنْ أعزِّ علومِ القومِ ، وأقوَمُ الناسِ بطريقِ المُقرَّبينَ والصُّوفيَّةِ أقوَمُهُم بمعرفةِ النفسِ .

وعلمُ معرفةِ أقسامِ الدنيا ، ووجودِ دقائقِ الهوىٰ ، وخفايا شهواتِ النفسِ وشِرْبِها(٤) ، وعلمُ الضرورةِ ، ومطالبةِ النفسِ بالوقوفِ على الضرورةِ قولاً وفعلاً ولُبْساً وخَلْعاً وأَكْلاً ونوماً ، ومعرفةِ حقائقِ التوبةِ ، وعلمُ خَفيِّ الذنوبِ ، ومعرفةِ سيئاتٍ هيَ حسناتُ الأبرارِ ، ومطالبةِ النفسِ بتركِ ما لا يَعْني ، ومطالبةِ الباطنِ بحَصْرِ خواطرِ المعصيةِ ، ثمَّ بحَصْرِ خواطرِ الفضولِ .

ثمَّ علمُ المراقبةِ ، وعلمُ ما يَقدَحُ في المراقبةِ ، وعلمُ المحاسبةِ والرِّعايةِ ، وعلمُ حقائقِ التوكُّلِ ، وذنوبِ المُتوكِّلِ في توكُّلِهِ ، وما يَقدَحُ في

---

(١) علم الحال : هو أن يتحوَّل العبد من الرسوم الخلقية ودركات البعد إلى الصفات الحقِّيَّة ودرجات القُرب . انظر « ذوارف اللطائف » (١/ ق ٥٨)

(٢) أي : علم القيام لله ؛ وهو الاستيقاظ من نوم الغفلة والنهوضُ عن سَنَة الفترة عند الأخذ في السير إلى الله تعالىٰ ، وأما علم القيام بالله : فهو الاستقامة عند البقاء بعد الفناء . انظر « ذوارف اللطائف » (١/ ق٥٨) ، و« التعريفات » (ص١٥٣)

(٣) انظر (٢/ ٤٣٤ـ٤٤٨)

(٤) الشِّرْب : الحظُّ والنصيب ، وفي (هـ) : (وشرهها) ، وفي نسخة مستأنس بها (وشَرَهها وشَرِّها) .

التوكُّلِ وما لا يَقدَحُ ، والفرقِ بينَ التوكُّلِ الواجبِ بحُكْمِ الإيمانِ وبينَ التوكُّلِ الخاصِّ المُختَصِّ بأهلِ العِرْفانِ ، وعلمُ الرِّضا وذنوبِ مقامِ الرِّضا ، وعلمُ الزهدِ وتجديدِهِ بما يلزمُ مِنْ ضرورتِهِ وما لا يَقدَحُ في حقيقتِهِ ، ومعرفةِ الزهدِ في الزهدِ ، ومعرفةِ زهدٍ ثالثٍ بعدَ الزهدِ في الزهدِ ، وعلمُ الإنابةِ والالتجاءِ ، ومعرفةِ أوقاتِ الدعاءِ ، ومعرفةِ وقتِ السكوتِ عنِ الدعاءِ

وعلمُ المحبَّةِ ، والفرقِ بينَ المحبَّةِ العامَّةِ المُفسَّرةِ بامتثالِ الأمرِ والمحبَّةِ الخاصَّةِ ـ وقد أنكرَ طائفةٌ مِنْ علماءِ الدنيا دعوىٰ علماءِ الآخرةِ المحبَّةَ الخاصَّةَ ، كما أنكروا الرِّضا وقالوا : ليسَ إلا الصبرُ ـ وانقسامِ المحبَّةِ الخاصَّةِ إلىٰ محبَّةِ الذاتِ وإلىٰ محبَّةِ الصفاتِ ، والفرقِ بينَ محبَّةِ القلبِ ، ومحبَّةِ الروحِ ، ومحبَّةِ العقلِ ، ومحبَّةِ النفسِ ، والفرقِ بينَ مقامِ المُحِبِّ والمحبوبِ ، والمريدِ والمُرادِ .

ثمَّ علومُ المشاهداتِ ؛ كعلمِ الهَيْبَةِ والأُنْسِ ، والقبضِ والبسطِ ، والفرقِ بينَهُما ، والفرقِ بينَ القبضِ والهمِّ والبسطِ والنشاطِ ، وعلمِ الفناءِ والبقاءِ ، وتفاوتِ أحوالِ الفناءِ ، والاستتارِ والتَّجلِّي ، والجَمْعِ والفَرْقِ ، واللَّوامعِ والطَّوالعِ ، والبَوَادي والصَّحْوِ والسُّكْرِ . . . وإلىٰ غيرِ ذلكَ ، ممَّا لوِ اتَّسَعَ الوقتُ لَذَكَرْناها وشَرَحْناها في مُجلَّداتٍ ، ولٰكنَّ العُمُرَ قصيرٌ ، والوقتَ عزيزٌ ، ولولا سهمُ الغفلةِ لضاقَ الوقتُ عن هٰذا القَدْرِ أيضاً[1]

---

(١) وقد لخَّص شرحَ جميع هٰذه العلوم والمعارف صاحبُ « ذوارف اللطائف » ، وراجعِ البابَ الثاني في « رسالة الإمام القشيري » ؛ فقد شرح وبيَّن فيه بعضَ الألفاظ التي أوردها المؤلف ها هنا .

وهـٰذا المُختصَرُ المُؤلَّفُ يحتوي مِنْ علومِ القومِ علىٰ طَرَفٍ صالحٍ ، نرجو مِنَ اللهِ تعالى الكريمِ أنْ ينفعَ بهِ ويجعلَهُ حُجَّةً لنا لا حُجَّةً علينا

وهـٰذهِ كلُّها علومٌ مِنْ ورائِها علومٌ عَمِلَ بمُقتضاها وظَفِرَ بها علماءُ الآخرةِ الزاهدونَ ، وحُرِمَ ذلكَ علماءُ الدنيا الراغبونَ ، وهيَ علومٌ ذوقيَّةٌ لا يكادُ النَّظَرُ يَصِلُ إليها إلَّا بذوقٍ ووِجْدانٍ ؛ كالعلمِ بكيفيَّةِ حلاوةِ السُّكَّرِ ؛ لا يحصُلُ بالوصفِ ، فمَنْ ذاقَهُ عَرَفَهُ .

ويُنْبِئُكَ عن شرفِ علمِ الصُّوفيَّةِ وزُهَّادِ العلماءِ : أنَّ العلومَ كلَّها لا يتعذَّرُ تحصيلُها معَ محبَّةِ الدنيا والإخلالِ بحقائقِ التقوىٰ ، وربَّما كانَ محبَّةُ الدنيا عَوْناً على اكتسابِها ؛ لأنَّ الاشتغالَ بها شاقٌّ على النفوسِ ، فجُبِلَتِ النفوسُ علىٰ محبَّةِ الجاهِ والرِّفْعةِ ، حتىٰ إذا استَشْعَرَتْ حصولَ ذلكَ بحصولِ العلمِ . . أجابتْ إلىٰ تحمُّلِ الكُلَفِ وسَهَرِ الليلِ[1] ، والصبرِ على الغُرْبةِ والأسفارِ ، وتعذُّرِ المَلاذِّ والشهواتِ .

وعلومُ هـٰؤلاءِ القومِ لا تحصُلُ معَ محبَّةِ الدنيا ، ولا تنكشِفُ إلَّا بمجانبةِ الهوىٰ ، ولا تُدرَّسُ إلَّا في مدرسةِ التقوىٰ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ؛ جعلَ العلمَ ميراثَ التقوىٰ ، وغيرُ علومِ هـٰؤلاءِ القومِ مُتيسِّرٌ مِنْ غيرِ ذلكَ بلا شكٍّ .

فعُلِمَ فضلُ علمِ علماءِ الآخرةِ ؛ حيثُ لمْ يُكشَفِ النِّقابُ إلَّا لأُولي الألبابِ ، وأُولو الألبابِ حقيقةً همُ الزاهدونَ في الدنيا .

---

(١) الكُلَف : جمع (كُلفة) ؛ وهي ما يتكلَّفُهُ الإنسانُ من نائبةٍ أو حق .

قالَ بعضُ الفقهاءِ : (إذا أوصىٰ إنسانٌ بمالِهِ لأَعْقَلِ الناسِ . . يُصْرَفُ إلى الزُّهَّادِ ؛ لأنَّهُم أَعْقَلُ الخَلْقِ)[1]

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رحمَهُ اللهُ : (للعقلِ ألفُ اسمٍ ، ولكلِّ اسمٍ منهُ ألفُ اسمٍ ، وأوَّلُ كلِّ اسمٍ منهُ تركُ الدنيا)[2]

(٨) ـ حدَّثَنا الشيخُ الصالحُ أبو الفتحِ محمَّدُ بنُ عبدِ الباقي ، قالَ أخبرَنا أبو الفضلِ حَمْدُ بنُ أحمدَ[3] ، قالَ أخبرَنا الحافظُ أبو نُعيمٍ الأَصْفهانيُّ ، قالَ : حدَّثَنا محمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ محمَّدٍ ، قالَ : حدَّثَنا العبَّاسُ بنُ أحمدَ الشاشيُّ ، قالَ حدَّثَنا أبو عقيلٍ الوَصَّافيُّ[4] ، قالَ : حدَّثَنا أبو عبدِ اللهِ الخَوَّاصُ ـ وكانَ مِنْ أصحابِ حاتِمٍ ـ قالَ : دخلتُ معَ أبي عبدِ الرحمـٰنِ حاتِمٍ الأصمِّ الرَّيِّ ومعَهُ ثلاثُ مئةٍ وعشرونَ رجلاً يُريدونَ الحجَّ ، وعليهِمُ الصوفُ والزُّرْمانِقاتُ[5] ، ليسَ معَهُم جِرابٌ ولا

---

(١) عزاه الماوردي في « الحاوي الكبير » (٨/ ٣٥٣) ، والعمراني في « البيان » (٨/ ٢٢٨) ، والنووي في « الروضة » (٦/ ١٦٩) إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) في هامش (ب) : (بلغ السماع للجماعة في الرابع على الشيخ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي) .

(٣) هو الإمام الثقة أبو الفضل حمد بن أحمد بن الحسين الأصفهاني الحدَّاد (ت ٤٨٨هـ) ، حدَّث ببغداد بكتاب « الحلية » لأبي نعيم عنه أثناء مروره بها لأداء الحج ، وكان إماماً فاضلاً ، صحيح السماع ، محققاً في الأخذ . انظر « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٢٠ـ٢١) .

(٤) في هامش (ج) : (الرصافي) ، ولم يُرمز بشيء .

(٥) في النسخ ما عدا (ي) : (الزرنبانقات) ، والزُّرْمَانِقات : جمع (زُرْمانِقَة) ؛ وهي جُبَّة من صوف ، قال أبو عبيد : أُراها عبرانية ، وقيل : فارسيٌّ معرَّبُ (أشتُربانه) ؛ =

طعام[1] ، فدخَلْنا الرَّيَّ ، ودخَلْنا علىٰ رجلٍ مِنَ التُّجَّارِ مُتنسِّكٍ يُحِبُّ المُتقشِّفينَ ، فأضافَنا تلكَ الليلةَ .

فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ قالَ لحاتِمٍ : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ ألكَ حاجةٌ ؟ فإنِّي أُرِيدُ أنْ أَعُودَ فقيهاً لنا هوَ عَليلٌ[2] ، فقالَ حاتِمٌ : إنْ كانَ لكُم فقيهٌ عَليلٌ فعِيادةُ المريضِ الفقيهِ لها فَضْلٌ[3] ، والنَّظَرُ إلى الفقيهِ عبادةٌ ، وأنا أيضاً أَجيءُ معكَ ، وكانَ العَليلُ محمدَ بنَ مُقاتِلٍ قاضيَ الرَّيِّ ، قالَ : مُرَّ بنا يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ[4] .

فجاؤوا إلى الباب ، فإذا بابٌ مُشرِفٌ حَسَنٌ[5] ، فبقيَ حاتِمٌ مُتفكِّراً يقولُ : بابُ عالِمٍ علىٰ هـٰذا الحالِ ؟!

ثمَّ أَذِنَ لهُم فدخلُوا ، فإذا دارٌ قَوْراءُ[6] ، وإذا بِزَّةٌ ومَنَعَةٌ وسُتُورٌ وجَمْعٌ[7] ، فبقِيَ حاتِمٌ مُتفكِّراً !!

= أي : متاع الجمَّال . انظر « تاج العروس » (٢٥/ ٤٠٢) ، وفي « التكملة والذيل علىٰ درة الغواص » (ص٨٧٨) : (ويقولون للجبة من الصوف : « زرنبانقة » ، وإنما هي « زرمانقة ») .

(١) الجِرَاب : وِعاء الزَّاد

(٢) عَليل : مريض .

(٣) في بعض النسخ دون ذكر (الفقيه) ، وفي بعضها دون ذكر (المريض) .

(٤) في (ح) : (سِرْ بنا) بدل (مر بنا) .

(٥) المُشْرف : العالي .

(٦) القَوْراء : الدار الواسعةُ الجوفِ .

(٧) البِزَّة : الهيئة الحسنة ؛ يُقال : فلانٌ حسنُ البِزَّة ؛ أي : حسنُ اللباس والهيئة ، وقال في « الذوارف » (١/ ق ٦٩) : (البِزَّة : الثياب الفاخرة كانت مُعلَّقةً بالسقف والجُدْران) ، والمَنَعَة : جمع (مانع) ؛ وهو مَنْ يحمي غيره من الضَّيم ، والمراد هنا : الحُجَّاب .

ثمَّ دخلُوا إلى المجلسِ الذي هوَ فيهِ ، فإذا بفُرُشٍ وَطِيئةٍ[1] ، وإذا هوَ راقدٌ عليها ، وعندَ رأسِهِ غلامٌ وبيدهِ مِذَبَّةٌ[2] ، فقعدَ الرَّازيُّ فسألَهُ وحاتِمٌ قائمٌ ، فأَوْمأَ إليهِ ابنُ مقاتلٍ ؛ أنِ اقعُدْ ، فقالَ : لا أقعُدُ ، فقالَ لهُ ابنُ مقاتلٍ : لعلَّ لكَ حاجةً ؟ قالَ : نعم ، قالَ : وما هيَ ؟ قالَ : مسألةٌ أسألُكَ عنها ، قالَ سَلْني ، قالَ : فقُمْ فاستوِ جالساً حتىٰ أسألَكَها ، فأمرَ غِلْمانَهُ فأَسْنَدُوهُ

فقالَ لهُ حاتِمٌ : عِلْمُكَ هـٰذا مِنْ أينَ جئتَ بهِ ؟ قالَ : الثِّقاتُ حدَّثُوني بهِ ، قالَ : عمَّنْ ؟ قالَ : عن أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قال : وأصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عمَّنْ ؟ قالَ : عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أينَ جاءَ بهِ ؟ قالَ : عن جِبْريلَ عليهِ السلامُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ حاتِمٌ : ففيمَ أدَّاهُ جِبْريلُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وأدَّاهُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأدَّاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أصحابِهِ ، وأدَّاهُ أصحابُهُ إلى الثِّقاتِ ، وأدَّاهُ الثِّقاتُ إليكَ ؟ هل سمعتَ في العِلْمِ : مَنْ كانَ في دارِهِ أميراً ومَنَعَتُهُ أكثرَ . . كانتْ لهُ المنزلةُ عندَ اللهِ أكثرَ ؟ قالَ : لا

قالَ : فكيفَ سمعتَ ؟ قالَ مَنْ زَهِدَ في الدنيا ، ورَغِبَ في الآخرةِ ، وأحبَّ المساكينَ ، وقَدَّمَ لآخرتِهِ . . كانَ لهُ عندَ اللهِ المنزلةُ أكثرَ .

قالَ حاتِمٌ : فأنتَ بمَنِ اقتديتَ ؟ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ

---

(١) الوَطِيئة : اللَّيِّنة ، والفراش الوَطيء : الذي لا يُؤذي جنب النائم

(٢) المِذَبَّة : ما يُدفَع به الذبابُ .

والصالحينَ ، أم بفِرْعونَ ونُمْرُوذَ أوَّلِ مَنْ بنىٰ بالجِصِّ والآجُرِّ ؟[1]

يا علماءَ السوءِ ؛ مِثْلُكُم يراهُ الجاهلُ الطالبُ للدنيا الراغبُ فيها فيقولُ : العالِمُ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ لا أكونُ أنا شرّاً منهُ[2] ، وخرجَ مِنْ عندِهِ ، فازدادَ ابنُ مقاتلٍ مَرَضاً

فبلغَ أهلَ الرَّيِّ ما جرىٰ بينَهُ وبينَ ابنِ مقاتلٍ ، فقالُوا لهُ : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ بقَزْوِينَ عالمٌ أكثرُ شيءٍ مِنْ هـٰذا[3] ، وأشارُوا بهِ إلى الطَّنافِسِيِّ .

قالَ فسارَ إليهِ مُتعمِّداً ، فدخلَ عليهِ ، فقالَ : رَحِمَكَ اللهُ أنا رجلٌ أعجميٌّ ، أُحِبُّ أنْ تُعلِّمَني أوَّلَ مُبتدَأِ دِيني ومِفْتاحَ صلاتي ؛ كيفَ أتوضَّأُ للصلاةِ ؟ قالَ : نَعَمْ وكرامةً ، يا غلامُ ؛ هاتِ إناءً فيهِ ماءٌ ، فأُتِيَ بإناءٍ فيهِ ماءٌ ، فقعدَ الطَّنافِسِيُّ فتوضَّأَ ثلاثاً ثلاثاً ، ثمَّ قالَ : هكذا فتوضَّأْ ، فقعدَ[4] ، فتوضَّأَ حاتِمٌ ثلاثاً ثلاثاً ، حتىٰ إذا بلغَ غسلَ الذراعَينِ غسلَ أربعاً ، فقالَ لهُ الطَّنافِسِيُّ : يا هـٰذا ؛ أسرفتَ ، فقالَ لهُ حاتِمٌ : فيماذا ؟ قالَ : غسلتَ ذراعَيْكَ أربعاً ، قالَ حاتِمٌ : يا سبحانَ اللهِ !! أنا في كفٍّ ماءٍ أسرفتُ وأنتَ في هـٰذا الجمعِ كلِّهِ لمْ تُسرِفْ ؟! فعَلِمَ الطَّنافِسِيُّ أنَّهُ أرادَهُ بذلكَ ولم يُرِدْ منهُ التعلُّمَ ، فدخلَ البيتَ ولم يخرجْ إلى الناسِ أربعينَ يوماً

---

(١) في (أ ، د ، ي) : (ونمرود) بالمهملة ، ويجوز فيها الإهمال والإعجام ، وبعضُهُم رجَّح الإعجام . انظر « تاج العروس » (٩/ ٢٤٠) .

(٢) في بعض النسخ : (إلا أكون) بدل (لا أكون) .

(٣) في (ح) : (بقزوين عالم أكبر شأناً من هـٰذا) ، وفي « الحلية » : (بقزوين أكثر شيء من هـٰذا) .

(٤) في النسخ ما عدا (ح) سقط قوله : (فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً . . . فقعد) ، والظاهر أنه من الناسخ ، والله تعالىٰ أعلم .

وكتبَ تُجَّارُ الرَّيِّ وقَزْوِينَ ما جرىٰ بينَهُ وبينَ ابنِ مقاتلٍ والطَّنافِسِيِّ ، فلمَّا دخلَ بغدادَ اجتمعَ إليهِ أهلُ بغدادَ ، فقالوا لهُ : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ أنتَ رجلٌ أَلْكَنُ أعجميٌّ ليسَ يُكلِّمُكَ أحدٌ إلَّا قطعتَهُ ؟![1]

قالَ : معي ثلاثُ خِصالٍ بهِنَّ أَظْهَرُ علىٰ خَصْمي ، قالُوا أيُّ شيءٍ هيَ ؟ قالَ أفرحُ إذا أصابَ خَصْمي ، وأحزنُ إذا أخطأَ ، وأحفظُ نفسي ألَّا أجهلَ عليهِ

فبلَغَ ذلكَ أحمدَ بنَ حنبلٍ ، فجاءَ إليهِ وقالَ سبحانَ اللهِ ما أَعْقَلَهُ !! فلمَّا دخلَ عليهِ قالَ[2] : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ ما السلامةُ مِنَ الدنيا ؟ قالَ حاتِمٌ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ لا تسلَمُ مِنَ الدنيا حتىٰ تكونَ معَكَ أربعُ خِصالٍ ، قالَ أيُّ شيءٍ هيَ يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؟ قالَ : تغفرُ للقومِ جهلَهُم ، وتمنعُ جهلَكَ عنهُم ، وتبذُلُ لهُم شيئَكَ ، وتكونُ مِنْ شيئِهِم آيِساً ، فإذا كانَ هـٰذا سلمتَ .

ثمَّ سارَ إلى المدينةِ[3]

---

(١) الأَلْكَن : الرجل الذي في لسانه عُجْمةٌ ، وقطعتَهُ : غلبتَهُ بالحُجَّة

(٢) في (ب ، ج ، و ، ز) : (فلما دخلوا عليه قالوا) ، وفي (أ ، هـ) (فلما دخلوا عليه قال) ، والعبارة في « الحلية » : (قوموا بنا حتىٰ نسير إليه ، فلما دخلوا عليه قالوا) .

(٣) حلية الأولياء (٨/ ٨٠ ـ٨٣) ، واستكمالاً للفائدة نورد ما جرىٰ معه في المدينة كما في « الحلية » (ثم سار إلى المدينة ، فاستقبله أهلُ المدينة ، فقال : يا قوم ؛ أيُّ مدينة هـٰذه ؟ قالوا : مدينةُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، قال : فأين قصرُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فأُصلِّيَ فيه ركعتين ؟ قالوا : ما كان له قصرٌ ، إنَّما كان له بيتٌ لاطِئٌ ، قال : فأين قصورُ أصحابه بعدَهُ ؟ قالوا : ما كان لهم قصور ، إنَّما كان لهم =

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، ذكرَهُ بكلمةِ (إنَّما) ، فينتفي العلمُ عمَّنْ لا يخشى اللهَ ؛ كما إذا قالَ : إنَّما يدخلُ الدارَ بغداديٌّ ؛ ينتفي دخولُ غيرِ البغداديِّ الدارَ ، فَلاحَ لعلماءِ الآخرةِ(١) أنَّ الطريقَ مسدودٌ إلىٰ أَنْصِبَةِ المعارفِ ومقاماتِ القُربِ إلا بالزهدِ والتقوىٰ .

قالَ أبو يزيدَ رحمَهُ اللهُ يوماً لأصحابِهِ : بَقِيتُ البارحةَ إلى الصباحِ أَجْهَدُ أنْ أقولَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ما قَدَرْتُ عليهِ ، قيلَ : ولِمَ ؟ قالَ : ذكرتُ

= بيوتٌ لاطئة ، قال حاتِمٌ : يا قومِ ؛ هـٰذه مدينةُ فرعونَ وجنودِهِ ، فذهبوا به إلى السلطان ، فقالوا : هـٰذا العَجَميُّ يقولُ : هـٰذه مدينةُ فرعونَ وجنودِهِ ، قال الوالي : ولِمَ ذاك ؟ قال حاتِمٌ : لا تعجَلْ عليَّ ، أنا رجلٌ عجميٌّ غريب دخلتُ المدينة ، فقلت : فأينَ قصرُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فأُصلِّيَ فيه ركعتين ؟ قالوا : ما كان له قصر ، إنَّما كان له بيت لاطئ ، قلت : فلأصحابه بعدَهُ ؟ قالوا : ما كان لهم قصور ، إنَّما كان لهم بيوتٌ لاطئة ، وقال الله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، فأنتم بمَنْ تأسَّيتم ؟! برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه ، أو بفرعونَ أوَّلِ مَنْ بنىٰ بالجِصِّ والآجُرِّ ؟! فخلَّوا عنه وعَرَفُوه .

فكان حاتمٌ كلَّما دَخَلَ المدينةَ يجلسُ عندَ قبرِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُحدِّث ويدعو ، فاجتمع علماءُ المدينة فقالوا : تعالوا حتىٰ نُخجِلَهُ في مجلسه ، فجاؤوه ومجلسُهُ غاصٌّ بأهله ، فقالوا : يا أبا عبد الرحمـٰن ؛ مسألة نسألك ، قال : سَلُوا ، قالوا : ما تقولُ في رجلٍ يقول : اللهمَّ ؛ ارزُقْني ؟ قال حاتِمٌ : متىٰ طلب هـٰذا الرزقَ ؟ في الوقت أم قبل الرزق ؟ قالوا : ليس يُفهَمُ هـٰذا يا أبا عبد الرحمـٰن ، قال : إن كان هـٰذا العبدُ طَلَبَ الرزق من ربِّهِ في وقت الحاجة.. فنِعْمَ ، وإلا فأنتم عندكم حَرْث ، ودراهمُ في أكياسكم ، وطعامٌ في منازلكم ، وأنتم تقولون : اللهمَّ ؛ ارزُقْنا !! قد رزقكم الله ، فكُلُوا وأَطْعِمُوا إخوانكم ، حتىٰ قالها ثلاثاً ، فسَلُوا الله حتىٰ يُعطيَكُم ، أنتَ عسىٰ تموتُ غداً وتُخلِّف هـٰذا على الأعداء وأنت تسألُهُ أن يرزقك زيادةً ، فقال علماءُ المدينة : نستغفرُ الله ، إنَّما أرَدْنا بالمسألة تعنُّتاً) .

(١) أي : ظهر لهم من فَحوىٰ هـٰذه الآية .

كلمةً قلتُها في صِبايَ ، جاءَتْني وَحْشةُ تلكَ الكلمةِ فمنعَتْني عن ذلكَ ، وأعجَبُ ممَّنْ يذكرُ اللهَ تعالىٰ وهوَ مُتَّصِفٌ بشيءٍ مِنْ صفاتِهِ !!(١)

فبصفاءِ التقوىٰ وكمالِ الزَّهادةِ يصيرُ العبدُ راسخاً في العلمِ .

قالَ الواسِطِيُّ : (الراسخونَ في العلمِ : همُ الذينَ رسخُوا بأرواحِهِم في غيبِ الغيبِ في سِرِّ السِّرِّ ، فعرَّفَهُم ما عرَّفَهُم ، وخاضوا في بحارِ العلمِ بالفهمِ لطلبِ الزياداتِ ، فانكشفَ لهُم مِنْ مذخورِ الخزائنِ تحتَ كلِّ حرفٍ مِنَ الكلامِ ؛ مِنَ الفهمِ وعجائبِ الخطابِ ، فنطقُوا بالحِكَمِ)(٢)

وقالَ بعضُهُمْ : (الراسخُ : مَنِ اطَّلعَ علىٰ مَحَلِّ المرادِ مِنَ الخِطابِ)(٣) .

وقالَ الخَرَّازُ : (همُ الذينَ كَمَلُوا في جميعِ العلومِ وعَرَفُوها ، واطَّلعُوا علىٰ هِمَمِ الخلائقِ كلِّهِم أجمعينَ)(٤)

وهٰذا القولُ مِنْ أبي سعيدٍ لا يَعْني بهِ : أنَّ الراسخَ في العلمِ ينبغي أنْ يقفَ علىٰ جُزْئيَّاتِ العلومِ ويَكمُلَ فيها ؛ فإنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ مِنَ الراسخينَ في العلمِ ووقفَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس : ٣١] ، وقالَ : ما الأَبُّ ؟ ثمَّ قالَ : إنْ هٰذا إلَّا تكلُّفٌ(٥) ، ونُقِلَ هٰذا

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٩٠) .

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٨٧) ، وفي (ز ، ح) : (من مذخور) بدل (من مذخور) ، ومذخور الخزائن : ما ذُخِرَ وخُبِّئَ فيها ممَّا بيَّنه بقوله : (من الفهم . . .) .

(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٨٧) .

(٤) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٨٧) .

(٥) رواه سعيد بن منصور في « سننه » (٤٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٠٨) .

الوقوفُ في معنى الأبِّ أنَّهُ كانَ مِنْ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ[1]

وإنَّما عَنَىٰ بذلكَ أبو سعيدٍ : ما يُفسِّرُ أوَّلُ كلامِهِ بآخرِهِ ؛ وهوَ قولُهُ : (اطَّلعُوا علىٰ هِمَمِ الخلائقِ كلِّهِم) ؛ لأنَّ المُتَّقيَ حقَّ التقوىٰ ، والزاهدَ حقَّ الزَّهادةِ في الدنيا . صفا باطنُهُ ، وانجلتْ مِرْآةُ قلبِهِ ، ووقعتْ لهُ مُحاذاةٌ بشيءٍ مِنَ اللَّوحِ المحفوظِ ، فأدركَ بصفاءِ الباطنِ أُمَّهاتِ العلومِ وأصولَها ، فيعلمُ مُنْتهىٰ أقدامِ العلماءِ في علومِهِم ، وفائدةَ كلِّ علمٍ ، والعلومُ الجُزْئيَّةُ مُتجزِّئةٌ في النفوسِ بالتعلُّمِ والممارسةِ ، فلا يُغنيهِ علمُهُ الكُلِّيُّ أنْ يُراجِعَ في الجُزْئيِّ أهلَهُ الذينَ هم أوعيتُهُ ، فنفوسُ هـٰؤلاءِ امتلأتْ مِنَ الجُزْئيِّ واشتغلتْ بهِ ، وانقطعتْ بالجُزْئيِّ عنِ الكُلِّيِّ

ونفوسُ العلماءِ الزاهدينَ بعدَ الأخذِ ممَّا لا بدَّ لهُم منهُ في أصلِ الدِّينِ وأساسِهِ مِنَ الشرعِ . أقبلُوا على اللهِ ، وانقطعُوا إليهِ ، وخَلَصتْ أرواحُهُم إلىٰ مقامِ القُربِ منهُ ، فأفاضتْ أرواحُهُم علىٰ قلوبِهِم أنواراً تهيَّأتْ بها قلوبُهُم لإدراكِ العلومِ

فأرواحُهُمُ ارتقتْ عن حدِّ إدراكِ العلومِ بعُكُوفِها على العالِمِ الأزليِّ ، وتجرَّدتْ عن وجودٍ يصلُحُ أنْ يكونَ وِعاءً للعلمِ ، وقلوبُهُم بنسبةِ وجهِها الذي يَلِي النفوسَ صارتْ أوعيةً وجوديَّةً ، تُناسِبُ وجودَ العِلْمِ بالنسبةِ الوجوديَّةِ ، فتألَّفتِ العلومَ وتألَّفَتْها العلومُ بمناسبةِ انفصالِ العلومِ باتِّصالِها باللوحِ المحفوظِ ، والمَعْنِيُّ بالانفصالِ : انتقاشُها في اللوحِ لا غيرُ ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٧٣١) ، وأبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص٣٧٥)

وانفصالُ القلوبِ عن مقامِ الأرواحِ ؛ لوجودِ انجذابِها إلى النفوسِ ، فصارَ بينَ المُنفصِلَينِ نسبةُ اشتراكٍ مُوجِبٍ للتآلُفِ ، فحصلتِ العلومُ لذلكَ ، وصارَ العالِمُ الربَّانيُّ راسخاً في العلمِ .

أَوْحى اللهُ تعالىٰ في بعضِ الكُتُبِ المُنْزَلةِ (يا بَني إسرائيلَ ؛ لا تقولُوا : العلمُ في السماءِ مَنْ ينزلُ بهِ ؟ ولا في تُخُومِ الأرضِ مَنْ يصعَدُ بهِ ؟[1] ، ولا مِنْ وراءِ البحارِ مَنْ يَعبُرُ يأتي بهِ ؟ العلمُ مَجْعولٌ في قلوبِكُم ، تأدَّبُوا بينَ يَدَيَّ بآدابِ الرُّوحانيِّينَ ، وتخلَّقُوا لي بأخلاقِ الصِّدِّيقينَ . . أُظْهِرِ العلمَ مِنْ قلوبِكُم حتىٰ يُغطِّيَكُم ويَغمُرَكُم)[2]

فالتأدُّبُ بآدابِ الرُّوحانيِّينَ : حَصْرُ النفوسِ عن تقاضي جِبِلَّاتِها ، وقمعُها بصريحِ العلمِ في كلِّ قولٍ وفعلٍ ، ولا يصحُّ ذلكَ إلَّا لمَنْ عَلِمَ وقَرُبَ ، وتطرَّقَ إلى الحضورِ بينَ يدَيِ اللهِ ، فيتحفَّظُ بالحقِّ للحقِّ .

(٩) ـ أخبرَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهرِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو منصورِ بنُ خَيْرُونَ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ الحسنُ بنُ عليٍّ الجَوْهَريُّ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو عمرَ محمَّدُ بنُ العبَّاسِ[3] ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ يحيى بنُ صاعدٍ ، قالَ أخبرَنا الحسينُ بنُ الحسنِ المَرْوَزِيُّ[4] ، قالَ : أخبرَنا عبدُ اللهِ بنُ المباركِ ،

---

(١) التُّخُوم : جمع (تَخْم) ؛ وهو منتهى الأرض .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٣٨٦)، والغزالي في « الإحياء » (١/ ٢٦٥).

(٣) هو ابن حيُّويَه البغدادي الخزَّاز ، الإمام المحدث المسند الثقة (ت ٣٨٢هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ٤٠٩) .

(٤) هو الإمام الحافظ الصادق أبو عبد الله السلمي المروزي (ت ٢٤٦هـ) صاحب =

قالَ : أخبرَنا الأَوزاعيُّ ، عن حسَّانَ بنِ عطيَّةَ ، قالَ : بلغَني أنَّ شدَّادَ بنَ أَوْسٍ رضيَ اللهُ عنهُ نزلَ مَنْزِلاً فقالَ ائتُونا بالسُّفْرةِ نَعبَثْ بها[١] ، فأُنكِرَ منهُ ذلكَ ، فقالَ : ما تكلَّمتُ بكلمةٍ منذُ أسلمتُ إلَّا وأنا أَخْطِمُها ثمَّ أَزُمُّها غيرَ هٰذهِ[٢] ، فلا تحفظُوها عليَّ[٣]

قالَ الشيخُ رضيَ اللهُ عنهُ : فمثلَ هٰذا يكونُ التأدُّبُ بآدابِ الرُّوحانيِّينَ

مكتوبٌ في الإنجيلِ : (لا تطلُبُوا علمَ ما لم تعلمُوا حتىٰ تعملُوا بما قد عَلِمْتُم)[٤]

وقد وَرَدَ في خبرٍ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ رُبَّمَا سَبَقَكُمْ بِٱلْعِلْمِ » ، قُلْنا يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ يسبقُنا بالعلمِ[٥] ؟ قالَ

= ابن المبارك ، وحدَّث عنه بشيء كثير . انظر « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ١٩٠) .

(١) السُّفْرة : طعام يُصنع للمسافر ، ثم استعملت للجلدة التي يُوضع فيها الطعام مجازاً .

(٢) الخَطْم في الأصل : ضرب أنف الدابة ، والزَّمُّ كذلك : تعليق الزِّمام عليها .

(٣) الزهد (٨٤٣) لابن المبارك ، ورواه أحمد (٤/ ١٢٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٧٧) ، ووصله ابن حبان (٩٣٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٧/ ٣٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٦٦) .

(٤) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٣٨٦) ، والإمام الغزالي في « الإحياء » (١/ ٢٣٧)

(٥) في (ح) : (يسوِّفكم . . . كيف يُسوِّفنا) بدل (سبقكم . . . كيف يسبقنا) ، وفي « الجامع لأخلاق الراوي » : (لَيَسبَعُكم . . . كيف يسبَعُنا) قال الزَّبيدي في « الإتحاف » (١/ ٣٧٦) : (ووجدتُ في نسخة « المغني » للحافظ العراقي التي قُرِئتْ عليه وعليها خطُّهُ : « ربَّما يسبعُكم » بالعين المهملة مكانَ القاف ، وعليه التصحيح ، ولم أجد له معنىً) ، وقال الغماري في « الغنية » (١/ ٦٧ـ ٦٨) : (تنبيه : المُتداوَلُ في كتب الصوفية ؛ كـ « القوت » و« الإحياء » و« العوارف » في هٰذا الحديث « سبقكم » بالقاف ، وهو تحريف ، والصواب ـ كما وقع بخط الحافظ العراقي في =

« يَقُولُ ٱطْلُبِ ٱلْعِلْمَ وَلَا تَعْمَلْ بِهِ حَتَّىٰ تَعْلَمَ ، فَلَا يَزَالُ فِي ٱلْعِلْمِ قَائِلاً وَلِلْعَمَلِ مُسَوِّفاً حَتَّىٰ يَمُوتَ وَمَا عَمِلَ »(١)

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ العِلْمُ بكثرةِ الروايةِ ، إنَّما العلمْ الخَشْيةُ)(٢)

وقالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ لا يَعْبأُ بذي علمٍ وروايةٍ ، إنَّما يعبأُ بذي فهمٍ ودرايةٍ)(٣)

فعلومُ الوِراثةِ مُستخرَجةٌ مِنْ علمِ الدِّراسةِ .

ومثالُ علومِ الدِّراسةِ : كاللَّبَنِ الخالصِ السائغِ للشاربينَ ، ومثالُ علومِ الوِراثةِ كالزُّبْدِ المُستخرَجِ منهُ ، فلو لم يكنْ لَبَنٌ لم يكنْ زُبْدٌ ، ولـٰكنَّ الزُّبْدَ هوَ الدُّهْنيَّةُ المطلوبةُ مِنَ اللَّبَنِ ، والمائيَّةُ في اللبنِ جسمٌ قامَ بهِ روحُ الدُّهنيَّةِ ، والمائيَّةُ بها القِوَامُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء ٣٠]

وقالَ تعالىٰ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ؛ أي : كانَ مَيْتاً

= « المغني » ـ : « سبعكم » بالعين المهملة ؛ أي يسرقكم بالعلم ويغويكم به ، ويختطفكم من ميدان العمل والإقبالِ عليه إلى الاشتغال بالعلم والانهماك فيه إلى الممات)

(١) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي » (٣٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (١/ ٣٧٦) ، و« غنية العارف » (١/ ٦٦ـ٦٧) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٨٦٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣١) .

(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٣٧٣) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٢٥٣) عن أبي محمد الجُريري ممَّا سمعه في منامه

بالكفرِ فأحييناهُ بالإسلامِ ؛ فالإحياءُ بالإسلامِ هوَ القِوَامُ الأوَّلُ والأصلُ الأوَّلُ .

وللإسلامِ علومُهُ ؛ وهيَ علومُ مَباني الإسلامِ ، والإسلامُ بعدَ الإيمانِ نظراً إلىٰ مُجرَّدِ التصديقِ ، ولـٰكنْ للإيمانِ فروعٌ بعدَ التحقُّقِ بالإسلامِ ، وهيَ مراتبُ ؛ كعلمِ اليقينِ ، وعينِ اليقينِ ، وحقِّ اليقينِ ، وقد يُقالُ التوحيدُ ، والمعرفةُ ، والمشاهدةُ ، وللإيمانِ في كلِّ فرعٍ مِنْ فروعِهِ علومٌ .

فعلومُ الإسلامِ علومُ اللسانِ ، وعلومُ الإيمانِ علومُ القلوبِ .

ثمَّ علومُ القلوبِ : لها وصفٌ خاصٌّ ، ووصفٌ عامٌّ :

فالوصفُ العامُّ علمُ اليقينِ ، وقد يُتوصَّلُ إليهِ بالنظرِ والاستدلالِ ، ويشتركُ فيهِ علماءُ الدنيا معَ علماءِ الآخرةِ .

ولهُ وصفٌ خاصٌّ يختصُّ بهِ علماءُ الآخرةِ ؛ وهيَ السَّكينةُ التي أُنزِلتْ في قلوبِ المؤمنينَ ليزدادُوا إيماناً معَ إيمانِهِم(١)

فعلىٰ هـٰذا : جميعُ الرُّتَبِ يشملُها اسمُ الإيمانِ بوصفِهِ الخاصِّ ، ولا يشملُها بوصفِهِ العامِّ ؛ فبالنظرِ إلى الوصفِ الخاصِّ : اليقينُ ومراتبُهُ مِنَ الإيمانِ ، وبوصفِهِ العامِّ : اليقينُ زيادةٌ على الإيمانِ ، والمشاهدةُ وصفٌ خاصٌّ في علم اليقينِ ؛ وهوَ عينُ اليقينِ ، وفي عينِ اليقينِ وصفٌ خاصٌّ ؛ وهوَ حقُّ اليقينِ ؛ فحقُّ اليقينِ إذاً فوقَ المشاهدةِ ، وحقُّ اليقينِ مَوْطِنُهُ

---

(١) قوله : (السَّكينة) ؛ أي : سكونُ النفس عن الميل إلىٰ شهوة ، واطمئنانُها بذكر الله تعالىٰ ، وقيل : مَلَكٌ يسكنُ قلبَ المؤمن . من هامش (ي) .

ومُستقَرُّهُ في الآخرةِ ، وفي الدنيا منهُ لَمْحٌ يسيرٌ لأهلِهِ ، وهوَ مِنْ أعزِّ ما يوجدُ مِنْ أقسامِ العلمِ باللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّهُ وِجْدانٌ .

فصارَ علمُ الصُّوفيَّةِ وزُهَّادِ العلماءِ نسبتُهُ إلىٰ علمِ علماءِ الدنيا الذينَ ظَفِرُوا باليقينِ بطريقِ النظرِ والاستدلالِ . كنسبةِ ما ذَكَرْناهُ مِنْ علمِ الوِراثةِ والدِّراسةِ ؛ علمُهُم بمثابةِ اللَّبَنِ ؛ لأنَّهُ اليقينُ والإيمانُ الذي هوَ الأساسُ ، وعلمُ الصُّوفيَّةِ باللهِ تعالىٰ مِنْ أَنْصِبةِ المشاهدةِ ، وعينُ اليقينِ وحقُّ اليقينِ كالزُّبْدِ المُستخرَجِ مِنَ اللَّبَنِ

ففضيلةُ الإنسانِ بفضيلةِ العلمِ ، ورَزَانةُ الأعمالِ علىٰ قَدْرِ الحظِّ مِنَ العلمِ ، وقد وَرَدَ في الخبرِ : « فَضْلُ ٱلْعَالِمِ عَلَى ٱلْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أُمَّتِي »(١)

والإشارةُ في هٰذا العلمِ ليسَ إلىٰ علمِ البيعِ والشراءِ ، والطلاقِ والعَتاقِ ، وإنَّما الإشارةُ إلى العلمِ باللهِ تعالىٰ وقوَّةِ اليقينِ ، وقد يكونُ العبدُ عالماً باللهِ تعالىٰ ذا يقينٍ كاملٍ وليسَ عندَهُ علمٌ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ، وقد كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أعلمَ مِنْ علماءِ التابعينَ بحقائقِ اليقينِ ودقائقِ المعرفةِ ، وقد كانَ علماءُ التابعينَ فيهم مَنْ هوَ أقوَمُ بعلمِ الفتوىٰ والأحكامِ مِنْ بعضِهِم .

---

(١) رواه الحارث كما في « بغية الباحث » (٣٩) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ورواه الترمذي (٢٦٨٥) عن سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه بلفظ : « فضلُ العالِمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدناكُم » ، وانظر « كشف الخفاء » (٢/ ٨٦) ، و« غنية العارف » (١/ ٦٩) .

رُوِيَ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما كانَ إذا سُئِلَ عن شيءٍ يقولُ (سَلُوا سعيدَ بنَ المُسيِّبِ)[(١)]

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (سَلُوا جابرَ بنَ عبدِ اللهِ ، لو نزلَ أهلُ البَصْرةِ علىٰ فُتياهُ لَوسِعَهُم)[(٢)]

وكانَ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ (سَلُوا مَوْلانا الحسنَ ؛ فإنَّهُ قد حَفِظَ ونَسِينا)[(٣)]

فكانُوا يَرُدُّونَ إليهِمُ الناسَ في علمِ الفتوىٰ والأحكامِ ، ويُعلِّمونَهُم حقائقَ اليقينِ ودقائقَ المعرفةِ ؛ وذلكَ لأنَّهُم كانُوا أَقْوَمَ بذلكَ مِنَ التابعينَ ، صادفَهُم طَرَاوةُ الوحيِ المُنزَلِ ، وغَمَرَهُم غزيرُ العلمِ المُجمَلِ والمُفصَّلِ[(٤)] ، فتلقَّىٰ منهُم طائفةٌ مُجملَهُ ومُفصَّلَهُ ، وطائفةٌ مُفصَّلَهُ دونَ مُجمَلِهِ ، وطائفةٌ مُجملَهُ دونَ مُفصَّلِهِ ، والمُجمَلُ أصلُ العلمِ ، ومُفصَّلُهُ[(٥)] : المُكتسَبُ بطهارةِ

---

(١) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٥/ ١٤٠) ، والفسوي في « المعرفة والتاريخ » (١/ ٤٧٥ـ٤٧٦) .

(٢) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٧/ ١٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٨٥) ، وأورده أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٤١٢) ، وفيها جميعها أنه قاله في حق جابر بن زيد أبي الشعثاء ، وهو الصواب ، كما هو الواضح من خلال السياق .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٤٥) ، وابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٧/ ١٧٦) ، والحسن : هو ابن يسار البصري التابعي الشهير رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه .

(٤) في النسخ ما عدا (ب ، هـ ، و ، ز) : (عزيز) بدل (غزير) ، وفي (و) (الوحي) بدل (العلم) .

(٥) في النسخ ما عدا (ح) : (ومطلقه) .

القلوبِ وقوةِ الغريزةِ وكمالِ الاستعدادِ ، وهوَ خاصٌّ بالخواصِّ (1)

قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقالَ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فلهٰذهِ السُّبُلِ سابلةٌ(2) ، ولهٰذهِ الدعواتِ قلوبٌ قابلةٌ ؛ فمنها نفوسٌ مُستعصِيةٌ جامدةٌ باقيةٌ علىٰ خُشُونةِ طبيعتِها وجِبِلَّتِها ، فليِّنَها بنارِ الإنذارِ والموعظةِ والحِذَارِ ، ومنها نفوسٌ زَكِيَّةٌ مِنْ تُرْبةٍ طيِّبةٍ موافقةٍ للقلوبِ قريبةٍ منها ؛ فمَنْ كانتْ نفسُهُ ظاهرةً علىٰ قلبِهِ . . دعاهُ بالموعظةِ ، ومَنْ كانَ قلبُهُ ظاهراً علىٰ نفسِهِ . . دعاهُ بالحكمةِ .

فالدعوةُ بالموعظةِ أجابَ بها الأبرارُ ؛ وهيَ الدعوةُ بذِكْرِ الجنةِ والنارِ .

والدعوةُ بالحكمةِ أجابَ بها المُقرَّبونَ ؛ وهيَ الدعوةُ بتلويحِ مِنَحِ القُرْبِ ، وصَفْوِ المعرفةِ ، وإشارةِ التوحيدِ ، فلمَّا وجدُوا التلويحاتِ الحَقَّانيَّةَ(3) ، والتعريفاتِ الربَّانيَّةَ . . أجابُوا بأرواحِهِم وقلوبِهِم ونفوسِهِم ، فصارتْ متابعةُ الأقوالِ إجابتَهُم نَفْساً ، ومتابعةُ الأعمالِ إجابتَهُم قلباً ، والتحقُّقُ بالأحوالِ إجابتَهُم رُوحاً ؛ فإجابةُ الصُّوفيَّةِ بالكلِّ ، وإجابةُ غيرِهِم بالبعضِ

---

(1) في بعض النسخ : (خاص لخصوص) بدل (وهو خاص بالخواص) ، وفي بعضها : (خاص لخواص) ، وفي بعضها : (خاص بخصوص)

(2) السابلة في الأصل : جمع (سابل) ؛ وهي الجماعة المختلفة في الطرقات في حوائجهم .

(3) وهي المنسوبة إلى الحقِّ جلَّ جلاله .

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (رَحِمَ اللهُ صُهَيباً ؛ لو لم يَخَفِ اللهَ لم يَعصِهِ)[1] ؛ يعني : لو كُتِبَ لهُ كتابُ الأمانِ مِنَ النارِ.. حَمَلَهُ صِرْفُ المعرفةِ بعظيمِ أمرِ اللهِ تعالىٰ على القيامِ بواجبِ حقِّ العبوديَّةِ[2] ؛ أداءً لما عَرَفَ مِنْ حقِّ العَظَمَةِ

فإجابةُ الصُّوفيَّةِ إلى الدعوةِ إجابةُ المُحِبِّ للمحبوبِ على اللَّذاذةِ وذهابِ العُسْرِ ، وإجابةُ غيرِهِم على المُكابَدةِ والمُجاهَدةِ ، وهٰذهِ الإجابةُ يظهرُ معَ الساعاتِ أثَرُها في القيامِ بحقائقِ الاستقامةِ والعبوديَّةِ

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ـ٧]

قالَ بعضُهُم : (﴿ أَعْطَىٰ ﴾ الدَّارَينِ ولم يرَ شيئاً ، ﴿ وَاتَّقَىٰ ﴾ اللغوَ والسيِّئاتِ ، ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أقامَ علىٰ طلبِ الزُّلْفىٰ)[3]

---

(١) أورده أبو عبيد في « غريب الحديث » (٤/ ٢٨٤) ، وقال الإمام السيوطي في « جامع الأحاديث » (٣١٥٥٨) : (أورده أبو عبيد في « الغريب » ولم يسق إسناده ، وقد ذكر المُتأخِّرون من الحُفَّاظ أنَّهُم لم يقفوا له علىٰ إسناد ، وإنَّما ذكرته هنا وإن كان ليس من شرط الكتاب ؛ لشهرته ، ولأُنبِّه علىٰ أنَّ أبا عبيد أورده ، وأبو عبيد في الصدر الأول قريب العهد ، أدركَ أتباعَ التابعين ؛ فالظاهر : أنَّهُ وصل إليه بإسناد ، ولم أذكر في هٰذا الكتاب شيئاً لم أقف علىٰ إسناده سوىٰ هٰذا فقط) ، ورویٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٧٧) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه مرفوعاً : « إنَّ سالماً شديدُ الحبِّ لله عزَّ وجلَّ ، لو كان لا يخافُ اللهَ عزَّ وجلَّ.. ما عصاه » ، وانظر « كشف الخفاء » (٢/ ٣٢٣) ، و« المقاصد الحسنة » (١٢٥٩) .

(٢) في (أ) : (وتعظيم) بدل (بعظيم) ، وفي (ي) : (بتعظيم) .

(٣) انظر « تفسير السلمي » (٢/ ٣٩٨)

والآيةُ قيلَ : نزلتْ في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ[1]

ويلوحُ في الآيةِ وجهٌ آخَرُ : ﴿ أَعْطَىٰ ﴾ بالمُواظَبةِ على الأعمالِ ، ﴿ وَٱتَّقَىٰ ﴾ الوَسْاوسَ والهواجسَ ، ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ لازمَ الباطنَ بتصفيةِ مواردِ الشهودِ ، عن مُزاحَمةِ لَوْثِ الوجودِ . . ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ نفتحُ عليهِ بابَ السُّهُولةِ في العملِ والعيشِ والأُنْسِ ، ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾ بالأعمال ، ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ امتلأَ بالأحوالِ ، ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ لم يكنْ في الملكوتِ بنُفُوذِ بصيرتِهِ بالجوَّالِ . . ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥-١٠] نسُدُّ عليهِ بابَ اليُسْرِ في الأعمالِ

قالَ بعضُهُم (إذا أرادَ اللهُ تعالىٰ بعبدٍ سوءاً . . سدَّ عليهِ بابَ العملِ ، وفتحَ عليهِ بابَ الكسلِ)

فلمَّا أجابتْ نفوسُ الصُّوفيَّةِ وقلوبُهُم وأرواحُهُمُ الدعوةَ ظاهراً وباطناً . . كانَ حظُّهُم مِنَ العلمِ أوفرَ ، ونصيبُهُم مِنَ المعرفةِ أكملَ ، فكانتْ أعمالُهُم أَزْكىٰ وأفضلَ .

جاءَ رجلٌ إلىٰ مُعاذٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : أَخْبِرْني عن رجلَينِ ؛ أحدُهُما مُجتهِدٌ في العبادةِ ، كثيرُ العملِ ، قليلُ الذنوبِ ، إلَّا أنَّهُ ضعيفُ اليقينِ ، يَعْتورُهُ الشكُّ ، قالَ مُعاذٌ : لَيُحْبِطَنَّ شكُّهُ أعمالَهُ .

قالَ فأَخْبِرْني عن رجلٍ قليلِ العملِ ، إلَّا أنَّهُ قويُّ اليقينِ ، وهوَ في ذلكَ كثيرُ الذنوبِ ، فسكتَ مُعاذٌ ، فقالَ الرجلُ والله ؛ لئنْ أَحْبَطَ شكُّ الأوَّلِ أعمالَ برِّهِ . . ليُحْبِطَنَّ يقينُ هـٰذا ذنوبَهُ كلَّها ، قالَ : فأخذَ مُعاذٌ بيدِهِ

---

(١) انظر « أسباب النزول » للواحدي (ص٤٥٦) ، و« الدر المنثور » (٨/٥٣٨) .

وقالَ : ما رأيتُ الذي هوَ أفقهُ مِنْ هـٰذا !![1]

وفي وصيَّةِ لقمانَ لابنِهِ : (يا بُنَيَّ ؛ لا يُستطاعُ العملُ إلَّا باليقينِ ، ولا يعملُ المرءُ إلَّا بقَدْرِ يقينِهِ ، ولا يُقصِّرُ عاملٌ حتىٰ يُقصِّرَ يقينُهُ)[2]

فكانَ اليقينُ أفضلَ العلمِ ؛ لأنَّهُ أَدْعىٰ إلى العملِ ، وما كانَ أَدْعىٰ إلى العملِ كانَ أَدْعىٰ إلى العُبُوديَّةِ ، وما كانَ أَدْعىٰ إلى العُبُوديَّةِ كانَ أَدْعىٰ إلى القيامِ بحقِّ الرُّبُوبيَّةِ ، وكمالُ الحظِّ مِنَ اليقينِ والعلمِ باللهِ . . للصُّوفيَّةِ والعلماءِ الزاهدينَ ، فبانَ بذلكَ فضلُهُم وفضلُ علمِهِم .

ثمَّ إنِّي أُصوِّرُ مسألةً يستبينُ بها للمُعتبِرِ فضلُ العالِمِ الزاهدِ العارفِ بصفاتِ نفسِهِ علىٰ غيرِهِ :

عالِمٌ دخلَ مَجْلِساً وقعدَ ، وميَّزَ لنفسِهِ مَجْلِساً يجلسُ فيهِ ، كما في نفسِهِ مِن اعتقادِهِ في نفسِهِ لمَحَلِّهِ وعلمِهِ ، فدخلَ داخلٌ مِنْ أبناءِ جنسِهِ وقعدَ فوقَهُ ، فانعصرَ العالمُ وأَظْلَمتْ عليهِ الدنيا ، ولو أمكنَهُ لَبَطَشَ بالداخلِ .

فهـٰذا عارضٌ عَرَضَ لهُ ، ومرضٌ اعتراهُ ، وهوَ لا يفطُنُ أنَّ هـٰذهِ عِلَّةٌ غامضةٌ ، ومرضٌ يحتاجُ إلى المُداواةِ ، ولا يتفكَّرُ في مَنْشَأِ هـٰذا المرضِ ، ولو تفكَّر أحدٌ لعَلِمَ أنَّ هـٰذهِ نفسٌ ثارتْ وظهرتْ بجَهْلِها[3] ، وجَهْلُها لوجودِ كِبْرِها ، وكِبْرُها برؤيةِ نفسِها خيراً مِنْ غيرِها ، فعلمُ الإنسانِ أنَّهُ أكبرُ مِنْ غيرِهِ كِبْرٌ ، وإظهارُهُ ذلكَ إلى الفعلِ تكبُّرٌ ، فحيثُ انعصرَ صارَ فعلاً بِهِ تكبُّرٌ

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٣٨٠)

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٣٨١)، والغزالي في « الإحياء » (١/ ٢٦٩).

(٣) في النسخ ما عدا (و) : (ولو علم) بدل (ولو تفكَّر أحد لعلم) .

فالصُّوفيُّ العالِمُ الزاهدُ لا يُميِّزُ نفسَهُ بشيءٍ دونَ المسلمينَ ، ولا يرىٰ نفسَهُ في مقامِ تمييزٍ يُميِّزُها بمَجْلِسٍ مخصوصٍ مُميَّزٍ ، ولو قُدِّرَ لهُ أنْ يُبتلىٰ بمثلِ هٰذهِ الواقعةِ ، وينعصرَ مِنْ تقدُّمِ غيرِهِ عليهِ وترفُّعِهِ . . يرى النفسَ وظهورَها ، ويرىٰ أنَّ هٰذا داءٌ ، وأنَّهُ إنِ استرسلَ فيهِ بالإصغاءِ إلى النفسِ وانعصارِها . . صارَ ذلكَ ذنبَ حالِهِ ، فيرفعُ في الحالِ داءَهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويشكو إليهِ ظهورَ نفسِهِ ، ويُحسِنُ الإنابةَ بقطعِ دابرِ ظهورِ النفسِ ، ويرفعُ القلبَ إلى اللهِ مُستغِيثاً مِنَ النفسِ ، ويشغلُهُ اشتغالُهُ برؤيةِ داءِ النفسِ في طلبِ دوائِها عنِ الفِكْرِ فيمَنْ قعدَ فوقَهُ ، وربَّما أقبلَ علىٰ مَنْ قعدَ فوقَهُ بمَزِيدِ التواضعِ والانكسارِ ؛ تكفيراً لذنبِهِ الموجودِ ، وتداوِياً لدائِهِ الحاصلِ .

فيتبيَّنُ بهٰذا : الفرقُ بينَ الرجلَينِ .

فإذا اعتبرَ المُعتبِرُ ، وتفقَّدَ حالَ نفسِهِ في هٰذا المقامِ . . يرىٰ نفسَهُ كنفوسِ عوامِّ الخَلْقِ وطالِبِي المناصبِ الدُّنيويَّةِ ، فأيُّ فرقٍ بينَهُ وبينَ غيرِهِ ممَّنْ لا علمَ لهُ ؟!

ولو أكثَرْنا تصويرَ هٰذهِ المسائلِ لِنُبرهِنَ فضيلةَ الزاهدينَ ، ونُقصانَ الراغبينَ . . لَأَوْرَثَ المَلَالَ ، وهٰذا مِنْ أوائلِ علومِ الصُّوفيَّةِ ، فما ظنُّكَ بنفائسِ علومِهِم ، وشرائفِ أحوالِهِم ؟! واللهُ المُوفِّقُ للصوابِ(١)

* * *

(١) في هامش (ب) : (بلغ قراءةً) ، وفيه : (بلغ السماع في الخامس للجماعة على الشيخ أمين الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام بن داود المقدسي) ، وفيه أيضاً : (بلغ في الثالث قراءةً على الشيخ جلال الدين ، كاتبه عبد السلام المقدسي الشافعي)

الباب الرابع
في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

(١٠) ـ أخبرَنا الشيخُ العالِمُ ضِياءُ الدِّينِ أبو أحمدَ عبدُ الوهَّابِ بنُ عليِّ بنِ عليٍّ(١) ، قالَ أخبرَنا أبو الفتحِ عبدُ الملكِ بنُ أبي القاسمِ الهَرَوِيُّ ، قالَ أخبرَنا أبو نَصْرٍ عبدُ العزيزِ بنُ محمَّدٍ التِّرْياقيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ عبدُ الجبَّارِ بنُ محمَّدٍ الجَرَّاحِيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو العبَّاسِ محمَّدُ بنُ أحمدَ المَحْبُوبيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو عيسىٰ محمَّدُ بنُ عيسى التِّرْمِذِيُّ ، قالَ : حدَّثَنا مسلمُ بنُ حاتِمٍ الأنصاريُّ(٢) ، قالَ : حدَّثَنا محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ الأنصاريُّ ، عن أبيهِ ، عن عليِّ بنِ زيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المُسيِّبِ قالَ : قالَ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَا بُنَيَّ ؛ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ . فَٱفْعَلْ » ، ثمَّ قالَ : « يَا بُنَيَّ ؛ وَذَٰلِكَ مِنْ سُنَّتِي ، وَمَنْ أَحْيَا

---

(١) هو المُحدِّث المقرئ الفقيه ابنُ سُكَينةَ البغدادي ، شيخُ العراق في الحديث والزهد وحُسْن السَّمْت ، وموافقةِ السنة والسلف (ت٦٠٧هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٢١/ ٥٠٢ـ٥٠٥) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/ ٣٢٤ـ٣٢٥) ، وهـٰذا الشيخ لم يذكره الحسن ابن أبي جَرُوْيَه الموصلي في « مشيخة السهروردي »

(٢) في (ح) : (مسلمة) بدل (مسلم) ، ولعل الصواب ما أثبت من باقي النسخ ، وهو أبو حاتم البصري (ت بعد ٢٥٠هـ) انظر « تهذيب الكمال » (٢٧/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧) ، و« الثقات » لابن حبان (١٥٧٥٨) .

سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيَانِي ، وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِي فِي ٱلْجَنَّةِ »[1]

قالَ الشيخُ رضيَ اللهُ عنهُ : وهـٰذا أتمُّ شرفٍ وأكملُ فضلٍ أخبرَ بهِ الرسولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حقِّ مَنْ أَحْيا سُنَّتَهُ .

فالصُّوفيَّةُ همُ الذينَ أحيَوْا هـٰذهِ السُّنَّةَ ، وطهارةُ الصدورِ مِنَ الغِلِّ والغِشِّ عِمادُ أمرِهِم ، وبذلكَ ظهرَ جوهرُهُم ، وبانَ فضلُهُم .

وإنَّما قَدَرُوا علىٰ إحياءِ هـٰذهِ السُّنَّةِ ، ونهضُوا بواجبِ حقِّها ؛ لزهدِهِم في الدنيا ، وتركِها علىٰ أربابِها وطُلَّابِها ؛ لأنَّ مَثارَ الغِلِّ والغِشِّ محبَّةُ الدنيا ، ومحبَّةُ الرِّفْعةِ والمنزلةِ عندَ الناسِ ، والصُّوفيَّةُ زَهِدُوا في ذلكَ كلِّهِ ، كما قالَ بعضُهُم : (طريقُنا هـٰذا لا يصلُحُ إلَّا لأقوامٍ كُنِسَتْ بأرواحِهِمُ المزابلُ)[2] ، فلمَّا سقطَ عن قلوبِهِم محبَّةُ الدنيا وحُبُّ الرِّفعةِ . . أصبحُوا وأمسَوْا وليسَ في قلوبِهِم غِشٌّ لأحدٍ .

فقولُ القائلِ (كُنِستْ بأرواحِهِم المزابلُ) إشارةٌ منهُ إلىٰ غايةِ التواضعِ ، وألَّا يرىٰ نفسَهُ تتميَّزُ علىٰ أحدٍ مِنَ المسلمينَ ؛ لحقارتِهِ عندَ نفسِهِ ، وعندَ هـٰذا يَنسَدُّ بابُ الغِلِّ والغِشِّ

وجَرَتْ هـٰذهِ الحكايةُ ، فقالَ بعضُ الفقراءِ مِنْ أصحابِنا : وقعَ لي أنَّ

---

(١) سنن الترمذي (٢٦٧٨) ، ولفظه : (. . . ومن أحيا سنتي فقد أحبَّني ، ومن أحبَّني كان معي في الجنة) من الإحباب ، والمثبت إحدىٰ نسخه ، كما في « تحفة الأحوذي » (٧/ ٣٧١) ، وكما هو في طبعة « جامع الأصول » (٧٣٢١) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٧٥ـ٧٦) .

(٢) أورده بنحوه القشيري في « رسالته » (ص٥٩١) ، وعزاه الشعراني في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٧٦) إلىٰ أبي بكر الزقاق رحمه الله تعالىٰ

معنىٰ (كُنِستْ بأرواحِهِمُ المزابلُ) أنَّ الإشارةَ بالمزابلِ إلى النفوسِ ؛ لأنَّها مَأْوىٰ كلِّ رِجْسٍ ونِجْسٍ كالمَزْبَلةِ[(١)] ، وكَنْسُها بنورِ الرُّوحِ الواصلِ إليها ؛ لأنَّ الصُّوفيَّةَ أرواحُهُم في مَحَالِّ القُرْبِ ، ونورُها يَسْري إلى النفوسِ ، وبوصولِ نورِ الروحِ إلى النفسِ تطمئنُّ النفسُ[(٢)] ، ويذهبُ عنها المذمومُ مِنَ الغِلِّ والغِشِّ والحِقْدِ والحَسَدِ ؛ فكأنَّها تُكْنَسُ بنورِ الروحِ .

وهٰذا المعنىٰ صحيحٌ وإنْ لم يُرِدِ القائلُ بقولِهِ ذلكَ .

قالَ اللهُ تعالىٰ في وصفِ أهلِ الجنةِ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] .

قالَ أبو حفصٍ : (كيفَ يبقى الغِلُّ في قلوبٍ ائتلفتْ باللهِ ، واتَّفقتْ علىٰ محبَّتِهِ ، واجتمعتْ علىٰ مودَّتِهِ ، وأَنِسَتْ بذكرِهِ ؟! إنَّ تلكَ القلوبَ قلوبٌ صافيةٌ مِنْ هواجسِ النفوسِ وظُلُماتِ الطبائعِ ، بل كُحِلَتْ بنورِ التوفيقِ ، فصارتْ إخواناً)[(٣)]

فالخَلْقُ حِجابُهُم عنِ القيامِ بإحياءِ سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولاً وفعلاً وحالاً . . صفاتُ نفوسِهِم ، فإذا تبدَّلتْ نُعُوتُ النفسِ . . ارتفعَ

(١) قوله : (رِجْس ونِجْس) قال الزَّبيدي في « التاج » (١٦/ ٥٣٤) : (قال أبو عبيد : زعم الفرَّاء أنَّهُم إذا بدؤوا بالنَّجَس ولم يذكروا الرِّجْس . . فتحوا النون والجيم ، وإذا بدؤوا بالرِّجْس ثم أتبعوه بالنجس . . كسروا النون ؛ فهم إذا قالوه مع الرِّجْس أتبعوه إيَّاه) ، والأكثرُ ـ كما في « التاج » أيضاً ـ : مجيءُ النَّجَس مقترناً ومتبوعاً بالرِّجْس ، وليس واجباً ، كما زعمه الحريري في « الدرة » .

(٢) في (ز ، ح) : (تطهر) بدل (تطمئن)

(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٣٥٥) ، وأبو حفص : هو عمر بن سَلْم النيسابوري الحدَّاد .

الحجابُ ، وصحَّتِ المتابعةُ[1] ، ووقعتِ الموافقةُ في كلِّ شيءٍ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ووجبتِ المحبَّةُ مِنَ اللهِ عندَ ذلكَ

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

جعلَ متابعةَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ آيةَ محبَّةِ العبدِ ربَّهُ ، وجعلَ جزاءَ العبدِ علىٰ حُسْنِ متابعةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمِ مَحبَّةَ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ ، فأوفرُ الناسِ حظّاً مِنْ متابعة الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . أوفرُهُم حظّاً مِنْ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ .

والصُّوفيَّةُ مِنْ بينِ طوائفِ الإسلامِ ظَفِرُوا بحُسْنِ المتابعةِ ؛ لأَنَّهُمُ اتَّبعُوا أقوالَهُ ، فقامُوا بما أمرَهُم ، ووقفُوا عمَّا نهاهُم ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] .

ثمَّ اتَّبعُوهُ في أعمالِهِ[2] ؛ مِنَ الجدِّ والاجتهادِ في العبادةِ ، والتهجُّدِ والنوافلِ مِنَ الصومِ والصلاةِ وغيرِ ذلكَ ، ورُزِقُوا ببركةِ المتابعةِ في الأقوالِ والأفعالِ التَّخلُّقَ بأخلاقِهِ ؛ مِنَ الحياءِ والحِلْمِ ، والصَّفْحِ والعَفْوِ ، والرَّأفةِ والشَّفَقَةِ ، والمُداراةِ والنصيحةِ والتواضعِ ، ورُزِقُوا قِسْطاً مِنْ أحوالِهِ ؛ مِنَ الخَشْيةِ والسَّكينةِ ، والهَيْبةِ والتعظيمِ ، والرِّضا والصبرِ ، والزهدِ والتوكُّلِ ، فاستوفَوْا جميعَ أقسامِ المتابعةِ ، وأَحْيَوْا سُنَّتَهُ بأَقْصى الغاياتِ .

قيلَ لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : مَنِ الصُّوفيَّةُ عندَكَ ؟ قالَ : القائمونَ بعقولِهِم

---

(١) زاد في (ج) : (ورُفعت المتابعة) ، ولعلها : (الممانعة) بدل (المتابعة) .
(٢) في (د ، هـ ، ح) : (أعمالهم) .

علىٰ هِمَمِهِم[1] ، والعاكفونَ عليها بقلوبِهِم ، والمُعتصِمونَ بسيِّدِهِم مِنْ شَرِّ نفوسِهِم . . همُ الصُّوفيَّةُ[2]

وهٰذا وصفٌ تامٌّ وصفَهُم بهِ ، فكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دائمَ الافتقارِ إلىٰ مَوْلاهُ ؛ حتىٰ يقولُ : « لَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ »[3] ، ويقولُ : « ٱكْلَأْنِي كَلَاءَةَ ٱلْوَلِيدِ »[4]

ومِنْ أَشْرفِ ما ظَفِرَ بهِ الصُّوفيُّ مِنْ متابعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : هٰذا الوصفُ ؛ وهوَ دوامُ الافتقارِ ودوامُ اللَّجَأِ[5] ، ولا يتحقَّقُ بهٰذا الوصفِ مِنْ صدقِ الافتقارِ إلَّا عبدٌ كُوشِفَ باطنُهُ بصفاءِ المعرفةِ ، وأَشْرقَ صدرُهُ بنورِ اليقينِ ، وخَلَصَ قلبُهُ إلىٰ بساطِ القُرْبِ ، وخلا سِرُّهُ بلَذاذةِ المُسامرةِ ، فبَقِيَتْ نفسُهُ بينَ هٰذهِ الأشياءِ كلِّها أسيرةً مأمورةً ، ومعَ ذلكَ كلِّهِ يراها مَأْوىٰ كلِّ شرٍّ ، وهيَ بمثابةِ النارِ لو بَقِيَتْ منها شرارةٌ أحرقتْ عالَماً ، وهيَ وشيكةُ الرجوعِ ، سريعةُ الانقلابِ والانفلاتِ

فاللهُ تعالىٰ بكمالِ لُطْفِهِ عَرَّفَها إلى الصُّوفيِّ ، وكَشَفَها لهُ علىٰ شيءٍ مِنْ

---

(١) في (ح) : (علىٰ فهم السنة) بدل (علىٰ هممهم) ، وفي « تهذيب الأسرار » : (علىٰ هومهم) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٥)

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٠) ، وابن حبان (٩٧٠) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٦٥١) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٥٠) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٥٥٢٧) ، والطبراني في « الدعاء » (١٤٤٦) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه فيها : « اللهمَّ ؛ واقيةً كواقيةِ الوليدِ » ، والوليد : المولود ؛ فعيل بمعنىٰ مفعول .

(٥) أي : الالتجاء ، وجاء كذلك في بعض النسخ ، وفي بعضها : (اللَّجَاء)

معنى ما كَشَفَها لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فهوَ دائمُ الاستغاثةِ إلى مَوْلاهُ مِنْ شرِّها ، فكأنَّها جُعِلتْ سَوْطاً للعبدِ ، تسوقُهُ لمعرفتِهِ بشرِّها معَ اللَّحَظات إلى جَنابِ الالتجاءِ وصدقِ الافتقارِ والدعاءِ ، فلا يخلو الصُّوفيُّ عن مُطالعتِها أَدْنى ساعةٍ ، كما لا يخلو عن ربِّه أَدْنى ساعةٍ ، ورَبْطُ معرفتِها بمعرفةِ اللهِ تعالى فيما وَرَدَ : (مَنْ عَرَفَ نفسَهُ فقدْ عرفَ ربَّهُ)[1] . . كرَبْطِ معرفةِ الليلِ بمعرفةِ النهارِ

ومَنِ الذي يقومُ بإحياءِ هٰذهِ السُّنَّةِ مِنْ سُنَنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غيرُ الصُّوفيِّ العالمِ باللهِ ، الزاهدِ في الدنيا ، المُتمسِّكِ مِنَ التقوىٰ بأوثقِ العُرا ؟ ومَنِ الذي يهتدي إلى فائدةِ هٰذهِ الحالِ غيرُ الصُّوفيِّ ؟

فدوامُ افتقارِهِ إلى ربِّهِ تمسُّكٌ بجَنابِ الحقِّ ولِياذٌ بهِ ، وفي هٰذا اللِّياذِ استغراقُ الروحِ ، واستتباعُهُ القلبَ إلى محلِّ الدعاءِ ، وفي انجذابِ القلبِ إلى محلِّ الدعاءِ بلسانِ الحالِ والكونِ فيهِ . . قَفْءُ النفسِ عن مُستقرِّها مِنَ الأقسامِ العاجلةِ[2] ، ونزولُها إليها في مدرجِ العلمِ ، محفوفةً بحراسةِ اللهِ تعالى ورعايتِهِ ، والنفسُ المُدبَّرةُ بهٰذا التدبيرِ مِنْ حُسْنِ تدبيرِ اللهِ تعالى . . مأمونةُ الغائلةِ مِنَ الغِلِّ والغِشِّ ، والحِقْدِ والحسدِ وسائرِ المذموماتِ

---

(١) قال الإمام السيوطي في « القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه » (٢/ ٢٣٨ـ ٢٣٩) ضمن « الحاوي للفتاوي » : (إنَّ هٰذا الحديثَ ليس بصحيح ، وقد سُئل عنه النوويُّ في « فتاويه » ، فقال : إنَّهُ ليس بثابت ، وقال ابنُ تيمية : موضوعٌ ، وقال الزركشيُّ في « الأحاديث المشتهرة » : ذكر ابنُ السَّمْعاني : أنَّهُ من كلام يحيى بن معاذ الرازي) ، وانظر « كشف الخفاء » (٢/ ٢٦٢) .

(٢) قَفْءُ النفس : قطعُها وقلعها ، وفي (ج ، د ، ز) : (قفو النفس) ، وفي (و) (قفول النفس) .

فهٰذا حالُ الصُّوفيِّ .

ويجمعُ جُمَلَ حالِ الصُّوفيَّةِ شيئانِ : هما وصفُ الصُّوفيَّةِ ، وإليهما الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورىٰ : ١٣]

فقومٌ مِنَ الصُّوفيَّةِ خُصُّوا بالاجتباءِ الصِّرْفِ ، وقومٌ منهُم خُصُّوا بالهدايةِ بشرطِ مُقدِّمةِ الإنابةِ ، فالاجتباءُ المحضُ غيرُ مُعلَّلٍ بكَسْبِ العبدِ ، وهٰذا حالُ المحبوبِ المرادِ ؛ يُبادِئُهُ الحقُّ بمِنَحِهِ ومواهبِهِ مِنْ غيرِ سابقةِ كَسْبٍ منهُ ، يسبقُ كُشُوفُهُ اجتهادَهُ .

وفي هٰذا أُخِذَ بطائفةٍ مِنَ الصُّوفيَّةِ رُفِعَتِ الحُجُبُ عن قلوبِهِم ، وبادَأَهُم سُطُوعُ نورِ اليقينِ(١) ، فأثارَ نازلُ الحالِ فيهِم شهوةَ الاجتهادِ والأعمالِ ، فأَقْبلوا على الأعمالِ باللَّذاذةِ ، والعيشُ فيها قُرَّةُ أعينِهِم ، فسَهَّلَ الكشفُ عليهِمُ الاجتهادَ ، كما سَهَّلَ علىٰ سَحَرَةِ فرعونَ لَذاذةُ النازلِ بهِم مِنْ صَفْوِ العِرْفانِ تحمُّلَ وعيدِ فرعونَ ؛ فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه : ٧٢] .

قالَ جعفرٌ الصادقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (وجدُوا رياحَ العنايةِ القديمةِ بهِم ، فالتجؤُوا إلى السُّجُودِ شُكْراً وقالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢١])(٢) .

---

(١) في (ز) : (ونَاداهم) بدل (وبادأهم) ، وفي (ي) : (وبادرهم)

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٣٥) ، وفي (د ، هـ ، ح) : (أرياح) بدل (رياح) ، وفي (ب) : (ريح) ، و(أرياحٌ) جمعٌ شاذٌّ ، والقياس فيه : (أرواح) ، وانظر « تاج العروس » (٦/ ٤١٣)

(١١) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ طاهرُ بنُ أبي الفضلِ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ خَلَفٍ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ : سمعتُ منصوراً يقولُ : سمعتُ أبا موسى الزَّقَّاقَ يقولُ : سمعتُ أبا سعيدٍ الخَرَّازَ يقولُ (أهلُ الخالِصَةِ الذينَ همُ المُرادونَ ، تولَّاهُمُ اللهُ[١] ، وأَكْمَلَ لهُمُ النِّعمةَ ، وهَيَّأَ لهُمُ الكرامةَ ، فأَسْقطَ عنهُم حركاتِ الطَّلَبِ ، فصارتْ حركاتُهُم في العملِ والخِدْمةِ على الأُلْفةِ والذِّكْرِ ، والتَّنعُّمِ بمُناجاتِهِ ، والانفرادِ بقُربِهِ) .

(١٢) ـ وبهـٰذا الإسنادِ إلىٰ أبي عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميِّ قالَ : سمعتُ عليَّ بنَ سعيدٍ يقولُ : سمعتُ أحمدَ بنَ الحُسينِ الحِمْصيَّ يقولُ[٢] : سمعتُ فاطمةَ المعروفةَ بجُوَيْرِيَةَ تلميذةَ أبي سعيدٍ تقولُ : سمعتُ الخَرَّازَ يقولُ : (المُرادُ محمولٌ في حالِهِ ، مُعانٌ علىٰ حركاتِهِ وسعيِهِ في الخِدْمةِ ، مَكْفِيٌّ مَصُونٌ عنِ الشواهِدِ والنواظِرِ) .

وهـٰذا الذي قالَهُ الشيخُ أبو سعيدٍ هوَ الذي اشتبهَ حقيقتُهُ علىٰ طائفةٍ مِنَ الصُّوفيَّةِ ، ولم يقولوا بالإكثارِ مِنَ النوافلِ ، وقد رأَوْا جَمْعاً مِنَ المشايخِ قَلَّتْ نوافلُهُم ، فظنُّوا أنَّ ذلكَ حالٌ مُستمِرٌّ على الإطلاقِ ، ولم يعلمُوا أنَّ الذينَ تركُوا النوافلَ واختصرُوا على الفرائضِ[٣] .. كانتْ بداياتُهُم بداياتِ المُريدينَ ، فلمَّا وصلُوا إلىٰ رَوْحِ الحالِ ، وأَدْرَكَتْهُمُ الكشوفُ بعدَ

---

(١) في (ج ، ي) : (الخاصة) بدل (الخالصة) .

(٢) في (د) : (الحسني) بدل (الحمصي) .

(٣) في (ح ، ي) : (واقتصروا) بدل (واختصروا) .

الاجتهادِ . امتلؤوا بالحالِ ، وطرحُوا نوافلَ الأعمالِ .

فأمَّا المُرادونَ تبقىٰ عليهِمُ الأعمالُ والنوافلُ ، وفيها قُرَّةُ أعينِهم ، وهٰذا أتمُّ وأكملُ مِنَ الأوَّلِ

فهٰذا الذي أَوْضَحْناهُ أحدُ طريقَيِ الصُّوفيّةِ ، فأمَّا الطريقُ الآخَرُ طريقُ المُريدِينَ ـ وهمُ الذينَ شُرِطَ لهُمُ الإنابةُ ؛ فقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورىٰ : ١٣] ـ . فطُولِبُوا أوَّلاً بالاجتهادِ قبلَ الكُشُوفِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

يُدرِّجُهُمُ اللهُ تعالىٰ في مدارجِ الكَسْبِ بأنواعِ الرِّياضاتِ والمُجاهداتِ ، وسَهَرِ الدَّياجِرِ وظَمَأِ الهواجِرِ ، تتأجَّجُ فيهِم نِيرانُ الطَّلَبِ(١) ، وتَحتجِبُ دونَهُم لوامعُ الأَرَبِ(٢) ، يتقلَّبُون في رَمْضاءِ الإرادةِ ، وينخلعُونَ عن كلِّ مألوفٍ وعادةٍ ، وهي الإنابةُ التي شَرَطَها الحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ لهُم ، وجَعَلَ الهدايةَ معذوقةً بها(٣)

وهٰذهِ الهدايةُ آنفاً هدايةٌ خاصّةٌ ؛ لأنَّها هدايةٌ إليهِ ، غيرُ الهدايةِ العامَّةِ التي هيَ التَّهَدِّي إلىٰ أمرِهِ ونهيِهِ بمُقتضى المعرفةِ الأَوَّلةِ(٤) ، وهٰذا حالُ

---

(١) تأجَّج : تتوقَّد ، ونيران الطلب : حرارة الشوق .

(٢) الأَرَب : الحاجة الدنيوية .

(٣) معذوقة ؛ أي : مربوطة ، كما في « الذوارف » (١/ق ٨٦) ، وفي « شرح المشكلات » (ق/ ٢٠) وهامش (و) : (أي : منوطة)

(٤) في (ح) : (الأولىٰ) ، وفي (ي) : (الأوَّلية) ، وفي نسخة على هامش (و) : (الأزلية) ، ودخول التاء على المثبت جائز ، كما نصَّ عليه الخفاجي في « شرح درة الغواص » (ص٤٦٦) ، وذكر أنَّ تخطئتَها خطأٌ

السالكِ المُحِبِّ المريدِ ، فكانتِ الإنابةُ عينَ الهدايةِ العامَّةِ ، فأثمرتْ هدايةً خاصَّةً ، واهتدَوْا إليهِ بعدَ أنِ اهتدَوْا له بالمُكابداتِ ، فخَلَصُوا مِنْ مَضيقِ العُسْرِ إلىٰ فضاءِ اليُسْرِ ، وبَرَزُوا مِنْ وَهَجِ الاجتهادِ إلىٰ رَوْحِ الأحوالِ ، فسَبَقَ اجتهادُهُم كشوفَهُم ، والمُرادونَ سَبَقَ كشوفُهُمُ اجتهادَهُم

(١٣) ـ أخبرَنا الشيخُ الثِّقةُ أبو الفتحِ محمَّدُ بنُ عبدِ الباقي ، قالَ أخبرَنا أبو الفضلِ حَمْدُ بنُ أحمدَ ، قالَ أخبرَنا الحافظُ أبو نُعيمٍ الأَصْفَهانيُّ ، قالَ أخبرَنا محمَّدُ بنُ الحسينِ بنِ موسىٰ ، قالَ سمعتُ محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ الرَّازيَّ يقولُ : سمعتُ أبا محمَّدٍ الجُرَيريَّ يقولُ : سمعتُ الجُنيدَ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (ما أَخَذْنا التصوُّفَ مِنَ القِيلِ والقالِ ، ولٰكن عنِ الجوعِ ، وتركِ الدُّنيا ، وقَطْعِ المألوفاتِ والمُستحسَناتِ)(١)

وقالَ أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ خَفيفٍ الشِّيرازيُّ رحمَهُ اللهُ : (الإرادةُ : سُمُوُّ القلبِ لطلبِ المُرادِ، وحقيقةُ الإرادةِ استدامةُ الجِدِّ وتركُ الراحةِ)(٢).

وقالَ أبو عثمانَ : (المُريدُ الذي ماتَ قلبُهُ عن كلِّ شيءٍ دونَ اللهِ ؛ فيريدُ اللهَ وحدَهُ ، ويريدُ قُربَهُ ويشتاقُ إليهِ ، حتىٰ تذهبَ شهواتُ الدنيا عن قلبِهِ ؛ لشِدَّةِ شوقِهِ إلىٰ ربِّهِ)

---

(١) حلية الأولياء (١٠/ ٢٧٧) ، ورواه السلمي في « طبقاته » (ص١٥٨) ، ومن طريقه القشيري في « رسالته » (ص١٥٤) ، وفيها وفي (ح) : (عن القيل والقال) ، وفي « شرح المشكلات » (ق/ ٢٩) : (هٰذا القول يدلُّ منه علىٰ أنَّهُ من المُحبِّين المريدين ، ويمكن أن يكون قولُهُ هٰذا لإرشاد الطالبين ؛ حتىٰ لا يغترُّوا برَوْح الحال ويتركوا الرياضيات والمجاهدات) .

(٢) رواه السلمي في « طبقاته » (ص٤٦٥) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص٢١٩) دون قوله (الإرادة . . . المراد) .

وقالَ أيضاً (عقوبةُ قلوبِ المُريدينَ أنْ يُحجَبُوا عن حقيقةِ المُعاملاتِ والمقاماتِ إلىٰ أَضْدادِها)

فهٰذانِ الطريقانِ يجمعانِ أحوالَ الصُّوفيّةِ[١] ، ودونَهُما طريقانِ آخَرانِ ليسا مِنْ طُرُقِ التحقُّقِ بالتصوُّفِ :

أحدُهُما : مجذوبٌ أبترُ علىٰ جَذْبتِهِ ما رُدَّ إلى الاجتهادِ بعدَ الكشفِ[٢]

والثاني : مجتهدٌ مُتعبِّدٌ ما خَلَصَ إلى الكشفِ بعدَ الاجتهادِ

والصُّوفيّةُ في طريقتِهما بابُ مَزيدِهِم وصِحَّةُ طريقِهِم بحُسنِ المُتابعةِ[٣] ، ومَنْ ظَنَّ أنْ يبلُغَ غَرَضاً أو يَظْفَرَ بمُرادٍ لا مِنْ طريقِ المُتابعةِ . . فهوَ مخذولٌ مغرورٌ

(١٤) ـ أخبرَنا شيخُنا أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ ، قالَ : أخبرَنا عصامُ الدينِ عمرُ بنُ أحمدَ الصفَّارُ ، قالَ أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ خَلَفٍ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمـٰنِ ، قالَ : سمعتُ نصرَ بنَ أبي نصرٍ يقولُ : سمعتُ قُسَيماً غلامَ الزَّقَّاقِ يقولُ : سمعتُ أبا سعيدِ السُّكَّريَّ يقولُ سمعتُ أبا سعيدِ الخَرَّازَ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (كلُّ باطنٍ يُخالِفُهُ ظاهرٌ . . فهوَ باطلٌ)[٤]

---

(١) قوله : (فهٰذان الطريقان) ؛ أي : طريق المحبوب المراد ، والمحب المريد . « شرح المشكلات » (ق/ ١٩)

(٢) قوله : (مجذوبٌ أبترُ علىٰ جذبته) ؛ أي : مقطوعٌ باقٍ علىٰ جذبته . « شرح المشكلات » (ق/ ١٩)

(٣) في بعض النسخ : (وللصوفية في طريقهم) بدل (والصوفية في طريقتهما) .

(٤) طبقات الصوفية (ص٢٣١) ، وفيه : (قاسماً) بدل (قسيماً) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص١٧٦) .

وكانَ الجُنيدُ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (علمُنا هـٰذا مُشبَّكٌ بحديثِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[1]

وقالَ بعضُهُم : (مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ علىٰ نفسِهِ قولاً وفعلاً . . نَطَقَ بالحكمةِ ، ومَنْ أَمَّرَ الهوىٰ علىٰ نفسِهِ قولاً وفعلاً . . نَطَقَ بالبدعةِ)[2]

حُكِيَ أنَّ أبا يزيدَ البِسْطاميَّ رحمَهُ اللهُ قالَ ذاتَ يومٍ لبعضِ أصحابِهِ : قُمْ بنا حتىٰ ننظرَ إلىٰ هـٰذا الرجلِ الذي قد شَهَرَ نفسَهُ بالولايةِ ، وكانَ الرجلُ في ناحيتِهِ مقصوداً مشهوراً بالزهدِ والعبادةِ ، قال : فمضَينا إليه ، فلمَّا خرجَ مِنْ بيتِهِ يقصدُ المسجدَ . . رمىٰ بُزَاقَهُ نحوَ القبلةِ ، فقالَ أبو يزيدَ : انصرفُوا ، فانصرفَ ولم يُسلِّمْ عليهِ ، وقالَ : هـٰذا رجلٌ ليسَ بمأمونٍ علىٰ أَدَبٍ مِنْ آدابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكيفَ يكونُ مأموناً علىٰ ما يدَّعيهِ مِنْ مقاماتِ الأولياءِ والصِّدِّيقينَ ؟ ![3]

وسُئِلَ خادمُ الشِّبْليِّ : ماذا رأيتَ منهُ عندَ موتِهِ ؟ فقالَ : لمَّا أُمسِكَ لسانُهُ ، وعَرِقَ جبينُهُ . . أشارَ إليَّ أنْ وضِّئْني للصلاةِ ، فوضَّأتُهُ ، فنَسِيتُ

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص١٥٥) ، وفيها وفي نسخة علىٰ هامش (و) : (مُشيَّد) بدل (مشبك) ، ورواه أيضاً بلفظ : (مذهبُنا هـٰذا مُقيَّد بالأصول ؛ الكتابِ والسنة) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٤٤) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣١٩ ، ٣٧٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص١٥٨) من كلام أبي عثمان الحيري النيسابوري رحمه الله تعالىٰ ، وزادوا بعده : (لأنَّ الله تعالىٰ يقول : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور : ٥٤]) .

(٣) رواه أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص١٤٤ـ١٤٥) ، ومن طريقه القشيري في « الرسالة » (ص١٢٨)

تخليلَ لِحْيتِهِ ، فقَبَضَ علىٰ يدي ، وأدخلَ أصابعي في لِحْيتِهِ يُخلِّلُها[1]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَريُّ : (كلُّ وجدٍ لا يشهدُ لهُ الكتابُ والسُّنَّةُ . . فباطلٌ)[2]

هـٰذا حالُ الصُّوفيَّةِ وطريقُهُم ، وكلُّ مَنْ يدَّعي حالاً علىٰ غيرِ هـٰذا الوجهِ . . فمُدَّعٍ مفتونٌ كذَّابٌ[3]

* * *

(١) رواه أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص١٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٤٨٣) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٣٢) ، والسائل : هو جعفر بن نُصَير الخُلْدي ، وعندما أُجيب بكىٰ وقال : (أيشٍ يتهيَّأُ أن يُقالَ في رجل لم يذهبْ عليه تخليلُ لحيته في الوضوء عند نزع روحه ، وإمساكِ لسانه ، وعَرَقِ جبينه ؟!)

(٢) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص١٤٦) ، والغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/ ٥٢١) .

(٣) في هامش (ب) : (بلغ سماعاً في السادس على الشيخ أمين الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي)

الباب الخامس

في ذكر ماهية التصوف

(١٥) ـ أخبرَنا الشيخُ أبو زُرْعةَ طاهرُ بنُ أبي الفضلِ في « كتابِهِ » ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ خَلَفٍ الشِّيرازيُّ إجازةً ، قالَ أخبرَنا الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ أخبرَنا إبراهيمُ بنُ أحمدَ بنِ محمَّدِ بنِ رجاءٍ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ اللهِ ابنُ أحمدَ البغداديُّ[1] ، قالَ حدَّثَنا عثمانُ بنُ معبدٍ ، قالَ : حدَّثَنا عمرُ بنُ راشدٍ ، عن مالكِ بنِ أنسٍ ، عن نافعٍ ، عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُمَا ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ ، وَمِفْتَاحُ ٱلْجَنَّةِ حُبُّ ٱلْمَسَاكِينِ ، وَٱلْفُقَرَاءُ ٱلصُّبَّرُ هُمْ جُلَسَاءُ ٱللهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[2]

الفقرُ كائنٌ في ماهيَّةِ التصوُّفِ ، وهوَ أساسُهُ ، وبهِ قِوامُهُ

---

(١) هو الإمام الحافظ الثقة أبو العباس عبد الله بن جعفر بن أحمد بن خُشَيش الصَّيْرفي البغدادي (ت ٣١٨هـ) ، وانظر « تاريخ بغداد » (٩/ ٤٣٤) .

(٢) قال الإمام العراقي في « المغني » (٣٩٤٨) : (رواه الدارقطني في « غرائب مالك » ، وأبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » ، وابن عدي في « الكامل » ، وابن حبَّان في « الضعفاء » من حديث ابن عمر) ، ورواه الخركوشي في « تهذيبه » (ص١٥٤) ، والقشيري في « رسالته » (ص٥٧١) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٨٧ ـ ٨٨)

قالَ رُوَيمٌ (التصوُّفُ مَبْنِيٌّ علىٰ ثلاثِ خصالٍ : التمسُّكُ بالفقرِ والافتقارِ ، والتحقُّقُ بالبذلِ والإيثارِ ، وتركُ التعرُّضِ والاختيارِ)[1]

وقالَ الجُنيدُ رحمَهُ اللهُ وقد سُئِلَ عنِ التصوُّفِ ؛ فقالَ : أنْ تكونَ معَ اللهِ بلا عَلاقةٍ[2]

وقالَ معروفٌ الكَرْخيُّ رحمَهُ اللهُ : (التصوُّفُ : الأخذُ بالحقائقِ ، واليأسُ ممَّا في أيدي الخلائقِ)[3]

فمَنْ لم يتحقَّقْ بالفقرِ لم يتحقَّقْ بالتصوُّفِ .

وسُئِلَ الشِّبْليُّ رحمَهُ اللهُ عن حقيقةِ الفقرِ ، فقالَ : ألَّا يستغنيَ بشيءٍ دونَ الحقِّ[4]

وقالَ أبو الحسينِ النُّوريُّ (نعتُ الفقيرِ : السكونُ عندَ العدمِ ، والبذلُ والإيثارُ عندَ الوجودِ)[5]

وقالَ بعضُهُم : (إنَّ الفقيرَ الصادقَ لَيحترزُ مِنَ الغِنَىٰ ؛ حَذَراً أنْ يدخلَ عليهِ الغِنىٰ فيُفسِدَ فقرَهُ ، كما أنَّ الغنيَّ يحترزُ مِنَ الفقرِ ؛ حَذَراً أنْ يدخلَ

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٥٨٦ـ ٥٨٧) .

(٢) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٨٦)

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٨٧) ، وزاد الخركوشي بعد (بالحقائق) : (والكلام في الدقائق) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٥٧) دون نسبة ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٥٧٨) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (١٢٥٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٧٨ ، ٥٨٢) .

عليهِ الفقرُ فيُفسِدَ عليهِ غِناهُ)[1]

(١٦) ـ وبالإسنادِ الذي سَبَقَ إلىٰ أبي عبدِ الرحمـٰنِ ، قالَ : سمعتُ أبا عبدِ اللهِ الرازيَّ يقولُ : سمعتُ مُظفَّراً القِرْمِيسِينيَّ يقولُ (الفقيرُ الذي لا يكونُ لهُ إلى اللهِ حاجةٌ)[2]

قالَ : وسمعتُهُ يقولُ : سألتُ أبا بكرٍ المصريَّ عنِ الفقيرِ ، فقالَ : الذي لا يملكُ ولا يُملَكُ[3]

قولُه : (لا يكونُ لهُ إلى اللهِ حاجةٌ) معناهُ : أنَّهُ مشغولٌ بوظائفِ عُبوديَّتِهِ ، تامُّ الثقةِ بربِّهِ ، عالمٌ بحُسْنِ كلاءتِهِ بهِ ، لا يُحوِجُهُ إلىٰ رفعِ الحاجةِ ؛ لعلمِهِ بعلمِ اللهِ بحالِهِ ، فيرى السؤالَ في البينِ زيادةً[4]

وأقوالُ المشايخِ تتنوَّعُ معانيها ؛ لأنَّهُم أشارُوا فيها إلىٰ أحوالٍ في أوقاتٍ دونَ أوقاتٍ ، ونحتاجُ في تفصيلِ بعضِها مِنَ البعضِ إلى الضوابطِ[5] ؛ فقد تُذكَرُ أشياءُ في معنى التصوُّفِ ذُكِرَ مثلُها في معنى الفقرِ ، وتُذكَرُ أشياءُ في

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص٥٧٤) ، ومن طريقه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٤١٤) عن ابن الكرنبي رحمه الله تعالىٰ ، وفي (ح ، ي) : (من الغني . . . من الفقير) بدل (من الغنىٰ . . . من الفقر) ، وعليهما يجوز أن يُقرأ (يدخل) بضم أوله رباعياً ، أو بفتحه ثلاثياً ، مفعولاً أو فاعلاً

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٥٧٩) .

(٣) أورده الكلاباذي في « التعرف » (ص١٢) دون نسبة ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٨١)

(٤) وقال الإمام القشيري مُعقِّباً أيضاً علىٰ كلام القرميسيني (وهـٰذا اللفظ فيه أدنىٰ غموضٍ لمن سمعه علىٰ وصف الغفلة عن مرمى القوم ، وإنما أشار قائلُهُ إلىٰ سقوط المطالبات ، وانتفاءِ الاختيار ، والرضا بما يُجري الحقُّ سبحانه)

(٥) في (ب ، د ، هـ) : (في تفضيل) بدل (في تفصيل) .

معنى الفقرِ ذُكِرَ مثلُها في معنى التصوُّفِ ، وتُذكَرُ أشياءُ في معنى الزهدِ ذُكِرَ مثلُها في معنى الفقرِ ، وحيثُ وَقَعَ الاشتباهُ فلا بدَّ مِنْ بيانٍ فاصلٍ ؛ فقد تشتبهُ الإشاراتُ في الفقرِ بمعاني الزهدِ تارةً ، وبمعاني التصوُّفِ تارةً ، ولا يتبيَّنُ للمُسترشِدِ بعضُها مِنَ البعضِ ؛ فنقولُ :

التصوُّفُ غيرُ الفقرِ ، والزهدُ غيرُ الفقرِ ، والتصوُّفُ غيرُ الزهدِ ؛ فالتصوُّفُ : اسمٌ جامعٌ لمعاني الفقرِ ومعاني الزهدِ ، معَ مزيدِ أوصافٍ وإضافاتٍ لا يكونُ بدونِها الرجلُ صُوفياً وإنْ كانَ زاهداً وفقيراً

قالَ أبو حفصٍ (التصوُّفُ كلُّهُ آدابٌ ؛ لكلِّ وقتٍ أدبٌ ، ولكلِّ حالٍ أدبٌ ، ولكلِّ مقامٍ أدبٌ ؛ فمَنْ لَزِمَ آدابَ الأوقاتِ بَلَغَ مبلغَ الرجالِ ، ومَنْ ضَيَّعَ الآدابَ فهوَ بعيدٌ مِنْ حيثُ يظنُّ القُربَ ، ومردودٌ مِنْ حيثُ يرجو القَبولَ)(١)

وقالَ أيضاً (حُسْنُ أدبِ الظاهرِ عُنوانُ حُسْنِ أدبِ الباطنِ ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ »)(٢)

(١٧) ـ أخبرَنا الشيخُ رَضِيُّ الدِّينِ أحمدُ بنُ إسماعيلَ إجازةً ، قالَ أخبرَنا الشيخُ أبو المُظفَّرِ عبدُ المنعمِ ، قالَ : أخبرَني والدي أبو القاسمِ القُشيريُّ ، قالَ : سمعتُ محمَّدَ بنَ أحمدَ بنِ يحيى الصُّوفيَّ يقولُ : سمعتُ

---

(١) رواه السلمي في « طبقاته » (ص١١٩) .

(٢) رواه السلمي في « الطبقات » (ص١٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٣٠) ، والحديث رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٣٠٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٨٥٤) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٣٣٠٨ ، ٣٣٠٩) من قول سعيد بن المُسيِّب رحمه الله تعالى

عبدَ اللهِ بنَ عليٍّ يقولُ : سُئِلَ أبو محمَّدٍ الجُرَيريُّ عنِ التصوُّفِ ، فقالَ : الدخولُ في كلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ ، والخروجُ عن كلِّ خُلُقٍ دَنِيٍّ[١]

فإذا عُرِفَ هذا المعنىٰ في التصوف ؛ مِنْ حصولِ الأخلاقِ وتبديلِها ، واعتُبِرَتْ حقيقتُهُ[٢] . . يُعلَمُ أنَّ التصوُّفَ فوقَ الزهدِ وفوقَ الفقرِ ، وقيلَ نهايةُ الفقرِ معَ شرفِهِ هوَ بدايةُ التصوُّفِ

وأهلُ الشامِ لا يُفرِّقونَ بينَ التصوُّفِ والفقرِ ؛ يقولونَ : قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، هـٰذا وصفُ الصُّوفيَّةِ ، واللهُ تعالىٰ سمَّاهُم فقراء[٣]

وسأُوضِّحُ معنىً يفترقُ الحالُ بهِ بينَ التصوُّفِ والفقرِ ؛ فأقولُ وباللهِ التوفيقُ

الفقيرُ في فقرِهِ مُتمسِّكٌ بهِ ، مُتحقِّقٌ بفضلِهِ ، يُؤثِرُهُ على الغِنىٰ ، مُتطلِّعٌ إلىٰ ما تحقَّقَ مِنَ العِوَضِ عندَ اللهِ ؛ حيثُ يقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي ٱلْجَنَّةَ قَبْلَ ٱلأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ ؛ وَهُوَ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ »[٤]

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٥٨٥) ، وأورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٥) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢) ، وبنحوه البيهقي في « الشعب » (٦٤٥٧) عن الجنيد رحمه الله تعالىٰ ، وعزاه الخركوشي في « التهذيب » (ص٣١) إلىٰ سمنون الخواص رحمه الله تعالىٰ .

(٢) في (ز ، ي) : (حقيقتها) ، ويعود الضمير على (الأخلاق) .

(٣) انظر « اللمع » (ص٤٦)

(٤) رواه الترمذي (٢٣٥٣) ، وابن ماجه (٤١٢٢) ، وأحمد (٢/ ٤٥١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي هـٰذا الحديث دليلٌ علىٰ أنَّ الفقير الصابر خير من الغني=

فكلَّما لاحظَ العِوَضَ الباقيَ . . أمسكَ عنِ الحاصلِ الفاني ، وعانقَ الفقرَ والقِلَّةَ ، وخَشِيَ زوالَ الفقرِ لفواتِ الفضيلةِ والعِوَضِ ، وهـٰذا عينُ الاعتلالِ في طريقِ الصُّوفيِّ ؛ لأنَّهُ تطلَّعَ إلى الأَعْواضِ وتَرَكَ لأجلِها[1]

والصُّوفيُّ يتركُ الأشياءَ لا للأعواضِ الموعودةِ ، بل للأحوالِ الموجودةِ ؛ فإنَّهُ ابنُ وقتِهِ .

وأيضاً : تركُ الفقيرِ الحظَّ العاجلَ واغتنامُهُ الفقرَ . . اختيارٌ منهُ وإرادةٌ ، والاختيارُ والإرادةُ عِلَّةٌ في حالِ الصُّوفيِّ ؛ لأنَّ الصُّوفيَّ صارَ قائماً في الأشياءِ بإرادةِ اللهِ تعالىٰ لا بإرادةِ نفسِهِ ، فلا يرىٰ فضيلةً في صورةِ فقرٍ ولا في صورة غِنىً ، وإنَّما يرى الفضيلةَ فيما يُوقِفُهُ الحقُّ فيهِ[2] ، ويُدخِلُهُ عليهِ ، ويعلمُ الإذنَ مِنَ اللهِ تعالىٰ في الدخولِ في الشيءِ .

وقد يدخلُ في صورةِ سَعَةٍ مُباينةٍ للفقرِ بإذنٍ مِنَ اللهِ ، ويرى الفضيلةَ حينئذٍ في السَّعَةِ ؛ لمكانِ إذنٍ مِنَ اللهِ فيهِ ، ولا يُفسَحُ في السَّعَةِ والدخولِ فيها للصادقينَ إلا بعدَ إحكامِهِم عِلْمَ الإذنِ ، وفي هـٰذا مَزَلَّةٌ للأقدامِ ، وبابُ دعوىٰ للمُدَّعينَ ، وما مِنْ حالٍ يتحقَّقُ بهِ صاحبُ الحالِ إلا وقد يحكيهِ راكبُ المُحالِ ؛ ليَهلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بيِّنةٍ ، ويحيا مَنْ حَيَّ عن بيِّنةٍ .

فإذا اتَّضحَ ذلكَ : ظَهَرَ الفرقُ بينَ الفقرِ والتصوُّفِ ، وعُلِمَ أنَّ الفقرَ

= الشاكر ، كما ذهب إليه الصوفية وأكثر العلماء ، وانظر « مرقاة المفاتيح » (٨/٣١٢٨ ، ٩/٣٦٨٨) ، و« غنية العارف » (١/٩١ـ٩٢)

(١) وتَرَكَ : أي : زَهِد . من هامش (و) ، والضبط في (هـ ، ي) : (لأنَّهُ تَطَلُّعٌ إلى الأعواضِ وتركٌ لأجلها) .

(٢) في (أ) : (يوافقه) بدل (يوقفه) ، وفي (ب ، و ، ز) : (يُوفِّقه) .

أساسُ التصوُّفِ وبهِ قِوامُهُ[1] ؛ علىٰ معنىٰ أنَّ الوصولَ إلىٰ رُتَبِ التصوُّفِ طريقُهُ الفقرُ ، لا علىٰ معنىٰ : أنَّهُ يلزمُ مِنْ وجودِ التصوُّفِ وجودُ الفقرِ

قالَ الجُنيدُ رحمَهُ اللهُ : (التصوُّفُ : هوَ أنْ يُميتَكَ الحقُّ عنكَ ، ويُحيِيَكَ بهِ)[2] ، وهٰذا المعنىٰ هوَ الذي ذَكَرْناهُ ؛ مِنْ كونِهِ قائماً في الأشياءِ باللهِ لا بنفسِهِ .

فالفقيرُ والزاهدُ مُكوَّنانِ في الأشياءِ بنفسِهِما[3] ، واقفانِ معَ إرادتِهِما ، مجتهدانِ مبلغَ علمِهِما ، والصُّوفيُّ مُتَّهِمٌ لنفسِهِ ، مُستقِلٌّ لعلمِهِ[4] ، غيرُ راكنٍ إلىٰ معلومِهِ ، قائمٌ بمُرادِ ربِّهِ لا بمُرادِ نفسِهِ

قالَ ذو النُّونِ المصريُّ رحمَهُ اللهُ : (الصُّوفيُّ مَنْ لا يُتعِبُهُ طَلَبٌ ، ولا يُزعِجُهُ سَلَبٌ)[5]

---

(١) في (ب ، ي) : (واعلم) بدل (وعُلم) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٥٨٥) ، ومن طريقه ابن العديم في « بغية الطلب » (٤٦١٧/١٠) .

(٣) جاء في بعض النسخ : (بنفوسهم) مجموعاً ، وكذلك في قوله الآتي : (إرادتهما) و(علمهما) ، والمختار صناعةً : (بنفوسهما) بالجمع ؛ كقوله تعالىٰ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم : ٤] . انظر « شرح التسهيل » (١٠٦/١) ، و« شرح الأشموني » (٤٠٣/٢ـ٤٠٤) .

(٤) أي : يعدُّهُ قليلاً

(٥) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٥ـ٤٦) ، وعزاه الكلاباذي في « التعرف » (ص١٠٥) إلىٰ أبي يعقوب السوسي ، وهو في « الرسالة القشيرية » (ص٥٨٩) دون نسبة ، وفيها : (سبب) بدل (سلب) ، والمعنىٰ : أنَّ مَحبَّة الصوفي لربه تَحمِلُهُ على الطلب والعمل له ، لا يزعجه سبب من الأسباب ؛ لعلمه بحسن اختيار الله له ذلك ، فعلمُهُ بذلك يريحه من الفكرة والانزعاج عند تغيُّر الأسباب . انظر « إحكام الدلالة » (٩/٤) .

وقالَ أيضاً : (الصُّوفيَّةُ آثَرُوا اللهَ تعالىٰ علىٰ كلِّ شيءٍ ، فآثَرَهُمُ اللهُ علىٰ كلِّ شيءٍ)(١)

فكانَ مِنْ إيثارِهِم أنْ آثَرُوا علمَ اللهِ علىٰ علمِ نفوسِهِم ، وإرادةَ اللهِ علىٰ إرادةِ نفوسِهِم .

قيلَ لبعضِهِم : مَنْ أَصحَبُ مِنَ الطوائفِ ؟ قالَ : الصُّوفيَّةَ ؛ فإنَّ للقبيحِ عندَهُم وجهاً مِنَ المعاذيرِ ، وليسَ للكثيرِ(٢) مِنَ العملِ عندَهُم وَقْعٌ يرفعونَكَ بهِ فتُعجِبَكَ نفسُكَ(٣)

وهٰذا عِلْمٌ لا يوجدُ عندَ الفقيرِ والزاهدِ ؛ لأنَّ الزاهدَ يستعظمُ التركَ ، ويستقبحُ الأخذَ ، وهٰكذا الفقيرُ ؛ وذلك لضِيقِ وِعائِهِم ، ووقوفِهِم علىٰ حدِّ علمِهِم .

وقالَ بعضُهُمْ : (الصُّوفيُّ : مَنْ إذا استقبلَهُ حالانِ حَسَنانِ أو خُلُقانِ حَسَنانِ . . يكونُ معَ الأحسنِ)(٤)

---

(١) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٨٩)

(٢) في النسخ ما عدا (أ ، د ، هـ) : (للكبير) .

(٣) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٦) ، وعزاه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص٥٨٧) إلىٰ حمدون القصَّار رحمه الله تعالىٰ ، وأورده بنحوه الكلاباذي في « التعرف » (ص٢٠) ، وعزاه إلىٰ سهل التستري رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٩٠) ، وعزاه الخركوشي في « التهذيب » (ص٣٣) إلىٰ أبي الحسين الورَّاق رحمه الله تعالىٰ .

والفقيرُ والزاهدُ لا يُميِّزانِ كلَّ التمييزِ بينَ الخُلُقَينِ الحَسَنَينِ ، بل يختارانِ مِنَ الأخلاقِ أيضاً ما هوَ الأَدْعىٰ إلى التركِ ، والخروجِ عن شواغلِ الدنيا ، حاكمانِ في ذلكَ بعلمِهِما ، والصُّوفيُّ هوَ المُستبِينُ الأحسنَ مِنْ عندِ اللهِ ؛ بصدقِ التجائِهِ ، وحُسْنِ إنابتِهِ ، وحَظِّ قُرْبِهِ ، ولطيفِ وُلُوجِهِ وخروجِهِ إلى اللهِ تعالى الكريمِ ؛ لعلمِهِ بربِّهِ ، وحظِّهِ مِنْ مُحادثتِهِ ومُكالمتِهِ

قالَ رُوَيمٌ : (التصوُّفُ : استرسالُ النفسِ معَ اللهِ تعالىٰ علىٰ ما يُرِيدُ)(١)

وقالَ عمرُو بنُ عثمانَ المكِّيُّ : (التصوُّفُ : أنْ يكونَ العبدُ في كلِّ وقتٍ بما هوَ أَوْلىٰ في الوقتِ)(٢)

وقالَ بعضُهُمْ : (التصوُّفُ أوَّلُهُ عِلْمٌ ، وأوسطُهُ عملٌ ، وآخرُهُ موهبةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ)(٣)

وقيلَ : التصوُّفُ : ذكرٌ معَ اجتماعٍ ، ووَجْدٌ معَ استماعٍ ، وعَمَلٌ معَ اتِّباعٍ(٤)

---

(١) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٨٦) .

(٢) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٥) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٣٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٨٦) ، وفي (ح) : (مشغولاً بما) بدل (بما) .

(٣) عزاه الخركوشي في « التهذيب » (ص٢٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٨٧) إلى الجنيد رحمه الله تعالىٰ .

(٤) عزاه الخركوشي في « التهذيب » (ص ٢٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٨٧) إلى الجنيد رحمه الله تعالىٰ

وقيلَ : التصوُّفُ : تركُ التصرُّفِ ، وبذلُ الرُّوحِ[1]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَريُّ : (الصُّوفيُّ : مَنْ صفا مِنَ الكَدَرِ ، وامتلأَ مِنَ الفِكَرِ ، وانقطعَ إلى اللهِ مِنَ البَشَرِ ، واستوىٰ عندَهُ الذَّهَبُ والمَدَرُ)[2]

وسُئِلَ بعضُهُم عنِ التصوُّفِ ، فقالَ : (تصفيةُ القلبِ عن مُوافقةِ البَرِيَّةِ ، ومُفارقةُ الأخلاقِ الطبيعيَّةِ ، وإخمادُ الصفاتِ البشريَّةِ ، ومُجانبةُ الدَّواعي النَّفْسانيَّةِ[3] ، ومُنازَلةُ الصفاتِ الرُّوحانيَّةِ ، والتعلُّقُ بالعلومِ الحقيقيَّةِ ، واتِّباعُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الشريعةِ الحَنيفيَّةِ)[4]

قالَ ذو النُّونِ المصريُّ : رأيتُ ببعضِ سواحلِ الشامِ امرأةً ، فقلتُ : مِنْ أينَ أقبلتِ ؟ قالتْ : مِنْ عندِ أقوامٍ تتجافىٰ جنوبُهُم عنِ المضاجعِ يَدْعُونَ ربَّهُم خوفاً وطمعاً ، فقلتُ : وأينَ تُريدينَ ؟ قالتْ : إلىٰ رجالٍ لا تُلهيهِم

---

(١) عزاه الراغب الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٤١٢) إلى الجنيد رحمه الله تعالىٰ ، وفي (ح) : (ترك التكلف) بدل (ترك التصرف) ، وفي (ز ، ي) : (ترك التصوف) ، وعُلِّق علىٰ هامش (ي) : (أي : كمال التصوف : تركه ، [وهـٰذا] إشارة إلىٰ جمع الجمع ، كما قال الشِّبْليُّ التصوُّفُ شركة ؛ لأنه صيانة القلب عن الغير ولا غير) .

(٢) أورده الكلاباذي في « التعرف » (ص١٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣) عن أبي بكر الشبلي رحمه الله تعالىٰ ، والمَدَر : جمع (مَدَرَة) ؛ وهو التراب المُتلبِّد .

(٣) في (أ ، ج ، هـ ، ز) : (الدعاوي) بدل (الدواعي) .

(٤) عزاه الكلاباذي في « التعرف » (ص١٩-٢٠) إلى الجنيد رحمه الله تعالىٰ ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٣٦) إلىٰ أبي عبد الله بن خفيف رحمه الله تعالىٰ .

تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللهِ ، فقلتُ : صِفِيهِم لي ، فأنشأتْ تقولُ[1] : [من البسيط]

قَوْمٌ هُمُومُهُمْ بِٱللهِ قَدْ عَلِقَتْ فَمَا لَهُمْ هِمَمٌ تَسْمُو إِلَىٰ أَحَدِ[2]
فَمَطْلَبُ ٱلْقَوْمِ مَوْلَاهُمْ وَسَيِّدُهُمْ يَا حُسْنَ مَطْلَبِهِمْ لِلْوَاحِدِ ٱلصَّمَدِ[3]
مَا إِنْ تُنَازِعُهُمْ دُنْيَا وَلَا شَرَفٌ مِنَ ٱلْمَطَاعِمِ وَٱللَّذَّاتِ وَٱلْوَلَدِ
وَلَا لِلُبْسِ ثِيَابٍ فَائِقٍ أَنِقٍ وَلَا لِرَوْحِ سُرُورٍ حَلَّ فِي بَلَدِ
إِلَّا مُسَارَعَةً فِي إِثْرِ مَنْزِلَةٍ قَدْ قَارَبَ ٱلْخَطْوَ فِيهَا بَاعِدُ ٱلْأَبَدِ
فَهُمْ رَهَائِنُ غُدْرَانٍ وَأَوْدِيَةٍ وَفِي ٱلشَّوَامِخِ تَلْقَاهُمْ مَعَ ٱلْعَدَدِ[4]

وقالَ الجُنيدُ أيضاً رحمَهُ اللهُ : (الصُّوفيُّ كالأرضِ ؛ يُطرَحُ عليها كلُّ قبيحٍ ، ولا يخرجُ منها إلَّا كلُّ مَليحٍ)[5]

وقالَ : (هوَ كالأرضِ ؛ يَطَؤُها البَرُّ والفاجرُ ، وكالسَّحابِ ؛ يُظِلُّ كلَّ شيءٍ ، وكالقَطْرِ يَسقي كلَّ شيءٍ)[6]

وأقوالُ المشايخِ في ماهيَّةِ التصوُّفِ تزيدُ علىٰ ألفِ قولٍ ، ويطولُ

---

(١) في (ج ، د) : (فأنشدت) بدل (فأنشأت تقول)
(٢) في (د) : (نفوسهم) بدل (همومهم) ، وعلىٰ هامشها نسخة كالمثبت
(٣) في (د) : (الأحد) ، وعلىٰ هامشها نسخة كالمثبت .
(٤) أورده الكلاباذي في « التعرف » (ص٢١) ، وقال في « شرح المشكلات » (ق/ ٢٢) : (وفي جواب المرأة لذي النون نكتةٌ لطيفة ؛ وهي إنَّما أجابتْهُ بأوصافهم وبآية من القرآن ؛ حتىٰ لا يكونَ الاشتغالُ في الجواب بغير ذكر الله تعالىٰ) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٧) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٨٧) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٨٧) .

نقلُها[1] ، ونذكرُ ضابطاً يجمعُ جُمَلَ معانيها ؛ فإنَّ الألفاظَ وإنِ اختلفتْ متقاربةُ المعاني ؛ فنقولُ

الصُّوفيُّ هوَ الذي يكونُ دائمَ التصفيةِ ، لا يزالُ يُصفِّي الأوقاتَ عن شَوبِ الأكدارِ[2] ؛ بتصفيةِ القلبِ عن شوبِ النَّفْسِ ، ويُعِينُهُ علىٰ هٰذهِ التَّصفيةِ دوامُ افتقارِهِ إلىٰ مَوْلاهُ ؛ فبدوامِ الافتقارِ يتفطَّنُ للكَدَرِ ، وكلَّما تحرَّكَتِ النَّفْسُ وظهرتْ بصفةٍ مِنْ صفاتِها . . أدركَها ببصيرتِهِ النافذةِ ، وفرَّ منها إلىٰ ربِّهِ

فبدوامِ تصفيتِهِ جمعيَّتُهُ ، وبحركةِ نَفْسِهِ تفرقتُهُ وكَدَرُهُ ، فهوَ قائمٌ بربِّهِ علىٰ قلبِهِ ، وقائمٌ بقلبِهِ علىٰ نفسِهِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٨] ، وهٰذهِ القَوَّاميَّةُ للهِ على النفسِ هوَ التحقُّقُ بحقيقةِ التصوُّفِ .

قالَ بعضُهُمْ : (التصوُّفُ كلُّهُ اضطرابٌ ، وإذا وَقَعَ السُّكونُ فلا تصوُّفَ)[3]

والسرُّ فيهِ أنَّ الرُّوحَ مجذوبةٌ إلى الحَضْرةِ الإلٰهيَّةِ ؛ يعني أنَّ روحَ

---

(١) وقد ألَّف الإمام المُتفنِّن أبو منصور البغدادي التميمي كتاباً في ذلك ؛ قال الإمام ابن الصلاح في « طبقات الفقهاء الشافعية » (٢/ ٥٥٤) (ورأيت له كتاباً في معنىٰ لفظتي « التصوُّف » و« الصوفي » ، جمع فيه من أقوال الصوفيَّة زُهاءَ ألفِ قولٍ مُرتَّبَة علىٰ حروف المعجم) ، وقد أوصلها بعضهم إلىٰ ألفي قول .

(٢) في نسخة علىٰ هامش (و) : (عن شوائب الأكوان) .

(٣) عزاه السلمي في « الطبقات » (ص ٤٧٤) ، وابن خميس في « مناقب الأبرار » (٢/ ٨٣٨) ، وابن الجزري في « المختار في مناقب الأخيار » (١/ ٥٠٠) إلىٰ أبي بكر الطَّمَسْتاني رحمه الله تعالىٰ .

الصُّوفيِّ مُتطلِّعةٌ مُنجذِبةٌ إلىٰ مواطنِ القُرْبِ ، وللنفسِ بوضعِها رُسُوبٌ إلىٰ عالمِها ، وانقلابٌ علىٰ عَقِبِها ، ولا بدَّ للصُّوفيِّ مِنْ دوامِ الحركةِ ؛ بدوامِ الافتقارِ ، ودوامِ الفرارِ ، وحُسْنِ التَّفقُّدِ لمواقعِ إصاباتِ النفسِ[1]

ومَنْ وَقَفَ علىٰ هـٰذا المعنىٰ يجدُ في معنى الصُّوفيِّ جميعَ المُتفرِّقِ في الإشاراتِ[2]

* * *

(١) في (ج) ونسخة علىٰ هامش (أ) : (إضافات) بدل (إصابات) .

(٢) في هامش (ب) : (بلغ السماع للجماعة في السابع على الشيخ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام بن داود المقدسي) ، وفيه أيضاً : (بلغ قراءةً في الرابع علىٰ شيخنا الحافظ « . . . » ، كاتبه عبد السلام المقدسي) .

الباب السادس
في ذكر تسميتهم بهذا الاسم

(١٨) ـ أخبرَنا الشيخُ أبو زُرْعةَ طاهرُ بنُ محمَّدِ بنِ طاهرٍ ، قالَ : أخبرَني والدي ، قالَ أخبرَنا أبو عليٍّ الشافعيُّ بمكَّةَ حرسَها اللهُ ، قالَ : أخبرَنا أحمدُ بنُ إبراهيمَ ، قالَ : أخبرَنا أبو جعفرٍ محمَّدُ بنُ إبراهيمَ ، قالَ أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ المَخْزُوميُّ ، قالَ : حدَّثَنا سُفْيانُ ، عن مسلمٍ : أنَّهُ سمعَ أنسَ بنَ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُجيبُ دعوةَ العبدِ ، ويركبُ الحمارَ ، ويَلبَسُ الصُّوفَ)(١)

فمِنْ هٰذا الوجهِ ذهبَ قومٌ : إلىٰ أنَّهُم سُمُّوا صُوفيَّةً ؛ نسبةً لهُم إلىٰ ظاهرِ اللِّبْسةِ ؛ لأنَّهُمُ اختارُوا لُبْسَ الصُّوفِ ؛ لكونِهِ أَرْفقَ ، ولكونِهِ كانَ لباسَ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ؛ رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ

---

(١) صفوة التصوف (١٨٠) ، ورواه الترمذي (١٠١٧) ، وابن ماجه (٤١٧٨) ، وليس فيه ذكر الصوف ، ورواه الحاكم (١/ ٦١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/ ٦٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٠) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلفظ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يركبُ الحمارَ ، ويَلبَسُ الصُّوفَ ، ويعتقلُ الشاةَ ، ويأتي مُراعاةَ الضيفِ) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٩٧)

« مَرَّ بِٱلصَّخْرَةِ مِنَ ٱلرَّوْحَاءِ سَبْعُونَ نَبِيّاً حُفَاةً عَلَيْهِمُ ٱلْعَبَاءُ ، يَؤُمُّونَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ »(١)

وقيلَ : إنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ كانَ يَلبَسُ الصُّوفَ والشَّعَرَ ، ويأكلُ مِنَ الشجرِ ، ويَبِيتُ حيثُ أمسىٰ(٢)

وقالَ الحسنُ البَصْريُّ رحمَهُ اللهُ : (لقد أدركتُ سبعينَ بدرياً كانَ لباسُهُمُ الصُّوفَ)(٣)

ووصفَهُم أبو هريرةَ وفَضالةُ بنُ عُبيدٍ ؛ فقالا : (كانُوا يَخِرُّونَ مِنَ الجوعِ ؛ حتىٰ يَحسَبُهُمُ الأعرابُ مجانينَ ، وكانَ لباسُهُمُ الصُّوفَ ؛ حتىٰ إنَّ بعضَهُم كانَ يَعرَقُ في ثوبِهِ ، فيُوجدُ منهُ رائحةُ الضَّأْنِ إذا أصابَهُ الغيثُ)(٤)

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « المسند » (٤٢٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٥٩ـ٢٦٠) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٩٨)

(٢) أورده بلفظه الكلاباذي في « التعرف » (ص١٤) عن الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٧٣) عن عبيد بن عمير رحمه الله تعالىٰ .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٣٤)، وأورده الكلاباذي في « التعرف » (ص١٤).

(٤) أورده بلفظه الكلاباذي في « التعرف » (ص١٣) ، ورواه بنحوه مختصراً الترمذي (٢٣٦٨) ، وأحمد (٦/ ١٨) عن سيدنا فضالة رضي الله عنه ، وليس فيهما ذكر الصوف ، وروى الحاكم (٤/ ١٨٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٤١٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال ـ واللفظ للبيهقي ـ : (يا بُنَيَّ ؛ لو شهدْتَنا ونحن مع نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم إذا أصابتنا السماء . . لحسبتَ ريحَنا ريحَ الضأن من لباسنا الصوفَ) ، ورواه الترمذي (٢٤٧٩) أيضاً عن سيدنا أبي موسىٰ رضي الله عنه دون ذكر الصوف ، وقال بعده (ومعنىٰ هـٰذا الحديث : أنه كان ثيابُهُم الصوفَ ، فإذا أصابهم المطر يجيء من ثيابهم ريحُ الضأن) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٩٨ـ٩٩) .

وقالَ بعضُهُم إنَّهُ لَيُؤذِيني ريحُ هٰؤلاءِ ، أَمَا تُؤذِيكَ ريحُهُم ؟ يُخاطِبُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ[1]

وكأنَّ اختيارَهُم للُبْسِ الصُّوفِ ؛ لتركِهِم زينةَ الدنيا ، وقناعتِهِم بسَدِّ الجَوْعةِ وسَتْرِ العورةِ ، واستغراقِهِم في أمرِ الآخرةِ ، فلم يتفرَّغُوا لمَلاذِّ النفوسِ وراحاتِها ؛ لشدَّةِ تحقيقِ إيمانِهِم ، وشُغْلِهِم بخدمةِ مَوْلاهُم[2] ، وانصرافِ هَمِّهِم إلىٰ أمرِ الآخرةِ .

وهٰذا الاختيارُ يُلائِمُ ويُناسِبُ مِنْ حيثُ الاشتقاقُ ؛ لأنَّه يُقالُ : تَصَوَّفَ : إذا لَبِسَ الصُّوفَ ، كما يُقالُ : تَقَمَّصَ : إذا لَبِسَ القميصَ

ولمَّا كانَ حالُهُم بينَ سَيْرٍ وطَيْرٍ ؛ لتقلُّبِهِم في الأحوالِ ، وارتقائِهِم مِنْ عالٍ إلىٰ أَعْلىٰ منهُ ، لا يُقيِّدُهُم وصفٌ ، ولا يَحبِسُهُم نعتٌ ، وأبوابُ المزيدِ عِلْماً وحالاً عليهِم مفتوحةٌ ، بواطنُهُم مَعدِنُ الحقائقِ ، ومجمعُ العلومِ ؛ فلمَّا تعذَّرَ تقيُّدُهُم بحالٍ ؛ لتنوُّعِ وُجْدانِهِم ، وتَجَنُّسِ مَزيدِهِم . . نُسِبُوا إلىٰ ظاهرِ اللِّبْسةِ[3] ، فكانَ ذلكَ أَبْيَنَ في الإشارةِ إليهِم ، وأَدْعىٰ إلىٰ حَصْرِ وصفِهِم ؛ لأنَّ لُبْسَ الصُّوفِ كانَ غالباً على المُتقدِّمينَ مِنْ سَلَفِهِم ، وأيضاً :

---

(١) أورده الكلاباذي في « التعرف » (ص١٣) ، والبغوي في « تفسيره » (٥/١٦٦) ، وفيهما أنَّ القائل هو عُيينة بن حصن الفزاري أحد المؤلفة قلوبهم .

(٢) قوله : (تحقيق) كذا في (أ ، ز) ، وفي نسخة علىٰ هامش (أ) : (تحقق) بدل (تحقيق) ، والعبارة في باقي النسخ : (لشدة شغلهم بخدمة مولاهم) بدل (لشدة تحقيق . . .) .

(٣) قال في « شرح المشكلات » (ق/ ٢٢) : (قوله : « نُسبوا إلىٰ ظاهر اللِّبْسة » جوابُ « فلمَّا تعذَّر تقيدهم بحال » ، وهو مع جوابه جوابٌ لقوله : « ولمَّا كان حالُهُم بين سير وطير ») .

لأنَّ حالَهُم حالُ المُقرَّبينَ ، كما سَبَقَ ذكرُهُ[1]

ولمكانِ أنَّ الاعتزاءَ إلى القُرْبِ[2] ـ وعِظَمُ الإشارةِ إلىٰ قُرْبِ اللهِ تعالىٰ أمرٌ صَلِفٌ يَعِزُّ كشفُهُ والإشارةُ إليهِ[3] ـ . وقعتِ الإشارةُ إلىٰ زِيِّهِم ؛ سَتْراً لحالِهِم ، وغَيْرةً علىٰ عزيزِ مقامِهِم أنْ تكثرَ الإشارةُ إليهِ وتتداولَهُ الألسنةُ ، فكانَ هـٰذا أقربَ إلى الأدبِ ، والأدبُ في الظاهرِ والباطنِ ، والقولِ والفعلِ . . عِمادُ أمرِ الصُّوفيَّةِ .

وفيهِ معنىً آخَرُ ؛ وهوَ أنَّ نسبتَهُم إلى اللِّبْسةِ تُنبِئُ عن تقلُّلِهِم مِنَ الدنيا ، وزُهْدِهِم فيما تدعو النفسُ إليهِ بالهوىٰ مِنَ الملبوسِ الناعمِ ؛ حتىٰ إنَّ المُبتدِئَ المريدَ الذي يُؤْثِرُ طريقَهُم ، ويُحِبُّ الدخولَ في أمرِهِم . . يُوطِّنُ نفسَهُ على التقشُّفِ والتقلُّلِ ، ويعلمُ أنَّ المأكولَ أيضاً مِنْ جنسِ الملبوسِ ، فيدخلُ في طريقِهِم علىٰ بصيرةٍ ، وهـٰذا أمرٌ مفهومٌ معلومٌ عندَ المُبتدِئِ ، والإشارةُ إلىٰ شيءٍ مِنْ حالِهِم وتسميتُهُم بذلكَ . . أبعدُ مِنْ فهمِ أربابِ البداياتِ ، فكانَ تسميتُهُم بهـٰذا أنفعَ وأَوْلىٰ .

وأيضاً : غيرُ هـٰذا المعنىٰ ـ ممَّا يُقالُ : إنَّهُم سُمُّوا صُوفيَّةً لذلكَ ـ يتضمَّنُ دَعْوىٰ ، وإذا قيلَ : سُمُّوا صوفيَّةً للُبْسِهِمُ الصوفَ . . كانَ أَبْعدَ مِنَ الدَّعْوىٰ ، وكلُّ ما كانَ أبعدَ مِنَ الدَّعْوىٰ كانَ أَلْيقَ بحالِهِم .

وأيضاً : لأنَّ لُبْسَ الصُّوفِ حكمٌ ظاهرٌ على الظاهرِ مِنْ أمرِهِم ، ونسبتَهُم

---

(١) انظر (١/ ١٧٧) .

(٢) في (ي) : (ولمَّا كان به الاعتزاء إلى القرب) ، ونحوه في (ح) .

(٣) صَلِفٌ ؛ أي : ثقيل وصعب ، وفي نسخة علىٰ هامش (أ ، ج ، ز) : (صلب) بدل (صلف) ، وفي (ح) : (صعب)

إلىٰ أمرٍ آخَرَ مِنْ حالٍ أو مقامٍ أمرٌ باطنٌ ، والحكمُ بالظاهرِ أَوْفقُ وأَوْلىٰ ؛ فالقولُ بأنَّهُم سُمُّوا صوفيَّةً للُبْسِهِمُ الصوفَ . . أَلْيَقُ وأَقْرَبُ إلى التواضعِ .

ويَقرُبُ أنْ يُقالَ : لمَّا آثَرُوا الذُّبولَ والخمولَ ، والتواضعَ والانكسارَ ، والتخفِّيَ والتَّواريَ . . كانُوا كالخِرْقةِ المُلْقاةِ ، والصُّوفةِ المَرْميَّةِ التي لا يُرغَبُ فيها ولا يُلتفَتُ إليها ؛ فيُقالُ (صوفيٌّ) نسبةً إلى (الصُّوفةِ) ؛ كما يُقالُ (كُوفيٌّ) نسبةً إلى (الكُوفةِ)

وهٰذا ما ذكرَهُ بعضُ أهلِ العلمِ ، والمعنى المقصودُ بهِ قريبٌ ، ويُلائِمُ الاشتقاقَ ، ولم يَزَلْ لُبْسُ الصُّوفِ اختيارَ الصالحينَ ، والزُّهَّادِ والعُبَّادِ والمُتقشِّفينَ

(١٩) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ طاهرٌ ، عن أبيهِ قالَ : أخبرَنا عبدُ الرَّزَّاقِ بنُ عبدِ الكريمِ ، قالَ : أخبرَنا أبو الحسنِ محمَّدُ بنُ محمَّدٍ ، قالَ : حدَّثَنا أبو عليٍّ إسماعيلُ بنُ محمَّدٍ ، قالَ : حدَّثَنا الحسنُ بنُ عَرَفَةَ ، قالَ : حدَّثَنا خلفُ بنُ خليفةَ ، عن حُميدٍ الأعرجِ ، عن عبدِ اللهِ بنِ الحارثِ ، عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « يَوْمَ كَلَّمَ ٱللهُ تَعَالَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كَانَ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ ، وَسَرَاوِيلُ مِنْ صُوفٍ ، وَكِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ ، وكُمَّةٌ مِنْ صُوفٍ ، وَنَعْلَاهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ ذَكِيٍّ »[1]

---

(١) صفوة التصوف (١٨١) ، ورواه الترمذي (١٧٣٤) ، والحاكم (١/ ٢٨) ، وقال الترمذي : (وحُميدٌ : هو ابن عليٍّ الكوفي ، منكر الحديث ، وحُميدُ بن قيسٍ الأعرجُ المكي صاحب مجاهد . . ثقةٌ) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٠٢-١٠٣) ، والكُمَّة : القلنسوة الصغيرة المُدوَّرة ، وفي (ح) (غير مُذكىً) بدل (غير ذكي) .

وقيلَ : سُمُّوا صوفيّةً ؛ لأنَّهُم في الصفِّ الأوَّلِ بينَ يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ بارتفاعِ هِمَمِهِم ، وإقبالِهِم على اللهِ بقلوبِهِم ، ووقوفِهِم بسرائرِهِم بينَ يَدَيهِ(١)

وقيلَ كأنَّ هـٰذا الاسمَ في الأصلِ (صَفَوِيٌّ) ، فاستُثقِلَ ذلكَ وجُعِلَ (صُوفيّاً)(٢)

وقيلَ : سُمُّوا صوفيّةً ؛ نسبةً إلى (الصُّفَّةِ) التي كانتْ لفقراءِ المُهاجرينَ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِم : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] (٣) .

وهـٰذا وإنْ كانَ لا يستقيمُ مِنْ حيثُ الاشتقاقُ اللُّغَويُّ . . ولـٰكنْ صحيحٌ مِنْ حيثُ المعنىٰ ؛ لأنَّ الصُّوفيّةَ تُشاكِلُ حالُهُم حالَ أولـٰئكَ ؛ لكونِهِم مجتمعينَ مُتألِّفينَ ، مُصاحِبينَ للهِ وفي اللهِ(٤) ؛ كأصحابِ الصُّفَّةِ

وكانُوا(٥) نَحْواً مِنْ أربعِ مئةِ رجلٍ ، لم يكنْ لهُم مساكنُ بالمدينةِ ولا عشائرُ ، جعلُوا(٦) أنفسَهُم في المسجدِ ، كاجتماعِ الصُّوفيّةِ قديماً

---

(١) انظر « التعرف » (ص١٠) .

(٢) انظر « اللمع » (ص٤٦) .

(٣) انظر « اللمع » (ص٤٧) ، و« التعرف » (ص٢١) .

(٤) في (ب ، هـ) : (متصاحبين) بدل (مصاحبين) .

(٥) أي : أصحابُ الصُّفَّة .

(٦) في (ح) : (جمعوا)

وحديثاً في الزَّوايا والرُّبُطِ[1] ، وكانُوا لا يرجعُونَ إلىٰ زرعٍ ولا إلىٰ ضَرْعٍ ولا إلىٰ تجارةٍ ، كانُوا يحتطبُونَ ويَرضَخُونَ النَّوىٰ بالنهارِ[2] ، وبالليلِ يشتغلُونَ بالعبادةِ وتعلُّمِ القرآنِ وتلاوتِهِ[3]

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُواسيهِم ، ويَحُثُّ الناسَ علىٰ مُواساتِهِم ، ويجلسُ معَهُم ، ويأكلُ معَهُم[4]

وفيهِم نَزَلَ قولُهُ تباركَ وتعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ٥٢] ، وقولُهُ سبحانَهُ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ

---

(١) الرُّبُط : جمع (رباط) ؛ وهو المُتعبَّد الذي يربطون فيه نفوسهم على العبادة والطاعة .

(٢) يَرضَخُون : يكسرون .

(٣) وكان من أهل الصفة خِيرةُ الصحابة ؛ كأبي هريرة ، وأبي ذرٍّ ، وواثلة بن الأسقع ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، وبلال ، وابن أم مكتوم ، وصهيب الرومي ، وحذيفة بن اليمان ، وعقبة بن عامر ، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين . انظر « إمتاع الأسماع » (١٠/ ١٥٧ـ١٦٠) ، و« شرح الشفاء » للقاري (١/ ٦١٠) ، و« الكشاف » للزمخشري (١/ ٣١٨) .

(٤) كما روي ذلك من أحاديث متعددة ؛ فروى البخاري (٦٤٥٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال له : « الحقْ إلىٰ أهل الصُّفَّة ، فادعُهُم لي » ، قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام ، لا يأوون إلىٰ أهل ولا مالٍ ولا علىٰ أحد ، إذا أتته صدقةٌ بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتت هديةٌ أرسل إليهم ، وأصاب منها ، وأشركهم فيها .

وروى ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٥٥) من حديث يزيد بن عبد الله بن قسيط قال : (كان أهل الصفة ناساً من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، لا منازل لهم ، فكانوا ينامون علىٰ عهد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في المسجد ويَظَلُّون فيه ، ما لهم مأوىً غيره ، فكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يدعوهم إليه بالليل إذا تعشَّىٰ ، فيُفرِّقُهُم علىٰ أصحابه وتتعشَّىٰ طائفةٌ منهم مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، حتىٰ جاء الله تعالىٰ بالغنىٰ) .

﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ . . .﴾ الآية [الكهف : ٢٨] (١).

ونَزَلَ في ابنِ أمِّ مكتومٍ قولُهُ عزَّ وعلا : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس : ١-٢] ، وكانَ مِنْ أهلِ الصُّفَّةِ ، فعُوتِبَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأجلِهِ (٢)

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا صافحَهُم لا يَنزِعُ يدَهُ مِنْ أيديهِم (٣) ، وكانَ يُفرِّقُهُم على أهلِ الجِدَةِ والسَّعَةِ (٤) ، ويبعثُ معَ واحدٍ ثلاثةً ، ومعَ الآخرِ أربعةً ، وكانَ سعدُ بنُ [عُبادةَ] (٥) يحملُ إلى بيتِهِ منهُم ثمانينَ رجلاً يُطعِمُهُم (٦)

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٢٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣١٨٥) ، والبزار في « المسند » (٢١٣٠) عن سيدنا خبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٠٤) .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٣١) ، وابن حبان (٥٣٥) ، والحاكم (٢/ ٥١٤) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، وانظر كلام القاضي عياض النفيس في « الشفاء » (ص٦٩١-٦٩٢) حول هذه الآية .

(٣) رواه الترمذي (٢٤٩٠) ، وابن ماجه (٣٧١٦) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وليس فيهما تخصيصٌ بأهل الصُّفَّة .

(٤) الجِدَة : الغنى .

(٥) في النسخ : (معاذ) ، والتصويب من « الحلية » ، ولم يُنبِّه عليه الغماري في تخريجه .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٤١) مرسلاً عن ابن سيرين رحمه الله تعالى ، وروى البخاري (٦٠٢) ، ومسلم (٢٠٥٧) عن سيدنا عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال : إنَّ أصحاب الصُّفَّة كانوا أناساً فقراءَ ، وإنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال : « مَنْ كانَ عندَهُ طعامُ اثنينِ فليذهبْ بثالثٍ ، وإنْ أربعٌ فخامسٌ أو سادسٌ . . . » الحديث .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (لقد رأيتُ سبعينَ مِنْ أهلِ الصُّفَّةِ يُصلُّونَ في ثوبٍ واحدٍ ، منهُم مَنْ لا يبلغُ ركبتَيهِ ، فإذا ركعَ أحدُهُم قبَضَ بيدَيهِ مخافةَ أنْ تبدوَ عورتُهُ)(١)

وقالَ بعضُ أهلِ الصُّفَّةِ جِئْنا جماعةً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقُلْنا يا رسولَ اللهِ ؛ أَحْرقَ بطونَنا التمرُ ، فسمعَ ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فصَعِدَ المنبرَ ، ثمَّ قالَ « ما بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ : أَحْرَقَ بُطُونَنَا ٱلتَّمْرُ ؟! أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلتَّمْرَ هُوَ طَعَامُ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ، وَقَدْ وَاسَوْنَا بِهِ ، وَوَاسَيْنَاكُمْ مِمَّا وَاسَوْنَا بِهِ ؟! وَٱلَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ؛ إِنَّ مُنْذُ شَهْرَيْنِ لَمْ يَرْتَفِعْ مِنْ بَيْتِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱلله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُخَانٌ لِلْخَبْزِ ، وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا ٱلأَسْوَدَانِ : ٱلْمَاءُ ، وَٱلتَّمْرُ »(٢)

(٢٠) ـ وأخبرَنا الشيخُ أبو الفتحِ محمَّدُ بنُ عبدِ الباقي في « كتابِهِ » ، قالَ : أخبرَنا الشيخُ أبو بكرٍ ابنُ زكريَّا الطُّرَيْثِيثِيُّ ، قالَ : أخبرَنا الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ : حدَّثَنا محمَّدُ بنُ محمَّدِ بنِ سعيدٍ الأَنْماطيُّ ، قالَ : حدَّثَنا الحسنُ ابنُ يحيى بنِ سلامٍ ، قالَ : حدَّثَنا محمَّدُ بنُ عليٍّ التِّرْمِذيُّ ، قالَ : حدَّثَني سعيدُ بنُ حاتِمٍ البَلْخيُّ ، قالَ : حدَّثَنا سهلُ بنُ أسلمَ ، عن خلَّادِ بنِ محمَّدٍ ، عن أبي [حمزةَ] السُّكَّريِّ(٣) ،

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٤٠ـ٣٤١) ، وبنحوه البخاري (٤٤٢) .

(٢) رواه بنحوه أحمد (٣/ ٤٨٧) ، والحاكم (٣/ ١٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٤٥) عن سيدنا طلحة النضري رضي الله عنه

(٣) في النسخ : (عبد الرحمـٰن) بدل (حمزة) ، والتصويب من « الأربعين في =

عن يزيدَ النَّحْويِّ ، عن عكرمةَ ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : وقفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً علىٰ أهلِ الصُّفَّةِ ، فرأىٰ فقرَهُم وجُهدَهُم وطِيبَ قلوبِهِم ، فقالَ : « أَبْشِرُوا يَا أَصْحَابَ ٱلصُّفَّةِ ؛ فَمَنْ بَقِيَ مِنكُمْ عَلَى ٱلنَّعْتِ ٱلَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ٱلْيَوْمَ رَاضِياً بِمَا هُوَ فِيهِ . . فَإِنَّهُ مِنْ رُفَقَائِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »(١)

وقيلَ : كانَ منهُم طائفةٌ في خُراسانَ يَأْوُونَ إلى الكهوفِ والمغاراتِ ، ولا يسكُنُونَ القُرىٰ والمُدُنَ ، يُسمُّونَهُم في خُراسانَ : (شَكْفَتِيَّةً) ؛ لأنَّ (شَكْفَتاً) اسمُ الغارِ ؛ يَنسُبونَهُم إلى المَأْوىٰ والمُستقَرِّ ، وأهلُ الشامِ يُسمُّونَهُم : (جُوعِيَّةً)(٢)

واللهُ تعالىٰ ذَكَرَ في القرآنِ ـ زادَهُ اللهُ مَجْداً ـ طوائفَ الخيرِ والصلاحِ ؛ فسمَّىٰ قوماً : (أبراراً) ، وآخَرينَ : (مُقرَّبينَ) ، ومنهُمُ : (الصابرينَ) ، و(الصادقينَ) ، و(الذَّاكرينَ) ، و(المُخْبِتينَ)(٣) ، واسمُ الصُّوفيِّ يشملُ جميعَ المُتفرِّقِ في هٰذهِ الأسماءِ المذكورةِ .

= التصوف » ، والسُّكَّري : هو محمد بن ميمون المروزي (ت ١٦٧هـ) ، يروي عن يزيد النحوي وأبي إسحاق السَّبيعي وعاصم الأحول وغيرهم انظر « تهذيب الكمال » (٢٦/ ٥٤٤ـ٥٤٥)

(١) الأربعين في التصوف (ص١ـ ٢) ، ورواه من طريق السلمي الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٢٧٦) ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ١٧٣) .

(٢) والسببُ في ذلك ـ كما قال الكلاباذي في « التعرف » (ص١١) ـ : أنَّهم كانوا ينالون من الطعام قَدْرَ ما يُقيم الصُّلْبَ للضرورة ، وفي هامش (ح) : (لكثرة الجوع ، ولكثرة صيامِهم ، وقلَّةِ الأكل عند الإفطار ، مع الطي في بعض الليالي) .

(٣) في النسخ ما عدا (ج ، ح ، ي) : (والمُحبِّين) .

وهـٰذا الاسمُ لم يكنْ في زمنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

وقيلَ : كانَ في زمنِ التابعينَ

ونُقِلَ عنِ الحسنِ البَصْريِّ رحمةُ اللهِ عليهِ أنَّهُ قالَ رأيتُ صُوفيّاً في الطوافِ ، فأعطَيتُهُ شيئاً ، فلم يأخذْ وقالَ : معي أربعةُ دوانيقَ ، يكفِيني ما معي[١]

ويُشيِّدُ هـٰذا[٢] : ما رُوِيَ عن سُفْيانَ أنَّهُ قالَ : (لولا أبو هاشمٍ الصُّوفيُّ ما عَرَفْتُ دقيقَ الرِّياءِ)[٣]

وهـٰذا يَدُلُّ : علىٰ أنَّ هـٰذا الاسمَ كانَ يُعرَفُ قديماً

وقيلَ لم يُعرَفْ هـٰذا الاسمُ إلى المئتينِ مِنَ الهجرةِ العربيَّةِ ؛ لأنَّ في زمنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُسمُّونَ الرجلَ صحابيّاً ؛ لشرفِ صُحْبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكونِ الإشارةِ إليها أَوْلىٰ مِنْ كلِّ إشارةٍ ، وبعدَ انقراضِ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَنْ أَخَذَ منهُمُ العِلْمَ سُمِّيَ تابعيّاً

ثمَّ لمَّا تقادمَ زمانُ الرِّسالةِ ، وبَعُدَ عهدُ النُّبُوَّةِ ، وانقطعَ الوحيُ السماويُّ ، وتوارى النورُ المُصطَفَويُّ ، واختلفتِ الآراءُ ، وتنوَّعتِ الأنحاءُ[٤] ، وتفرَّدَ كلُّ ذي رأيٍ برأيِهِ ، وكَدَّرَ شِرْبَ العلومِ شَوْبُ

---

(١) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٢)

(٢) أي : يُؤيِّد هـٰذا القولَ .

(٣) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٢) ، وسفيان : هو الثوري رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أي : الطُّرُق .

الأَهْواءِ[1] ، وتزعزعتْ أبنيةُ المُتَّقينَ ، واضطربتْ عزائمُ الزاهدينَ ، وغَلَبَتِ الجَهالاتُ وكَثُفَ حِجَابُها ، وكَثُرتِ العاداتُ وتملَّكتْ أربابُها[2] ، وتزخرفتِ الدنيا وكَثُرَ خُطَّابُها . تفرَّدَتْ طائفةٌ بأعمالٍ صالحةٍ ، وأحوالٍ سَنِيَّةٍ ، وصدقٍ في العزيمةِ ، وقُوَّةٍ في الدِّين ، وزُهدٍ في الدنيا ومحبَّتِها ، واغتنمُوا العُزْلةَ والوَحْدةَ ، واتَّخذُوا لنفوسِهِم زَوايا ؛ يجتمعونَ فيها تارةً ، ويتفرَّدونَ أُخْرىٰ ؛ أُسوةً بأهلِ الصُّفَّةِ ، تاركينَ للأسبابِ ، مُتبتِّلينَ إلىٰ ربِّ الأربابِ

فأَثْمرَ لهُم صالحُ الأعمالِ سَنِيَّ الأحوالِ ، وتهيَّأَ لهُم صفاءُ الفهومِ لقَبولِ العلومِ ، وصارَ لهُم بَعْدَ اللِّسانِ لسانٌ ، وبَعْدَ العِرْفانِ عِرْفانٌ ، وبَعْدَ الإيمانِ إيمانٌ ، كما قالَ حارثةُ : (أصبحتُ مُؤمناً حقّاً)[3] ؛ حيثُ كُوشِفَ برُتْبةٍ في الإيمانِ غيرِ ما يتعاهدُها

فصارَ لهُم بمُقتضىٰ ذلكَ علومٌ يعرفُونَها ، وإشاراتٌ يتعاهدُونَها ، فحرَّرُوا لنفوسِهِمُ اصطلاحاتٍ تُشِيرُ إلىٰ معانٍ يَعرِفُونَها ، وتُعرِبُ عن أحوالٍ يَجِدُونَها

فأَخَذَ ذلكَ الخَلَفُ عنِ السَّلَفِ ، حتىٰ صارَ ذلكَ رَسْماً مُستمِرّاً وخيراً

---

(١) العبارة في بعض النسخ : (وتكدَّر شرب العلوم بشوب الأهوية) ، والأهوية : جمع (هواء) ، وهو غير مراد هنا . انظر « تحرير ألفاظ التنبيه » (ص٢٠٣) ، و« تصحيح التصحيف » (ص١٣٧) .

(٢) ويجوز أن يُضبط (أربابها) بالنصب ، كما في بعض النسخ .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣/٣٠٢) ، والسلمي في « الأربعين في التصوف » (ص٥ـ٦) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (١٠١٠٧) ، ورواه أيضاً في « الشعب » (١٠١٠٦) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

مُستقِرّاً في كلِّ عصرٍ وزمانٍ ، فظَهَرَ هـٰذا الاسمُ بينَهُم ، وتسمَّوا بهِ ، وسُمُّوا بهِ[1]

فالاسمُ سِمَتُهُم ، والعِلْمُ باللهِ صِفَتُهُم ، والعبادةُ حِلْيَتُهُم ، والتقوىٰ شِعارُهُم ، وحقائقُ الحقيقةِ أَسْرارُهُم ، نُزَّاعُ القبائلِ[2] ، وأصحابُ الفضائلِ ، سُكَّانُ قِبابِ الغَيْرةِ ، وقُطَّانُ دِيارِ الحَيْرةِ ، لهُم معَ الساعاتِ مِنْ إمدادِ فَضْلِ اللهِ مَزِيدٌ ، ولهيبُ شوقِهِم يتأجَّجُ ويقولُ : هل مِنْ مَزِيدٍ ؟[3]

اللهمَّ ؛ احشُرْنا في زُمْرتِهِم ، وارزُقْنا حالاتِهِم ، واللهُ أعلمُ[4]

* * *

(١) ضبط في (ح) : (وسَمَوْا به)
(٢) النُّزَّاع جمع (نَزِيع) ؛ وهو الغريب الذي نَزَعَ عن أهله وعشيرته ، وروىٰ أحمد (١/٣٩٨)، وابن ماجه (٣٩٨٨)، والدارمي (٢٧٩٧) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « إنَّ الإسلامَ بدأ غريباً وسيعودُ غريباً ، فطوبىٰ للغُرَباءِ » ، قيل : ومَنِ الغُرَباءُ ؟ قال : « النُّزَّاعُ مِنَ القبائلِ »
(٣) وقد أتىٰ أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٢ـ٤٣) ، والإمام القشيري في « الرسالة » (ص١٠٠) بلُمَعٍ يسيرة من هـٰذا البحث .
(٤) في هامش (ب) : (بلغ سماعاً في الثامن للجماعة على الشيخ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي) .

الباب السابع

في ذكر المتصوف والمتشبه به

(٢١) ـ أخبرَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ العالمُ أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا الشيخُ أبو منصورِ بنُ خَيرُونَ ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ الحسنُ بنُ عليٍّ الجَوْهريُّ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا محمَّدُ بنُ العبَّاسِ بنِ زكريَّا ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ يحيى بنُ محمَّدِ بنِ صاعدٍ ، قالَ : أخبرَنا الحسينُ بنُ الحسنِ المَرْوَزيُّ ، قالَ أخبرَنا عبدُ اللهِ بنُ المباركِ ، قالَ : أخبرَنا المُعتمِرُ بنُ سليمانَ[١] ، قالَ : أخبرَنا حُميدٌ الطويلُ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ يا رسولَ اللهِ ؛ متىٰ قيامُ الساعةِ ؟ فقامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى الصلاةِ ، فلمَّا قضى الصلاةَ قالَ : « أَيْنَ ٱلسَّائِلُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ؟ » ، فقالَ الرجلُ : أنا يا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ » ، قالَ : ما أعددتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ـ أو قالَ : ما أعددتُ لها كثيرَ عَمَلٍ ـ إلَّا أنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ ،

(١) كذا في جميع النسخ ، وعبد الله بن المبارك يروي عن المعتمر بن سليمان التيمي ، وعن حميد الطويل مباشرة دون واسطة ، وقد جاء كذلك في « الزهد » (٧١٨) ، وانظر تخريج الحديث الآتي .

فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » ، أو : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ »

قالَ أنسٌ (فما رأيتُ المسلمينَ فَرِحُوا بشيءٍ بعدَ الإسلامِ فرحَهُم بها)[1]

فالمُتشبِّهُ بالصُّوفيّةِ ما اختارَ التشبُّهَ بهِم دونَ غيرِهِم مِنَ الطوائفِ. . إلّا لمحبَّتِهِ إيّاهُم ، وهوَ معَ تقصيرِهِ عنِ القيامِ بما هم فيهِ. . يكونُ معَهُم ؛ لموضعِ إرادتِهِ ومحبَّتِهِ

وقد وردَ بلفظٍ آخَرَ أوضحَ مِنَ الخبرِ الذي رَوَيْناهُ في المعنىٰ : روىٰ [عبدُ اللهِ] بنُ الصّامتِ[2] ، عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يُحِبُّ القومَ ولا يستطيعُ أنْ يعملَ كعملِهِم ، قالَ : « أَنْتَ يَا أَبَا ذَرٍّ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » ، قالَ : قلتُ : فإنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ ، قالَ : « فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » ، قالَ : فأعادَها أبو ذَرٍّ ، فأعادَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3]

قالَ الشيخُ : فمحبَّةُ المُتشبِّهِ إيّاهُم لا تكونُ إلّا لتنبُّهِ روحِهِ لِمَا تنبَّهتْ لهُ أرواحُ الصُّوفيّةِ ؛ لأنَّ محبَّةَ اللهِ وما يُقرِّبُ إليهِ ومَنْ يَقرُبُ منهُ. . تكونُ بجاذِبِ

---

(١) الزهد (٧١٨ ، ١٠١٩) ، ورواه البخاري (٦١٧١) ، ومسلم (٢٦٣٩) ، وروي عن جماعة بلغ الحديثُ بهم حدَّ التواتر . انظر « غنية العارف » (١/ ١١١-١١٢) .

(٢) في النسخ : (عبادة) بدل (عبد الله) ، والتصويب من كتب الحديث الآتية .

(٣) رواه أبو داود (٥١٢٦) ، والدارمي (٢٨٢٩) ، وأحمد (٥/ ١٥٦) ، وفي هامش (ح) : (إنّما كان بهٰذا أوضحَ ؛ لأنه قال : « يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم » ، فدلَّ : أنَّ المحبَّةَ تنتج المصاحبة مع مَنْ يحبه) .

الرُّوحِ ، غيرَ أنَّ المُتشبِّهَ تَعَوَّقَ بظُلْمةِ النفسِ ، والصُّوفيَّ تخلَّصَ مِنْ ذلكَ ، والمُتصوِّفَ مُتطلِّعٌ إلىٰ حالِ الصُّوفيِّ ، وهوَ مُشارِكٌ ببقاءِ شيءٍ مِنْ صفاتِ نفسِهِ عليهِ للمُتشبِّهِ

وطريقُ الصُّوفيَّةِ أوَّلُهُ إيمانٌ ، ثمَّ عِلْمٌ ، ثمَّ ذوقٌ ؛ فالمُتشبِّهُ صاحبُ إيمانٍ ، والإيمانُ بطريقِ الصُّوفيَّةِ أصلٌ كبيرٌ ؛ قالَ الجُنيدُ رحمةُ اللهِ عليهِ (الإيمانُ بطريقِنا هـٰذا ولايةٌ)

ووجهُ ذلكَ : أنَّ الصُّوفيَّةَ تميَّزُوا بأحوالٍ عزيزةٍ ، وإشاراتٍ عليَّةٍ ، وآثارٍ مُستغرَبةٍ عندَ أكثرِ الخَلْقِ ؛ لأنَّهُم مُكاشَفُونَ بالقُدَرِ وغرائبِ العلومِ ، وإشاراتُهُم إلىٰ عظيمِ أمرِ اللهِ تعالىٰ والقُرْبِ منهُ ، والإيمانُ بذلكَ إيمانٌ بالقدرةِ .

وقد أنكرَ قومٌ مِنْ أهلِ المِلَّةِ كراماتِ الأولياءِ[1] ، والإيمانُ بذلكَ إيمانٌ بالقدرةِ ، ولهُم علومٌ مِنْ هـٰذا القَبيلِ ؛ فلا يُؤمِنُ بطريقِهِم إلَّا مَنْ خَصَّهُ اللهُ تعالىٰ بمزيدِ عنايةٍ .

فالمُتشبِّهُ صاحبُ إيمانٍ ، والمُتصوِّفُ صاحبُ علمٍ ؛ لأنَّهُ بعدَ الإيمانِ اكتسبَ مزيدَ علمٍ بطريقِهِم ، وصارَ لهُ مِنْ ذلكَ مواجيدُ يستدلُّ بها علىٰ سائرِها ، والصُّوفيُّ صاحبُ ذوقٍ

فللمُتصوِّفِ الصادقِ نصيبٌ مِنْ حالِ الصُّوفيِّ ، وللمُتشبِّهِ نصيبٌ مِنْ حالِ المُتصوِّفِ

وهكذا سنةُ اللهِ تعالىٰ ؛ جاريةٌ أنَّ كلَّ صاحبِ حالٍ لهُ ذوقٌ فيهِ لا بُدَّ أنْ

---

(١) ومنهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني والحَليميُّ وجمهورُ المعتزلة . انظر « تحفة المريد » (ص٢٥٣) .

يُكشَفَ لهُ علمٌ بحالٍ أَعْلىٰ ممَّا هوَ فيهِ(١)

فيكونُ في حالِهِ الأوَّلِ صاحبَ ذوقٍ ، وفي الحالِ الذي كُوشِفَ بهِ صاحبَ علمٍ ، وبحالٍ فوقَ ذلكَ صاحبَ إيمانٍ ؛ حتىٰ لا يزالُ طريقُ الطلبِ مسلوكاً ، فيكونُ في حالِ الذوقِ صاحبَ قَدَمٍ ، وفي حالِ العلمِ صاحبَ نَظَرٍ ، وفي حالٍ فوقَ ذلكَ صاحبَ إيمانٍ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٢ـ٢٦] ؛ وَصَفَ الأبرارَ ووَصَفَ شرابَهُم ، ثمَّ قالَ سبحانَهُ وتعالىٰ ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ٢٧ـ ٢٨]؛ فكانَ لشرابِ الأبرارِ مَزْجٌ مِنْ شرابِ المُقرَّبينَ ، وللمُقرَّبينَ ذلكَ صِرْفٌ .

فللصُّوفيِّ شرابٌ صِرْفٌ ، وللمُتصوِّفِ مِنْ ذلكَ مَزْجٌ في شرابِهِ ، وللمُتشبِّهِ مَزْجٌ مِنْ شرابِ المُتصوِّفِ .

فالصُّوفيُّ سَبَقَ إلىٰ مَقَارِّ الرُّوحِ مِنْ بساطِ القُرْبِ ، والمُتصوِّفُ بالنسبةِ إلى الصُّوفيِّ كالمُتزهِّدِ بالنسبةِ إلى الزاهدِ ؛ لأنَّهُ تَفعُّلٌ وتَعَمُّلٌ وتَسبُّبٌ ؛ إشارةً إلىٰ ما بَقِيَ عليهِ مِنْ وصفِهِ ، مجتهدٌ في طريقِهِ ، سائرٌ إلىٰ ربِّهِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سِيرُوا ، سَبَقَ ٱلْمُفَرِّدُونَ »(٢) ،

(١) فمَنْ لم يُكاشف بحالٍ هو أعلىٰ ممَّا هو فيه . . دلَّ علىٰ أنَّهُ لم يَذُقْ ما هو فيه ، وما وصل إلىٰ حقيقته . من هامش (ح) .

(٢) أي : فرَّدوا الحق بالقصد عمَّا سواه ، وتولَّعوا بذكره ، وتركوا ذكر غيره . من هامش (ح) .

قيلَ : مَنِ المُفرِّدُونَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ٱلْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ ٱللهِ ، وَضَعَ ٱلذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ ، فَوَرَدُوا ٱلْقِيَامَةَ خِفَافاً »[١]

فالصُّوفيُّ في مقامِ المُفرِّدينَ ، والمُتصوِّفُ في مقامِ السَّائرينَ واصلٌ في سيرِهِ إلىٰ مَقَارِّ القلبِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ومُراقبتِهِ بقلبِهِ ، وتلذُّذِهِ بنظرِهِ إلىٰ نَظَرِ اللهِ إليهِ .

فالصُّوفيُّ في مَقَارِّ الرُّوحِ صاحبُ مُشاهدةٍ ، والمُتصوِّفُ في مَقَارِّ القَلْبِ صاحبُ مُراقبةٍ ، والمُتشبِّهُ في مُقاومةِ النفسِ صاحبُ مُجاهدةٍ وصاحبُ مُحاسبةٍ .

فتلوينُ الصُّوفيِّ بوجودِ قلبِهِ[٢] ، وتلوينُ المُتصوِّفِ بوجودِ نَفْسِهِ[٣] ، والمُتشبِّهُ لا تلوينَ لهُ[٤] ؛ لأنَّ التلوينَ لأربابِ الأحوالِ ، والمُتشبِّهَ مجتهدٌ

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦) ، والترمذي واللفظ له (٣٥٩٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والمُسْتَهْتَرون : المُولَعون بذكر الله تعالىٰ وتسبيحه .

(٢) لأنَّ سيرَهُ بعدم الروح ، وسفرَهُ من الله إليه ؛ فهو في هٰذا الحال مُتمكِّن ، ولٰكن لكلِّ صاحبِ تمكينٍ تلوينٌ بالضرورة ؛ لأداء حقِّ النفس وبقاء الوجود ، فتلوينُ مَنْ تمكَّن في سير الروح في عالم البقاء باللهِ بعوده إلىٰ سماء القلب لتدبير أرض القالَب ورعايةِ الحواسِّ والقوىٰ ، كما قال عليه السلام : « إِنَّهُ لَيُغانُ علىٰ قلبي ، وإنِّي لَأستغفرُ اللهَ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ » ، وإنَّما أمره بالاستغفار في قوله : ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر : ٥٥] ؛ لذلك . من هامش (ج) .

(٣) لأنَّ سيرَهُ بالقلب ، وسفره في طريقه الذي هو عالَم الأحوال ، وتمكينه فيه ما دام في عالَم الأحوال ، فتلوينُهُ بظهور النفس في عالم الأعمال والسير الإسلامي . من هامش (ج) .

(٤) لأنَّهُ لم يصل بعدُ إلى الأحوال ، ولأنَّهُ يسيرُ بالنفس في طريق الإسلام ، وصورةِ العبادة المُجرَّدة عن الأحوال ، فلا تمكينَ له ولا تلوينَ ؛ لأنَّهما لأصحاب الأحوال وهو لم يصل بعدُ إليها . من هامش (ج) .

سالكٌ لم يَصِلْ بعدُ إلى الأحوالِ ، والكلُّ تجمعُهُم دائرةُ الاصطفاءِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر ٣٢] .

قالَ بعضُهُم(١) : (الظالمُ : الزاهدُ ، والمُقتصِدُ : العارفُ ، والسَّابقُ : المُحِبُّ)(٢)

وقالَ بعضُهُمُ : (الظالمُ : الذي يَجْزَعُ مِنَ البلاءِ ، والمُتقصِدُ الذي يصبرُ عندَ البلاءِ ، والسَّابقُ الذي يتلذَّذُ بالبلاءِ)(٣)

وقالَ بعضُهُمُ : (الظالمُ يعبدُ على الغَفْلَةِ والعادةِ ، والمُقتصِدُ يعبدُ على الرَّغْبةِ والرَّهْبةِ ، والسَّابقُ يعبدُ على الهَيْبَةِ والمِنَّةِ)(٤)

وقالَ بعضُهُمُ : (الظالمُ يذكرُ اللهَ بلسانِهِ ، والمُقتصِدُ يذكرُ اللهَ بقلبِهِ ، والسَّابقُ لا ينسىٰ ربَّهُ)(٥)

---

(١) أي : في تفسير الآية .

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٦٨)، والثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٢/ ٢٠١).

(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٦٨) ، والثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٢/ ٢٠١) ، وفي هامش (ح) : (قيل : اجتمع ثلاثةٌ من العارفين عند رابعةَ ، وتكلَّم كلُّ واحدٍ بما ذاق في حاله ؛ فقال أحدُهُم : ليس بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يصبر علىٰ ضرب مَوْلاه ، وقال الآخرُ : ليس بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يشكر ضربَ مَوْلاه ، وقال الآخر : ليس بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يتلذَّذ بضرب مولاه ، فقالت رابعةُ رحمها الله : ليس بصادقٍ مَنْ لم ينسَ الضربَ في مشاهدة مَوْلاه ، فانظروا كم بين المقامات !!) .

(٤) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٦٩)، والثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٢/ ٢٠١).

(٥) عزاه الثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٢/ ٢٠٢) ، وابن عطية في « المحرر الوجيز » (٤/ ٤٣٩) إلىٰ ذي النون المصري رحمه الله تعالىٰ .

وقالَ أحمدُ بنُ عاصمٍ الأَنْطاكيُّ رحمَهُ اللهُ : (الظالمُ : صاحبُ الأقوالِ ، والمُقتصِدُ : صاحبُ الأفعالِ ، والسَّابقُ صاحبُ الأحوالِ)[(١)]

وكلُّ هـٰذهِ الأقوالِ قريبةُ التناسُبِ مِنْ حالِ الصُّوفيِّ والمُتصوِّفِ والمُتشبِّهِ ، وكلُّهُم مِنْ أهلِ الفلاحِ والنجاحِ ، تجمعُهُم دائرةُ الاصطفاءِ ، وتُؤلِّفُ بينَهُم نسبةُ التخصيصِ بالمَنْحِ والعطاءِ[(٢)]

(٢٢) ـ أخبرَنا الشيخُ العالِمُ رَضِيُّ الدِّينِ أبو الخيرِ أحمدُ بنُ إسماعيلَ القَزْوِينيُّ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو سعدٍ محمَّدُ بنُ أبي العبَّاسِ[(٣)] ، قالَ : أخبرَنا القاضي محمَّدُ بنُ سعيدٍ[(٤)] ، قالَ : أخبرَنا أبو إسحاقَ أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ ، قالَ أخبرَني الحسينُ بنُ محمَّدِ ابنِ فَنْجُويَهْ ، قالَ : حدَّثَنا أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ رِزْمَةَ ، قالَ : حدَّثَنا يوسفُ بنُ عاصمٍ الرازيُّ ، قالَ : حدَّثَنا أبو أيُّوبَ سليمانُ بنُ داودَ ، قالَ : حدَّثَنا حُصَينُ بنُ نُمَيرٍ ، عنِ [ابنِ] أبي ليلىٰ[(٥)] ، عن أخيهِ ، عن أُسامةَ بنِ زيدٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ في قولِهِ تعالىٰ ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم

---

(١) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٢/٢٠٣) ، وابن عطية في « المحرر الوجيز » (٤/٤٣٩) .

(٢) ضُبط في بعض النسخ : (بالمِنَح) ، وفي بعضها : (والعطايا) بدل (والعطاء) .

(٣) هو الخليلي النَّوْقاني . انظر (١/ ٣٤٢)

(٤) هو أبو سعيد الفُرَّخزادي الطوسي . انظر (١/ ١٦٦) .

(٥) ما بين المعقوفين زيادة من « الكشف والبيان » ، وابن أبي ليلىٰ : هو الإمام القاضي مفتي الكوفة محمد بن عبد الرحمـٰن الأنصاري الكوفي (ت١٤٨هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٦/ ٣١٠)

مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ : « كُلُّهُمْ فِي ٱلْجَنَّةِ »[1]

قالَ ابنُ عطاءٍ : (الظالمُ : الذي يُحِبُّ اللهَ مِنْ أجلِ الدنيا ، والمُقتصِدُ : الذي يُحِبُّ اللهَ مِنْ أجلِ العُقْبىٰ ، والسَّابقُ : هوَ الذي أَسْقَطَ مُرادَهُ بمُرادِ الحقِّ فيهِ)[2]

وهٰذا هوَ حالُ الصُّوفيِّ .

فالمُتشبِّهُ تَعَرَّضَ لشيءٍ مِنْ أمرِ القومِ ، ويُوجِبُ لهُ ذلكَ القُرْبَ منهُم ، والقُرْبُ منهُم مُقدِّمةُ كلِّ خيرٍ

سمعتُ شيخَنا رحمةُ اللهِ عليهِ يقولُ[3] : جاءَ بعضُ أبناءِ الدنيا إلى الشيخِ أحمدَ الغزاليِّ رحمةُ اللهِ عليهِ ونحنُ بأَصْفهانَ يُريدُ منهُ الخِرْقةَ[4] ، فقالَ لهُ الشيخُ : اذهبْ إلىٰ فلانٍ - يُشيرُ إليَّ - حتىٰ يُكلِّمَكَ في معنى الخِرْقةِ ، ثمَّ احضُرْ حتىٰ أُلبِسَكَ الخِرْقةَ

قالَ : فجاءَ إليَّ ، فذكرتُ لهُ حقوقَ الخِرْقةِ ، وما يَجبُ مِنْ رعايةِ

---

(١) الكشف والبيان (٢٢/ ٢٠٣ـ٢٠٤) ، ورواه الترمذي (٣٢٢٥) ، وأحمد (٣/ ٧٨) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١١٦ـ١١٧) .

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٦٧) ، والثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٢/ ٢٠١) .

(٣) هو شيخ الإسلام أبو النَّجيب السُّهرُوردي ، وهو المراد حيثُ أُطلقَ .

(٤) وأحمد الغزالي : هو الإمام العارف الواعظ أبو الفتوح بن محمد بن محمد الغزالي (ت نحو ٥٢٠هـ) ، وهو أخو الإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي ، رحمهما الله تعالىٰ ورضي عنهما

حقِّها ، وآدابَ مَنْ يَلبَسُها ، ومَنْ يُؤهَّلُ للُبْسِها ، فاستعظمَ الرجلُ حقوقَ الخِرْقةِ وجَبُنَ أنْ يَلبَسَها

فأُخبِرَ الشيخُ بما تجدَّدَ عندَ الطالبِ مِنْ قولي لهُ ، فاستحضرَني وعاتبَني علىٰ قولي لهُ ذلكَ ، وقالَ : بعثتُهُ إليكَ حتىٰ تُكلِّمَهُ بما يَزيدُ رغبتَهُ في الخِرْقةِ ، فكلَّمْتَهُ بما فتَّرتَ عزيمتَهُ !! ثمَّ الذي ذكرتَهُ كلُّهُ صحيحٌ ، وهوَ الذي يجبُ مِنْ حقوقِ الخِرْقةِ ، ولـٰكنْ إذا أَلْزَمْنا المُبتدِئَ بذلكَ.. نفَرَ وعَجَزَ عنِ القيامِ بهِ ، فنحنُ نُلبِسُهُ الخِرْقةَ حتىٰ يتشبَّهَ بالقومِ ويتزيَّا بزيِّهِم ، فيُقرِّبُهُ ذلكَ مِنْ مَجالسِهِم ومَحافلِهِم ، وببركةِ مُخالطتِهِ معَهُم ، ونَظَرِهِ إليهِم وإلىٰ أحوالِهِم وسِيَرِهِم . . يُحِبُّ أنْ يَسلُكَ مَسْلكَهُم ، ويصلَ بذلكَ إلىٰ شيءٍ مِنْ أحوالِهِم .

ويُوافِقُ هـٰذا القولَ مِنَ الشيخِ أحمدَ الغزاليِّ :

(٢٣) ـ ما أخبرَنا شيخُنا رحمةُ اللهِ عليهِ ، قالَ أخبرَنا عصامُ الدِّينِ عمرُ بنُ أحمدَ الصَّفَّارُ ، قالَ أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ خَلَفٍ ، قالَ : أخبرَنا الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ : سمعتُ الحسينَ بنَ يحيىٰ يقولُ : سمعتُ جعفراً يقولُ : سمعتُ أبا القاسمِ الجُنيدَ رحمةُ اللهِ عليهِ يقولُ : (إذا لَقِيتَ الفقيرَ فلا تبدأْهُ بالعلمِ ، وابدأْهُ بالرِّفْقِ ؛ فإنَّ العلمَ يُوحِشُهُ ، والرِّفْقَ يُؤنِسُهُ)[1]

---

(١) طبقات الصوفية (ص١٦٠) ، وأورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٢٣٣) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٥٧٩) بإسناد آخر عن السلمي ، وزاد : (فقلت ـ والقائل : عبد الله المرتعش الزاهد صاحب الجنيد ـ : يا أبا القاسم ؛ وهل يكونُ فقيرٌ يُوحِشُهُ العلمُ ؟ فقال : نعم ، الفقيرُ إذا كان صادقاً في فقره ، فطرحتَ عليه علمَكَ . . =

وبرِفْقِ الصُّوفيّةِ بالمُتشبِّهينَ بهِم ينتفعُ المُبتدِئُ الطالبُ ، وكلُّ مَنْ كانَ منهُم أَكْملَ حالاً وأَوْفرَ عِلْماً . . كانَ أَكْثرَ رِفْقاً بالمُبتدِئِ الطالبِ .

حُكِيَ عن بعضِهِم : أَنَّهُ صَحِبَهُ طالبٌ ، فكانَ يأخذُ نفسَهُ بكثرةِ المُعاملاتِ والمُجاهداتِ ، ولم يَقصِدْ بذلكَ إلَّا نَظَرَ المُبتدِئِ إليهِ ، والتأدُّبَ بأدبِهِ ، والاقتداءَ بهِ في عملِهِ .

وهـٰذا هوَ الرِّفْقُ الذي ما دَخَلَ في شيءٍ إلَّا زانَهُ[1]

فالمُتشبِّهُ الحقيقيُّ لهُ إيمانٌ بطريقِ القومِ ، وعَمَلٌ بمُقتضاهُ ، وسلوكٌ واجتهادٌ ، علىٰ ما ذكرْناهُ أَنَّهُ صاحبُ مُجاهَدةٍ ومُحاسَبةٍ[2] ، ثُمَّ يصيرُ مُتصوِّفاً صاحبَ مُراقَبةٍ ، ثمَّ يصيرُ صُوفيّاً صاحبَ مُشاهَدةٍ .

فأمَّا مَنْ لم يتطلَّعْ إلىٰ حالِ المُتصوِّفِ والصُّوفيِّ بالتشبُّهِ ، ولا يقصدْ أوائلَ مقاصدِهِم[3] ، بل هوَ علىٰ مُجرَّدِ تشبُّهٍ ظاهرٍ مِنْ ظاهرِ اللِّبْسةِ والمُشارَكةِ في الزِّيِّ والصُّورةِ ، دونَ السِّيرةِ والصِّفَةِ . . فليسَ بمُتشبِّهٍ بالصُّوفيّةِ ؛ لأنَّهُ غيرُ مُحاكٍ لهُم بالدخولِ في بداياتِهِم[4] ؛ فإذاً هوَ مُتشبِّهٌ بالمُتشبِّهِ ، يَعْتزِي إلى

= ذاب كما يذوبُ الرَّصاصُ في النار) ، وقوله : (وابدأْهُ بالرفق . . .) قال العروسي في « نتائج الأفكار » (٣/ ٢٤٤) : (أي : بالتسليم ؛ حتىٰ تستكشفَ حكمة الحكيم ، ولا تَلْقَهُ بالعلم ؛ بأن تعارضه بالمنقول في علم الشريعة) ، وفي هامش (ح) عند قوله : (بالرفق) : (أي : بالسفرة والإطعام) .

(١) كما رواه مسلم (٢٥٩٤) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها

(٢) انظر (١/ ٢٧٤) .

(٣) مِنْ تركِ العادات ، والتزام المجاهدات . من هامش (ح) .

(٤) غيرُ مُحاكٍ ؛ أي : غير مُشابهٍ .

القومِ بمُجرَّدِ لُبْسِهِ ، ومعَ ذلكَ همُ القومُ لا يَشْقىٰ بهِم جليسُهُم ، وقد وَرَدَ : « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ »[1]

(٢٤) ـ أخبرَنا الشيخُ أبو الفتحِ محمَّدُ ابنُ سَلْمانَ ، قالَ أخبرَنا أبو الفضلِ حَمْدٌ ، قالَ أخبرَنا الحافظُ أبو نُعيمٍ الأَصْفَهانيُّ ، قالَ : حدَّثَنا عبدُ اللهِ بنُ محمَّدِ بنِ جعفرٍ ، قالَ : حدَّثَنا أحمدُ بنُ عمرِو بنِ أبي عاصمٍ ، قالَ : حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ محمَّدٍ الشافعيُّ [ح][2]

قالَ : وحدَّثَنا عليُّ بنُ أحمدَ بنِ عليٍّ المَقْدِسيُّ ، قالَ : حدَّثَنا محمَّدُ بنُ عبدِ ابنِ عامرٍ ، قالَ : حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ الأشعثِ ، قالَ : حدَّثَنا فُضَيلُ بنُ عياضٍ ، عن سليمانَ الأعمشِ ، عن أبي صالحٍ ، عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً فُضُلاً عَنْ كُتَّابِ ٱلنَّاسِ[3] ،

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١) ، وأحمد (٢/ ٥٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٩٧٤٧) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وفي الباب عن غيره أيضاً انظر « غنية العارف » (١/ ١١٩)

(٢) إشارة التحويل زيادة من « الحلية » .

(٣) قوله : (فُضُلاً) كذا ضبط في (ب ، هـ) ونسخة على هامش (و) ، وضُبط في (أ ، ج ، د ، و ، ح) : (فَضْلاً) ، وفي (ي) : (فُضَلاء) ، وقال القاري في « المرقاة » (٤/ ١٥٤٨) : (فُضُلاً صفةٌ بعد صفة للملائكة ، وهو بضمتين وسكون الثاني تخفيفاً ؛ جمع « فاضل » ؛ كـ « بُزْل وبازل » ، و« نُشْر وناشر » ؛ وهو مَنْ فاق أصحابَهُ وأقرانه عِلْماً وشرفاً ، وفي نسخة بفتح فسكون ، وفي نسخة : « فُضَلاء » على وزن « عُلَماء » . . . وفي « شرح مسلم » قوله : « فضلاً » ضبطناه على أوجه : أحدُها ـ وهو أرجحُها وأشهرُها في بلادنا ـ : « فُضُلاً » بضم الفاء والضاد ، الثاني : بضم الفاء وإسكان الضاد ، ورجَّحه بعضهم وادَّعى أنه أكثرُ وأصوبُ ، والثالث بفتح الفاء وإسكان الضاد ، قال القاضي : هـٰكذا الرواية عند جمهور مشايخنا في « البخاري » =

يَطُوفُونَ فِي ٱلطُّرُقِ ، وَيَتَتَبَّعُونَ ٱلذِّكْرَ[1] ، فَإِذَا رَأَوْا قَوْماً يَذْكُرُونَ ٱللهَ تَنَادَوْا[2] : هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ ، فَتَحُفُّهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَىٰ عَنَانِ ٱلسَّمَاءِ

فَيَقُولُ ٱللهُ ـ وَهُوَ أَعْلَمُ ـ : مَا يَقُولُ عِبَادِي ؟ قَالُوا يَحْمَدُونَكَ وَيُسَبِّحُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ ، فَيَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْنِي ؟ فَيَقُولُونَ لَا ، فَيَقُولُ : كَيْفَ وَلَوْ رَأَوْنِي ؟ قَالُوا : لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ تَسْبِيحاً وَتَحْمِيداً وَتَمْجِيداً

فَيَقُولُ : مَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالُوا : يَسْأَلُونَكَ ٱلْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : فَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالُوا : لَا ، فَيَقُولَ : كَيْفَ وَلَوْ رَأَوْهَا ؟ قَالُوا : لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا لَهَا أَشَدَّ طَلَباً وَعَلَيْهَا أَكْثَرَ حِرْصاً

قَالُوا : وَيَتَعَوَّذُونَ مِنَ ٱلنَّارِ ، فَيَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالُوا : لَا ، فَيَقُولُ كَيْفَ وَلَوْ رَأَوْهَا ؟ قَالُوا : لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا تَعَوُّذاً ، وَأَشَدَّ فِرَاراً ، فَيَقُولُ : أُشْهِدُكُم أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ .

فَيَقُولُ ٱلْمَلَكُ : فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُم ؛ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ !! فَيَقُولُ ٱللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : « هُمُ ٱلْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ »[3]

= و« مسلم » ، والرابع : بضم الفاء والضاد ورفع اللام علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف ، والخامس : « فُضَلاء » بالمدِّ جمعُ « فاضل » ، قال العلماء : معناه علىٰ جميع الروايات : أنهم زائدون على الحفظة وغيرهم ، لا وظيفةَ لهم إلا حِلَقُ الذكر . انتهىٰ) .

(١) في « الحلية » : (ويبتغون) بدل (ويتتبَّعون) ، وفي بعض النسخ : (ويتتبعون مجالس الذكر) .

(٢) أي : نادىٰ بعضهم بعضاً . من هامش (ح) .

(٣) حلية الأولياء (٨/١١٧) ، ورواه البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) ، وفي =

فلا يَشْقَىٰ جَلِيسُ الصُّوفيَةِ ، والمُتشبِّهُ بهِم ، والمُحِبُّ لهُم[1]

* * *

= نسخة على هامش (و) : (أشهدكم أني قد غفرت لهم ، هم السعداء) بدل (هم الجلساء) .

(١) في هامش (ب) : (بلغ في الخامس على الشيخ الحافظ جلال الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي) .

الباب الثامن

في ذكر الملامتي وشرح حاله(١)

قالَ بعضُهُم (المَلامَتِيُّ : هوَ الذي لا يُظهِرُ خيراً ، ولا يُضمِرُ شرّاً)(٢)

وشرحُ هٰذا : هوَ أنَّ المَلامَتيَّ تشرَّبتْ عروقُهُ طعمَ الإخلاصِ ، وتحقَّقَ بالصِّدْقِ ؛ فلا يُحِبُّ أنْ يَطَّلِعَ أحدٌ على حالِهِ وأعمالِهِ(٣)

---

(١) وشيخ المَلاميّة ـ ويُقال : الملامتية ، وهي لغة ضعيفة ـ : هو أبو صالح حمدون القصَّار النيسابوري ، وعنه اشتهرت وانتشرت ، وقد أفرد الملاميّةَ بالبحث الإمامُ أبو سعد الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٣٩ـ٤٢) ، وانظر « الفتوحات المكية » (١٦/٢) .

(٢) في (أ ، ز) : (خيراً من نفسه . . .)

(٣) ومن المناسب إيراده في هٰذا المقام : ما سُئل عنه إمامنا المؤلف رضي الله عنه ؛ وهو أنَّ المريد إذا كان مع الناس يجد من نفسه نشاطاً للعمل ، وإذا كان وحدَهُ يجد فُتُوراً عن العمل وتأبىٰ عليه نفسُهُ ؛ فما الأَوْلىٰ به ؟

فأجاب : بأنَّهُ لا ينبغي للمريد أن يدع العمل لأجل الخلق ، ولا يأتي به لأجلهم ، فإذا ابتُلي بشيء من ذلك واسترقت النفسُ الغرضَ بالالتفات ، واستحلتْ نظرَهُم لمحبّة الثناء وخوفِ المَذَمَّة . . فليرجعْ إلى الله تعالىٰ بحسن اللَّجَأ ، ويرغبْ إليه بالتضرُّع والدعاء ، ويستغفر الله من ذلك الاستحلاءِ ، ويعلم علم اليقين أنَّهُم لا يستطيعون له نفعاً ولا ضرّاً ، فيُلقي الأوهام علىٰ نفسه ، ويُقدِّر اطلاع الله تعالىٰ عليه ، ولا يدع العمل رأساً ؛ فببركة العمل يزول الرِّياء إن شاء الله تعالىٰ ، والله حفيظ عليم « أجوبة السهروردي » (ق/ ٢٥)

(٢٥) ـ أخبرَنا الشيخُ أبو زُرْعَةَ طاهرُ بنُ أبي الفضلِ المَقْدِسيُّ إجازةً ، قالَ أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ خَلَفٍ الشِّيرازيُّ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا الشيخُ أبو عبدِ الرحمٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ سمعتُ عليَّ بنَ سعيدٍ وسألتُهُ عنِ الإخلاصِ ما هوَ[١] ؟ قالَ : سمعتُ عليَّ بنَ إبراهيمَ وسألتُهُ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سمعتُ محمَّدَ بنَ جعفرٍ الخصَّافَ وسألتُهُ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ أحمدَ بنَ بشَّارٍ عنِ الإخلاصِ ما هوَ[٢] ؟ قالَ : سألتُ أبا يعقوبَ الشُّرُوطيَّ عنِ الإخلاصِ ما هوَ[٣] ؟ قالَ : سألتُ أحمدَ بنَ غسَّانَ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ أحمدَ بنَ [عطاءٍ] الهُجَيْمِيَّ عنِ الإخلاصِ ما هوَ[٤] ؟ قالَ سألتُ عبدَ الواحدِ بنَ زيدٍ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ الحسنَ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ حُذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) ورواه السلمي أيضاً عن أبي العباس أحمد بن محمد بن زكريا النسوي كما في « الكشف والبيان » (٤/ ١٦٤) ، و« الرسالة القشيرية » (ص٤٧٧) .

(٢) وفي « الكشف والبيان » (٤/ ١٦٥) وبعض النسخ : (يسار) بدل (بشار) ، قال الزَّبيدي في « الإتحاف » (١٠/ ٤٤) بعد أن ذكر رواية الحافظ أبي مسعود الأصفهاني في « مسلسلاته » : (هكذا هو في سياق الحافظ أبي مسعود ، وهي النسخة التي بخطه : « أحمد بن دينار » بدل « أحمد بن بشار ») .

(٣) الشُّرُوطي : نسبة إلى (الشُّرُوط) ؛ وهي كتابة الوثائق بالديون والمبيعات وغير ذلك . انظر « اللباب في تهذيب الأنساب » (٢/ ١٩٣) ، ووقع في « مسلسلات الأصفهاني » : (البوطي) بدل (الشروطي) انظر « الإتحاف » (١٠/ ٤٤) .

(٤) في النسخ : (علي) بدل (عطاء) ، والهُجَيمي : هو أبو عمرو البصري (ت ٢٠٠هـ) ، وهي نسبة إلىٰ محلة بالبصرة نزلها بنو الهُجَيم بن عمرو بن تميم . انظر « اللباب في تهذيب الأنساب » (٣/ ٣٨١ـ٣٨٢) ، و« سير أعلام النبلاء » (٩/ ٤٠٨).

عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : « سَأَلْتُ جِبْرَائِيلَ عَنِ ٱلْإِخْلَاصِ مَا هُوَ ؟ قَالَ : سَأَلْتُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنِ ٱلْإِخْلَاصِ مَا هُوَ ؟ قَالَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ سِرٌّ(١) مِنْ سِرِّي ٱسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي »(٢)

فالمَلامَتِيَّةُ لهُم مَزِيدُ اختصاصٍ بالتمسُّكِ بالإخلاصِ ، يَرَونَ كَتْمَ الأحوالِ والأعمالِ(٣) ، ويتلذَّذُونَ بكَتْمِها ؛ حتىٰ لو ظهرتْ أعمالُهُم وأحوالُهُم لأحدٍ . . لاستوحشُوا مِنْ ذلكَ كما يستوحشُ العاصي مِنْ ظهورِ مَعْصيتِهِ .

فالمَلامَتِيُّ عَظَّمَ وَقْعَ الإخلاصِ وموضعَهُ ، وتمسَّكَ بهِ مُعتدّاً بهِ .

---

(١) السرُّ : هو الذي يُكتَمُ ؛ أي : معنىً مكتوم ؛ من السَّراري المكتومة التي لم يطلع عليها غيري . من هامش (ح) .

(٢) رواه الثعلبي في « الكشف والبيان » (٤/ ١٦٤ـ١٦٧) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٤٧٧) عن شيخهما أبي عبد الرحمـٰن محمد بن الحسين السلمي به ، وقال العراقي في « المغني » (٤٢٦٢) : (رَوَيْناه في « جزء من مسلسلات القزويني » مسلسلاً ، يقولُ كلُّ واحد من رواته : « سألت فلاناً عن الإخلاص فقال » ، وهو من رواية أحمد بن عطاء الهُجَيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم عن جبريل عن الله تعالىٰ ، وأحمدُ بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك ، وهما من الزُّهَّاد ، ورواه أبو القاسم القشيري في « الرسالة » من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف) ، كذا قال ، والذي في مطبوع « الرسالة » عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه ، ورواه الديلمي في « الفردوس » (٤٥١٣) عن سيدنا علي وابن عباس رضي الله عنهم ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٢١ـ١٢٢) ، و« إتحاف السادة المتقين » (١٠/ ٤٣ـ ٤٥) .

وفي هامش (ح) تعليقاً على الحديث : (فعُلِمَ : أنَّ مَنْ رزقه اللهُ الإخلاصَ فهو محبوبُ الله ، واعلَمْ : أن الإخلاصَ صفةُ القلب ليس صفةَ النفس ، فصاحبُ النفس بمعزل عن الإخلاص ؛ لأنَّ وجهَ النفس إلى الخلق ، كذا قال المشايخ ؛ النفسُ مرائيةٌ في جميع الأحوال ، منافقةٌ في أكثر الأحوال ، مُشرِكةٌ في بعض الأحوال) .

(٣) قوله : (يَرَون) ؛ أي : يعتقدون . من هامش (و)

والصُّوفيُّ غابَ في إخلاصِهِ عن إخلاصِهِ ؛ قالَ أبو يعقوبَ السُّوسيُّ : (متىٰ شَهِدُوا في إخلاصِهِمُ الإخلاصَ . . احتاجَ إخلاصُهُم إلىٰ إخلاصٍ)[1]

وقالَ ذو النُّونِ : (ثلاثٌ مِنْ علاماتِ الإخلاصِ[2] : استواءُ المدحِ والذَّمِّ مِنَ العامَّةِ[3] ، ونِسْيانُ رُؤْيةِ الأعمالِ في الأعمالِ ، وعدمُ اقتضاءِ ثوابِ العملِ في الآخرةِ)[4]

(٢٦) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ خَلَفٍ إجازةً[5] ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمٰنِ ، قالَ : سمعتُ أبا عثمانَ المغربيَّ يقولُ : (**الإخلاصُ** ما لا يكونُ للنفسِ فيهِ حَظٌّ بحالٍ[6] ، وهٰذا إخلاصُ العوامِّ ، وإخلاصُ الخواصِّ : ما يجري عليهِم لا بهِم ،

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٩٤) ، والخركوشي في « تهذيبه » (ص١٧٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤٧٨) .

(٢) أي : إخلاص الخواص . من هامش (ح) .

(٣) قوله : (من العامة) إشارةٌ : إلىٰ أنَّ الذمَّ إذا كان من الخاصَّة وأهلِ الله . . فلِعَيبٍ فيه ونقصٍ ، فلا بُدَّ من الحزن علىٰ ذلك والتفتيشِ عن ذلك العيب ، والقيامِ بالرَّفعِ والإزالة . من هامش (ح) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٦١) ، وأورده القشيري في « الرسالة » (ص٤٧٨) ، وفي النسخ ما عدا (أ ، هـ ، ز) : (واقتضاء) بدل (وعدم اقتضاء) ، وهو كذلك في « الحلية » ، وعلى المثبت شَرَحَ شيخُ الإسلام زكريا الأنصاري كما في « إحكام الدلالة » (٣/ ١٣٤) ، وقال : (بألا يخطر لك علىٰ عملك جزاء دينوي ولا أخروي) .

(٥) سقط التصريح بالإجازة في (و ، ز) .

(٦) فإذا لاحظ النَّفس خرج من دائرة الإخلاص . من هامش (ح) .

فتبدو منهُمُ الطاعاتُ وهم عنها بمَعْزِلٍ ، ولا يقعُ لهُم عليها رؤيةٌ ، ولا بها اعتدادٌ ؛ فذلكَ إخلاصُ الخواصِّ)[١]

وهـٰذا الذي فصَّلَهُ الشيخُ أبو عثمانَ المغربيُّ . . يُفرِّقُ بينَ الصُّوفيِّ والمَلامَتِيِّ ؛ لأنَّ المَلامَتِيَّ أخرجَ الخَلْقَ عن عملِهِ وحالِهِ ، ولـٰكن أثبتَ نفسَهُ ؛ فهوَ مُخلِصٌ ، والصوفيَّ أخرجَ نفسَهُ عن عملِهِ وحالِهِ كما أخرجَ غيرَهُ ؛ فهوَ مُخلَصٌ ، وشتَّانَ ما بينَ المُخلِصِ والمُخلَصِ !![٢]

قالَ أبو بكرٍ الزَّقَّاقُ (نقصانُ كلِّ مُخلِصٍ في إخلاصِهِ . . رُؤْيةُ إخلاصِهِ ، فإذا أرادَ اللهُ أن يُخلِصَ إخلاصَهُ . . أَسْقطَ عن إخلاصِهِ رؤيتَهُ لإخلاصِهِ ، فيكونُ مُخلَصاً لا مُخلِصاً)[٣]

قالَ أبو سعيدٍ الخَرَّازُ : (رياءُ العارفينَ أفضلُ مِنْ إخلاصِ المُرِيدينَ)[٤] .

ومعنىٰ قولِهِ ذلكَ لأنَّ الإخلاصَ معلولٌ برُؤْيةِ الإخلاصِ ، والعارفُ مُنزَّهٌ عنِ الرِّياءِ الذي يُبطِلُ العملَ ، ولـٰكنْ لعلَّهُ يُظهِرُ شيئاً مِنْ حالِهِ وعَمَلِهِ بعِلْمٍ كاملٍ عندَهُ فيهِ[٥] ؛ لجَذْبِ مُرِيدٍ ، أو مُعاناةِ خُلُقٍ مِنْ أخلاقِ النَّفْسِ في

---

(١) تفسير السلمي (١/ ٢٩٩) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٤٧٨) .

(٢) وشتَّان ما هما ، وشتَّان ما عمرٌو وأخوه ؛ أي : بَعُدَ ما بينهما ، [وأبى] الأصمعي : (شتَّانَ ما بينهما) ، وشتَّان : مصروفٌ عن (شتَّ) ، فالفتحةُ التي في النون هي الفتحةُ التي [كانت] في التاء ؛ لتَدُلَّ علىٰ أنَّهُ مصروفٌ عن الفعل الماضي . « صحاح » . من هامش (ح) .

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤٧٨) .

(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٤٧٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٩٧) ، ومن طريقه البغدادي في « تاريخ بغداد » (٨/ ٤٢٩) عن رُوَيم رحمه الله تعالىٰ .

(٥) أي : في الإظهار .

إظهارِه الحالَ والعملَ[١] ، وللعارفينَ في ذلكَ عِلْمٌ دقيقٌ لا يعرفُهُ غيرُهُم ، فيرىٰ ذلكَ ناقصُ العِلْمِ صورةَ رياءٍ وليسَ برياءٍ ، وإنَّما هوَ صريحُ العلمِ للهِ باللهِ مِنْ غيرِ حضورِ نَفْسٍ ووجودِ آفةٍ فيهِ[٢]

قالَ رُوَيمٌ رحمةُ اللهِ عليهِ : (الإخلاصُ : ألَّا يرضىٰ صاحبُهُ عليهِ عِوَضاً في الدَّارَينِ ، ولا حظّاً مِنَ المَلَكَينِ)[٣]

وقالَ بعضُهُم : (صِدْقُ الإخلاصِ : نِسْيانُ رؤيةِ الخَلْقِ بدوامِ النَّظَرِ إلى الحقِّ)[٤] ، والمَلامَتِيُّ يرى الخَلْقَ ، فيُخفي عملَهُ وحالَهُ .

وكلُّ ما ذكَرْناهُ مِنْ قبلُ وَصْفُ إخلاصِ الصُّوفيِّ ؛ ولهـٰذا قالَ الزَّقَّاقُ : (لا بدَّ لكلِّ مُخلِصٍ مِنْ رُؤْيةِ إخلاصِهِ)[٥] ، وهوَ نُقْصانٌ عن كمالِ الإخلاصِ ، والإخلاصُ هوَ الذي يتولَّى اللهُ تعالىٰ حِفْظَ صاحبِهِ حتىٰ يأتيَ بهِ على التَّمامِ .

---

(١) أي : ربَّما يظهرُ في نفوس بعضِ الكاملين امتلاءُ قلب وكبرُ مقام وشرفُ حال من كتمانه الأعمالَ وإخفائِهِ الأحوالَ ، وهـٰذا عين الاعتلال في طريق أهل الكمال ، فيظهرُ العمل علىٰ خلاف مراد النفس ؛ ليزول عنها هـٰذه الصفة المذمومة ، والعارفُ مأذونٌ فيه مأمور به ، غيرُ مختارٍ منه أو مختار فيه ، ولـٰكنَّ اختيارَهُ باختيار إلـٰهه . من هامش (ج) .

(٢) وذلك العلم : هو أنَّهُ ليس عندهم إلا الحقُّ ، وإذا عُدِمَ الغيرُ عُدِمَ الرياء ، فافهم . من هامش (ح) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٨٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٤٨٠) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٧٥) ، وأورده القشيري في « الرسالة » (ص٤٧٩) ، وعزواه إلىٰ أبي عثمان المغربي رحمه الله تعالىٰ .

(٥) انظر قوله في (١/ ٢٨٨) .

قالَ جعفرٌ الخُلْدِيُّ[1] : سألتُ أبا القاسمِ الجُنيدَ رحمَهُ اللهُ قلتُ لهُ : أَبَيْنَ الإخلاصِ والصِّدْقِ فَرْقٌ ؟ قالَ : نعم ، الصِّدْقُ أصلٌ وهوَ الأوَّلُ ، والإخلاصُ فَرْعٌ وهوَ تابعٌ[2] ، وقالَ : بينَهُما فرقٌ ؛ لأنَّ الإخلاصَ لا يكونُ إلَّا بعد الدخول في العمل ، ثمَّ قالَ : إنَّما هوَ إخلاصٌ ، ومُخالَصةُ الإخلاصِ ، وخالِصةٌ كائنةٌ في المُخالَصةِ[3]

فعلىٰ هـٰذا الإخلاصُ حالُ المَلامَتِيِّ ، ومُخالَصةُ الإخلاصِ حالُ الصُّوفيِّ ، والخالِصةُ الكائنةُ في المُخالَصةِ ثمرةُ مُخالَصةِ الإخلاصِ ؛ وهوَ فناءُ العبدِ عن رسومِهِ ، بُرؤْيةِ قيامِهِ بقيُّومِهِ ، بل غَيْبَتُهُ عن رُؤْيةِ قيامِهِ ؛ وهوَ الاستغراقُ في العَينِ عنِ الآثارِ[4] ، والتخلُّصُ عن لَوْثِ

---

(١) هو الزاهد الورع العابد أبو محمد جعفر بن محمد بن نُصير الخُلْدي الخوَّاص البغدادي (ت ٣٤٨هـ) ، إمام الصوفية في زمانه ، روى الخطيب البغدادي بإسناده عنه أنه قال : (كنت يوماً عند الجنيد بن محمد وعنده جماعة من أصحابه يسألونه عن مسألة ، فقال لي : يا أبا محمد ؛ أَجِبْهمُ ، فأجبتُهُم ، فقال : يا خُلْديُّ ؛ من أين لك هـٰذه الأجوبة ؟ فجرى اسمُ الخُلْدي عليَّ إلىٰ يومي هـٰذا ، ووالله ؛ ما سكنت الخُلْد ، ولا سكنه أحدٌ من آبائي) ، والخُلْد : قصر كان للمنصور العبَّاسي علىٰ شاطئ دجلة ، فخرب وبُنيت حواليه منازلُ ، والسؤال هو : أنَّهم قالوا له أنطلب الرِّزقَ ؟ فقال : إن علمتُم أنَّهُ نسيكم فذكِّرُوه ، فقالوا : أندخل البيتَ ونتوكَّلُ على الله ؟ فقال : أتُجرِّبون اللهَ بالتوكُّل ؟ فهـٰذا شكٌّ ، قالوا : فكيف الحيلة ؟ فقال : تركُ الحيلة . انظر « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٣٥)

(٢) لأنَّهُ إذا استوىٰ ظاهرُهُ وباطنه ولسانه وقلبه في العمل . . فقد أتىٰ بالصدق ، وهو الواجبُ عليه أوَّلاً ، ثمَّ إذا جَعَلَ ما يأتي به لله من غير قصدِ حظٍّ . . فقد أتىٰ بالإخلاص ؛ فهو يترتَّب على الصدق . من هامش (ح) .

(٣) رواه السلمي في « تفسيره » (٢/ ٤١٠ـ ٤١١) .

(٤) يُشيرُ : إلىٰ تجلِّي الذَّات المُخلِّصِ عن مُزاحمة الاستتار ؛ لغلبة الأنوار . من هامش (ح) .

الاستتارِ[١] ، وهوَ نقدُ حالِ الصُّوفيِّ[٢]

والمَلامَتِيُّ مُقِيمٌ في أوطانِ إخلاصِهِ ، غيرُ مُتطلِّعٍ إلىٰ حقيقةِ خَلاصِهِ[٣]

وهـٰذا فرقٌ واضحٌ بينَ المَلامَتِيِّ والصُّوفيِّ .

ولم يَزَلْ في خُراسانَ منهُم طائفةٌ ، ولهُم مشايخُ يُمهِّدُونَ أساسَهُم ، ويُعرِّفُونَهُم شروطَ أحوالِهِم ، وقد رأَيْنا في العراقِ مَنْ يسلُكُ هـٰذا المَسْلَكَ ، ولـٰكن لم يَشتهِرْ بهـٰذا الاسمِ ، وقلَّما تتداولُ ألسنةُ أهلِ العراقِ هـٰذا الاسمَ .

حُكِيَ : أنَّ بعضَ المَلامَتِيَّةِ استُدعِيَ إلىٰ سماعٍ ، فامتنعَ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، قالَ : لأنِّي إنْ حضرتُ يظهرُ عليَّ وَجْدٌ ، ولا أُوثِرُ أنْ يعلمَ أحدٌ حالي .

وقيلَ إنَّ أحمدَ بنَ أبي الحَوارِيِّ قالَ لأبي سليمانَ الدَّارَانيِّ[٤] : إنِّي

---

(١) الاستتار إشارةٌ : إلىٰ غيبة صفات النفس بكمال قوّة صفات القلب ، وبه يرجع إلىٰ مصالح النفوس والعوق عن الاستغراق في جمع الجمع . من هامش (ح) .

(٢) قال في « شرح المشكلات » (ق/ ٢٥) : (اعلَمْ : أنَّ الصفاتِ آثارُ الذات والأفعال ؛ أي : الكائناتُ والموجودات آثارُ الصفات ، فهم المستغرقون في عين الذات عن الصفات والأفعال ، وفي الصفات عن الأفعال ؛ كمن يستغرق بظلِّ جسم فلمَّا رأىٰ ذلك الجسمَ استغرق في الجسم عن الظل ، أو كمَنْ رأىٰ مثالَ شخص فلمَّا رأىٰ ذلك الشخصَ استغرق فيه عن التمثال ، أو كمن رأى الشمس وضوءها واستغرق فيها فلمَّا رأى الشمسَ استغرق فيها عن العكس وضوئها ، ومَنْ رأىٰ عكسَ جمالٍ في المرآة فلما رأىٰ صاحب الجمال استغرق فيه عن الفكر) .

(٣) في (أ) : (إلى الحقيقة الخالصة) ، وفي (هـ ، ح ، ي) : (إلىٰ حقيقة إخلاصه) ، وفي (ج ، ز) : (إلى الحقيقة خالصةً) .

(٤) الحَوَارِي : هو واحد (الحَوَاريِّين) ، وضبطه بعضُ الحُفَّاظ كـ (سَكَارىٰ) ، وبعضُهم كـ (سُمَّانىٰ) ، وابن أبي الحواري : هو الإمام الحافظ القدوة الزاهد أبو الحسن بن=

إذا كنتُ في الخَلْوةِ أَجِدُ لمُعاملتي لذَّةً لا أَجِدُها بينَ الناسِ ، فقالَ لهُ : إنَّكَ إذاً لَضعيفٌ[1]

فالمَلامَتِيُّ وإنْ كانَ مُتمسِّكاً بعُرْوةِ الإخلاصِ ، مُستفرِشاً بِساطَ القُرْبِ والصِّدْقِ . ولٰكنْ عليهِ بَقِيَّةُ رُؤْيةِ الخَلْقِ ، وما أَحْسنَها مِنْ بقيَّةٍ تُحقِّقُ الإخلاصَ والصِّدْقَ !!

والصُّوفيُّ صُفِّيَ مِنْ هٰذهِ البقيَّةِ في طَرَفَيِ العملِ والتركِ للخلقِ ، وعَزَلَهُم بالكُلِّيَّةِ ، ورآهُم بعينِ الفناءِ والزَّوالِ ، ولاحَ لهُ ناصيةُ التوحيدِ[2] ، وعاينَ سِرَّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ، كما قالَ بعضُهُم في بعضِ غَلَبَاتِهِ : (ليسَ في الدَّارَينِ غيرُ اللهِ)[3]

وقد يكونُ إخفاءُ المَلامَتِيِّ الحالَ علىٰ وجهَينِ[4] :

فأحدُ الوجهَينِ : لتحقيقِ الإخلاصِ والصِّدْقِ .

والوجهُ الآخَرُ ـ وهوَ الأتمُّ ـ : لسَتْرِ الحالِ عن غيرِهِ ، بنوعِ غَيْرةٍ ؛ فإنَّ مَنْ خلا بمحبوبِهِ يكرهُ اطِّلاعَ الغَيرِ عليهِ ، بل يبلُغُ في صِدْقِ المحبَّةِ أنْ يكرهَ

= عبد الله بن ميمون الثعلبي (ت ٢٤٦هـ) شيخ أهل الشام ، ومن كبار تلاميذ أبي سليمان الداراني رحمهما الله تعالىٰ ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٨٥ ـ ٩٤) ، و« بستان العارفين » (ص١١٤) ، و« تاج العروس » (١١/ ١٠٦) .

(١) رواه السلمي في « الطبقات » (ص٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٨) ، وفي (أ ، ز) ونسخة علىٰ هامش (ج ، د) : (لضعيف الحال) .

(٢) ذكرُ الناصيةِ يُشيرُ : إلىٰ أنَّ ملاحظةَ التوحيد بكلِّهِ غيرُ مُمكِنٍ . من هامش (ح) .

(٣) انظر « الإملاء علىٰ مشكل الإحياء » (ص٢٩٧) .

(٤) في نسخة علىٰ هامش (د ، و ، ز) : (العمل) بدل (الحال) .

اطِّلاعَ أحدٍ على حُبِّهِ لمحبوبِهِ ، وهٰذا وإن علا ففي طريق الصُّوفيِّ عِلَّةٌ ونقصٌ .

فعلىٰ هٰذا : يتقدَّمُ المَلامَتِيُّ على المُتصوِّفِ ، ويتأخَّرُ عنِ الصُّوفيِّ .

وقيلَ : إنَّ مِنْ أصولِ أهلِ المَلامَةِ أنَّ الذِّكْرَ علىٰ أربعةِ أقسامٍ : ذِكْرٍ باللِّسانِ ، وذِكْرٍ بالقلبِ ، وذِكْرٍ بالسِّرِّ ، وذِكْرٍ بالرُّوحِ(١)

فإذا صحَّ ذِكْرُ الرُّوحِ سَكَتَ السِّرُّ والقلبُ واللِّسانُ عنِ الذِّكْرِ ؛ وذلكَ ذِكْرُ المُشاهَدةِ .

وإذا صحَّ ذِكْرُ السِّرِّ سَكَتَ القلبُ واللِّسانُ عنِ الذِّكْرِ ؛ وذلكَ ذِكْرُ الهَيْبةِ .

وإذا صحَّ ذِكْرُ القلبِ فتَرَ اللِّسانُ عنِ الذِّكْرِ ؛ وذلكَ ذِكْرُ الآلاءِ والنَّعْماءِ .

وإذا غَفَلَ القلبُ عنِ الذِّكْرِ أَقْبلَ اللِّسانُ على الذِّكْرِ ؛ وذلكَ ذِكْرُ العادةِ .

ولكلِّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأذكارِ عندَهُم آفةٌ :

فآفةُ ذِكْرِ الرُّوحِ : اطِّلاعُ السِّرِّ عليهِ .

وآفةُ ذِكْرِ السِّرِّ : اطِّلاعُ القلبِ عليهِ .

---

(١) اعلم : أنَّ للقلب سرّاً ، وللرُّوح سرّاً ، فسِرُّ القلب : فَيْضُ نورِ الولاية العُلْويّة ، وسرُّ الرُّوح : فيضُ نور النبوَّة النبويَّة ، فإثباتُ السِّرِّ فوقَ القلب بالنظر إلى الفيض العُلْوي ، وإثباتُ السِّرِّ فوق الرُّوح بالنظر إلى الفيض النبوي ، وكلا السِّرَّين [يُشاهدُهما] السالكُ ؛ فإطلاقُ السِّرِّ علىٰ كليهما صحيحٌ ، ولا اختلافَ في الحقيقة بينَ مَنْ يُثبِتُ السِّرَّ فوقَ القلب ، وبينَ مَنْ يُثبِتُ فوق الروح ؛ لأنَّ كلا السِّرَّينِ واقعانِ يُشاهِدُهما السالكُ ويعرف منشأهما . من هامش (ح) .

وآفةُ ذِكْرِ القلبِ : اطِّلاعُ النَّفْسِ عليهِ .

وآفةُ ذِكْرِ النَّفْسِ[١] : رُؤْيةُ ذلكَ وتعظيمُهُ ، أو طلبُ ثوابٍ بهِ ، أو ظَنٌّ أنَّهُ يصلُ إلىٰ شيءٍ مِنَ المقاماتِ بهِ ، وأقلُّ الناسِ قيمةً عندَهُم : مَنْ يُرِيدُ إظهارَهُ وإقبالَ الخَلْقِ عليهِ بذلكَ .

وسِرُّ هٰذا الأصلِ الذي بَنَوْا عليهِ : أنَّ ذِكْرَ الرُّوحِ ذِكْرُ الذَّاتِ ، وذِكْرَ السِّرِّ ذِكْرُ الصِّفاتِ بزعمِهِم[٢] ، وذِكْرَ القلبِ مِنَ الآلاءِ والنَّعْماءِ ذكرُ أثَرِ الصِّفاتِ ، وذِكْرَ النَّفْسِ مُتعرِّضٌ للعِلَّاتِ .

فمعنىٰ قولِهِم : (اطِّلاعُ السِّرِّ على الرُّوحِ) يُشيرُونَ : إلى التحقُّقِ بالفناءِ عندَ ذِكْرِ الذَّاتِ[٣]

وذِكْرُ الهَيْبةِ في ذلكَ الوقتِ ذكرُ الصِّفاتِ ؛ وهوَ وجودُ الهَيْبةِ ، ووجودُ الهَيْبةِ يَسْتدعي وجوداً وبَقِيَّةً ، وذلكَ يُناقِضُ حالَ الفناءِ

وهكذا ذِكْرُ السِّرِّ وجودُ هَيْبةٍ وهوَ ذِكْرُ الصِّفاتِ . . مُشعِرٌ بنصيبِ القُرْبِ

وذكرُ القلبِ الذي هوَ ذِكْرُ الآلاءِ والنَّعْماءِ . . مُشعِرٌ ببُعْدٍ ما ؛ لأنَّهُ اشتغالٌ بذِكْرِ النِّعْمةِ وذُهُولٌ عنِ المُنعِمِ ، والاشتغالُ برُؤْيةِ العطاءِ عن رُؤْيةِ المُعطِي . . ضربٌ مِنْ بُعْدِ المنزلةِ ، واطِّلاعُ النَّفْسِ نظراً إلى الأَعْواضِ . .

---

(١) في نسخة علىٰ هامش (أ) : (اللسان) .

(٢) لا في مذهب الصُّوفيَّة ؛ لأنَّ ذكر السِّرِّ عندهم المشاهدة . من هامش (ح) .

(٣) أي : إذا كان الرُّوحُ ذاكراً يظهرُ أنوار الذات منه ؛ بحيثُ ينمحي عند لَمَعَانها جميعُ الكائنات في نَظَره . من هامش (ج) .

اعتدادٌ بوجودِ العملِ ، وذلكَ عينُ الاعتلالِ حقيقةً

وهٰذهِ أقسامُ هٰذهِ الطائفةِ ، وبعضُها أَعْلىٰ مِنْ بعضٍ ، واللهُ أعلمُ[1]

* * *

(١) في هامش (ب) : (بلغ قراءةً) ، وفي هامشه أيضاً : (بلغ السماع لهم في التاسع على أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام بن داود المقدسي)

الباب التاسع

في ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم

فمِنْ أولـٰئكَ قومٌ يُسمُّونَ نفوسَهُم : قَلَنْدَرِيَّةً تارةً[1] ، ومَلامَتِيَّةً أُخْرىٰ .

وقد ذَكَرْنا حالَ المَلامَتِيِّ ، وأنَّهُ حالٌ شريفٌ ، ومَقامٌ عزيزٌ ، وتمسُّكٌ بالسُّنَنِ والآثارِ ، وتَحقُّقٌ بالإخلاصِ والصِّدْقِ ، وليسَ ممَّا يَزعُمُ المفتونونَ بشيءٍ .

فأمَّا القَلَنْدَرِيَّةُ : فهوَ إشارةٌ : إلىٰ أقوامٍ مَلَكَهُم سُكْرُ طِيبةِ القلوبِ ؛ حتىٰ خرَّبُوا العاداتِ ، وطرحُوا التقيُّدَ بآدابِ المُجالَساتِ والمُخالَطاتِ ، وساحُوا في ميادينِ طِيبةِ قلوبِهِم ، فقَلَّتْ أعمالُهُم مِنَ الصَّومِ والصلاةِ إلا الفرائضَ ، ولم يُبالُوا بتَناوُلِ شيءٍ مِنَ الدُّنيا ولذَّاتِها مِنْ كلِّ ما كانَ مُباحاً برُخْصةِ الشَّرعِ ، وربَّما اختَصَرُوا علىٰ رعايةِ الرُّخْصةِ ، ولم يطلُبُوا حقائقَ العزيمةِ .

ومعَ ذلكَ هم مُتمسِّكُونَ بتَرْكِ الادِّخارِ ، وتَرْكِ الجَمْعِ والاستكثارِ ، لا يترسَّمُونَ بمراسمِ المُتقشِّفينَ والمُتزهِّدينَ والمُتعبِّدينَ[2] ، وقَنِعُوا بطِيبةِ

---

(١) قال محمد كرد علي في « خطط الشام » (٦/١٣٨) : (وقلندر : لفظة فارسية معناها : الدرويش الذي نفض يده من الدنيا ، وزَهِدَتْ نفسُهُ في زخارفها) .

(٢) المُتقشِّف : الذي يتبلَّغ بالقوت والمُرقَّع . « صحاح » . من هامش (ح) .

قلوبِهِم معَ اللهِ تعالىٰ[١] ، واقتصرُوا علىٰ ذلكَ ، وليسَ عندَهُم تطلُّعٌ إلىٰ طَلَبِ مَزيدٍ سوىٰ ما هم عليهِ مِنْ طِيبةِ القلوبِ .

والفَرْقُ بينَ المَلامَتِيِّ والقَلَنْدَرِيِّ : أنَّ المَلامَتِيَّ يعملُ في كَتْمِ العباداتِ ، والقَلَنْدَرِيَّ يعملُ في تخريبِ العاداتِ .

والمَلامَتِيَّ يتمسَّكُ بكلِّ أبوابِ البِرِّ والخيرِ ويرى الفضلَ فيهِ ، ولٰكن يُخفِي الأعمالَ والأحوالَ ، ويُوقِفُ نفسَهُ مَوقِفَ العوامِّ في هيئتِهِ وملبوسِهِ وحركاتِهِ وأمورِهِ ؛ سَتْراً للحالِ لئلا يُفطَنَ لهُ ، وهوَ معَ ذلكَ مُتطلِّعٌ إلىٰ طلبِ المزيدِ ، باذلٌ مجهودَهُ في كلِّ ما يتقرَّبُ بهِ العبيدُ

والقَلَنْدَرِيَّ لا يتقيَّدُ بهيئةٍ ، ولا يُبالي بما يُعرَفُ مِنْ حالِهِ وما لا يُعرَفُ ، ولا ينعطفُ إلَّا علىٰ طِيبةِ القلوبِ[٢] ، وهوَ رأسُ مالِهِ .

والصُّوفيُّ يضعُ الأشياءَ مواضعَها ، ويُدبِّرُ الأوقاتَ والأحوالَ كلَّها بالعِلْمِ ، يُقِيمُ الخَلْقَ مُقامَهُم ، ويُقِيمُ أمرَ الحقِّ مُقامَهُ ، ويَستُرُ ما ينبغي أنْ يُستَرَ ، ويُظهِرُ ما ينبغي أنْ يُظهَرَ ، ويأتي بالأمورِ في مواضعِها بحضورِ عَقْلٍ ، وصِحَّةِ توحيدٍ ، وكمالِ معرفةٍ ، ورعايةِ صدقٍ وإخلاصٍ

فقَوْمٌ مِنَ المفتونينَ سَمَّوا أنفسَهُم : مَلامَتِيَّةً ، ولَبِسُوا لِبْسةَ الصُّوفيَّةِ ؛ لِيُنسَبُوا بها إلى الصُّوفيَّةِ ، وما هم مِنَ الصُّوفيَّةِ بشيءٍ ، بل هم في غرورٍ وغَلَطٍ ، يتستَّرُونَ بلِبْسةِ الصُّوفيَّةِ توقِّياً تارةً ودعوىٰ أُخرىٰ[٣] ، وينتهجُونَ

---

(١) في (ز) ونسخة علىٰ هامش (أ) : (وتقنَّعوا) بدل (وقَنِعُوا) .

(٢) ولا ينعطف ؛ أي : لا يقوم ولا يثبت . من هامش (و)

(٣) قوله : (توقِّياً) ؛ أي : تحرُّزاً عن الناس . من هامش (ح) .

مناهجَ أهلِ الإباحةِ ، ويَزعُمُونَ أنَّ ضمائرَهُم خَلَصَتْ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويقولُونَ : هـٰذا هوَ الظَّفَرُ بالمُرادِ ، والارتسامُ بمراسمِ الشريعةِ رُتْبةُ العوامِّ ، وقاصِرِي الأفهامِ ، المُنحصِرينَ في مَضِيقِ الاقتداءِ تقليداً[1]

وهـٰذا هوَ عينُ الإلحادِ والزَّندقةِ والإبعادِ ؛ فكلُّ حقيقةٍ رَدَّتْها الشريعةُ فهيَ زندقةٌ[2]

وجَهِلَ هـٰؤلاءِ المغرورونَ أنَّ الشريعةَ حقُّ العُبُوديَّةِ ، والحقيقةَ هيَ حقيقةُ العُبُوديَّةِ ، ومَنْ صارَ مِنْ أهلِ الحقيقةِ تقيَّدَ بحقوقِ العُبُوديَّةِ وحقيقةِ العُبُوديَّةِ ، وصارَ مُطالَباً بأمورٍ وزياداتٍ لا يُطالَبُ بها مَنْ لم يَصِلْ إلىٰ ذلكَ ، لا أنَّهُ يخلَعُ عن عُنُقِهِ رِبْقَةَ التكليفِ[3] ، ويُخامِرُ باطنَهُ الزيغُ والتحريفُ[4]

(٢٧) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ ، عن أبيهِ الحافظِ المَقْدِسيِّ ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ الخطيبُ ، قالَ : حدَّثَنا أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ عمرَ ، قالَ : حدَّثَنا أبو بكرِ بنُ أبي داودَ ، قالَ : حدَّثَنا أحمدُ بنُ صالحٍ ، قالَ : حدَّثَنا عَنبَسَةُ ، قالَ : حدَّثَنا يونسُ بنُ يزيدَ ، قالَ : قالَ محمَّدٌ ـ يعني : الزُّهْريَّ ـ : أخبرَني حُميدُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ : أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عُتْبَةَ بنِ مسعودٍ حدَّثَهُ ،

---

(١) ويقولون : مقامُنا فوق هـٰذا . من هامش (ج) ، ولعلَّ هـٰؤلاءِ المنتسبين إلى الملامتية همُ الذين قصدهم ابنُ الجوزي في كتابه « تلبيس إبليس » (ص٣٢٠) .

(٢) الزنديق معروفٌ ، وزندقَتُهُ : أنَّهُ لا يؤمن بالآخرة ووحدانيَّةِ الخالق جلَّ جلالُهُ ، وقيل : مُلحِدٌ ودهري . « مغرب » . من هامش (ح) .

(٣) الرِّبْقُ : حبلٌ فيه عدَّة عُرىً ، يُشدُّ به البَهْم الصغار من أعناقها أو يدها لئلا ترضع ، كلُّ عروة منها رِبْقة ، وهنا استعارها للتكليف ؛ أي : ما يشُدُّ به نفسه من عُرا التكليف .

(٤) الزَّيغُ : الميل ؛ زاغت الشمس : مالت ؛ أي : عدلت يميناً وشمالاً من هامش (ح) .

قالَ : سمعتُ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (إنَّ أُناساً كانُوا يُؤخَذُونَ بالوحيِ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، وإنَّ الوحيَ قدِ انقطعَ ، وإنَّما نأخذُكُمُ الآنَ بما ظَهَرَ مِنْ أعمالِكُم ؛ فمَنْ أَظْهرَ لنا خيراً أَمِنَّاهُ وقَرَّبْناهُ ، وليسَ إلينا مِنْ سريرتِهِ شيءٌ ، اللهُ تعالىٰ يُحاسِبُهُ في سريرتِهِ ، ومَنْ أَظْهرَ لنا سوىٰ ذلكَ لم نَأْمَنْهُ وإنْ قالَ : سَرِيرتي حسنةٌ)[2]

وعنهُ أيضاً رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (مَنْ عَرَّضَ نفسَهُ للتُّهَمِ فلا يلومَنَّ مَنْ أساءَ بهِ الظنَّ)[3]

فإذا رأَيْنا مُتهاوِناً بحدودِ الشرعِ ، مُهمِلاً للصَّلواتِ المُفترَضات ، لا يعتدُّ بحلاوةِ التِّلاوةِ والصومِ والصلاةِ ، ويدخلُ في المداخلِ المكروهةِ المُحرَّمةِ . . نردُّهُ ولا نقبلُهُ ، ولا نقبلُ دَعْواهُ أنَّ لهُ سريرةً صالحةً

(٢٨) ـ أخبرَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ ضياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ إجازةً ، عن عمرَ بنِ أحمدَ ، عنِ ابنِ خلفٍ الشِّيرازيِّ ، عنِ السُّلَميِّ قالَ : سمعتُ أبا بكرٍ الرَّازيَّ يقولُ : سمعتُ أبا محمَّدٍ الجُرَيريَّ يقولُ : سمعتُ الجُنيدَ رحمةُ اللهِ عليهِ يقولُ لرجلٍ ذَكَرَ المعرفةَ ، فقالَ الرجلُ : أهلُ المعرفةِ باللهِ يَصِلُونَ إلىٰ تركِ الحَرَكاتِ مِنْ بابِ البِرِّ والتقوىٰ إلى اللهِ تعالىٰ[4] .

---

(١) أي : ما ينزل من الآيات في شأنهم يعرفون بها حقيقة أحوالهم ويُؤخذونَ بذلك . من هامش (ح) .

(٢) صفوة التصوف (٤) ، ورواه البخاري (٢٦٤١) .

(٣) رواه أبو داود في « الزهد » (٨٩) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٧٧) .

(٤) في نسخة علىٰ هامش (أ ، و) : (والتقرب) بدل (والتقوىٰ) ، وهي كذلك في « الحلية » و« الرسالة » .

فقالَ الجُنيدُ رحمةُ اللهِ عليهِ : إنَّ هـٰذا قولُ قومٍ تكلَّمُوا بإسقاطِ الأعمالِ ، وهـٰذهِ عندي عظيمةٌ ، والذي يسرقُ ويَزْني أحسنُ حالاً مِنَ الذي يقولُ هـٰذا ، وإنَّ العارفينَ باللهِ أَخَذُوا الأعمالَ عنِ اللهِ تعالىٰ وإليهِ يرجعُونَ فيها ، ولو بَقِيتُ ألفَ عامٍ لم أَنقُصْ مِنْ أعمالِ البرِّ ذَرَّةً ، إلا أنْ يُحالَ بي دونَها ، وإنَّها لآكَدُ في مَعْرفتي وأَقْوىٰ لحالي(١)

ومِنْ جملةِ أولـٰئكَ : قومٌ يقولُونَ بالحُلُولِ ، خَذَلَهُمُ اللهُ ، ويَزعُمُونَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يَحُلُّ فيهم ، ويَحُلُّ في أجسامٍ يَصْطفِيها ، ويَسبِقُ إلىٰ فُهُومِهِم معنىً مِنْ قولِ النَّصارىٰ في اللَّاهُوتِ والنَّاسُوتِ(٢)

ومِنْهُم : مَنْ يستبيحُ النَّظَرَ إلى المُستحسَناتِ(٣) ؛ إشارةً إلىٰ هـٰذا الوَهْمِ ، ويتخايلُ لهُ أنَّ مَنْ قالَ كلماتٍ في بعضِ غَلَباتِهِ كانَ مُضمِراً لشيءٍ ممَّا زعمُوهُ ؛ مثلُ قولِ الحلَّاجِ رحمةُ اللهِ عليهِ (أنا الحقُّ)(٤) ، وما يُحكىٰ عن أبي يزيدَ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ قولِهِ : (سُبْحاني)

---

(١) طبقات الصوفية (ص١٥٨ـ١٥٩) ، ورواه من طريقه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٧٨) ، والقشيري في « الرسالة » (ص١٥٤ـ١٥٥) .

(٢) اللاهوت : مُشتقٌّ من (الإلـٰه) ، والناسوتُ : مشتقٌّ من الإنسان ؛ يعني : قالتِ النصارى : اللهُ في جسد عيسىٰ . من هامش (ح) .

(٣) هم قومٌ يقولون بالشاهد ، وسمعت من بعض الأصحاب : أنَّ بعضاً من هـٰؤلاء القوم كان ضيفاً لي ، وكان لي مملوكٌ أمردُ ذو صورة حسنةٍ ، فلمَّا رآه قام وسجد لذلك المملوك ، فكفر في دعوى المعرفة . من هامش (ح) .

(٤) هـٰذه مَزَلَّةٌ للمغلوب حالةَ تجلِّي الروح الذي انعكس عليه نور تجلِّي الحق ولم يُذِبْهُ ، والروح المغلوب الذي فيه بقيَّةٌ من الوجود يتكلَّمُ بما يتكلَّمُ به الحقُّ والفرقُ بين تجلِّي الروح وتجلِّي الحقِّ صعبٌ عسير علىٰ مَنْ لم يكن تحت نَظَرِ مرشدٍ ذي تجربة . من هامش (ح)

حاشا للهِ أنْ يُعتقَدَ في أبي يزيدَ أنَّهُ يقولُ ذلكَ إلَّا علىٰ معنى الحكايةِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ[1] !! وهكذا ينبغي أنْ يُعتقَدَ في الحلَّاجِ قولُهُ ذلكَ[2] ، ولو عَلِمْنا أنَّهُ ذَكَرَ ذلكَ القولَ مُضمِراً لشيءٍ مِنَ الحُلُولِ . . رَدَدْناهُ كما نردُّهُم[3]

---

(١) أو أنَّهُ يُسبِّحُ اللهَ تعالىٰ ويصفُهُ بما وَصَفَ به نفسَهُ ، وهـٰذا إن صحَّ عنه ذلك ، وقد قال أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٤٧٣) في سياق ردِّه على ابن سالم البصري الذي كان يقدح في أبي يزيد : (وقد قصدتُ بسطامَ ، وسألت جماعةً من أهل بيت أبي يزيد رحمه الله عن هـٰذه الحكاية ، فأنكروا ذلك وقالوا : « لا نعرفُ شيئاً من ذلك » ، ولولا أنَّهُ شاع في أفواه الناس ودوَّنوه في الكتب . . ما اشتغلتُ بذكر ذلك) .

(٢) ومثل ذلك ينبغي أن يُعتقد في أكثر المشايخ المُحقِّقين من سادتنا الصوفية ؛ كالإمام العارف محيي الدين بن عربي ، والإمام العارف الشاعر شرف الدين بن الفارض ، وغيرهما ، وقال ابن الفارض في « تائيته الكبرىٰ » : (من الطويل)

وهـا دِحْيـةُ وافـى الأميـنُ نبيَّنـا ... بصـورتـهِ فـي بَـدْءِ وَحْـيِ النُّبـوَّةِ
أجبريلُ قُلْ لي كانَ دِحْيةَ إذْ بدا ... لِمُهْدي الهُدىٰ في هيئةٍ بشريَّةِ
وفي علمِهِ عن حاضِريهِ مَزيَّةٌ ... بماهيَّةِ المَرْئيِّ مِنْ غيرِ مِرْيةِ
يـرىٰ مَلَكـاً يُـوحـي إليـهِ وغيـرُهُ ... يرىٰ رجلاً يُدْعىٰ لديهِ بصُحبةِ
ولـي مِـنْ أتـمِّ الـرُّؤيتيـنِ إشـارةٌ ... تُنزِّهُ عـن رأيِ الحُلـولِ عقيـدتـي

انظر « ديوانه » (ص٧٣) ، وما سيأتي تعليقاً (٢/ ٥٢٠) عن الحلاج .

(٣) وتحقيقُهُ : أنَّ العبدَ إذا وصل إلىٰ مقام « فإذا أحببتُهُ كنتُ لهُ سمعاً وبصراً ولساناً ويداً » ، وكان في غلبات غليان المحبة ، فصار فانياً بنفسه قائماً بربه ؛ وذلك عند ظهور نور التجلِّي في باطنه . . فالحقُّ سبحانه في تلك الحال يتولَّىٰ أمرَهُ وينطق بلسانه ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « الحقُّ ينطقُ علىٰ لسانِ عمرَ » ، فما جرىٰ [علىٰ] لسان الحسين وأبي يزيد إخبارُ الحقِّ سبحانه عن حقيقته وتنزيهه . من هامش (ج) ، وانظر تحرير قول الحلَّاج وأبي يزيد البسطامي فيما أورده الإمام الحافظ الزَّبيدي في « إتحافه » (٦/ ٥٣٩ـ٥٤٠) نقلاً عن الغزالي في « مشكاة الأنوار » و« المقصد الأسنىٰ » ، وخيرُ مَنْ تكلَّم فيما ورد عن أبي يزيد الإمام أبو نصر الطوسي في « اللمع » ؛ إذ أورد في آخره أبواباً عديدة في تحقيق وتحرير ما نُقل عنه ونُسب إليه .

وقد أتانا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بشريعةٍ بيضاءَ نقيَّةٍ ، يستقيمُ بها كلُّ مُعْوَجٍّ ، وقد دلَّتْنا عقولُنا على ما يجوزُ وصفُ اللهِ تعالى بهِ وما لا يجوزُ .

واللهُ تعالى مُنزَّهٌ أنْ يَحُلَّ بهِ شيءٌ ، أو يَحُلَّ بشيءٍ ؛ حتى لعلَّ بعضَ المفتونينَ[1] يكونُ عندَهُ ذكاءٌ وفِطْنةٌ غَريزيَّةٌ ، ويكونُ قد سَمِعَ كلماتٍ تعلَّقَتْ بباطنِهِ ، فيتألَّفُ لهُ في فِكْرِهِ كلماتٌ يَنسُبُها إلى اللهِ تعالى ، وأنَّها مكالمةُ اللهِ تعالى إيَّاهُ[2] ؛ مثلُ أنْ يقولَ : (قالَ لي ، وقلتُ لهُ) .

وهٰذا إمَّا رجلٌ جاهلٌ بنفسِهِ وحديثِها ، جاهلٌ بربِّهِ وبكيفيَّةِ المُكالمةِ والمُحادثةِ ، وإمَّا عالِمٌ ببُطْلانِ ما يقولُ ، يحملُهُ هواهُ على الدَّعْوى بذلكَ ؛ ليُوهِمَ أنَّهُ قد ظَفِرَ بشيءٍ ، وكلُّ هٰذا ضلالٌ .

ويكونُ سببُ تجرُّئِهِ على هٰذا : ما سَمِعَ مِنْ كلامِ بعضِ المُحقِّقينَ مُخاطباتٍ وَرَدَتْ عليهِم مِنَ اللهِ تعالى بعدَ طُولِ مُعاملاتٍ لهُم ظاهرةٍ وباطنةٍ ، وتمسُّكِهِم بأصولِ القومِ ؛ مِنْ صِدْقِ التقوى ، وكمالِ الزُّهْدِ في الدُّنيا ، فلمَّا صَفَتْ أسرارُهُم تشكَّلَتْ في سرائرِهِم مُخاطَباتٌ مُوافِقةٌ للكتابِ والسُّنَّةِ ، نَزَلَتْ بِهِم تلكَ المُخاطَباتُ عندَ استغراقِ السَّرائرِ ، ولا يكونُ ذلكَ كلاماً يسمعُونَهُ ، بل كحديثٍ في النَّفْسِ يَجِدُونَهُ[3] ، يَرَوْنَهُ مُوافِقاً للكتابِ والسُّنَّةِ ، مفهوماً عندَ أهلِهِ ، مُوافِقاً للعِلْمِ .

---

(١) في نسخة على هامش (د) : (المفترين) .

(٢) بالتصوُّر والتقليد ، فتوهَّم الوصول إلى مقام المُحدَّثين والمُكلَّمين ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ في أمتي مُحدَّثينَ ومُكلَّمينَ ، وإنَّ عمرَ منهُم » . من هامش (ج) .

(٣) أي : يُشبِهُ حديثَ النفس في أنَّهُ ليس بكلامٍ لفظيٍّ يَرِدُ على القلب حين تميُّز القلب عن الروح المُستغرِق في اليقظة ، أو بين النوم واليقظة . من هامش (ح) .

ويكونُ ذلكَ مُناجاةً لسرائرِهِم ، ومُناجاةَ سرائرِهِم إيَّاهُم ، فيُثبِتُونَ لنفوسِهِم مَقامَ العُبُوديَّةِ ولمَوْلاهُمُ الرُّبُوبيَّةَ ، فيُضِيفُونَ ما يجدونَهُ إلىٰ نفوسِهِم وإلىٰ مَوْلاهُم ، وهم معَ ذلكَ عالِمُونَ بأنَّ ذلكَ ليسَ كلامَ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما هوَ عِلْمٌ حادثٌ أَحْدَثَهُ اللهُ في بواطِنِهِم[١]

فطريقُ الأصحَّاءِ في ذلكَ : الفِرارُ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ كلِّ ما تُحدِّثُ نفوسُهُم بهِ ، حتىٰ إذا بَرِئَتْ ساحتُهُم مِنَ الهوىٰ ، وأُلهِمُوا في بواطِنِهِم شيئاً . يَنسُبونَهُ إلى اللهِ تعالىٰ نِسبةَ الحادثِ إلى المُحدِثِ ، لا نسبةَ الكلامِ إلى المُتكلِّمِ ؛ ليُصانُوا عنِ الزَّيغِ والتحريفِ[٢]

ومِنْ أولـٰئكَ قومٌ يَزعُمُونَ أنَّهُم يغرقُونَ في بحارِ التوحيدِ[٣] ، ولا يُثبِتُونَ لنفوسِهِم حركةً وفِعْلاً ، ويَزعُمُونَ أنَّهُم مجبُورونَ على الأشياءِ ، وأنْ لا فِعْلَ لهُم معَ فِعْلِ اللهِ تعالىٰ[٤] ، ويسترسلُونَ في المعاصي وكلِّ

---

(١) كما أحدث النطقَ علىٰ ألسنتهم . من هامش (ج)

(٢) يعني : ما يجدونه في بواطنهم إلهامُ الحقِّ لهم بعد طُول المجاهدات ، وصفاء قلوبهم بالرِّياضات ، وهم يعلمون حيثيَّه بعناية الرَّب وصفاء القلب ، وينسُبونه إليه نِسْبةَ ما حَدَثَ إلىٰ مُحدِثه ؛ لتُصان به أنفسُهُم عن قول ما لا يجوزُ إلى الحق تعالىٰ شأنه . من هامش (ج) .

(٣) أي : يهلكون فيها ظنّاً منهم أنْ ليس في الوجود سوى الله ، وتصوُّراً أنَّ التوحيد نفيُ كلِّ فعلٍ سوىٰ فعل الله من هامش (ج) ، وبحار التوحيد ؛ أي : توحيد الأفعال . من هامش (ح) .

(٤) والحقُّ : أنَّ الإنسانَ مختارٌ في فعله ، أعطاه الله مِنْ فَيْضِ اختياره اختياراً ، كما أعطاه من فيض علمِهِ علماً ، ومن فيض سمعِهِ سمعاً ، ومن بصره بصراً ، وكذا أعطاه من وجوده وجوداً ، لـٰكن لمَّا كان الاختيارُ صفةً تقتضي استعلاءً واستبداءً . يظنُّ مَنْ ينظر بالنظر القاصر عن مشاهدة نور القدرة في الحكمة أنَّ الأفعالَ الاختيارية تَصدُرُ عن العباد=

ما تدعو النفسُ إليهِ ، ويركُنونَ إلى البَطَالةِ ودوامِ الغفْلةِ ، والاغترارِ باللهِ تعالىٰ ، والخروجِ مِنَ المِلَّةِ ، وتَرْكِ الحُدُودِ والأحكامِ ، والحلالِ والحرامِ .

وقد سُئِلَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ عن رجلٍ كانَ يقولُ : أنا كالبابِ لا أتحرَّكُ إلَّا إذا حُرِّكتُ[1] ، فقالَ : هٰذا لا يقولُهُ إلَّا أحدُ رجلَينِ : إمَّا صِدِّيقٌ ، أو زِنْديقٌ

لأنَّ الصِّدِّيقَ يقولُ هٰذا القولَ إشارةً إلىٰ أنَّ قِوامَ الأشياءِ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، معَ إِحْكامِ الأصولِ ، ورعايةِ حُدُودِ العُبُوديَّةِ ، والزِّنْديقَ يقولُ ذلكَ ؛ إحالةً للأشياءِ على اللهِ تعالىٰ ، وإسقاطاً للَّائمةِ عن نفسِهِ ، وانخلاعاً عنِ الدِّينِ ورَسْمِهِ .

فأمَّا مَنْ كانَ مُعتقِداً للحلالِ والحرامِ ، والحدودِ والأحكامِ ، مُعترِفاً بالمعصيةِ إذا صَدَرَتْ منهُ ، مُعتقِداً وجوبَ التوبةِ منها . . فهوَ سليمٌ صحيحٌ ، وإنْ كانَ تحتَ القصورِ بما يَركُنُ إليهِ مِنَ البَطَالةِ ، ويستروحُ بهوى النَّفْسِ إلى الأَسْفارِ والتردُّدِ في البلادِ ، مُتوصِّلاً إلىٰ تناولِ اللَّذائذِ والشَّهَواتِ ، غيرَ مُتمسِّكٍ بشيخٍ يُؤدِّبُهُ ويُهذِّبُهُ ، ويُبصِّرُهُ بعيبِ ما هوَ فيهِ ، واللهُ المُوفِّقُ والمُعِينُ[2]

❁ ❁ ❁

= فقط ؛ وهم المعتزلةُ ، أو القاصرِ عن نور الحكمة في ظهور نور القدرة . . يظنُّ أنَّ الفعلَ لا يصدُرُ إلا من الله بلا واسطةِ اكتسابِ العباد ؛ وهم الجَبْرية ، والعارفُ البصيرُ يعرفُ أنَّ الله حكيمٌ قادر تقتضي حكمتُهُ ترتيبَ الأسباب ، وتقتضي قدرتُهُ تخريبَها ؛ يفعلُ ما يشاء ، ويحكم ما يريد . من هامش (ح) .

(١) في نسخة علىٰ هامش (د) : (كالبان) بدل (كالباب) .

(٢) في هامش (ب) : (بلغ في السادس على الحافظ جلال الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي) .

الباب العاشر

في شرح رتبة المشيخة (1)

وَرَدَ في الخبرِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَٱلَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ؛ لَئِنْ شِئْتُمْ لَأُقْسِمَنَّ لَكُمْ(2) ؛ أَنَّ أَحَبَّ عِبَادِ ٱللهِ إِلَى ٱللهِ : ٱلَّذِينَ يُحَبِّبُونَ ٱللهَ إِلَىٰ عِبَادِهِ ، وَيُحَبِّبُونَ عِبَادَ ٱللهِ إِلَى ٱللهِ ، وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِٱلنَّصِيحَةِ »(3)

وهٰذا الذي ذَكَرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : هوَ رُتْبَةُ المَشْيَخَةِ والدَّعوةِ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ الشيخَ يُحبِّبُ اللهَ إلىٰ عبادِهِ حقيقةً ، ويُحبِّبُ عبادَ اللهِ إلى اللهِ تعالىٰ .

ورُتْبةُ المَشْيَخَةِ مِنْ أَعْلى الرُّتَبِ في طريقِ الصُّوفيَّةِ ، ونيابةِ النُّبوَّةِ في الدعاءِ إلى اللهِ تعالىٰ .

---

(1) المَشْيَخَة : جمع (الشيخ) ، والمشايخ : جمع الجمع . من هامش (ح) .

(2) قوله : (لئن شئتُم لأُقسِمَنَّ لكم) هي إشارةٌ : إلىٰ أنَّ المسلم لا يُقسِمُ بالله إلا في ضرورة . من هامش (ح) .

(3) رواه أبو الشيخ في « التنبيه والتوبيخ » (ص٢٢) مرسلاً عن الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٥) موصولاً عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٣٦) عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (والذي نفسي بيده. . .) .

فأمَّا وجهُ كونِ الشيخِ يُحبِّبُ عبادَ اللهِ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ الشيخَ يسلُكُ بالمريدِ طريقَ الاقتداءِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ومَنْ صحَّ اقتداؤُهُ برسولِ اللهِ واتِّباعُهُ أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

ووجهُ كونِهِ يُحبِّبُ اللهَ تعالىٰ إلىٰ عبادِهِ ؛ لأنَّهُ يسلُكُ بالمريدِ طريقَ التَّزْكيةِ والتحليةِ ، وإذا تزكَّتِ النفسُ انجلَتْ مِرْآةُ القلبِ ، وانعكسَ فيهِ أنوارُ العَظَمةِ الإلـٰهيَّةِ ، ولاحَ فيهِ جمالُ التوحيدِ ، وانجذبَتْ أَحْداقُ البصيرةِ إلىٰ مُطالَعةِ جلالِ أنوارِ القِدَمِ(١) ، ورُؤْيةِ الكمالِ الأَزَليِّ ، فأَحَبَّ العبدُ ربَّهُ لا محالةَ ، وذلكَ ميراثُ التَّزْكيةِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] ، وفلاحُها(٢) بالظَّفَرِ بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ .

وأيضاً : مِرْآةُ القلبِ إذا انجلَتْ لاحتْ فيها الدُّنيا بقُبْحِها وحقيقتِها وماهيَّتِها ، ولاحتِ الآخرةُ ونفائسُها بكُنْهِها وغايتِها ، فتَنكشِفُ للبصيرةِ حقيقةُ الدَّارينِ ، وحاصلُ المنزلَينِ ، فيُحِبُّ العبدُ الباقيَ ، ويزهدُ في الفاني ، فتظهرُ فائدةُ التَّزْكيةِ ، وجَدْوى المَشْيَخَةِ والتَّربيةِ

فالشيخُ مِنْ جنودِ اللهِ تعالىٰ ؛ يُرشِدُ بهِ المُريدِينَ ، ويَهْدي بهِ الطَّالبِينَ .

(٢٩) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ ، عن أبيهِ الحافظِ المَقْدِسيِّ ، قالَ : أخبرَنا أبو الفضلِ عبدُ الواحدِ بنُ عليٍّ بهَمَذَانَ ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ

---

(١) انجذبتْ ؛ أي : امتدَّت . من هامش (و) ، وفي النسخ ما عدا (ي) : (جلال القدم) بدل (جلال أنوار القدم) ، وفي (ط) : (أنوار جلال القدم) .

(٢) أي : فلاح النفس . من هامش (و) .

عليِّ بنِ أحمدَ الطُّوسيُّ ، قالَ : حدَّثَنا أبو العبَّاسِ محمَّدُ بنُ يعقوبَ ، قالَ : حدَّثَنا أبو عُتْبَةَ[1] ، قالَ : حدَّثَنا بَقِيَّةُ ، قالَ : حدَّثَنا صفوانُ بنُ عمرٍو ، قالَ حدَّثَني الأزهرُ بنُ عبدِ اللهِ ، قالَ سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ بُسْرٍ صاحبَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ (كانَ يُقالُ : إذا اجتمعَ عشرونَ رجلاً أو أكثرُ : فإنْ لم يكنْ فيهِم مَنْ يُهابُ للهِ عزَّ وجلَّ . . فقد حَضَرَ الأمرُ)[2]

فعلى المشايخِ وَقَارُ اللهِ تعالىٰ ، وبهِم يتأدَّبُ المُريدُونَ ظاهراً وباطناً ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠]

فالمشايخُ لمَّا اهتدَوْا أُهِّلُوا للاقتداءِ بهِم ، وجُعِلُوا أئمَّةَ المُتَّقِينَ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حاكياً عن ربِّهِ تعالى : « إِذَا كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَىٰ عَبْدِي ٱلِٱشْتِغَالَ بِي . . جَعَلْتُ هَمَّهُ وَلَذَّتَهُ فِي ذِكْرِي[3] ، فَإِذَا جَعَلْتُ هَمَّهُ وَلَذَّتَهُ فِي ذِكْرِي[4] . . عَشِقَنِي وَعَشِقْتُهُ ، وَرَفَعْتُ ٱلْحِجَابَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، لَا يَسْهُو إِذَا سَهَا ٱلنَّاسُ ، أُولَـٰئِكَ كَلَامُهُمْ كَلَامُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، أُولَـٰئِكَ ٱلْأَبْدَالُ حَقّاً[5] ،

---

(١) في بعض النسخ : (أبو عيينة) ، والصواب المثبت ، وأبو عتبة : هو الإمام المُعمَّر المُحدِّث أحمد بن الفَرَج بن سليمان الكندي الحمصي الحجازي المُؤذِّن (ت ٢٧١هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٥٨٤) .

(٢) أي أشرف على موجب الهلاك . من هامش (ج) ، والحديث أسنده عن الحافظ المقدسي في « صفوة التصوف » (١٢٦) ، ورواه أحمد (٤/ ١٨٨) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (١٠٠٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٦٥٨) .

(٣) في (د) : (هumومه) بدل (همه) ، وفي (ي) : (همته) .

(٤) في (د ، هـ) : (همته) بدل (همه)

(٥) في (د ، ح ، ي) : (الأبطال) بدل (الأبدال) ، وكذلك هو في « الحلية » ، =

أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ بِأَهْلِ ٱلْأَرْضِ عُقُوبَةً أَوْ عَذَاباً . . ذَكَرْتُهُمْ فَصَرَفْتُهُ بِهِمْ عَنْهُمْ »(1)

والسِّرُّ في وصولِ السَّالِكِ إلىٰ رُتْبةِ المَشْيَخَةِ : أنَّ السَّالكَ مأمورٌ بسياسةِ النَّفْسِ(2) ، مُبتلىً بصفاتِها ، لا يزالُ يسلُكُ بصِدْقِ المُعاملةِ حتىٰ تطمئنَّ نفسُهُ(3) ، وبطُمَأْنينتِها يُنتزَعُ عنها البُرُودةُ واليُبُوسةُ التي استصحبَتْها مِنْ أصلِ خِلْقتِها ، وبها تستعصي علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ والانقيادِ للعُبُوديَّةِ .

فإذا زالتِ اليُبُوسةُ عنها ، ولانتْ بحرارةِ الرُّوحِ الواصلةِ إليها(4) ، وهـٰذا اللِّينُ هوَ الذي ذكرَهُ اللهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٣] . . تُجيبُ إلى العبادةِ ، وتلينُ للطاعةِ عندَ ذلكَ .

وقلبُ العبدِ مُتوسِّطٌ بينَ الرُّوحِ والنَّفْسِ ، ذو وجهينِ ؛ أحدُ وجهَيهِ إلى النَّفْسِ ، والوجهُ الآخَرُ إلى الرُّوحِ ، يستمدُّ مِنَ الرُّوحِ بوجهِهِ الذي يليهِ ،

= والأبطال : جمع (بَطَل) ؛ وهو الشجاع ، فهـٰؤلاء الموصوفون هم الشجعان في محاربة النفس والشيطان ، ولا يُبالون ببَذْل الرُّوح لنيل الغنيمة والفتوح من المشاهدة والمواصلة ، ليس لهم جُبْنٌ وإحجام ، ولا انصرافٌ وانهزام . من هامش (ح) .

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٦٥) مرسلاً عن الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ ، وقال أبو نعيم : (كذا رواه عبد الواحد عن الحسن مرسلاً ، وهـٰذا الحديث خارج من جملة الأحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن ؛ لمكان محمد بن الفضل وعبد الواحد ، وما يرجعان إليه من الضعف) ، وذكر الغماري في « غنية العارف » (١/ ١٣٦) أنه لم يجده .

(2) السياسة : المحافظة ؛ تقولُ : سُسْتُ القومَ أَسُوسُهُم سياسةً : إذا وُلِّيت تدبيرَهم وأمرهم . من هامش (ج) .

(3) وتذهبَ عنها الأخلاق الذميمة . من هامش (ج) .

(4) في بعض النسخ : (الواصل إليها) .

ويُمِدُّ النَّفْسَ بوجهِهِ الذي يليها ؛ حتىٰ تطمئنَّ النفسُ ، فإذا اطمأنَّتْ نَفْسُ السالكِ ، وفَرَغَ مِنْ سياستِها . . انتهىٰ سلوكُهُ ، وتمكَّنَ مِنْ سياسةِ النَّفْسِ ، وانقادَتْ نفسُهُ ، وفاءَتْ إلىٰ أَمْرِ اللهِ تعالىٰ .

ثمَّ القلبُ يَشْرئبُّ إلى السياسةِ[1] ؛ لما فيهِ مِنَ التوجُّهِ إلى النَّفْسِ ، فتقومُ نُفُوسُ المُرِيدينَ والطَّالبينَ والصَّادقينَ عندَهُ مَقامَ نَفْسِهِ ؛ لوجودِ الجِنْسيَّةِ في عينِ النَّفْسيَّةِ مِنْ وجهٍ ، ولوجودِ التألُّفِ بينَ الشيخِ والمُرِيدِ مِنْ وجهٍ بالتأليفِ الإلـٰهيِّ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

فيَسُوسُ[2] نُفُوسَ المُرِيدينَ كما كانَ يَسُوسُ نفسَهُ مِنْ قبلُ ، ويكونُ في الشيخِ حينئذٍ معنى التخلُّقِ بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ؛ مِنْ معنىٰ قولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حاكياً عن ربِّهِ : « أَلَا طَالَ شَوْقُ ٱلْأَبْرَارِ إِلَىٰ لِقَائِي ، وَإِنِّي إِلَىٰ لِقَائِهِمْ لَأَشَدُّ شَوْقاً »[3] ، وبما هَيَّأَ اللهُ تعالىٰ مِنْ حُسْنِ التأليفِ بينَ الصاحبِ والمصحوبِ . . يصيرُ المُرِيدُ جزءَ الشيخِ ، كما أنَّ الولدَ جزءُ

---

(١) يُقال : اشرأبَّ للشيء : مدَّ عُنُقَهُ لينظر . من هامش (ج ، و) .
(٢) أي : يُصلح بالرعاية . من هامش (ح) .
(٣) يعني : هم يحبُّونني ويُعظِّمُونني ويُثنُون عليَّ مع عجزهم وقصورهم ، وإنِّي أُحبُّهُم وأُعظِّمُهُم وأُثني عليهم في ملائكتي ، وإنَّ صنيعي بهم أبلغُ لهم وأكثر ؛ لأنِّي قادر علىٰ ما أشاء . من هامش (ح) ، والحديث رواه الديلمي في « الفردوس » (٨٠٦٧) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٩٣) عن سهل بن عبد الله التستري يحكيه عن الله تعالىٰ ، ورواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، بلفظ : « مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَهُ » ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٣٨) .

الوالدِ في الولادةِ الطبيعيَّةِ ، وتصيرُ هٰذهِ الولادةُ آنفاً ولادةً معنويَّةً ، كما وَرَدَ عن عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لن يَلِجَ ملكوتَ السماءِ مَنْ لم يُولَدْ مرَّتَينِ) .

فبالوِلادةِ الأُولىٰ[١] يصيرُ لهُ ارتباطٌ بعالَمِ المُلْكِ ، وبهٰذهِ الوِلادةِ يصيرُ لهُ ارتباطٌ بالمَلَكُوتِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

وصِرْفُ اليقينِ على الكمالِ يَحصُلُ في هٰذهِ الوِلادةِ ، وبهٰذهِ الوِلادةِ يستحقُّ ميراثَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم ، ومَنْ لم يَصِلْهُ ميراثُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ . . ما وُلِدَ[٢] وإنْ كانَ على كمالٍ مِنَ الفِطْنةِ والذَّكاءِ[٣] ؛ لأنَّ الفِطْنةَ والذَّكاءَ نتيجةُ العقلِ[٤] ، والعقلُ إذا كانَ يائساً مِنْ نورِ الشَّرْعِ لا يدخلُ المَلَكُوتَ ، ولا يزالُ مُتردِّداً في المُلْكِ ؛ ولهٰذا وَقَفَ[٥] علىٰ بُرْهانٍ مِنَ العلومِ الرِّياضيَّةِ[٦] ؛ لأنَّهُ تصرَّفَ في المُلْكِ ولم يرتقِ إلى المَلَكُوتِ .

والمُلْكُ ظاهرُ الكونِ ، والمَلَكوتُ باطنُ الكونِ ، والعقلُ لسانُ الرُّوحِ[٧] ،

---

(١) أي : ولادة المريد مع الشيخ . من هامش (ح) .

(٢) أي : ولادة معنوية . من هامش (ح) .

(٣) كحكماء الفلاسفة مثلاً

(٤) يحتمل في (ب) : (منحة) بدل (نتيجة) .

(٥) أي : العقل .

(٦) أي : المصطلحة المُسمَّاة عند الناس : (رياضية) ؛ وهي المعقولات نتائج الأفكار ، وثمرات الأنظار العَرِيَّة عن الأنوار . من هامش (ح) .

(٧) قال الشيخ رحمه الله العقل قسمان : عقلٌ حال بنور الهداية ، وعقلٌ مكحلٌ بنور الهداية ومنزلِ العقل الأول وخلاصتِهِ ، وأولو الألبابِ أصحابُ هٰذا العقل ، وهو لسانُ=

والبصيرةُ التي تنبعثُ منها أَشِعَّةُ الهدايةِ قلبُ الروحِ[1] ، واللِّسانُ تَرْجُمانُ القلبِ ، فكلُّ ما ينطقُ بهِ التَّرْجُمانُ[2] معلومٌ عندَ مَنْ يُترجِمُ عنهُ ، وليسَ كلُّ ما عندَ مَنْ يُترجِمُ عنهُ يبرزُ إلى التَّرْجُمانِ .

فلهٰذا المعنىٰ حُرِمَ الواقفونَ معَ مُجرَّدِ العقولِ العَرِيَّةِ عن نورِ الهدايةِ الذي هوَ موهبةُ اللهِ تعالىٰ عندَ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ وأَتْباعِهِم . . الصوابَ[3] ، وأُسبِلَ دونَهُمُ الحجابُ ؛ لوقوفِهِم معَ التَّرْجُمانِ ، وحِرْمانِهِم غايةَ التِّبْيانِ

وكما أنَّ في الولادةِ الطبيعيَّةِ ذَرَّاتُ الأولادِ في صُلْبِ الأبِ مُودَعةٌ ، ينتقلُ إلىٰ أَصْلابِ الأولادِ بعددِ كلِّ ولدٍ ذَرَّةٌ ، وهيَ الذَّرَّاتُ التي خاطبَها اللهُ تعالىٰ يومَ المِيثاقِ بـ ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ؛ حيثُ مَسَحَ ظهرَ آدمَ عليهِ السلامُ وهوَ مُلقىً ببطنِ نَعْمانَ بينَ مَكَّةَ والطائفِ ، فسالتِ الذَّرَّاتُ مِنْ مَسامِّ جسدِهِ ـ كما يسيلُ العَرَقُ ـ بعددِ كلِّ ولدٍ مِنْ ولدِ آدمَ ذرَّةٌ ، ثمَّ لمَّا خُوطِبَتْ وأجابتْ رُدَّتْ إلىٰ ظهرِ آدمَ[4] ؛ فمِنَ الآباءِ مَنْ تَنفُذُ الذَّرَّاتُ في

= الروح ، فكلُّ إدراكٍ يكونُ لهٰذا العقل فذلك من نور الروح المنوَّرِ بنور الحق

وكذلك البصيرة قسمان : الأول : بصيرة القلب ؛ وهو ما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، ووجدانُ التوحيدِ والدِّينِ بهٰذه البصيرة ، الثاني : بصيرةٌ يظهر منها أشعَّةُ الهدايةِ إلىٰ ذاتِ الحقِّ وحقيقةِ التوحيد ومعرفة الصفات ؛ وهي قلبُ الروح وخُلاصتُهُ ولُبُّهُ . من هامش (ج) .

(١) لمَّا كانتِ البصيرةُ صفةَ القلب . . سمَّاها قلباً ؛ تسميةً للصفة باسم الموصوف . من هامش (ح) .

(٢) أي : العقل أو اللسان . من هامش (ح) .

(٣) قوله : (الصوابَ) هو مفعولٌ ثانٍ لقوله : (حُرِم) ، ومفعولُهُ الأوَّل هو (الواقفون) نائب الفاعل .

(٤) انظر ما سبق (١/ ١٧٥ـ ١٧٧) .

صُلْبِهِ ، ومنهُم مَنْ لم تُودَعْ في صُلْبِهِ ، فينقطعُ نسلُهُ .

هكذا في المشايخِ ؛ منهُم مَنْ يكثُرُ أولادُهُ[(١)] ، ويأخذُونَ منهُ العلومَ والأحوالَ ، ويُودِعُونَها غيرَهُم كما وَصَلَتْ إليهِم مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بواسطةِ الصُّحْبةِ[(٢)] ، ومنهُم مَنْ تَقِلُّ أولادُهُ[(٣)] ، ومنهُم مَنْ ينقطعُ نسلُهُ .

وهٰذا النَّسْلُ هوَ الذي رَدَّ اللهُ على الكفارِ ؛ حيثُ قالُوا : محمَّدٌ أبترُ لا نسلَ لهُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر : ٣][(٤)] ، وإلَّا فرسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نسلُهُ باقٍ إلىٰ أنْ تقومَ الساعةُ .

وبالنسبةِ المعنويَّةِ يَصِلُ ميراثُ العِلْمِ إلىٰ أهلِ العِلْمِ .

(٣٠) ـ حدَّثَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ ضياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ السُّهرُوَرْديُّ إملاءً ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمـٰنِ المَالِينيُّ[(٥)] ، قالَ : أخبرَنا

---

(١) أي : المعنوية ؛ وهي الولادة الثانية ، أُودع في صُلْب معناه ذرَّاتُ الأولاد المعنويَّة . من هامش (ج) .

(٢) أي : الصحبةِ المتصلة بالوسائط إلىٰ أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . من هامش (ح) .

(٣) لأنَّهُ لم تُودع في صُلْب معناه الذَّرَّات المعنوية إلا قليلاً . من هامش (ج) .

(٤) انظر « تفسير الطبري » (٢٤/٦٥٧ـ ٦٥٨) ، وفي هامش (ج) : (شانئك ؛ أي : مبغضك هو المنقطع لا نسلَ له معنوياً ولا صُورياً ؛ لانقطاعه بالإسلام ، وانقطاعِ ذِكْرِهِ بين الأنام ، وأن يُذكرَ باللعنة والانصرام) .

(٥) المالِيني : نسبة إلىٰ (مالِينَ) ؛ وهي قرىً مجتمعةٌ من أعمال هَرَاةَ إحدىٰ أُمَّات مدن خراسان ، والمالِيني : هو مسند الدنيا الإمام أبو عبد الرحمـٰن أو أبو الوقت محمد أو عبد الأول بن أبي عبد الله عيسى بن شعيب السِّجْزي الهروي الماليني (ت٥٥٣هـ) ، وسيُنبَّهُ على الاختلاف في كنيته واسمه في (٢/ ٤٤) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٣٠٣) ، =

أبو الحسنِ الدَّاوُديُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ الحَمُّويُّ[1] ، قالَ أخبرَنا أبو عِمْرَانَ السَّمَرْقَنْديُّ[2] ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ الدَّارِميُّ ، قالَ : أخبرَنا نصرُ بنُ عليٍّ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ اللهِ بنُ داودَ ، عن عاصمِ [بنِ] رجاءِ بنِ حَيْوَةَ[3] ، عن داودَ بنِ جَميلٍ ، عن كَثيرِ بنِ قيسٍ قالَ : كنتُ جالساً معَ أبي الدَّرْداءِ في مسجدِ دمشقَ ، فأتاهُ رجلٌ فقالَ يا أبا الدَّرْداءِ ؛ إنِّي أَتيتُكَ مِنَ المدينةِ مدينةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحديثٍ بَلَغَني عنكَ أنَّكَ تُحدِّثُهُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فما جاءَ بكَ تجارةٌ ؟ قالَ : لا ، قالَ : ولا جاءَ بكَ غيرُهُ ؟ قالَ : لا

قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ بِهِ عِلْماً . سَلَكَ ٱللهُ بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ ٱلْجَنَّةِ ، وَإِنَّ ٱلْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ ٱلْعِلْمِ ، وَإِنَّ طَالِبَ ٱلْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ

= و« معجم البلدان » (٥/ ٤٤) ، و« اللباب في تهذيب الأنساب » (٣/ ١٥٥) .

(١) الحَمُّويُّ : هو الإمام المُحدِّث المسند أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حَمُّويَه السَّرَخسي (ت ٣٨١هـ) ، والحَمُّويُّ : نسبة إلىٰ جده (حَمُّويَه) ، وجاء في النسخ ما عدا (و) : (الحموي) ، وضُبط في بعضها بفتح الميم والواو ، وهو خطأ والصواب المثبت ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ٤٩٢) ، و« اللباب في تهذيب الأنساب » (١/ ٣٩٢) .

(٢) هو الإمام المُحدِّث المسند عيسى بن عمر صاحبُ أبي محمد الدارمي صاحب « المسند » ، كان حيّاً بسمرقند سنة (٣٢٠هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٤٨٧) .

(٣) هو الكندي الفلسطيني (ت بعد ١٤١هـ) ، يروي عن داود بن جميل وغيره ، وانظر « تهذيب الكمال » (١٣/ ٤٨٣) ، وفي النسخ : (عن رجاء) بدل (بن رجاء) ، والمثبت من مصادر تخريجه الآتية .

وَٱلْأَرْضِ حَتَّى ٱلْحِيتَانُ فِي ٱلْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ ٱلْعَالِمِ عَلَى ٱلْعَابِدِ كَفَضْلِ ٱلْقَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ ٱلنُّجُومِ ، وَإِنَّ ٱلْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ ٱلْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً ، إِنَّمَا وَرَّثُوا ٱلْعِلْمَ[1] ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظِّهِ » ، أو « بِحَظٍّ وَافِرٍ »[2]

فأوَّلُ ما أُودِعَتِ الحِكْمةُ والعلمُ : عندَ آدمَ أبي البشرِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ثمَّ انتقلَ منهُ ، كما انتقلَ منهُ النِّسْيانُ والعِصْيانُ ، وما تدعو إليهِ النَّفْسُ والشيطانُ ، كما وَرَدَ : أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَمَرَ جبريلَ حتىٰ أَخَذَ قبضةً مِنْ أجزاءِ الأرضِ[3]

واللهُ تعالىٰ نَظَرَ إلى الأجزاءِ الأَرْضيَّةِ التي كوَّنَها مِنَ الجوهرةِ التي خَلَقَها أوَّلاً ، فصارَ مِنْ مواقعِ نَظَرِ اللهِ إليها فيها خاصِّيَّةُ السَّماعِ مِنَ اللهِ تعالىٰ والجوابِ ؛ حيثُ خاطبَ السماواتِ والأَرَضِينَ بقولِهِ ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١]

فحَمَلَتْ أجزاءُ الأرضِ بهٰذا الخطابِ خاصِّيَّةً[4] ، ثمَّ انتُزِعَتْ هٰذهِ الخاصِّيَّةُ منها بأَخْذِ أجزائِها لتركيبِ صورةِ آدمَ عليهِ السلامُ ، فرُكِّبَ جسدُ آدمَ صلواتُ اللهِ عليهِ مِنْ أجزاءٍ أَرْضيَّةٍ مُحتويةٍ علىٰ هٰذهِ الخاصِّيَّةِ .

---

(١) في (أ ، د ، ز) : (أورثوا) بدل (ورَّثوا) .

(٢) مسند الدارمي (٣٥٤) ، ورواه أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٣) رواه أبو داود (٤٦٩٣) ، والترمذي (٢٩٥٥) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وانظر (١/ ١٧٦) ، و« غنية العارف » (١/ ١٤١ـ١٤٢) .

(٤) أي : خاصِّية السماع والجواب . من هامش (ج) .

فمِنْ حيثُ نسبةُ أجزاءِ الأرضِ تَرَكَّبَ فيهِ الهوىٰ ؛ حتَّىٰ مَدَّ يدَهُ إلىٰ شجرةِ الفناءِ ؛ وهيَ شجرةُ الحِنْطةِ في أكثرِ الأقاويلِ[1] ، فتطرَّقَ إلىٰ قالَبِهِ الفناءُ ، وبإكرامِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ بَنفْخِ الرُّوحِ الذي أخبرَ عنهُ بقولِهِ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : ٢٩]. . نالَ العلمَ والحكمةَ ؛ فبالتسويةِ صار ذا نَفْسٍ مَنْفُوسةٍ ، وبنفخِ الرُّوحِ فيهِ صارَ ذا رُوحٍ رُوحانيٍّ ، وشرحُ هـٰذا يطولُ

فصارَ قلبُهُ مَعدِنَ الحِكْمةِ ، وقالَبُهُ مَعدِنَ الهوىٰ ، فانتقلَ منهُ العِلْمُ والهوىٰ ، وصارَ ميراثُهُ في ولدِهِ ؛ فصارَ مِنْ طريقِ الوِلادةِ الظاهرةِ أباً بواسطةِ الطبائعِ التي هيَ مَحتِدُ الهوىٰ[2] ، ومِنْ طريقِ الوِلادةِ المعنويَّةِ أباً بواسطةِ العِلْمِ

فالوِلادةُ الظاهرةُ تطرَّقَ إليها الفناءُ ، والوِلادةُ المعنويَّةُ مَحْمِيَّةٌ مِنَ الفناءِ ؛ لأنَّها وُجِدَتْ مِنْ شجرةِ الخُلْدِ ، وهيَ شجرةُ العِلْمِ ، لا شجرةُ الحِنْطةِ التي سمَّاها إبليسُ شجرةَ الخُلْدِ ، فإبليسُ يُري الشيءَ بضدِّهِ .

فتَبَيَّنَ : أنَّ الشيخَ هوَ الأبُ معنىً .

وكثيراً كانَ شيخُنا شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمَهُ اللهُ

---

(١) وهو قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وانظر الأقوال في ذلك في « تفسير الطبري » (١/٥١٦ـ٥٢٠) ، و« النكت والعيون » (١/١٠٥) ، وقال الطبري بعد ذكره الأقوال : (فالصواب في ذلك أن يُقال : إنَّ الله جلَّ ثناؤه نهىٰ آدمَ وزوجته عن أكل شجرةٍ بعينها من أشجار الجنَّة دون سائر أشجارها ، فخالفا إلىٰ ما نهاهما الله عنه ، فأكلا منها كما وصفهما اللهُ جلَّ ثناؤه به ، ولا علمَ عندنا أيُّ شجرة كانت على التعيين ؛ لأنَّ الله لم يضع لعباده دليلاً علىٰ ذلك في القرآن ولا في السُّنَّة الصحيحة ، فأنَّىٰ يأتي ذلك ؟!)

(٢) المَحْتِد : الأصل .

يقولُ : (ولدي : مَنْ سَلَكَ طريقي واهتدىٰ بهَدْيي) .

فالشيخُ الذي يُكتسَبُ بطريقِهِ الأحوالُ : قد يكونُ مأخوذاً في ابتدائِهِ في طريقِ المُحبِّينَ ، وقد يكونُ مأخوذاً في طريقِ المحبوبينَ ؛ وذلكَ أنَّ أمرَ الصالحينَ والسالكينَ ينقسمُ أربعةَ أقسامٍ سالكٌ مُجرَّدٌ ، ومجذوبٌ مُجرَّدٌ ، وسالكٌ مُتدارَكٌ بالجَذْبةِ ، ومجذوبٌ مُتدارَكٌ بالسُّلوكِ .

فالسالكُ المُجرَّدُ : لا يُؤهَّلُ للمَشْيَخَةِ ولا يبلُغُها ؛ لبقاءِ صفاتِ نفسِهِ عليهِ ، فيقفُ عندَ حظِّهِ مِنْ رحمةِ اللهِ في مقامِ المُعاملةِ والرِّياضةِ ، ولا يرتقي إلىٰ حالٍ يُروَّحُ بها عن وَهَجِ المُكابدةِ[1]

والمجذوبُ المُجرَّدُ مِنْ غيرِ سلوكٍ : يُبادِئُهُ الحقُّ بآياتِ اليقينِ ، ويرفعُ عن قلبِهِ شيئاً مِنَ الحجابِ[2] ، ولا يُؤخَذُ في طريقِ المُعاملةِ ، وللمعاملةِ أثرٌ تامٌّ سوفَ نشرحُهُ في موضعِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

وهٰذا أيضاً لا يُؤهَّلُ للمَشْيَخَةِ ، ويقفُ عندَ حظِّهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، مُرَوَّحاً بحالِهِ ، غيرَ مأخوذٍ في طريقِ أعمالِهِ ، ما عدا الفريضةَ .

والسالكُ الذي تُدُورِكَ بالجَذْبةِ[3] : هوَ الذي كانتْ بدايتُهُ المُجاهدةَ والمُكابدةَ والمُعاملةَ بالإخلاصِ والوفاءِ بالشُّروطِ ، ثمَّ أُخرِجَ مِنْ وَهَجِ

---

(١) الوَهَجُ في الأصل : حرُّ النار .

(٢) وإنَّما قال : (شيئاً من الحجاب) ؛ لأنَّ ارتفاع الحجاب بالكُلِّية مُترتِّبٌ على تصحيح المقامات التي بها يستعدُّ السالكُ لفيضان أنوار الصفات ، وبها يتهيَّأُ لتجلِّي الذات الرافع عن سرِّ القلب الحجاب من جميع الجهات . من هامش (ح)

(٣) في (د) : (تداركه الله تعالىٰ) بدل (تُدُورِكَ) .

المُكابدة إلىٰ رَوْحِ الحالِ ، فوَجَدَ العسلَ بعدَ العَلْقمِ ، وتَرَوَّحَ بنَسَمَاتِ الفَضْلِ ، وبَرَزَ مِنْ مَضِيقِ المُكابدةِ إلىٰ مُتَّسَعِ المُساهلةِ ، وأُونِسَ بنَفَحاتِ القُرْبِ ، وفُتِحَ لهُ بابٌ مِنَ المُشاهدةِ

فوَجَدَ دواءَهُ ، وفاضَ وِعاؤُهُ ، وصَدَرَتْ منهُ كلماتُ الحِكْمةِ ، ومالَتْ إليهِ القلوبُ ، وتوالىٰ عليهِ فتوحُ الغيبِ ، وصارَ ظاهِرُهُ مُسدَّداً وباطنُهُ مُشاهَداً ، وصَلَحَ للجَلْوةِ[1] ، وصارَ لهُ في جَلْوتِهِ خَلْوةٌ ، فيَغلِبُ ولا يُغلَبُ ، ويفترسُ ولا يُفترَسُ .

ومثلُ هٰذا يُؤهَّلُ للمَشْيَخَة ؛ لأنَّهُ أُخِذَ في طريقِ المُحبِّينَ ، ومُنِحَ حالاً مِنْ أحوالِ المُقرَّبينَ ، بعدَما دَخَلَ مِنْ طريقِ أعمالِ الأبرارِ والصالحينَ ، ويكونُ لهُ أتباعٌ ينتقلُ منهُ إليهِم علومٌ ، ويظهرُ بطريقِهِ بركةٌ ، ولٰكن قد يكونُ محبوساً في حالِهِ ، مُحَكَّماً حالُهُ فيهِ ، لا يُطلَقُ مِنْ وَثَاقِ الحالِ ، ولا يبلُغُ كمالَ النَّوَالِ[2] ، يقفُ عندَ حظِّهِ ؛ وهوَ حظٌّ وافرٌ سَنِيٌّ ، والذينَ أُوتوا العلمَ درجاتٌ .

ولٰكنَّ المقامَ الأكملَ في المَشْيَخَةِ : القسمُ الرابعُ ؛ وهوَ المجذوبُ المُتدارَكُ بالسُّلوكِ ، يُبادِئُهُ الحقُّ بالكُشُوفِ وأنوارِ اليقينِ ، ويرفعُ عن قلبِهِ

---

(١) الجَلْوة : ضد الخَلْوة ؛ وهي خروجُ العبد من الخلوة بالنُّعوت الإلـٰهيّة ؛ إذ عينُ العبد وأعضاؤه ممحوَّةٌ عن الأنانيّة ، والأعضاءُ مضافةٌ إلى الحقِّ بلا عبد ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] . انظر « التعريفات » (ص٦٩) .

(٢) بأن يكون حاكماً على الحال مُتمكِّناً من الجمع في التفرقة ، لا يشغلُ سرَّهُ عن المشاهدة شيءٌ ، يكون حاله في جلوته كحاله في خلوته . من هامش (ح)

الحُجُبَ ، ويستنيرُ بأنوارِ المُشاهدةِ ، وينشرحُ وينفسحُ قلبُهُ ، ويتجافىٰ عن دارِ الغُرورِ ، ويُنِيبُ إلىٰ دارِ الخُلودِ[1] ، ويرتوي مِنْ بحرِ الحالِ ، ويتخلَّصُ مِنَ الأَغْلالِ والأَغْلالِ ، ويقولُ مُعلِناً : لا أعبدُ ربّاً لم أَرَهُ .

ثمَّ يُفِيضُ مِنْ باطِنِهِ علىٰ ظاهِرِهِ ، وتجري عليهِ صورةُ المُجاهدةِ والمُعاملةِ مِنْ غيرِ مُكابدةٍ وعناءٍ ، بل بلَذَاذةٍ وهناءٍ ، ويصيرُ قالَبُهُ بصفةِ قلبِهِ ؛ لامتلاءِ قلبِهِ بحُبِّ ربِّهِ ، ويلينُ جلدُهُ كما لانَ قلبُهُ .

وعلامةُ لِينِ جلدِهِ : إجابةُ قالَبِهِ للعملِ كإجابةِ قلبِهِ ؛ فيزيدُهُ اللهُ تعالىٰ إرادةً خاصَّةً ، ويرزقُهُ محبَّةً خاصَّةً مِنْ محبَّةِ المحبوبينَ المُرادينَ ؛ ينقطعُ فيُواصَلُ ، ويُعرِضُ فيُراسَلُ[2] ، يذهبُ عنهُ جمودُ النَّفْسِ ، ويَصْطَلِي بحرارةِ الرُّوحِ[3] ، وينكمشُ عن قلبِهِ عُرُوقُ النَّفْسِ ؛ قالَ اللهُ تعالى ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

---

(١) قال في « شرح المشكلات » (ق/ ٢٦) : (هـٰذه الألفاظ مأخوذةٌ من قول النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « إذا دخلَ النورُ الصدرَ . انشرحَ وانفسحَ » ، قيل : هل لذلك مِنْ علامة ؟ قال : « نعمْ ، التجافي عن دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ ») ، والحديث رواه الحاكم (٤/ ٣١١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٣١٥) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، وانظر « تخريج أحاديث الكشاف » (٣/ ٢٠١ـ ٢٠٣) .

(٢) يُشير : إلى التنبيهات الإلـٰهيَّة في مواقع ظهور الطبع ؛ صوناً له عن الانقطاع ، والإلهاماتِ الملكيّة في مواضع الغَفَلات ؛ عوناً له على الاستدراك بالمنامات الصادقة ، والواقعات الصحيحة ، والمخاطبات الصريحة . من هامش (ح) .

(٣) يصطلي : يستدفئ .

أخبرَ : أنَّ الجلودَ تلينُ ، كما أنَّ القلوبَ تلينُ ، ولا يكونُ هـٰذا إلا حالَ المحبوبِ المرادِ .

وقد وَرَدَ في الخبرِ : أنَّ إبليسَ سألَ السبيلَ إلى القَلْبِ ، فقيلَ لهُ : يحرمُ عليكَ ، ولـٰكنَّ السبيلَ لكَ في مجاري العُرُوقِ المُشتبِكةِ بالنَّفْسِ إلىٰ حَدِّ القلبِ ، فإذا دخلتَ العُرُوقَ عَرِقتَ فيها مِنْ ضِيقِ مَجارِيها ، وامتزجَ عَرَقُكَ بماءِ الرحمةِ المُترشِّحِ مِنْ جانبِ القلبِ في مَجْرىً واحدٍ ، ويصلُ بذلكَ سلطانُكَ إلى القلبِ

ومَنْ جعلتُهُ نبيّاً أو وليّاً قلعتُ تلكَ العُرُوقَ مِنْ باطنِ قلبِهِ ، فيصيرُ القلبُ سليماً ، فإذا دخلتَ العروقَ لم تَصِلْ إلى المُشتبِكةِ بالقلبِ ؛ فلا يَصِلُ إلى القلبِ سلطانُكَ .

فالمحبوبُ المُرادُ الذي هوَ أهلٌ للمَشْيَخَةِ[1] . . سَلِمَ قلبُهُ ، وانشرحَ صدرُهُ ، ولانَ جلدُهُ ، فصارَ قلبُهُ بطَبْعِ الرُّوحِ ، ونَفْسُهُ بطَبْعِ القلبِ ، ولانتِ النفسُ بعدَ أنْ كانتْ أمَّارةً بالسُّوء مُستعصِيةً ، ولانَ الجلدُ لِلينِ النَّفْسِ ، ورُدَّ إلىٰ صُوَرِ الأعمالِ بعدَ وِجْدانِ الحالِ .

ولا تزالُ روحُهُ تنجذبُ إلى الحَضْرةِ الإلـٰهيّةِ ؛ فيستتبعُ الرُّوحُ القلبَ ، ويستتبعُ القلبُ النفسَ ، وتستتبعُ النَّفْسُ القالَبَ ، فامتزجتِ الأعمالُ القلبيّةُ والقالَبيّةُ ، وانخرقَ الظاهرُ إلى الباطنِ ، والباطنُ إلى الظاهرِ ، والقُدْرةُ إلى الحكمةِ ، والحكمةُ إلى القُدْرةِ ، والدُّنيا إلى الآخرةِ ، والآخرةُ إلى الدُّنيا ،

---

(١) في (ب ، د) : (الذي أُهِّلَ) بدل (الذي هو أهل) .

ويصحُّ لهُ أنْ يقولَ : (لو كُشِفَ الغطاءُ ما ازددتُ يقيناً)(١)

فعندَ ذلكَ يُطلَقُ مِنْ وَثاقِ الحالِ ، ويكونُ مُسيطِراً على الحالِ ، لا الحالُ مُسيطِراً عليهِ ، ويصيرُ حُرّاً مِنْ كُلِّ وجهٍ .

والشيخُ الأوَّلُ الذي أُخِذَ في طريقِ المُحبِّينَ. . حُرٌّ مِنْ رِقِّ النَّفْسِ ، ولـٰكن ربَّما كانَ باقياً في رِقِّ القلبِ ، وهـٰذا الشيخُ في طريقِ المحبوبينَ حُرٌّ مِنْ رِقِّ القلبِ ، كما هوَ حُرٌّ مِنْ رِقِّ النَّفْسِ ؛ وذلكَ أنَّ النَّفْسَ حجابٌ ظُلْمانيٌّ أرضيٌّ أُعتِقَ منهُ الأوَّلُ(٢) ، والقلبَ حجابٌ نُورانيٌّ سماويٌّ أُعتِقَ منهُ الآخَرُ ، فصارَ لربِّهِ لا لقلبِهِ ، ولمُوَقِّتِهِ لا لوقتِهِ ، فعَبَدَ اللهَ حقّاً ، وآمنَ بهِ صِدْقاً .

ويسجدُ للهِ تعالىٰ سوادُهُ وخيالُهُ ، ويُؤمِنُ بهِ فؤادُهُ ، ويُقِرُّ بهِ لسانُهُ ، كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ سجودِهِ(٣) ، ولا يتخلَّفُ عنِ العُبُوديَّةِ منهُ شعرةٌ ، وتصيرُ عبادتُهُ مُشاكِلةً لعبادةِ الملائكةِ ؛ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [الرعد : ١٥] .

فالقوالِبُ هيَ الظِّلالُ الساجدةُ ، ظلالُ الأرواحِ المُقرَّبةُ ؛ ففي عالَمِ الشهادةِ الأصلُ كثيفٌ والظِّلُّ لطيفٌ ، وفي عالَمِ الغيبِ الأصلُ لطيفٌ والظِّلُّ

---

(١) ورد هـٰذا القول في « اللمع » (ص١٠٢) ، و« الرسالة القشيرية » (ص٤٣٤) عن عامر بن عبد القيس رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أي : الشيخ الأول .

(٣) رواه البزار في « المسند » (٢٠٣٤) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، والطبراني في « الدعاء » (٦٠٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٥٥٧) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

كثيفٌ ، فيسجدُ لَطِيفُ العبدِ وكثيفُهُ[1]

وليسَ هٰذا لمَنْ أُخِذَ في طريقِ المُحبِّينَ ؛ لأنَّهُ يستبشعُ صُوَرَ الأعمالِ[2] ، ويمتلئُ بما أُنِيلَ مِنْ وِجْدانِ الحالِ ، وذلكَ قصورٌ في العِلْمِ ، وقِلَّةٌ في الحَظِّ ، ولو كَثُرَ العلمُ رأى ارتباطَ الأعمالِ بالأحوالِ كارتباطِ الرُّوحِ بالجسدِ ، ورأىٰ أنْ لا غَنَاءَ عنِ الأعمالِ ، كما لا غَناءَ في عالَمِ الشهادةِ عنِ القوالبِ ؛ فما دامتِ القوالبُ باقيةً فالعملُ باقٍ .

ومَنْ صَحَّ في المقامِ الذي وَصَفْناهُ . . هوَ الشيخُ المُطلَقُ ، والعارفُ المُحقَّقُ ، والمحبوبُ المُعتَقُ ، نظرُهُ دواءٌ ، وكلامُهُ شفاءٌ[3] ، باللهِ يَنطِقُ ، وباللهِ يسكتُ ، كما وَرَدَ « لَا يَزَالُ ٱلْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِٱلنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً ، وَيَداً وَمُؤَيِّداً ، بِي يَنْطِقُ ، وَبِي يُبْصِرُ . . . » الحديثَ[4]

فالشيخُ يُعطِي باللهِ ، ويمنعُ باللهِ ، فلا رغبةَ لهُ في عطاءٍ ومَنْعٍ بعينِهِ لعينِهِ[5] ، بل هوَ معَ مُرادِ الحقِّ ، والحقُّ يُعرِّفُهُ مُرادَهُ ، فيكونُ في الأشياءِ

---

(١) في هامش (أ) : (رأى أفلاطون موسىٰ عليه السلام ، قال : ما رأيتُ أحداً غَلَبَ لطيفُهُ علىٰ كثيفه إلا هٰذا) .

(٢) قوله : (يستبشع) استبشع الشيءَ ؛ أي : عدَّه بَشِعاً ، وشيءٌ بَشِعٌ ؛ أي : كريه الطعم . من هامش (ح) .

(٣) في النسخ ما عدا (ج ، د ، ي) : (دواء) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٣١٨) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، ورواه بسياق آخر البخاري (٦٥٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/١٤٧ـ١٤٨)

(٥) الهاء راجعةٌ في (عينه لعينه) إلى العطاء . من هامش (أ) .

بمُرادِ اللهِ تعالىٰ لا بمُرادِ نَفْسِهِ ؛ فإنْ عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يُرِيدُ منهُ الدخولَ في صورةٍ محمودةٍ[1] . دَخَلَ فيها بمُرادِ اللهِ تعالىٰ ، لا لكونِ الصُّورةِ محمودةً ، بخلافِ الخادمِ القائمِ بواجبِ خِدْمةِ عبادِ اللهِ تعالىٰ وتقدَّسَ[2] ، واللهُ أعلمُ[3]

• • •

(١) فإنَّهُ يدخل في الصورة المحمودة ؛ لإعانة عباد الله باختياره وإرادته . من هامش (ح) .

(٢) يعني : أنَّ الخادمَ يدخلُ في كلِّ صورةٍ محمودة بحسب رؤيته إيَّاها محمودةً ، بخلاف هـٰذا الشيخ . من هامش (و) .

(٣) في هامش (ب) : (بلغ سماعهم في العاشر بقراءة الكاتب) ، وفيها : (بلغ في السابع على الشيخ الحافظ جلال الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام بن داود المقدسي)

الباب الحادي عشر

في شرح حال الخادم ومن يتشبه به[1]

أَوْحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داودَ عليهِ السلامُ وقالَ (يا داودُ ؛ إذا رأيتَ لي طالباً فكُنْ لهُ خادِماً)[2]

فالخادمُ يدخلُ في الخِدْمةِ راغباً في الثوابِ ، وفيما أَعَدَّ اللهُ تعالىٰ للعبادِ ، ويتصدَّىٰ لإيصالِ الراحةِ ، ويُفرِّغُ خاطرَ المُقبِلينَ على اللهِ تعالىٰ عن مَهامِّ معاشِهِم ، ويفعلُ ما يفعلُهُ للهِ تعالىٰ بنيَّةٍ صالحةٍ .

فالشيخُ واقفٌ معَ مُرادِ اللهِ ، والخادِمُ واقفٌ معَ نيَّتِهِ ؛ فالخادمُ يفعلُ

---

(١) الخادم الحقيقي : مقصودُهُ من الخدمة : إمَّا ثوابُ الآخرة ، وإمَّا جَذْبُ قلوبِ أهل الصلاح إليه ليكون له فتحُ باب الخير والبركة ، وبركة نظرهم إليه . من هامش (ج) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٤٨٢) عن عبد العزيز بن عمير رحمه الله تعالىٰ ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩٣) عن سهل التستري رحمه الله تعالىٰ ، وفي هامش (ح) : (لِينظُرِ الطالبُ في تقديم « لي » ، ولْيعلَمْ أنَّه إنما يستحقُّ أن يُخدَمَ إذا كان طلبُه محصوراً على الله ؛ لا يطلب سواه ، ولا يتَّبع هواه) ، وقال في « شرح المشكلات » (ق/٢٧) : (في هٰذا الخبر فائدتان : **الأولىٰ** : أنَّ الخدمةَ لها محلٌّ ومنزلةٌ ؛ حيثُ أمر اللهُ تعالىٰ نبيَّه بها ، **الثانية** : أنَّ الخدمة ينبغي أن تكون لأجل طالبي الحقِّ ؛ حيث قال : « إذا رأيتَ طالباً لي فكُنْ لهُ خادماً » ، **وما يُؤيِّدُ ذلك** : قولُ النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم : « واللهُ تعالىٰ في عونِ العبدِ ما دامَ العبدُ في عونِ أخيهِ المسلمِ » ، فحرَّض الأمةَ علىٰ معاونة المسلم المستجمع لجميع الصفات الحسنة السَّنيَّة) .

الشيءَ للهِ ، والشيخُ يفعلُ الشيءَ باللهِ ؛ فالشيخُ في مقامِ المُقرَّبينَ ، والخادمُ في مقامِ الأبرارِ

فيختارُ الخادمُ البَذْلَ والإيثارَ ، والارتفاقَ مِنَ الأغيارِ للأغيارِ[1] ، ووظيفةُ وقتِهِ تَصَدِّيهِ لخِدْمةِ عبادِ اللهِ تعالىٰ ، وفيهِ يعرفُ الفضلَ ويُرجِّحُهُ علىٰ نوافلِهِ وأعمالِهِ .

وقد يُقيمُ مَنْ لا يعرفُ الخادمَ مُقامَ الشيخِ ، وربَّما جَهِلَ الخادمُ أيضاً حالَ نَفْسِهِ ؛ فيَحسَبُ نَفْسَهُ شيخاً[2] ؛ لقِلَّةِ العِلْمِ ، واندراسِ علومِ القومِ في هٰذا الزمانِ[3] ، وقناعةِ كثيرٍ مِنَ الفقراءِ مِنَ المشايخِ باللُّقْمةِ دونَ العلمِ والحالِ ؛ فكلُّ مَنْ كانَ أكثرَ إطعاماً فهوَ عندَهُم أَحَقُّ بالمَشْيَخَةِ ، ولا يعلمُونَ أنَّهُ خادمٌ وليسَ بشيخٍ

والخادمُ في مقامٍ حَسَنٍ ، وحَظٍّ صالحٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وقد وَرَدَ ما يَدُلُّ علىٰ فَضْلِ الخادمِ فيما :

(٣١) ـ أخبرَنا الشيخُ أبو زُرْعَةَ بنُ الحافظِ أبي الفضلِ محمَّدِ بنِ طاهرٍ المَقْدِسيِّ ، عن أبيهِ قالَ : أخبرَنا أبو الفضلِ محمَّدُ بنُ [عُبيدِ] اللهِ المُقرِئُ[4] ، قالَ : حدَّثَنا أبو الحسنِ محمدُ بنُ الحسينِ بنِ داودَ العَلَويُّ ،

---

(١) يعني : الخادم يأخذ شيئاً من الأجنبي ، ويتصرَّف للأجنبي ، ولا يأخذ لنفسه . من هامش (ح) .

(٢) في (د) : (فينظر أنه شيخ) بدل (فيحسب نفسه شيخاً) .

(٣) المراد بالقوم : الفقراء والصادقون . من هامش (ح) .

(٤) في النسخ : (عبد الله) بدل (عبيد الله)، والمثبت من « صفوة التصوف »، وأبو الفضل المقرئ : هو الشيخ العابد المسند محمد بن عبيد الله بن محمد النيسابوري الصَّرَّام =

قالَ : حدَّثَنا أبو حامدٍ الحافظُ[1] ، قالَ : حدَّثَنا العبَّاسُ بنُ محمَّدٍ الدُّوريُّ وأبو الأزهرِ ، قالا : حدَّثَنا أبو داودَ[2] ، قالَ : حدَّثَنا سُفْيانُ[3] ، عنِ الأَوْزاعيِّ ، عن يحيى بنِ أبي كَثيرٍ ، عن أبي سَلَمَةَ ، عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أُتِيَ بطعامٍ وهوَ بمَرِّ الظَّهْرانِ[4] ، فقالَ لأبي بكرٍ وعُمَرَ رضيَ اللهُ عنهُما « كُلَا » ، فقالا إنَّا صائمانِ ، فقالَ : « ٱرْحَلُوا لِصَاحِبَيْكُمْ ، ٱعْمَلُوا لِصَاحِبَيْكُمْ ، ٱدْنُوَا فَكُلَا »[5]

يعني : أنَّكُما ضَعُفْتُما بالصومِ عنِ الخدمةِ ، فاحتجتُما إلىٰ مَنْ يَخدُمُكُما ، فكُلا واخدُما أنفسَكُما[6]

= (ت ٤٧٩هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٤٨٣)

(١) هو الإمام الثقة حافظُ خراسان وتلميذُ مسلم صاحبِ « الصحيح » أحمدُ بن محمد بن الحسن النيسابوري ابنُ الشَّرْقي ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٣٧ـ ٣٩) .

(٢) هو الإمام الثقة الثَّبْت العابد عمر بن سعد الحَفَريُّ الكوفي (ت ٢٠٣هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٩/ ٤١٦ـ٤١٧) .

(٣) هو الثوري رحمه الله تعالىٰ .

(٤) مَرُّ الظَّهْران : اسم مكان قريب من مكة . من هامش (ح) .

(٥) صفوة التصوف (١٤٣) ، ورواه أحمد (٢/ ٣٣٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٠٦٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٢٥٨٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٢٤٦) ، وفي هامش (ح) : (قيل : في الكلام إضمار تقديره « إنْ صمتما يلتفت خواطر أصحابكما إليكما ؛ فيقول بعضهم لبعض : ارحلوا الدوابَّ لصاحبيكم ، اعملوا لصاحبيكم ما يحتاجان إليه » ، وقيل : إنَّهما أجابا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّهما صائمان ، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابه : « ارحلوا لصاحبيكم » ؛ يعني : أبا بكر وعمرَ ، وقال لهما « ادنوا فكُلا » ؛ ليكون مناسباً للخدمة) ، وفي هامش (ج) (وهـٰذا دليلٌ علىٰ فضل الخدمة وإن كانتْ لنفسه على النافلة) .

(٦) انظر « صفوة التصوف » تحت رقم : (١٤٣) .

فالخادمُ يَحرِصُ علىٰ حِيازةِ الفضلِ ، فيتوصَّلُ بالكسبِ تارةً ، وبالاسترفاقِ والدَّرْيُوزةِ تارةً(١) ، وباستجلابِ الوقفِ إلىٰ نَفْسِهِ تارةً ؛ لعلمِهِ أنَّهُ قَيِّمٌ بذلكَ ، صالحٌ لإيصالِهِ إلى الموقوفِ عليهِم ، ولا يُبالي أنْ يدخلَ في كلِّ مَدْخَلٍ لا يذمُّهُ الشرعُ ؛ لحيازةِ الفضلِ بالخدمةِ ، ويرى الشيخُ بنفوذِ البصيرةِ وقُوَّةِ العِلْمِ أنَّ الإنفاقَ يحتاجُ إلىٰ عِلْمٍ تامٍّ ، ومُعاناةٍ في تخليصِ النِّيَّةِ عن شوائبِ النَّفْسِ والشهوةِ الخفيَّةِ ، ولو خَلَصَتْ نيَّتُهُ ما رَغِبَ في ذلكَ أيضاً ؛ لوجودِ مُرادِهِ فيهِ ، وحالُهُ تركُ المُرادِ ، وإقامةُ مُرادِ الحقِّ .

(٣٢) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ إجازةً ، قالَ أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ خَلَفٍ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ قالَ : سمعتُ محمَّدَ بنَ [الحسنِ] ابنِ الخَشَّابِ يقولُ(٢) : سمعتُ جعفرَ بنَ محمَّدٍ يقولُ : سمعتُ الجنيدَ يقولُ : سمعتُ السَّرِيَّ يقولُ : أعرفُ طريقاً مُختصَراً قَصْداً إلى الجنَّةِ ، فقلتُ لهُ : ما هوَ ؟ قالَ لا تسألْ أحداً شيئاً(٣) ، ولا تأخذْ مِنْ أحدٍ شيئاً ، ولا يكنْ معَكَ شيءٌ تُعطِي منهُ أحداً شيئاً(٤)

والخادمُ يرىٰ أنَّ مِنْ طريقِ الجنَّةِ الخِدْمةَ والبَذْلَ والإيثارَ ، ويُقدِّمُ الخِدْمةَ على النوافلِ ، ويرىٰ فضلَها ، وللخدمةِ فضلٌ على النافلةِ التي يأتي بها العبدُ

---

(١) الاسترفاق : طلب الرِّفْق من الأغنياء للفقراء ليترفَّق به الناسُ ، والدَّرْيُوزة : التسوُّل والكُدْية ، وهي لفظة فارسية .

(٢) في النسخ : (الحسين) بدل (الحسن) ، والمثبت من المصادر والمراجع .

(٣) هـٰذا يَدُلُّ على الكسب قدرَ إقامة البنية للطاعة فحسب . من هامش (ح) .

(٤) طبقات الصوفية (ص٤٩) ، ورواه من طريق السلمي القشيري في « رسالته » (ص١١٣ـ١١٤)

طالباً بها الثوابَ ، غيرَ النافلةِ التي يتوخّىٰ بها صِحَّةَ حالِهِ معَ اللهِ تعالىٰ[1] ؛ لوجودِ نَقْدٍ قبلَ وَعْدٍ[2]

ومِمَّا يَدُلُّ علىٰ فضلِ الخِدْمةِ على النافلةِ :

(٣٣) ـ ما أخبرَنا أبو زُرْعةَ ، قالَ : أخبرَني والدي الحافظُ المَقْدِسيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ أحمدَ السِّمْسارُ بأَصْفَهانَ ، قالَ : أخبرَنا إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ ابنُ خُرَّشِيذَ قُولَهْ[3] ، قالَ حدَّثَنا الحسينُ بنُ إسماعيلَ المَحَامِلِيُّ ، قالَ : حدَّثَنا أبو السائبِ ، قالَ : حدَّثَنا أبو مُعاويةَ ، قالَ : حدَّثَنا عاصمٌ ، عن مُورِّقٍ ، عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : كُنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فمِنَّا الصائمُ ، ومِنَّا المُفطِرُ ، فنزلْنا مَنزِلاً في يومٍ حارٍّ شديدِ الحرِّ ، فمِنَّا مَنْ يتَّقي الشمسَ بيدِهِ ، وأكثرُنا ظِلّاً صاحبُ الكِساءِ يستظلُّ بهِ ، فنامَ الصائمونَ ، وقامَ المُفطِرُونَ ، فضربُوا الأبنيةَ وسَقَوُا الرِّكابَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذَهَبَ ٱلْمُفْطِرُونَ ٱلْيَوْمَ بِٱلْأَجْرِ »[4]

---

(١) قوله : (صحة حاله) ؛ وهي تخليص النية عن شوائب النفس من « شرح المشكلات » (ق/ ٢٧) .

(٢) من محبّة الله إيَّاه ، المشار إليها بقوله : « حتىٰ أحبَّهُ » المبتني عليها الخصوصياتُ من لذائذ المسامرات والمناجاة والمشاهدات ، والخادم المُتفطِّن يعرف ما يُصحِّح به حاله مع الله من النوافل ، فلا يتركها لنيل الحظ الموجود قبل نيل الموعود . من هامش (ح) .

(٣) قال الزَّبيدي في « تاج العروس » (٣٠/ ٣٠٠) : (قُولَه ـ بالضم ـ : لقب ابن خُرَّشِيذَ ، بضم الخاء وتشديد الراء المفتوحة وكسر الشين ، وأصله : « خُورْشِيذ » بالتخفيف ، فارسية بمعنى الشمس) ، وهو من شيوخ الإمام القشيري رحمهما الله تعالىٰ .

(٤) صفوة التصوف (١٤١) ، ورواه البخاري (٢٨٩٠) ، ومسلم (١١١٩) .

وهٰذا حديثٌ يَدُلُّ على فضلِ الخِدْمةِ على النافلةِ ، والخادمُ لهُ مقامٌ عزيزٌ يُرغَبُ فيهِ .

فأمَّا مَنْ لم يعرفْ تخليصَ النِّيَّةِ مِنْ شوائبِ النَّفْسِ ، ويتشبَّهُ بالخُدَّامِ ، ويتصدَّىٰ لخِدْمةِ الفقراءِ ، ويدخلُ في مداخلِ الخُدَّامِ بحُسْنِ الإرادةِ يطلبُ التأسِّيَ بالخُدَّام. . تكونُ خِدْمتُهُ مَشُوبةً ؛ منها ما يُصِيبُ فيها ؛ لموضعِ إيمانِهِ ، وحُسْنِ إرادتِهِ في خِدْمةِ القومِ ، ومنها ما لا يُصِيبُ فيها ؛ لما فيهِ مِنْ مَزْجِ الهوىٰ ، فيضعُ الشيءَ في غيرِ موضعِهِ .

وقد يَخدُمُ بهواهُ في بعضِ تصاريفِهِ ، ويَخدُمُ مَنْ لا يستحقُّ الخِدْمةَ في بعضِ أوقاتِهِ ، ويُحِبُّ المَحْمَدةَ والثناءَ مِنَ الخَلْقِ ، معَ ما يُحِبُّ مِنَ الثوابِ ورضا اللهِ تعالىٰ ، وربَّما خَدَمَ للثناءِ ، وربَّما امتنعَ مِنَ الخِدْمةِ ؛ لوجودِ هوىً يُخامِرُهُ في حَقِّ مَنْ يلقاهُ بمكروهٍ ، ولا يُراعي واجبَ الخِدْمةِ في طَرَفَيِ الرِّضا والغضبِ ؛ لانحرافِ مِزَاجِ قلبِهِ بوجودِ الهوىٰ ، والخادمُ لا يَتَّبِعُ الهوىٰ في الخِدْمةِ في الرِّضا والغضبِ ، ولا تأخذُهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ ، ويضعُ الشيءَ مواضعَهُ .

فإذاً : الشخصُ الذي ذَكَرْناهُ ووَصَفْناهُ آنفاً . . مُتخادِمٌ وليسَ بخادمٍ ، ولا يُميِّزُ بينَ الخادمِ والمُتخادِمِ إلا مَنْ لهُ عِلْمٌ بصحَّةِ النِّيَّاتِ وتخليصِها مِنْ شوائبِ الهوىٰ .

والمُتخادِمُ النَّجيبُ يَبلُغُ ثوابَ الخادمِ في كثيرٍ مِنْ تصاريفِهِ ، ولا يَبلُغُ رتبتَهُ ؛ لتخلُّفِهِ عن حالِهِ بوجودِ مَزْجِ هواهُ

وأمَّا مَنْ أُقِيمَ لخدمةِ الفقراءِ بتسليمِ وَقْفٍ إليهِ ، أو توفيرِ رِفْقٍ عليهِ ، وهوَ

يَخدُمُ لمَنالٍ يُصِيبُهُ ، أو حظٍّ عاجلٍ يُدرِكُهُ. . فهوَ في الخدمةِ لنفسِهِ لا لغيرِهِ ، فلو انقطعَ رِفقُهُ ما خَدَمَ ، وربَّما استخدمَ مَنْ يَخدُمُ ، فهوَ معَ حظِّ نفسِهِ ؛ يَخدُمُ مَنْ يَخدُمُهُ ، ويحتاجُ إليهِ في المحافلِ يتكثَّرُ بهِ ، ويُقِيمُ جاهَ نَفْسِهِ بكثرةِ الأَتْباعِ والأَشْياعِ

فهوَ خادمُ هواهُ ، وطالبُ دنياهُ ، يَحرِصُ نهارَهُ وليلَهُ في تحصيلِ ما يُقِيمُ بهِ جاهَهُ ، ويُرضِي نَفْسَهُ وأهلَهُ وولدَهُ ، فيتَّسِعُ في الدنيا ، ويتزيَّا بغيرِ زِيِّ الخُدَّامِ والفقراءِ ، وتنتشرُ نَفْسُهُ بطلبِ الحُظُوظِ ، ويستولي عليهِ حُبُّ الرِّياسةِ .

وكلَّما كثُرَ رِفقُهُ كَثُرَتْ موادُّ هواهُ ، واستطالَ على الفقراءِ ، ويُحوِجُ الفقراءَ إلى التملُّقِ المُفرِطِ لهُ ؛ تطلُّباً لرضاهُ ، وتَوَقِّياً لضَيْمِهِ ومَيْلِهِ عليهم بقَطْعِ ما يَنُوبُهُم مِنَ الوقفِ[1]

فهـٰذا أحسنُ حالِهِ أنْ يُسمَّىٰ مُستخدِماً[2] ، فليسَ بخادمٍ ولا مُتخادِمٍ

ومعَ ذلكَ كلِّهِ ربَّما نالَ بركتَهُم ؛ باختيارِهِ خِدْمتَهُم علىٰ خِدْمةِ غيرِهِم ، وبانتمائِهِ إليهِم ، وقد أَوْرَدْنا الخبرَ المُسندَ الذي في سياقِهِ : « هُمُ ٱلْقَوْمُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ »[3] ، جَعَلَنا اللهُ بكمالِ فضلِهِ منهُم ، واللهُ المُوفِّقُ والمُعِينُ[4]

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب) : (لضرره) بدل (لضيمه) ، والضيم : الظلم

(٢) ضُبطت في بعض النسخ بالفتح كما هو السياق ، وفي بعضها بالكسر ، نظراً لكونه يستخدم مَنْ يخدمه أحياناً ، وفي بعضها بالوجهين .

(٣) انظر (١/ ٢٨١ـ٢٨٢) .

(٤) في هامش (ب) (بلغ مقابلة) .

الباب الثاني عشر

في شرح خرقة المشايخ الصوفية

لُبْسُ الخِرْقةِ ارتباطٌ بينَ الشيخِ والمُريدِ ، وتحكيمٌ مِنَ المُريدِ الشيخَ في نفسِهِ ، والتحكيمُ سائغٌ في الشرعِ لمصالحَ دُنْيويَّةٍ ، فماذا يُنكِرُ المُنكِرُ للُبْسِ الخِرْقةِ على طالبٍ صادقٍ في طلبِهِ ، يقصدُ شيخاً بحُسْنِ ظنٍّ وعقيدةٍ ، يُحكِّمُهُ في نَفْسِهِ لمصالحِ دينِهِ ، يُرشِدُهُ ويُهذِّبُهُ[(١)] ، ويُعرِّفُهُ طُرُقَ المواجيدِ ، ويُبصِّرُهُ بآفاتِ النفوسِ ، وفسادِ الأعمالِ ، ومداخلِ العدوِّ ؟!

فيُسلِّمُ نَفْسَهُ إليهِ ، ويستسلمُ لرأيِهِ واستصوابِهِ في جميعِ تصاريفِهِ ، فيُلبِسُهُ الخِرْقةَ ؛ إظهاراً للتصرُّفِ فيهِ ، فيكونُ لُبْسُ الخِرْقةِ علامةَ التفويضِ والتسليمِ ، ودخولُهُ في حكمِ الشيخِ دخولُهُ في حكمِ اللهِ تعالى وحكمِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإحياءُ سُنَّةِ المُبايعةِ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(٢)].

(٣٤) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ ، قالَ : أخبرَني والدي الحافظُ المَقْدِسيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو الحسينِ أحمدُ بنُ مُحمَّدٍ البزَّازُ ، قالَ أخبرَنا [محمَّدُ بنُ

(١) في النسخ ما عدا (ب ، د ، و) : (ويهديه) .

(٢) في نسخة على هامش (و) : (المتابعة) بدل (المبايعة) ، وقال في « شرح المشكلات » (ق/ ٢٧) (اعلَمْ : أنَّ إلباسَ الخرقةِ المشايخُ للمُريدين في الابتداء علامةُ الإرادة والدخولِ فيها ، وفي الانتهاء علامةُ الولايةِ والوصولِ إلى المَقصِد)

عبدِ اللهِ] ابنُ أخي مِيميٍّ[1] ، قالَ : حدَّثَنا يحيى بنُ محمَّدِ بنِ صاعدٍ ، قالَ : حدَّثَنا عمرُو بنُ عليٍّ مِنْ حفظِهِ[2] ، قالَ : سمعتُ عبدَ الوهَّابِ الثَّقفيَّ يقولُ : سمعتُ يحيى بنَ سعيدٍ يقولُ : حدَّثَني عُبادةُ بنُ الوليدِ بنِ عُبادةَ بنِ الصامتِ ، قالَ : أخبرَني أبي ، عن أبيهِ قالَ : (بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على السَّمْعِ والطاعةِ ؛ في العُسْرِ واليُسْرِ ، والمَنْشَطِ والمَكْرَهِ ، وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَهُ ، وأنْ نقولَ بالحقِّ حيثُ كُنَّا ، ولا نخافَ في اللهِ لَوْمةَ لائمٍ)[3]

ففي الخِرْقةِ معنى المُبايعةِ ، والخِرْقةُ عَتَبَةُ الدُّخُولِ في الصُّحْبةِ[4] ، والمقصودُ الكُلِّيُّ هوَ الصُّحْبةُ ، وبالصُّحْبةِ يُرجىٰ للمُرِيدِ كلُّ خيرٍ

رُوِيَ عن أبي يزيدَ أنَّهُ قالَ : (مَنْ لم يكنْ لهُ أستاذٌ فإمامُهُ الشيطانُ)[5]

---

(١) في النسخ ما عدا (ب) : (أحمد بن محمد) بدل (محمد بن عبد الله) ، وفي (ب) : (محمد بن أحمد) ، وسيأتي في (١/ ٤٥٩) على الصواب كالمثبت ، وابنُ أخي ميمي : هو الإمام المسند الصدوق أبو الحسين البغدادي الدَّقَّاق (ت٣٩٠هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ٥٦٤) .

(٢) في النسخ ما عدا (ب) : (بن حفظة) ، وهو تحريف ، وفي (ج) : (الحفظة) دون (بن) ، وعمرُو بن علي هو الإمام الحافظ الناقد المُجوِّد أبو حفص الباهلي الصَّيْرَفي الفَلَّاس (ت٢٤٩هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١١/ ٤٧٠) .

(٣) صفوة التصوف (١٥٧) ، ورواه البخاري (٧١٩٩) ، ومسلم (١٧٠٩) .

(٤) أي : مقدمة الدخول ؛ وذلك لأنَّ الشيخ إذا أراد أن يُدخِلَ المريدَ في زُمْرة المعتنين ألبسه أوَّلاً الخرقة ، فيُميِّزُهُ بها عمَّنْ سواه ، كما أنَّ الملوكَ إذا أرادوا قَبول طائفة يكسوهم أوَّلاً الحُلَلَ تطييباً لقلوبهم وتعظيماً لهم في أعين الناس . من « شرح المشكلات » (ق/ ٢٧)

(٥) أورده القشيري في « رسالته » (ص٧٧٣) .

وحكى الأستاذُ أبو القاسمِ القُشَيْرِيُّ رحمَهُ اللهُ ، عن شيخِهِ أبي عليٍّ الدَّقَّاقِ أنَّهُ قالَ (الشجرةُ إذا نَبَتَتْ بنفسِها مِنْ غيرِ غارسٍ . . فإنَّها تُورِقُ ولا تُثمِرُ)[١]

وهوَ كما قالَ ، ويجوزُ أنَّها تُثمِرُ كالأشجارِ التي في الأوديةِ والجبالِ ، ولـكن لا يكونُ لفاكهتِها طعمُ فاكهةِ البساتينِ

والغَرْسُ إذا نُقِلَ مِنْ موضعٍ إلىٰ موضعٍ آخَرَ . . يكونُ أحسنَ وأكثرَ ثمرةً ؛ لدخولِ التصرُّفِ فيهِ

وقدِ اعتبرَ الشرعُ وجودَ التعليمِ في الكلبِ المُعلَّمِ ، وأحلَّ ما يقتلُهُ ، بخلافِ غيرِ المُعلَّمِ

وسمعتُ كثيراً مِنَ المشايخِ يقولُونَ : (مَنْ لم يرَ مُفلِحاً لا يُفلِحُ)

ولنا في رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أُسْوةٌ حسنةٌ ؛ فأصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلقَّوُا العلومَ والآدابَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كما رُوِيَ عن بعضِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم : (عَلَّمَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلَّ شيءٍ ؛ حتى الخِرَاءةَ)[٢]

فالمُرِيدُ الصادقُ إذا دخلَ تحتَ حُكْمِ الشيخِ وصَحِبَهُ ، وتأدَّبَ بآدابِهِ . . يَسْرِي مِنْ باطنِ الشيخِ حالٌ إلىٰ باطنِ المُرِيدِ ؛ كسراجٍ يقتبسُ مِنْ سراجٍ ،

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٧٧٣) ، وزاد : (كذلك المريدُ إذا لم يكن له أستاذٌ يأخذُ منه طريقتَهُ نَفَساً فنَفَساً ؛ فهو عابدُ هواه ، لا يجدُ منه نفاذاً)

(٢) رواه مسلم (٢٦٢) عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه ، والخِراءةُ : اسم لهيئة الحدث ، والمراد : أنه علَّمهم آداب قضاء الحاجة .

وكلامُ الشيخِ يُلقِّحُ باطنَ المُرِيدِ ، ويكونُ مَقَالُ الشيخِ مُستودَعَ نفائسِ الحالِ ، وينتقلُ الحالُ مِنَ الشيخِ إلى المُرِيدِ بواسطةِ الصُّحْبةِ وسماعِ المَقَالِ

ولا يكونُ هـٰذا إلَّا لمُرِيدٍ حَصَرَ نَفْسَهُ معَ الشيخِ ، وانسلخَ مِنْ إرادةِ نَفْسِهِ ، ويَفْنىٰ في الشيخِ بتركِ اختيارِ نَفْسِهِ ، فبالتأليفِ الإلـٰهيِّ يصيرُ بينَ الصاحبِ والمصحوبِ امتزاجٌ وارتباطٌ بالنسبةِ الرُّوحيَّةِ ، والطهارةِ الفِطْريَّةِ

ثمَّ لا يزالُ المُرِيدُ معَ الشيخِ كذلكَ مُتأدِّباً بتركِ الاختيارِ ، حتىٰ يرتقيَ مِنْ تركِ الاختيارِ معَ الشيخِ إلىٰ تركِ الاختيارِ معَ اللهِ سبحانَهُ ، ويفهمُ مِنَ اللهِ كما كانَ يفهمُ مِنَ الشيخِ .

ومبدأُ هـٰذا الخيرِ كلِّهِ : الصُّحْبةُ والمُلازمةُ للشُّيوخِ ، والخِرْقةُ مُقدِّمةُ ذلكَ .

وَوجهُ لُبْسِ الخِرْقةِ مِنَ السُّنَّةِ :

(٣٥) ـ ما أخبرَنا الشيخُ أبو زُرْعةَ ، عن أبيهِ الحافظِ أبي الفضلِ المَقْدِسيِّ ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ خَلَفٍ الأديبُ بنَيْسابُورَ ، قالَ : أخبرَنا الحاكمُ أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ الحافظُ ، قالَ : أخبرَنا [أحمدُ] بنُ إسحاقَ[1] ، قالَ : أخبرَنا أبو مسلمٍ إبراهيمُ بنُ

(١) في النسخ و« صفوة التصوف » : (محمد) بدل (أحمد) ، والمثبت من « المستدرك » ، وهو الإمام الفقيه المفتي المُحدِّث أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب النيسابوري الصِّبْغي (ت٣٤٢هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٤٨٣)

عبدِ اللهِ البَصْريُّ[١] ، قالَ : حدَّثَنا أبو الوليدِ[٢] ، قالَ : حدَّثَنا إسحاقُ بنُ سعيدٍ ، قالَ : حدَّثَنا أبي ، قالَ : حدَّثَتْني أمُّ خالدٍ بنتُ خالدٍ ، قالتْ[٣] : أُتِيَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بثيابٍ فيها خَمِيصةٌ سوداءُ صغيرةٌ[٤] ، فقالَ : « مَنْ تَرَوْنَ أَكْسُو هَـٰذِهِ ؟ » ، فسكتَ القومُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱئْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ » ، قالتْ فأُتِيَ بي ، فأَلْبَسَنِيها بيدِهِ وقالَ : « أَبْلِي وَأَخْلِقِي » ، يقولُها مرَّتَينِ ، وجعلَ ينظرُ إلىٰ عَلَمٍ في الخَمِيصةِ أصفرَ

(١) في النسخ ما عدا (ب ، هـ) : (المصري) ، والصواب المثبت ، وأبو مسلم البَصْري هو الإمام المُعمَّر الحافظ الكَجِّي أو الكشي صاحب « السنن » (ت ٢٩٢هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٤٢٣) .

(٢) هو الإمام الحافظ الناقد هشام بن عبد الملك الباهلي البصري الطيالسي (ت ٢٢٧هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ٣٤١ـ٣٤٢) .

(٣) وإنَّما أسند الشيخُ قدَّس اللهُ سرَّهُ إلباسَ الخرقة من رسول الله عليه الصلاة والسلام إلىٰ أم خالد ، دون أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه ، معَ أنَّ المشهورَ المعتمدَ عليه عند المشايخ ذلك ؛ لأنَّ أئمَّةَ الحديث إذا نظروا إلى العنعنة المعتبرة عندهم وفي اصطلاحهم في تحقُّق الإسناد. . يكونُ ذلكَ المستندُ عندهم أقوىٰ ثبوتاً وأوقعَ في قلوبهم تمكُّناً ، فالإسنادُ علىٰ وجهٍ يكون مُلزِماً لمن يُتوهَّمُ منه الإنكارُ. . أَوْلىٰ من الإسناد إلىٰ مَنْ هو مُحقَّقٌ مُقرَّر عند المعتقدين ، وقد صحَّ واشتَهَرَ بنقل الأولياء كابراً عن كابر علىٰ ما هو مسطورٌ في إجازات المشايخ رحمهم الله تعالىٰ. . أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أَلْبسَ علياً كرَّم الله وجهه الخرقةَ الشريفة ، وهو أَلْبسَ الحسنَ البَصْريَّ وكُميلَ بن زيادٍ وغيرَهُما رضي الله عنهم . من هامش (ح) .

وللإمام السيوطي رسالةٌ نفيسة في ذلك سمَّاها : « إتحاف الفرقة برَفْوِ الخرقة » ، وهي ضمن « الحاوي للفتاوي » .

(٤) الخَمِيصة : كساءٌ أسودُ مُربَّع له عَلَمانِ ، فإن لم يكن مُعْلَماً فليس بخَمِيصة . من هامش (ح) .

وأحمرَ ويقولُ : « يَا أُمَّ خَالِدٍ ؛ هَـٰذَا سَنَا »[1] ، والسَّنا هو الحَسَنُ بلسانِ الحبشةِ .

ولا خفاءَ بأنَّ لُبْسَ الخِرْقةِ على الهيئةِ التي يعتمدُها الشُّيُوخُ في هـٰذا الزمانِ . لم يكنْ في زمنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهـٰذهِ الهيئةُ والاجتماعُ لها والاعتدادُ بها مِن استحسانِ الشيوخِ ، وأصلُهُ مِنَ الحديثِ : ما رَوَيْناهُ ، والشاهدُ لذلك أيضاً التحكيمُ الذي ذَكَرْناهُ[2] ، وأيُّ اقتداءٍ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أتمُّ وآكدُ مِنَ الاقتداءِ بهِ في دعاءِ الخَلْقِ إلى الحَقِّ ؟!

وقد ذَكَرَ اللهُ تعالىٰ في كلامِهِ القديمِ تحكيمَ الأُمَّةِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وتحكيمُ المُريدِ شيخَهُ إحياءُ سُنَّةِ ذلكَ التحكيمِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]

وسببُ نزولِ هـٰذهِ الآيةِ : أنَّ الزُّبيرَ بنَ العَوَّامِ رضيَ اللهُ عنهُ اختصمَ هوَ وآخَرُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في شِرَاجٍ مِنَ الحَرَّةِ ـ والشِّرَاجُ : مَسِيلُ الماءِ[3] ـ كانا يَسْقيانِ بهِ النخلَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للزُّبيرِ : « أَسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ أَرْسِلِ ٱلْمَاءَ إِلَىٰ جَارِكَ » ، فغَضِبَ الرجلُ

---

(١) صفوة التصوف (١٥٦) ، المستدرك (٢/ ٦٣) ، ورواه البخاري (٥٨٢٣) ، وسيأتي هـٰذا الحديث في خاتمة النسخة (هـ) مروياً عن أحمد بن محمد البُخاري النجّاري مسنداً إلى السهروردي به . انظر (٢/ ٦٠٩ـ ٦١٠) .

(٢) انظر (١/ ٣٢٩) .

(٣) والحَرَّة : موضع بالمدينة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام .

وقالَ : قضىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عمَّتِهِ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ هـٰذهِ الآيةَ يُعلِّمُ فيها الأدبَ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[١]

وشَرَطَ عليهِم في الآيةِ التسليمَ ؛ وهوَ الانقيادُ ظاهراً ، ونَفْيَ الحَرَجِ ؛ وهوَ الانقيادُ باطناً ، وهـٰذا شَرْطُ المُريدِ معَ الشيخِ بعدَ التحكيمِ .

فلُبْسُ الخِرْقةِ يُزيلُ اتِّهامَ الشيخِ عن باطِنِهِ في جميعِ تصاريفِهِ ، ويَحذَرُ الاعتراضَ على الشيوخِ ؛ فإنَّهُ السُّمُّ القاتلُ للمُريدينَ ، وقَلَّ أنْ يكونَ مُريدٌ يعترضُ على الشيخِ بباطنِهِ فيُفلحَ .

ويذكرُ المُريدُ في كلِّ ما أَشْكلَ عليهِ مِنْ تصاريفِ الشيخِ قِصَّةَ موسىٰ معَ الخَضِرِ عليهِما السلامُ ؛ كيفَ كانَ يَصدُرُ مِنَ الخَضِرِ تصاريفُ يُنكِرُها موسىٰ عليهِ السلامُ ، ثمَّ لمَّا كَشَفَ لهُ عن معناها بانَ لموسىٰ عليهِ السلامُ وجهُ الصوابِ في ذلكَ .

فهكذا ينبغي للمُريدِ أنْ يعلمَ أنَّ كلَّ تَصرُّفٍ أَشْكلَ عليهِ صِحَّتُهُ مِنَ الشيخِ . . عندَ الشيخِ فيهِ بيانٌ وبُرْهانٌ للصِّحَّةِ[٢]

ويدُ الشيخِ في لُبْسِ الخِرْقةِ تنوبُ مَنَابَ يدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وتسليمُ المُريدِ تسليمٌ للهِ ورسولِهِ[٣] ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) رواه البخاري (٢٣٥٩) ، ومسلم (٢٣٥٧) عن سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، وقوله : (أَسْقِ) يجوز فيه أيضاً (اسْقِ) بهمزة وصل ؛ مِنْ (سقى) الثلاثي ، وانظر « إرشاد الساري » (٤/١٩٨) ، و« غنية العارف » (١/ ١٦٠) .

(٢) لأنَّهُ لا يعملُ شيئاً ولا يقولُ إلا بما يعلمُ بالعلم الظاهرِ المفهوم ، أو بالعلم الباطنِ المكشوف ، فإذا لم يُسلِّمِ المريدُ أمرَهُ إلى الشيخ ويعملْ برأيه واختياره . . لا يسري إليه الأحوالُ ، ولا يبلغُ مَبْلغَ الرجال . من هامش (ح) .

(٣) لأنَّ سلسلةَ التسليم تنتهي إلىٰ رسول الله وإلى الله ، فقلبُ المريدِ بمنزلة حلقة به انتظمت=

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ [الفتح : ١٠] (١) .

ولْيأخذِ الشيخُ على المُريدِ عهدَ الوفاءِ بشرائطِ الخِرْقةِ ، ويُعرِّفُهُ حقوقَ الخِرْقةِ ؛ فالشيخُ للمُريدِ صورةٌ يَستشِفُّ المُريدُ مِنْ وراءِ هـٰذهِ الصُّورةِ المُطالَباتِ الإلـٰهيَّةَ ، والمَراضيَ النبويَّةَ(٢)

ولْيَعتقدِ المُريدُ أنَّ الشيخَ بابٌ فَتَحَهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ جَنَابِ كرمِهِ ؛ منهُ يدخلُ ، وإليهِ يرجعُ ، ويُنزِلُ بالشيخِ سوانحَهُ ومَهامَّهُ الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ ، ويعتقدُ أنَّ الشيخَ يُنزِلُ باللهِ الكريمِ ما يُنزِلُ بهِ المريدُ ، ويرجعُ في ذلكَ

= في سلسلة التسليم لله ولرسوله . من هامش (ح) .

(١) اعلَمْ أنَّ بعضَ المشايخ كانوا يُلبِسُونَ الخرقةَ للمريد بعدَ التربية لهم في الابتداء بالخدمة لعباد الله الصالحين ، وفي الأوساط بإخلاص المعاملة مع الله ، والوفاءِ بالعهود والعزائم علىٰ منهج الصِّدق ، وفي الانتهاء بجمع الهَمِّ والهِمَّة على الله وعدمِ الالتفات إلىٰ ما سواه ، فهـٰذا الإلباسُ بعدَ التربية في المراتب الثلاث إلباسُ خِلْعةِ الولاية والتشريفِ والتأهيل للإرشاد .

وبعضَهُم يُلبِسُون الخرقةَ قبلَ التربية أوانَ التسليم والتحكيم ؛ أي : تسليمِ المريدِ للشيخ وتحكيمِهِ إيَّاه ؛ ليكون في إلباس الخِرْقةِ الظاهرةِ وتغييرِ الهيئة الصُّوريَّة والتمييزِ عن الأشكال . . علامةُ التصرُّف في تغيير الباطن وإلباسِ ملابسِ الأحوال ، ولقد عُرِفَ بالتجربة والوِجْدان أنَّ الشخص إذا تغيَّر لباسُهُ المعهود الذي كان يتزيَّنُ له لنظر الخلق بلباسِ غيرِ معهودٍ ممَّا يَلبَسُهُ الصالحون لطاعة الحقِّ . . يَجِدُ في باطنه تغيُّراً وهِمَّةً ونهضةً إلىٰ نيلِ مقامات الأولياء والتخلُّقِ بأخلاقهم ، فالإلباسُ في الابتداء علىٰ ما ذكره الشيخُ قدَّس الله سرَّهُ أَوْلىٰ . من هامش (ح)

(٢) أي : الشيخُ للمريد الصادقِ كمرآةٍ شفَّافة صافية يُبصِرُ فيها ويظهرُ له منها أحكامُ الله وأحكامُ رسوله في شأنه ؛ فإنَّهُ في مطالعة ضمير الشيخ يُدرِكُ ما يطلبُهُ الله منه وما يرضىٰ به الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم . من هامش (ح)

إلى اللهِ للمُرِيدِ كما يرجعُ المُرِيدُ إليهِ

وللشيخِ بابٌ مفتوحٌ مِنَ المُكالَمةِ والمُحادَثةِ في النومِ واليقظةِ ، فلا يتصرَّفُ الشيخُ في المُرِيدِ بهواهُ ؛ فهوَ أمانةُ اللهِ تعالىٰ عندَهُ ، ويستغيثُ إلى اللهِ تعالىٰ لحوائجِ المُرِيدِ كما يستغيثُ لحوائجِ نَفْسِهِ ومَهَامِّ دِينِهِ ودُنياهُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورىٰ : ٥١] .

فإرسالُ الرسولِ يختصُّ بالأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، والوحيُ كذلكَ ، والكلامُ مِنْ وراءِ حجابٍ بالإلهامِ والهواتفِ والمنامِ وغيرِ ذلكَ . . للشيوخِ والرَّاسخينَ في العِلْمِ

واعلَمْ : أنَّ للمُرِيدينَ معَ الشيوخِ أَوَانَ ارتضاعٍ ، وأَوَانَ فِطَامٍ ، وقد سبقَ شرحُ الولادةِ المعنويَّةِ(١)

فأوانُ الارتضاعِ : أوانُ لزومِ الصُّحْبةِ ، والشيخُ يعلمُ وقتَ ذلكَ ، فلا ينبغي للمُرِيدِ أنْ يُفارِقَ الشيخَ إلا بإذنِهِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ تأديباً للأُمَّةِ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ﴾ [النور : ٦٢] ، وأيُّ أمرٍ جامعٍ أعظمُ مِنْ أمرِ الدِّينِ ؟!

فلا يأذنُ الشيخُ للمُرِيدِ في المُفارَقةِ إلَّا بعدَ عِلْمِهِ بأنْ آنَ لهُ أَوَانُ الفِطامِ ،

---

(١) انظر (١/ ٣١٠) وما بعدها

وأنَّهُ يَقدِرُ أنْ يستقلَّ بنَفْسِهِ ، واستقلالُهُ بنَفْسِهِ أنْ ينفتحَ لهُ بابُ الفهمِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

فإذا بلغَ المُرِيدُ رُتْبَةَ إنزالِ الحوائجِ والمَهامِّ باللهِ سبحانَهُ ، والفهمِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بتعريفاتِهِ وتنبيهاتِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ . . لعبدِهِ السائلِ المُحتاجِ[1] . . فقد بَلَغَ أَوَانُ فِطَامِهِ ، ومتىٰ فارقَ قبلَ أَوَانِ الفِطَامِ ينالُهُ مِنَ الإعلالِ في الطريقِ بالرُّجوعِ إلى الدنيا ومُتابعةِ الهوىٰ ما ينالُ المفطومَ لغيرِ أَوَانِهِ في الولادةِ الطبيعيَّةِ .

وهٰذا التَّلَزُّمُ بصُحْبةِ المشايخِ للمُرِيدِ الحقيقيِّ ، والمُرِيدُ الحقيقيُّ يَلبَسُ خِرْقَةَ الإرادةِ .

واعلَمْ : أنَّ الخِرْقةَ خِرْقتانِ : خِرْقةُ الإرادةِ ، وخِرْقةُ التبرُّكِ .

والأصلُ الذي قَصَدَهُ المشايخُ للمُرِيدينَ : خِرْقةُ الإرادةِ ، وخِرْقةُ التبرُّكِ تَشَبُّهٌ بخِرْقةِ الإرادةِ[2] ؛ فخِرْقةُ الإرادةِ للمُرِيدِ الحقيقيِّ ، وخِرْقةُ التبرُّكِ للمُتشبِّهِ ، ومَنْ تشبَّهَ بقومٍ فهوَ منهُم[3]

وسِرُّ الخِرْقةِ : أنَّ الطالبَ الصادقَ إذا دَخَلَ في صُحْبةِ الشيخِ ، وسَلَّمَ نَفْسَهُ إليهِ ، وصارَ كالولدِ الصغيرِ معَ الوالدِ . يُربِّيهِ الشيخُ بعِلْمِهِ المُستمَدِّ مِنَ اللهِ تعالىٰ بصِدْقِ الافتقارِ ، وحُسْنِ الاستقامةِ .

ويكونُ للشيخِ بنفوذِ بصيرتِهِ الإشرافُ على البواطنِ ؛ فقد يكونُ المُرِيدُ

---

(١) قوله : (لعبده) متعلق بـ (إنزال الحوائج) .

(٢) في نسخة على هامش (د) : (ولخرقة) بدل (وخرقة) .

(٣) إشارة إلى حديث سبق تخريجه في (١/ ٢٨١) .

يَلبَسُ الخَشِنَ ـ كثيابِ المُتقشِّفينَ المُتزهِّدينَ[1] ـ ولهُ في تلكَ الهيئةِ مِنَ الملبوسِ هوىً كامنٌ في نَفْسِهِ ؛ ليُرىٰ بعينِ الزَّهادةِ ، فأَشَدُّ ما علىٰ هـٰذا لُبْسُ الناعمِ ، وللنَّفْسِ هوىً واختيارٌ في هيئةٍ مخصوصةٍ مِنَ الملبوسِ في قِصَرِ الكُمِّ والذَّيلِ وطُولِهِ ، وخُشونتِهِ ونُعومتِهِ ، علىٰ قَدْرِ حِسْبانِها وهواها ، فيُلبِسُ الشيخُ لمثلِ هـٰذا الزاهدِ الراكنِ إلىٰ تلكَ الهيئةِ ثوباً يَكسِرُ بذلكَ علىٰ نَفْسِهِ هواها وغَرَضَها

وقد يكونُ على المُريدِ ملبوسٌ ناعمٌ ، أو هيئةٌ في الملبوسِ ، تَشَرَّبَتِ النَّفْسُ تلكَ الهيئةَ بالعادةِ ، فيُلبِسُهُ الشيخُ ما يُخرِجُ النَّفْسَ مِنْ عادتِها وهواها .

فتَصَرُّفُ الشيخِ في الملبوسِ كتصرُّفِهِ في المطعومِ ، وكتصرُّفِهِ في صومِ المُريدِ وإفطارِهِ ، وكتصرُّفِهِ في أَمْرِ دِينِهِ ودنياهُ ، إلىٰ ما يَرىٰ لهُ مِنَ المصلحةِ ؛ مِنْ دوامِ الذِّكْرِ ، أو دوامِ التنفُّلِ بالصلاةِ ، أو دوامِ التلاوةِ ، أو دوامِ الخِدْمةِ ، وكتصرُّفِهِ فيهِ بردِّهِ إلى الكَسْبِ أوِ الفتوحِ أو غيرِ ذلكَ .

فللشيخِ إشرافٌ على البواطنِ وتنوُّعِ الاستعداداتِ ؛ فيأمرُ كلَّ مُريدٍ مِنْ أمرِ مَعاشِهِ ومَعادِهِ بما يصلُحُ لهُ ، ولتنوُّعِ الاستعداداتِ تَنَوَّعَتْ مراتبُ الدعوةِ ؛ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل ١٢٥] .

فالحِكْمةُ رُتْبَةٌ في الدعوةِ ، والموعظةُ كذلكَ ، والمُجادَلةُ كذلكَ[2] ؛

(١) التقشُّف : التقلُّلُ في الطعام واللباس . من هامش (ي) .

(٢) الحكمة : النبوّة ، والموعظة الحسنة : القول الرقيق ، والمجادلة بالأحسن : القرآن =

فمَنْ يُدعىٰ بالحِكْمةِ لا يُدعىٰ بالموعظةِ ، ومَنْ يُدعىٰ بالموعظةِ لا يصلُحُ دعوتُهُ بالحكمةِ

فهكذا الشيخُ ؛ يعلمُ مَنْ هوَ علىٰ وَضْعِ الأبرارِ ، ومَنْ هوَ علىٰ وَضْعِ المُقرَّبينَ ، ومَنْ يصلُحُ لدوامِ الذِّكْرِ ومَنْ لا يصلُحُ ، ومَنْ يصلُحُ لدوامِ الصلاةِ ومَنْ لا يصلُحُ ، ومَنْ لهُ هوىً في التخشُّنِ أو في التنعُّمِ ، فيخلَعُ المُريدَ مِنْ عادتِهِ ، ويُخرِجُهُ مِنْ مَضيقِ هوىٰ نَفْسِهِ ، ويُطعِمُهُ باختيارِهِ ، ويُلبِسُهُ باختيارِهِ ثوباً يصلُحُ لهُ ، وهيئةً تصلُحُ لهُ ، يُداوِي بالخِرْقةِ المخصوصةِ والهيئةِ المخصوصةِ داءَ هواهُ ، ويتوخَّىٰ بذلكَ تقريبَهُ إلىٰ رضا مَوْلاهُ .

فالمُريدُ الصادقُ المُلتهِبُ باطنُهُ بنارِ الإرادةِ في بُدُوِّ أمرِهِ وحِدَّةِ إرادتِهِ . . كالمَلْسُوعِ الحريصِ علىٰ مَنْ يَرْقِيهِ ويُداوِيهِ ، فإذا صادفَ شيخاً انبعثَ مِنْ باطنِ الشيخِ صدقُ العنايةِ بهِ ؛ لاطِّلاعِهِ عليهِ ، وينبعثُ مِنْ باطنِ المُريدِ صدقُ المحبّةِ بتألُّفِ القلوبِ وتَشَامِّ الأرواحِ[١] ، وظهورِ سِرِّ السابقةِ فيهما باجتماعِهِما للهِ في اللهِ باللهِ ، فيكونُ القميصُ الذي يُلبِسُ الشيخُ المُريدَ خِرْقةً تُبشِّرُ المُريدَ بحُسْنِ عنايةِ الشيخِ بهِ[٢] ، فتعملُ عندَ المُريدِ عَمَلَ قميصِ يوسفَ عندَ يعقوبَ عليهِما السلامُ .

= من هامش (ج) ، وانظر « النكت والعيون » (٣/ ٢٢٠) .

(١) أي : الائتلافِ السابق في عالم الأرواح ؛ لما قال عليه السلام : « الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدةٌ . . . » الحديثَ ؛ أي : باجتماع الشيخ والمريد في مقام الإخلاص ، ثمَّ في مقام الفناء ، ثمَّ في مقام البقاء . من هامش (ج) .

(٢) في نسخة علىٰ هامش (د) : (الله) بدل (الشيخ)

وقد نُقِلَ أنَّ إبراهيمَ الخليلَ عليهِ السلامُ حينَ أُلقِيَ في النَّارِ . جُرِّدَ مِنْ ثيابِهِ ، وقُذِفَ في النارِ عُرْياناً ، فأتاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ بقميصٍ مِنْ حريرِ الجنَّةِ وألْبسَهُ إيَّاهُ ، وكانَ ذلكَ عندَ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ، فلمَّا ماتَ وَرِثَهُ إسحاقُ عليهِ السلامُ ، فلمَّا ماتَ وَرِثَهُ يعقوبُ عليهِ السلامُ ، فجعلَ يعقوبُ عليهِ السلامُ ذلكَ القميصَ في تعويذٍ وجعلَهُ في عُنُقِ يوسفَ عليهِ السلامُ ، فكانَ لا يُفارِقُهُ ، فلمَّا أُلقِيَ في البئرِ عُرْياناً جاءَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ وكانَ عليهِ التعويذُ ، فأَخْرَجَ القميصَ منهُ وألْبسَهُ إيَّاهُ[1]

(٣٦) ـ أخبرَنا الشيخُ العالِمُ رَضِيُّ الدِّينِ أحمدُ بنُ إسماعيلَ القَزْوِينيُّ رحمَهُ اللهُ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو سعدٍ محمَّدُ بنُ أبي العبَّاسِ[2] ، قالَ : أخبرَنا القاضي محمَّدُ بنُ سعيدٍ[3] ، قالَ : أخبرَنا أبو إسحاقَ أحمدُ بنُ محمَّدٍ ، قالَ : أخبرَني ابنُ فَنْجُويَه الحسينُ بنُ محمَّدٍ ، قالَ : حدَّثَنا مَخْلَدُ بنُ جعفرٍ ، قالَ : حدَّثَنا الحسنُ بنُ عَلُّويَه ، قالَ : حدَّثَنا إسماعيلُ بنُ عيسىٰ ، قالَ : حدَّثَنا إسحاقُ بنُ بِشْرٍ ، عنِ ابنِ السُّدِّيِّ ، عن أبيهِ ، عن مُجاهِدٍ قالَ : (كانَ يوسفُ عليهِ السلامُ أعلمَ باللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ ألَّا يعلمَ أنَّ قميصَهُ لا يَرُدُّ علىٰ يعقوبَ بصرَهُ ، ولـٰكنَّ ذلكَ كانَ قميصَ إبراهيمَ

---

(١) سيأتي تخريجه (١/ ٣٤٣)

(٢) في (ب ، هـ ، ز) : (أبو سعيد) بدل (أبو سعد) ، وأبو سعد : هو الإمام الفقيه الأديب الشاعر محمد بن أحمد بن محمد بن الخليل الخليلي النَّوْقاني (ت ٥٤٨هـ) ، وسيأتي مصححاً دون تنبيه ، وانظر « المنتخب من معجم شيوخ السمعاني » (١/ ١٣٧٠) .

(٣) هو أبو سعيد الفَرُّخزادي الطوسي (ت ٤٧٧هـ) ، وانظر « تاريخ الإسلام » (٣٢/ ٢٠٦)

عليهِ السلامُ) ، وذَكَرَ ما ذكرْناهُ ، قالَ (فأمرَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ أنْ أَرْسِلْ بقميصِكَ ؛ فإنَّ فيهِ ريحَ الجنَّةِ ، لا يقعُ علىٰ مُبتلىً أو سقيمٍ إلَّا صحَّ وعُوفِيَ)[1]

فتكونُ الخِرْقةُ عندَ المُريدِ الصادقِ مُتحمِّلةً إليهِ عَرْفَ الجنَّةِ ؛ لِمَا عندَهُ مِنَ الاعتدادِ بالصُّحْبةِ للهِ تعالىٰ ، ويرىٰ لُبْسَ الخِرْقةِ مِنْ عنايةِ اللهِ تعالىٰ بهِ وفَضْلِهِ عليهِ .

فأمَّا خِرْقةُ التبرُّكِ فيطلُبُها مَنْ مقصودُهُ التبرُّكُ بزِيِّ القومِ ، ومثلُ هـٰذا لا يُطالَبُ بشرائطِ الصُّحْبةِ ، بل يُوصىٰ بلزومِ حدودِ الشرعِ ، ومُخالَطةِ هـٰذهِ الطائفةِ ؛ ليعودَ عليهِ بركتُهُم ، ويتأدَّبَ بآدابِهِم ، فسوفَ يُرقِّيهِ ذلكَ إلى الأهليَّةِ لخِرْقةِ الإرادةِ .

فعلىٰ هـٰذا : خِرْقةُ التبرُّكِ مبذولةٌ لكلِّ طالبٍ ، وخِرْقةُ الإرادةِ ممنوعةٌ إلَّا مِنَ الصادقِ الراغبِ .

ولُبْسُ الأزرقِ مِنِ استحسانِ الشيوخِ في الخِرْقةِ ، فإنْ رأىٰ شيخٌ أنْ يُلبِسَ مُريداً غيرَ الأزرقِ . . فليسَ لأحدٍ أنْ يعترضَ عليهِ ؛ لأنَّ المشايخَ آراؤُهُم فيما يفعلونَ بحكمِ الوقتِ .

وكانَ شيخُنا رحمةُ اللهِ عليهِ يقولُ : (كانَ الفقيرُ يَلبَسُ قصيرَ الأكمامِ ؛ ليكونَ أَعْونَ على الخِدْمةِ) .

---

(١) الكشف والبيان (١٥/١٤٧ـ ١٤٨) ، ورواه بنحوه الواحدي في « الوسيط » (٢/ ٦٣١) مرفوعاً عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (١١٩٥٦) عن سيدنا المطلب بن عبد الله بن حنطب رضي الله عنه ، وانظر « الدر المنثور » (٤/ ٥٧٩ـ٥٨٠)

ويجوزُ للشيخِ أنْ يُلبِسَ المُرِيدَ خِرَقاً في دَفَعاتٍ على قَدْرِ ما يتلمَّحُ مِنَ المصلحةِ للمُرِيدِ في ذلكَ ، على ما أَسْلَفْناهُ مِنْ مُداواةِ هواهُ في الملبوسِ .

والمُلوَّنَ ؛ فيختارُ الأزرقَ ؛ لأنَّهُ أرفقُ للفقيرِ ؛ لكونهِ يحملُ الوسخَ ، ولا يُحوِجُ إلى زيادةِ الغَسْلِ ؛ لهٰذا المعنى فحسبُ ، وما عدا هٰذا مِنَ الوجوهِ التي يذكرُها بعضُ المُتصوِّفةِ في ذلكَ . فهوَ كلامٌ إقناعيٌّ مِنْ كلامِ المُتصنِّعينَ ، ليسَ مِنَ الدِّينِ والحقيقةِ بشيءٍ .

سمعتُ الشيخَ سديدَ الدِّينِ أبا الفخرِ الهَمَذَانيَّ رحمَهُ اللهُ قالَ[1] : كنتُ ببغدادَ عندَ أبي بكرٍ الشُّرُوطيِّ ، فخرجَ إلينا فقيرٌ مِنْ زاويتِهِ وعليهِ ثوبٌ وَسِخٌ ، فقالَ لهُ بعضُ الفقراءِ : لِمَ لا تغسلُ ثوبَكَ ؟ فقالَ يا أخي ؛ ما أتفرَّغُ ، فقالَ الشيخُ أبو الفخرِ : لا أزالُ أتذكَّرُ حلاوةَ قولِ الفقيرِ : (ما أتفرَّغُ) ؛ لأنَّهُ كانَ صادقاً في ذلكَ ، وأَجِدُ لذَّةً لقولِهِ ، وبركةَ بتَذْكاري ذلكَ

فاختارُوا المُلَوَّنَ ؛ لهٰذا المعنى ؛ لأنَّهُم مِنْ رعايةِ وقتِهِم في شُغْلٍ شاغلٍ ، وإلَّا فأيَّ ثوبٍ أَلْبَسَ الشيخُ المُرِيدَ مِنْ أبيضَ وغيرِ ذلكَ . فللشيخِ ولايةُ ذلكَ ؛ لحُسْنِ مَقصِدِهِ ، ووُفُورِ علمِهِ .

وقد رأَيْنا مِنَ المشايخِ مَنْ لا يُلبِسُ الخِرْقةَ ، ويسلُكُ بأقوامٍ مِنْ غيرِ لُبْسِ الخِرْقةِ ، ويُؤخَذُ منهُ العلومُ والآدابُ ، وقد كانَ طبقةٌ مِنَ السلفِ الصالحينَ لا يعرفُونَ الخِرْقةَ ، ولا يُلبِسُونَها المُرِيدينَ .

---

(١) في أكثر النسخ : (الهَمْداني) بالمهملة .

فمَنْ يُلبِسُها فلهُ مَقصِدٌ صحيحٌ ، وأصلٌ مِنَ السُّنَّةِ ، وشاهدٌ مِنَ الشرعِ ، ومَنْ لا يُلبِسُها فلهُ رأيُهُ ، ولهُ في ذلكَ مَقصِدٌ صحيحٌ ، وكلُّ تصاريفِ المشايخِ محمولةٌ على السَّدادِ والصوابِ ، ولا تخلو عن نيّةٍ صالحةٍ فيها[1] ، فاللهُ تعالىٰ ينفعُ بِهِم وبآثارِهِم إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ إنَّهُ قديرٌ ، وبالإجابةِ جديرٌ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ[2]

***

(١) وسُئل المؤلف عن استدعاء الخِرْقة وطلبها من الشيوخ ، فأجاب : بأنَّهُ جائز ؛ بدليل الحديث الذي رواه الصحابيُّ سهل بن سعد رضي الله عنه أنَّ امرأةً أتتِ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ببردةٍ منسوجٍ في حاشيتها حريرٌ ، فقالت : إنِّي نسجت هٰذه بيدي أكسوكَها ، فأخذها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم محتاجاً إليها ، فخرج علينا وإنَّها لإزارُهُ ، فجسَّها رجلٌ من القوم ، فقال : يا رسول الله ؛ اكسُنِيها ، قال : نعم ، فجلس في المجلس ما شاء الله ، ثمَّ رجع فطواها وأرسل بها إليه ، فقال له القوم : ما أحسنتَ ، سألتَها إيَّاه وقد عرفتَ أنَّهُ لا يَرُدُّ سائلاً !! فقال الرجل : والله ؛ ما سألتُها إلا لتكون كفني يومَ أموت ، قال سهل : فكانت كفنَهُ ، [رواه البخاري (٢٠٩٣)] ؛ فيجوزُ استدعاء الخرقة ممَّن يُعتقد فيه الخير من السَّادة الفضلاء تبرُّكاً بهم وبلباسهم . « أجوبة السهروردي » (ق/ ٢٤) .

(٢) في هامش (ب) : (بلغ قراءةً في الثامن على الشيخ الحافظ جلال الدين ، كاتبه عبد السلام بن داود المقدسي) ، وفيه أيضاً : (بلغ سماعهم في الحادي عشر بقراءة الكاتب) .

الباب الثالث عشر

في فضيلة سكان الرُّبُط (١)

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور : ٣٦-٣٧] (٢) .

---

(١) ومن المناسب إيرادُهُ ها هنا : ما سُئِلَ عنه إمامنا المُؤلِّف ؛ وهو أنَّهُ هل يجوز للمريد أن يسكن الرُّبُطَ والخوانقَ أو الزوايا المبنيَّةَ من أموال السلاطين والولاة ويأكلَ من أوقافها ؟ فأجاب : بأنَّهُ يجوز له أن يسكنها ، ولـٰكن بشرط ألَّا يأكل من مال الوقف ، إلا إذا كَمَلَ شُغْلُهُ بالله تعالىٰ ولم يبقَ للبطالة عليه طريقٌ ، فيكونُ ما يتناولُهُ من القربة بمثابة المداراة للعليل للرفق به وإبقاءِ الرمق عليه عند الضرورة ، وإلا فالكسبُ به أَوْلىٰ ، وربَّما كان سُكْنى الرباط أبعدَ له من الآفات والشهوة ؛ لأنَّ أربابَ الزوايا [يستهترون] أعجل من أرباب الرُّبُط ، ولـٰكن بشرط ألَّا يسترسلَ في الاختلاط وكثرة المعاشرة ؛ فإنَّهُ الداء العُضالُ المهلك ؛ فإنَّ باسترساله في المعاشرة تسترقه النفسُ ؛ لما لها في ذلك من اللَّذَّة والراحة ، فلا تزالُ به حتىٰ تُوقِعَهُ في المُحرَّمات من حيثُ لا يعلم ، فينبغي له أن يُوزِّعَ أوقاتَهُ ، فيعمرَ كلَّ وقت بما يصلح له ؛ لتكونَ أوقاتُهُ محفوظةً عليه بأنواع العبادات ، فكفىٰ بالعبادة شغلاً ، ويستعين بالله فهو خير معين . « أجوبة السهروردي » (ق/ ٢٥)

(٢) قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ . . . ﴾ ؛ أي : بالبناء والتعظيم . « أنوار » ، قيل : يُرفع فيها الحوائج إلى الله ، وقيل : الحوائج من القلوب ، وشغلُ القلوب بالذكر .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ ﴾ ؛ أي : يُصلَّى له فيها بالغداة ؛ صلاة الفجر ، وبالآصال : صلاة الظهر والعصر والعشاءين ، وإنَّما وحَّد الغداة ؛ لأنَّ صلاته واحدة ، =

قيلَ : إنَّ هٰذهِ البُيُوتَ هيَ المساجدُ[١] ، وقيلَ : هيَ بُيُوتُ المدينةِ[٢] ، وقيلَ : بُيُوتُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٣]

وقيلَ لمَّا نزلتْ هٰذهِ الآيةُ قامَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذهِ البُيُوتُ منها بيتُ عليٍّ وفاطمةَ رضيَ اللهُ عنهُما ؟ قالَ « نَعَمْ ، مِنْ أَفَاضِلِهَا »[٤]

وقالَ الحسنُ : (هيَ بِقَاعُ الأرضِ كلُّها ؛ جُعِلَتْ مسجداً لرسولِ اللهِ

= وفي الآصال صلوات ، والآصال : جمع (أصيل) ؛ وهو العشي . « مدارك » .

وقوله : ﴿رِجَالٌ﴾ قال بعضُهم : (رجالٌ قلوبُهم مُعلَّقةٌ بالسوابق والخواتم ، أَشْغلهم ما جرىٰ عليهم في الأزل ، وحزنُ ما يَرِدُون إليه من العاقبة . . عن الاشتغالِ بالدنيا ، والتقلُّبِ فيها ، والتمتُّعِ بها) ، وقال بعضهم : (رجالٌ أسقط عنهم المُكوِّنُ ذكرَ المُكوَّنات ، فلا تشغلُهُم الأسبابُ عن المُسبِّب) .

وقوله : ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ ؛ أي بالشخوص ، [أو] الزرقة ؛ أي : تتقلَّب القلوبُ إلى الإيمان بعد الكفران ، والأبصارُ إلى العِيان بعد إنكاره الطغيان ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق : ٢٢] . « مدارك »

وقال الحسين : (إذا علمتَ تقلُّبَ القلوب والأبصار . . فليكنْ شغلُكَ في النظر إلىٰ أفعاله فيك ، وتَوَقَّ الخلافَ والغفلة) « حقائق » . من هامش (ح)

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والحسن . انظر « تفسير الطبري » (١٩/١٨٩ـ١٩٠) ، و« تفسير القرطبي » (١٢/ ٢٦٥) .

(٢) قاله السُّدِّي ، كما في « الكشف والبيان » (١٩/ ٢٧٥) ، وجعله الكرماني في « غرائب التفسير » (٢/ ٧٩٩) من الغريب

(٣) قاله مجاهد . انظر « تفسير القرطبي » (١٢/ ٢٦٥) ، و« الدر المنثور » (٦/ ٢٠٣) .

(٤) رواه الثعلبي في « الكشف والبيان » (١٩/ ٢٧٣ـ٢٧٤) ، وابن مردويه كما في « الدر المنثور » (٦/ ٢٠٣) عن سيدنا أنس وبريدة رضي الله عنهما ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٦٨)

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[1]

فعلىٰ هـٰذا : الاعتبارُ بالرجالِ الذَّاكرينَ لا بصُوَرِ البِقَاعِ ، وأيُّ بُقْعةٍ حَوَتْ رجالاً بهـٰذا الوصفِ هيَ البُيُوتُ التي أَذِنَ اللهُ أنْ تُرفَعَ

روىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (ما مِنْ صباحٍ ولا رَوَاحٍ إلَّا وبِقَاعُ الأرضِ يُنادي بعضُها بعضاً : هل مرَّ بكِ اليومَ أحدٌ صلَّىٰ عليكِ أو ذَكَرَ اللهَ عليكِ ؟ فمِنْ قائلةٍ : نعم ، ومِنْ قائلةٍ لا ، فإذا قالَتْ نعم . . عَلِمَتْ أنَّ لها عليها بذلكَ فضلاً

وما مِنْ عبدٍ ذَكَرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ بُقْعةٍ مِنَ الأرضِ ، أو صلَّىٰ للهِ تعالىٰ عليها . . إلَّا شَهِدَتْ لهُ بذلكَ يومَ القيامةِ عندَ ربِّهِ ، وبَكَتْ عليهِ يومَ يموتُ)[2]

وقيلَ : في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ . . . ﴾ [الدخان : ٢٩] : تنبيهٌ علىٰ فضيلةِ أهلِ اللهِ تعالىٰ مِنْ أهلِ طاعتِهِ[3] ؛ لأنَّ الأرضَ تبكي عليهِم ، ولا تبكي علىٰ مَنْ رَكَنَ إلى الدُّنيا واتَّبعَ الهوىٰ .

---

(١) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٢٧/ ٤٤٥) ، والبغوي في « تفسيره » (٨/ ٢٤٢) عند قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ [الجن : ١٨] .

(٢) رواه إلىٰ قوله : (بذلك فضلاً) ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٥) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٥٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » ، وروىٰ باقيَهُ ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٩) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٤١١٠) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٤٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٨٦١) عن عطاء الخراساني رحمه الله تعالىٰ .

(٣) في (أ ، ح) : (أهل ذكر الله) بدل (أهل الله) .

فسُكَّانُ الرِّباطِ همُ الرجالُ[1] ؛ لأنَّهُم رَبَطُوا نفوسَهُم على طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وانقطعُوا إلى اللهِ تعالىٰ ، فأقامَ اللهُ تعالىٰ لهمُ الدُّنيا خادمةً

روىٰ عِمْرانُ بنُ الحُصينِ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « مَنِ ٱنْقَطَعَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ كَفَاهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ مُؤْنَتَهُ ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنِ ٱنْقَطَعَ إِلَى ٱلدُّنْيَا وَكَلَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهَا »[2]

وأصلُ الرِّباطِ : ما تُربَطُ فيهِ الخُيُولُ ، ثمَّ قيلَ لكلِّ ثَغرٍ يدفعُ أهلُهُ عمَّنْ وراءَهُم رِباطٌ ؛ فالمُجاهِدُ المُرابِطُ يدفعُ عمَّنْ وراءَهُ ، والمُقيمُ في الرِّباطِ علىٰ طاعةِ اللهِ يُدفَعُ بهِ وبدعائِهِ البلاءُ عنِ العبادِ والبلادِ

(٣٧) ـ أخبرَنا الشيخُ العالِمُ رَضِيُّ الدِّينِ أبو الخيرِ أحمدُ بنُ إسماعيلَ القَزْوِينيُّ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو سعدٍ محمَّدُ بنُ أبي العبَّاسِ الخَليليُّ ، قالَ : أخبرَنا القاضي محمَّدُ بنُ سعيدٍ الفَرُّخْزَاديُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو إسحاقَ أحمدُ بنُ محمَّدٍ ، قالَ أخبرَنا الحسينُ بنُ محمَّدٍ ، قالَ : حدَّثَنا أبو بكرِ ابنُ خُرْجَةَ ، قالَ : حدَّثَنا عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ حنبلٍ ، قالَ : حدَّثَني أبو حُمَيدٍ الحِمْصيُّ ، قالَ : حدَّثَنا يحيى بنُ سعيدٍ [العطَّارُ][3] ، قالَ حدَّثَنا حَفْصُ بنُ سليمانَ ، عن محمَّدِ بنِ سُوقَةَ ، عن وَبَرَةَ بنِ عبدِ الرحمٰنِ ،

---

(١) أي : المذكورون في قوله تعالىٰ : ﴿رِجَالٌ﴾ [النور : ٣٧] . من هامش (و) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٣٣٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤٤) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٠٥) .

(٣) في النسخ : (القطان) ، والمثبت من المصادر الآتية ، والعطَّار : هو أبو زكريا الأنصاري الشامي الحمصي . انظر « تهذيب الكمال » (٣١/ ٣٤٣ـ٣٤٤) ، و« سير أعلام النبلاء » (٩/ ٤٧٢)

عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ عزَّ وجلَّ لَيَدْفَعُ بِٱلْمُسْلِمِ ٱلصَّالِحِ عَنْ مِئَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ ٱلْبَلَاءَ »(١)

ورُوِيَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « لَوْلَا عِبَادٌ لِلّٰهِ رُكَّعٌ ، وَصِبْيَةٌ رُضَّعٌ ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ . لَصُبَّ عَلَيْكُمُ ٱلْعَذَابُ صَبّاً ، ثُمَّ يُرَضُّ رَضّاً »(٢)

وروىٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ لَيُصْلِحُ بِصَلَاحِ ٱلرَّجُلِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ ، وَأَهْلَ دُوَيْرَتِهِ ، وَدُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ ، وَلَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ ٱللهِ مَا دَامَ فِيهِمْ »(٣)

وروىٰ داودُ بنُ صالحٍ قالَ : قالَ لي أبو سَلَمَةَ بنُ عبدِ الرحمٰنِ يا بنَ أخي ؛ هل تدري في أيِّ شيءٍ نَزَلَتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ

---

(١) الكشف والبيان (٧/ ٣٨ـ٣٩) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٥/ ٣٧٤) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٣/ ٢١٥) ، و« المعجم الأوسط » (٤٠٨٠) ، وفي النسخ ما عدا (د ، ب ، هـ) : (من أهل بيته ومن جيرانه البلاء) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٧١)

(٢) رواه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٩٦٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢/ ٣٠٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣٤٥) عن سيدنا مسافع الدِّيلي رضي الله عنه ، وقوله : (رُتَّع) يُقالُ : رَتَعَتِ الماشيةُ رَتْعاً : رَعَتْ كيف شاءت ، وفي « الآحاد والمثاني » : (ثم رُصَّ رصّاً) بالصاد ، قال ابن الأثير في « النهاية » (٢/ ٢٢٩) علىٰ رواية الضاد : (هكذا جاء في رواية ، **والصحيح** بالصاد المهملة) ، وفي هامش (ح) : (الرضُّ : الدقُّ الجريش ؛ جَرَشْتُ الشيء : إذا لم تُنعِمْ دقَّهُ ، فهو جريش) ، ورُصَّ رصّاً ؛ أي : ضُمَّ بعضُهُ إلىٰ بعض .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (٥/ ٣٧٤ـ٣٧٥) ، ورواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٨٦٦) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣٣٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٦٤) من قول محمد بن المنكدر رحمه الله تعالىٰ

وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ؟ قلتُ : لا ، قالَ : يا بنَ أخي ؛ لم يكنْ في زَمَنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غَزْوٌ يُربَطُ فيهِ الخيلُ ، ولـكنَّهُ انتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ(١)

فالرِّباطُ لجهادِ النَّفْسِ ، والمُقِيمُ في الرِّباطِ مُرابِطٌ مُجاهِدٌ نَفْسَهُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج : ٧٨] .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : (هوَ مُجاهَدةُ النَّفْسِ والهوىٰ ، وذلكَ حقُّ الجهادِ ، وهوَ الجهادُ الأكبرُ)(٢) ؛ علىٰ ما رُوِيَ في الخبرِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ حينَ رَجَعَ مِنْ بعضِ غَزَواتِهِ : « رَجَعْنَا مِنَ ٱلْجِهَادِ ٱلْأَصْغَرِ إِلَى ٱلْجِهَادِ ٱلْأَكْبَرِ »(٣)

وقيلَ إنَّ بعضَ الصالحينَ كَتَبَ إلىٰ أخٍ لهُ يستدعيهِ إلى الغزوِ ، فكَتَبَ إليهِ : يا أخي ؛ كلُّ الثُّغورِ مجتمعةٌ لي في بيتٍ واحدٍ ، والبابُ عليَّ مردودٌ .

فكَتَبَ إليهِ أخوهُ : لو كانَ الناسُ كلُّهُم لَزِمُوا ما لَزِمْتَهُ . . اختلَّتْ أمورُ المسلمينَ وغَلَبَ الكُفَّارُ ، ولا بُدَّ مِنَ الغزوِ والجهادِ .

فكَتَبَ إليهِ : يا أخي ؛ لو لَزِمَ الناسُ ما أنا عليهِ . . لقالوا في زواياهُم

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٨) ، ومن طريقه الطبري في « تفسيره » (٧/ ٥٠٤) ، والحاكم (٢/ ٣٠١) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٧٣) .

(٢) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (١٨/ ٤١٣) ، والبغوي في « تفسيره » (٥/ ٤٠٢) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٤٩٨) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٧٣) .

علىٰ سَجَّاداتِهِم : (اللهُ أكبرُ) انهدمَ سُورُ قُسْطَنْطِينيَةَ !![1]

وقالَ بعضُ الحُكَماءِ (ارتفاعُ الأصواتِ في بُيُوتِ العباداتِ ، بحُسْنِ النِّيَّاتِ وصفاءِ الطَّوِيَّاتِ . . يَحُلُّ ما عَقَدَتْهُ الأفلاكُ الدّائراتُ)[2]

فاجتماعُ أهلِ الرُّبُطِ إذا صحَّ على الوجهِ الموضوعِ لهُ الرُّبُطُ[3] ، وتحقَّقَ أهلُ الرُّبُطِ بحُسْنِ المُعاملةِ ، ورعايةِ الأوقاتِ ، وتَوَقِّي ما يُفسِدُ الأعمالَ ، واعتمادِ ما يُصحِّحُ الأحوالَ[4] . . عادتِ البركةُ على العبادِ والبلادِ[5]

وقالَ سَرِيٌّ السَّقَطيُّ رحمَهُ اللهُ في قولِهِ تعالى : ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ : (اصبِرُوا عنِ الدُّنيا رجاءَ السلامةِ ، وصابِرُوا عندَ القتالِ بالثَّباتِ والاستقامةِ ، ورابطُوا أهواءَ النَّفْسِ اللَّوّامةِ ، واتَّقُوا ما يُعقِبُ لكُم مِنَ النَّدامةِ ؛ لعلَّكُم تُفلِحُونَ غداً علىٰ بِساطِ الكرامةِ)[6]

---

(١) في (ي) ونحوها في (ج) : (فقالوا . . . لانهدم) .

(٢) أورده أبو بكر الخوارزمي في « مفيد العلوم » (ص٤٤٩) ، وعزاه ابن تيمية في « الرد على المنطقيين » (ص٢٧٢) إلىٰ بطليموس .

(٣) من الاجتماع لله في الله ، والاشتغالِ بطاعة الله علىٰ موافقة أصحاب الصُّفَّة ، وتركِ الدنيا علىٰ أربابها وطُلَّابها . من هامش (ح) ، وستأتي بعد قليل شروط ساكني الرُّبُط .

(٤) في نسخة علىٰ هامش (و) : (يصلح) بدل (يصحح) .

(٥) أي : عاد نزولُ البركة بعدَ الانصراف بالثبات والاستقامة ، وعدمِ الانصراف والفرار . من هامش (ح) .

(٦) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (٩/٥٩٧) ، وفي هامش (ح) : (اصبروا على الدِّين وتكاليفه ، قال الجنيد : « الصبر : حَبْسُ النَّفْس على المكروه بنفي الجزع » . « مدارك » ، وصابروا ؛ أي : أعداءَ الله في الجهاد ؛ أي : غالبوهم في الصبر علىٰ شدائد الحرب ، ولا تكونوا أقلَّ صبراً منهم وثباتاً . « مدارك ») ، وفي هامشه أيضاً : (الفلاح : البقاء مع المحبوب بعدَ الخلاص عن المكروه « مدارك ») .

وقيلَ (اصبِرُوا علىٰ بلائي ، وصابرُوا علىٰ نَعْمائي ، ورابِطُوا في دارِ أَعْدائي ، واتَّقُوا محبَّةَ مَنْ سِوَائي ؛ لعلَّكُم تُفلِحُونَ غداً بلِقَائي)[1]

وهٰذهِ شرائطُ ساكنِ الرِّباطِ ؛ قَطْعَ المُعاملةَ معَ الخَلْقِ ، وفتَحَ المُعاملةَ معَ الحقِّ ، وتَرْكَ الاكتسابَ اكتفاءً بكفالةِ مُسبِّبِ الأسبابِ ، وحَبْسَ النَّفْسَ عنِ المُخالَطاتِ اجتنابَ التَّبِعاتِ ، وعَانَقَ ليلَهُ ونهارَهُ العبادةَ[2] ، مُتعوِّضاً بها عن كلِّ مألوفٍ وعادةٍ[3] ، شُغْلُهُ حِفْظُ الأوقاتِ ، ومُلازَمةُ الأَورادِ ، وانتظارُ الصَّلَواتِ ، واجتنابُ الغَفَلاتِ ؛ ليكونَ بذلكَ مُرابِطاً مُجاهِداً[4]

(٣٨) ـ حدَّثَنا شيخُنا أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ ، قالَ : أخبرَنا ابنُ نَبْهانَ محمَّدٌ الكاتبُ ، قالَ : أخبرَنا الحسنُ بنُ شاذانَ ، قالَ : أخبرَنا دَعْلَجٌ ، قالَ : أخبرَنا البَغَويُّ ، عن أبي عُبيدٍ القاسمُ بنُ سلَّامٍ ، قالَ : حدَّثَنا صفوانُ ، عنِ الحارثِ ، عن سعيدِ بنِ المُسيِّبِ ، عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِسْبَاغُ ٱلْوُضُوءِ فِي ٱلْمَكَارِهِ ، وَإِعْمَالُ ٱلْأَقْدَامِ إِلَى ٱلْمَسَاجِدِ ، وَٱنْتِظَارُ ٱلصَّلَاةِ بَعْدَ ٱلصَّلَاةِ . يَغْسِلُ ٱلْخَطَايَا غَسْلاً »[5]

---

(١) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (٥٩٧/٩) ، وعزاه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٢٢) إلىٰ أبي بكر الواسطي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) في (و) : (للعبادة) ، والعبارة في نسخة علىٰ هامش (أ) : (ومعانقة العبادة ليلاً ونهاراً)

(٣) زاد في (ب ، هـ ، ح) : (فمَنْ فَعَلَ ذلك) .

(٤) قوله : (بذلك) ؛ أي : ما مرَّ من الشرائط .

(٥) الطهور (١٤) لأبي عبيد القاسم بن سلام، ورواه المؤلف في « مشيخته » (ص٤٨)،=

وفي روايةٍ « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو ٱللهُ بِهِ ٱلْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ ٱلدَّرَجَاتِ ؟ » ، قالوا : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ « إِسْبَاغُ ٱلْوُضُوءِ فِي ٱلْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ ٱلْخُطَا إِلَى ٱلْمَسَاجِدِ ، وَٱنْتِظَارُ ٱلصَّلَاةِ بَعْدَ ٱلصَّلَاةِ ؛ فَذَٰلِكُمُ ٱلرِّبَاطُ ، فَذَٰلِكُمُ ٱلرِّبَاطُ ، فَذَٰلِكُمُ ٱلرِّبَاطُ »[1]

* * *

= والحاكم (١/ ١٣٢) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٤٨٨) ، والبزار في « المسند » (٥٢٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٤٨٤) .

(١) رواه مالك (١/ ١٦١) ، والنسائي (١/ ٨٩) ، وأحمد (٢/ ٣٠٣) ، وابن حبان (١٠٣٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

الباب الرابع عشر

في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨]

وَصَفَ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

قيلَ لهُم : ماذا كنتُم تصنعُونَ حتىٰ أَثْنى اللهُ تعالىٰ عليكُم بهٰذا الثناءِ ؟ قالوا : كُنَّا نُتْبِعُ الماءَ الحَجَرَ(١)

وهٰذا وأشباهُهُ مِنَ الآدابِ وظيفةُ صُوفيَّةِ الرُّبُطِ(٢) ، يُلازِمُونَهُ ويتعاهدُونَهُ

والرِّباطُ بيتُهُم ومنزلُهُم ، ولكلِّ قومٍ دارٌ ، والرِّباطُ دارُهُم ، وقد

---

(١) يعني : نستنجي بالحجر أوَّلاً ثم بالماء ، وهو سنَّة . من هامش (ح) ، والحديث رواه أحمد (٣/ ٤٢٢) ، وابن خزيمة (٨٣) عن سيدنا عُويم بن ساعدة الأنصاري رضي الله عنه : أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أتىٰ قُباءَ فقال لأهله : « إنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ قد أحسنَ عليكُمُ الثناءَ في الطهورِ في قصَّةِ مسجدِكُم ، فما هٰذا الطهورُ الذي تَطَهَّرونَ بهِ ؟ » ، قالوا : واللهِ يا رسول الله ؛ ما نعلمُ شيئاً ، إلا أنَّهُ كان لنا جيرانٌ من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارَهُم من الغائط ، فغَسَلْنا كما غسلوا ، وانظر « تفسير الطبري » (١٤/ ٤٨٤-٤٩٠) .

(٢) في (د) : (وظيفة الصوفية من أهل الرباط) .

شابهوا أهلَ الصُّفَّةِ في ذلكَ ؛ على ما :

(٣٩) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ ، عن أبيهِ الحافظِ المَقْدِسيِّ قالَ أخبرَنا أحمدُ بنُ محمَّدٍ البزَّازُ ، قالَ أخبرَنا عيسى بنُ عليٍّ الوزيرُ ، قالَ حدَّثنا عبدُ اللهِ البَغَويُّ ، قالَ : حدَّثَنا وهبُ بنُ بَقِيَّةَ[1] ، قالَ حدَّثَنا خالدُ بنُ عبدِ اللهِ ، عن داودَ بنِ أبي هندٍ ، عن أبي حربِ بنِ أبي الأسودِ ، عن طلحةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ (كانَ الرجلُ إذا قَدِمَ المدينةَ وكانَ لهُ بها عَرِيفٌ . . ينزلُ على عَرِيفِهِ ، فإنْ لم يكنْ لهُ بها عَرِيفٌ نَزَلَ الصُّفَّةَ ، وكنتُ فيمَنْ نَزَلَ الصُّفَّةَ)[2]

فالقومُ في الرِّباطِ مُرابِطونَ ، مُتَّفِقونَ على قَصْدٍ واحدٍ ، وعَزْمٍ واحدٍ ، وأَحْوالٍ مُتناسبةٍ ، ووُضِعَ الرِّباطُ لهٰذا المعنىٰ ؛ أنْ يكونَ سُكَّانُهُ بوَصْفِ ما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] ، والمُقابلةُ باستواءِ السِّرِّ والعلانيَةِ ، ومَنْ أَضْمرَ لأخيهِ غِلّاً فليسَ بمُقابِلِهِ وإنْ كانَ وجهُهُ إليهِ .

فأهلُ الصُّفَّةِ هٰكذا كانُوا ؛ لأنَّ مَثَارَ الغِلِّ والحِقْدِ وجودُ الدنيا ، وحُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ[3]

---

(١) في (ب ، و ، ح) : (وهبان) بدل (وهب) ، ووهب بن بقية : هو أبو محمد بن بقية بن عثمان بن سابور الواسطي (ت٢٣٩هـ) ، و(وَهْبان) لقبٌ له ، وانظر « تهذيب الكمال » (٣١/ ١١٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (١١/ ٤٦٢) .

(٢) صفوة التصوف (٥٢٦) ، ورواه الحاكم (٣/ ١٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٤٥)

(٣) كما رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠١٩)=

فأهلُ الصُّفَّةِ رَفَضُوا الدُّنيا ؛ فكانُوا لا يرجعُونَ إلىٰ ضَرْعٍ ولا إلىٰ زرعٍ ، فزالَتِ الأحقادُ والغِلُّ عن بواطِنِهم ، وهكذا أهلُ الرُّبُطِ ؛ مُتقابِلُونَ بظواهرِهِم وبواطِنِهم ، مُجتمِعُونَ على الألْفةِ والمَودَّةِ ، يجتمعُونَ للكلامِ[1] ، ويجتمعُونَ للطعامِ ، ويتعرَّفُونَ بركةَ الاجتماعِ

روىٰ وَحْشِيُّ بنُ حَرْبٍ ، عن أبيهِ ، عن جدِّهِ أنَّهُم قالوا[2] : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّا نأكلُ ولا نشبعُ ، قالَ : « لَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ عَلَىٰ طَعَامِكُمْ ، ٱجْتَمِعُوا وَٱذْكُرُوا ٱللهَ تَعَالَىٰ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ »[3]

وروىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : ما أَكَلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ خُِوانٍ ، ولا في سُكُرُّجَةٍ ، ولا خُبِزَ لهُ مُرقَّقٌ ، فقيلَ : فعلىٰ أيِّ شيءٍ كانُوا يأكلُونَ ؟ قالَ : على السُّفَرِ[4]

فالعُبَّادُ والزُّهَّادُ طلبُوا الانفرادَ ؛ لدخولِ الآفاتِ عليهِم بالاجتماعِ ، وكونِ نفوسِهِم تُفِيقُ للأَهْويةِ والخَوْضِ فيما لا يعني[5] ، فرَأَوُا السلامةَ في الوَحْدةِ .

= مرسلاً عن الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ ، وانظر « كشف الخفاء » (١/ ٣٤٤ـ٣٤٥) .

(١) أي : للتعلُّم والتعليم والمناقرة ، والاستصلاح والتشاور . من هامش (ح) .

(٢) أي : أصحابُ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم .

(٣) رواه أبو داود (٣٧٦٤) ، وابن ماجه (٣٢٨٦) ، وأحمد (٣/ ٥٠١) ، وابن حبان (٥٢٢٤) ، وروىٰ معناه البخاري (٥٣٩٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (٢٠٥٩) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري (٥٣٨٦) ، والخُِوان : المائدة ، أو هو ما يُؤكل عليه من نحو كرسي علىٰ عادة المُترفِّهين ؛ لئلا يفتقروا إلى الانحناء حال أكلهم ، والسُّكُرُّجة : قِصَاعٌ صغار يُؤكل فيها ، منها الكبير والصغير ، والكبير يحمل ست أواق ، والمعنىٰ : أنَّ العجم كانت تستعمله وتضع فيه بعضَ الجوارش من الموادِّ التي تُستخدم للتشهِّي والهضم .

(٥) في نسخة علىٰ هامش (أ) : (تتوق) بدل (تُفيق) ، وتُفيق : تستيقظ ، وقوله : =

والصُّوفيَّةُ لقُوَّةِ علمِهم ، وصِحَّةِ حالِهم . . نُزِعَ عنهُم ذلكَ ؛ فرَأَوُا الاجتماعَ في بيوتِ الجماعةِ على السَّجَّادةِ ، فسَجَّادةُ كلِّ واحدٍ زاويتُهُ ، وهَمُّ كلِّ واحدٍ مُهِمُّهُ ، ولعلَّ الواحدَ منهُم لا يتخطَّىٰ همُّهُ سَجَّادتَهُ .

ولهُم في اتِّخاذِ السَّجَّادةِ وجهٌ منَ السُّنَّةِ ؛ روىٰ أبو سَلَمَةَ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ ، عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : (كنتُ أجعلُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حَصيراً مِنَ اللِّيفِ يُصلِّي عليهِ مِنَ اللَّيلِ)[1]

ورَوَتْ ميمونةُ زوجةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَتْ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تُبسَطُ لهُ الخُمْرةُ في المسجدِ حتىٰ يُصلِّيَ عليها)[2]

والرِّباطُ يحتوي : علىٰ شُبَّانٍ ، وشيوخٍ ، وأصحابِ خِدْمةٍ ، وأربابِ خَلْوةٍ .

فالمشايخُ بالزَّوايا أَلْيَقُ ؛ نَظَراً إلىٰ ما تدعو إليهِ النَّفْسُ مِنَ النومِ والراحةِ ، والاستبدادِ بالحركاتِ والسَّكَناتِ ، فللنَّفْسِ شوقٌ إلى التفرُّدِ والاسترسالِ في وجوهِ الرِّفْقِ .

= (للأهوية) كذا في جميع النسخ ، والصواب : (للأهواء) ، وانظر ما سبق تعليقاً في (١/ ٢٦٩) .

(١) رواه البخاري (٥٨٦١) عن أبي سلمة عن سيدتنا عائشة بلفظ : (إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَحتجرُ حصيراً بالليل فيُصلِّي عليه ، ويبسُطُهُ بالنهار فيجلسُ عليه . . .) الحديث ، ويَحتجِرُ حصيراً ؛ أي : يَتَّخذُهُ كالحُجْرة .

(٢) رواه بلفظه ابن راهويه في « مسنده » (٢٠١٠) ، وبنحوه البخاري (٣٧٩) ، ومسلم (٥١٣) ، والنسائي (١/ ١٤٧) ، وأحمد (٦/ ٣٣١) ، والخُمْرة : سجادة صغيرة من سَعَف النخل تُزمَّل بخيوط ، وسُمِّيَتْ خُمْرةً ؛ لأنَّها تستر وجه المُصلِّي عن الأرض ؛ كتسمية الخمار لسترة الرأس .

والشابُّ يُضيِّقُ عليهِ مجالُ النَّفْسِ ؛ بالقعودِ في بيتِ الجماعةِ ، والانكشافِ لنَظَرِ الأغيارِ ؛ لتكثُرَ العيونُ عليهِ ، فيتقيَّدَ ويتأدَّبَ ، ولا يكونُ هٰذا إلا إذا كانَ جمعُ الرِّباطِ في بيتِ الجماعةِ مُهتمِّينَ بحفظِ الأوقاتِ ، وضبطِ الأنفاسِ ، وحِراسةِ الحواسِّ ، كما كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لكلِّ امرئٍ منهُم يومَئذٍ شأنٌ يُغنِيهِ ؛ كانَ عندَهُم مِنْ هَمِّ الآخرةِ ما يشغلُهُم عنِ اشتغالِ البعضِ بالبعضِ .

وهكذا ينبغي لأهلِ الصِّدْقِ والصُّوفيّةِ ؛ أنْ يكونَ اجتماعُهُم غيرَ مُضِرٍّ بوقتِهِم .

فإذا تَخَلَّلَ أوقاتَ الشُّبّانِ اللَّغْوُ واللَّغَطُ[1] . . فالأَوْلىٰ : أنْ يلزمَ الشابُّ الطالبُ الوَحْدةَ والعُزْلةَ ، ويُؤْثِرَ الشيخُ الشابَّ بزاويتِهِ ومَوضِعِ خَلْوتِهِ ؛ ليَحبِسَ الشابُّ نَفْسَهُ عن دَوَاعي الهوىٰ والخَوْضِ فيما لا يَعْني ، ويكونَ الشيخُ في بيتِ الجماعةِ ؛ لقُوَّةِ حالِهِ ، وصَبْرِهِ علىٰ مُداراةِ الناسِ ، وتخلُّصِهِ مِنْ تَبِعاتِ المُخالَطةِ ، وحضورِ وَقارِهِ بينَ الجَمْعِ ، فينضبطُ بهِ الغيرُ ، ولا يتكدَّرُ هوَ

وأمَّا الخِدْمةُ : فشأنُ مَنْ دَخَلَ الرِّباطَ مُبتدِئاً ، ولم يَذُقْ طَعْمَ المُعاملةِ ، ولا تنبَّهَ لنفائسِ الأحوالِ ، فيُؤمَرُ بالخِدْمة ؛ لتكونَ عبادتُهُ خِدْمتَهُ ، ويَجذِبَ بحُسْنِ الخِدْمةِ قلوبَ أهلِ اللهِ إليهِ ، فتشملَهُ بركةُ ذلكَ ، ويُعِينَ الإخوانَ المُشتغِلينَ بالعبادةِ .

---

(١) في (ي) ونسخة علىٰ هامش (أ) : (والغلط) بدل (واللغط) ، وزاد في (ز) : (والغلط) .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، يَطْلُبُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْحَوَائِجَ ، فَيَقْضِي بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ٱلْحَوَائِجَ ، يَقْضِي ٱللهُ لَهُمْ حَاجَاتِهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » .

فيُحفَظُ بالخِدْمةِ عنِ البَطَالةِ التي تُمِيتُ القلبَ .

والخِدْمةُ عندَ القومِ مِنْ جملةِ العَمَلِ الصالحِ ، وهيَ طريقٌ مِنْ طُرُقِ المواجيدِ ، تُكسِبُهُمُ الأوصافَ الجميلةَ ، والأحوالَ الحَسَنَةَ ، ولا يَرَونَ استخدامَ مَنْ ليسَ مِنْ جنسِهِم ، ولا مُتطلِّعاً إلى الاهتداءِ بهَدْيِهِم .

(٤٠) ـ أخبرَنا الشيخُ الثقةُ أبو الفتحِ ، قالَ : أخبرَنا أبو الفضلِ حَمْدُ بنُ أحمدَ ، قالَ : أخبرَنا الحافظُ أبو نُعيمٍ ، قالَ : حدَّثَنا سليمانُ بنُ أحمدَ[١] ، قالَ : حدَّثَنا عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ ، قالَ : حدَّثَنا أبو عُبيدٍ[٢] ، قالَ : حدَّثَنا عبدُ الرحمـٰنِ بنُ مَهْدِيٍّ ، عن شَرِيكٍ ، عن أبي هلالٍ الطائيِّ ، عن وثيقٍ الرُّوميِّ قالَ : كنتُ مملوكاً لعمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فكانَ يقولُ لي : أَسْلِمْ ؛ فإنَّكَ إنْ أسلمتَ استعنتُ بكَ علىٰ أمانةِ المسلمينَ ؛ فإنَّهُ لا ينبغي أنْ أستعينَ علىٰ أمانتِهِم بمَنْ ليسَ منهُم ، قالَ : فأَبَيتُ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : لا إكراهَ في الدِّينِ ، فلمَّا حَضَرَتْهُ الوفاةُ أَعْتَقَني ؛ فقالَ : اذهبْ حيثُ شئتَ[٣]

---

(١) هو الإمام الطبراني رحمه الله تعالىٰ .

(٢) هو القاسم بن سلَّام رحمه الله تعالىٰ .

(٣) حلية الأولياء (٩/٣٤) ، الأموال (٩٠) لأبي عبيد القاسم بن سلام ، الناسخ والمنسوخ (٥١٧) له أيضاً ، ورواه سعيد بن منصور في « سننه » (٤٣١) قسم (التفسير) ، وابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٦/١٥٨) ، وقوله (وثيق =

فالقومُ يكرهُونَ خِدْمةَ الأغيارِ ، ويَأْبونَ مُخالطتَهُم أيضاً ؛ فإنَّ مَنْ لا يُحِبُّ طريقَهُم ربَّما استضرَّ بالنظرِ إليهِم أكثرَ ممَّا ينتفعُ ؛ فإنَّهُم بَشَرٌ ، وتبدو منهُم أمورٌ بمُقتضىٰ طَبْعِ البَشَرِ ، ويُنكِرُها الغَيرُ لقِلَّةِ عِلْمِهِ بمقاصدِهِم ، فيكونُ إباؤُهُم لموضعِ الشَّفَقَةِ على الخَلْقِ ، لا مِنْ طريقِ التعزُّزِ والترفُّعِ علىٰ أحدٍ مِنَ المسلمينَ

والشابُّ الطالبُ إذا خَدَمَ أهلَ اللهِ والمشغولينَ بطاعتِهِ . . يُشارِكُهُم في الثوابِ ، وحيثُ لم يُؤهَّلْ لأحوالِهِمُ السَّنِيَّةِ . . يَخدُمُ مَنْ أُهِّلَ لها ، فخِدْمتُهُ لأهلِ القُرْبِ علامةُ حُبِّ اللهِ تعالىٰ .

(٤١) ـ أخبرَنا الثقةُ أبو الفتحِ محمَّدُ ابنُ سلمانَ[1] ، قالَ : أخبرَنا أبو الفضلِ حَمْدُ بنُ أحمدَ ، قالَ أخبرَنا الحافظُ أبو نُعيمٍ ، قالَ : حدَّثَنا أبو بكرِ بنُ خلَّادٍ ، قالَ حدَّثَنا الحارثُ بنُ أبي أسامةَ ، قالَ حدَّثَنا معاويةُ بنُ عمرٍو ، قالَ : حدَّثَنا أبو إسحاقَ ، عن حُميدٍ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ لمَّا انصرفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ تبوكَ . . قالَ حينَ دنا مِنَ المدينةِ : « إِنَّ بِٱلْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ ، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِياً . . إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ » ، قالوا : وهم في المدينةِ ؟ قالَ : « نَعَمْ ، حَبَسَهُمُ ٱلْعُذْرُ »[2]

= الرومي) كذا في جميع النسخ ، وفي « الطبقات الكبرىٰ » : (أسق) ، وفي « الناسخ والمنسوخ » : (وشق) ، وفي باقي المصادر : (وسق) .

(١) هو الإمام الجليل مسند العراق محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان البغدادي الحاجب ، ابن البَطِّيّ (ت ٥٦٤هـ) ، وانظر ما تقدم في (١/ ٣٢) .

(٢) حلية الأولياء (٨/ ٢٦٤) ، بغية الباحث (٦٦٣) ، وهو في « البخاري » (٢٨٣٩) ، =

فالقائمُ بخِدْمةِ القومِ تَعوَّقَ عن بلوغِ دَرَجتِهم بعُذْرِ القُصُورِ وعَدَمِ الأهليَّةِ ، فحامَ حولَ الحِمىٰ باذلاً مجهودَهُ في الخدمةِ ، يتعلَّلُ بالأثرِ[1] ، حيثُ مُنِعَ النَّظَرَ ، فجزاهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ ذلكَ أحسنَ الجزاءِ ، وأنالَهُ مِنْ جَزيلِ العطاءِ .

وهكذا كانَ أهلُ الصُّفَّةِ ؛ يتعاوَنُونَ على البِرِّ والتقوىٰ ، ويجتمعُونَ على المصالحِ الدِّينيَّةِ ، ومُواساةِ الإِخْوانِ بالمالِ والبدنِ، واللهُ المُوفِّقُ والمُعِينُ[2] .

❁ ❁ ❁

= ورواه مسلم (١٩١١) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

(١) يتعلَّل : يتلهَّىٰ ويتجزَّأ

(٢) في هامش (ب) : (بلغ مقابلةً) ، وفيه : (بلغ قراءةً على الحافظ ، كاتبه عبد السلام) ، وفيه : (بلغ لهم في الثاني عشر على الشيخ جلال الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام) .

الباب الخامس عشر

في خصائص أهل الرُّبُط والصوفية

فيما يتعاهدونه ويختصون به

اعلَمْ : أنَّ تأسيسَ هٰذهِ الرُّبُطِ مِنْ زِينةِ هٰذهِ المِلَّةِ الهاديةِ المَهْدِيَّةِ(١) ، ولسُكَّانِ الرُّبُطِ أحوالٌ تميَّزُوا بها عن غيرِهِم مِنَ الطوائفِ ، وهم علىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِم ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

وما يُرىٰ مِنَ التقصيرِ في حقِّ البعضِ مِنْ أهلِ زمانِنا ، والتخلُّفِ عن طريقِ سَلَفِهِم . . لا يقدحُ في أصلِ أمرِهِم وصِحَّةِ طريقِهِم ، وهٰذا القَدْرُ الباقي مِنَ الأَثَرِ ، واجتماعِ المُتصوِّفةِ في الرُّبُطِ ، وما هيَّأَهُ اللهُ تعالىٰ لهُم مِنَ الرِّفْقِ . . بركةُ جَمْعِيَّةِ بواطنِ المشايخِ الماضينَ ، وأَثَرٌ مِنْ آثارِ مِنَحِ الحَقِّ في حقِّهِم(٢) .

وصورةُ الاجتماعِ في الرُّبُطِ الآنَ علىٰ طاعةِ اللهِ والتَّرسُّمِ بظاهرِ الآدابِ . .

---

(١) لأنَّها إذا تأسَّستْ واجتمعتْ فيها جماعةٌ من المسلمين بالتقوىٰ والزهد في الدنيا . . تأيَّد الدِّينُ ، وتزيَّنتْ مِلَّةُ الإسلام بمزيد اهتمامِهم برعايتهم الفرائضَ والسننَ والمُستحبَّاتِ والآدابَ في جميع الأبواب . من هامش (ح) .

(٢) إذ كلُّ مَنْ يتشبَّه بهم بنوعٍ ما . . يحصلُ له الإكرام والإنعام ، ويصلُ إلىٰ أرواحهم أنوارُ الأدعية لهم ، وآثار الميراث لأجلهم . من هامش (ح) .

عَكْسُ نُورِ الجَمْعيَّةِ مِنْ بواطنِ الماضينَ ، وسلوكُ الخَلَفِ في نِياحِ السَّلَفِ[1] ، فهم في الرُّبُطِ كجسدٍ واحدٍ بقلوبٍ مُتَّفِقةٍ وعزائمَ مُتَّحِدةٍ ، ولا يوجدُ هٰذا في غيرِهِم مِنَ الطوائفِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ في وَصْفِ المؤمنينَ ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] ، وبعكسِ ذلكَ وَصَفَ الأعداءَ فقالَ ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر : ١٤] .

روى النُّعمانُ بنُ بَشيرٍ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ ؛ إِذَا ٱشْتَكَىٰ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِهِ ٱشْتَكَىٰ جَسَدُهُ أَجْمَعُ ، وَإِذَا ٱشْتَكَىٰ مُؤْمِنٌ ٱشْتَكَى ٱلْمُؤْمِنُونَ »[2]

فالصُّوفيَّةُ مِنْ وظيفتِهِمُ اللَّازمةِ : حِفْظُ اجتماعِ البواطنِ ، وإزالةُ التَّفْرِقةِ بإزالةِ شَعَثِ البواطنِ[3] ؛ لأنَّهُم بنسبةِ الأرواحِ اجتمعُوا ، وبرابطةِ التأليفِ الإلٰهيِّ اتَّفقُوا ، وبمُشابهةِ القلوبِ تواطؤُوا ، ولتهذيبِ النفوسِ وتصفيةِ القلوبِ في الرِّباطِ رابطُوا ، فلا بُدَّ لهُم مِنَ التآلُفِ والتودُّدِ والنُّصْحِ .

روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ

---

(١) قوله : (في نياح السلف) النِّياح : من لغةِ أهل بغداد ، ومن اصطلاح الملَّاحين ؛ وهو إتيان السفينة الصغيرة خلفَ الكبيرة مرتبطةً بها . من هامش (ح) ، ومثله في هامش (ج) ، وفي هامش (أ) : (النِّياح : المقابلة ، قيل : السفينة في نِياح السفينة) ، وفي (ب) : (نتاج) بدل (نياح) ، وفي (د) : (منهاج) .

(٢) رواه بلفظه البيهقي في « الشعب » (١٠٦٢٩) ، وبنحوه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) ، ولفظه فيه : « مَثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهِم وتراحمِهِم وتعاطفِهِم.. مَثَلُ الجسدِ ، إذا اشتكىٰ منهُ عُضْوٌ تداعىٰ لهُ سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ والحُمَّىٰ » ، وسيأتي مسنداً في (٢/ ٩٤ـ٩٥)

(٣) الشَّعَثُ : الوسخ ، أو الانتشار والتفرُّق ، وفي الدعاء : (لَمَّ اللهُ شَعَثَكُم) ؛ أي : جَمَعَ ما تفرَّقَ من أمركم .

« ٱلْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ »[1]

(٤٢) ـ وأخبرَنا أبو زُرْعةَ طاهرُ بنُ الحافظِ أبي الفضلِ المَقْدِسيِّ ، عن أبيهِ قالَ : أخبرَنا أبو القاسمِ الفضلُ بنُ أبي حربٍ ، قالَ : أخبرَنا أحمدُ بنُ الحسنِ الحِيريُّ[2] ، قالَ : أخبرَنا أبو سهلٍ ابنُ زيادٍ القطَّانُ ، قالَ : حدَّثَنا الحسنُ بنُ مُكْرَمٍ[3] ، قالَ : حدَّثَنا يزيدُ بنُ هارونَ الواسِطيُّ ، قالَ حدَّثَنا محمَّدُ بنُ عمرٍو ، عن أبي سلمةَ ، عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ٱئْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا ٱخْتَلَفَ »[4]

فهم باجتماعِهِم تجتمعُ بواطنُهُم ، وتتقيَّدُ نفوسُهُم ؛ لأنَّ بعضَهُم عينٌ على البعضِ ؛ على ما وردَ : « ٱلْمُؤْمِنُ مِرْآةُ ٱلْمُؤْمِنِ »[5]

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٠٠) ، والحاكم (١/ ٢٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٣٦) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٨٧) .

(٢) في (أ ، هـ ، ز ، ح) : (الحسين) بدل (الحسن) ، والصواب المثبت من باقي النسخ ، والحِيريُّ : هو الإمام الثقة مسند خراسان قاضي القضاة أبو بكر الحَرَشي الحِيري النيسابوري الشافعي (ت٤٢١هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٣٥٨) .

(٣) في (أ ، ج ، هـ ، و ، ز) : (الحسين) بدل (الحسن) ، والصواب المثبت من باقي النسخ ، والحسن بن مُكْرَم : هو الإمام الثقة أبو علي البغدادي البزَّاز (ت٢٧٤هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ١٩٢ـ١٩٣) .

(٤) صفوة التصوف (٩١٢) ، ورواه مسلم (٢٦٣٨) ، وهو في « البخاري » (٣٣٣٦) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٨٧ـ١٨٨) ، وجنودٌ مُجنَّدة ؛ أي : جموعٌ مُجمَّعة وأنواعٌ مختلفة .

(٥) رواه أبو داود (٤٩١٨) ، والترمذي (١٩٢٩) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢٣٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٨٨) .

فأيَّ وقتٍ ظَهَرَ مِنْ أحدِهِم أثرُ التفرقةِ . . ناقرُوهُ[1] ؛ لأنَّ التفرقةَ تظهرُ بظهورِ النفوسِ ، وظهورُ النفوسِ مِنْ تضييعِ حقِّ الوقتِ .

فأيَّ وقتٍ ظَهَرَتْ نفسُ الفقيرِ . . عَلِمُوا منهُ خروجَهُ مِنْ دائرةِ الجَمْعيَّةِ ، وحكمُوا عليهِ بتضييعِ حُكْمِ الوقتِ ، وإهمالِ السِّياسةِ وحُسْنِ الرِّعايةِ ، فيُقادُ بالمُناقرةِ إلىٰ دائرةِ الجَمْعيَّةِ

(٤٣) ـ أخبرَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ ضِياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهرِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ إجازةً ، قالَ أخبرَنا الشيخُ العالِمُ عصامُ الدِّينِ أبو حَفْصٍ عمرُ بنُ أحمدَ بنِ منصورٍ الصَّفَّارُ ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ خَلَفٍ الشِّيرازيُّ ، قالَ : أخبرَنا الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ محمَّدُ بنُ الحسينِ السُّلَميُّ ، قالَ : سمعتُ محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ يقولُ[2] : سمعتُ رُوَيماً رحمَهُ اللهُ يقولُ : (لا تزالُ الصُّوفيَّةُ بخيرٍ ما تناقرُوا ، فإذا اصطلحُوا هَلَكُوا)[3]

---

(١) ناقروه : خاصموه ونازعوه ، وفي هامش (ح) : (المناقرة بين الإخوان : هي تفقُّدُ بعضِهِم أحوالَ البعض ؛ لئلَّا يقعوا في إهمال دقائق الأدب) ، وفي هامش (و) : (الظاهر : « نافروه » ؛ أي : حاكموه ، وهو المراد باصطلاحهم) ، وجميع المعاني مناسبة هنا ، إلا أنَّ الأقرب ما في هامش (ح) ، كما سيأتي بعد قليل .

(٢) محمد بن عبد الله : هو أبو بكر ابن شاذان الرازي الصوفي (ت ٣٧٦هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ٣٦٤) .

(٣) طبقات الصوفية (ص١٨١) ، وفيه : (تنافروا) بدل (تناقروا) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص٥٨٩) ، وفي هامش (ح) تعليقاً علىٰ قول رُويم : (فإنَّهم إذا كانوا بصَدَدِ المُناقرة ، وتفتيشِ الأحوال ، والبحثِ عن الجِدِّ والإهمال . . ينضبطُ الأصاغرُ بالسمع والطاعة ، والأكابرُ باستعمال ما يقولون وينهون عليه ؛ حذراً عن وعيدِ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٢] ؛ فهم في خير وتَرَقٍّ ما داموا علىٰ هـٰذا الوصف) .

وهـٰذا إشارةٌ من رُوَيم رحمةُ اللهِ عليهِ إلىٰ حُسْنِ تفقُّدِ بعضِهم أحوالَ البعضِ إشفاقاً مِنْ ظهورِ النفوسِ ؛ يقولُ : إذا اصطلحُوا ورفعُوا المُناقرةَ مِنْ بينِهم . . يُخافُ أنْ تُخامِرَ البواطنَ المُساهلةُ والمُراءاةُ ، ومُسامحةُ البعضِ للبعضِ في إهمالِ دقيقِ آدابِهِم ، وبذلكَ تظهرُ النفوسُ وتستولي ، وقد كانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (رَحِمَ اللهُ امرأً أَهْدىٰ إليَّ عُيُوبي)[1]

(٤٤) ـ وأخبرَنا أبو زُرْعةَ ، عن أبيهِ الحافظِ المَقْدِسيِّ قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ عبدِ العزيزِ الهَرَويُّ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ الرحمـٰنِ ابنُ أبي شُرَيحٍ ، قالَ : أخبرَنا أبو القاسمِ البَغَويُّ ، قالَ : حدَّثَنا مصعبُ بنُ عبدِ اللهِ الزُّبيريُّ ، قالَ : حدَّثَني إبراهيمُ بنُ سعدٍ ، عن صالحٍ[2] ، عنِ ابنِ شهابٍ : أنَّ محمَّدَ بنَ النُّعمانِ أخبرَ بأنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضوانُ اللهِ عليهِ

---

(١) رواه الإسماعيلي والذهبي في « مناقب عمر » ، كما في « إتحاف السادة المتقين » (٣٤٩/٧) ، ورواه ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٢٩٣/٣) بلفظ (أحبُّ الناس إليَّ مَنْ رَفَعَ إليَّ عيوبي) ، وفي هامش (ح) تعليقاً علىٰ قول سيدنا عمر رضي الله عنه : (هـٰذا علامةُ الصِّدق والصَّلابة في الدِّين ؛ فإنَّ الصادقَ يريدُ دائماً أن يترقَّىٰ في المراتب ، ويعلمُ يقيناً مع وجود الرذائلِ لا تحصلُ الفضائل ، فلا يترقَّىٰ ، فيمتنُّ بالتنبيه علىٰ عيبه ورذيلتِهِ ، ويدعو لمَنْ نبَّهه وأَعْلَمَهُ بذلك .
ونُقِلَ أنَّ الشيخَ أبا يزيدَ أراد سفراً ، فاستدعىٰ واحداً من أصحابه المرافقةَ ولم يُعيِّن ، فقام واحدٌ منهم وقال : أنا أُرافِقُ ، فقال الشيخ : أَيْشٍ تعملُ في مُرافقتي ؟ فقال : أضبطُ الإبريقَ لوضوء الشيخ ، قال : لا ، أنا أضبطُ بنفسي ، وقام آخرُ ، فسأله ، فعيَّن خدمةً أخرىٰ ، فقال الشيخ : لا ، وهـٰكذا إلىٰ أنْ قام الأعرفُ منهم بحال الشيخ ، فسأله ، فقال : إذا خرج الشيخُ عنِ الطريق ونَسِيَ . . أُذكِّرُهُ وأُنبِّهُهُ ، فقال الشيخ : أنتَ صاحبي في السفر ، واسترفقه) .

(٢) هو ابن كَيْسانَ المدني رحمه الله تعالىٰ .

قالَ في مجلسٍ فيهِ المُهاجِرُونَ والأنصارُ أرأيتُم لو ترخَّصْتُ في بعضِ الأمورِ ماذا كنتُم فاعلينَ ؟ قالَ فسَكَتْنا ، قالَ : فقالَ ذلكَ مرَّتَينِ أو ثلاثاً ؛ أرأيتُم لو ترخَّصتُ في بعضِ الأمورِ ماذا كنتُم فاعلينَ ؟ قالَ بَشيرُ بنُ سعدٍ[١] لو فعلتَ ذلكَ قوَّمْناكَ تقويمَ القِدْحِ ، فقالَ عمرُ : أنتُم إذاً أنتُم[٢]

وإذا ظهرتْ نَفْسُ الصُّوفيِّ بغضبٍ وخصومةٍ معَ بعضِ الإخوانِ . . فشَرْطُ أخيهِ : أنْ يُقابِلَ نَفْسَهُ بالقلبِ ؛ فإنَّ النَّفْسَ إذا قُوبِلَتْ بالقلبِ انحسمتْ مادَّةُ الشَّرِّ ، وإذا قُوبِلَتِ النَّفْسُ بالنَّفْسِ ثارتِ الفِتْنةُ ، وذهبتِ العِصْمةُ ؛ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤ـ٣٥] .

ثمَّ الشيخُ أوِ الخادمُ إذا شكا إليهِ فقيرٌ مِنْ أخيهِ . . فلهُ أنْ يُعاتِبَ أيَّهُما شاءَ ؛ فيقولَ للمُتعدِّي : لِمَ تعدَّيتَ ؟ وللمُعتدىٰ عليهِ : ما الذي أذنبتَ حتىٰ تُعُدِّيَ عليكَ وسُلِّطَ عليكَ ؟ وهلَّا قابلتَ نَفْسَهُ بالقلبِ رِفْقاً بأخيكَ ، وإعطاءً للفُتُوَّةِ والصُّحْبةِ حقَّها

---

(١) هو والد النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

(٢) صفوة التصوف (٤٦٨) ، ورواه البخاري في « التاريخ الكبير » (١٨٢٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠/ ٢٩٢) ، عن محمد بن النعمان عن أبيه النعمان بن بشير ، والمثبت رواية ابن أبي شريح كما نصَّ عليه ابن عساكر ، والقِدْح : اسمُ السهم قبل أن يُراش ويُركَّبَ نصلُهُ ، وقولُهُ : (أنتم إذاً أنتم) في هامش (ح) : (أي أنتم الأصحابُ المُعتمَدُ عليهم والموثوقُ بهم في المحبّة والموافقة والمؤالفة ، إذا أعنتُم على التقوىٰ والأخذِ بالأحوط والأَوْلىٰ . . فأنتم الأخِلَّاء في الدنيا والعُقْبىٰ ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧]) .

فكلٌّ منهما جانٍ ، وخارجٌ عن دائرةِ الجَمْعيَّةِ ، فيُرَدُّ إلى الدائرةِ بالنِّقَارِ[1] ، فيعودُ إلى الاستغفارِ[2] ، ولا يسلُكُ طريقَ الإصْرارِ .

رَوَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : كانَ يقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْنِي مِنَ ٱلَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا ٱسْتَبْشَرُوا ، وَإِذَا أَسَاؤُوا ٱسْتَغْفَرُوا »[3]

فيكونُ الاستغفارُ ظاهراً معَ الإِخْوانِ ، وباطناً معَ اللهِ تعالىٰ ، ويَرَوْنَ اللهَ في استغفارِهِم ؛ فلهٰذا المعنىٰ يَقِفُونَ في صَفِّ النِّعالِ علىٰ أقدامِهِم تواضعاً وانكساراً

وسمعتُ شيخَنا أبا النَّجيبِ رحمةُ اللهِ عليهِ يقولُ للفقيرِ إذا جرىٰ بينَهُ وبينَ بعضِ إخوانِهِ وَحْشةٌ : قُمْ واستغفِرْ ، فيقولُ الفقيرُ : ما أرىٰ باطني صافياً ، ولا أُوثِرُ القيامَ للاستغفارِ ظاهراً مِنْ غيرِ صفاءِ الباطنِ ، فيقولُ : أنتَ قُمْ ؛ فببركةِ سَعْيِكَ وقيامِكَ تُرزَقُ الصفاءَ ، فكانَ يَجِدُ ذلكَ ، ويُرىٰ أَثَرُهُ عندَ الفقيرِ ، وتَرِقُّ القلوبُ ، وترتفعُ الوَحْشةُ .

وهٰذا مِنْ خاصِّيَّةِ هٰذهِ الطائفةِ ، لا يَبِيتُونَ والبواطنُ مُنطويةٌ علىٰ وَحْشةٍ ، ولا يجتمعُونَ للطعامِ والبواطنُ تُضمِرُ وَحْشةً ، ولا يَرَوْنَ الاجتماعَ ظاهراً في شيءٍ مِنْ أمورِهِم إلَّا بعدَ الاجتماعِ بالبواطنِ ، وذهابِ التفرقةِ والشَّعَثِ .

---

(١) أي : بالمُناقرة التي سبق شرحها قريباً .

(٢) أي طلب الغفران والعفو من الإخوان .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٢٠) ، والطبراني في « الدعاء » (١٤٠١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٩٦) .

وإذا قامَ الفقيرُ للاستغفارِ لا يجوزُ ردُّ استغفارِهِ بحالٍ ؛ روىٰ عبدُ اللهِ بنُ [عَمْرٍو] رضيَ اللهُ عنهُما[1] ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ٱرْحَمُوا تُرْحَمُوا ، وَٱغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ »[2]

وللصُّوفيَّةِ في تقبيلِ يدِ الشيخِ بعدَ الاستغفارِ . . أصلٌ مِنَ السُّنَّةِ ؛ وهوَ ما روىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ كنتُ في سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فحاصَ الناسُ حَيْصَةً ، فكنتُ فيمَنْ حاصَ ، فقُلْنا : كيفَ نصنعُ وقد فَرَرْنا مِنَ الزَّحْفِ وبُؤْنا بالغَضَبِ ، ثمَّ قُلْنا لو دَخَلْنا المدينةَ فبِتْنا فيها ، ثمَّ قُلْنا : لو عَرَضْنا أنفسَنا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنْ كانَ لنا توبةٌ ، وإلَّا ذَهَبْنا

فأتَيْناهُ قبلَ صلاةِ الغَداةِ[3] ، فخرجَ فقالَ : « مَنِ ٱلْقَوْمُ ؟ » ، فقُلْنا : نحنُ الفَرَّارُونَ ، قالَ : « لَا ، بَلْ أَنْتُمُ ٱلْعَكَّارُونَ ، أَنَا فِئَتُكُمْ ، أَنَا فِئَةُ ٱلْمُسْلِمِينَ » ـ يُقالُ : عَكَرَ الرجلُ : إذا تولَّىٰ ثمَّ كرَّ راجعاً ، والعَكَّارُ : العَطَّافُ والرَّجَّاعُ ـ قالَ : فأتَيْناهُ حتىٰ قبَّلْنا يدَهُ[4]

ورُوِيَ أنَّ أبا عُبيدةَ بنَ الجرَّاحِ قَبَّلَ يدَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما عندَ قدومِهِ[5] .

---

(١) في النسخ : (عمر) ، والتصويب من المصادر الآتية

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٨٠) ، وأحمد (٢/ ١٦٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٤٤) .

(٣) أي : الفجر .

(٤) رواه أبو داود (٢٦٤٧) ، والترمذي (١٧١٦) ، وأحمد (٢/ ٧٠) ، وحاصت الناسُ حَيْصةً ؛ أي جالوا جولةً يطلبون الفِرَار ، وفي هامش (ح) : (يُقال في الأولياء : حاصُوا ، وفي الأعداء : انهزموا) ، وانظر « تاج العروس » (١٧/ ٥٤٠) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٧٣٢) .

ورُوِيَ عن أبي مَرْثَدٍ الغَنَوِيِّ أنَّهُ قالَ[1] : أَتَيْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فنزلتُ إليهِ فقبَّلتُ يدَهُ[2]

فهـٰذا رُخصةٌ في جوازِ تقبيلِ اليدِ ، ولـٰكنَّ أدبَ الصُّوفيِّ : أنَّهُ متىٰ رأىٰ نفسَهُ تتعزَّزُ بذلكَ ، أو تظهرُ بوصفِها . . أنْ يمتنعَ مِنْ ذلكَ ، فإنْ سَلِمَ مِنْ ذلكَ فلا بأسَ بتقبيلِ اليدِ

ومعانقتُهُم للإخوانِ عَقِيبَ الاستغفارِ لرجوعِهِم إلى الأُلْفةِ بعدَ الوَحْشةِ ، وقدومِهِم مِنْ سَفْرةِ الهَجْرةِ بالتَّفْرِقةِ إلىٰ أوطانِ الجَمْعيَّةِ[3] ، فبظهورِ النفسِ تغرَّبُوا وبَعُدُوا ، وبغيبةِ النَّفْسِ والاستغفارِ قَدِمُوا ورَجَعُوا

ومَنِ استغفرَ واعتذرَ إلىٰ أخيهِ ولم يقبَلْهُ . . فقد أَخْطأَ ؛ فقد وَرَدَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في ذلكَ وعيدٌ ؛ رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنِ ٱعْتَذَرَ إِلَىٰ أَخِيهِ مَعْذِرَةً فَلَمْ يَقْبَلْهَا . . كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ خَطِيئَةِ صَاحِبِ ٱلْمُكُوسِ »[4]

---

(١) كذا في جميع النسخ : (عن أبي مرثد الغنوي) ، ولعلَّ الصواب : (عن مزيدة العبدي) ، كما نبَّه عليه الغماري في « غنية العارف » (١/ ١٩٣) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٨٥٠) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (١٦٩٠) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ٣٤٥) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦٣١٩) .

(٣) في بعض النسخ : (من سفر) بدل (من سفرة) ، وفي بعضها : (من سفر الهجر) ، ويجوز ضبط الهاء في (الهجرة) بالكسر والفتح

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٦٤٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٨٥) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وابن ماجه (٣٧١٨) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٧٠٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢/ ٢٧٥ـ٢٧٦) عن سيدنا جودان العَبْدي رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ١٩٣) ، =

ورویٰ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ تُنُصِّلَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَقْبَلْ لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ ٱلْحَوْضَ »[١]

ومِنَ السُّنَّةِ أنْ يُقدِّمَ للإخوانِ شيئاً بعدَ الاستغفارِ ؛ رُوِيَ أنَّ كعبَ بنَ مالكٍ قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ مِنْ توبتي أنْ أنخلعَ مِنْ مالي كُلِّهِ ، وأَهجُرَ دارَ قومي التي فيها أتيتُ الذَّنبَ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُجْزِئُكَ مِنْ ذَلِكَ ٱلثُّلُثُ »[٢]

فصارتْ سُنَّةُ الصُّوفيَّةِ المُطالبةَ بالغرامةِ بعدَ الاستغفارِ والمُناقرةِ ، وكلُّ قَصْدِهِم رعايةُ التآلُفِ ؛ حتىٰ تكونَ بواطنُهُم على الاجتماعِ ، كما أنَّ ظواهرَهُم على الاجتماعِ ، وهـٰذا أمرٌ تفرَّدُوا بهِ مِنْ بينِ طوائفِ الإسلامِ .

ثمَّ شرطُ الفقيرِ الصادقِ إذا سَكَنَ الرِّباطَ ، وأرادَ أنْ يأكلَ مِنْ وَقْفِهِ أو ممَّا يُطلَبُ لسُكَّانِهِ بالدَّرْيوزَةِ[٣] . . أنْ يكونَ عندَهُ مِنَ الشُّغْلِ باللهِ ما لا يَسَعُهُ الكَسْبُ .

وإلَّا إذا كانَ للبَطَالةِ والخوضِ فيما لا يَعْني عندَهُ مَجالٌ ، ولا يقومُ بشروطِ أهلِ الإرادةِ مِنَ الجِدِّ والاجتهادِ . . فلا ينبغي لهُ أنْ يأكلَ مِنْ مالِ الرِّباطِ ، بل يكتسبُ ويأكلُ مِنْ كسبِهِ ؛ لأنَّ طعامَ الرِّباطِ لأقوامٍ كَمَلَ شُغْلُهُم

= وصاحبُ المَكُوس : هو الذي يأخذ العشر من الناس ، ويغلب عليه الظلم وعدم العمل بالعلم ، أو المراد : الذي يأخذ أموال الناس ظلماً

(١) رواه الحاكم (٤/ ١٥٤) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (١٠٢٩) ، وعزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٧٠٣١) إلىٰ أبي الشيخ عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، والتنصُّل : الاعتذار .

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) ، وأبو داود (٣٣١٩) ، ويُروىٰ أنَّ قائلَ ذلك هو سيدنا أبو لبابة رضي الله عنه . انظر « غنية العارف » (١/ ١٩٤-١٩٥) .

(٣) سبق شرح هـٰذه الكلمة في (١/ ٣٢٦) .

باللهِ ، فخَدَمَتْهُمُ الدنيا لشُغْلِهِم بخدمةِ مَوْلاهُم .

إلا أنْ يكونَ تحتَ سياسةِ شيخٍ عالمٍ بالطريقِ ، ينتفعُ بصُحْبتِهِ ، ويَهْتدي بهَدْيِهِ ؛ فيرى ذلكَ الشيخُ أنْ يُطعِمَهُ مِنْ مالِ الرِّباطِ ، فلا يكونُ تصرُّفُ الشيخِ إلا بصِحَّةِ بصيرةٍ[1] ، ومِنْ جملةِ ما يكونُ للشيخِ في ذلكَ مِنَ النيَّةِ أنْ يَشغلَهُ بخدمةِ الفقراءِ ، فيكونَ ما يأكلُهُ في مقابلةِ خدمتِهِ

رُوِيَ عن أبي عمرٍو الزُّجَاجيِّ قالَ[2] : أقمتُ عندَ الجُنيدِ رحمَهُ اللهُ مُدَّةً ، فما رآني قطُّ إلَّا وأنا مُشتغِلٌ بنوعٍ مِنَ العبادةِ ، فما كلَّمَني ، حتىٰ كانَ يومٌ مِنَ الأيَّامِ خلا المَوضِعُ مِنَ الجماعةِ ، فقمتُ ونزعتُ ثيابي ، وكنستُ المَوضِعَ ونظَّفْتُهُ ، ورَشَشْتُهُ وفَرَشْتُهُ ، وغسلتُ مَوضِعَ الطهارةِ ، فرجعَ الشيخُ ورأىٰ عليَّ أثَرَ الغبارِ ، فدعا لي ورَحَّبَ بي ، وقالَ : أحسنتَ ، عليكَ بها ، ثلاثَ مرَّاتٍ

ولا تزالُ مشايخُ الصُّوفيَّةِ يَندُبُونَ الشُّبَّانَ إلى الخدمةِ ؛ حِفْظاً لهُم عنِ البَطَالةِ ، وكلُّ واحدٍ يكونُ لهُ حظٌّ مِنَ المُعاملةِ ، وحظٌّ مِنَ الخدمةِ

روىٰ أبو مَحْذُورةَ قالَ : جَعَلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لنا الأذانَ ، والسِّقايةَ لبني هاشمٍ ، والحِجابةَ لبني عبدِ الدارِ[3]

وبهٰذا يقتدي مشايخُ الصُّوفيَّةِ في تفريقِ الخَدَمِ على الفقراءِ

---

(١) في بعض النسخ : (وبصيرة)

(٢) قوله (الزُّجاجي) قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في « إحكام الدلالة » (٢٠٢/١) : (بضم الزاي وتخفيف الجيم ، ويُقال : بفتح الزاي وتشديد الجيم ؛ نسبة إلىٰ عمل الزجاج وبيعه) .

(٣) رواه أحمد (٤٠١/٦) ، والحاكم (٥١٤/٣ـ٥١٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠٨/٧) .

ولا يُعذَرُ في تركِ نوعٍ مِنَ الخدمةِ إلَّا كاملُ الشُّغْلِ بوقتِهِ ، ولا نعني بكمالِ الشُّغْلِ شُغْلَ الجوارحِ ، ولـٰكنْ نعني بهِ : دوامَ الرِّعايةِ والمُحاسبةِ ، والشُّغْلَ بالقلبِ والقالَبِ وقتاً ، وبالقلبِ دونَ القالَبِ وقتاً ، وتَفَقُّدَ الزيادةِ مِنَ النُّقْصانِ ؛ فإنَّ قيامَ الفقيرِ بحقوقِ الوقتِ شُغْلٌ تامٌّ ، وبذلكَ يُؤدِّي شكرَ نِعْمةِ الفراغِ ونِعْمةِ الكفايةِ ، وفي البَطَالةِ كُفْرانُ نِعْمةِ الفراغِ والكفايةِ .

(٤٥) ـ أخبرَنا شيخُنا ضِياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهرِ بنُ عبدِ اللهِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمَهُ اللهُ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا عمرُ بنُ أحمدَ بنِ منصورٍ ، قالَ : أخبرَنا أحمدُ بنُ خلَفٍ ، قالَ : أخبرَنا الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ محمَّدُ بنُ الحسينِ السُّلَميُّ ، قالَ : سمعتُ أبا الفضلِ بنَ حَمْدونٍ يقولُ[١] : سمعتُ عليَّ بنَ عبدِ الحميدِ الغَضَائِريَّ يقولُ سمعتُ السَّرِيَّ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (مَنْ لا يعرفُ قَدْرَ النِّعَمِ سُلِبَها مِنْ حيثُ لا يعلمُ)[٢]

وقد يُعذَرُ الشيخُ العاجزُ عنِ الكسبِ في تناولِ طعامِ الرِّباطِ ، ولا يُعذَرُ الشابُّ ، وهـٰذا في شرطِ طريقِ القومِ على الإطلاقِ .

فأمَّا مِنْ حيثُ فتوى الشرعِ . . إنْ كانَ شرطُ الواقفِ : على المُتصوِّفةِ وعلىٰ مَنْ تزيَّا بزيِّهِم ولَبِسَ خِرْقَتَهُم . . فيجوزُ أكلُ ذلكَ لهُم على الإطلاقِ فتوىً ، وفي ذلكَ القناعةُ بالرُّخْصةِ دونَ العزيمةِ التي هيَ شُغْلُ أهلِ الإرادةِ .

---

(١) ابن حَمْدون : هو الإمام الحافظ الرحَّال أحمد بن محمد بن حمدون بن بندار الخُراساني الشَّـرْمَقَـانـي (ت ٣٦٦هـ) ، وانظـر « سيـر أعـلام النبـلاء » (١٦/ ٢٨٦ـ٢٨٧) ، وحمدون : يجوز صرفه وعدمه .

(٢) طبقات الصوفية (ص٥٢) ، ورواه من طريقه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٢٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٢٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠/ ١٩٢) .

وإنْ كانَ شرطُ الواقفِ : علىٰ مَنْ يسلُكُ طريقَ الصُّوفيَّةِ عملاً وحالاً . . فلا يجوزُ أكلُهُ لأهلِ البَطَالاتِ والرَّاكنِينَ إلىٰ تضييعِ الأوقاتِ ، وطرائقُ أهلِ الإرادةِ عندَ مشايخِ الصُّوفيَّةِ . . مشهورةٌ معروفةٌ .

(٤٦) ـ أخبرَنا الشيخُ الثِّقةُ أبو الفتحِ محمَّدٌ ، قالَ أخبرَنا أبو الفضلِ حَمْدٌ ، قالَ : أخبرَنا الحافظُ أبو نُعيمٍ ، قالَ : حدَّثَنا أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ يوسفَ ، قالَ حدَّثَنا جعفرٌ الفِرْيابيُّ ، قالَ : حدَّثَنا محمَّدُ بنُ [الحسنِ] البَلْخيُّ بسَمَرْقَنْدَ[1] ، قالَ حدَّثَنا عبدُ اللهِ بنُ المباركِ ، قالَ حدَّثَنا سعيدُ بنُ أبي أيُّوبَ الخُزَاعيُّ ، قالَ : حدَّثَنا عبدُ اللهِ بنُ الوليدِ ، عن أبي سُليمانَ اللَّيْثيِّ ، عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلْفَرَسِ فِي آخِيَّتِهِ ، يَجُولُ وَيَرْجِعُ إِلَىٰ آخِيَّتِهِ ، وَإِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يَسْهُو ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْإِيمَانِ ، فَأَطْعِمُوا طَعَامَكُمُ ٱلْأَتْقِيَاءَ ، وَأَوْلُوا مَعْرُوفَكُمُ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[2] ، واللهُ أعلمُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) في النسخ (الحسين) بدل (الحسن) ، والمثبت من « الحلية » ، وانظر « الثقات » لابن حبان (١٥٢٩٦)

(٢) حلية الأولياء (٨/١٧٩) ، الزهد (٧٣) لابن المبارك ، ورواه أحمد (٣/٥٥) ، وابن حبان (٦١٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤٦٠) ، والآخِيَّةُ ـ بالمد والتشديد ـ : واحدةُ (الأواخي) ، قال ابن السِّكِّيت : وهو أن يُدفَنَ طرفا قطعةٍ من الحبل في الأرض ، وفيه عُصَيَّةٌ أو حُجَيرٌ ، ويظهر منه مثل عِرْقٍ تُشَدُّ إليه الدابّة . « صحاح » . من هامش (ح) ، وفي هامش (ب) : (بلغ مقابلةً) ، وفيه : (بلغ سماعاً في الثالث عشر علىٰ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي) .

الباب السادس عشر

في اختلاف أحوال المشايخ بالسفر والمقام (١)

اختلفَ أحوالُ مشايخِ الصُّوفيَّةِ ؛ فمنهُم : مَنْ سافرَ في بدايتِهِ وأقامَ في نهايتِهِ(٢) ، ومنهُم مَنْ أقامَ في بدايتِهِ وسافرَ في نهايتِهِ ، ومنهُم : مَنْ أقامَ ولـم يُسافِرْ(٣) ، ومنهُم : مَنِ استدامَ السفرَ ولـم يُؤثِرِ الإقامةَ(٤)

ونشرحُ حالَ كلٍّ واحدٍ منهُم ومَقصِدَهُ فيما رامَ :

فأمَّا الذي سافرَ في بدايتِهِ وأقامَ في نهايتِهِ . فقصدُهُ بالسفرِ لمعانٍ :

منها : تعلُّمُ شيءٍ مِنَ العلمِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱطْلُبُوا ٱلْعِلْمَ وَلَوْ بِٱلصِّينِ »(٥)

وقالَ بعضُهُم : (لو سافرَ رجلٌ مِنَ الشامِ إلىٰ أَقْصى اليمنِ في كلمةٍ تَدُلُّهُ

(١) في (د) : (والحضر) بدل (والمقام) .

(٢) ومن هٰؤلاء : سيِّدي أبو عثمان الحِيري وسيِّدي أبو بكر الشِّبْلي رحمهما الله تعالى . انظر « الرسالة القشيرية » (ص٦٠٢)

(٣) إلا لفرض ؛ كحَجَّة الإسلام ، ومن هٰؤلاء : السادة ؛ أبو القاسم الجنيد والتستري وأبو يزيد البسطامي وأبو حفص الحدَّاد ، رحمهم الله تعالى . انظر « الرسالة القشيرية » (ص٦٠١) .

(٤) ومن هٰؤلاء : سيِّدي أبو عبد الله المغربي وسيِّدي إبراهيم بن أدهم رحمهما الله تعالى انظر « الرسالة القشيرية » (ص٦٠٢) .

(٥) سبق مسنداً في (١/٢٠١)

علىٰ هُدىً . . ما كانَ سفرُهُ ضائعاً)[١]

ونُقِلَ أنَّ جابرَ بنَ عبدِ اللهِ رَحَلَ مِنَ المدينةِ إلىٰ مصرَ في شهرٍ لحديثٍ بَلَغَهُ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ أُنيسٍ يُحدِّثُ بهِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٢]

وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ . . فَهُوَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ حَتَّىٰ يَرْجِعَ »[٣]

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ [التوبة : ١١٢] : إنَّهُم طُلَّابُ العِلْمِ[٤]

(٤٧) ـ حدَّثَنا شيخُنا ضياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْدِيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ إملاءً[٥] ، قالَ : أخبرَنا أبو الفتحِ عبدُ الملكِ الهَرَوِيُّ ، قالَ : أخبرَنا

---

(١) عزاه أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٥٢٤ـ١٥٢٥) ، والغزالي في « الإحياء » (٤/ ٣٣٤) إلىٰ عامر الشعبي رحمه الله تعالىٰ ، وزاد بعد قوله : (هدىً) : (أو تردُّهُ عن ردىً) .

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٩٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٩٧٠) ، والحاكم (٢/ ٤٣٧ـ ٤٣٨) ، والخطيب البغدادي في « الرحلة في طلب الحديث » (ص١٠٩ـ ١١٨) ، وفيه ذكرُ طرقه .

(٣) رواه الترمذي (٢٦٤٧) ، والبزار في « مسنده » (٦٥٢٠) ، والبيهقي في « المدخل » (١٤٨٥) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٠٠) .

(٤) وهو قول عكرمة ، وأكثر الأقوال علىٰ أنَّهم الصائمون . انظر « تفسير الطبري » (١٤/ ٥٠٢ـ٥٠٦) ، و« النكت والعيون » (٢/ ٤٠٨) .

(٥) يروي الإمام السُّهْرُوَرْديُّ « سننَ الترمذي » في كتابنا هـٰذا من طريق شيخه ضياء الدين عبد الوهاب ابن سُكَينة ، وجاءت الرواية هنا في جميع النسخ عن شيخه ضياء الدين أبي النجيب ، فليُعلَمْ وليُتنبَّه .

أبو نَصْرِ التِّرْياقيُّ ، قالَ : أخبرَنا الجَرَّاحيُّ[(١)] ، قالَ : أخبرَنا أبو العبَّاسِ المَحْبُوبيُّ ، قالَ أخبرَنا أبو عيسى التِّرْمِذيُّ ، قالَ حدَّثَنا [سفيانُ بنُ] وَكيعٍ[(٢)] ، قالَ : حدَّثَنا أبو داودَ[(٣)] ، عن سفيانَ[(٤)] ، عن أبي هارونَ قالَ[(٥)] : كُنَّا نأتي أبا سعيدٍ ، فيقولُ : مرحباً بوصيَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ « إِنَّ ٱلنَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ ، وَإِنَّ ٱلرِّجَالَ يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ فِي ٱلدِّينِ ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَٱسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْراً »[(٦)]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « طَلَبُ ٱلْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ »[(٧)]

ورَوَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) هو الإمام الثقة أبو محمد عبد الجبار بن عبد الله المَرْزُباني الجَرَّاحي المَرْوَزي (ت ٤١٢هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٢٥٧)

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من « سنن الترمذي » .

(٣) هو الإمام الثبت العابد القدوة عمر بن سعد الحَفَري الكوفي (٢٠٣هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٩/ ٤١٥)

(٤) هو الثوري رحمه الله تعالىٰ .

(٥) هو العَبْدي عُمارة بن جُوينٍ البصري . انظر « تهذيب الكمال » (٢١/ ٢٣٢ـ٢٣٣) .

(٦) سنن الترمذي (٢٦٥٠) ، ورواه ابن ماجه (٢٤٩) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٤٠٥) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٠٠ـ٢٠١) ، وقولُهُ : (فاستوصُوا) ؛ أي : أوصوا الناسَ بالإحسان إليهم ، وتفقَّدوا أحوالَهُم وكفايةَ مهامِّهم ، وإيصالَ الخير والنفعِ إليهم ، ودفعَ الضَّررِ عنهم ، وفي ضمن الأمر بالإيصاء للفقير يحصل الأمرُ لهم علىٰ أبلغ وجه من هامش (ح) ، وفيه أيضاً : (أي : اطلُبوا من أنفسكم وصيةَ الخير للناس ، في هـٰذا اللفظ مبالغةٌ ليست في قولنا : « أوصوا »)

(٧) رواه ابن ماجه (٢٢٤) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٢٨٣٧) ، والبزار في « المسند » (٦٧٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٤٥) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

وسلَّمَ يقولُ : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ إِلَيَّ : أَنَّهُ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكاً فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ . . سَهَّلْتُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى ٱلْجَنَّةِ »[1]

ومِنْ جملةِ مقاصِدِهِم في البدايةِ لقاءُ المشايخِ والإخْوانِ الصادقينَ ؛ فللمُرِيدِ بِلقاءِ كلِّ صادقٍ مَزِيدٌ ، وقد ينفعُهُ لَحَظُ الرجالِ ، كما ينفعُهُ لَفْظُ الرجالِ ، وقد قيلَ : (مَنْ لا ينفعُكَ لَحْظُهُ لا ينفعُكَ لَفْظُهُ)

وهٰذا القولُ فيهِ وجهانِ :

أحدُهُما : أنَّ الرجلَ الصِّدِّيقَ يُكلِّمُ الصادقينَ بِلسانِ فعلِهِ أكثرَ ممَّا يُكلِّمُهُم بِلسانِ قولِهِ[2] ، فإذا نَظَرَ الصادقُ إلىٰ تصاريفِهِ في مَوْرِدِهِ ومَصْدَرِهِ ، وخَلْوتِهِ وجَلْوتِهِ ، وكلامِهِ وسكوتِهِ . . ينتفعُ بالنظرِ إليهِ ، فهوَ نَفْعُ اللَّحْظ ، ومَنْ لا تكونُ أفعالُهُ هٰكذا فلفظُهُ أيضاً لا ينفعُ[3] ؛ لأنَّهُ يتكلَّمُ بهواهُ ، ونُورانيَّةُ القولِ علىٰ قَدْرِ نُورانيَّةِ القلبِ ، ونُورانيَّةُ القلبِ بحَسَبَ الاستقامةِ والقيامِ بواجبِ حقِّ العُبُوديَّةِ وحقيقتِها[4]

والوجهُ الثاني : أنَّ نَظَرَ العلماءِ الرَّاسخينَ في العِلْمِ والرِّجالِ البالغينَ . .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٣٦٧) ، ورواه مسلم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وسبق مسنداً في (١/ ٣١٢ـ ٣١٤) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٠٢) .

(٢) في (أ ، ز) : (بلسان الحال . . . بلسان المقال) بدل (بلسان فعله . . . بلسان قوله) .

(٣) المراد : النفع التام ، وليس نفعاً ما . من هامش (ح)

(٤) حقُّ العبودية : دوامُ الطاعة والخدمة للمعبود ، وحقيقةُ العُبُوديَّة : دوامُ الخضوع والتذلُّلِ والتَّمسكُنِ ، وحسن الافتقار والتضرُّع ، ورعاية حسن الأدب في جميع المواقع . من هامش (ح) .

تِرْياقٌ نافعٌ ، ينظرُ أحدُهُم إلى الرجلِ الصادقِ فيَستشِفُّ بنفوذِ بصيرتِهِ حُسْنَ استعدادِ الصادقِ ، واستئهالَهُ لمواهبِ اللهِ الخاصَّةِ ، فيقعُ في قلبِهِ محبَّةُ الصادقِ المُرِيدِ ، وينظرُ إليهِ نَظَرَ محبَّةٍ عن بصيرةٍ ، وهم مِنْ جنودِ اللهِ تعالىٰ ، فيُكسِبُونَ بنظرِهِم أحوالاً سَنِيَّةً ، ويَهبُونَ آثاراً مَرْضيَّةً .

وماذا يُنكِرُ المُنكِرُ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ كما جَعَلَ في بعضِ الأفاعي مِنَ الخاصِّيَّةِ أنَّهُ إذا نَظَرَ إلىٰ إنسانٍ يُهلِكُهُ بنظرِهِ[1] . . بأنْ يجعلَ[2] في نَظَرِ بعضِ خواصِّ عبادِهِ أنَّهُ إذا نَظَرَ إلىٰ طالبٍ صادقٍ يُكسِبُهُ حالاً وحياةً ؟!

وقد كانَ شيخُنا رحمةُ اللهِ عليهِ يطوفُ في مسجدِ الخَيْفِ بمِنىً[3] ، ويتصفَّحُ وجوهَ النَّاسِ[4] ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : إنَّ للهِ سبحانَهُ وتعالىٰ عباداً إذا نَظَرُوا إلىٰ شخصٍ أَكْسَبُوهُ سعادةً ، فأنا أتطلَّبُ ذلكَ .

ومِنْ جملةِ المقاصدِ في السَّفَرِ : ابتداءُ قَطْعِ المألوفاتِ ، والانسلاخُ مِنْ رُكُونِ النَّفْسِ إلىٰ معهودٍ ومعلومٍ ، والتحاملُ على النَّفْسِ بتجرُّعِ مرارةِ فُرْقةِ الأُلَّافِ والخِلَّانِ ، والأهلِ والأَوْطانِ ، فمَنْ صَبَرَ عن تلكَ المألوفاتِ مُحتسِباً عندَ اللهِ تعالىٰ أَجْراً . . فقد حازَ فَضْلاً عظيماً

---

(١) ومن هـٰذه الأفاعي : (الأَصَلَة) ، كما في « حياة الحيوان الكبرىٰ » (١/ ٢٤ـ٢٥ ، ٢٥٠) .

(٢) متعلق بقوله : (من قدرة) .

(٣) الخَيْفُ : ما ارتفع من مسيل الماء ، وانحدر عن غلظ الجبل ، ومنه سُمِّي : مسجد الخَيف . من هامش (ح) .

(٤) في (د) : (ويتفحَّص) بدل (ويتصفَّح) ، وسقطت هـٰذه الجملة في بعض النسخ .

(٤٨) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ بنُ أبي الفضلِ الحافظِ المَقْدِسيِّ ، عن أبيهِ قالَ أخبرَنا القاضي أبو منصورٍ محمَّدُ بنُ أحمدَ الفقيهُ الأَصْفَهانيُّ[١] ، قالَ أخبرَنا أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ ابنِ خُرَّشِيذَ قُولَهْ ، قالَ حدَّثَنا أبو بكرٍ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدِ بنِ زيادٍ النَّيسابُوريُّ[٢] ، قالَ : حدَّثَنا يونسُ بنُ عبدِ الأَعْلىٰ ، قالَ حدَّثَنا ابنُ وَهْبٍ ، قالَ حدَّثَني حُيَيُّ بنُ عبدِ اللهِ ، عن أبي عبدِ الرحمـٰنِ[٣] ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ قالَ : ماتَ رجلٌ بالمدينةِ ممَّنْ وُلِدَ بها ، فصلَّىٰ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ قالَ « لَيْتَهُ مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ » ، قالوا : ولِمَ ذاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « إِنَّ ٱلرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَىٰ مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ مِنَ ٱلْجَنَّةِ »[٤]

---

(١) في (أ) : (بن محمد) بدل (محمد) ، والصواب المثبت من باقي النسخ ، وأبو منصور الأصفهاني : هو الإمام المُعمَّر ابن شكرويه (ت ٤٨٢هـ) ، وهو آخر من حدَّث عن ابن خرشيذ قُولَه ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٤٩٣ـ ٤٩٤) .

(٢) في النسخ ما عدا نسخة علىٰ هامش (و) : (أبو بكر محمد) بدل (أبو بكر عبد الله بن محمد) ، وفي (ز) : (أبو بكر عبد الله) ، والنيسابوري : هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل بن ميمون الأموي النيسابوري الشافعي (ت ٣٢٤هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٦٥ـ ٦٦) .

(٣) هو عبد الله بن يزيد المعافري الحُبُلِيُّ المصري (ت ١٠٠هـ) ، وانظر « تهذيب الكمال » (١٦/ ٣١٦)

(٤) صفوة التصوف (٥٢٤) ، ورواه النسائي (٤/ ٧) ، وابن ماجه (١٦١٤) ، وأحمد (٢/ ١٧٧) ، وابن حبان (٢٩٣٤) ، وقوله : (ليتَهُ مات بغير مولدِهِ) قال السِّنْدي في « حاشيته علىٰ سنن ابن ماجه » (١/ ٤٩١) : (لعلَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يُرِدْ بذلك : يا ليته مات بغير المدينة ، بل أراد : يا ليته كان غريباً مهاجراً بالمدينة ومات بها ؛ فإنَّ الموت في غير مولدِ منْ مات بالمدينة كما يتصور . . بأن يُولد في المدينة ويموت في غيرها ، كذلك يتصور بأن يُولدَ بغير المدينة ويموتَ بها ، فليكن راجعاً إلىٰ هـٰذا الشق=

ومِنْ جملةِ المقاصدِ في السفرِ : استكشافُ دفائنِ النفوسِ[1] ، واستخراجُ رُعُوناتِها ودَعاوِيها[2] ؛ لأنَّهُ لا يكادُ تتبيَّنُ حقائقُ ذلكَ بغيرِ السفرِ ، وسُمِّي السَّفَرُ سَفَراً ؛ لأنَّهُ يُسفِرُ عنِ الأخلاقِ ، فإذا وَقفَ على دائِهِ يتشمَّرُ لدوائِهِ

وقد يكونُ أَثَرُ السفرِ في نفسِ المُبتدِئِ . كأَثَرِ النوافلِ مِنَ الصلاةِ والصومِ والتهجُّدِ وغيرِ ذلكَ ؛ وذلكَ أنَّ المُتنفِّلَ سائحٌ ، سائرٌ إلى اللهِ تعالى مِنْ أوطانِ الغَفَلاتِ إلى مَحَالِّ القُرُباتِ ، والمُسافِرَ بقطعِ المسافاتِ ، والتقلُّبِ في المفاوزِ والفَلَواتِ ، بحُسْنِ النِّيَّةِ للهِ . سائرٌ إلى اللهِ تعالى بمُراغَمَةِ الهوى ، ومُهاجَرةِ مَلَاذِّ الدنيا .

(٤٩) ـ أخبرَنا شيخُنا ضياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْدِيُّ رحمَهُ اللهُ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا عمرُ بنُ أحمدَ ، قالَ : أخبرَنا أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ خَلَفٍ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ : سمعتُ عبدَ الواحدِ بنَ بكرٍ يقولُ : سمعتُ عليَّ بنَ عبدِ الرحيمِ يقولُ : سمعتُ النُّوريَّ يقولُ : (التصوُّفُ : تَرْكُ كلِّ حَظٍّ للنَّفْسِ)[3]

فإذا سافرَ المُبتدِئُ تاركاً حظَّ النَّفْسِ . تطمئِنُّ النَّفْسُ ، وتَلِينُ كما تَلِينُ

= حتى لا يخالف الحديثُ حديثَ فضل الموت بالمدينة المنورة)

(١) في نسخة على هامش (أ) : (دقائق) بدل (دفائن) .

(٢) الرُّعُونة : الحمق والاسترخاء ، والرُّعُونة أيضاً : إظهار ما ليس عندك بتكبُّر . من هامش (ح) .

(٣) طبقات الصوفية (ص١٦٦) ، وأورده الكلاباذي في « التعرف » (ص١٩) ، والقشيري في « الرسالة » (ص١٥٩) .

بدوامِ النافلةِ ، ويكونُ لها بالسفرِ دِباغٌ يُذهِبُ عنها الخُشُونةَ واليُبُوسةَ الجِبِلِّيَّةَ والعُفُونةَ الطبيعيَّةَ(١) ؛ كالجلدِ يعودُ مِنْ هيئةِ الجلودِ إلىٰ هيئةِ الثِّيابِ ، فتعودُ النَّفْسُ مِنْ طبيعةِ الطُّغْيانِ إلىٰ طبيعةِ الإيمانِ .

ومِنْ جملةِ المقاصدِ في السفرِ : رُؤْيةُ الآثارِ والعِبَرِ ، وتسريحُ النَّظَرِ في مسارحِ الفِكَرِ ، ومُطالَعةُ أجزاءِ الأرضِ والجِبالِ ، ومَواطِئِ أقدامِ الرجالِ ، واستماعُ التسبيحِ مِنْ ذَرَّاتِ الجماداتِ ، والفَهْمُ مِنْ لسانِ حالِ القِطَعِ المُتجاوِراتِ ؛ فقد تتجدَّدُ لهُ اليقظةُ بتجدُّدِ مُستودَعِ العِبَرِ والآياتِ ، ويتوفَّرُ بمُطالَعةِ المَشاهدِ والمواقفِ الشواهدُ والدَّلالاتُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣]

وقد كانَ السَّرِيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ يقولُ للصُّوفيَّةِ : (إذا خَرَجَ الشتاءُ قد خَرَجَ آذارُ ، وأَوْرَقَتِ الأشجارُ ، وطابَ الانتشارُ)(٢)

ومِنْ جملةِ المقاصدِ بالسَّفَرِ : إيثارُ الخُمُولِ ، وطَرْحُ حَظِّ القَبولِ ؛ فصِدْقُ الصادقِ يَنِمُّ علىٰ حُسْنِ الحالِ ، ويرزقُ مِنَ الخُلُقِ حُسْنَ الإقبالِ ، وقلَّما يكونُ صادقٌ ، مُتمسِّكٌ بعُرْوةِ الإخلاصِ ، ذو قَلْبٍ عامرٍ . إلَّا ويُرزَقُ قَبولَ الخَلْقِ .

حتىٰ سمعتُ بعضَ المشايخِ يَحْكي عن بعضِهم أنَّهُ قالَ : (أُريدُ إقبالَ الخَلْقِ عَلَيَّ ، لا أنِّي أُبلِّغُ نَفْسي حَظَّها مِنَ الهوىٰ ؛ فإنِّي لا أُبالي أَقْبلُوا أم

---

(١) قوله : (يُذهِب) ضبطه في (ح) من الثلاثي والرباعي ، وعلى الأول يكون (الخشونة) وما عُطف عليه مرفوعين .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٢٥) ، والغزالي في « الإحياء » (٤/ ٣٤٣) .

أَدْبرُوا ، ولـٰكنْ لكونِ قَبولِ الخَلْقِ علامةٌ تَدُلُّ علىٰ صِحَّةِ الحالِ) .

فإذا ابتُلِيَ المُرِيدُ بذلكَ لا يَأْمَنُ نَفْسَهُ أنْ تدخلَ عليهِ بطريقِ الرُّكُونِ إلى الخَلْقِ .

وربَّما يُفتَحُ عليهِ بابٌ مِنَ الرِّفْقِ ، وتدخلُ النَّفْسُ عليهِ مِنْ طريقِ البِرِّ والدخولِ في الأسبابِ المحمودةِ ، وتُرِيهِ فيهِ وجهَ المصلحةِ والفَضيلةِ في خدمةِ عبادِ اللهِ وبَذْلِ الموجودِ ، ولا تزالُ النَّفْسُ بهِ والشيطانُ حتىٰ تَجُرَّاهُ إلى السُّكونِ إلى الأسبابِ ، واستحلاءِ قَبولِ الخَلْقِ ، وربَّما قَوِيَا عليهِ فجرَّاهُ إلى التصنُّعِ والتَّعَمُّلِ ، ويَتَّسِعُ الخَرْقُ على الرَّاقعِ(١)

وسمعتُ أنَّ بعضَ الصالحينَ قالَ لمُريدٍ لهُ : (أنتَ الآنَ وصلتَ إلىٰ مقامٍ لا يدخلُ عليكَ الشيطانُ مِنْ طريقِ الشَّرِّ ، ولـٰكنْ يدخلُ عليكَ مِنْ طريقِ الخيرِ) .

وهـٰذا مَزَلَّةٌ عظيمةٌ للأقدامِ .

فاللهُ تعالىٰ يُدرِكُ الصادقَ إذا ابتُلِيَ بشيءٍ مِنْ ذلكَ ، ويُزعِجُهُ بالعنايةِ السابقةِ والمَعُونةِ اللاحقةِ إلى السَّفَرِ ، فيُفارِقُ المَعارِفَ والمَوضِعَ الذي فَتَحَ اللهُ عليهِ هـٰذا البابَ فيهِ ، ويتجرَّدُ للهِ تعالىٰ بالخروجِ إلى السَّفَرِ ، وهـٰذا مِنْ أحسنِ المقاصدِ في الأَسْفارِ للصادقينَ .

فهـٰذهِ جُمَلُ المقاصدِ المطلوبةِ للمشايخِ في السفرِ في بداياتِهِم ، ما عدا

---

(١) بحيث لا يستطيعُ إصلاحه وتداركه ، وهو مَثَلٌ يُضرب لمَنْ خرج الأمر من يده بحيثُ لا يقدر علىٰ تداركه ، وانظر « جمهرة الأمثال » (١/ ١٦٠) ، و« المستقصى في أمثال العرب » (١/ ٣٥) .

الحجَّ ، والغَزْوَ ، وزيارةَ بيتِ المقدسِ ؛ فقد نُقِلَ أنَّ ابنَ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهُما خَرَجَ مِنَ المدينةِ قاصداً إلىٰ بيتِ المقدسِ ، وصلَّىٰ فيهِ الصَّلَواتِ الخَمْسَ ، ثمَّ أَسْرعَ راجعاً إلى المدينةِ مِنَ الغَدِ[1]

ثمَّ إذا مَنَّ اللهُ تعالىٰ على الصادقِ بإحكامِ أمورِ بدايتِهِ ، وقَلَّبَهُ في الأَسْفارِ ، ومَنَحَهُ الحَظَّ مِنَ الاعتبارِ ، وأَخَذَ نصيبَهُ مِنَ العِلْمِ بقَدْرِ حاجتِهِ ، واستفادَ مِنْ مُجاوَرَةِ الصالحينَ[2] ، وانتقشَ في قلبِهِ فوائدُ النَّظَرِ إلىٰ حالِ المُتَّقِينَ ، وتَعَطَّرَ باطنُهُ باستنشاقِ عَرْفِ معارفِ المُقرَّبينَ ، وتَحَصَّنَ بحمايةِ نَظَرِ أهلِ اللهِ وخاصَّتِهِ ، وسَبَرَ أحوالَ النَّفْسِ ، وأَسْفَرَ السَّفَرُ عن دقائقِ أَخْلاقِها وشَهَوَاتِها الخَفِيَّةِ ، وسَقَطَ عن باطنِهِ نَظَرُ الخَلْقِ ، وصارَ يَغلِبُ ولا يُغلَبُ ، كما قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عن موسىٰ صلواتُ اللهِ عليهِ : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١] . . فعندَ ذلكَ يَرُدُّهُ الحقُّ إلىٰ مقامِهِ[3] ، ويَمُدُّهُ بجَزيلِ إنعامِهِ ، ويجعلُهُ إماماً للمُتَّقينَ بهِ يُقتدىٰ ، وعَلَماً للمُؤمنينَ بهِ يُهتدىٰ

وأمَّا الذي أقامَ في بدايتِهِ ، وسافرَ في نهايتِهِ[4] . . يكونُ ذلكَ شخصاً يَسَّرَ اللهُ تعالىٰ لهُ في بدايةِ أمرِهِ صُحْبةً صحيحةً ، وقَيَّضَ لهُ شيخاً عالِماً يسلُكُ بهِ الطريقَ ، ويُدرِّجُهُ إلىٰ منازلِ التحقيقِ ، فيُلازِمُ موضعَ إرادتِهِ ،

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/١٥٢٦) ، والغزالي في « الإحياء » (٤/٣٤٠) .

(٢) في (أ ، ز) : (الصادقين) .

(٣) قوله : (فعند ذلك) هو جواب الشرط لقوله : (ثم إذا مَنَّ) صدرَ الفقرة

(٤) وهـٰذا هو القسم الثاني من أحوال مشايخ الصوفية في السفر .

ويلتزمُ بصُحبةِ مَنْ يَرُدُّهُ مِنْ عادتِهِ[1]

وقد كانَ الشِّبْلِيُّ رحمَهُ اللهُ يقولُ للحُصْريِّ في ابتداءِ أمرِهِ (إنْ خطَرَ ببالِكَ مِنَ الجُمُعَةِ إلى الجُمُعَةِ غيرُ اللهِ . فحرامٌ عليكَ أنْ تحضُرَني)[2]

فمَنْ رُزِقَ مثلَ هـٰذهِ الصُّحْبةِ يحرُمُ عليهِ السفرُ ؛ فالصُّحْبةُ خيرٌ لهُ مِنْ كلِّ سفرٍ وفضيلةٍ يَقْصِدُها

(٥٠) ـ أخبرَنا رَضِيُّ الدِّينِ أبو الخيرِ أحمدُ بنُ إسماعيلَ القَزْوِينيُّ إجازةً ، قالَ أخبرَنا أبو المُظفَّرِ عبدُ المُنعِمِ بنُ عبدِ الكريمِ بنِ هَوَازِنَ القُشَيْريُّ ، عن والدِهِ الأُستاذِ أبي القاسمِ القُشَيْريِّ قالَ : سمعتُ محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ الصُّوفيَّ يقولُ : سمعتُ عيَّاشَ بنَ أبي الصخرِ يقولُ[3] : سمعتُ أبا بكرٍ الزَّقَّاقَ يقولُ : (لا يكونُ المُريدُ مُريداً حتىٰ لا يكتبَ عليهِ صاحبُ الشِّمالِ شيئاً عشرينَ سنةً)[4]

فمَنْ رُزِقَ صُحْبةَ مَنْ يَنْدُبُهُ إلىٰ مِثْلِ هـٰذهِ الأحوالِ السَّنِيَّةِ ، والعزائمِ القَوِيَّةِ . . يَحرُمُ عليهِ المُفارقةُ واختيارُ السَّفَرِ .

ثمَّ إذا أَحْكَمَ أمرَهُ في الابتداءِ ؛ بلُزُومِ الصُّحْبةِ وحُسْنِ الاقتداءِ ، وارتوىٰ مِنَ الأحوالِ ، وبَلَغَ مَبْلَغَ الرجالِ ، وانبجسَ مِنْ قلبِهِ عُيُونُ ماءِ الحياةِ ،

---

(١) في النسخ ما عدا (د ، ي) : (ويتلزَّم) بدل (ويلتزم) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٧٧٣) .

(٣) في « الرسالة » : (عباس) بدل (عيَّاش) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص٤٦٨) ، وفي هامش (ح) (هـٰذا بأن يكون المريدُ حاضرَ القلب لِمَا يصدُرُ عن جوارحه من المآثم ، فيزيلُها بالاستغفار والتوبة إن غَفَلَ زماناً ونسي زماناً آخر ، ويستدرك فلا يكتب كاتب الشمال عليه شيئاً) .

وصارتْ نَفْسُهُ مُكسِبةً للسعاداتِ . . يستنشقُ نَفَسَ الرحمـٰنِ ، مِنْ صدورِ الصادقينَ مِنَ الإخوانِ ، في أقطارِ الأرضِ وشاسِعِ البُلْدانِ ، يَشْرَئِبُّ إلى التَّلاقِ ، وينبعثُ إلى التَّطْوافِ في الآفاقِ ، يُسيِّرُهُ اللهُ تعالىٰ في البلادِ ، لفائدةِ العبادِ ، ويستخرجُ بمِغْناطِيسِ حالِهِ خِبْءَ أهلِ الصِّدْقِ ، والمُتطلِّعينَ إلىٰ مَنْ يُخبِرُ عنِ الحقِّ ، ويَبذُرُ في أراضي القلوبِ بَذْرَ الفلاحِ ، ويَكثُرُ ببركتِهِ ونَفَسِهِ وصُحْبتِهِ أهلُ الصلاحِ

وهـٰذا مَثَلُ هـٰذهِ الأُمَّةِ الهاديةِ في الإنجيلِ : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ [الفتح : ٢٩] ؛ تعودُ بركةُ البعضِ على البعضِ ، وتسري الأحوالُ مِنَ البعضِ إلى البعضِ ، ويكونُ طريقُ الوِراثةِ معموراً ، وعِلْمُ الإفادةِ منشوراً .

(٥١) ـ أخبرَنا شيخُنا أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ ، قالَ : أخبرَنا الإمامُ عبدُ الجبَّارِ البَيْهَقيُّ في « كتابِهِ » ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ البَيْهَقيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو عليٍّ الرُّوذْبارِيُّ ، قالَ : حدَّثَنا أبو بكرٍ ابنُ داسَهْ ، قالَ : حدَّثَنا أبو داودَ ، قالَ : حدَّثَنا يحيى بنُ أيُّوبَ ، قالَ : حدَّثَنا إسماعيلُ بنُ جعفرٍ ، قالَ : أخبرَني العلاءُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ ، عن أبيهِ ، عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ ٱلْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ ٱتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ ٱتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً »[1]

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرىٰ (١٤٧٣) ، سنن أبي داود (٤٦٠٩) ، ورواه مسلم (٢٦٧٤) .

فأمَّا مَنْ أقامَ ولم يُسافِرْ : فيكونُ ذلكَ شخصاً كاملاً ربَّاهُ الحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ وتولَّاهُ ، وفتَحَ عليهِ أبوابَ الخيرِ ، وجَذَبَهُ بعنايتِهِ ، وقد وَرَدَ : (جَذْبةٌ مِنْ جَذَباتِ الحقِّ تُوازِي عملَ الثَّقَلَينِ)[١]

ثمَّ لمَّا عَلِمَ منهُ الصدقَ ، ورأىٰ حاجتَهُ إلىٰ مَنْ ينتفعُ بهِ . . ساقَ إليهِ بعضَ الصِّدِّيقينَ حتىٰ أيَّدَهُ بلُطْفِهِ ولَفْظِهِ ، وتداركَهُ بلَحْظِهِ ، ولَقَّحَهُ بقُوَّةِ حالِهِ ، وكفاهُ يسيرُ الصحبةِ لكمالِ الأهليَّةِ في الصاحبِ والمصحوبِ ، وإجراءُ سُنَّةِ اللهِ تعالىٰ في إعطاءِ الأسبابِ حقَّها لإقامةِ رَسْمِ الحِكْمةِ . . يُحوجُ إلىٰ يسيرِ الصُّحْبةِ ، فيتنبَّهُ بالقليلِ للكثيرِ ، ويُغنيهِ اليسيرُ مِنَ الصُّحْبةِ للحظِّ الكبيرِ ، ويكتفي بوافرِ حَظِّ الاستبصارِ عنِ الأسفارِ ، ويتعوَّضُ بأَشِعَّةِ الأنوارِ عن مُطالعةِ العِبَرِ والآثارِ[٢] ، كما قالَ بعضُهُمْ : (الناسُ يقولونَ : افتحُوا أعينكُم وأَبْصِرُوا ، وأنا أقولُ : غَمِّضُوا أعينكُم وأَبْصِرُوا)

وسمعتُ بعضَ الصالحينَ يقولُ : (للهِ عبادٌ طُورُ سِيناهُم رُكَبُهُم ، تكونُ رؤوسُهُم علىٰ رُكَبِهِم وهم في مَحالِّ القُرْبِ ، فمَنْ نَبَعَ لهُ مَعِينُ الحياةِ في

---

(١) قال الغماري في « الغنية » (١/ ٢١٠) : (ليس بحديث ، وقولُ بعض الحفاظ : « إنه موضوع » . . تجوُّزٌ في التعبير ؛ لأنَّ الموضوع إنَّما يُقال اصطلاحاً لما وُضع لإسنادٍ مُركَّبٍ مقصود ، لا ما يُضاف إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم جهلاً وغلطاً كهـٰذا) ، ورواه السلمي في « طبقاته » (ص٤٨٨) عن شيخه أبي القاسم النصراباذي رحمه الله تعالىٰ ، وفيه : (تُرْبي) بدل (توازي) .

(٢) أي : كانتْ فائدةُ الأسفار مطالعةَ العِبَر لمن مضىٰ وبقيتْ منازلُهُم خاويةً خَرِبةً حتىٰ يزهدَ في الدنيا ، ومشاهدةَ آثارِ قدرةِ الله تعالىٰ في أقطار الأرض في شواهد الجبال وأمواج البحار ، فلمَّا فَتَحَ اللهُ تعالىٰ عينَ قلبه ، وتشعشع عليه الأنوارُ . . استغنىٰ بها عن العِبَر والآثار ، وأَخَذَ عِوَضاً خيراً منها ؛ إذ ثمرةُ المعرفة بالله خيرٌ من ثمرة الزهد في الدنيا . من هامش (ح) .

ظُلْمةِ خَلْوتِهِ. . ماذا يصنعُ بدخولِ الظُّلُماتِ ؟! ومَنِ اندرجتْ لهُ أطباقُ السماواتِ في طَيِّ شهودِهِ. . ماذا يصنعُ بتقلُّبِ طَرْفِهِ في السماواتِ ؟! ومَنْ جمعتْ أَحْداقُ بصيرتِهِ مُتفرِّقاتِ الكائناتِ. . ماذا يستفيدُ مِنْ طَيِّ الفَلَواتِ ؟! ومَنْ خَلَصَ بخاصِّيَّةِ فِطْرتِهِ إلىٰ مَجْمَعِ الأرواحِ . . ماذا يُفِيدُهُ زيارةُ الأشباحِ ؟!

قيلَ : أَرْسلَ ذو النُّونِ المصريُّ إلىٰ أبي يزيدَ رحمَهُما اللهُ رجلاً وقالَ قُلْ لهُ : إلىٰ متى النومُ والراحةُ وقد سارتِ القافلةُ ؟! فقالَ للرسولِ : قُلْ لأخي : الرجلُ مَنْ ينامُ اللَّيلَ كلَّهُ ثمَّ يُصبحُ في المنزلِ قبلَ القافلةِ ، فقالَ ذو النُّونِ : هنيئاً لهُ ، هـٰذا كلامٌ لا تَبلغُهُ أحوالُنا[1]

وكانَ بِشْرٌ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (يا معشرَ القُرَّاءِ ؛ سِيحُوا تَطِيبُوا ؛ فإنَّ الماءَ إذا كثُرَ مُكْثُهُ في موضعٍ تغيَّرَ)[2]

وقيلَ : قالَ بعضُهُم عندَ هـٰذا الكلامِ : (صِرْ بَحْراً حتىٰ لا تتغيَّرَ) .

فإذا أدامَ المُريدُ سَيْرَ الباطنِ ؛ بقَطْعِ مسافةِ النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ؛ حتىٰ قَطَعَ منازلَ آفاتِها ، وبَدَّلَ أخلاقَها المذمومةَ بالمحمودةِ ، وعانقَ الإقبالَ على اللهِ تعالىٰ بالصِّدْقِ والإخلاصِ. . اجتمعَ لهُ المُتفرِّقاتُ ، واستفادَ في حَضَرِهِ أكثرَ مِنْ سَفَرِهِ ؛ لكونِ السَّفَرِ لا يخلو مِنْ متاعبَ وكُلَفٍ ومُشوِّشاتٍ ، وطوارقَ ونوازلَ تتجدَّدُ يَضعُفُ عن سِياستِها بالعِلْمِ الضُّعَفاءُ ، ولا يَقدِرُ علىٰ

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤٧١) ، وابن خميس في « مناقب الأبرار » (١/ ١٩٩ـ٢٠٠) ، ورواه الرافعي بنحوه في « التدوين » (٤/ ٤٣ـ٤٤) .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٥٢٤) ، ورواه بنحوه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢٠٧) ، وبِشْرٌ : هو ابن الحارث الحافي رحمه الله تعالىٰ وقُدِّس سرُّهُ ، والقُرَّاء ؛ أي : العلماء .

تسليطِ العِلْمِ علىٰ مُتجدِّداتِ السَّفَرِ وطوارقِهِ إلَّا الأقوياءُ

قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ للذي زكَّىٰ عندَهُ رجلاً : هل صَحِبْتَهُ في السَّفَرِ الذي يُستدَلُّ بهِ علىٰ مكارمِ الأخلاقِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : ما أراكَ تعرفُهُ[1]

فإذا حَفِظَ اللهُ تعالىٰ عبدَهُ في بدايةِ أَمْرِهِ مِنْ تشويشِ السَّفَرِ ، ومَتَّعَهُ بجَمْعِ الهَمِّ وحُسْنِ الأخلاقِ والإقبالِ في الحَضَرِ ، وساقَ إليهِ مِنَ الرجالِ مَنِ اكتسبَ بهِ صلاحَ الحالِ . . فقد أَحْسنَ إليهِ

قيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢ـ٣] : هوَ الرجلُ المُنقطِعُ إلى اللهِ تعالىٰ ، يُشكِلُ عليهِ شيءٌ مِنْ أمرِ الدِّينِ ، فيبعثُ اللهُ تعالىٰ إليهِ مَنْ يَحُلُّ إشكالَهُ[2]

فإذا ثَبَتَ قدمُهُ علىٰ شروطِ البدايةِ . رُزِقَ وهوَ في المقامِ مِنْ غيرِ سَفَرٍ ثمراتِ النهايةِ ، فيستقرُّ في الحَضَرِ ابتداءً وانتهاءً ، وأُقِيمَ في هٰذا المَقامِ جَمْعٌ مِنَ الصالحينَ .

وأمَّا الذي أدامَ السَّفَرَ ولم يُقِمْ فرأىٰ صلاحَ قلبِهِ وصِحَّةَ حالِهِ في ذلكَ .

يقولُ بعضُهُمْ : (اجْتهِدْ أنْ تكونَ كلَّ ليلةٍ ضيفَ مسجدٍ ، ولا تموتَ إلَّا بينَ منزلَينِ)[3]

---

(١) رواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٣) ، وأورده بلفظه أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٥٢٩)

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٣٣٦) ، وعزاه إلىٰ بعض السلف .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٦٠٣) عن أبي بكر الكتاني رحمه الله تعالىٰ ، ومن طريقه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٥٥) .

وكانَ مِنْ هـٰذهِ الطبقةِ إبراهيمُ الخَوَّاصُ رحمَهُ اللهُ ؛ ما كانَ يُقِيمُ في بلدٍ أكثرَ مِنْ أربعينَ يوماً ، وكانَ يَرَىٰ إنْ أقامَ أكثرَ مِنْ أربعينَ يوماً . . يفسدُ عليهِ توكُّلُهُ[1] ، فكأنَّ عِلْمَ الناسِ بهِ ومعرفتَهُم إيَّاه يراهُ سبباً ومعلوماً

وحُكِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ مكثتُ في الباديةِ أحدَ عَشَرَ يوماً لم آكلْ ، وتطلَّعَتْ نَفْسي أنْ آكُلَ مِنْ حشيشِ البَرِّ ، فرأيتُ الخَضِرَ مُقبِلاً نَحْوي ، فهربتُ منهُ ، ثمَّ التفتُّ فإذا هو قد رَجَعَ عنِّي ، فقيلَ لهُ : لِمَ هربتَ منهُ ؟ قالَ تَشَرَّفَتْ نَفْسي أنْ يُغِيثَني[2]

فهـٰؤلاءِ الفَرَّارونَ بدِينِهم .

(٥٢) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ طاهرُ بنُ الحافظِ أبي الفضلِ المَقْدِسيِّ ، عن أبيهِ قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليٍّ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ ابنِ بامُويَهْ[3] ، قالَ حدَّثَنا أبو محمَّدٍ الزُّهْريُّ القاضي ، قالَ : حدَّثَنا محمَّدُ بنُ [عُبَيدِ] بنِ أسباطٍ[4] ، قالَ : حدَّثَنا أبو نُعيمٍ[5] ، قالَ : حدَّثَنا

---

(١) في (ج ، د ، ز ، ح) : (ينفسد) بدل (يفسد) ، ولم يُسمع (انفسد) ، والقياسُ لا يأباه . انظر « تاج العروس » (٨/ ٤٩٦) .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٥٣٠) عن بعض الشيوخ ، وفيه : (يقيتني) بدل (يغيثني) ، ولعلها ضُبطت في (أ) بالوجهين ، وفي (ب) : (تشوَّفت) بدل (تشرَّفت) .

(٣) في (ب ، هـ) : (تامويه) ، والصواب المثبت ، وهو الإمام المُحدِّث شيخ الصوفية أبو محمد الأَرْدَستاني الأصبهاني (ت ٤٠٩هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٢٣٩) ، و« تبصير المنتبه » (١/ ٥٦) .

(٤) في النسخ : (عبد الله) بدل (عبيد) ، والمثبت من « الكنىٰ والأسماء » لأبي أحمد الحاكم (٣/ ٨٢) ، وهو أبو جعفر القرشي الكوفي .

(٥) هو الحافظ الكبير الفضل بن دُكَين رحمه الله تعالىٰ .

محمَّدٌ ـ يعني ابنَ مُسلِمٍ ـ عن عثمانَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أوسٍ ، عن سليمانَ بنِ هُرْمُزَ ، عن عبدِ اللهِ[1] ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى ٱللهِ ٱلْغُرَبَاءُ » ، قيلَ وما الغُرَباءُ ؟ قالَ « ٱلْفَرَّارُونَ بِدِينِهِمْ ، يَجْتَمِعُونَ إِلَىٰ عِيسَى بنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[2]

وهٰذهِ كلُّها أحوالٌ اختلفتْ ، واتَّبعَ أربابُها الصِّحَّةَ وحُسْنَ النِّيَّةِ معَ اللهِ ، وحُسْنُ النِّيَّةِ يقتضيهِ الصِّدْقُ ، والصِّدْقُ لعينِهِ محمودٌ كيفَ تقلَّبتِ الأحوالُ .

فمَنْ سافرَ ينبغي أنْ يفتقدَ حالَهُ ، ويُصحِّحَ نِيَّتَهُ ، ولا يقدرُ علىٰ تخليصِ النِّيَّةِ مِنْ شوائبِ النَّفْسِ إلا كثيرُ العِلْمِ ، تامُّ التقوىٰ ، وافرُ الحَظِّ مِنَ الزُّهْدِ في الدنيا .

ومَنِ انطوىٰ علىٰ هوىً كامنٍ ، ولم يستقصِ في الزُّهْدِ . . لا يقدرُ علىٰ تصحيحِ النِّيَّةِ ؛ فقد يدعوهُ إلى السفرِ نشاطٌ جِبِلِّيٌّ نَفْسانيٌّ وهوَ يَظُنُّ أنَّ ذلكَ داعيةُ الحقِّ ، ولا يُميِّزُ بينَ داعي الحقِّ وداعي النَّفْسِ

ويحتاجُ الشخصُ في عِلْمِ صِحَّةِ النِّيَّةِ إلى العلمِ بمعرفةِ الخواطرِ ، وشرحُ الخواطرِ وعِلْمُها يحتاجُ إلىٰ بابٍ مفردٍ لنَفْسِهِ ، ونُومِئُ الآنَ إلىٰ ذلكَ برمزٍ يُدرِكُهُ مَنْ نازلَهُ شيءٌ مِنْ ذلكَ ؛ فأكثرُ الفقراءِ مِنْ عِلْمِ ذلكَ ومعرفتِهِ علىٰ بُعْدٍ[3] :

---

(١) هو ابن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) صفوة التصوف (٥٢٥) ، ورواه أحمد في « الزهد » (٤٠٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٥) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٢٠٤) .

(٣) زاد في (د) : (في زماننا) ، وانظر (٢/ ٤٣٤ـ٤٤٨) .

اعلَمْ : أنَّ ما ذكرْناهُ مِنْ نشاطِ النَّفْسِ واقعٌ للفقيرِ في كثيرٍ مِنَ الأمورِ ؛ فقد يجدُ الفقيرُ الرَّوْحَ بالخروجِ إلىٰ بعضِ الصَّحاري والبساتينِ ، ويكونُ ذلكَ الرَّوْحُ مُضِرّاً بهِ في ثاني الحالِ وإنْ كانَ تتراءىٰ لهُ طِيبةُ القلبِ في الوقتِ ، وسببُ طِيبةِ قلبِهِ في الوقتِ : أنَّ النَّفْسَ تنفسحُ وتتَّسِعُ ببلوغِ غَرَضِها وتيسيرِ يسيرِ هَواها[1] بالخروجِ إلى الصحراءِ والتنزُّهِ ، وإذا اتَّسعتْ بَعُدتْ عنِ القلبِ ، وتنحَّتْ عنهُ مُتشرِّفةً إلىٰ مُتعلَّقِ هَواها ، فيتروَّحُ القلبُ لا بالصحراءِ ، بل ببُعْدِ النَّفْسِ منهُ ؛ كشخصٍ تباعدَ عنهُ قَرِينٌ يستثقلُهُ

ثمَّ إذا عادَ الفقيرُ إلىٰ زاويتِهِ ، واستفتحَ ديوانَ مُعاملتِهِ ، ومَيَّزَ دُسْتُورَ حالتِهِ . . يجدُ النَّفْسَ مُقارِنةً للقلبِ بمَزِيدِ ثِقَلٍ مُوجِبٍ لتبرُّمِهِ بها ، وكلَّما ازدادَ ثِقَلُها تكدَّرَ القلبُ ، وسببُ زيادةِ ثِقَلِها : استرسالُها في تناولِ هَواها ، فيصيرُ الخروجُ إلى الصحراءِ عينَ الداءِ ، ويَظُنُّ الفقيرُ أنَّهُ ترويحٌ ودواءٌ ، فلو صَبرَ على الوَحْدةِ والخَلْوةِ ازدادتِ النفسُ ذَوَباناً ، وخَفَّتْ ولَطُفَتْ وصارتْ قَرِيناً صالحاً للقلبِ لا يستثقلُها .

وعلىٰ هٰذا : يُقاسُ التروُّحُ بالأسفارِ ؛ فللنفسِ وَثَباتٌ إلىٰ تَوَهُّمِ التَّرَوُّحاتِ ؛ فمَنْ فَطِنَ لهٰذهِ الدَّقيقةِ لا يَغْتَرُّ بالتَّرَوُّحاتِ المُستعارةِ التي لا تُحمَدُ عاقبتُها ولا تُؤمَنُ غائلتُها ، ويتثبَّتُ عندَ ظهورِ خاطرِ السفرِ ، ولا يكترثُ بالخاطرِ ، بل يطرحُهُ بعدمِ الالتفاتِ ، مُسِيئاً ظَنَّهُ بالنَّفْسِ وتَسْوِيلاتِها .

ومِنْ هٰذا القَبيلِ ـ واللهُ أعلمُ ـ : قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) في (د) : (وتتسيَّر بسير) بدل (وتيسير يسير) .

« إِنَّ ٱلشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ بَيْنِ قَرْنَيِ ٱلشَّيْطَانِ »(١) ، فتكونُ للنفسِ عندَ طلوعِ الشمسِ وَثَباتٌ ، تستندُ تلكَ الوَثْبةُ والنَّهْضةُ مِنَ النَّفْسِ إلى المِزاجِ والطبائعِ ، ويطولُ شرحُ ذلكَ ويَعمُقُ .

ومِنْ ذلكَ القَبيلِ : خِفَّةُ مرضِ المريضِ غُدْوةً بخلافِ العَشِيَّاتِ ، فيتشكَّلُ اهتزازُ النَّفْسِ بنَهَضاتِ القَلْبِ ، ويدخلُ على الفقيرِ مِنْ هٰذا القبيلِ آفاتٌ كثيرةٌ(٢) ، ويدخلُ في مداخلَ باهتزازِ نَفْسِهِ ظنّاً منهُ أنَّ ذلكَ حكمُ نهوضِ قلبِهِ ، وربَّما يتراءىٰ لهُ أنَّهُ باللهِ يَصُولُ ، وباللهِ يقولُ ، وباللهِ يتحرَّكُ ، وقدِ ابتُلِيَ بنَهْضةِ النَّفْسِ ووُثُوبِها .

ولا يقعُ هٰذا الاشتباهُ إلَّا لأربابِ القلوبِ وأربابِ الأحوالِ ، وغيرُ أربابِ القلوبِ والأحوالِ عن هٰذا بمَعْزِلٍ ، وهٰذهِ مَزَلَّةُ قدمٍ مُختصَّةٌ بالخواصِّ دونَ العوامِّ ، فاعلَمْ ذلكَ ؛ فإنَّهُ عزيزٌ علمُهُ

وأَقَلُّ مراتبِ الفقراءِ في مبادئِ الحركةِ للسَّفَرِ لتصحيحِ وَجْهِ الحَرَكةِ : أنْ يُقدِّمُوا صلاةَ الاستخارةِ ، وصلاةُ الاستخارةِ لا تُهمَلُ وإنْ تبيَّنَ للفقيرِ صِحَّةُ خاطرِهِ ، أو تبيَّنَ لهُ وجهُ المصلحةِ في السفرِ ببيانٍ واضحٍ مِنَ الخاطرِ ؛

---

(١) رواه البخاري (٣٢٧٣) ، ومسلم (٨٢٨/ ٢٩٠) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال النووي في « شرح مسلم » (٦/ ١١٢) : (قيل : المراد بقرني الشيطان : حزبه وأتباعه ، وقيل : قوّته وغلبته وانتشار فساده ، وقيل : القرنان : ناحيتا الرأس ، وإنَّهُ علىٰ ظاهره ، وهٰذا هو الأقوىٰ ، قالوا : ومعناه : أنَّهُ يُدني رأسه إلى الشمس في هٰذه الأوقات ؛ ليكون الساجدون لها من الكفار كالساجدين له في الصورة ، وحينئذٍ يكونُ له ولبنيه تسلُّطٌ ظاهر وتمكُّنٌ من أن يُلبِّسوا على المُصلِّين صلاتَهم ، فكُرِهتِ الصلاةُ حينئذ صيانةً لها ، كما كُرِهتْ في الأماكن التي هي مأوى الشيطان) .

(٢) في (أ ، ز) : (الطريق) بدل (القبيل) .

فللقومِ مراتبُ في التِّبْيانِ مِنَ العلمِ بصِحَّةِ الخاطرِ وبما فوقَ ذلكَ ؛ ففي ذلكَ كُلِّهِ لا تُهمَلُ صلاةُ الاستخارةِ ؛ اتِّباعاً للسُّنَّةِ ؛ ففي ذلكَ البَرَكةُ .

وهوَ مِنْ تعليمِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ على ما :

(٥٣) ـ حدَّثَنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ ضِياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهرِ السُّهْرُوَرْدِيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ إملاءً ، قالَ : أخبرَنا أبو القاسمِ بنُ أبي عبدِ الرحمـٰنِ في « كتابِهِ »[١] : أنَّ أبا سعيدٍ الكَنْجَرُوذيَّ أخبرَهُم[٢] ، قالَ : أخبرَنا أبو عمرٍو بنُ حَمْدانَ ، قالَ : حدَّثَنا أحمدُ بنُ الحسنِ الصُّوفيُّ[٣] ، قالَ : حدَّثَنا منصورُ بنُ أبي مُزاحِمٍ[٤] ، قالَ حدَّثَنا عبدُ الرحمـٰنِ بنُ أبي الموالي ، عن محمَّدِ بنِ المُنكدِرِ ، عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعلِّمُنا الاستخارةَ كما يُعلِّمُنا السورةَ مِنَ القرآنِ ؛ قالَ : « إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِٱلْأَمْرِ أَوْ أَرَادَ ٱلْأَمْرَ . فَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ ٱلْفَرِيضَةِ[٥] ، ثُمَّ لْيَقُلِ : ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ

---

(١) هو الإمام المُحدِّث المُعمَّر مسند خراسان زاهر بن طاهر النيسابوري الشَّحَّامي الشُّرُوطي (ت ٥٣٣هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٩) .

(٢) هو الإمام الفقيه الأديب النحوي الطبيب مسند خراسان محمد بن عبد الرحمـٰن بن محمد النيسابوري (ت ٤٥٣هـ) ، والكَنْجَرُوذيُّ : نسبةٌ إلى (كَنْجَرُوذ) قرية من قرى نيسابور ، وجاءت كنيته في كثير من المصادر والمراجع : (أبو سعد) بدل (أبو سعيد) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ١٠١)

(٣) هو الإمام الصوفي الكبير المُحدِّث الثقة المُعمَّر أبو عبد الله أحمد بن الحسن بن عبد الجبَّار البغدادي (ت ٣٠٦هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ١٥٢) .

(٤) هو الإمام المُحدِّث أبو نصر منصور بن بشير التركي الكاتب (ت ٢٣٥هـ) ، وانظر « تاريخ بغداد » (١٣/ ٨٠ ـ ٨١)

(٥) يقرأ في الأولى : (فاتحة الكتاب) و(قل يا أيها الكافرون) ، وفي الثانية : (الفاتحة)=

بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ ٱلْعَظِيمِ ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ، ٱللَّهُمَّ ؛ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلأَمْرَ ـ يُسمِّيهِ بعينِهِ ـ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَمَعَادِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أو قالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ . فَٱقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ شَرّاً لِي ـ مِثْلَ ذَلِكَ[1] ـ . فَٱصْرِفْهُ عَنِّي وَٱصْرِفْنِي عَنْهُ ، وَٱقْدُرْ لِيَ ٱلْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ »[2]

* * *

= و(قل هو الله أحد) من « الإحياء » . من هامش (و)

(١) في نسخة على هامش (و) : (في ديني ومعاشي وعاقبة أمري) بدل (مثل ذلك) .

(٢) رواه البخاري (٦٣٨٢) ، وزاد في (د) آخرَهُ : (برحمتك يا أرحم الراحمين) ، وفي نسخة على هامشها : (ثم رَضِّني به) ، وكذلك في (و) ، إلا أن فيها : (أَرْضني) بدل (رضِّني) ، وفي هامش (ب) : (بلغ مقابلةً) ، وفيه : (بلغ قراءةً في الرابع عشر للجماعة على الشيخ عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي)

الباب السابع عشر

فيما يحتاج إليه المسافر في سفره من الفرائض والفضائل[1]

فأمَّا مِنَ الفقهِ وإنْ كانَ هـٰذا يُذكَرُ في كتبِ الفقهِ ، وهـٰذا الكتابُ غيرُ موضوعٍ لذلكَ ، ولـٰكن نقولُ علىٰ سبيلِ الإيجازِ تيمُّناً بذكرِ الأحكامِ الشرعيَّةِ التي هيَ الأساسُ الذي يُبنىٰ عليهِ كلُّ شيءٍ[2]

لا بُدَّ للصُّوفيِّ المُسافِرِ مِنْ عِلْمِ التيمُّمِ ، والمسحِ على الخُفَّينِ ، والقَصْرِ ، والجَمْعِ في الصلاةِ .

أمَّا التيمُّمُ : فجائزٌ للمريضِ والمُسافِرِ في الجنابةِ والحَدَثِ عندَ عدمِ الماءِ[3] ، أوِ الخوفِ مِنِ استعمالِهِ تَلَفاً في النَّفْسِ[4] أوِ

---

(١) العنوان موافق لما جاء في مقدمة الكتاب ، وفي النسخ ما عدا (أ ، ج) : (الصوفي) بدل (المسافر) .

(٢) قوله : (كل شيء) زيادة من (ي) ، وزاد في نسخة علىٰ هامش (أ) : (الإسلام) .

(٣) وإن كان الماء حاضراً ؛ كماء البئر ، لـٰكن تتنازعُ عليه الواردون ، وعلم أنَّ النوبة لا تنتهي إليه إلا بعدَ الوقت . . صلَّىٰ علىٰ حسب حاله ولا يعيد ، وكذا يُصلِّي قاعداً في السفينة في الوقت إذا علم أنَّ النوبة فيها ـ وهي نوبة القيام ـ لا تنتهي إليه إلا بعد الوقت ، ولو وُهب منه أو أعير منه الدلو . . لزمه القَبولُ ، بخلاف ما إذا وهب منه ثمن الماء أو الدلو ؛ فإنَّ المِنَّة ثقيلةٌ ، ولو وَجَدَ من الماء ما لا يكفيه لوضوء . . يلزمُهُ استعمالُهُ ، وإذا صبَّ الماء في الوقت ثم تيمَّم . . . أساءَ وأجزأه . « مصباح » من هامش (ح) .

(٤) أو فساداً في العضو . من هامش (ح) .

المالِ[1] ، أو زيادةَ في المرضِ على القولِ الصحيحِ مِنَ المذهبِ[2] ، أو عندَ حاجتِهِ إلى الماءِ الموجودِ لعَطَشِهِ ، أو عَطَشِ دابَّتِهِ أو رفيقِهِ .

ففي هٰذهِ الأحوالِ كلِّها يُصلِّي بالتيمُّمِ ولا إعادةَ عليهِ .

والخائفُ مِنَ البردِ يُصلِّي بالتيمُّمِ ويُعِيدُ الصلاةَ على الأصحِّ .

ولا يجوزُ التيمُّمُ إلا بشَرْطِ الطَّلَبِ للماءِ في مواضعِ الطَّلَبِ ، ومواضعُ الطَّلَبِ : مواضعُ يتردَّدُ المُسافِرُ إليها في منزلِهِ للاحتشاشِ والاحتطابِ[3] ، ويكونُ الطلبُ بعدَ دخولِ الوقتِ .

والسفرُ القصيرُ في ذلكَ كالطويلِ

وإنْ صلَّىٰ بالتيمُّمِ في أوَّلِ الوقتِ معَ تَيَقُّنِ الماءِ في آخرِ الوقتِ . . جازَ على الأصحِّ[4] ، ولا يُعِيدُ مهما صلَّىٰ بالتيمُّم وإنْ كانَ الوقتُ باقياً ، ومهما

---

(1) بأن كان يُباع الماء بالغبن الفاحش ، ولو بِيعَ بثمن له وقعٌ لم يلزمه شراؤه ، وبثمن المثل يلزم ، إلا إذا كان عليه [دين] مستغرق ، أو احتاج إليه لنفقة سفره ، وثمنُ المثلِ نقلُهُ من المكان الذي يُوجد فيه هٰذا الماءُ إلىٰ هٰذا المكان ؛ إذ لو فسَّرناه بقيمته في هٰذا المكان كلَّفناه شراء الماء بدنانيرَ كثيرةٍ لوضوء واحد ، وذلك لا يجوز . « مصباح » . من هامش (ح) .

(2) أي : مذهب السادة الشافعية ، والمؤلف من علماء الشافعية رحمه الله تعالىٰ ، ومن أبرز شيوخه في الفقه : عمُّهُ أبو النجيب ، وأبو القاسم بن فضلان .

(3) بأن يتوهَّمَ وجودَهُ حواليهُ ، فيلزمُهُ التردُّدُ يمنة ويسرة ، وقُدَّاماً ووراء ، إلىٰ حيثُ يلحقه غوثُ الرفقة عند الحاجة ، إلا إذا كان قاعداً مستوياً لا حائلَ دون نظره ؛ فيكفيه النظر ، ولو كان في رفقة فليُنادِ فيهم : مَنْ يجودُ بالماء أو يبيعُ الماء ؟ ولو وكَّل غيرَهُ في الطلب جاز ، ولو طلب عنه غيرُهُ بغير إذنه لم يجز . « مصباح » . من هامش (ح) .

(4) وانتظاره أفضلُ ، ولو ظنَّهُ فتعجيلُ التيمم أفضل . انظر « منهاج الطالبين » (ص٨٢) .

تَوَهَّمَ وجودَ الماءِ بَطَلَ تيمُّمُهُ ، كما إذا طَلَعَ ركبٌ أو غيرِ ذلكَ .

وإنْ رأى الماءَ في أثناءِ الصلاةِ . . لا تَبطُلُ صلاتُهُ ، ولا يلزمُهُ الإعادةُ ، ويُستحَبُّ لهُ الخروجُ منها واستئنافُها بالوضوءِ على الأصحِّ .

ولا يتيمَّمُ للفرضِ قبلَ دخولِ الوقتِ ، ويتيمَّمُ لكلِّ فريضةٍ ، ويُصلِّي ما شاءَ مِنَ النوافلِ بتيمُّمٍ واحدٍ ، ولا يجوزُ أداءُ الفرضِ بتيمُّمِ النافلةِ

ومَنْ لم يَجِدْ ماءً ولا تراباً . . يُصلِّي ويُعِيدُ عندَ وجودِ أحدِهِما ، ولٰكنْ إنْ كانَ مُحدِثاً لا يَمَسُّ المصحفَ ، وإنْ كانَ جُنُباً لا يقرأُ القرآنَ في الصلاةِ ، بل يذكرُ اللهَ تعالىٰ عِوَضَ القراءةِ .

ولا يتيمَّمُ إلا بترابٍ طاهرٍ غيرِ مُخالِطٍ للرَّمْلِ والجِصِّ ، ويجوزُ بالغبارِ علىٰ ظَهْرِ الحيوانِ والثوبِ .

ويُسمِّي اللهَ تعالىٰ عندَ التيمُّمِ ، وينوي استباحةَ الصلاةِ قبلَ ضَرْبِ اليدِ على الترابِ ، ويَضُمُّ أصابعَهُ لضَرْبةِ الوجهِ ، ويمسحُ جميعَ الوجهِ ، فلو بَقِيَ شيءٌ مِنْ مَحَلِّ الفرضِ غيرُ ممسوحٍ . . لا يصحُّ التيمُّمُ

ويضربُ ضربةً لليدَينِ مبسوطةَ الأصابعِ ، ويُعمِّمُ الترابَ مَحَلَّ الفرضِ ، وإنْ لم يَقدِرْ إلّا بضربتَينِ فصاعداً كيفَ أمكنَهُ . . لا بدَّ أنْ يُعمِّمَ الترابَ مَحَلَّ الفرضِ ، ويمسحُ إذا فَرَغَ إحدى الراحتَينِ بالأُخرىٰ حتىٰ تصيرا ممسوحتَينِ ، ويُمِرُّ اليدَ علىٰ ما نَزَلَ مِنَ اللِّحْيةِ مِنْ غيرِ إيصالِ الترابِ إلى المَنابتِ .

فأمَّا المسحُ : فيمسحُ على الخُفِّ ثلاثةَ أيَّامٍ وليالِيَهُنَّ في السفرِ ، والمقيمُ يوماً وليلةً .

وابتداءُ المُدَّةِ : مِنْ حينِ الحَدَثِ بعدَ لُبْسِ الخُفِّ ، لا مِنْ حينِ لُبْسِ الخُفِّ ، ولا حاجةَ إلى النِّيَّةِ عندَ لُبْسِ الخُفِّ ، بل يحتاجُ إلىٰ كمالِ الطهارةِ ؛ حتىٰ لو لَبِسَ إحدى الخُفَّينِ قبلَ غَسْلِ الرِّجْلِ الأُخرىٰ . . لا يصحُّ أنْ يمسحَ على الخُفِّ

ويُشترَطُ في الخُفِّ : إمكانُ مُتابعةِ المشيِ عليهِ ، وسَتْرُ مَحَلِّ الفرضِ ، ويكفي مَسْحُ يسيرٍ مِنْ أَعْلى الخُفِّ ، والأَوْلىٰ : مسحُ أَعْلاهُ وأسفلِهِ مِنْ غيرِ تَكرارٍ .

ومتى ارتفعَ حُكْمُ المسحِ بانقضاءِ المُدَّةِ ، أو ظهورِ شيءٍ مِنْ مَحَلِّ الفرضِ[١] وإنْ كانَ عليهِ لِفَافةٌ وهوَ على الطهارةِ . . يغسلُ القدمينِ دونَ استئنافِ الوضوءِ على الأَصَحِّ .

والماسحُ في السفرِ إذا أقامَ يمسحُ للمُقِيم ، وهكذا المُقِيمُ إذا سافرَ ؛ يمسحُ للمُقيمِ[٢]

واللِّبْدُ إذا رُكِّبَ جَوْرَباً ونُعِّلَ يجوزُ المسحُ عليهِ[٣] ، ويجوزُ المسحُ على المُشرَّجِ إذا سَتَرَ مَحَلَّ الفرضِ[٤] ، ولا يجوزُ على المنسوجِ وجهُهُ الذي يُستَرُ بعضُ القدمِ بهِ والباقي باللِّفَافةِ .

فأمَّا القَصْرُ والجَمْعُ : فيجمعُ بينَ الظهرِ والعصرِ في وقتِ إحداهُما ،

---

(١) زاد في (د) : (غسل القدمين في أصحِّ القولين ، واستأنف في الآخر) .

(٢) في (ب ، هـ) : (للمسافر) ، ولعل الصواب ما أثبت ، وفي بعض النسخ هنا والموضع قبله : (كالمقيم) ، واللام على المثبت وقتية .

(٣) اللِّبْدُ : ما تلبَّد ولَصِقَ ببعضه من شعر أو صوف .

(٤) الخُفُّ المُشرَّج : المشقوق في مُقدَّمه .

ويتيمَّمُ لكلِّ واحدةٍ ، ولا يفصلُ بينَهُما بكلامٍ وغيرِهِ ، وهٰكذا يجمعُ بينَ المغربِ والعِشاءِ .

ولا قَصْرَ في المغربِ ، والصُبْحُ كهيئتِها مِنْ غيرِ قَصْرٍ وجَمْعٍ .

والسُّنَنُ الرواتبُ يُصلِّيها بجمعٍ بينَ السُّنَّتَينِ قبلَ الفريضتَينِ للظهرِ والعصرِ[١] ، وبعدَ الفراغِ مِنَ الفريضتَينِ يُصلِّي ما يُصلَّى بعدَ الفريضةِ مِنَ الظهرِ ركعتَينِ أو أربعاً ، وبعدَ الفراغِ مِنَ المغربِ والعشاءِ يُؤدِّي السُّنَنَ الرواتبَ لهُما ، ويُوتِرُ بعدَها

ولا يجوزُ أداءُ الفرائضِ على الدابّةِ بحالٍ إلّا عندَ التحامِ القتالِ للغازي ، ويجوزُ ذلكَ في السُّنَنِ الرواتبِ والنوافلِ .

ويكْفيهِ للصلاةِ علىٰ ظهرِ الدابَّةِ في الركوعِ والسجودِ الإيماءُ ، ويكونُ إيماءُ السجودِ أَخْفضَ مِنَ الركوعِ ، إلّا أنْ يكونَ قادراً على التمكُّنِ ؛ مثلُ أنْ يكونَ في كَجَاوةٍ وغيرِ ذلكَ[٢] ، ويقومُ توجُّهُهُ إلى الطريقِ مَقامَ استقبالِ القِبْلةِ ، فيُصلِّي كيفَ تَوَجَّهَ في الطريقِ[٣] ، فأمَّا أنْ يكونَ لا مُستقبِلَ القِبْلةِ

---

(١) فيُصلِّي سنة الظهر أوَّلاً أربع ركعات ، ثمَّ سنةَ العصر أربع ركعات ، ثمَّ فريضة الظهر ، ثمَّ فريضة العصر ، وقولُه : (بين) متعلق بـ (جمع) .

(٢) الكَجَاوة : لفظٌ فارسي ؛ وهو الهودج يُوضع علىٰ بغل ويقعد فيه رجلان كلٌّ واحد منهما في جانب .

(٣) ولا يَضُرُّ انحرافُ الدابّة عن القبلة حالة افتتاح الصلاة ، إلا إذا تيسَّر عليه توجُّهُها إلى القبلة ، وتخالفُها عن صوب الطريق ناسياً بها في أثنائها كاستقبال القبلة ناسياً في الصلاة ؛ قصيرُ ذلك لا يضُرُّ بحديث ذي اليدين ، وطويلُهُ مُبطِلُهُ ؛ كالكلام الطويل ناسياً ، وإن كان لجماح الدابّة فهو كالمصروف عن القبلة قَهراً ؛ بطلت صلاتُهُ إن طال الزمان ، ولا تبطل صلاتُهُ إن قصر الزمان ، سواء كان عالماً بالحال أو لم يكن . =

ولا مُتوجِّهاً إلى الطريقِ . فلا[1] ؛ حتىٰ لو حَرَفَ دابَّتَهُ عنِ الصَّوْبِ المُتوجَّهِ إليهِ لا إلىٰ نَحْوِ القِبْلةِ . . بطلتْ صلاتُهُ

والماشي يتنفَّلُ في السفرِ[2] ، ويُقنِعُهُ[3] استقبالُ القِبْلةِ عندَ الإحرامِ[4] ، ولا يُجزِئُهُ في الإحرامِ إلَّا الاستقبالُ ، ويُقنِعُهُ الإيماءُ للرُّكوعِ والسجودِ ، وراكبُ الدابَّةِ لا يحتاجُ إلى استقبالِ القِبْلةِ للإحرامِ أيضاً

وإذا أصبحَ المُسافِرُ مُقيماً ثمَّ سافرَ . . فعليهِ إتمامُ ذلكَ اليومِ في الصومِ ، وهٰكذا إنْ أصبحَ مُسافِراً ثمَّ أقامَ

والصومُ في السفرِ أَفْضلُ مِنَ الفِطْرِ ، وفي الصلاةِ القَصْرُ أَفْضلُ مِنَ الإتمامِ

وهٰذا القَدْرُ كافٍ للصُّوفيِّ أنْ يعلمَهُ مِنْ حُكْمِ الشرعِ في مَهامِّ سفرِهِ

وأمَّا المندوبُ والمُستحَبُّ : فينبغي أنْ يطلبَ لنَفْسِهِ رفيقاً في الطريقِ يُعِينُهُ علىٰ أمرِ الدِّينِ ؛ فقد قيلَ : (الرفيقُ ثمَّ الطريقُ)[5] ، ونهىٰ رسولُ اللهِ

= « مصباح » . من هامش (ح) .

(١) زاد في (ط) : (ولا يوجهها إلىٰ غير الطريق إلا للقبلة) .

(٢) سواء أكان طويلاً أو قصيراً . « مصباح » . من هامش (ح)

(٣) أي : يكفيه .

(٤) المُتنفِّلُ الماشي يجب استقبالُهُ القبلةَ في ثلاث أحوال : الافتتاح ، والركوع ، والسجودِ ، ويسجدُ مُتَّكِئاً ـ أي : لا مُومِئاً ـ على الأرض ، وله أن يتشهَّد ماشياً ؛ لأنَّ القعودَ ينوبُ عن القيام في النفل سفراً وحضراً ، فلا يَبعُدُ أن ينوب القيام عن القعود في النفل سفراً ، ولو مشىٰ في نجاسةٍ قصداً . . بطلت صلاته ، بخلاف ما لو سيَّر فرسه فيها ، ولا يلزمُه المبالغة في التحرُّز من النجاسات عند كثرتها في الطُّرُق . « مصباح » . من هامش (ح) .

(٥) رواه أبو الشيخ في « أمثال الحديث » (٢٣٢) ، والطبراني في « المعجم الكبير » =

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يُسافِرَ الرجلُ وحدَهُ[1] ، إلَّا أنْ يكونَ صُوفيّاً عالِماً بآفةِ نَفْسِهِ ، يختارُ الوَحْدةَ علىٰ بصيرةٍ مِنْ أمرِهِ ؛ فلا بأسَ بالوَحْدةِ

وإذا كانُوا جماعةً ينبغي أنْ يكونَ فيهِم مُتقدِّمٌ أميرٌ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فِي سَفَرٍ . . فَأَمِّرُوا أَحَدَكُمْ »[2] ، والذي يُسمِّيهِ الصُّوفيَّةُ (بيشْ رَوْ) هوَ الأميرُ

وينبغي أنْ يكونَ الأميرُ أَزْهدَ الجماعةِ في الدنيا ، وأَوْفرَهُم حَظّاً مِنَ التقوىٰ ، وأَتَمَّهُم مُرُوءةً وسَخَاوةً ، وأكثرَهُم شَفَقَةً ؛ روىٰ عبدُ اللهِ بنُ [عمرٍو] رضيَ اللهُ عنهُما[3] ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « خَيْرُ ٱلْأَصْحَابِ عِنْدَ ٱللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ »[4]

نُقِلَ عن عبدِ اللهِ المَرْوَزيِّ : أنَّ أبا عليٍّ الرِّبَاطيَّ صَحِبَهُ ، فقالَ : علىٰ أنْ أكونَ أنا الأميرَ أو أنتَ ؟ فقالَ : بل أنتَ ، فلم يَزَلْ يحملُ الزادَ لنَفْسِهِ ولأبي

= (٤/٢٦٨ـ ٢٦٩) ، والخطيب البغدادي في « الجامع لأخلاق الراوي » (١٧٠٨) مرفوعاً عن سيدنا رافع بن خديج رضي الله عنه ، ولفظ الطبراني : « التمسوا الجارَ قبلَ الدارِ ، والرفيقَ قبلَ الطريقِ » ، وانظر « كشف الخفاء » (١/ ١٧٩) .

(١) رواه أحمد (٢/ ٩١) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » كما في « مجمع الزوائد » (١٣٢٠٨) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٢٢)

(٢) رواه أبو داود (٢٦٠٨) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٠٩٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٥٧) عند سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ورواه أبو داود أيضاً (٢٦٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٢٢) .

(٣) في النسخ : (عمر) ، والمثبت من المصادر الآتية .

(٤) رواه الترمذي (١٩٤٤) ، والدارمي (٢٤٨١) ، وأحمد (٢/ ١٦٧ـ١٦٨) ، وابن حبان (٥١٩) .

عليٌّ على ظَهْرِهِ ، وأَمْطَرَتِ السماءُ ذاتَ ليلةٍ ، فقامَ عبدُ اللهِ طُولَ الليلِ على رأسِ رفيقِهِ يُغطِّيهِ بكِسائِهِ عنِ المطرِ ، وكلَّما قالَ : لا تفعلْ . . يقولُ : ألستُ الأميرَ وعليكَ الانقيادُ والطاعةُ ؟(1)

فأمَّا أنْ يكونَ الأميرُ يستصحبُ الفقراءَ لمَحَبَّةِ الاستتباعِ وطَلَبِ الرِّياسةِ والتعزُّزِ ؛ ليتسلَّطَ على الخُدَّامِ في الرِّباط ، ويُبلِّغَ نَفْسَهُ هَواها . . فهٰذهِ طريقُ أربابِ الهوى الجُهَّالِ المُبايِنينَ لطريقِ الصُّوفيَّةِ ، وهوَ سبيلُ مَنْ يُرِيدُ جَمْعَ الدُّنيا ، فيتَّخِذُ لنَفْسِهِ رُفَقَاءَ مائِلينَ إلى الدنيا ، يجتمعُونَ لتحصيلِ أغراضِ النَّفْسِ ، والدخولِ على أبناءِ الدنيا والظَّلَمةِ للتوصُّلِ إلى تحصيلِ مآربِ النَّفْسِ ، ولا يخلو اجتماعُهُم هٰذا عنِ الخوضِ في الغِيبةِ ، والدخولِ في المداخلِ المكروهةِ ، والتَّنقُّلِ في الرُّبُطِ ، والاستمتاعِ والنُّزْهَةِ ، وكلَّما كثُرَ المعلومُ في الرِّباطِ . . أطالوا المقامَ وإنْ تَعَذَّرَتْ أسبابُ الدِّينِ ، وكلَّما قَلَّ المعلومُ في الرِّباطِ . . رحلُوا وإنْ تَيَسَّرَتْ أسبابُ الدِّينِ ، وليسَ هٰذهِ طريقَ الصُّوفيَّةِ .

ومِنَ المُستحَبِّ : أنْ يُودِّعَ إخوانَهُ إذا أرادَ السفرَ ، ويدعوَ لهُم بدعاءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

يقولُ بعضُهُم : صَحِبْتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما مِنْ مَكَّةَ إلى المدينةِ ، فلمَّا أردتُ مُفارَقَتَهُ شيَّعَني وقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(1) أورده بنحوه أبو نصر السراج في « اللمع » (ص٢٣٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٠٤ـ٦٠٥) ، ورواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٩/ ٣٨٢) .

وسلَّمَ يقولُ : « قَالَ لُقْمَانُ(١) إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا ٱسْتُودِعَ شَيْئاً حَفِظَهُ ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُ ٱللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ »(٢)

وروىٰ زيدُ بنُ أَرْقَمَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ سَفَراً فَلْيُوَدِّعْ إِخْوَانَهُ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ جَاعِلٌ لَهُ فِي دُعَائِهِمُ ٱلْبَرَكَةَ »(٣)

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : أنَّهُ كانَ إذا وَدَّعَ رجلاً قالَ : « زَوَّدَكَ ٱللهُ ٱلتَّقْوَىٰ ، وَغَفَرَ ذَنْبَكَ ، وَوَجَّهَكَ لِلْخَيْرِ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ »(٤)

وينبغي أنْ يعتقدَ إخوانُهُ أنَّهُ إذا دعا لهُم وأَوْدَعَهُمُ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ . . أنَّ اللهَ يستجيبُ دعاءَهُ ؛ فقد رُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يُعطي الناسَ

---

(١) زاد في بعض النسخ : (لابنه : يا بني) ، وعليه : يكون قوله : (وإني أستودع . . .) من كلام سيدنا لقمان عليه السلام ، والمثبت هو الرواية .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٢٧٣) ، والطبراني في « الدعاء » (٨٢٨) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٠٠) ، ورواه دون قوله : (وإني أستودع . . .) النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٢٧٤) ، وأحمد (٢/ ٨٧) ، والطبراني في « الدعاء » (٨٢٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٧٣) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٢٤ـ٢٢٥) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٠٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ٣٧٢) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٢٥) .

(٤) رواه بلفظه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٠٦) ، والمحاملي في « الدعاء » (٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وبنحوه الترمذي (٣٤٤٤) ، والدارمي (٢٧١٣) ، وابن خزيمة (٢٥٣٢) ، والحاكم (٢/ ٩٧) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٢٥ـ٢٢٦) .

عطاياهُم إذ جاءَهُ رجلٌ معَهُ ابنٌ لهُ ، فقالَ لهُ عمرُ : ما رأيتُ أحداً أَشْبَهَ بأحدٍ مِنْ هٰذا بِكَ !!

فقالَ الرجلُ أُحدِّثُكَ عنهُ يا أميرَ المؤمنينَ : إنِّي أردتُ أنْ أخرجَ إلىٰ سفرٍ وأُمُّهُ حاملٌ بهِ ، فقالتْ : تخرجُ وتَدَعُني علىٰ هٰذهِ الحالةِ ؟! فقلتُ أستودعُ اللهَ ما في بطنِكِ ، فخرجتُ ثمَّ قَدِمتُ وإذا هي قد ماتَتْ ، فجَلَسْنا نتحدَّثُ ، فإذا نارٌ علىٰ قَبْرِها(١) ، فقلتُ للقومِ : ما هٰذهِ النارُ ؟ فقالُوا هٰذهِ مِنْ قبرِ فُلانةَ نراهُ كلَّ ليلةٍ ، فقلتُ : واللهِ ؛ إنَّها كانتْ صَوَّامةً قَوَّامةً ، فأخذتُ المِعْوَلَ حتى انتهَيْنا إلى القبرِ ، فحَفَرْنا فإذا سِراجٌ ، وإذا هٰذا الغلامُ يَدِبُّ ، فقيلَ : إنَّ هٰذهِ وديعتُكَ ، ولو كنتَ اسْتَودَعْتَنا أمَّهُ لوجدتَها

فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لَهو أَشْبهُ بكَ مِنَ الغُرابِ بالغُرابِ(٢)

وينبغي أنْ يُودِّعَ كلَّ مَنزِلٍ يرحلُ عنهُ بركعتَينِ ويقولَ (اللَّهُمَّ ؛ زَوِّدْني التقوىٰ ، واغْفِرْ لي ذُنُوبي ، ووَجِّهْني للخيرِ أينَما توجَّهتُ) .

وروىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا ينزلُ مَنزِلاً إلَّا وَدَّعَهُ بركعتَينِ)(٣)

فينبغي أنْ يُودِّعَ كلَّ مَنزِلٍ ورِباطٍ يرحلُ عنهُ بركعتَينِ

وإذا رَكِبَ الدابَّةَ فلْيقُلْ (سبحانَ الذي سخَّرَ لنا هٰذا وما كُنَّا لهُ

---

(١) في (ي) : (تلوح من قبرها) ، والمثبت هو الرواية .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٩٩) ، والطبراني في « الدعاء » (٨٢٤)

(٣) رواه الحاكم (١/ ٣١٥ـ ٣١٦) ، وابن خزيمة (١٢٦٠) ، والبيهقي في « الدعوات الكبير » (٤٤٧) .

مُقرِنينَ ، باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ ، توكَّلتُ على اللهِ ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ العَلِيِّ العظيمِ ، اللَّهُمَّ ؛ أنتَ الحاملُ على الظهرِ ، وأنتَ المُستعانُ على الأمورِ) .

والسُّنَّةُ : أنْ يرحلَ مِنَ المنازلِ بُكْرةً ، ويبتدئَ بيومِ الخميسِ ؛ روىٰ كعبُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (قلَّما كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخرجُ إلىٰ سفرٍ إلَّا يومَ الخميسِ)(١)

وكانَ إذا أرادَ أنْ يبعثَ سَرِيَّةً بعثَها أَوَّلَ النهارِ(٢)

ويُستحَبُّ كلَّما أَشْرفَ علىٰ مَنزِلٍ أنْ يقولَ : (اللَّهُمَّ ، ربَّ السماواتِ وما أَظْلَلْنَ ، وربَّ الأَرَضِينَ وما أَقْلَلْنَ ، وربَّ الشياطينِ وما أَضْلَلْنَ ، وربَّ الرِّياحِ وما ذَرَيْنَ ، وربَّ البحارِ وما جَرَيْنَ ؛ أسأَلُكَ خيرَ هـٰذا المَنزِلِ وخيرَ أهلِهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ هـٰذا المَنزِلِ وشرِّ أهلِهِ) ، وإذا نَزَلَ فلْيُصلِّ ركعتَينِ .

وممَّا ينبغي للمُسافِرِ : أنْ تصحبَهُ آلةُ الطهارةِ

قيلَ : كانَ إبراهيمُ الخَوَّاصُ رحمَهُ اللهُ لا تُفارِقُهُ أربعةُ أشياءَ في الحَضَرِ والسَّفَرِ : الرَّكْوةُ ، والحَبْلُ ، والإبرةُ وخُيوطُها ، والمِقْراضُ(٣)

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٩) .

(٢) رواه أبو داود (٢٦٠٦) ، والترمذي (١٢١٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٧٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣٦) عن سيدنا صخر الغامدي رضي الله عنه .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٤١٤ـ٤١٥) ، ومن طريقه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٨/٦) ، وأورده الغزالي في « الإحياء » (٣٦٨/٤) ، وزاد في « الرسالة » : (فقيل له : يا أبا إسحاق ؛ لِمَ تحملُ هـٰذا وأنت تمتنعُ من كل شيء ؟ =

ورَوَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا سافرَ حَمَلَ معَهُ خمسةَ أشياءَ : المِرآةَ ، والمُكْحُلَةَ ، والمِدْرَىٰ ، والسِّواكَ ، والمُشْطَ[1] ، وفي روايةٍ : المِقْراضَ[2]

والصُّوفيَّةُ لا تُفارِقُهُمُ العصا ، وهوَ أيضاً مِنَ السُّنَّةِ ؛ روىٰ معاذُ بنُ جَبَلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنْ أَتَّخِذْ مِنْبَراً فقَدِ ٱتَّخَذَهُ إِبْرَاهِيمُ ، وَإنْ أَتَّخِذِ ٱلْعَصَا فَقَدِ ٱتَّخَذَهَا إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ »[3]

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ : (التَّوكُّؤُ على العصا مِنْ أخلاقِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ؛ كانَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عصاً يتوكَّأُ عليها ، ويأمرُ بالتوكُّؤِ على العصا)[4]

= فقال : مثلُ هـٰذا لا ينقض التوكُّل ؛ لأنَّ لله تعالىٰ علينا فرائضَ ، والفقير لا يكون عليه إلا ثوبٌ واحد ، فربَّما يتخرَّق ثوبُهُ ، فإذا لم يكن معه إبرةٌ وخيوط.. تبدو عورته ، فتفسد عليه صلاته ، وإذا لم يكن معه رَكْوة.. يفسد عليه طهارته ، فإذا رأيتَ الفقيرَ بلا ركوة ولا إبرة وخيوط.. فاتَّهمه في صلاته) ، وقال في « إحكام الدلالة » (٣/ ٥٥) : (وإذا لم يكن مِقْراضٌ.. فيطولُ شاربُهُ فيفوتُهُ قصد المأمور به) ، والرَّكْوة : دَلْو صغير

(١) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٥٢٤٢) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٢٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٠٧٢)

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٢٩) ، وابن عدي في « الكامل » (٨/ ٤٧١).

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٢٦٣٢) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ١٦٧) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ١٤٥) ، وليس فيها ذكر سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وفي النسخ ما عدا (د ، ي) سقط ذكر سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

(٤) رواه ابن عدي في « الكامل » (٨/ ١٠١)، وابن طاهر المقدسي في « صفوة التصوف » (٥٢٧)

وأَخْذُ الرَّكْوةِ أيضاً مِنَ السُّنَّةِ ؛ روىٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : بينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتوضَّأُ مِنْ رَكْوةٍ . . إذ جَهَشَ الناسُ نَحْوَهُ ـ أي أَسْرَعُوا نحوَهُ ، والأصلُ فيهِ البكاءُ ؛ كالصَّبِيِّ يَتلَزَّمُ بالأُمِّ ويُسرِعُ إليها عندَ البكاءِ ـ قالَ : فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا لَكُمْ ؟! » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ ما نَجِدُ ماءً نشربُ ولا نتوضَّأُ إلَّا ما بينَ يَدَيكَ ، فَوضَعَ يَدَهُ في الرَّكْوةِ[1] ، فنظرتُ وهوَ يَفُورُ مِنْ بينِ أصابعِهِ مِثْلَ العُيُونِ ، قالَ : فتوضَّأَ القومُ منهُ .

قلتُ : كم كنتُم ؟ قالَ : لو كُنَّا مئةَ ألفٍ لَكَفَانا ؛ كُنَّا خمسَ عَشْرَةَ مئةً في غزوةِ الحُدَيْبِيَةِ[2]

ومِنْ سُنَّةِ الصُّوفيَّةِ : شَدُّ الوَسَطِ ، وهوَ مِنَ السُّنَّةِ ؛ روىٰ أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ حجَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ مُشَاةً مِنَ المدينةِ إلىٰ مَكَّةَ وقالَ : « ٱرْبِطُوا عَلَىٰ أَوْسَاطِكُمْ بِأُزُرِكُمْ » ، فرَبَطْنا ومَشَيْنا خِلْطَ الهَرْوَلَةِ[3]

ومِنْ ظاهرِ آدابِ الصُّوفيَّةِ عندَ خروجِهِم مِنَ الرُّبُطِ : أنْ يُصلِّيَ ركعتَينِ في أوَّلِ النهارِ يومَ السفرِ بُكْرةً كما ذَكَرْنا[4] ؛ يُودِّعُ البُقْعةَ بالركعتَينِ ، ويُقدِّمَ

---

(١) في (أ ، ز) : (يده الكريمة) بدل (يده) .

(٢) رواه البخاري (٣٥٧٦) .

(٣) رواه ابن ماجه (٣١١٩) ، وابن خزيمة (٢٥٣٥) ، والحاكم (١/ ٤٤٢) ، ومَشَيْنا خِلْطَ الهَرْوَلة ؛ أي : مَشْياً مُختلِطاً بالهرولة ؛ بأن يمشوا حيناً ويُهرولوا أخرىٰ ، أو مُعتدِلاً

(٤) انظر (١/ ٤٠٦)

الخُفَّ وينفُضَهُ ، ويُشمِّرَ الكُمَّ اليُمنىٰ ثمَّ اليُسرىٰ ، ثمَّ يأخذَ المِيانْ بَنْدَ الذي يَشُدُّ بهِ وَسَطَهُ[(١)] ، ويأخذَ خَرِيطةَ المَدَاسِ ويَنفُضَها[(٢)]

ويأتيَ الموضعَ الذي يُرِيدُ أنْ يَلْبَسَ الخُفَّ فيهِ ، فيَفرُشَ السَّجَّادةَ طاقَينِ ، ويَحُكَّ نعلَ أحدِ المَداسَينِ بالآخَرِ ، ويأخذَ المَداسَ باليسارِ والخَرِيطةَ باليمينِ ، ويَضَعَ المَداسَ في الخَرِيطةِ أعقابُهُما إلىٰ أسْفلَ ، ويَشُدَّ رأسَ الخَرِيطةِ ، ويُدخِلَ المَداسَ بيدِهِ اليُسْرىٰ مِنْ كُمِّهِ الأيسرِ ، ويَضَعَهُ خلفَ ظهرِهِ .

ثمَّ يقعدَ على السَّجَّادةِ ، ويُقدِّمَ الخُفَّ بيسارِهِ ويَنفُضَهُ ، ويبتدئَ باليُمْنىٰ فيَلْبَسَ ، ولا يَدَعَ شيئاً مِنَ الرَّانَينِ أوِ المِنْطَقَةِ يقعُ على الأرضِ[(٣)]

ثمَّ يغسلَ يديهِ ، ويجعلَ وجهَهُ إلى الموضعِ الذي يخرجُ منهُ ، ويُودِّعَ الحاضرينَ ، فإنْ أَخَذَ بعضُ الإخوانِ زاويتَهُ إلىٰ خارجِ الرِّباطِ[(٤)] . . لا يمنعْهُ ، وهٰكذا العصا والإبريقُ ، ويُودِّعَ مَنْ يُشيِّعُهُ .

ثمَّ يَشُدَّ الزوايةَ ، ويرفعَ يدَهُ اليُمْنىٰ ويُخرِجَ اليُسْرىٰ مِنْ تحتِ إِبْطِهِ

---

(١) المِيَانْ بَنْد : لفظ فارسي ؛ وهو الحزام والنِّطاق .

(٢) الخَرِيطة : وعاء من أَدَم وغيره يُشرَجُ على ما فيه ، والمَدَاس : ما يُلبَسُ في الرِّجْل

(٣) الرَّانَينُ : خُفٌّ يُلبَس للساق ليس له قدم ، بل يكون ما بين الركبة والكعبين ، والمِنطَقَة : ما يُشدُّ به الوسط .

(٤) الزاوية : وعاء يُوضع فيه آلات سفر المسافر من هامش (و) بتصرف ، وفي هامش (ح) : (هي اللِّفافة التي جمع فيها حوائجه) ، ولعلها مأخوذة من زَوَيتُ الشيءَ : إذا جمعتَهُ ؛ لكونها تجمع ما يُوضع فيها ، والله تعالىٰ أعلم ، وجاءت في (ج) بالراء ، وكتب علىٰ هامشها : (قيل : الراوية : الجمل يُستسقى الماء به ، وبه سُمِّي المزادةُ راويةً ، وفي نسخة الأصل : « زاوية » بالزاء المنقوطة)

الأيمنِ ، ويَشُدَّ الزاويةَ على الجانبِ الأيسرِ ، ويكونَ كتفُهُ الأيمنُ خالياً ، وعُقْدةُ الزاويةِ مِنْ جانبِ اليُمْنىٰ

وإذا وَصَلَ في طريقِهِ إلىٰ موضعٍ شريفٍ ، أوِ استقبلَهُ جمعٌ مِنَ الإخوانِ ، أو شيخٌ مِنَ الطائفةِ . . يَحُلُّ الزاويةَ ويحطُّها ، ويستقبلُهُم ويُسلِّمُ عليهِم ، ثمَّ إذا جاوزوهُ يَشُدُّ الزاويةَ ، وإذا قَرُبَ مِنَ المَنزِلِ رِباطاً كانَ أو غيرَهُ . . يَحُلُّ الزاويةَ ويحملُها تحتَ إبْطِهِ الأيسرِ ، وهـٰكذا العصا والإبريقُ يُمسِكُهُما بيسارِهِ .

وهـٰذهِ الرُّسُومُ استحسنَها فقراءُ خُراسانَ والجَبَلِ[1] ، ولا يعتمدُها أكثرُ فقراءِ العراقِ والشامِ والمغربِ ، وتجري بينَ الفقراءِ مُشاحَّةٌ في رِعايتِها[2]

فمَنْ لا يتعاهدُها يقولُ : هـٰذهِ رُسُومٌ لا تلزمُ ، والتَّلَزُّمُ بها وقوفٌ معَ الصُّوَرِ وغَفْلةٌ عنِ الحقائقِ .

ومَنْ يتعاهدُها يقولُ : هـٰذهِ آدابٌ وضَعَها المُتقدِّمونَ[3] ، وإذا رأَوْا مَنْ يُخِلُّ بها أو بشيءٍ منها ينظرُونَ إليهِ نَظَرَ الازدراءِ والحَقَارةِ ، ويُقالُ : هـٰذا ليسَ بصُوفيٍّ .

وكلا الطائفتَينِ في الإنكارِ يَتعدَّونَ الواجبَ ، والصحيحُ في ذلكَ : أنَّ مَنْ يتعاهدُها لا يُنكَرُ عليهِ ؛ فليسَ بمُنكَرٍ في الشرعِ ، وهوَ أدَبٌ حَسَنٌ ، ومَنْ

---

(١) الجَبَل : يُطلَق على البلاد التي بين أَصْبَهانَ إلىٰ زَنْجانَ وقَزْوينَ وهَمَذَانَ والدِّينَوَرِ وقِرْمِيسينَ والرَّيِّ وما بين ذلك انظر « معجم البلدان » (٢/ ٩٩)

(٢) المُشاحَّة : المنازعة .

(٣) واستحسنوها ، وما يراه المؤمنون حَسَناً فهو عند الله حَسَن ، مع أنَّ في كلِّ واحدٍ منها فوائدَ . من هامش (ح) .

لم يلتزمْ بذلكَ فلا يُنكَرُ عليهِ ؛ فليسَ بواجبٍ في الشرعِ ولا مندوبٍ إليهِ

وكثيراً ما يُبالغُ فقراءُ خُرَاسانَ والجَبَلِ في رعايةِ هٰذهِ الرُّسُومِ إلىٰ حَدٍّ يُخرجُ إلى الإفراطِ ، وكثيراً ما يُخِلُّ بها فقراءُ العراقِ والشامِ والمغاربةِ إلىٰ حَدٍّ يُخرِجُ إلى التفريطِ

والأَلْيَقُ أنَّ ما لا يُنكِرُهُ الشرعُ لا يُنكَرُ ، ويُجعَلُ لتصاريفِ الإخوانِ الصادقينَ أعذارٌ ، ما لم يكنْ فيهِ مُنكَرٌ أو إخلالٌ بمندوبٍ إليهِ ، واللهُ المُوفِّقُ(١)

❁ ❁ ❁

---

(١) في هامش (ب) : (بلغ السماعُ للجماعة على الشيخ أمين الدين بقراءة الكاتب) ، وفيه : (بلغ قراءةُ كاتبه على الشيخ الحافظ جلال الدين)

الباب الثامن عشر

في القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه

ينبغي للفقيرِ إذا رَجَعَ مِنَ السفرِ أنْ يستعيذَ باللهِ تعالىٰ مِنْ آفاتِ المُقَامِ ، كما يستعيذُ بهِ مِنْ وَعْثاءِ السفرِ(١)

ومِنَ الدُّعاءِ المأثورِ : « اللَّهُمَّ ؛ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ ٱلسَّفَرِ ، وَكَآبَةِ ٱلْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ ٱلْمَنْظَرِ فِي ٱلأَهْلِ وَٱلْمَالِ وَٱلْوَلَدِ »(٢)

وإذا أَشْرفَ علىٰ بلدةٍ يُرِيدُ المُقامَ بها. . يُشِيرُ بالسلامِ علىٰ مَنْ بها مِنَ الأحياءِ والأمواتِ ، ويقرأُ مِنَ القرآنِ ما تيسَّرَ ، ويجعلُهُ هديَّةً للأحياءِ والأمواتِ ، ويُكبِّرُ ؛ فقد رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قَفَلَ مِنْ غَزْوٍ أو حَجٍّ كانَ يُكبِّرُ علىٰ كلِّ شَرَفٍ مِنَ الأرضِ ثلاثَ مرَّاتٍ(٣) ، ويقولُ « لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ ، صَدَقَ ٱللهُ وَعْدَهُ ،

---

(١) وَعْثاء السفر : مشقَّتُهُ وشدَّتُهُ ، وأصلُهُ : من (الوَعْث) ؛ وهو الدَّهس من الرمال الرقيقة ، والمشيُ يشتدُّ فيه علىٰ صاحبه ، فجُعِلَ مَثَلاً لكل ما يَشُقُّ علىٰ صاحبه .

(٢) رواه مسلم (١٣٤٢ ، ١٣٤٣) عن سيدينا ابن عمر وعبد الله بن سَرْجِس رضي الله عنهم ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٣٣ـ٢٣٤) .

(٣) الشَّرَف : العلو والمكان العالي . من هامش (ح) .

وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ ٱلْأَحْزَابَ وَحْدَهُ »(١)

ويقولُ إذا رأى البلدَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْ لَنَا بِهَا قَرَاراً وَرِزْقاً حَسَناً »(٢)

ولوِ اغتسلَ كانَ حَسَناً ؛ اقتداءً برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حيثُ اغتسلَ لدخولِ مكَّةَ(٣) ، ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا رَجَعَ مِنْ طلبِ الأحزابِ ونزَلَ المدينةَ . نَزَعَ لأْمَتَهُ واغتسلَ واستحمَّ(٤) ، وإلَّا فَلْيُجدِّدِ الوضوءَ

ويتنظَّفُ ويتطيَّبُ ، ويستعدُّ للقاءِ الإخوانِ بذلكَ ، وينوي التبرُّكَ بمَنْ هنالكَ مِنَ الأحياءِ والأمواتِ ، ويزورُهُم .

روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَرَجَ رَجُلٌ يَزُورُ أَخاً لَهُ فِي ٱللهِ ، فَأَرْصَدَ ٱللهُ بِمَدْرَجَتِهِ مَلَكاً وَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ أَزُورُ فُلَاناً ، قَالَ : أَلِقَرَابَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ أَلِنِعْمَةٍ لَهُ عِنْدَكَ تَشْكُرُهَا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فِيمَ تَزُورُهُ ؟ قَالَ : إِنِّي أُحِبُّهُ فِي ٱللهِ ، قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكَ أَنَّهُ يُحِبُّكَ بِحُبِّكَ إِيَّاهُ »(٥)

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٧)، ومسلم (١٣٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٣١١) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٢٥) ، والطبراني في « الدعاء » (٨٣٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (١٥٧٣) ، ومسلم (١٢٥٩/ ٢٢٧) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

(٤) رواه البخاري (٢٨١٣) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، وفي هامش (ح) : (الحميم : الماء الحارُّ ، والحميمة مثله ، وقد استحممت : إذا اغتسلت به ، هـٰذا هو الأصل ، ثمَّ صار كلُّ اغتسال استحماماً بأيِّ ماء كان حارّاً أو بارداً) .

(٥) رواه مسلم (٢٥٦٧) ، وأحمد (٢/ ٢٩٢) واللفظ له ، وأرْصَدَهُ : أقعدَهُ يرقُبُهُ ، =

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إِذَا عَادَ ٱلرَّجُلُ أَخَاهُ أَوْ زَارَهُ فِي ٱللهِ . . قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ لَهُ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ ٱلْجَنَّةِ مَنْزِلاً »[1]

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ ٱلْقُبُورِ فَزُورُوهَا[2] ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ ٱلآخِرَةَ »[3]

فيحصُلُ للفقيرِ فائدةُ الأحياءِ والأمواتِ بذلكَ

فإذا دَخَلَ البلدَ يبتدئُ بمسجدٍ مِنَ المساجدِ يُصلِّي فيهِ ركعتَينِ ، وإنْ قَصَدَ الجامعَ كانَ أَكْملَ وأَفضلَ ؛ فقد كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قَدِمَ دَخَلَ المسجدَ أوَّلاً وصلَّىٰ ركعتَينِ ، ثم دخلَ البيتَ[4] ، والرِّباطُ للفقيرِ بمنزلةِ البيتِ .

= والمَدْرَجةُ : الطريق ، سُمِّيت بذلك ؛ لأنَّ الناس يَدرُجون عليها ؛ أي : يمضون ويمشون .

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٨) ، وابن ماجه (١٤٤٣) ، وأحمد (٢/ ٣٤٤) ، وابن حبان (٢٩٦١) .

(٢) الأمر بعد النهي يدل على اهتمام بشأن المأمور به . من هامش (ح) .

(٣) رواه ابن ماجه (١٥٧١) ، والحاكم (١/ ٣٧٥) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه الترمذي (١٠٥٤) ، وأحمد (٥/ ٣٥٥) عن سيدنا بريدة الأسلمي رضي الله عنه ، ورواه أحمد (٣/ ٢٣٧) ، والحاكم (١/ ٣٧٥) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو في « مسلم » (١٩٧٧) عن سيدنا بريدة دون قوله : « فإنَّها تُذكِّر الآخرة » ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٣٧ـ٢٣٨)

(٤) رواه البخاري (٣٠٨٨) ، وأبو داود (٢٧٨١) ، وأحمد (٦/ ٣٨٨) عن سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه ، وليس فيها ذكر دخوله إلى البيت ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٣٨ـ٢٣٩) .

ثمَّ يَقصِدُ الرِّباطَ ؛ فقَصْدُهُ الرِّباطَ مِنَ السُّنَّةِ ؛ علىٰ ما رَوَيْناهُ عن طلحةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (كانَ الرجلُ إذا قَدِمَ المدينةَ وكانَ لهُ بها عَرِيفٌ . . يَنزِلُ علىٰ عَريفِهِ ، وإنْ لم يكنْ لهُ بها عَرِيفٌ . . نزلَ الصُّفَّةَ ، فكنتُ فيمَنْ نزلَ الصُّفَّةَ)[1]

فإذا دخلَ الرِّباطَ يمضي إلى الموضعِ الذي يُرِيدُ نزعَ الخُفِّ فيهِ ، فيَحُلُّ وَسَطَهُ وهوَ قائمٌ ، ثمَّ يُخرِجُ الخَرِيطةَ بيسارِهِ مِنْ كُمِّهِ اليسارِ ، ويَحُلُّ رأسَ الخَرِيطةِ باليمينِ ، ويُخرِجُ المَداسَ باليسارِ ، ثمَّ يضعُ المَداسَ على الأرضِ ، ويأخذُ المِيانْ بَنْدَ ويَلُفُّها في وَسَطِ الخَرِيطةِ ، ثمَّ يُخرِجُ خُفَّهُ اليسارَ ، ويضعُ قدمَهُ علىٰ ظهرِ المَداسِ ، ثمَّ يُخرِجُ خُفَّهُ اليمينَ[2] ، فإنْ كانَ على الوضوءِ يغسلُ قدمَيهِ بعدَ نَزْعِ الخُفِّ مِنْ ترابِ الطريقِ والعَرَقِ .

وإذا قَدِمَ على السَّجَّادةِ يَطْوي السَّجَّادةَ مِنْ جانبِ اليسارِ ، ويمسحُ قدمَيهِ بما انطوىٰ منها ، ثمَّ يستقبلُ القِبْلةَ ويُصلِّي ركعتَينِ ، ثمَّ يُسلِّمُ ، ويحفظُ القَدَمَ أنْ يطأَ بها موضعَ السجودِ مِنَ السَّجَّادةِ

وهٰذهِ الرُّسومُ الظاهرةُ التي استَحْسَنَها بعضُ الصُّوفيَّةِ . . لا يُنكَرُ علىٰ مَنْ يتقيَّدُ بذلكَ ؛ لأنَّهُ مِنِ استحسانِ الشيوخِ ، ونِيَّتُهُم في ذلكَ تقييدُ المُرِيدِ في كلِّ شيءٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ ؛ ليكونَ أبداً مُفتقِداً لحركاتِهِ ، غيرَ قادمٍ علىٰ حركةٍ بغيرِ قَصْدٍ وعزيمةٍ وأدبٍ .

ومَنْ أَخَلَّ مِنَ الفقراءِ بشيءٍ مِنْ ذلكَ . . لا يُنكَرُ عليهِ ، ما لم يُخِلَّ

---

(١) سبق مسنداً في (١ / ٣٥٦)

(٢) في (و) : (ويحل وسطه وهو قائم) بدل (ويضع قدمه . . .) .

بواجبٍ أو مندوبٍ ؛ لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما تَقَيَّدُوا بكثيرٍ مِنْ رُسُومِ المُتصوِّفةِ .

وكونُ الشُّبَّانِ يُطالِبُونَ الواردَ عليهِم بهٰذهِ الرُّسُومِ مِنْ غيرِ نَظَرٍ لهُم إلى النِّيَّةِ في الأشياءِ . غَلَطٌ ؛ فلعلَّ الفقيرَ يدخلُ الرِّباطَ غيرَ مُشمِّرٍ أكمامَهُ ، وقد كانَ في السفرِ لم يُشمِّرِ الأكمامَ ، فنيَّتُهُ ألَّا يتعاطىٰ ذلكَ لنَظَرِ الخَلْقِ ؛ حيثُ لم يُخِلَّ بمندوبٍ إليهِ شرعاً

وكونُ الآخَرِ يُشمِّرُ الأكمامَ يَقِيسُ ذلكَ علىٰ شَدِّ الوَسَطِ ، وشَدُّ الوَسَطِ مِنَ السُّنَّةِ كما ذَكَرْنا مِنْ شَدِّ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوساطَهُم في سفرِهِم بينَ المدينةِ ومكَّةَ[1] ، فتشميرُ الأكمامِ في معناهُ ؛ مِنَ الخِفَّةِ والارتفاقِ بهِ في المشيِ

فمَنْ كانَ مشدودَ الوَسَطِ مُشمِّراً . يدخلُ الرِّباطَ كذلكَ ، ومَنْ لم يكنْ في السفرِ مشدودَ الوَسَطِ ، أو كانَ راكباً لم يَشُدَّ وَسَطَهُ . فمِنَ الصِّدْقِ أنْ يدخلَ الرِّباطَ كذلكَ ، ولا يتعمَّدَ شدَّ الوَسَطِ وتشميرَ الأكمامِ لنظرِ الخَلْقِ ؛ فإنَّهُ تكلُّفٌ ونَظَرٌ إلى الخَلْقِ ، ومَبْنى التَّصَوُّفِ على الصِّدْقِ ، وسقوطِ نَظَرِ الخَلْقِ .

وممَّا يُنكَرُ على المُتصوِّفةِ : أنَّهُم إذا دخلُوا الرِّباطَ لا يَبتدِئُونَ بالسلامِ ، ويقولُ المُنكِرُ إنَّ هٰذا خلافُ المندوبِ ؛ فلا ينبغي للمُنكِرِ أنْ يُبادِرَ إلى الإنكارِ دونَ أنْ يعلمَ مقاصدَهُم فيما اعتمدُوهُ .

---

(١) انظر (١/٤٠٩) .

وتركُهُمُ السلامَ يحتملُ وجوهاً :

أحدُها : أنَّ السلامَ اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالىٰ ، وقد روىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : مَرَّ رجلٌ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يبولُ ، فسلَّمَ عليهِ ، فلم يَرُدَّ عليهِ[1] ، حتىٰ كادَ الرجلُ أنْ يتوارىٰ ، فضَرَبَ بيدِهِ على الحائطِ ومَسَحَ بها وجهَهُ ، ثمَّ ضَرَبَ ضربةً أُخرىٰ فمَسَحَ بها ذراعَيهِ ، ثمَّ رَدَّ على الرجلِ السلامَ ، وقالَ لهُ : « إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ ٱلسَّلَامَ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَىٰ طُهْرٍ »[2]

ورُوِيَ أنَّهُ لم يَرُدَّ عليهِ حتىٰ توضَّأَ ، ثمَّ اعتذرَ إليهِ وقالَ : « إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرَ ٱللهَ تَعَالَىٰ إِلَّا عَلَىٰ طُهْرٍ »[3]

وقد يكونُ جمعٌ مِنَ الفقراءِ مُصطحبِينَ في السفرِ ، وقد يَتَّفِقُ لأحدِهِم حَدَثٌ ، فلو سَلَّمَ المُتوضِّئُ وأَمْسَكَ المُحدِثُ . . ظَهَرَ حالُهُ ، فيتركُ السلامَ حتىٰ يتوضَّأَ مَنْ يتوضَّأُ ويغسلَ قدمَهُ مَنْ يغسلُ ؛ سَتْراً للحالِ علىٰ مَنْ أَحْدَثَ ، حتىٰ يكونَ سلامُهُم على الطهارةِ ؛ اقتداءً برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(١) في (أ ، ز ، ح) : (فلم يرد جوابه عليه)

(٢) رواه أبو داود (٣٣٠) ، والدارقطني (٦٧٦) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٧٧٨٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٢١٥) ، وقال أبو داود : (لم يُتابَعْ محمد بن ثابت في هـٰذه القصة علىٰ « ضربتين » عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ، ورووه فعلَ ابن عمر) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٤١) .

(٣) رواه أبو داود (١٧) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٣٤) ، وابن ماجه (٣٥٠) ، وأحمد (٤/ ٣٤٥) عن سيدنا المهاجر بن قنفذ رضي الله عنهما

وقد يكونُ بعضُ المُقيمينَ أيضاً علىٰ غيرِ طهارةٍ ، فيستعدُّ لجوابِ السلامِ أيضاً بالطهارةِ ؛ لأنَّ السلامَ اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالىٰ .

وهـٰذا مِنْ أَحْسنِ ما يُذكَرُ مِنَ الوجوهِ في ذلكَ

ومنها : أنَّهُ إذا قَدِمَ يُعانِقُهُ الإخوانُ ، وقد يكونُ معَهُ مِنْ آثارِ السفرِ والطريقِ ما يُكرَهُ ، فيستعدُّ بالوضوءِ والنظافةِ ، ثمَّ يُسلِّمُ ويُعانِقُهُم .

ومنها : أنَّ جَمْعَ الرِّباطِ أربابُ مُراقَبةٍ وأحوالٍ ، فلو هَجَمَ عليهِم بالسلامِ قد ينزعجُ منهُ مُراقِبٌ ويتشوَّشُ مُحافِظٌ ، والسلامُ يتقدَّمُهُ استئناسٌ بدخولِهِ واشتغالِهِ بغَسْلِ القَدَمِ والوضوءِ والصلاةِ ركعتَينِ ، فيتأهَّبُ الجَمْعُ لهُ كما يتأهَّبُ لهُم بعدَ سابقةِ الاستئناسِ ، وقد قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟﴾ [النور : ٢٧] ، واستئناسُ كلِّ قومٍ علىٰ ما يَليقُ بحالِهِم

ومنها : أنَّهُ لم يدخلْ علىٰ غيرِ بيتِهِ ، ولا هوَ بغريبٍ منهُم ، بل هم إخوانُهُ وأُلَّافُهُ بالنسبةِ المعنويَّةِ الجامعةِ لهُم في طريقٍ واحدٍ ، والمَنزِلُ مَنزِلُهُ ، والمَوضِعُ مَوضِعُهُ ، فيرى البركةَ في استفتاحِ المَنزِلِ بمُعاملةِ اللهِ تعالىٰ قبلَ مُعاملةِ الخَلْقِ(١)

وكما يُمهَّدُ عُذرُهُم في تَرْكِ السلامِ . . ينبغي لهُم ألَّا يُنكِرُوا علىٰ مَنْ يدخلُ ويبتدئُ بالسلامِ ، فكما أنَّ مَنْ تَرَكَ السلامَ لهُ نيةٌ صالحةٌ . . فالذي سَلَّمَ لهُ أيضاً نيةٌ صالحةٌ .

وللقوم آدابٌ وَرَدَ بها الشرعُ ، ومنها آدابٌ استَحْسَنَها شيوخُهُم ، فممَّا

---

(١) كما كان يفعلُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم من الافتتاح بالصلاة في المسجد قبل دخول المنزل . من هامش (ح) .

وَرَدَ بِهِ الشرعُ : ما ذَكَرْنا مِنْ شَدِّ الوَسَطِ والعصا والرَّكْوةِ ، والابتداءِ باليمينِ في لُبْسِ الخُفِّ وفي نَزْعِهِ باليسارِ[١]

ورویٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إِذَا ٱنْتَعَلْتُمْ فَٱبْدَؤُوا بِٱلْيَمِينِ ، وَإِذَا خَلَعْتُمْ فَٱبْدَؤُوا بِٱلْيَسَارِ ، وَٱخْلَعْهُمَا جَمِيعاً ، وَأَنْعِلْهُمَا جَمِيعاً »[٢]

ورویٰ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يخلعُ اليُسْرىٰ قبلَ اليُمْنىٰ ، ويَلْبَسُ اليُمْنىٰ قبلَ اليُسْرىٰ[٣]

وبَسْطُ السَّجَّادةِ وَرَدَتِ بهِ السُّنَّةُ ، وقد ذَكَرْناهُ[٤] ، وكونُ أحدِهِم لا يجلسُ علىٰ سَجَّادةِ الآخرِ إلا بإذنِهِ . . فمشروعٌ ومسنونٌ ، وقد وَرَدَ في حديثٍ طويلٍ : « لَا يَؤُمُّ ٱلرَّجُلُ ٱلرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا فِي أَهْلِهِ ، وَلَا يَجْلِسُ عَلَىٰ تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ »[٥]

وإذا سَلَّمَ على الإخوانِ يُعانِقُهُم ويُعانِقُونَهُ ؛ فقد رویٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : (لمَّا قَدِمَ جعفرٌ مِنْ أرضِ الحَبَشَةِ . . عانقَهُ النبيُّ

---

(١) انظر (١/ ٤٠٧ـ ٤١١) .

(٢) رواه البخاري (٥٨٥٥) ، ومسلم (٢٠٩٧) .

(٣) انظر « عواطف اللطائف » رقم : (١٣٠) .

(٤) انظر (١/ ٣٥٨) .

(٥) رواه مسلم (٦٧٣) عن سيدنا أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه ، والتَّكْرِمةُ : الفِراش ونحوه ممَّا يُبسَط لصاحب المنزل ويُخَصُّ به ، وفي (ي) : (لا يُؤمَّر الرجل) بدل (لا يؤمُّ الرجلُ الرجلَ) ، وفي نسخة علىٰ هامش (و) : (لا يَؤُمَّنَّ) بدل (لا يؤم) ، وفي نسخة أشار إليها في (أ) : (علىٰ سجَّادته) بدل (علىٰ تكرمته)

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[1] ، وإنْ قبَّلَهُم فلا بأسَ بذلكَ ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قَدِمَ جعفرٌ قَبَّلَ بينَ عينَيهِ وقالَ : « مَا أَنَا بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَسَرَّ مِنِّي بِقُدُومِ جَعْفَرٍ »[2]

ويُصافِحُ إخوانَهُ ؛ فقد قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قُبْلَةُ ٱلْمُسْلِمِ أَخَاهُ ٱلْمُصَافَحَةُ »[3]

وروىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يَلْقَىٰ صديقَهُ وأخاهُ أَيَنْحَني لهُ ؟ قالَ « لَا » ، قيلَ يلتزِمُهُ ويُقبِّلُهُ ؟ قالَ « لَا » ، قيلَ : فيُصافِحُهُ ؟ قالَ : « نَعَمْ »[4]

ويُستحَبُّ للفقراءِ المُقيمينَ في الرِّباطِ أنْ يتلقَّوُا الفقيرَ بالتَّرْحيبِ ؛ روىٰ عكرمةُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ جِئْتُهُ : « مَرْحَباً بِٱلرَّاكِبِ ٱلْمُهَاجِرِ » مَرَّتَينِ[5]

---

(1) انظر التخريج الآتي .

(2) رواه الحاكم (٣/ ٢١١) ، ورواه أبو داود (٥٢٢٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٢٤٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ١٠١) مرسلاً عن الشَّعْبي رحمه الله تعالىٰ .

(3) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٥٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ٢٤٢) ، والديلمي في « الفردوس » (٤٦٤٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(4) رواه الترمذي (٢٧٢٨) ، وابن ماجه (٣٧٠٢) ، وأحمد (٣/ ١٩٨) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه

(5) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/ ٣٧٣ـ٣٧٤) ، ورواه الترمذي (٢٧٣٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/ ٣٧٣) دون تكرار الترحيب ، والحاكم (٣/ ٢٤٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٤٩٧) مُكرَّراً ثلاث مرات ، وورد الترحيب=

وإنْ قامُوا إليهِ فلا بأسَ ، وهوَ مسنونٌ ؛ رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قامَ لجعفرٍ يومَ قُدُومِهِ[1]

ويُستحَبُّ للخادمِ أنْ يُقدِّمَ لهُ الطعامَ ؛ روىٰ لَقِيطُ بنُ صَبِرَةَ قالَ : وَفَدْنا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلم نُصادِفْهُ في مَنزِلِهِ ، وصادَفْنا عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فأَمَرَتْ لنا بالخَزِيرةِ فصُنِعَتْ لنا ، وأُتِينا بقِناعٍ فيهِ تمرٌ - والقِناعُ : الطَّبَقُ[2] - فأَكَلْنا ، ثمَّ جاءَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ « أَصَبْتُمْ شَيْئاً ؟ » ، قُلْنا : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3]

ويُستحَبُّ للقادمِ أنْ يُقدِّمَ للفقراءِ شيئاً لحَقِّ القُدُومِ ؛ رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قَدِمَ المدينةَ نَحَرَ جَزُوراً[4]

وكراهيتُهُم لقُدُومِ القادمِ بعدَ العصرِ وجهُهُ مِنَ السُّنَّةِ : مَنْعُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن طُرُوقِ الليلِ[5] ، والصُّوفيَّةُ بعدَ العصرِ يستعدُّونَ لاستقبالِ

= مطلقاً في أكثرَ من حديث ؛ ومنها : ما رواه البخاري (٦١٧٦) ، ومسلم (١٧/ ٢٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٤٦ـ٢٤٧) .

(١) سبق تخريجه قريباً

(٢) من عُسُب النخل .

(٣) رواه أبو داود (١٤٢) ، والحاكم (٤/ ١١٠) ، وفيه : (بحريرة) بدل (بالخزيرة) ، وبنحوه النسائي في « الكبرىٰ » (٦٦٦٥) ، وأحمد (٤/ ٣٣) ، وفي (د ، هـ) : (بالحريرة) ، والخَزِيرةُ : لحم يُقطَّع صغاراً ويُصَبُّ عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذُرَّ عليه الدقيق ، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة ، وقيل هي حساء من دقيق ودَسَم ، وقيل : إذا كان من دقيق فهي حَرِيرةٌ ، وإذا كان من نُخالة فهو خَزِيرةٌ .

(٤) رواه البخاري (٣٠٨٩) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

(٥) كما سيأتي بعد قليل من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

الليلِ بالطهارةِ والانكبابِ على الأذكارِ والاستغفارِ

رَوىٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا قَدِمَ أَحَدُكُمْ مِنْ سَفَرٍ فَلَا يَطْرُقَنَّ أَهْلَهُ لَيْلاً »(١)

وروىٰ كعبُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ لا يَقْدَمُ مِنْ سفرٍ إلا نهاراً في الضُّحىٰ(٢)

فيَستحِبُّونَ القُدُومَ في أوَّلِ النهارِ ، فإنْ فاتَ مِنْ أوَّلِ النهارِ فقد يَتَّفِقُ تعويقٌ مِنْ ضَعْفِ بعضِهِم في المشيِ أو غيرِ ذلكَ ، فيُعذَرُ الفقيرُ بقيَّةَ النهارِ إلى العصرِ ؛ لاحتمالِ التعويقِ ، فإذا صارَ العصرُ يُنسَبُ إلىٰ تقصيرِهِ في الاهتمامِ بالسُّنَّةِ وقُدُومِ أوَّلِ النهارِ ؛ فلذلكَ يكرهونَ الدخولَ بعدَ العصرِ ، واللهُ أعلمُ .

فإذا صارَ العصرُ يُؤخِّرُ القُدُومَ إلى الغَدِ ؛ ليكونَ عاملاً بالسُّنَّةِ في القدومِ ضَحْوةً .

وأيضاً فيهِ معنىً آخَرُ ؛ وهوَ أنَّ الصلاةَ بعدَ العصرِ مكروهةٌ ، ومِنَ الأدبِ أنْ يُصلِّيَ القادمُ ركعتَينِ ؛ فلذلكَ يكرهونَ القُدُومَ بعدَ صلاةِ العصرِ

وقد يكونُ مِنَ الفقراءِ القادمينَ مَنْ يكونُ قليلَ الدُّرْبَةِ بدخولِ الرِّباطِ وينالُهُ دَهْشَةٌ ؛ فمِنَ السُّنَّةِ : التَّقَرُّبُ إليهِ ، والتودُّدُ وطَلاقةُ الوجهِ ؛ حتىٰ ينبسطَ وتذهبَ عنهُ الدَّهْشَةُ ؛ ففي ذلكَ فضلٌ كثيرٌ(٣)

---

(١) رواه البخاري (٥٢٤٤) ، ومسلم (٧١٥/ ١٨٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٠٩٨) ، وأحمد (٣/ ٣٩١) .

(٢) رواه البخاري (٤٦٧٧) ، ومسلم (٧١٦) .

(٣) في (ب) : (كبير) .

رویٰ أبو رِفاعةَ قالَ أَتَيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يَخطُبُ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ رجلٌ غريبٌ جاءَ يسألُ عن دِينِهِ ، لا يدري ما دِينُهُ ، قالَ : فأَقبلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليَّ وتَرَكَ خُطْبَتَهُ ، ثمَّ أتىٰ بكُرْسِيٍّ قوائمُهُ مِنْ حديدٍ ، فقعدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِ ، ثمَّ جَعَلَ يُعلِّمُني ممَّا علَّمَهُ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ أتىٰ خُطْبَتَهُ وأتمَّ آخِرَها(١)

فأَحْسَنُ أخلاقِ الفقراءِ : الرِّفْقُ بالمسلمينَ ، واحتمالُ المكروهِ منهُم مِنَ المسموعِ والمَرْئِيِّ .

وقد يدخلُ فقيرٌ بعضَ الرُّبُطِ ، ويُخِلُّ بشيءٍ مِنْ مراسمِ المُتصوِّفةِ ، فيُنْهَرُ ويُخرَجُ ، وهٰذا خطأٌ كبيرٌ ؛ فقد يكونُ خَلْقٌ مِنَ الصالحينَ والأولياءِ لا يعرفُونَ هٰذا الترسُّمَ الظاهرَ ، ويَقصِدُونَ الرِّباطَ بنيَّةٍ صالحةٍ ، فإذا استُقبِلُوا بالمكروهِ يُخشىٰ أنْ يتشوَّشَ بواطنُهُم مِنَ الأذىٰ ، ويدخلَ على المُنكِرِ عليهِم ضَرَرٌ في دِينِهِ ودُنْياهُ ، فلْيُحذَرْ ذلكَ ، ويُنظَرْ إلىٰ أخلاقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وما كانَ يعتمدُهُ معَ الخَلْقِ مِنَ المُداراةِ والرِّفْقِ

وقد صَحَّ أنَّ أعرابياً دَخَلَ المسجدَ وبالَ ، فأمرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتىٰ أُتِيَ بذَنُوبٍ مِنَ الماءِ ، فصُبَّ علىٰ ذلكَ الموضعِ ، ولم يَنْهَرِ الأعرابيَّ ، بل رَفَقَ بهِ ، وعرَّفَهُ الواجبَ بالرِّفْقِ واللِّينِ(٢)

---

(١) رواه مسلم (٨٧٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٢١) ، ومسلم (٢٨٤/ ٩٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، والبخاري (٢٢٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والذَّنوب الدَّلو المملوءة ماءً .

والفَظَاظةُ والغِلَظُ والتَّسَلُّطُ على المسلمينَ بالقولِ والفعلِ . . مِنَ النفوسِ الخبيثةِ ، وهوَ ضدُّ حالِ المُتصوِّفةِ .

ومَنْ دَخَلَ الرِّباطَ مِمَّنْ لا يَصلُحُ للمُقامِ بِهِ رأساً . . يُصرَفُ مِنَ الموضعِ علىٰ ألْطفِ وجهٍ بعدَ أنْ يُقدَّمَ لهُ طعامٌ ، ويُحسَّنَ لهُ كلامٌ ، فهـٰذا الذي يَليقُ بسُكَّانِ الرُّبُطِ .

وما يعتمدُهُ الفقراءُ مِنْ تغميزِ القادمِ . . فخُلُقٌ حَسَنٌ ومعاملةٌ صالحةٌ وَرَدَتْ بها السُّنَّةُ ؛ روىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ دخلتُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وغُلامٌ لهُ حَبَشِيٌّ يَغمِزُ ظَهْرَهُ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ ما شأنُكَ ؟ فقالَ : « إِنَّ ٱلنَّاقَةَ ٱقْتَحَمَتْ بِي »(١)

وقد يَحسُنُ الرِّضا مِمَّنْ يُغمَّزُ بذلكَ في وقتِ تَعَبِهِ وقُدُومِهِ مِنَ السفرِ ، وأمَّا مَنْ يتَّخِذُ ذلكَ عادةً ويُحِبُّ التغميزَ ، ويستجلبُ بِهِ النومَ ، ويُساكِنُهُ حتىٰ لا يفوتَهُ . . فلا يَليقُ بحالِ الفقراءِ وإنْ كانَ مُباحاً في الشرعِ .

وكانَ بعضُ الفقراءِ إذا استرسلَ في التغميزِ واستلذَّهُ واستدعاهُ . . يحتلمُ ، ويرىٰ ذلكَ الاحتلامَ عقوبةَ استرسالِهِ في التغميزِ ، ولأربابِ العزائمِ أمورٌ لا يَسَعُهُم فيها الرُّكُونُ إلى الرُّخَصِ .

ومِنْ آدابِ الفقيرِ إذا استقرَّ وقَعَدَ بعدَ قُدُومِهِ : ألَّا يبتدئَ بالكلامِ دونَ أنْ يُسأَلَ .

ويُستحَبُّ أنْ يمكثَ ثلاثةَ أيَّامٍ لا يَقصِدُ زيارةً ومَشْهَداً وغيرَ ذلكَ مِمَّا هوَ

---

(١) رواه البزار في « المسند » (٢٨٢) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٠٧٧) ، وأبو نعيم في « الطب النبوي » (٤١٩) .

مقصودَهُ مِنَ المدينةِ . . حتىٰ يذهبَ عنهُ وَعْثاءُ السفرِ ، ويعودَ باطنُهُ إلىٰ هيئتِهِ ؛ فقد يكونُ بالسفرِ وعوارضِهِ تَغَيَّرَ باطنُهُ وتَكَدَّرَ ، حتىٰ يجتمعَ في ثلاثةِ أيَّامٍ هَمُّهُ ، وينصلحَ باطنُهُ ، ويستعدَّ للقاءِ المشايخِ والزِّياراتِ بتنويرِ الباطنِ ؛ فإنَّ باطنَهُ إذا كانَ مُنوَّراً يستوفي حظَّهُ مِنَ الخيرِ مِنْ كلِّ شيخٍ وأخٍ يزورُهُ .

وقد كنتُ أسمعُ شيخَنا رحمَهُ اللهُ يُوصِي الأصحابَ ويقولُ : (لا تُكلِّمُوا أهلَ هـٰذا الطريقِ إلَّا في أَصْفىٰ أوقاتِكُم) .

وهـٰذا فيهِ فائدةٌ كبيرةٌ ؛ فإنَّ نورَ الكلامِ علىٰ قَدْرِ نورِ القلبِ ، ونورَ السمعِ علىٰ قَدْرِ نورِ القلبِ .

فإذا دَخَلَ علىٰ شيخٍ أو أخٍ وزارَهُ . . ينبغي أنْ يستأذنَهُ إذا أرادَ الانصرافَ ؛ فقد روىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا زَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَجَلَسَ عِنْدَهُ . . فَلَا يَقُومَنَّ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنَهُ »[1]

وإنْ نوىٰ أنْ يُقِيمَ[2] أيَّاماً وفي وقتِهِ سَعَةٌ ، ولنفسِهِ إلى البَطَالةِ وتَرْكِ العملِ شوقٌ[3] . . يطلبُ خدمةً يقومُ بها[4] وإنْ كانَ دائمَ العملِ لربِّهِ ، فكفىٰ

(١) رواه الديلمي في « الفردوس » (١٢٠٠) ، وابن طاهر المقدسي في « صفوة التصوف » (٥٤٥) .

(٢) زاد في نسخة علىٰ هامش (د) : (في الرباط) .

(٣) في (أ) : (شَوْف) ؛ أي : تَشَوُّف ، كما هو في (و ، ز) ، والتشوُّف : التطلُّعُ ، وفي (ي) : (شرف) .

(٤) زاد في نسخة علىٰ هامش (أ) : (مقام العبادة) .

بالعبادةِ شُغْلاً ؛ لأنَّ الخِدْمةَ لأهلِ العبادةِ تقومُ مَقامَ العبادةِ

ولا يخرجُ مِنَ الرِّباطِ إلَّا بإذنِ المُتقدِّمِ فيهِ ، ولا يفعلُ شيئاً دونَ أنْ يأخذَ رَأْيَهُ فيهِ

فهٰذهِ جُمَلُ أعمالٍ يعتمدُها الصُّوفيَّةُ وأربابُ الرُّبُطِ ، واللهُ تعالىٰ بفضلِهِ يَزيدُهُم توفيقاً وتأييداً ، واللهُ أعلمُ[1]

❁ ❁ ❁

---

(١) في هامش (ب) : (بلغ قراءةً ، بلغ مقابلةً) ، وفيه : (بلغ السماع على الشيخ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة عبد السلام) ، وفيه : (بلغ على الشيخ الحافظ جلال الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام بن داود المقدسي) .

الباب التاسع عشر

في حال الصوفي المتسبب

اختلفتْ أحوالُ الصُّوفيّةِ في الوقوفِ معَ الأسبابِ ، والإعراضِ عنِ الأسبابِ .

فمنهُم : مَنْ كانَ على الفُتُوحِ لا يَركَنُ إلىٰ معلومٍ ، ولا يتسبَّبُ بكسبٍ ولا سؤالٍ

ومنهُم : مَنْ كانَ يكتسبُ

ومنهُم : مَنْ كانَ يسألُ في وقتِ فاقتِهِ .

ولهُم في كلٍّ ذلك أدبٌ وحدٌّ يُراعُونَهُ ولا يتعدَّوْنَهُ(١)

وإذا كانَ الفقيرُ يَسُوسُ نَفْسَهُ بالعلمِ يأتيهِ الفهمُ مِنَ اللهِ تعالىٰ في الذي يدخلُ فيهِ مِنْ سببٍ أو تَرْكِ سببٍ . . لا ينبغي للفقيرِ أنْ يسألَ مهما أَمْكَنَ ؛ فقد حَثَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ تَرْكِ السؤالِ بالترغيبِ والترهيبِ

---

(١) ومن المناسب إيرادُهُ ها هنا : ما سُئل عنه المُؤلِّف ؛ وهو أنَّهُ ما قولُكُم في فقير لا يُبالي ممَّا أكل ولا يَرُدُّ شيئاً ، من غير فاقةٍ ولا مجاهدة ولا رياضة ولا ضرورة .

فأجاب : بأنَّهُ لا يجوز له ذلك من غير ضرورة ، والصادقُ في فقره يأنفُ من ذلك ؛ لوجود غنائه بالله ، وأمَّا إذا لم يُبالِ ما أكل ولم يتورَّع في مطعمه . . لم يُبالِ اللهُ تعالىٰ أن يُهلِكَهُ ، أعاذنا الله من نقمه . « أجوبة السهروردي » (ق/ ٢٦)

فأمَّا الترغيبُ فما روىٰ ثَوْبانُ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يَضْمَنُ لِي وَاحِدَةً أَتَقَبَّلُ لَهُ بِٱلْجَنَّةِ » ، قالَ ثَوْبانُ : قلتُ : أنا ، قالَ : « لَا تَسْأَلِ ٱلنَّاسَ شَيْئاً » ، فكانَ ثَوْبانُ تسقطُ عِلَاقةُ سَوْطِهِ فلا يأمرُ أحداً يُناوِلُهُ ، وينزلُ هوَ ويأخذُها[1]

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلاً فَيَحْتَطِبَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ، فَيَأْكُلَ وَيَتَصَدَّقَ . . خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلاً فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ ٱلْيَدَ ٱلْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ ٱلْيَدِ ٱلسُّفْلَىٰ »[2]

(٥٤) ـ أخبرَنا الشيخُ الصالحُ أبو زُرْعةَ طاهرُ بنُ أبي الفضلِ الحافظِ المَقْدِسيِّ ، قالَ : أخبرَني والدي ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ الصَّرِيفِينيُّ ببغدادَ[3] ، قالَ : أخبرَنا أبو القاسمِ عُبَيدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ[4] ، قالَ : حدَّثَنا عبدُ اللهِ بنُ محمَّدِ بنِ عبدِ العزيزِ[5] ، قالَ أخبرَنا عليُّ بنُ الجَعْدِ ، قالَ

---

(١) رواه أبو داود (١٦٤٣) ، وابن ماجه (١٨٣٧) ، وأحمد (٥/ ٢٨١) ، وفي (هـ ، ح) ونسخة علىٰ هامش (د) : (أتكفَّل) بدل (أتقبَّل) ، وكلاهما مروي .

(٢) رواه البخاري (١٤٧٠) ، ومسلم (١٠٤٢) ، واللفظ له .

(٣) هو الإمام الثقة الخطيب عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن هَزَارْمَرْدَ (ت ٤٦٩هـ) ، والصَّرِيفِيني : نسبة إلىٰ (صَرِيفِينَ) قرية كبيرة غنَّاء شَجْراء في سواد العراق قرب عُكْبَراء . انظر « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٣٣٠) ، و« معجم البلدان » (٣/ ٤٠٣) .

(٤) في (ب ، د ، و) : (عبد الله) بدل (عبيد الله) ، والصواب المثبت ، وأبو القاسم : هو الإمام الثقة المسند ابن حَبَابَة ـ نسبة إلىٰ أحد أجداده ـ البغدادي المَتُّوثي البزّاز (ت ٣٨٩هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ٥٤٨) .

(٥) هو أبو القاسم البغوي الإمامُ الحُجَّة المُعمَّر المسند (ت ٣١٧هـ) ، وهو صاحب كتاب « الجَعْديات » الذي جمعه من مسند شيخه الإمام الثبت أبي الحسن علي بن الجَعْد =

أخبرَنا شُعْبَةُ ، عن أبي جَمْرةَ[1] ، قالَ : سمعتُ هلالَ بنَ [حِصْنٍ] قالَ[2] : أتيتُ المدينةَ فنزلتُ دارَ أبي سعيدٍ ، فضمَّني وإيَّاهُ المجلسُ ، فحدَّثَ أنَّهُ أصبحَ ذاتَ يومٍ وليسَ عندَهُم طعامٌ ، فأصبحَ وقد عَصَبَ علىٰ بطنِهِ حَجَراً مِنَ الجوعِ ، فقالتْ ليَ امرأتي : ائتِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقد أتاهُ فلانٌ فأعطاهُ ، وأتاهُ فلانٌ فأعطاهُ .

قالَ : فأَتَيتُهُ وقلتُ : ألتمسُ شيئاً ، فذهبتُ أطلبُ ، فانتهَيتُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يَخطُبُ ويقولُ : « مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفُّهُ ٱللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ ٱللهُ ، وَمَنْ سَأَلَنَا شَيْئاً فَوَجَدْنَاهُ أَعْطَيْنَاهُ وَوَاسَيْنَاهُ ، وَمَنِ ٱسْتَعَفَّ عَنْهُ وَٱسْتَغْنَىٰ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّنْ سَأَلَنَا » .

قالَ : فرجعتُ وما سألتُهُ ، فرَزَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ[3] ؛ حتىٰ ما أعلمُ أهلَ بيتٍ مِنَ الأنصارِ أكثرَ أموالاً مِنَّا[4]

وأمَّا مِنْ حيثُ الترهيبُ والتحذيرُ : فقد رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

= الجوهري ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٤٤٠-٤٤٢) .

(١) في غالب النسخ : (أبو حمزة) ، والصواب المثبت ، وأبو جمرة : هو نصر بن عمران الضُّبَعي البصري أحد الأئمة الثقات (ت ١٢٧هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٢٤٣)

(٢) في النسخ : (حصين) ، والتصويب من المصادر الآتية ، وهو أخو بني مرَّة بن عباد البصري . انظر « الجرح والتعديل » (٩/ ٧٣) .

(٣) في بعض النسخ : (فرزقني الله) بدل (فرزق الله) ، والمثبت موافق لمصادر تخريجه .

(٤) صفوة التصوف (٢٩٠) ، الجعديات (١٣٢١) ، ورواه أحمد (٣/ ٤٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٠٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٢٢٨) ، ورواه بنحوه مختصراً البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٥٥-٢٥٦) .

عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « لَا تَزَالُ ٱلْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّىٰ يَلْقَى ٱللهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ »(١)

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيْسَ ٱلْمِسْكِينُ ٱلَّذِي تَرُدُّهُ ٱلْأُكْلَةُ وَٱلْأُكْلَتَانِ ، وَٱلتَّمْرَةُ وَٱلتَّمْرَتَانِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمِسْكِينَ ٱلَّذِي لَا يَسْأَلُ ٱلنَّاسَ ، وَلَا يُفْطَنُ بِمَكَانِهِ فَيُعطَىٰ »(٢)

هـٰذا حالُ الفقيرِ الصادقِ ، والمُتصوِّفُ المُحقِّقُ لا يسألُ الناسَ شيئاً

ومنهم : مَنْ يلزمُ الأدبَ حتىٰ يُؤدِّيَهُ إلىٰ حالٍ يستحيي مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ يسألَهُ شيئاً مِنْ أمرِ الدنيا ، حتىٰ إذا هَمَّتِ النفسُ بالسؤالِ تَرُدُّهُ الهَيبةُ ، ويرى الإقدامَ على السؤالِ جُرْأةً ، فيُعطِيهِ اللهُ تعالىٰ عندَ ذلكَ مِنْ غيرِ سؤالٍ

كما نُقِلَ عن إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السلامُ أنَّهُ جاءَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ وهوَ في الهواءِ قبلَ أنْ يَصِلَ إلى النارِ ، فقالَ لهُ : هَلْ لكَ مِنْ حاجةٍ ؟ فقالَ : أمَّا إليكَ فلا ، فقالَ لهُ : فاسألْ ربَّكَ ، فقالَ حَسْبي مِنْ سؤالي عِلْمُهُ بحالي(٣)

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٤) ، ومسلم (١٠٤٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، والمُزْعة : القطعة من اللحم ، وفي (د) : (مضغة) بدل (مزعة) ، وفي هامش (ح) : (وهو كنايةٌ عن ذهاب وجهه ووَجَاهته عند الله ، [ولم] يبق في باطنه الاعتمادُ علىٰ رزَّاقية الله تعالىٰ ، حتىٰ أدام السؤالَ عن الخلق) .

(٢) رواه البخاري (١٤٧٩) ، ومسلم (١٠٣٩) ، والأُكْلة : اللُّقمة .

(٣) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (١٨/ ١٥٢) ، والبغوي في « تفسيره » (٥/ ٣٢٧) ، وروى البخاري (٤٥٦٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : (حسبنا اللهُ ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ، وقالها محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم حين قالوا : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا=

وقد يَضعُفُ عن مثلِ هٰذا ، فيسألُ اللهَ تعالىٰ عبوديَّةً ولا يرىٰ سؤالَ المخلوقين ، فيسوقُ اللهُ تعالى القِسْمَ إليهِ مِنْ غيرِ سؤالِ مخلوقٍ .

بَلَغَنا عن بعضِ الصالحينَ أنَّهُ كانَ يقولُ إذا وجدَ الفقيرُ نَفْسَهُ مُطالِبةً بشيءٍ . . لا تخلو تلكَ المطالبةُ : إمَّا رزقٌ يريدُ اللهُ أنْ يسوقَهُ إليهِ ، فتتنبَّهُ النَّفْسُ لهُ ؛ فقد تتطلَّعُ نفوسُ بعضِ الفقراءِ إلىٰ ما سوفَ يحدثُ ، وكأنَّها تُخبِرُ بما يكونُ[١] ، وإمَّا أنْ يكونَ ذلكَ عقوبةً لذنبٍ وُجِدَ منهُ[٢]

فإذا وَجَدَ الفقيرُ ذلكَ ، وألحَّتِ النَّفْسُ بالمُطالبةِ . . فَلْيَقُمْ ولْيُسْبغِ الوضوءَ ، ويُصلِّيَ ركعتَينِ ويقولَ : يا ربِّ ؛ إنْ كانتْ هٰذهِ المُطالَبةُ عقوبةَ ذنبٍ . . فأستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ ، وإنْ كانَ رِزْقٌ قدَّرتَهُ لي . . فعَجِّلْ وصولَهُ إليَّ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يسوقُهُ إليهِ إنْ كانَ رزقَهُ ، وإلَّا فيُذهِبُ المُطالَبةَ عن باطنِهِ

فشأنُ الفقيرِ : أنْ يُنزِلَ حوائجَهُ بالحقِّ ؛ فإمَّا أنْ يرزقَهُ الشيءَ أوِ الصبرَ ، أو يُذهِبَ ذلكَ عن قلبِهِ ؛ فللّٰهِ سبحانَهُ وتعالىٰ أبوابٌ مِنْ طريقِ الحِكْمةِ ، وأبوابٌ مِنْ طريقِ القُدْرةِ ، فإنْ فَتَحَ باباً مِنْ طريقِ الحِكْمةِ ، وإلَّا فيفتحُ باباً مِنْ طريقِ القُدْرةِ ، ويأتيهِ الشيءُ بخَرْقِ العادةِ ، كما كانَ يأتي مريمَ عليها

= ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣] ، وانظر « تنزيه الشريعة المرفوعة » (١/ ٢٥٠)

(١) فإن المُقدَّر إذا قَرُبَ زمانُ وقوعه . . تحسُّ النفسُ فيه إذا صارت لطيفة صافية . من هامش (ح) ، ويجوز أن يُقرأ (تخبر) بفتح الباء ، كما ضبط كذلك في (د ، هـ)

(٢) فإنَّ تهييجَ النفس للمطالبة وتحريكَها من غير سابقة تقدير ما تطلب . . عقوبةٌ من هامش (ح) .

السلامُ ؛ ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

حُكِيَ عن بعضِ الفقراءِ قالَ[١] جُعْتُ ذاتَ يومٍ ، وكانَ حالي ألَّا أسألَ ، فدخلتُ بعضَ المَحَالِّ ببغدادَ مُجتازاً مُتعرِّضاً ؛ لعلَّ اللهَ تعالىٰ يفتحُ لي علىٰ يدِ بعضِ عبادِهِ شيئاً ، فلم يُقدَّرْ ، فنِمْتُ جائعاً ، فأتاني آتٍ في منامي فقالَ لي اذهبْ إلىٰ موضعِ كذا ـ وعَيَّنَ الموضعَ ـ فثَمَّ خِرْقةٌ زَرْقاءُ فيها قُطَيعاتٌ أَخْرِجْها في مصالحِكَ .

فمَنْ تجرَّدَ عنِ المخلوقينَ وتفرَّدَ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ . فقد تفرَّدَ بغنيٍّ قادرٍ لا يُعجزُهُ شيءٌ ، يفتحُ عليهِ مِنْ أبوابِ حِكْمتِهِ وقُدْرتِهِ كيفَ شاءَ ، وأَوْلىٰ مَنْ سألَ نَفْسَهُ أنْ يسألَها الصبرَ الجميلَ ؛ فإنَّ الصادقَ تُجيبُهُ نَفْسُهُ

وحكىٰ شيخُنا رحمةُ اللهِ عليهِ : أنَّ ولدَهُ جاءَ إليهِ ذاتَ يومٍ وقالَ لهُ : أريدُ حَبَّةً[٢] ، قالَ فقلتُ لهُ : ما تَحضُرُ الحَبَّةُ[٣] ، وذكرَ شهوةً يَشْتريها بالحبَّةِ[٤] ، فقالَ : عن إِذْنِكَ أذهبُ وأستقرضُ الحَبَّةَ ، قالَ : فقلتُ نعمِ اسْتقرِضْها مِنْ نَفْسِكَ ؛ فهيَ أَوْلىٰ مَنْ أَقْرضَ

وقد نَظَمَ بعضُهُم هـٰذا المعنىٰ وقال[٥] : [من الطويل]

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَسْتَقْرِضَ ٱلْمَالَ مُنْفِقاً عَلَىٰ شَهَوَاتِ ٱلنَّفْسِ فِي زَمَنِ ٱلْعُسْرِ

---

(١) في (أ ، ز) : (الصالحين) بدل (الفقراء) .
(٢) الحَبَّةُ : سُدُسُ ثُمُن الدرهم .
(٣) في (د ، هـ ، ح ، ي) : (تحضرني) بدل (تحضر) .
(٤) في (ي) (وكان ذكر) بدل (وذكر)
(٥) الأبيات للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في « ديوانه » (ص٨٩)

فَسَلْ نَفْسَكَ ٱلإِنْفَاقَ مِنْ كَنْزِ صَبْرِهَا ... عَلَيْكَ وَإِرْفَاقاً إِلَىٰ زَمَنِ ٱلْيُسْرِ
فَإِنْ فَعَلَتْ كُنْتَ ٱلْغَنِيَّ وَإِنْ أَبَتْ ... فَكُلُّ مَنُوعٍ بَعْدَهَا وَاسِعُ ٱلْعُذْرِ

فإذا استنفدَ الفقيرُ الجُهْدَ مِنْ نَفْسِهِ ، وأَشْرفَ على الضَّعفِ ، وتحقَّقتِ الضرورةُ ، وسألَ مَوْلاهُ ولم يُقدِّرْ لهُ بشيءٍ ، ووقتُهُ يَضِيقُ عنِ الكسبِ مِنْ شُغْلِهِ بحالِهِ . . فعندَ ذلكَ يَقرَعُ بابَ السببِ ويسألُ ؛ فقد كانَ الصالحونَ يفعلُونَ ذلكَ عندَ فاقاتِهِم .

نُقِلَ عن أبي سعيدٍ الخَرَّازِ رحمةُ اللهِ عليهِ أَنَّهُ كانَ يَمُدُّ يدَهُ عندَ الفاقةِ ويقولُ : ثَمَّ شيءٌ للهِ ؟[1]

ونُقِلَ عن أبي جعفرٍ الحدَّادِ وكانَ أستاذاً للجُنيدِ رحمةُ اللهِ عليهِ أنَّهُ كانَ يخرجُ بينَ العِشاءَينِ ويسألُ مِنْ بابٍ أو بابَينِ ، ويكونُ ذلكَ معلومَهُ على قَدْرِ الحاجةِ بعدَ يومٍ أو يومَينِ[2]

ونُقِلَ عن إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمةُ اللهِ عليهِ أنَّهُ كانَ مُعتكِفاً بجامعِ البَصْرةِ مُدَّةً ، وكانَ يُفطِرُ في كلِّ ثلاثِ ليالٍ ليلةً ، وليلةَ إفطارِهِ يطلبُ مِنَ الأبوابِ .

ونُقِلَ عن سُفْيانَ الثَّوْريِّ أَنَّهُ كانَ يُسافِرُ مِنَ الحجازِ إلىٰ صنعاءِ اليمنِ ، ويسألُ في الطريقِ ، وقالَ : كنتُ أذكرُ لهُم حديثاً في الضِّيافةِ ، فيُقدَّمُ إليَّ الطعامُ ، فأتناولُ حاجتي ، وأتركُ ما يبقىٰ[3]

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٥٢٨)
(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٥٢٨)
(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٥٢٩) .

وقد وَرَدَ : (مَنْ جاعَ ولم يسألْ فماتَ . . دَخَلَ النارَ)[1]

ومَنْ عندَهُ عِلْمٌ ولهُ معَ اللهِ تعالىٰ حالٌ . . لا يُبتلىٰ بمثلِ هـٰذا[2] ، بل يسألُ بالعِلْمِ[3] ، ويُمسِكُ عنِ السؤالِ بالعِلْمِ[4]

وحكىٰ بعضُ مشايخِنا رحمَهُمُ اللهُ عن شخصٍ كانَ مُصِرّاً على المعاصي ، ثمَّ انتبهَ وتابَ وحَسُنَتْ توبتُهُ ، وصارَ لهُ حالٌ معَ اللهِ ، قالَ عزمتُ أنْ أَحُجَّ معَ القافلةِ ، ونَوَيتُ ألا أسألَ أحداً شيئاً ، وأكتفيَ بعِلْمِ اللهِ بحالي

قالَ : فبَقِيتُ أيّاماً في الطريقِ يفتحُ اللهُ تعالىٰ عليَّ الماءَ والزادَ في وقتِ الحاجةِ ، ثمَّ وَقَفَ الأمرُ ولم يفتحِ اللهُ تعالىٰ عليَّ بشيءٍ ، فجُعْتُ وعَطِشْتُ حتىٰ لم يَبْقَ لي طاقةٌ ، فضَعُفْتُ عنِ المَشْيِ ، وبَقِيتُ أتأخَّرُ عنِ القافلةِ قليلاً قليلاً حتىٰ مَرَّتِ القافلةُ ، فقلتُ في نَفْسي : هـٰذا الآنَ مِنِّي إلقاءُ النَّفْسِ إلى التَّهْلُكَةِ وقد مَنَعَ اللهُ تعالىٰ مِنْ ذلكَ ، وهـٰذهِ مسألةُ الاضطرارِ أسألُ ، فلمَّا هَمَمْتُ بالسؤالِ انبعثَ مِنْ باطني إنكارٌ لهـٰذهِ الحالةِ ، وقلتُ : عزيمةً عَقَدْتُها معَ اللهِ تعالىٰ لا أَنْقُضُها ، وهانَ عليَّ الموتُ دونَ نَقْضِ عزيمتي ، فقَصَدْتُ شجرةً وقَعَدتُ في ظِلِّها ، وطرحتُ رأسي استطراحاً للموتِ ، وذهبتِ القافلةُ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٩٠) عن سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ من قوله ، وورد مرفوعاً ما يخالفه . انظر « غنية العارف » (١/ ٢٦١)

(٢) في (ب ، ج ، د ، هـ ، و) : (يُبلىٰ) بدل (يُبتلىٰ) .

(٣) بأنْ يعلمَ أنَّ الحقَّ تعالىٰ يسوقُ إليه المُقدَّر ولا يُحوِجُهُ إلى السؤال . من هامش (ح) .

(٤) بأنْ يعلمَ أن الحقَّ تعالىٰ يريدُ منه ألا يُباشِرَ قانون الحكمة بطريق السؤال ، وتصغيرِ النفس والإذلال . من هامش (ح) .

فبينا أنا كذلكَ إذ جاءَني شابٌّ مُتقلِّدٌ بسيفٍ ، وحَرَّكَني ، فقُمْتُ وفي يدِهِ إداوةٌ فيها ماءٌ ، فقالَ لي : اشربْ ، فشَرِبتُ ، ثمَّ قَدَّمَ لي طعاماً وقالَ لي : كُلْ ، فأكلتُ ، ثمَّ قالَ لي : تريدُ القافلةَ ؟ فقلتُ لهُ : ومَنْ لي بالقافلةِ وقد عَبَرَتْ ؟ فقالَ لي : قُمْ ، وأَخَذَ بيدي ومشىٰ معي خَطَواتٍ ثمَّ قالَ لي : اجْلِسْ فالقافلةُ إليكَ تجيءُ ، فجلستُ ساعةً فإذا أنا بالقافلةِ ورائي مُتوجِّهةً إليَّ .

هـٰذا شأنُ مَنْ يُعامِلُ مَوْلاهُ بالصدقِ .

وذَكَرَ الشيخُ أبو طالبٍ المَكِّيُّ رحمَةُ اللهِ عليهِ أنَّ بعضَ الصُّوفيَّةِ أَوَّلَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَحَلُّ مَا أَكَلَ ٱلْمَرْءُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ »[1] . . أنَّهُ المسألةُ عندَ الفاقةِ .

وأنكرَ الشيخُ أبو طالبٍ هـٰذا التأويلَ مِنْ هـٰذا الصُّوفيِّ ، وذَكَرَ أنَّ جعفراً الخُلْديَّ رحمةُ اللهِ عليهِ كانَ يحكي هـٰذا التأويلَ عن شيخٍ مِنْ مشايخِ الصُّوفيَّةِ[2] .

ووَقَعَ لي واللهُ أعلمُ : أنَّ الشيخَ الصُّوفيَّ لم يُرِدْ بكَسْبِ اليدِ ما أنكرَ الشيخُ أبو طالبٍ منهُ ، وإنَّما أرادَ بكَسْبِ اليدِ رَفْعَها إلى اللهِ تعالىٰ عندَ الحاجةِ ، فهوَ مِنْ أَحَلِّ ما يأكلُهُ إذا أجابَ اللهُ تعالىٰ سؤالَهُ ، وساقَ إليهِ رزقَهُ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ حكايةً عن موسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] .

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٢٨) ، والترمذي (١٣٥٨) ، والنسائي (٧/ ٢٤٠) ، وابن ماجه (٢١٣٧) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٦٢ـ٢٦٣).

(٢) قوت القلوب (٣/ ١٥٢٧ـ١٥٢٨) .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما (قالَ ذلكَ وإنَّ خُضْرةَ البَقْلِ لَتتراءىٰ في بطنِهِ مِنَ الهُزَالِ)[1]

وقالَ محمَّدٌ الباقرُ رحمَهُ اللهُ : (قالَها وإنَّهُ لَيحتاجُ إلىٰ شِقِّ تمرةٍ)[2]

ورُوِيَ عن مُطَرِّفٍ أنَّهُ قالَ (أَمَا واللهِ ؛ لو كانَ عندَ نبيِّ اللهِ موسىٰ شيءٌ . . ما اتَّبعَ المرأةَ ، ولـٰكن حَمَلَهُ علىٰ ذلكَ الجُهْدُ)[3]

وذَكَرَ الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ عن النَّصْرَاباذيِّ أنَّهُ قالَ في قولِهِ : ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ : (لم يسألِ الكليمُ الخَلْقَ ، وإنَّما كانَ سؤالُهُ مِنَ الحقِّ ، ولم يسألْ غِذاءَ النَّفْسِ ، إنَّما أرادَ سكونَ القَلْبِ)[4]

وقالَ أبو سعيدٍ الخَرَّازُ : (الخَلْقُ مُتردِّدُونَ بينَ ما لهُم وبينَ ما إليهِم ؛ مَنْ نَظَرَ إلىٰ ما لهُ تكلَّمَ بلسانِ الفَقْرِ ، ومَنْ شاهدَ ما إليهِ تكلَّمَ بلسانِ الخُيَلاءِ والفَخْرِ ؛ أَلَا ترىٰ حالَ الكليمِ عليهِ السلامُ لمَّا شاهدَ خواصَّ ما خاطبَهُ بِهِ الحقُّ كيفَ قالَ ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ولمَّا نَظَرَ إلىٰ نَفْسِهِ كيفَ أَظْهرَ الفقرَ وقالَ : ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾)[5]

وقالَ ابنُ عطاءٍ (نَظَرَ مِنَ العُبُوديَّةِ إلى الرُّبُوبيَّةِ فخَشَعَ وخَضَعَ ، وتكلَّمَ

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٩/ ٥٥٧) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٦٨٠٩) ، وأورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٠/ ٤٣٠) .

(٢) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٠/ ٤٣٠-٤٣١) ، والبغوي في « تفسيره » (٦/ ٢٠١)

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٩/ ٥٦٠) ، وأورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٠/ ٤٣٢) .

(٤) تفسير السلمي (٢/ ١٠٤)

(٥) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٠٣)

بلسانِ الافتقارِ بما وَرَدَ على سِرِّهِ مِنَ الأنوارِ ، وافتقارُهُ افتقارُ العبدِ إلىٰ مَوْلاهُ في جميعِ أحوالِهِ ، لا افتقارُ سؤالٍ وطَلَبٍ)[1]

وقالَ الحسينُ (فقيرٌ ـ لِمَا خَصَصْتَني بهِ مِنْ عِلْمِ اليقينِ ـ أنْ تُرقِّيَني إلىٰ عَينِ اليقينِ وحَقِّهِ)[2]

قالَ الشيخُ رحمةُ اللهِ عليهِ : ووَقَعَ لي واللهُ أعلمُ : أنَّ قولَهُ : ﴿ لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أنَّ الإنزالَ مُشعِرٌ ببُعْدِ رُتْبَتِهِ عن حقيقةِ القُرْبِ ، فيكونُ الإنزالُ عينَ الفقرِ ، فما قَنِعَ بالمُنزَلِ ، وأرادَ قُرْبَ المُنزِلِ ، ومَنْ صحَّ فقرُهُ ففقرُهُ في أمرِ آخرتِهِ كفقرِهِ في أمرِ دُنْياهُ ، ورجوعُهُ إليهِ في الدارَينِ ، وإيَّاهُ يسألُ حوائجَ المَنْزِلَينِ ، ويُساوي عندَهُ الحاجتَينِ[3] ، وما لهُ معَ غيرِ اللهِ شُغْلٌ في الدارَينِ[4]

❁ ❁ ❁

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/١٠٣)

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/١٠٣) .

(٣) في (هـ ، ح) : (وتساوى عنده الحاجتان) .

(٤) في هامش (ب) : (بلغ السماع للجماعة على الشيخ أمين الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي)

الباب العشرون

في ذكر من يأكل من الفتوح

إذا كَمَلَ شُغْلُ الصُّوفيِّ باللهِ ، وكَمَلَ زهدُهُ لكمالِ تَقْواهُ . . يحكمُ الوقتُ عليهِ بتَرْكَ التسبُّبِ ، وينكشفُ له صريحُ التوحيدِ وصِحَّةُ الكَفَالةِ مِنَ اللهِ الكريمِ ، فيزولُ عن باطنِهِ الاهتمامُ بالأَقْسامِ ، ويكونُ مُقدِّمةُ هـٰذا أنْ يفتحَ اللهُ تعالىٰ لهُ باباً مِنَ التعريفِ بطريقِ المُقابلةِ علىٰ كلِّ فعلٍ يَصدُرُ منهُ[1] ؛ حتىٰ لو جرىٰ عليهِ يسيرٌ مِنْ ذنبِ حالِهِ ، أوِ الذنبِ مُطلقاً ممَّا هوَ مَنهِيٌّ عنهُ في الشرعِ . . يَجِدُ غِبَّ ذلكَ في وقتِهِ أو يومِهِ[2]

كانَ بعضُهُم يقولُ : (إنِّي لَأَعرفُ ذنبي في سُوءِ خُلُقِ غُلامي)[3]

وقيلَ : إنَّ بعضَ الصُّوفيَّةِ قَرَضَ الفأرُ خُفَّهُ ، فلمَّا رأىٰ ذلكَ تألَّمَ

---

(١) يعني : مقدمةُ تمامِ شغل الصوفي بالله بالتبرُّؤِ ، وكمالُ الزهد في الدنيا . . أن يُعرِّفه حسنَ فعلِهِ وقبحَهُ بصريح فعلِ الحقِّ معه في مقابلة فعلِهِ في بداية أمره ، فإن أظهرَ الله عليه ما هو مُوجِبٌ لفرحه وطِيبِ قلبه ممَّا يتعلَّقُ بدنياه أو بآخرته . . عَرَفَ أنَّ ذلك في مقابلة خيره وطاعته ، وإنْ أظهرَ عليه ما هو مُوجِبُ الكراهية ووَحْشَةِ قلبه . . عَرَفَ أنَّ ذلك من ذنب حاله ؛ كالحرص على الجمع في حال الزهد ، والاعتمادِ على الغير في حال التوكُّل وغير ذلك . من هامش (ج) .

(٢) غِبُّ كل شيء : عاقبتُهُ . من هامش (ح) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٩) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص١٠٨) عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ .

وأنشدَ[1] : [من البسيط]

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي بَنُو ٱللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

إشارةً منهُ : إلىٰ أنَّ الداخلَ عليهِ مُقابَلَةٌ لهُ علىٰ شيءٍ استوجبَ بهِ ذلكَ .

فلا تزالُ بهِ المقابلاتُ مُتضمِّنةً للتعريفاتِ الإلـٰهيَّةِ ، حتىٰ يتحصَّنَ بصدقِ المُحاسبةِ وصفاءِ المُراقبةِ عن تضييعِ حقوقِ العبوديَّةِ ، ومُخالفةِ حُكْمِ الوقتِ ، ويتجرَّدَ لهُ فعلُ اللهِ تعالىٰ ، وينمحيَ عندَهُ أفعالُ غيرِ اللهِ ، فيرى المُعطيَ والمانعَ هوَ اللهَ سبحانَهُ ذَوْقاً وحالاً لا عِلْماً وإيماناً ، ثمَّ يتداركُهُ الحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ بالمعونةِ ، ويُوقِفُهُ علىٰ صريحِ التوحيدِ وتجريدِ فعلِ اللهِ تعالىٰ[2] .

كما حُكِيَ عن بعضِهِم : أنَّهُ خطرَ لهُ خاطرُ الاهتمام بالرِّزْقِ ، فخَرَجَ إلىٰ بعضِ الصَّحاري ، فرأىٰ قُنْبُرَةً عَمْياءَ عَرْجاءَ ضعيفةً[3] ، فوقفَ مُتعجِّباً منها ، مُتفكِّراً فيما تأكلُ معَ عَجْزِها عنِ الطَّيَرانِ والمَشْيِ والرُّؤْيةِ ، فبينا هوَ كذلكَ إذا انشقَّتِ الأرضُ وخرجتْ سُكُرُّجَتانِ[4] ، في إحداهُما سِمْسِمٌ نَقِيٌّ ، وفي الأخرىٰ ماءٌ صافٍ ، فأكلتْ مِنَ السِّمْسِمِ وشَرِبَتْ مِنَ الماءِ ، ثمَّ انشقَّتِ الأرضُ وغابتِ السُّكُرُّجَتانِ .

---

(١) البيت لقُرَيط بن أُنيف كما في « ديوان الحماسة » (١/ ٩) ، والمراد من تمثُّلِ هـٰذا الصوفي بهـٰذا البيت : أنَّهُ لو كان من المستقيمي الأحوال مع الكبير المتعال . . لم يتسلَّطِ الفأرُ علىٰ قَرْض خُفِّه .

(٢) في (ب ، ج ، و ، ز) : (ويُوفِّقه) بدل (ويوقفه) .

(٣) القُنْبُرَة : ضرب من الطيور ، والأصحُّ فيها : (القُبَّرة) .

(٤) سبق شرحها في (١/ ٣٥٧) .

قالَ : فلمَّا رأيتُ ذلكَ سقطَ عن قلبي الاهتمامُ بالرِّزْقِ(١)

فإذا أَوْقَفَ الحقُّ عبدَهُ في هـٰذا المقامِ . . يُزِيلُ عن باطِنِهِ الاهتمامَ بالأَقْسامِ ، ويرى الدخولَ في التسبُّبِ والتكسُّبِ بالسؤالِ وغيرِهِ رتبةَ العوامِّ ، ويصيرُ مسلوبَ الاختيارِ ، غيرَ مُتطلِّعٍ إلى الأغيارِ ، ناظراً إلىٰ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، مُنتظِراً لأمرِ اللهِ تعالىٰ ، فتُساقُ إليهِ الأقسامُ ، ويُفتَحُ عليهِ بابُ الإنعامِ ، ويكونُ بدوامِ مُلاحظتِهِ لفعلِ اللهِ ، وترصُّدِهِ ما يحدثُ مِنْ أمرِ اللهِ تعالىٰ . . مُكاشَفاً لهُ تَجَلِّياتٌ مِنَ اللهِ الكريمِ بطريقِ الأفعالِ ، والتجلِّي بطريقِ الأَفْعالِ أوَّلُ رتبةٍ في القُرْبِ(٢) ، ومنهُ يُرقىٰ إلى التَّجَلِّي بطريقِ الصفاتِ(٣) ، ومِنْ ذلكَ يُرقىٰ إلىٰ تَجَلِّي الذاتِ(٤) ، والإشارةُ في هـٰذِهِ التَّجَلِّياتِ إلىٰ رُتَبٍ في اليقينِ ، ومقاماتٍ في التوحيدِ ؛ شيءٍ فوقَ شيءٍ ، وشيءٍ أَصْفىٰ مِنْ شيءٍ .

فالتجلِّي بطريقِ الأفعالِ يُحدِثُ صفوَ الرِّضا والتسليمِ ، والتجلِّي بطريقِ الصفاتِ يَكسِبُ الهيبةَ والأُنْسَ(٥) ، والتجلِّي بالذَّاتِ يَكسِبُ الفناءَ والبقاءَ

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص١٠٥) ، ومن طريقه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٤٠٣) عن ذي النون المصري رحمه الله تعالىٰ .

(٢) **التجلِّي بطريق الأفعال** : هو ألَّا يرىٰ فعلَ الغير ، بل يرى الفاعل واحداً سبحانه وتعالىٰ . من « شرح المشكلات » (ق/ ٣١) .

(٣) **التجلِّي بطريق الصفات** : هو ألَّا يرى العلمَ والإرادة والسمع والبصر وغيرها من الصفات من غير الله ، بل يرىٰ متصفاً واحداً لصفات مختلفةٍ ؛ وهو الله سبحانه وتعالىٰ . من « شرح المشكلات » (ق/ ٣١) .

(٤) **تجلِّي الذات** : هو ألَّا يرى الذوات من زيد وعمرو وغيرهما ، ولا يرىٰ إلا ذاتاً واحداً ؛ وهو الله تعالىٰ من « شرح المشكلات » (ق/ ٣١) .

(٥) **الهيبة** من الصفات الجلالية ؛ كالقهَّار والمنتقم ، **والأُنس** من الصفات الجمالية ؛ كالرحيم والغفور .

وقد يُسمَّىٰ تركُ الاختيارِ والوقوفُ معَ فعلِ اللهِ تعالىٰ . . فناءً ؛ يعنونَ بهِ فناءَ الإرادةِ والهوىٰ ، والإرادةُ ألطفُ أقسامِ الهوىٰ[1] ، وهـٰذا الفناءُ هوَ الفناءُ الظاهرُ

فأمَّا الفناءُ الباطنُ ـ وهوَ مَحْوُ آثارِ الوجودِ عندَ لَمَعَانِ نورِ الشهودِ ـ . . يكونُ في تَجَلِّي الذاتِ ، وهوَ أكملُ أقسامِ اليقينِ في الدنيا

فأمَّا تَجَلِّي حُكْمِ الذَّاتِ فلا يكونُ إلا في الآخرةِ ، وهوَ المقامُ الذي حَظِيَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليلةَ المعراجِ ، ومُنِعَ عنهُ موسىٰ عليهِ السلامُ بـ ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

فليُعلَمْ : أنَّ قولَنا : (في التَّجَلِّي) إشارةٌ إلىٰ رُتَبِ الحظِّ مِنَ اليقينِ ورؤيةِ البصيرةِ ، فإذا وصلَ العبدُ إلىٰ مبادئِ أقسامِ التَّجَلِّي ـ وهوَ مُطالعةُ الفعلِ الإلـٰهيِّ مُجرَّداً عن فعلِ ما سوى اللهِ تعالىٰ ـ . يكونُ تناولُهُ الأقسامَ مِنَ الفُتُوحِ

رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ وُجِّهَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ هَـٰذَا ٱلرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا إِشْرَافٍ . . فَلْيَأْخُذْهُ وَلْيُوَسِّعْ بِهِ فِي رِزْقِهِ ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ غِنىً فَلْيَدْفَعْهُ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَحْوَجُ مِنْهُ إِلَيْهِ »[2]

---

(١) يعني : للهوىٰ مراتبُ ؛ وهي : الإرادة ، والمودَّة ، والخُلَّة ، والمحبَّة ، والعشق ، وألطفُها الإرادة التي هي مبدؤها ؛ لأنَّها ضعيفةٌ ما قَوِيتْ بعدُ وما تمكَّنت ، كما رُوي أنَّ قارئاً [كان] يقرأ عند أبي بكر رضي الله عنه القرآن ، فكان شابٌّ يبكي ، فقال أبو بكر : هـٰكذا كُنَّا في بداية أمرنا حتىٰ قَسَتْ قلوبُنا ، وتمكَّنتِ المحبَّةُ فيها . من هامش (ج) .

(٢) رواه أحمد (٥/ ٦٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٨/ ١٩) عن سيدنا عائذ بن عمرو رضي الله عنهما ، وانظر حديث سيدنا عمر رضي الله عنه الآتي قريباً .

وفي هـٰذا دَلالةٌ ظاهرةٌ : علىٰ أنَّ العبدَ يجوزُ أنْ يأخذَ زيادةً علىٰ حاجتِهِ بنيَّةِ صَرْفِهِ إلىٰ غيرِهِ ، وكيفَ لا يأخذُهُ وهوَ يرىٰ فعلَ اللهِ تعالىٰ ؟!

ثمَّ إذا أخذَ فمنهُم : مَنْ يُخرِجُهُ إلى المحتاجِ ، ومنهُم : مَنْ يقفُ في الإخراجِ أيضاً حتىٰ يَرِدَ عليهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ عِلْمٌ خاصٌّ ؛ ليكونَ أخذُهُ بالحقِّ وإخراجُهُ بالحقِّ .

(٥٥) ـ أخبرَنا الشيخُ أبو زُرْعَةَ طاهرٌ ، قالَ : أخبرَنا والدي الحافظُ أبو الفضلِ المَقْدِسيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ سعيدٍ الحبَّالُ[١] ، قالَ : أخبرَنا محمَّدُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ سعيدٍ[٢] ، قالَ أخبرَنا أبو طاهرٍ أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ عمرٍو[٣] ، قالَ : أخبرَنا يونسُ بنُ عبدِ الأعلىٰ ، قالَ : أخبرَنا ابنُ وَهْبٍ ، قالَ : أخبرَنا عمرُو بنُ الحارثِ ، عنِ ابنِ شهابٍ ، عنِ السائبِ بنِ يزيدَ ، عن حُوَيطِبِ بنِ عبدِ العُزَّىٰ ، عن عبدِ اللهِ بنِ السَّعْديِّ[٤] ، عن عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ

---

(١) في النسخ ما عدا (هـ ، ح) : (بن إبراهيم) بدل (إبراهيم) ، والصواب المثبت ، والحبَّال : هو الإمام الحافظ المتقن الصالح أبو إسحاق النُّعْماني المصري الكتبي الفرَّاء (ت ٤٨٢هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٨ـ ٤٩٥ـ ٥٠١) .

(٢) في هامش (د) : (أبو محمد) بدل (محمد) ، وفي « صفوة التصوف » (أبو محمد عبد الرحمـٰن)

(٣) هو الإمام المُحدِّث الصدوق المُعمَّر أبو طاهر المَدِيني المصري الخامي (ت ٣٤١هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٤٣٠ـ ٤٣١) .

(٤) في (د) (عبيد الله) بدل (عبد الله) ، والصواب المثبت ، وابن السعدي : هو سيدنا أبو محمد عبد الله بن عمرو بن السعدي وَقْدان بن عبد شمس القرشي العامري رضي الله عنه (ت٥٧هـ) ، والحديث من رواية الصحابي عن الصحابي ، وانظر « تهذيب الكمال » (١٥/ ٢٤ـ ٢٥) .

قالَ[1] كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعطِيني العطاءَ ، فأقولُ أَعْطِهِ يا رسولَ اللهِ مَنْ هوَ أَفْقَرُ إليهِ منِّي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ ، وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَـٰذَا ٱلْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُتَشَرِّفٍ وَلَا سَائِلٍ . فَخُذْهُ ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ » ، قالَ سالمٌ : فمِنْ أجلِ ذلكَ كانَ ابنُ عمرَ لا يسالُ أحداً شيئاً ، ولا يَرُدُّ شيئاً أُعطِيَهُ[2]

دَرَّجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأصحابَ بأوامرِهِ إلىٰ رؤيةِ فِعْلِ اللهِ تعالىٰ ، والخروجِ مِنْ تدبيرِ النَّفْسِ إلىٰ حُسْنِ تدبيرِ اللهِ تعالىٰ .

سُئِلَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رحمَهُ اللهُ عن علمِ الحالِ ، فقالَ : هوَ تركُ التدبيرِ ، ولو كانَ هـٰذا في واحدٍ لكانَ مِنْ أوتادِ الأرضِ[3]

وروىٰ زيدُ بنُ خالدٍ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جَاءَهُ مِنْ أَخِيهِ مَعْرُوفٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا إِشْرَافِ نَفْسٍ . فَلْيَقْبَلْهُ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ »[4]

وهـٰذا العبدُ الواقفُ معَ فعلِ اللهِ تعالىٰ في قَبولِ ما ساقَ الحقُّ إليهِ . آمِنٌ

---

(١) كما رواه سالم عن أبيه ابن عمر عنه رضي الله عنهم . انظر « صفوة التصوف » (٢٧٦) .

(٢) صفوة التصوف (٢٧٦) ، ورواه البخاري (١٤٧٣) دون قول سالم ، ومسلم (١٠٤٥/١١١) .

(٣) انظر « تفسير التستري » (ص٦٦)

(٤) رواه الحارث بن أبي أسامة كما في « بغية الباحث » (٣٠٩) ، وابن حبان والطبراني وابن عساكر كما في « كنز العمال » (١٦٥٦٠) ، ورواه أحمد (٤/ ٢٢٠ـ٢٢١) ، وابن حبان (٣٤٠٤) ، والحاكم (٢/ ٦٢) عن سيدنا خالد بن عدي الجهني رضي الله عنه .

ما يُخشىٰ علىٰ مَنْ يَرُدُّ ؛ لأنَّ مَنْ رَدَّ لا يأمنُ مِنْ دخولِ النَّفْسِ عليهِ أنْ يُرىٰ بعينِ الزهدِ ؛ ففي أخذِهِ إسقاطُ نَظَرِ الخَلْقِ تحقُّقاً بالصِّدقِ والإخلاصِ[1] ، وفي إخراجِهِ إلى الغيرِ إثباتُ حقيقةِ الزهدِ[2] ، فلا يزالُ في كلا الحالَينِ زاهداً يراهُ الغيرُ بعينِ الرَّغْبةِ ؛ لِقلَّةِ العلمِ بحالِهِ ، وفي هـٰذا المقامِ يتحقَّقُ الزهدُ في الزهدِ .

ومِنْ أهلِ الفتوحِ مَنْ يعلمُ دخولَ الفُتُوحِ عليهِ ، ومنهُم : مَنْ لا يعلمُ دخولَ الفُتُوحِ عليهِ

فمنهُم : مَنْ لا يتناولُ مِنَ الفُتُوحِ إلا إذا تقدَّمَهُ علمٌ بتعريفٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ ، ومنهُم : مَنْ يأخذُ غيرَ مُتطلِّعٍ إلىٰ تقدُّمِ العِلْمِ حيثُ تجرَّدَ لهُ الفعلُ

ومَنْ لا ينتظرُ تَقْدِمةَ العِلمِ فوقَ مَنْ ينتظرُ تَقْدِمةَ العلمِ ؛ لتمامِ صِحَّتِهِ معَ اللهِ تعالىٰ وانسلاخِهِ مِنْ إرادتِهِ[3] ، وعِلْمِ حالِهِ في تركِ الاختيارِ .

ومنهُم : مَنْ يدخلُ الفُتُوحُ عليهِ لا بتَقْدِمةِ العِلْمِ ولا برؤيةِ تجرُّدِ الفعلِ مِنَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ولـٰكن يُرزَقُ شِرْباً مِنَ المَحَبَّةِ بطريقِ رُؤيةِ النعمةِ ، وقد يتكدَّرُ شِرْبُ هـٰذا بتغيُّرِ معهودِ النعمةِ ، وهـٰذا حالٌ ضعيفٌ بالإضافةِ إلى الحالَينِ الأوَّلَينِ ؛ لأنَّهُ علَّةٌ في المحبَّةِ ووليجةٌ في الصدقِ عندَ الصِّدِّيقينَ

وقد ينتظرُ صاحبُ الفُتُوحِ العلمَ في الإخراجِ أيضاً كما انتظرَ في الأخذِ ؛

---

(١) قوله : (إسقاطُ نَظَرِ الخَلْقِ) يعني : هو في قَبول ما بَعَثَ الله إليه من الفتوح حتىٰ تَرَكَ اختيارَهُ في العطاء والمنع والقَبولِ والرَّدِّ . . كان مع اختيار الحقِّ آمناً من فتنة الردِّ ودخولِ الآفة فيه ؛ لأنَّ مَنْ يَرُدُّ ربَّما تطيب نفسُهُ بالردِّ لنظر الخلق إليه بعين الزهد . من هامش (ج) .

(٢) لأنَّ الصَّرْفَ دليلُ عدم الرغبة . من هامش (ح) .

(٣) في (د) : (صحبته) بدل (صحته) .

لأنَّ النَّفْسَ تظهرُ في الإخراجِ كما تظهرُ في الأخذِ .

وأتَمُّ مِنْ هـٰذا : مَنْ يكونُ في إخراجِهِ مُختاراً ، وفي أَخْذِهِ مُختاراً ، بعدَ تحقُّقِهِ بصحةِ التصرُّفِ ؛ فإنَّ انتظارَ العِلْمِ إنَّما كانَ لموضعِ اتِّهامِ النَّفْسِ ببقيَّةِ هوىً موجودٍ ، فإذا زالَ الاتِّهامُ بوجودِ صريحِ العِلْمِ . . يأخذُ غيرَ مُحتاجٍ إلىٰ علمٍ مُتجدِّدٍ ، ويُخرِجُ كذلكَ ، وهـٰذِهِ حالُ مَنْ تحقَّقَ بقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حاكياً عن ربِّهِ : « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً ؛ بِي يَسْمَعُ ، وَبِي يُبْصِرُ ، وَبِي يَنْطِقُ . . . » الحديثَ[1]

فلمَّا صحَّ تَعَرُّفُهُ صحَّ تَصَرُّفُهُ ، وهـٰذا أعزُّ في الأحوالِ مِنَ الكِبْريتِ الأحمرِ[2]

وكانَ شيخُنا ضياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ السُّهْرَوَرْديُّ رحمَهُ اللهُ يَحْكي عنِ الشيخِ حمَّادٍ الدَّبَّاسِ رحمَهُ اللهُ أنَّهُ كانَ يقولُ[3] : (أنا لا آكلُ إلَّا مِنْ طعامِ

---

(١) سبق تخريجه في (١/ ٣٢١) .

(٢) أي : الذي يُضرَبُ على النحاس فيصيرُ ذهباً ؛ لأنَّ هـٰذا الحالَ يجعلُ حركاتِ العبد وسكناتِهِ التي كانتْ منه وبه وله.. من الله وبالله ولله ، وكذا يجعلُ الفانيَ الموصوف بالصفات الفانية باقياً مُتَّصِفاً بصفات الحقِّ الباقية من هامش (ج) .

(٣) حمَّاد الدَّبَّاس : هو الإمام القدوة العارف المُربِّي صاحب الكرامات أبو عبد الله حمَّاد بن مسلم بن دِدُّوْ الدَّبَّاس الرَّحَبي (ت ٥٢٥هـ) ، وهو شيخ الإمام العارف عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالىٰ وقُدِّس سِرُّهُ ، ولا يُلتفَتُ إلىٰ ثَلْبِ ابن الجوزيِّ له ؛ فقد فنَّده سِبْطُهُ في « مرآة الزمان » (٢٠/ ٢٣٦) ، وردَّه ابن الأثير في « الكامل » (٩/ ٣١) ؛ قال رحمه الله تعالىٰ (ورأيتُ الشيخ أبا الفرج بنَ الجوزيِّ قد ذمَّهُ وثَلَبَهُ ، ولهـٰذا الشيخ أسوةٌ بغيره من الصالحين ؛ فإنَّ ابنَ الجوزيِّ قد صنَّف كتاباً سمَّاه « تلبيس إبليس » لم يُبقِ فيه علىٰ أحد من سادات المسلمين وصالحيهم) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٥٩٤)

الفضلِ)[1] ، فكانَ يرى الشخصُ في المنامِ أنِ احْمِلْ إليهِ شيئاً ، وقد كانَ يُعيَّنُ للرائي في المنامِ أنِ احْمِلْ إلىٰ حمَّادٍ كذا وكذا

وقيلَ إنَّهُ بَقِيَ زماناً يرىٰ هوَ في واقعتِهِ أو منامِهِ أنَّكَ أُحِلْتَ علىٰ فلانٍ بكذا وكذا[2]

وحُكِيَ عنهُ أنَّهُ كانَ يقولُ : (كلُّ جسمٍ تربَّىٰ بطعامِ الفَضْلِ . . لا يتسلَّطُ عليهِ البِلىٰ) ؛ ويعني بطعامِ الفَضْلِ : ما يشهدُ لهُ صحَّةُ الحالِ مِنْ فُتُوحِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ومَنْ كانتْ هـٰذهِ حالتَهُ فهوَ غنيٌّ باللهِ .

قالَ الواسطيُّ رحمةُ الله عليهِ (الافتقارُ إلى اللهِ تعالىٰ أَعْلىٰ درجةِ المُريدينَ ، والاستغناءُ باللهِ أَعْلىٰ درجةِ الصادقينَ) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : (العارفُ فَنِيَ تدبيرُهُ في تدبيرِ الحقِّ)[3]

فالواقفُ معَ الفتوحِ واقفٌ معَ اللهِ تعالىٰ ، ناظرٌ إلى اللهِ تعالىٰ

وأحسنُ ما حُكِيَ في هـٰذا[4] : أنَّ بعضَهُم رأى النُّوريَّ يَمُدُّ يدَهُ ويسألُ الناسَ ، قالَ : فاستعظمتُ ذلكَ واستقبحتُهُ لهُ ، فأتيتُ الجُنيدَ فأخبرتُهُ ، فقالَ لي : لا يَعظُمُ هـٰذا عليكَ ؛ فإنَّ النُّوريَّ لم يسألِ الناسَ إلا ليُعطِيَهُم ،

---

(١) سيأتي المراد من (طعام الفضل) قريباً في كلام المؤلف .

(٢) انظر « المنتظم » لابن الجوزي (١٧/ ٢٦٦) ، والواقعة : ما كانت بين النوم واليقظةِ أو في اليقظة ؛ أي : عند زوال الخيال ، والمنامُ معلومٌ . من هامش (ح) .

(٣) يعني : العارف يُدبِّر ويراعي الصورة ويتصرَّفُ بالأسباب ، ولـٰكنَّ تدبيرَهُ وتصرُّفَهُ يكونُ بالحقِّ لا بنفسه ، فيتلاشىٰ أسبابُهُ في عين الأسباب ؛ لأنَّ ذلك من تقدير الحقِّ واختياره له ، كما ذكر مِنْ قبلُ أنَّ رياء العارفين الذي هو [من] قسم التدبير . . أفضل من إخلاص المريدين الذي هو من قسم الأحوال . من هامش (ج) .

(٤) أي : في طعام الفضل . من هامش (ح)

سألَهُم ليَقِيَهُم في الآخرةِ[1] ، فيُؤجَرُونَ مِنْ حيثُ لا يَضُرُّهُ[2]

وقولُ الجُنيدِ (ليُعطِيَهُم) كقولِ بعضِهِم (اليدُ العُلْيا يدُ الآخِذِ ؛ لأنَّهُ يُعطِي الثوابَ)

قالَ ثمَّ قالَ الجُنيدُ : هاتِ الميزانَ ، فوزنَ مئةَ درهم ، ثمَّ قبضَ قبضةً فألْقاها على المئةِ ، ثمَّ قالَ : احْمِلْها إليهِ ، فقلتُ في نَفْسي : إنَّما يُوزَنُ الشيءُ ليُعرَفَ مقدارُهُ ، فكيفَ خَلَطَ المجهولَ بالموزونِ وهوَ رجلٌ حكيمٌ ؟! واستحْيَيتُ أنْ أسألَهُ .

فذهبتُ بالصُّرَّةِ إلى النُّوريِّ ، فقالَ : هاتِ الميزانَ ، فوزنَ مئةَ درهمٍ وقالَ : رُدَّها عليهِ وقُلْ لهُ : أنا لا أقبلُ منكَ شيئاً ، وأَخَذَ ما زادَ على المئةِ .

قالَ : فزادَ تعجُّبي ، فسألتُهُ عن ذلكَ ، فقالَ : الجُنيدُ رجلٌ حكيمٌ ، يُرِيدُ أنْ يأخذَ الحبلَ بطرَفَيهِ ؛ وزنَ المئةَ لنَفْسِهِ طلباً للثوابِ ، وطَرَحَ عليها قبضةً بلا وزنٍ للهِ تعالىٰ ، فأخذتُ ما كانَ للهِ تعالىٰ ورَدَدتُ ما جعلَهُ لنَفْسِهِ

قالَ : فرددتُها على الجُنيدِ ، فبكىٰ وقالَ : أَخَذَ ما لهُ ، ورَدَّ ما لنا[3]

ومِنْ لطائفِ ما سمعتُ مِنْ أصحابِ شيخِنا رحمَهُ اللهُ : أنَّهُ قالَ ذاتَ يومٍ لأصحابِهِ : نحنُ مُحتاجُونَ إلىٰ شيءٍ مِنَ المعلومِ ، فارْجِعُوا إلىٰ خَلَوَاتِكُم

---

(١) في (د) : (ليبقيهم) بدل (ليقيهم) ، وفي (و) : (ليقينهم) ، وفي « القوت » و« الإحياء » : (ليثيبهم) .

(٢) في نسخة على هامش (أ) : (فيؤجر) بدل (فيُؤجرون) .

(٣) أورد هـٰذه القصة أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٥١٤) ، والغزالي في « الإحياء » (٨/ ٩٥ـ٩٦) ، وقولُهُ : (ما له ، ما لنا) يجوز أن يضبط (مالَه ، مالَنا) كما في « الإحياء » ، إلا أنَّ المثبت أنسب ، والله تعالىٰ أعلم

واسألُوا اللهَ تعالىٰ ، وما يفتحُ اللهُ تعالىٰ عليكُمُ ائتوني بهِ ، ففعلوا ، ثمَّ جاءَهُ مِنْ بينِهِم شخصٌ يُعرَفُ بإسماعيلَ البَطَائِحيِّ ومعَهُ كاغَدٌ عليهِ ثلاثونَ دائرةً ، وقالَ هـٰذا الذي فَتَحَ اللهُ لي في واقعتي ، فأخذَ الشيخُ الكاغَدَ ، فلم يكنْ إلا ساعةً فإذا بشخصٍ دَخَلَ ومعَهُ ذهبٌ ، فقدَّمَهُ بينَ يَدَيِ الشيخِ ، ففَتَحَ القِرْطاسَ فإذا هوَ ثلاثونَ صحيحاً ، فتَرَكَ الشيخُ كلَّ صحيحٍ علىٰ دائرةٍ ، وقالَ : هـٰذا فتوحُ الشيخِ إسماعيلَ ، أو كلاماً هـٰذا معناهُ .

وسمعتُ أنَّ الشيخَ عبدَ القادرِ الجِيليَّ رحمَهُ اللهُ بَعَثَ إلىٰ شخصٍ وقالَ لفلانٍ عندَكَ طعامٌ وذهبٌ ، ائتِني مِنْ ذلكَ بكذا ذهباً وكذا طعاماً ، فقالَ الرجلُ : كيفَ أتصرَّفُ في وديعةٍ عندي ولوِ استفتيتُكَ في هـٰذا ما أَفْتَيْتَني في التصرُّفِ ؟! فأَلْزَمَهُ الشيخُ بذلك ، فأَحْسنَ الظنَّ بالشيخِ وجاءَ إليهِ بالذي طَلَبَهُ .

فلمَّا وَقَعَ التصرُّفُ منهُ جاءَهُ مكتوبٌ مِنْ صاحبِ الوديعةِ وهوَ غائبٌ في بعضِ نواحي العراقِ أنِ احْمِلْ إلى الشيخِ عبدِ القادرِ القَدْرَ ، وهوَ القَدْرُ الذي عَيَّنَهُ الشيخُ عبدُ القادرِ ، فعاتبَهُ الشيخُ بعدَ ذلكَ علىٰ تَوَقُّفِهِ وقالَ : ظننتَ بالفقراءِ أنَّ إشاراتِهِم تكونُ علىٰ غيرِ صحَّةٍ وعلمٍ ؟!

فالعبدُ إذا صحَّ معَ اللهِ تعالىٰ ، وأَفْنىٰ هواهُ مُتطلِّباً رضا اللهِ تعالىٰ . . يرفعُ اللهُ تعالىٰ عن باطنِهِ همومَ الدنيا ، ويجعلُ الغِنىٰ في قلبِهِ ، ويفتحُ عليهِ أبوابَ الرِّفْقِ .

وكلُّ الهمومِ المُتسلِّطةِ علىٰ بعضِ الفقراءِ . . لكونِ قلوبِهِم ما استكملتِ الشُّغْلَ باللهِ والاهتمامَ برعايةِ حقائقِ العُبُوديَّةِ ، فعلىٰ قَدْرِ ما خَلَتْ مِنْ هَمِّ اللهِ

تعالىٰ ابتُلِيتْ بهَمِّ الدنيا ، ولوِ امتلأتْ مِنْ هَمِّ اللهِ تعالىٰ ما عُذِّبَتْ بهمومِ الدنيا ، ووُفِّقَتْ وأُرْفِقَتْ[(١)]

رُوِيَ أنَّ عونَ بنَ عبدِ اللهِ المَسْعُوديَّ كانَ لهُ ثلاثُ مئةٍ وستُّونَ صديقاً ، وكانَ يكونُ عندَ كلِّ واحدٍ يوماً[(٢)] ، وآخَرُ كانَ لهُ ثلاثونَ صديقاً ، فكانَ عندَ كلِّ واحدٍ يوماً[(٣)] ، وآخَرُ كانَ لهُ سبعةُ إخوانٍ ، فكانَ كلَّ يومٍ مِنَ الأسبوعِ عندَ واحدٍ ، فكانَ إخوانُهُم معلومَهُم[(٤)] ، والمعلومُ إذا أقامَهُ الحقُّ للناظرِ إلى اللهِ تعالى الكاملِ توحيدُهُ . . يكونُ نعمةً هنيئةً

جاءَ رجلٌ إلى الشيخِ أبي السُّعودِ رحمَهُ اللهُ[(٥)] ـ وكانَ مِنْ أربابِ الأحوالِ السَّنِيَّةِ ، والواقفينَ في الأشياءِ معَ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، مُتمكِّناً في حالِهِ ، تاركاً لاختيارِهِ ، لعلَّهُ سَبَقَ كثيراً مِنَ المُتقدِّمينَ في تحقيقِ تَرْكِ الاختيار ، رأَيْنا منهُ وشاهدْنا أحوالاً صحيحةً عن قُوَّةٍ وتمكينٍ ـ فقالَ لهُ الرجلُ : أريدُ أنْ أُعيِّنَ

---

(١) في (ب) : (وقنعت) بدل (ووفقت) .
(٢) أي : علىٰ مدار السنة
(٣) أي : علىٰ مدار الشهر .
(٤) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/١٤٥٧) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/٤١) ، وقال أبو طالب رحمه الله تعالىٰ : (ولم يكن هٰؤلاء يتكسَّبون ولا يدَّخرون ، وكانت لإخوانهم فيهم نيَّةٌ صالحة ، يسألونهم ذلكَ ويقسمون عليهم فيه ، ويرونه من أفضل أعمالهم ، وكان هٰؤلاءِ الأضيافُ يُكرِمون إخوانهم بإجابتهم وكونِهم عندهم ، ومنهم مَنْ كان منقطعاً في منزل أخيه قد أفرده بمكانٍ يقوم بكفايته ، ولا يبرحُ في منزله على الدوام ، يحكم فيه ويتحكَّم كما يكون في منزل نفسه) .
(٥) **أبو السعود** : هو الإمام العارف أبو السعود بن شبل البغدادي أجلُّ أتباع الإمام العارف المُربِّي سيِّدي عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى . انظر « الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية » (٢/٢٠٨ـ٢١٠)

شيئاً كلَّ يوم مِنَ الخبزِ أحملُهُ إليكَ ، ولٰكنِّي قلتُ : الصُّوفيَّةُ يقولونَ : المعلومُ شُؤْمٌ ، قالَ الشيخُ : نحنُ ما نقولُ : المعلومُ شُؤْمٌ ؛ فإنَّ الحقَّ تعالىٰ يُصفِّي لنا ، وفِعْلَهُ نرىٰ ، فكلُّ ما يُقِيمُ لنا نراهُ مُبارَكاً ولا نراهُ شُؤْماً[1]

(٥٦) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ طاهرٌ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ خَلَفٍ الشِّيرازيُّ إجازةً ، قالَ أخبرَنا أبو عبدِ الرحمٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ : سمعتُ أبا بكرِ بنَ شاذانَ قالَ : سمعتُ أبا بكرٍ الكَتَّانيَّ قالَ : (كنتُ أنا وعمرٌو المَكِّيُّ وعيَّاشُ بنُ المَهْديِّ نصطحبُ ثلاثينَ سنةً ، نُصلِّي الغَدَاةَ علىٰ طُهْرِ العصرِ ، وكنَّا قُعُوداً بمكَّةَ على التجريدِ ، ما لنا على الأرضِ ما يُساوي فَلْساً ، وربَّما كانَ يُصِيبُنا الجوعُ يوماً ويومَينِ وثلاثةً وأربعةً وخمسةً ولا نسألُ أحداً ، فإنْ ظَهَرَ لنا شيءٌ عَرَفْنا وجهَهُ مِنْ غيرِ سؤالٍ ولا تعريضٍ . قَبِلْناهُ وأَكَلْناهُ ، وإلَّا طَوَيْنا ، فإذا اشتدَّ بنا الأمرُ وخِفْنا علىٰ أنفسِنا النُّقْصانَ في الفرائضِ . قَصَدْنا أبا سعيدٍ الخَرَّازَ ، فيتَّخِذُ لنا ألواناً مِنَ الطعامِ ، ولا نَقصِدُ غيرَهُ ، ولا ننبسِطُ إلَّا إليهِ ؛ لِمَا نعرفُ مِنْ تَقْواهُ وورعِهِ)

وقيلَ لأبي يزيدَ رضيَ اللهُ عنهُ : ما نراكَ تشتغلُ بكسبٍ ، فمِنْ أينَ معاشُكَ ؟ فقالَ : مَوْلايَ يرزقُ الكلبَ والخنزيرَ ، تراهُ لا يرزقُ أبا يزيدَ ؟![2]

---

(١) في (د) : (يقسم) بدل (يقيم) .

(٢) رواه الفسوي في « المعرفة والتاريخ » (٢/ ٤٠٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٦/ ١٢) عن أبي أُسيد الفزاري رحمه الله تعالىٰ .

قالَ الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ : سمعتُ أبا عبدِ اللهِ الرازيَّ يقولُ : سمعتُ مُظفَّراً القِرْمِيسِينيَّ يقولُ (الفقيرُ الذي لا يكونُ لهُ إلى اللهِ حاجةٌ)[1]

وقيلَ لبعضِهِم : ما الفقرُ ؟ قالَ وقوفُ الحاجةِ على القلبِ ، ومَحْوُها مِنْ كلِّ أحدٍ سوى الرَّبِّ

وقالَ بعضُهُم : (أَخْذُ الفقيرِ الصدقةَ مِمَّنْ يُعطِيهِ ، لا مِمَّنْ تصلُ إليهِ على يدِهِ ، ومَنْ قَبِلَ مِنَ الوسائطِ فهوَ المُترسِّمُ بالفقرِ معَ دناءةِ هِمَّتِهِ)[2]

(٥٧) ـ أنبأَنا شيخُنا ضياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ السُّهْرُوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ ، قالَ : أخبرَنا عصامُ الدِّينِ أبو حَفْصٍ عمرُ بنُ أحمدَ بنِ منصورٍ الصفَّارُ ، قالَ أخبرَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ خلفٍ الشِّيرازيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ : سمعتُ أحمدَ بنَ عليِّ بنِ جعفرٍ يقولُ : سمعتُ أنَّ أبا سليمانَ الدَّارانيَّ كانَ يقولُ : (آخِرُ أقدامِ الزاهدينَ أَوَّلُ أقدامِ المُتوكِّلينَ)[3]

رُوِيَ أنَّ بعضَ العارفينَ زَهِدَ[4] ، فبلغَ مِنْ زُهْدِهِ أنْ فارقَ الناسَ وخَرَجَ

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٥٧٩) ، وقال الأستاذ القشيري مُعقِّباً : (وهـٰذا اللفظ فيه أَدنىٰ غموضٍ لمَنْ سمعه علىٰ وصف الغفلة عن مرمى القوم ، وإنَّما أشار قائله : إلىٰ سقوط المطالبات ، وانتفاءِ الاختيار ، والرِّضا بما يُجري الحقُّ سبحانه وتعالىٰ) ، وسبق قول القرميسيني في (١/ ٢٤٧) .

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٧٩) .

(٣) طبقات الصوفية (ص٨٠) ، وقال في « شرح المشكلات » (ق/ ٣١) : (فيكون مقامُ التوكُّل أعلىٰ من مقام الزهد بمراتبَ) .

(٤) يحتملُ أن يكون المرادُ من العارف : أنَّهُ رَجَعَ من مقامه وعاد إلىٰ مقام الزهد ، ويحتملُ=

مِنَ الأمصارِ وقالَ : لا أسألُ أحداً شيئاً حتىٰ يأتيَني رِزْقي ، فأخَذَ يَسِيحُ ، فأقامَ في سَفْحِ جَبَلٍ سَبْعاً لم يأتِهِ شيءٌ حتىٰ كادَ أنْ يَتْلَفَ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ إنْ أحييتَني فَأْتِني برزقي الذي قسمتَ لي ، وإلَّا فاقبِضْني إليكَ ، فألْهمَهُ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ في قلبِهِ : وعِزَّتي وجلالي ؛ لا أرزقُكَ حتىٰ تدخلَ الأمصارَ وتُقيمَ بينَ الناسِ .

فدخلَ المدينةَ وأقامَ بينَ ظَهْرَانَي الناسِ ، فجاءَهُ هـٰذا بطعامٍ ، وهـٰذا بشرابٍ ، فأكلَ وشرِبَ ، فأَوْجسَ في نَفْسِهِ مِنْ ذلكَ ، فسَمعَ هاتفاً : أردتَ أنْ تُبطِلَ حكمتَهُ بزهدِكَ في الدنيا ، أَمَا علمتَ أنَّهُ ما يرزقُ العبادَ بأيدي العبادِ أحبُّ إليهِ مِنْ أنْ يرزقَهُم بأيدي القُدْرةِ[1]

فالواقفُ معَ الفُتُوحِ استوىٰ عندَهُ أيدي الآدميِّينَ وأيدي الملائكةِ ، واستوىٰ عندَهُ القُدْرةُ والحكمةُ[2] ، وطلبُ القِفَارِ ، والتوصُّلُ إلىٰ قَطْعِ الأسبابِ . للارتهانِ برؤيةِ الأسبابِ ، وإذا صَحَّ التوحيدُ تلاشَتِ الأسبابُ في عينِ الأسبابِ[3]

= أن يكونَ المرادُ : أنَّهُ كان في مقام الزهد الذي هو طريقٌ وواسطة لمعرفة حكمة الحقِّ سبحانه في سَعْي العبد وكَسْبه ، ثمَّ جاءه الجَذْبة من عالم القدرة قبل تمام مقام الزهد ، فعَرَفَ بقدر زهده حكمةَ الكسب ، فاقتضتِ المعرفةُ أن يرجع بعد الجذبة إلى السلوك وإتمام مقام الزهد لاستكمال حصول معرفة الحكمة ، كما أشار إلىٰ ذلك بقوله تعالىٰ ـ كما سيأتي في القصة ـ : (تريد أن تُبطِلَ حكمتي بزهدك في الدنيا) . من هامش (ج) .

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٥٠٢ـ١٥٠٣) ، والغزالي في « الإحياء » (٨/ ٢٧٠ـ٢٧١) .

(٢) القدرة : الرزق بلا واسطة ، والحكمة : الرزق بواسطة . من هامش (ج) .

(٣) في نسخة علىٰ هامش (د) : (في رؤية مسبب الأسباب) بدل (في عين الأسباب) ، =

(٥٨) ـ أخبرَنا شيخُنا رحمةُ اللهِ عليهِ ، قالَ : أخبرَنا أبو حَفْصٍ عمرُ ، قالَ : أخبرَنا أحمدُ بنُ خلفٍ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمـٰنِ ، قالَ : أخبرَنا [عُبيدُ اللهِ بنُ] محمَّدِ بنِ [محمَّدِ] بنِ حَمْدانَ العُكْبَرِيُّ بها[١] ، قالَ : سمعتُ أحمدَ بنَ محمودِ بنِ البُسْريِّ يقولُ[٢] : سمعتُ محمَّداً الإسكافَ يقولُ : سمعتُ يحيى بنَ مُعاذٍ الرازيَّ يقولُ : (مَنِ استفتحَ بابَ المَعَاشِ بغيرِ مفاتيحِ الأقدارِ . . وُكِلَ إلى المخلوقينَ)[٣]

قالَ بعضُ المُنقطِعينَ : كنتُ ذا صنعةٍ جليلةٍ ، فأُرِيدَ منِّي تركُها ، فحاكَ في صَدْري : مِنْ أينَ المعاشُ ؟ فهتَفَ بي هاتفٌ لا أراهُ[٤] : تنقطعُ إليَّ وتتَّهمُني في رزقِكَ ؟! عليَّ أنْ أُخدِمَكَ وليّاً مِنْ أوليائي ، أو أُسخِّرَ لكَ عدوّاً مُنافِقاً مِنْ أعدائي[٥]

فلمَّا صَحَّ حالُ الصُّوفيِّ ، وانقطعتْ أَطْماعُهُ ، وسكنتْ عن كلِّ تَشَرُّفٍ وتطلُّعٍ[٦] . . خَدَمَتْهُ الدنيا ، وصَلَحَتْ لهُ الدُّنيا خادمةً ، وما رَضِيَها مخدومةً .

= وفي (و) : (في غير الأسباب)

(١) في النسخ : (محمد بن أحمد بن حمدان) بدل (عبيد الله . . . حمدان) ، والتصويب من « طبقات الصوفية » ، وابن حمدان : هو الإمام الفقيه المُحدِّث أبو عبد الله ابن بطَّة الحنبلي صاحب « الإبانة الكبرىٰ » (ت ٣٨٧هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/٥٢٩) .

(٢) كذا في غالب النسخ ، وفي بعضها : (اليسري) ، وجاء اسمه في « طبقات الصوفية »: (أحمد بن محمد السري) .

(٣) طبقات الصوفية (ص١٠٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٦٣) .

(٤) في (و ، ي) : (لا أراك) ، فيكون من ضمن المهتوف به .

(٥) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/١٥٠٣) .

(٦) في (أ) ونسخة على هامش (د) : (وسكنت نفسه) .

فصاحبُ الفُتُوحِ يرىٰ حركةَ النَّفْسِ بالتشرُّفِ جنايةً وذنباً

رُوِيَ أنَّ أحمدَ بنَ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ خَرَجَ ذاتَ يومٍ إلىٰ شارعِ بابِ الشامِ ، فاشترىٰ دقيقاً ، ولم يكنْ في ذلكَ الموضعِ مَنْ يحملُهُ ، فوافىٰ أيُّوبَ الحَمَّالَ رحمةُ اللهِ عليهِ ، فحَمَلَهُ ودَفَعَ إليهِ أحمدُ أُجْرتَهُ ، فلمَّا دَخَلَ الدارَ بعدَ إذنِهِ لهُ . . اتَّفَقَ أنَّ أهلَ الدارِ قد خَبَزُوا ما كانَ عندَهُم مِنَ الدقيقِ ، وتركُوا الخبزَ على السريرِ يَنشَفُ ، فرآهُ أيُّوبُ وكانَ يصومُ الدهرَ ، فقالَ أحمدُ لابنِهِ صالحٍ : ادفَعْ إلىٰ أيُّوبَ مِنَ الخبزِ ، فدَفَعَ إليهِ رغيفَينِ ، فردَّهُما ، قالَ أحمدُ : ضَعْهُما ، ثمَّ صَبَرَ قليلاً ، ثمَّ قالَ خُذْهُما فالحقْهُ بهِما ، فلَحِقَهُ فأخذَهُما

فرجعَ صالحٌ مُتعجِّباً ، فقالَ لهُ أحمدُ : عَجِبتَ مِنْ ردِّهِ وأَخْذِهِ ؟ قالَ : نعم ، قالَ هـٰذا رجلٌ صالحٌ ، فرأى الخبزَ الحارَّ ، فاستشرفَتْ نَفْسُهُ إليهِ ، فلمَّا أَعْطَيْناهُ معَ الاستشرافِ ردَّهُ ، ثمَّ أَيِسَ ، فرَدَدْناهُ إليهِ بعدَ الإياسِ فقَبِلَ(١)

هـٰذا حالُ أربابِ الصدقِ ؛ إنْ سألُوا سألُوا بعلمٍ ، وإنْ أمسكُوا عنِ السؤالِ أمسكُوا بحالٍ ، وإنْ قَبِلُوا قَبِلُوا بعلمٍ ، فمَنْ لم يُرزَقْ حالَ الفُتُوحِ . . فلهُ حالُ السؤالِ والكسبِ بشرطِ العلمِ ، فأمَّا السائلُ مُستكثِراً فوقَ الحاجةِ ولا في وقتِ الضرورةِ . . فليسَ مِنَ الصُّوفيَّةِ بشيءٍ .

سَمِعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ سائلاً يسألُ ، فقالَ لمَنْ عندَهُ : ألم أَقُلْ لكَ :

---

(١) أورد هـٰذه القصة بنحوها مختصرةً أبو طالب المكي في « القوت » (٢/٩٠٦) ، والغزالي في « الإحياء » (٨/ ٢٧٩)

عَشِّ السائلَ ؟ فقالَ : قد عشَّيْتُهُ ، فنظرَ عمرُ فإذا تحتَ إبْطِهِ مِخْلاةٌ مملوءةٌ خُبْزاً ، فقالَ[1] : لستَ بسائلٍ ، ولٰكنَّكَ تاجرٌ !! ثمَّ نَثَرَ مِخْلاتَهُ بينَ يَدَيْ إبلِ الصدقةِ[2] ، وضربَهُ بالدِّرَّةِ[3] .

ورُوِيَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ في خَلْقِهِ مَثُوباتِ فَقْرٍ ، وعُقُوباتِ فَقْرٍ .

فمِنْ علامةِ الفقرِ إذا كانَ مَثُوبةً : أنْ يَحسُنَ خُلُقُهُ ، ويُطِيعَ ربَّهُ ، ولا يشكوَ حالَهُ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ فقرِهِ .

ومِنْ علامةِ الفقرِ إذا كانَ عقوبةً : أنْ يسوءَ خُلُقُهُ ، ويعصيَ ربَّهُ ، ويُكثِرَ الشِّكايةَ ، ويتسخَّطَ للقضاءِ)[4] .

فحالُ الصُّوفيِّ حُسْنُ الأدبِ في السؤالِ والفُتُوحِ ، والصدقُ معَ اللهِ علىٰ كلِّ حالٍ كيفَ تَقلَّبَ[5] .

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ي) : (فقالَ عُمَرُ : ألك عيال ؟ فقال : لا ، فقال) .

(٢) في (أ ، و) : (أهل الصدقة) ، وفي (هـ) : (أهل الصُّفَّة) .

(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٤٩٥ـ ١٤٩٦) ، والغزالي في « الإحياء » (٨/ ٧٩) .

(٤) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٤٩٦) .

(٥) في هامش (ب) : (بلغ مقابلةً) ، وفيه : (بلغ للجماعة على الشيخ أمين الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام) ، وفيه : (بلغ على الشيخ الحافظ جلال الدين ، كاتبه عبد السلام بن داود المقدسي)

الباب الحادي والعشرون

في شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصُّوفيُّ يتزوَّجُ للهِ كما يتجرَّدُ للهِ ، فلتجرُّدِهِ مَقصِدٌ وأوانٌ ، ولتأهُّلِهِ مَقصِدٌ وأوانٌ

والصادقُ يعلمُ أوانَ التجرُّدِ والتأهُّلِ ؛ لأنَّ الطبعَ الجَمُوحَ للصُّوفيِّ مُلجَمٌ بلِجامِ العلمِ ، مهما يصلُحُ لهُ التجرُّدُ لا يستعجلُهُ الطَّبْعُ إلى التزوُّجِ[١] ، ولا يُقدِمُ على التزوُّجِ إلا إذا انصلحتِ النفسُ واستحقَّتْ إدخالَ الرِّفْقِ عليها ؛ وذلكَ إذا صارتْ مُنقادةً مِطْواعةً مُجيبةً إلىٰ ما يُرادُ منها ؛ بمثابةِ الطِّفْلِ الذي يُتعاهَدُ بما يروقُ لهُ ، ويُمنَعُ عمَّا يَضُرُّهُ .

فإذا صارتِ النفسُ محكومةً مِطْواعةً . فقد فاءَتْ إلىٰ أمرِ اللهِ ، وتنصَّلَتْ عن مُشاحَنةِ القلبِ[٢] ، فيُصلَحُ بينَهُما بالعدلِ ، ويُنظَرُ في أمرِهِما بالقِسْطِ .

ومَنْ صَبَرَ مِنَ الصُّوفيَّةِ على العُزُوبةِ هـٰذا الصبرَ إلىٰ حينِ بلوغِ الكتابِ أجلَهُ . تُنتخَبُ لهُ الزوجةُ انتخاباً ، ويُهيِّئُ اللهُ لهُ أعواناً وأسباباً ، ويُنعَّمُ برِفْقٍ يُدخَلُ عليهِ ، ورِزْقٍ يُساقُ إليهِ

---

(١) في (د) : (لا يستفزُّه) بدل (لا يستعجله) .

(٢) في (ب ، ج) : (مُشاحة)

ومتى استعجلَ المُرِيدُ ، واستفزَّهُ الطبعُ ، وخامرَهُ الجهلُ ، بثَوَرَانِ دُخانِ الشهوةِ المُغطِّيةِ لشُعاعِ العلمِ[1] ، وانحطَّ مِنْ أَوْجِ العزيمةِ الذي هوَ قضيَّةُ حالِهِ ومُوجَبُ إرادتِهِ ، وشريطةُ صدقِ طلبِهِ ، إلىٰ حَضِيضِ الرُّخْصةِ التي هيَ رحمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ لعامَّةِ خَلْقِهِ . . يُحكَمُ عليهِ بالنُّقصانِ ، ويُشهَدُ لهُ بالخُسْرانِ ، ومثلُ هـٰذا الاستعجالِ هوَ حيضُ الرِّجالِ .

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رحمَهُ اللهُ : (إذا كانَ للمُرِيدِ حالٌ يتوقَّعُ بهِ زيادةً[2] ، فدَخَلَ عليهِ الابتلاءُ . . فرجوعُهُ للابتلاءِ إلىٰ حالٍ دونَ ذلكَ نُقْصانٌ وحَدَثٌ) .

وسمعتُ بعضَ الفقراءِ وقد قِيلَ لهُ : لِمَ لا تتزوَّجُ ؟ فقالَ : المرأةُ لا تصلحُ إلا للرجالِ ، وأنا ما بلغتُ مبلغَ الرِّجالِ كيفَ أتزوَّجُ ؟!

فالصادقونَ لهُم أَوانُ بلوغٍ عندَهُ يتزوَّجُونَ .

وقد تعارضَتِ الأخبارُ ، وتماثلَتِ الآثارُ في فضيلةِ التجريدِ والتزويجِ ، وتنوَّعَ كلامُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في ذلكَ لتنوُّعِ الأحوالِ ؛ فمنهُم مَنْ فضيلتُهُ في التجرُّدِ ، ومنهُم مَنْ فضيلتُهُ في التأهُّلِ .

وكلُّ هـٰذا التعارضِ في حقِّ مَنْ نارُ تَوَقانِهِ بردٌ وسلامٌ ؛ لكمالِ تَقْواهُ ، وقَهْرِهِ هواهُ ، وإلا ففي غيرِ هـٰذا الرجلِ الذي يُخافُ عليهِ الفتنةُ . . يجبُ النكاحُ في حالِ التَّوَقانِ المُفرِطِ ، ويكونُ الخلافُ بينَ الأئمَّةِ في غيرِ التائقِ .

فالصُّوفيُّ إذا صارَ مُتأهِّلاً يتعيَّنُ على الإخوانِ مُعاونتُهُ بالإيثارِ ،

---

(١) في نسخة على هامش (د ، و) : (المطفئة) بدل (المغطِّية) .

(٢) ضُبط في بعض النسخ : (يُتوقَّعُ به زيادةٌ) .

ومُسامحتُهُ في الاستكثارِ ، إذا رُئِيَ ضعيفَ الحالِ ، قاصراً عن رتبةِ الرجالِ ، كما وَصَفْنا مِنْ قبلُ مِنْ صَبْرِ مَنْ صَبَرَ حتىٰ ظَفِرَ لمَّا بَلَغَ الكتابُ أجلَهُ[١]

(٥٩) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ ، عن والدِهِ أبي الفضلِ المَقْدِسيِّ الحافظِ ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ الخطيبُ[٢] ، قالَ : أخبرَنا أبو الحسينِ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ ابنُ أخي مِيمِي ، قالَ : حدَّثَنا أبو القاسمِ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدِ بنِ عبدِ العزيزِ[٣] ، قالَ : حدَّثَنا محمَّدُ بنُ هارونَ ، قالَ حدَّثَنا أبو المغيرةِ[٤] ، قالَ : حدَّثَنا صفوانُ بنُ عمرٍو ، قالَ : حدَّثَنا عبدُ الرحمـٰنِ بنُ جُبَيرٍ ، عن أبيهِ ، عن عوفِ بنِ مالكٍ قالَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا جاءَهُ فَيْءٌ قَسَمَهُ مِنْ يومِهِ[٥] ، فأَعْطى الآهِلَ حظَّينِ[٦] ، والأعزبَ حظّاً واحداً[٧] ، فدُعِينا وكنتُ أُدعىٰ قبلَ عمَّارِ بنِ ياسرٍ ، فأَعْطاني حظَّينِ ، وأعطاهُ حظّاً واحداً ، فسَخِطَ حتىٰ عَرَفَ ذلكَ

---

(١) في (أ ، د) : (من قبل) بدل (مِنْ صَبْر) ، وانظر (١/ ٤٥٧) .

(٢) هو الصَّرِيفِينيُّ ، وقد سبق في (١/ ٤٢٩) .

(٣) هو البغوي ، وقد سبق في (١/ ٤٢٩ـ ٤٣٠)

(٤) هو الإمام المُحدِّث الصادق مسند حمص عبد القدوس بن الحجاج الخولاني الحمصي (ت ٢١٢هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ٢٢٣) .

(٥) الفيء : الغنيمة والخراج ، وفي هامش (ح) : (الفَيْءُ : ما لم يُوجَفْ عليه بخيل ولا ركاب ، والغنيمةُ : ما أُوجف عليه بالخيل والركاب) .

(٦) في (ي) ونسخة علىٰ هامش (و) : (المتأهل) بدل (الآهل) ، والآهِلُ : الذي له أهلٌ ؛ أي : زوجة .

(٧) في (ب ، ج) : (العَزَب) بدل (الأعزب) ، وكلاهما مروي ، وانظر ما سيأتي تعليقاً في (١/ ٤٧٨)

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في وجهِهِ ومَنْ حَضَرَهُ ، فبَقِيتْ معَهُ سِلْسِلَةٌ مِنْ ذهبٍ ، فجَعَلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرفعُها بطَرَفِ عصاهُ وتسقطُ وهوَ يقولُ : « كَيْفَ أَنْتُمْ يَوْمَ يَكْثُرُ لَكُمْ مِنْ هَـٰذَا ؟ » ، فلم يُجِبْهُ أحدٌ ، فقالَ عمَّارٌ : وَدِدْنا يا رسولَ اللهِ لو قد أُكثِرَ لنا مِنْ هـٰذا[1]

فالتجرُّدُ عنِ الأزواجِ والأولادِ أَعْونُ على الوقتِ للفقيرِ ، وأَجْمعُ لهَمِّهِ ، وأَلَذُّ لعيشِهِ .

ويَصلُحُ للفقيرِ في ابتداءِ أمرِهِ قَطْعُ العلائقِ ، ومَحْوُ العوائقِ ، والتنقُّلُ في الأسفارِ ، وركوبُ الأخطارِ ، والتجرُّدُ عنِ الأسبابِ ، والخروجُ عن كلِّ ما يكونُ حجاباً ، والتزوُّجُ انحطاطٌ مِنَ العزيمةِ إلى الرُّخَصِ ، ورجوعٌ مِنَ التَّروُّحِ إلى التَّنَغُّصِ ، وتَقَيُّدٌ بالأولادِ والأزواجِ ، ودَوَرانٌ حولَ مَظَانِّ الاعوجاجِ ، والتفاتٌ إلى الدنيا بعدَ الزَّهَادةِ ، وانعطافٌ على الهوىٰ بمُقتضى الطَّبيعةِ والعادةِ .

قالَ أبو سليمانَ الدَّارانيُّ : (ثلاثٌ مَنْ طَلَبَهُنَّ فقد رَكَنَ إلى الدنيا مَنْ طَلَبَ مَعَاشاً ، أو تزوَّجَ امرأةً ، أو كتبَ الحديثَ)[2]

---

(١) صفوة التصوف (٣١٤) ، ورواه بنحوه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٨/ ٤٥ـ ٤٦) ، و« مسند الشاميين » (٩٤٧) ، وأحمد (٦/ ٢٥ـ ٢٦) دون قوله : (فلم يجبه أحد. . .) ، وأبو داود (٢٩٥٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣٤٦) إلىٰ قوله : (وأعطاه حظّاً واحداً) .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٣٧٩) ، والغزالي في « الإحياء » (١/ ٢٢٧) ، وليس المرادُ من ذلك الدعوةَ إلى الرهبانية أو التنفيرَ من طلب الحديث والتكسُّب ، كما فَهِمَ ذلك بعضُ ضيّقي العَطَن ، بل المراد : أن يطلب هـٰذه الأمور حتىٰ تكون شاغلةً له عن الله تعالىٰ ، وقد أشار إلىٰ ذلك أبو سليمان بقوله (ما شَغَلَكَ =

وقالَ : (ما رأيتُ أحداً مِنْ أصحابِنا تَزوَّجَ فثبتَ علىٰ مرتبتِهِ) .

(٦٠) ـ أخبرَنا الشيخُ طاهرٌ ، قالَ أخبرَنا والدي أبو الفضلِ ، قالَ أخبرَنا محمَّدُ بنُ إسماعيلَ المُقرئُ[(١)] ، قالَ أخبرَنا أحمدُ بنُ الحسنِ[(٢)] ، قالَ : أخبرَنا حاجبُ الطُّوسيُّ[(٣)] ، قالَ : حدَّثَنا عبدُ الرحيمِ[(٤)] ، قالَ حدَّثَنا الفَزَاريُّ ، عن سليمانَ التَّيْميِّ ، عن أبي عثمانَ النَّهْديِّ ، عن أُسامةَ بنِ زيدٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ »[(٥)]

وروىٰ رجاءُ بنُ حَيْوَةَ عن مُعاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ (ابتُلِينا بالضرَّاءِ فصَبَرْنا ، وابتُلِينا بالسَّرَّاءِ فلم نَصبِرْ[(٦)] ، وإنَّ أَخْوفَ ما أخافُ عليكُم

= عن الله مِنْ أهلٍ ومال وولد. . فهو عليك شؤم) ، وكثيرٌ من رجال التصوُّف كانوا من كبار أئمَّة الحديث ، وكثيرٌ منهم أيضاً اشتَهروا بمِهَنٍ كانوا يحترفونها ويتكسَّبون منها ؛ كأيوب الحمَّال ، وإبراهيم الخوَّاص ، وأبي حمزة البزَّاز ، وأبي سعيد الخرَّاز ، وأبي حفص الحدَّاد ، وحَمْدون القصَّار ، وغيرهم الكثير رحمهم الله تعالىٰ ورضي عنهم .

(١) هو الإمام الصوفي أبو بكر التَّفْليسي النيسابوري (ت ٤٨٣هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ١١) .

(٢) هو الإمام قاضي القضاة المُحدِّث مسند خراسان أبو بكر بن أبي علي بن أحمد الحِيري النيسابوري (ت٤٢١هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٣٥٦) .

(٣) هو الإمام المُحدِّث مسند نيسابور أبو محمد بن أحمد بن يَرْحُمَ الطوسي النيسابوري (ت ٣٣٦هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٣٣٦ـ٣٣٧) .

(٤) هو ابن منيب المروزي .

(٥) صفوة التصوف (٧٧١) ، ورواه البخاري (٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤٠) .

(٦) في هامش (ح) : (الطُّغيان عند الاستغناء من طبع البشر ؛ ولذا اختار رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم الفقرَ ولم يخترِ المُلْكَ والخزائن مُذْ خيَّره الله تعالىٰ ، فكانتِ الصحابةُ رضي الله عنهم مقودين بالفقر والقِلَّة ، فلمَّا وقع الابتلاءُ بالاستغناء والنَّعْماء. . =

فتنةُ النساءِ إذا تَسَوَّرْنَ بالذهبِ ، ولَبِسْنَ رِيَطَ الشامِ وعَصْبَ اليمنِ ، وأَتْعَبْنَ الغنيَّ ، وكَلَّفْنَ الفقيرَ ما لا يجدُ)[1]

وقالَ بعضُ الحُكَماءِ : (مُعالَجةُ العُزْبةِ خيرٌ مِنْ مُعالَجةِ النساءِ)[2]

وسُئِلَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمَهُ اللهُ عنِ النساءِ ، فقالَ : الصبرُ عنهُنَّ خيرٌ مِنَ الصبرِ عليهِنَّ ، والصبرُ عليهِنَّ خيرٌ مِنَ الصبرِ على النارِ[3]

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] ؛ لأنَّهُ لا يصبرُ عنِ النساءِ[4]

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] : الغُلْمةُ[5] ؛ وهوَ ثَوَرَانُ الطبعِ .

= لم يكن حالُ بعضهم كما كان في الضرَّاء ، وهـٰذا الكلامُ مِنْ معاذ رحمه الله تعالىٰ تنبيهٌ وعِظَةٌ وتحضيضٌ على اختيار الفقر والتجرُّد) .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٤٣٦) ، وابن المبارك في « الزهد » (٧٨٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٣٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٤٦) ، والرِّيَط : جمع (رَيْطة) ؛ وهي كلُّ ثوب ليِّن رقيق ، والعَصْب : بُرُودٌ يمنية يُعصَب غَزْلُها ـ أي : يُجمَع ويُشَدُّ ـ ثمَّ يُصبغ ويُنسج فيأتي موشيّاً لبقاء ما عُصِبَ منه أبيضَ ، أو هي برودٌ مُخطَّطة ، وفي النسخ ما عدا (هـ) : (وابتغين الغنىٰ) بدل (وأتعبن الغني) .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/١٦٠٨) .

(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/١٦٠٨) ، وعزاه الغزالي في « الإحياء » (٣/١٠٢ـ١٠٣) إلىٰ أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالىٰ ، والمعنىٰ : أنَّ مَنْ لم يتزوَّج عند التَّوَقان حتىٰ وقع في الزنىٰ . فقد استحقَّ النار ؛ فالأَوْلىٰ : أنْ يتزوَّج ويصبرَ علىٰ ما يَرِدَ عليه من قِبَلِها من العوارض والمصائب . من هامش (ح) .

(٤) روي عن طاووس ومجاهد . انظر « تفسير الطبري » (٨/٢١٦) .

(٥) روي عن مكحول وسالم بن شابور . انظر « تفسير الطبري » (٦/١٣٩) ، و« تفسير ابن أبي حاتم » (٣١٠٥) .

فإنْ قَدَرَ الفقيرُ علىٰ مُقاوَمةِ النَّفْسِ ، ورُزِقَ العلمَ الوافرَ بحُسْنِ المُعامَلةِ في مُعالَجةِ النَّفْسِ ، وصَبَرَ عنهُنَّ . . فقد حازَ الفَضْلَ ، واستعملَ العقلَ ، واهتدىٰ إلى الرِّفْهِ السَّهْلِ(١)

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَيْرُكُمْ بَعْدَ ٱلْمِئَتَيْنِ رَجُلٌ خَفِيفُ ٱلْحَاذِ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما خفيفُ الحاذِ ؟ قالَ : « ٱلَّذِي لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدَ »(٢)

وقالَ بعضُ الفقراءِ لمَّا قيلَ لهُ : تزوَّجْ ؛ فقالَ : أنا إلىٰ أنْ أُطلِّقَ نَفْسي أَحْوجُ منِّي إلى التَّزَوُّجِ .

وقيلَ لبِشْرِ بنِ الحارثِ : إنَّ الناسَ يتكلَّمُونَ فيكَ ، فقالَ : ما يقولونَ ؟ قيلَ : يقولونَ : إنَّهُ تاركٌ للسُّنَّةِ ـ يعني : النكاحَ ـ فقالَ : قولُوا لهُم أنا مشغولٌ بالفرضِ عنِ السُّنَّةِ(٣)

وكانَ يقولُ (لو كنتُ أَعُولُ دجاجةً خِفْتُ أنْ أكونَ جلَّاداً على الجِسْرِ)(٤)

---

(١) الرِّفْه : أصلُهُ : مِنْ رَفَهَتِ الإبلُ ـ بالفتح ـ تَرْفَهُ رِفْهاً ورُفُوهاً : إذا وردتِ الماءَ كلَّ يوم متىٰ شاءت ، والاسم : (الرِّفْهُ) بالكسر . من هامش (ح) .

(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (ص٣٦) ، والعقيلي في « الضعفاء الكبير » (٢/ ٦٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٦٧) عن سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ، والحاذُ والحالُ واحد ، وأصلُ الحاذ : طريقة المتن ؛ وهو ما يقع عليه اللبد من ظهر الفرس ؛ أي : خفيف الظهر من العيال ، وانظر « كشف الخفاء » (١/ ٣٨٦) ، و« غنية العارف » (١/ ٢٨٤) .

(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦٠٣)، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ١٠٠).

(٤) رواه بنحوه الخطيب البغدادي في « الجامع لأخلاق الراوي » (٦٢) ، وأورده بلفظه =

والصُّوفيُّ مُبتلىً بالنَّفْسِ ومُطالَبتِها ، وهوَ في شُغْلٍ شاغلٍ مِنْ نَفْسِهِ ، فإذا انضافَ إلىٰ مُطالَبَاتِ نَفْسِهِ مُطالَبَاتُ زوجتِهِ . . يَضعُفُ طلبُهُ ، وتكِلُّ إرادتُهُ ، وتَفتُرُ عزيمتُهُ .

والنَّفْسُ إذا أُطمِعَتْ طَمِعَتْ ، وإذا قُنِّعَتْ قَنِعَتْ ، فيستعينُ الشابُّ الطالبُ علىٰ حَسْمِ موادِّ خواطِرِ النكاحِ بإدامةِ الصَّومِ ؛ فإنَّ للصومِ أثَراً ظاهراً في قَمْعِ النَّفْسِ وقَهْرِها

وقد وَرَدَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَرَّ بجماعةٍ مِنَ الشُّبَّانِ وهم يَرْبَعُونَ حَجَراً[1] ، فقالَ « يَا مَعْشَرَ ٱلشُّبَّانِ ؛ مَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمُ ٱلْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُجَاهِدْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَصُمْ ؛ فَإِنَّ ٱلصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ »[2]

وأصلُ الوِجاءِ : رَضُّ الخُصْيتَينِ ، كانتِ العربُ تَجَأُ الفَحْلَ مِنَ الغنمِ ؛ لتذهبَ فُحُولتُهُ ويَسمَنَ ، ومنهُ الحديثُ : (ضحَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بكَبْشَينِ أَمْلَحَينِ مَوجُوءَينِ)[3]

= أبو طالب المكي في « القوت » (٣/١٦٠٣) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/١٤٢) ، وفي هامش (ح) : (قال بعضُ الإخوان : إنَّ الجسرَ ببغدادَ هو موضع سياسة الجُناة) .

(١) في (ب ، ج ، ح) (يرفعون) بدل (يربعون) ، وفي (هـ) ونسخة علىٰ هامش (و ، ح) : (الحجارة) بدل (حجراً) ، والرَّفْعُ والرَّبْع بمعنىً .

(٢) رواه البخاري (١٩٠٥) ، ومسلم (٣/١٤٠٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وليس فيهما ذكرُ رفع الحجارة والمجاهدة ، والباءةُ والمَباءة : المنزل ، ثم قيل لعقد النكاح : باءة ؛ لأنَّ مَنْ تزوَّج امرأةً بوَّأها منزلاً . من هامش (ح) .

(٣) رواه ابن ماجه (٣١٢٢) ، وأحمد (٦/٢٢٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/٤٤٨) عن سيدتنا عائشة أو سيدنا أبي هريرة رضي الله عنهما ، ورواه البيهقي في =

وقد قيلَ : (هيَ النَّفْسُ إنْ لم تَشغَلْها شَغَلَتْكَ)[1]

فإذا أدامَ الشابُّ المُرِيدُ العملَ ، وأَدْأَبَ نَفْسَهُ في العبادةِ[2] . . يَقِلُّ عليهِ خواطرُ النَّفْسِ

وأيضاً شُغْلُهُ بالعبادةِ يُثمِرُ لهُ حلاوةَ المعاملةِ ، ومَحبَّةَ الإكثارِ منها ، ويفتحُ عليهِ بابَ السُّهُولةِ والعيشِ في العملِ ، فيغارُ علىٰ حالِهِ ووقتِهِ أنْ يتكدَّرَ بهَمِّ الزوجةِ

ومِنْ حُسْنِ أدبِ المُرِيدِ في عُزُوبتِهِ أَلَّا يُمكِّنَ خواطرَ النساءِ مِنْ باطنِهِ ، وكلَّما خَطَرَ لهُ خاطرُ النساءِ والشهوةِ . . يَفِرُّ إلى اللهِ تعالىٰ بحُسْنِ الإنابةِ ، فيتداركُهُ اللهُ تعالىٰ حينئذٍ بقُوَّةِ العزيمةِ ، ويُؤيِّدُهُ بمُراغَمةِ النَّفْسِ[3] ، بل ينعكسُ علىٰ نَفْسِهِ نورُ قلبِهِ ثواباً لحُسْنِ إنابتِهِ ، فتسكنُ النَّفْسُ عنِ المُطالَبةِ

ثمَّ يَعرِضُ علىٰ نَفْسِهِ ما يدخلُ عليهِ بالنكاحِ ؛ مِنَ الدخولِ في المداخلِ المذمومةِ المُؤدِّيةِ إلى الذُّلِّ والهَوَانِ ، وأَخْذِ الشيءِ مِنْ غيرِ وجهِهِ ، وما يُتوقَّعُ مِنَ القواطعِ بسببِ التفاتِ الخاطرِ إلىٰ ضَبْطِ المرأةِ وحِراستِها وكُلَفٍ لا تنحصرُ

وقد سُئِلَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما عن جَهْدِ البلاءِ ، فقالَ : كثرةُ العِيالِ ، وقِلَّةُ المالِ[4]

= « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٢٦٨) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ١٢٨) عن الحسين بن منصور الحلَّاج .

(٢) في (ز) ونسخة علىٰ هامش (أ) : (وأذاب) بدل (وأَدْأَب) .

(٣) أي : مخاصمتها

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « النفقة على العيال » (٢/ ٤٤٣) عن سيدنا عمر رضي الله عنه ، =

وقد قيلَ : (كثرةُ العِيالِ أحدُ الفقرَينِ ، وقِلَّةُ العِيالِ أحدُ اليسارَينِ)[1]

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمةُ اللهِ عليهِ يقولُ : (مَنْ تَعَوَّدَ أفخاذَ النساءِ لا يُفلحُ)[2]

ولا شكَّ أنَّ المرأةَ تدعو إلى الرَّفاهيَةِ والدَّعَةِ[3] ، وتمنعُ عن كثرةِ الاشتغالِ باللهِ وقيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ويتسلَّطُ على الباطنِ خوفُ الفقرِ ومَحَبَّةُ الادِّخارِ ، وكلُّ هـٰذا بعيدٌ عنِ المُتجرِّدِ .

وقد وردَ : « إِذَا كَانَ بَعْدَ ٱلْمِئَتَيْنِ أُبِيحَتِ ٱلْعُزُوبَةُ لأُمَّتِي »[4]

فإنْ توالتْ على الفقيرِ خواطرُ النكاحِ ، وزاحمَتْ باطنَهُ لا سيَّما في الصلاةِ والأذكارِ والتلاوةِ . . فليستعِنْ باللهِ تعالىٰ أوَّلاً ، ثمَّ بالمشايخِ والإخوانِ ، ويشرحُ الحالَ لهُم ، ويسألُهُم مسألةَ اللهِ تعالىٰ لهُ في حُسْنِ الاختيارِ ، ويطوفُ على الأحياءِ والأمواتِ والمساجدِ والمشاهدِ ، ويستعظمُ الأمرَ ، ولا يدخلُ فيهِ بقِلَّةِ الاكتراثِ ؛ فإنَّهُ بابُ فتنةٍ كبيرةٍ وخطرٌ عظيمٌ ، وقد

= وفي « إصلاح المال » (٤٦٦) ، والحاكم في « تاريخ نيسابور » كما في « كنز العمال » (٤٤٤٩١) .

(١) روى الجملة الثانية ابن أبي الدنيا في « النفقة على العيال » (١/ ٢٤٩) عن سعيد بن المُسيِّب رحمه الله تعالىٰ ، والقضاعي في « مسنده » (٣٢) عن سيدنا علي رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٩٤) عن جعفر الصادق رحمه الله تعالىٰ ، واللفظ بتمامه في « القوت » (٣/ ١٦٠٥) ، و« الإحياء » (٣/ ١٠٢) .

(٢) رواه الخطيب البغدادي في « الجامع لأخلاق الراوي » (٦٣) ، وأورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦٠٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٢) عن سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ ، وانظر « كشف الخفاء » (٢/ ٣٤) .

(٣) الدَّعَة : الراحة ، وخفض العيش .

(٤) انظر حديث سيدنا حذيفة السابق في (١/ ٤٦٣) .

قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن ١٤] ، ويُكثِرُ الضَّراعةَ إلى اللهِ تعالىٰ ، والبكاءَ بينَ يديهِ في الخَلَواتِ ، ويُكرِّرُ الاستخارةَ

وإنْ رُزِقَ القُوَّةَ والصبرَ حتىٰ يستبينَ لهُ مِنْ فضلِ اللهِ الخِيَرَةُ في ذلكَ . . فهوَ الكمالُ والتَّمامُ ؛ فقد يَكشِفُ اللهُ للصادقِ ذلكَ مَنْعاً أو إطلاقاً في منامِهِ ويقظتِهِ ، أو على لسانِ مَنْ يَثِقُ إلىٰ دينِهِ وحالِهِ أنَّهُ إذا أشارَ لا يُشِيرُ إلا علىٰ بصيرةٍ ، وإذا حَكَمَ لا يحكمُ إلَّا بحقٍّ ؛ فعندَ ذلكَ يكونُ تَزَوُّجُهُ مُدبَّراً مُعاناً فيهِ

وسَمِعْنا أنَّ الشيخَ عبدَ القادرِ الجِيليَّ رحمَهُ اللهُ قالَ لهُ بعضُ الصالحينَ لِمَ تزوَّجْتَ ؟ فقالَ : ما تزوَّجْتُ حتىٰ قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : تزوَّجْ ، فقالَ لهُ ذلكَ الرجلُ : الرسولُ لا يأمرُ إلَّا بالرُّخصةِ ، وطريقُ القومِ التَّلَزُّمُ بالعزيمةِ

فلا أعلمُ ما قالَ الشيخُ في جوابِه ، ولـٰكنِّي أقولُ : رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُ بالرُّخصةِ ، وأَمَرَ بها علىٰ لسانِ الشرعِ ، فأمَّا مَنِ التجأَ إلى اللهِ وافتقرَ إليهِ ، واستخارَهُ فكاشفَهُ اللهُ تعالىٰ بتنبيهِهِ إيَّاهُ في منامِهِ وأَمَرَهُ . . لا يكونُ هـٰذا الأمرُ أمرَ رخصةٍ ، بل هوَ أمرٌ يَتَّبِعُهُ أربابُ العزيمةِ ؛ لأنَّهُ مِنْ علمِ الحالِ لا مِنْ علمِ الحُكْمِ .

ويَدُلُّ علىٰ صِحَّةِ ما وَقَعَ لي : ما نُقِلَ عنهُ أنَّهُ قالَ : كنتُ أريدُ الزوجةَ مُدَّةً مِنَ الزمانِ ولا أتجرَّأُ على التزوُّجِ خوفاً مِنْ تكديرِ الوقتِ ، فلمَّا صَبرتُ إلىٰ

أنْ بَلَغَ الكتابُ أجلَهُ . . ساقَ اللهُ إليَّ أربعةَ أزواجٍ ما فيهِنَّ إلَّا مَنْ تُنفِقُ عليَّ إرادةً ورغبةً[١]

فهٰذهِ ثمرةُ الصبرِ الجميلِ الكاملِ .

فإذا صَبَرَ الفقيرُ وطَلَبَ الفرجَ مِنَ اللهِ تعالىٰ . . يأتيهِ الفرجُ والمخرجُ ؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

فإذا تَزوَّجَ الفقيرُ بعدَ الاستقصاءِ والإكثارِ مِنَ الضَّراعةِ والدعاءِ ، ووَرَدَ عليهِ واردٌ مِنَ اللهِ بإذنٍ . . فهوَ الغايةُ والنهايةُ .

وإنْ عَجَزَ عنِ الصبرِ إلىٰ وُرُودِ الإذنِ ، واستنفدَ جُهدَهُ في الدعاءِ والضَّراعةِ . . فقد يكونُ ذلكَ حظَّهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ويُعانُ عليهِ بحُسْنِ نيَّتِهِ[٢] ، وصِدْقِ مَقْصِدِهِ ، وحُسْنِ رجائِهِ واعتمادِهِ علىٰ ربِّهِ ، وقد نُقِلَ عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ (لا يَتِمُّ نُسُكُ الشابِّ حتىٰ يتزوَّجَ)[٣]

ونُقِلَ عن شيخٍ مِنْ مشايخِ خُراسانَ أنَّهُ كانَ يُكثِرُ التزوُّجَ ؛ حتىٰ لم يكنْ يخلو عن زوجتَينِ وثلاثٍ ، فعُوتِبَ في ذلكَ ، فقالَ : هل يعرفُ أحدٌ منكم أنَّهُ جَلَسَ بينَ يَدَيِ اللهِ تعالىٰ جَلْسةً ، أو وَقَفَ وَقْفةً في مُعاملتِهِ ، فخَطَرَ علىٰ قلبِهِ خاطرُ شهوةٍ ؟

---

(١) في (ب ، د) : (تتفق) بدل (تنفق) .

(٢) في بعض النسخ : (لحسن) بدل (بحسن)

(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦٠٩) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٦) عن طاوس بن كيسان رحمه الله تعالىٰ .

فقالوا : قد يُصيبُنا ذلكَ ، فقالَ : لو رَضِيتُ في عُمْري كلِّهِ بمثلِ حالِكُم في وقتٍ واحدٍ . . ما تزوَّجتُ قطُّ ، ولٰكنِّي ما خَطَرَ علىٰ قلبي خاطرُ شهوةٍ قطُّ يشغلُني عن حالي . . إلَّا نَفَّذتُهُ لأستريحَ منهُ ، وأرجعَ إلىٰ شُغْلي ، ثمَّ قالَ : منذُ أربعينَ سنةً ما خَطَرَ علىٰ قلبي خاطرُ معصيةٍ[1]

فالصادقونَ ما دخلُوا في النكاحِ إلَّا علىٰ بصيرةٍ ، وقصدُوا حَسْمَ موادِّ النَّفْسِ .

وقد يكونُ للأقوياءِ والعلماءِ الراسخينَ أحوالٌ في دخولِهِم في النكاحِ تختصُّ بهِم ؛ وذلكَ أنَّهُم بعدَ طولِ المُجاهداتِ والرِّياضاتِ والمُراقباتِ تَطمئِنُّ نفوسُهُم ، وتُقبِلُ قلوبُهُم ، وللقلوبِ إقبالٌ وإدبارٌ

يقولُ بعضُهُم : (إنَّ للقلوبِ إقبالاً وإدباراً ؛ فإذا أَدْبرَتْ رُوِّحتْ بالإرفاقِ ، وإذا أَقْبلَتْ رُدَّتْ إلى المِيثاقِ)[2]

فتبقىٰ قلوبُهُم دائمةَ الإقبالِ إلا اليسيرَ[3] ، ولا يدومُ إقبالُها إلا لطُمَأْنينةِ

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦٠٩) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ١٢١ـ١٢٢) ، وقال الزَّبيدي في « الإتحاف » (٥/ ٣٠٤) مُعقِّباً : (وهو الذي أوصىٰ به مشايخُنا السادة النقشبنديَّة ؛ قالوا : إذا وَقَعَ للسالك في أثناء الذكر أو المراقبة تفرقةٌ من خاطرٍ خَطَرَ بقلبه بسبب وقوع بصره علىٰ فرسٍ أعجبته أو جارية ، أو تحرَّكتْ نفسه للتزويج أو شراءِ ثوبٍ أو غيرِ ذلك . . فليدفعْ هٰذا الخاطرَ بالذكر مهما أَمْكَنَهُ ، وإلا فليُنفِّذْهُ سريعاً إن قَدَرَ عليه ثمَّ يرجع إلىٰ شُغْله ، وبهٰذا يَسلَمُ القلبُ عن توارد الخواطر المذمومةِ عليه) .

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص٤٢٩) ، وأورده مجد الدين الجزري في « المختار » (١/ ٣٣٧) ، وفيهما وفي (و) : (المشاق) بدل (الميثاق) .

(٣) يعني : قلوبُ أهل الله تميل إلى الدنيا في وقتٍ قليل . من هامش (ح) .

النُّفُوسِ ، وكَفِّها عنِ المُنازعةِ ، وتَرْكِ التشبُّثِ بالقلوبِ

فإذا اطمأنَّتِ النُّفُوسُ ، واستقرَّتْ عن طَيْشِها ونُفُورِها وشَراستِها . . يُوفَّرُ عليها حُقُوقُها ، وربَّما يصيرُ مِنْ حقوقِها حُظُوظُها ؛ لأنَّ في أداءِ الحقِّ إقناعاً ، وفي أَخْذِ الحظِّ اتِّساعاً

وهـٰذا مِنْ دقيقِ علمِ الصُّوفيَّةِ ؛ فافهَمْ ؛ فإنَّهُم يتَّسِعُونَ بالنكاحِ المُباحِ إيصالاً إلى النَّفْسِ حُظُوظَها ؛ لأنَّها ما زالتْ تُخالِفُ هواها حتىٰ صارَ داؤُها دواءَها ، وصارتِ الشهواتُ المباحةُ واللَّذَّاتُ المشروعةُ لا تَضُرُّها بحالٍ أبداً ، ولا تُفَتِّرُ عليها عزائمَها

بل كلَّما وصلتِ النُّفُوسُ الزَّكِيَّةُ إلىٰ حُظُوظِها . . ازدادَ القلبُ انشراحاً وانفساحاً ، وتصيرُ بينَ القلبِ والنَّفْسِ مُوافقةٌ يَعطِفُ أحدُهُما على الآخَرِ ، ويزدادُ كلُّ واحدٍ منهُما بما يدخلُ على الآخَرِ مِنَ الحظِّ ؛ كلَّما أَخَذَ القلبُ حظَّهُ مِنَ اللهِ . . خَلَعَ على النَّفْسِ خِلَعَ الطُّمَأْنينةِ ، فيكونُ مَزِيدُ السكينةِ للقلبِ مَزِيدَ الطُّمَأْنينةِ للنَّفْسِ ، ويُنشِدُ : [من الكامل]

إِنَّ ٱلسَّمَاءَ إِذَا ٱكْتَسَتْ كَسَتِ ٱلثَّرَىٰ   حُلَلاً يُدَبِّجُهَا ٱلْغَمَامُ ٱلرَّاهِمُ(١)

وكلَّما أخذتِ النَّفْسُ حظَّها تَرَوَّحَ القلبُ تَرَوُّحَ الجارِ المُشفِقِ براحةِ الجارِ .

---

(١) والرِّهْمة : المطر الضعيف الدائم الصغير القطر ، وأَرْهَمتِ السماءُ : أَتَتْ به ، وفي هامش (ح) : (فسماء القلب إذا لبست ثيابَ سُبُحات فيض الوهَّاب . . أمطرت أمطار الأنوار علىٰ أرض النفس ، فنبتت منها أزهارُ مكارمِ الأخلاق ، ورياحينُ من مزيد الاهتمام التي هي حُلَل كمال الإيمان ، وخِلَع نوال القُرب والعِرْفان) .

سمعتُ بعضَ الفقراءِ يقولُ : (النَّفْسُ تقولُ للقلبِ : كُنْ معي في الطعامِ أَكُنْ معَكَ في الصلاةِ) .

وهـٰذا مِنَ الأحوالِ العزيزةِ لا تصلُحُ إلا لعالمٍ ربَّانيٍّ[1] ، وكم مِنْ مُدَّعٍ يَهلِكُ بتوهُّمِهِ هـٰذا في نَفْسِهِ !! ومثلُ هـٰذا العبدِ يزدادُ بالنكاحِ ولا يَنقُصُ .

والعبدُ إذا كَمَلَ علمُهُ يأخذُ مِنَ الأشياءِ ولا تأخذُ الأشياءُ منهُ ، وقد كانَ الجنيدُ رحمةُ اللهِ عليهِ يقولُ : (أنا أحتاجُ إلى الزوجةِ كما أحتاجُ إلى الطعامِ)[2] .

وسمعَ بعضُ العلماءِ بعضَ الناسِ يَطعُنُ في الصُّوفيَّةِ ، فقالَ : يا هـٰذا ؛ ما الذي يَنقُصُهُم عندَكَ ؟ فقالَ : يأكلونَ كثيراً ، فقالَ : وأنتَ أيضاً لو جُعْتَ كما يجوعُونَ أكلتَ كما يأكُلونَ ، فقالَ : ويتزوَّجُونَ كثيراً ، فقالَ وأنتَ أيضاً لو حَفِظْتَ فرجَكَ كما يحفظُونَ تزوَّجْتَ كما يتزوَّجُونَ ، قالَ وأيُّ شيءٍ أيضاً ؟ قالَ : يسمعُونَ القولَ ، قالَ : وأنتَ أيضاً لو نَظَرْتَ كما ينظُرُونَ سمعتَ كما يسمعُونَ[3] .

---

(١) أذاب نفسَهُ بالمجاهدات ، وصفَّاها بكثرة المعاملات والرِّياضات ، حتىٰ إذا دخل عليها من حظوظها لا تعودُ إلىٰ طبعها وشراستها ، ولا ترجعُ إلىٰ شرِّ صنيعِها وعادتها من هامش (ح) .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦١٠) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ١٢٢)

(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦٠٩) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ١٢٢) ، وقولُهُ : (لو نظرتَ . . .) إلىٰ آخره ؛ أي : لو نظرتَ بعين قلبك إلى الجمال الحقيقيِّ ، وشاهدتَ بِسرِّك ما يشاهدون من الكمال الأزليِّ . . فأنت أيضاً تسمعُ ما يُنهِضُك ، وتفهم ما يُحرِّكك . من هامش (ح) .

وكانَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ (كثرةُ النساءِ ليسَ مِنَ الدُّنيا ؛ لأنَّ علياً رضوانُ اللهِ عليهِ كانَ أَزْهدَ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكانَ لهُ أربعُ نسوةٍ وسبعَ عَشْرَةَ سُرِّيَّةً)[١]

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (خيرُ هـٰذهِ الأُمَّةِ أكثرُها نساءً)[٢]

وقد ذُكِرَ في أخبارِ الأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ : أنَّ عابداً تَبَتَّلَ للعبادةِ حتىٰ فاقَ أهلَ زمانِهِ ، فذُكِرَ لنبيٍّ ذلكَ الزمانِ ، فقالَ : نِعْمَ الرجلُ لولا أنَّهُ تاركٌ لشيءٍ مِنَ السُّنَّةِ ، فنُمِيَ ذلكَ إلى العابدِ ، فأهمَّهُ ، فقالَ : ما ينفعُني عبادتي وأنا تاركُ السُّنَّةِ ؟!

فجاءَ إلى النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فسألَهُ ، فقالَ نعم إنَّكَ تاركُ التَّزَوُّجِ ، فقالَ : ما تركتُهُ أنِّي أُحرِّمُهُ ، وما مَنَعَني منهُ إلا أنِّي فقيرٌ لا شيءَ لي وأنا عِيالٌ على الناسِ ، يُطعِمُني هـٰذا مرَّةً وهـٰذا مرَّةً ، فكَرِهتُ أنْ أتزوَّجَ بامرأةٍ أَعضِلُها وأُرهِقُها جَهداً[٣] ، فقالَ لهُ النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ : وما يمنعُكَ إلَّا هـٰذا ؟ قالَ : نعم ، فقالَ : أنا أُزوِّجُكَ ابنتي ، فزوَّجَهُ النبيُّ عليهِ السلامُ ابنتَهُ[٤]

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (لو لم يَبْقَ مِنْ عُمُري

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦١٠) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ١٠١) .

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٩)

(٣) قوله : (أعضِلها) يُقال عضَّلتُ عليه تعضيلاً : إذا ضيَّقتَ عليه في أمره وحُلت بينه وبينَ ما يشتهي . من هامش (ح) .

(٤) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦١٠) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ٩٩ـ١٠٠)

إلَّا عَشَرَةُ أيَّامٍ . . أحببتُ أنْ أتزوَّجَ ولا أَلْقى اللهَ تعالىٰ عَزَباً)[١]

وما ذَكَرَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ مِنَ الأنبياءِ إلَّا المُتأهِّلينَ

وقيلَ : إنَّ يحيى بنَ زكريَّا عليهِما السلامُ تزوَّجَ لأجلِ السُّنَّةِ ولم يكنْ يَقرَبُها[٢]

وقيلَ : إنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ سينكِحُ إذا نَزَلَ إلى الأرضِ ويُولَدُ لهُ[٣]

وقيلَ : إنَّ ركعةً مِنْ مُتأهِّلٍ خيرٌ مِنْ سبعينَ ركعةً مِنْ أعزبَ[٤]

(٦١) ـ أخبرَنا الشيخُ طاهرُ بنُ أبي الفضلِ ، قالَ : أخبرَنا أبو منصورٍ محمَّدُ بنُ الحسينِ بنِ أحمدَ بنِ الهيثمِ المُقَوِّميُّ القَزْوِينيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو طلحةَ القاسمُ بنُ أبي المُنذرِ الخطيبُ ، قالَ : حدَّثَنا أبو الحسنِ عليُّ بنُ إبراهيمَ بنِ سَلَمَةَ القطَّانُ ، قالَ : حدَّثَنا أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ يزيدَ بنِ ماجَهْ ، قالَ : حدَّثَنا أحمدُ بنُ الأزهرِ ، قالَ : حدَّثَنا آدمُ[٥] ، قالَ : حدَّثَنا

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦١١) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ٩٨) ، ورواه بنحوه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٦١٦٠)

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦١٠) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ٩٤) ، وقال أبو طالب مُعلِّلاً : (قيل : لغَضِّ البصر ، وقيل : للفضل في ذلك ، كأنَّهُ أراد أن يجمع الفضائل كلَّها ، وقيل : للسُّنَّة) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « المنتظم » (٢/ ٣٩) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

(٤) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦١٤) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ١٠١) ، ورواه العقيلي في « الضعفاء الكبير » (٤/ ٢٦٤) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « ركعتانِ مِنَ المُتزوِّجِ أفضلُ مِنْ سبعينَ ركعةً مِنَ الأعزبِ » ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٢٩٢ـ٢٩٣)

(٥) هو ابن أبي إياس عبد الرحمٰن الخراساني العسقلاني

عيسى بنُ ميمونٍ ، عنِ القاسمِ[1] ، عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « ٱلنِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي ، فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ، وَتَزَوَّجُوا ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ ٱلْأُمَمَ ، وَمَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَعَلَيْهِ بِٱلصِّيَامِ ؛ فَإِنَّ ٱلصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ »[2]

وممَّا ينبغي للمُتأهِّلِ : أنْ يحذرَ الإفراطَ في المُخالَطةِ والمُعاشرةِ معَ الزوجةِ إلىٰ حدٍّ ينقطعُ عن أورادِهِ وسياسةِ أوقاتِهِ ؛ فإنَّ الإفراطَ في ذلكَ يُقوِّي النَّفْسَ وجنودَها ، ويُفتِّرُ ناهضَ الهِمَّةِ .

وللمُتأهِّلِ بسببِ الزوجةِ فتنتانِ[3] فتنةٌ لعمومِ حالِهِ ، وفتنةٌ لخصوصِ حالِهِ

ففتنةُ عمومِ حالِهِ : الإفراطُ في الاهتمامِ بأسبابِ المَعِيشةِ[4]

كانَ الحسنُ البَصْريُّ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (واللهِ ؛ ما أصبحَ اليومَ رجلٌ يُطِيعُ امرأتَهُ فيما تَهْوىٰ . . إلَّا أَكبَّهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ وجهِهِ في النارِ)[5]

---

(١) هو ابن محمد بن أبي بكر الصديق التيمي ، أحد فقهاء المدينة

(٢) سنن ابن ماجه (١٨٤٦) ، والطَّوْل : القدرة علىٰ مؤن النكاح من الكسوة والنفقة ، والوِجاء : الخصاء والوقاء ، وانظر « البدر المنير » (٧/ ٤٢٥) .

(٣) يعني : وإن كان التزوُّجُ من استرواح القلب وفسحته واتِّساعه ، ولكن فيه فتنتان لا ينبغي للمُتأهِّل السالك أن يغفل عنه . من هامش (ج) .

(٤) قوله : (بأسبابِ المَعِيشةِ) ؛ أي : معيشةِ الزوجة وتتبُّعِ مُراداتها ؛ لأنَّ النَّفْس إذا أُرسلت في ذلك استرسلت فيه واستغنت بمُراد الزوجة عن الأوراد ، وتقعُ في التفرقة بالسعي في البلاد ، وإذا قَلَّتِ الأورادُ قَلَّتِ الواردات ؛ لأنَّهُ قيل : مَنْ لم يكن له وِرْدٌ لم يكن له واردٌ ؛ لأنَّهُ ثمرتُهُ ونتيجته ، وإذا قلَّ الوارد تكدَّر القلبُ . من هامش (ج) .

(٥) رواه أحمد في « الزهد » (١٦٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٩٨) .

وفي الخبرِ : « يَأْتِي عَلَى ٱلنَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلَاكُ ٱلرَّجُلِ عَلَىٰ يَدِ زَوْجَتِهِ وَأَبَوَيْهِ وَوَلَدِهِ ؛ يُعَيِّرُونَهُ بِٱلْفَقْرِ ، وَيُكَلِّفُونَهُ مَا لَا يُطِيقُ ، فَيَدْخُلُ ٱلْمَدَاخِلَ ٱلَّتِي يَذْهَبُ فِيهَا دِينُهُ فَيَهْلِكُ »[1]

ورُوِيَ أنَّ قوماً دخلوا علىٰ يونسَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأضافَهُم ، وكانَ يدخلُ ويخرجُ إلىٰ منزلِهِ فتُؤذيهِ امرأتُهُ وتستطيلُ عليهِ وهوَ ساكتٌ ، فعَجِبُوا مِنْ ذلكَ وهابوهُ أنْ يسألوهُ ، فقالَ : لا تَعْجَبُوا مِنْ هٰذا ؛ فإنِّي سألتُ اللهَ تعالىٰ فقلتُ : يا ربِّ ؛ ما كنتَ مُعاقِبي بهِ في الآخرةِ . . فعَجِّلْهُ لي في الدنيا ، فقالَ لي إنَّ عقوبتَكَ بنتُ فلانٍ تَزَوَّجْ بها ، فتزوَّجتُ بها ، وأنا صابرٌ علىٰ ما تَرَوْنَ[2]

فإذا أَفْرطَ الفقيرُ في المُداراةِ ربَّما يتعدَّىٰ حدَّ الاعتدالِ في وجوهِ المَعيشةِ مُتطلِّباً رضا الزوجةِ .

فهٰذهِ فتنةُ عمومِ حالِهِ .

وفتنةُ خصوصِ حالِهِ : الإفراطُ في المُجالسةِ والمُخالطةِ معَ الزوجةِ ، فتنطلقُ النَّفْسُ عن قيدِ الاعتدالِ ، وتَسترِقُ الغرضَ بطولِ الاسترسالِ ، فيستولي على القلبِ بسببِ ذلكَ السهوُ والغفلةُ ، ويستحلسُ مَقَارَّ المُهْلَةِ[3] ، فيَقِلُّ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٣٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والخطابي في « العزلة » (١/ ١٠) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، وسيأتي مسنداً في (٢/ ٣٧٤ـ ٣٧٥) ، وانظر « غنية العارف » (٢/ ٢٩٥) .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٦٠٦ـ١٦٠٧) ، والغزالي في « الإحياء » (٣/ ١٣٧) .

(٣) في (د ، هـ) : (يستجلس) ، ويستحلسُ : يُغطِّي .

الواردُ لقِلَّةِ الأورادِ ، ويتكدَّرُ الحالُ لإهمالِ شروطِ الأعمالِ .

وألطفُ مِنْ هاتَينِ الفتنتَينِ : فتنةٌ أُخرىٰ تختصُّ بأهلِ القُربِ والحضورِ ؛ وذلكَ أنَّ للنُّفُوسِ امتزاجاً وارتباطاً ، وبرابطةِ الامتزاجِ[١] تعتضدُ وتشتدُّ وتتطرَّىٰ طبيعتُها الجامدةُ ، وتلتهبُ نارُها الخامدةُ[٢]

فدواءُ هـٰذهِ الفتنةِ : أنْ يكونَ للمُتأهِّلِ عندَ المُجالَسةِ عينانِ باطنتانِ ينظرُ بهِما إلىٰ مَوْلاهُ ، وعينانِ ظاهرتانِ يستعملُهُما في طريقِ هَواهُ ، وقد قالتْ رابعةُ العَدَوِيَّةُ في معنىٰ هـٰذا نَظْماً ، وتَجذِبُ بهِ لحماً وعظماً[٣] [من الكامل]

إنِّي جَعَلْتُكَ فِي ٱلْفُؤَادِ مُحَدِّثِي ... وَأَبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي

فَٱلْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ ... وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي ٱلْفُؤَادِ أَنِيسِي

وألطفُ مِنْ هـٰذهِ الفتنةِ : فتنةٌ أُخرىٰ يخشاها المُتأهِّلُ ؛ وهوَ أنْ يصيرَ للرُّوحِ استرواحٌ إلىٰ لُطفِ الجمالِ[٤] ، ويكونَ ذلكَ الاسترواحُ موقوفاً على الرُّوحِ ، ويصيرَ ذلكَ وَلِيجةً في حُبِّ الرُّوحِ المخصوصِ بالتعلُّقِ بالحضرةِ

---

(١) أي : بين الزوجين .

(٢) في هامش (ح) : (أي : لمَّا اختلط بالزوجة والزوجةُ صاحبةُ نَفْسٍ غالبة قويَّة ، فتجذب نفسُها نفسَ الزوج الراقدةَ ، وتتَّقد نارها الخامدة) .

وفي هامش (ج) : (يعني : تميلُ إلىٰ هواها كلَّ الميل ، وتستقرُّ مع طبيعتها في اليوم والليل ، فيتكدَّرُ القلبُ من صفائه بقدر ظهور النفس وقوَّتها ، وهـٰذا داءُ القلب وفتنتُهُ ؛ لأنَّهُ يُسكِّنُ حِدَّةَ طلب السالك ، ويجعل له فتوراً في السلوك والسير) .

(٣) روى البيتين ابن المقرئ في « معجمه » (٧٣) ، وأوردهما ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٩/ ١١٨) ، وقوله : (وتجذب . . .) زيادة من (ج) .

(٤) أي : جمالِ الزوجة بسبب المناسبة التي بينهما .

الإلـٰهيَّةِ ، فيتبلَّدُ الرُّوحُ[١] ، وينسدُّ بابُ المَزِيدِ مِنَ الفُتُوحِ ، وهـٰذهِ البَلَادةُ في الرُّوحِ يَعِزُّ الشعورُ بها[٢] ، فلْتُحْذَرْ

ومِنْ هـٰذا القَبيلِ دخلتِ الفتنةُ علىٰ طائفةٍ قالوا بالشاهدِ .

وإذا كانَ[٣] في بابِ الحلالِ وَلِيجةٌ في الحبِّ يتولَّدُ منها بَلَادةُ الرُّوحِ في القيامِ بوظائفِ حُبِّ الحَضْرةِ الإلـٰهيَّةِ . . فما ظَنُّكَ فيمَنْ يدَّعي ذلكَ في بابِ غيرِ مشروعٍ ، ثمَّ يَغُرُّهُ سكونُ النَّفْسِ ؟! فيظنُّ أنَّهُ لو كانَ مِنْ قَبيلِ الهوىٰ ما سكنتِ النَّفْسُ ، والنَّفْسُ لا تسكنُ في ذلكَ دائماً ، بل تَسلُبُ مِنَ الرُّوحِ ذلكَ الوصفَ وتأخذُهُ أيضاً إليها

علىٰ أنِّي استبحَثْتُ عمَّا يُبتلىٰ بهِ المفتونونَ بالشاهدِ ؛ فوجدتُ أنَّ المَحْمِيَّ مِنْ ذلكَ مِنْ صورةِ الفسقِ[٤] عندَهُ رغوةُ شرابِ الشَّهوةِ ، لو ذهبَ الشرابُ ما بَقِيَتِ الرغوةُ ، فليُحذَرْ ذلكَ جدّاً ، ولا يُسمَعْ ممَّنْ يدَّعي فيهِ حالاً وصحَّةً ؛ فإنَّهُ كذَّابٌ مُدَّعٍ

ولهـٰذا المعنىٰ قال الأطبَّاءُ : (الجماعُ يُسكِّنُ هَيَجانَ العِشْقِ وإنْ كانَ مِنْ غيرِ المعشوقِ) ؛ ليُعلَمَ أنَّ مُستندَهُ الشهوةُ[٥] ، ويُكذَّبَ مَنْ يدَّعي فيهِ حالاً .

---

(١) بل ينقصُ بقدرِ نقصانِ محبَّةِ الزوجةِ محبَّةُ المعبود من هامش (ج) .

(٢) أي لا [يفطن] لها إلا أربابُ المحبَّة الخاصَّةِ الذين خَلَتْ قلوبُهُم عن محبَّة غير الله ، فتعلَّقت أرواحهم المخلصة بالحضرة . من هامش (ح)

(٣) أي النظرُ إلى الجمال . من هامش (ح) .

(٤) أي مع أنَّهُ غيرُ مَحْميٍّ من صورة الفسق التي هي استيفاءُ قضاء الشهوة . . غيرُ مَحْميٍّ من معنى الفسق الذي هو النظر المُجرَّد إلى الأمرد ؛ إذ ليس خالياً من شهوة النفس ، بل عنده رغوة شراب الشهوة . من هامش (ح) .

(٥) قوله : (مستنده) ؛ أي : مستند الناظر إلى الشاهد . من هامش (ح) .

وهـٰذهِ فِتَنُ المُتأَهِّلِ .

وفتنةُ العَزَبِ[١] : مُرُورُ النساءِ بخاطرِهِ ، وتصوُّرُهُنَّ في مُتخيَّلِهِ ، ومَنْ أُعطِيَ الطهارةَ في باطنِهِ لا يُدنِّسُ باطنَهُ بخواطرِ الشهوةِ ، وإذا سَنَحَ الخاطرُ يمحوهُ بحُسْنِ الإنابةِ واللِّياذِ بالهربِ منهُ[٢] ، ومتىٰ سافرَ الفكرُ كَثُفَ الخاطرُ ، وخرجَ مِنَ القلبِ إلى الصَّدْرِ ، وعندَ ذلكَ يُحذِّرُ إحساسُ العضوِ بالخاطرِ ، فيصيرُ ذلكَ عملاً خفيّاً

وما أقبحَ مثلَ هـٰذا بالصادقِ المُتطلِّعِ إلى الحضورِ واليَقَظَةِ !! فيكونُ ذلكَ فاحشةَ الحالِ ، وقد قيلَ (مُرُورُ الفاحشةِ بقلبِ العارفِ كفِعْلِ الفاعلينَ لها)[٣] ، واللهُ أعلمُ .

❁ ❁ ❁

(١) في (د ، هـ ، و ، ح) : (الأعزب) ، ولم يُجوِّزْ أبو حاتم مجيئه علىٰ (أَفْعَلَ) ؛ لكونه غيرَ وارد ولا مسموع ، وأجازه غيره ، واستدلَّ له بقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : « ما في الجنَّةِ أَعْزَبُ » ، وانظر « تاج العروس » (٣/ ٣٦١)

(٢) قوله : (وإذا سَنَحَ الخاطرُ) السَّنيحُ : ما أتاك عن يمينك من طير ، وكلُّ ما عَرَضَ فقد سَنَحَ . من هامش (ح)

(٣) في هامش (ب) : (بلغ مقابلةً ، بلغ قراءةً) ، وفيه : (بلغ للجماعة على الشيخ أمين الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام) ، وفيه : (بلغ على الشيخ الحافظ جلال الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام)

الباب الثاني والعشرون

في القول في السماع قبولاً وإيثاراً[1]

قالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر : ١٧ـ ١٨][2] ، قيلَ : ﴿أَحْسَنَهُۥٓ﴾ ؛ أي : أَهْداهُ وأَرْشدَهُ[3]

وقالَ اللهُ تعالىٰ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة : ٨٣] .

هٰذا السَّماعُ هوَ السَّماعُ الحقُّ الذي لا يختلفُ فيهِ اثنانِ مِنْ أهلِ الإيمانِ ، محكومٌ لصاحبِهِ بالهدايةِ واللُّبِّ .

وهٰذا سماعٌ تَرِدُ حرارتُهُ علىٰ بَرْدِ اليقينِ[4] ، فتفيضُ العينُ بالدمعِ ؛ لأنَّهُ

---

(١) أي : في السماع الذي يُقبل ويُؤثر ؛ أي : يُختار . من « شرح المشكلات » (ق/ ٣٣) .

(٢) قوله : (عبادي) كذا في جميع النسخ بإثبات الياء ، وللسُّوسيِّ فيها ثلاثةُ أوجه : إثبات الياء في الحالين مفتوحة وصلاً ساكنة وقفاً ، وحذفها في الحالين ، وإثباتها مفتوحة وصلاً وحذفها وقفاً ، وقرأ يعقوب بإثباتها وقفاً لا وصلاً ، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين . انظر « إتحاف فضلاء البشر » (ص٤٨١) .

(٣) انظر « تفسير الطبري » (٢١/ ٢٧٣) ، و« الكشف والبيان » (٢٣/ ٢٨) .

(٤) قال في « شرح المشكلات » (ق/ ٣٣) (المراد بالبرد : سكونُ القلب وطُمأنينتُهُ ؛ وذلك لأنَّ اليقين مُستلزم لسكون القلب وطمأنينته ، كما أنَّ البرودةَ مستلزمة للسكون=

تارةً يُثِيرُ حُزْناً[١] والحزنُ حارٌّ ، وتارةً يُثِيرُ شَوقاً[٢] والشَّوقُ حارٌّ ، وتارةً يُثِيرُ نَدَماً[٣] والنَّدَمُ حارٌّ ؛ فإذا أثارَ السماعُ هٰذهِ الصفاتِ مِنْ صاحبِ قلبٍ مملوءٍ ببَرْدِ اليقينِ . . أبكىٰ وأدمعَ ؛ لأنَّ الحرارةَ والبُرُودةَ إذا اصطدمتا عَصَرتا ماءً .

فإذا أَلَمَّ السَّماعُ بالقلبِ تارةً يَخِفُّ إلمامُهُ[٤] ، فيظهرُ أَثَرُهُ في الجسدِ ، ويَقشعِرُّ منهُ الجِلْدُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وتارةً يَعظُمُ وَقْعُهُ ، ويتصوَّبُ أَثَرُهُ إلىٰ فوقُ نحوَ الدِّماغِ[٥] ، كالمُخبِرِ للعقلِ ، بعِظَمِ وَقْعِ المُتجدِّدِ الحادثِ[٦] ، فتندفقُ منهُ العينُ بالدمعِ

وتارةً يتصوَّبُ أَثَرُهُ إلى الرُّوحِ ، فتموجُ منهُ الرُّوحُ مَوْجاً يَكادُ يَضِيقُ عنهُ نِطاقُ القالَبِ ، فيكونُ مِنْ ذلكَ الصِّياحُ والاضطرابُ .

= وعدم الحركة ، والشك والظن مستلزم لاضطراب القلب وقلقِهِ وعدم سكونه ، كما أنَّ الحرارةَ مستلزمة للحركة وعدم السكون) .

(١) علىٰ ما فات من الأوقات بغير الاشتغال بالله . من هامش (ح) .

(٢) إلىٰ لقاء الله تعالىٰ . من هامش (ح) .

(٣) بالتنزُّلات الغير اللائقة بأرباب عُلُوِّ الهِمَّة . من هامش (ح)

(٤) في (ج) : (الماء منه) بدل (إلمامه) .

(٥) التصوُّب النزول من علو إلىٰ سفل ؛ كنزول المطر ، ولمَّا كان السماعُ أوَّلاً بالأذن والأذنُ أَعْلىٰ من الجسد . . فإطلاقُ النزول من علو إلىٰ سفل عليه صحيحٌ ، ولمَّا كان الدماغ أَعْمقَ من الجسد والروحُ أَعْمقَ من الدماغ . . صحَّ إطلاقُ التصوُّب علىٰ ما يظهر عليهما . من هامش (ح) .

(٦) قيل محل العقل تارةً القلب ، وتارةً الدماغ ، فإذا كان في الدماغ فهو ينهيًا لعمارة الدنيا وإصلاحها ، وإذا كان في القلب فله صلاحية عمارة العالم العلوي وقَبُول الكلام النبوي . من هامش (ج) .

وهـٰذهِ كلُّها أحوالٌ يَجِدُها أربابُها مِنْ أصحابِ الحالِ[1] ، وقد يَحكِيها بدلائلِ هوى النَّفْسِ أربابُ المِحالِ[2] ؛ رُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ ربَّما مرَّ بالآيةِ في وِرْدِهِ ، فتخنُقُهُ العَبْرةُ ويسقطُ ، ويلزَمُ البيتَ اليومَ واليومَينِ ؛ حتىٰ يُعادُ ويُحسَبُ مريضاً[3]

فالسَّماعُ يستجلبُ الرحمةَ مِنَ اللهِ الكريمِ ؛ روىٰ زيدُ بنُ أسلمَ قالَ قرأَ أُبَيُّ بنُ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فرَقُّوا ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱغْتَنِمُوا ٱلدُّعَاءَ عِنْدَ ٱلرِّقَّةِ ؛ فَإِنَّهَا رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ »[4]

وروَتْ أمُّ كُلْثُومٍ قالتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا ٱقْشَعَرَّ جِلْدُ ٱلْعَبْدِ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ . . تَحَاتَّتْ عَنْهُ ٱلذُّنُوبُ كَمَا يَتَحَاتُّ عَنِ ٱلشَّجَرَةِ ٱلْيَابِسَةِ وَرَقُهَا »[5]

---

(١) أصحاب الحال : هم الذين أثَّرت فيهم أنوارُ الأعمال الصالحة ، فوهبهم اللهُ تعالىٰ علىٰ أعمالهم بالمجازاة حالَ الوجد والذوق ، وحالَ الكشف والمشاهدةِ والمُعاينة والمعرفةِ بشرط الاستقامة . من هامش (ح) .

(٢) في (ب) ونسخة علىٰ هامش (و) : (راكب أرباب) بدل (أرباب) ، والمِحال : المكر والكيد

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٩٨) ، وابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٣٥٢) .

(٤) رواه ابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (١٥٢) ، والقضاعي في « مسنده » (٦٩٢) ، وسنده منقطع .

(٥) رواه البزار في « مسنده » (١٣٢٢) ، وأبو بكر البغدادي في « الغيلانيات » (٢٨٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٨٢) عن أم كلثوم عن أبيها العباس رضي الله عنهما .

وورَدَ أيضاً « إِذَا ٱقْشَعَرَّ ٱلْجِلْدُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ . حَرَّمَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ عَلَى ٱلنَّارِ »(١)

وهٰذهِ جملةٌ لا تُنكَرُ ولا اختلافَ فيها ، إنَّما الاختلافُ في سماعِ الأشعارِ بالألحانِ ، وقد كَثُرَتِ الأقوالُ في ذلكَ وتباينتِ الأحوالُ ؛ فمِنْ مُنكِرٍ يُلحِقُهُ بالفِسْقِ ، ومِنْ مُولَعٍ بهِ يشهدُ بأنَّهُ واضحُ الحقِّ ، ويتجاذبانِ في طَرَفَيِ الإفراطِ والتفريطِ

قيلَ لأبي الحسنِ بنِ سالمٍ : كيفَ تُنكِرُ السَّماعَ وقد كانَ الجُنيدُ وسَرِيٌّ السَّقَطِيُّ وذو النُّونِ يسمعُونَ ؟! فقالَ : كيفَ أُنكِرُ السَّماعَ وقد أجازَهُ وسَمِعَهُ مَنْ هوَ خيرٌ منِّي ، وقد كانَ جعفرٌ الطيَّارُ يسمعُ ، وإنَّما المُنكَرُ اللَّهوُ واللعبُ في السَّماعِ(٢)

وهٰذا قولٌ صحيحٌ .

(٦٢) ـ أخبرَنا الشيخُ طاهرُ بنُ أبي الفضلِ ، عن أبيهِ الحافظِ المَقْدِسيِّ ، قالَ : أخبرَنا أبو القاسمِ الحسينُ بنُ محمَّدِ بنِ الحسنِ الخَوَافيُّ(٣) ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ ، قالَ : حدَّثَنا

---

(١) رواه الثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٣/٤٨ـ٤٩) ، ومن طريقه البغوي في « تفسيره » (٧/١١٦) عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/١٠٩٤) ، وأبو الحسن : هو علي بن سالم البصري صاحبُ سهل التستري وشيخُ أبي طالب صاحب « القوت » .

(٣) الخَوَافي : نسبة إلىٰ (خَوَافَ) ؛ وهي ناحية من نواحي نيسابور كثيرة القرىٰ والخضرة . انظر « الأنساب » (٥/٢١٩) ، واسمه في « صفوة التصوف » : (الحسن) بدل (الحسين) .

أبو بكرِ بنُ وَثَّابٍ ، قالَ : حدَّثَنا عِمْرانُ بنُ الخطَّابِ ، قالَ : حدَّثَنا الأَوْزاعيُّ ، عنِ الزُّهْريِّ ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ دَخَلَ عليها وعندَها جاريتانِ تُغنِّيانِ وتضربانِ بدُفَّينِ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُسجّىً بثوبِهِ ، فانتهرَهُما أبو بكرٍ ، فكَشَفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن وجهِهِ ، وقالَ : « دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ ؛ فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ »(١)

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها (رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَسترُني بردائِهِ وأنا أنظرُ إلى الحَبَشَةِ يلعبُونَ في المسجدِ حتىٰ أكونَ أنا أسأمُ)(٢)

وقد ذَكَرَ الشيخُ أبو طالبٍ المَكِّيُّ رحمَةُ اللهِ عليهِ ما يَدُلُّ علىٰ تجويزِهِ ، ونَقَلَ ذلكَ عن كثيرٍ مِنَ السلفِ ؛ صحابيٍّ وتابعيٍّ وغيرِهِم(٣)

وقولُ الشيخِ أبي طالبٍ المَكِّيِّ يُعتبَرُ ؛ لوُفُورِ عِلْمِهِ ، وكمالِ حالِهِ ، وعِلْمِهِ بأحوالِ السَّلَفِ ، ومكانِ ورعِهِ وتَقْواهُ ، وتحرِّيهِ الأَصْوبَ والأَوْلىٰ

---

(١) صفوة التصوف (٣٢٢) ، ورواه البخاري (٣٥٢٩) ، ومسلم (٨٩٢/ ١٧) .

(٢) رواه البخاري (٥٢٣٦) ، ومسلم (٨٩٢/ ١٨) .

(٣) انظر « قوت القلوب » (٢/ ١٠٨٩) وما بعدها ، وممَّن سمع من الصحابة : عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة ابن الجرَّاح ، وبلال المؤذن ، وعبد الله بن الأرقم ، وحمزة بن عبد المطلب ، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، ومن التابعين : سعيد بن المُسيِّب ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمٰن بن حسان ابن ثابت ، والقاضي شريح ، وسعيد بن جُبير ، والشَّعْبي ، وعطاء بن أبي رباح ، وغيرهم رحمهم الله تعالىٰ ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٦/ ٤٥٨-٤٦٢) .

وقالَ (في السَّماعِ حرامٌ وحلالٌ وشُبهةٌ ؛ فمَنْ سَمِعَهُ بنَفْسٍ مُشاهِدةٍ شهوةً وهوىً . . فهوَ حرامٌ .

ومَنْ سَمِعَهُ بمعقولِهِ علىٰ صفةِ مباحٍ مِنْ جاريةٍ أو زوجةٍ . . كانَ شُبهةً ؛ لدخولِ اللَّهوِ فيهِ .

ومَنْ سَمِعَهُ بقلبٍ بمُشاهَدةِ معانٍ تَدُلُّهُ على الدليلِ[1] ، وتشهدُهُ طُرُقاتِ الجليلِ . . فهوَ مباحٌ)[2]

هٰذا قولُ الشيخِ أبي طالبٍ المَكِّيِّ ، وهوَ الصحيحُ .

فإذاً : لا يُطلَقُ القولُ بمنعِهِ وتحريمِهِ ، والإنكارِ علىٰ مَنْ يسمعُ ؛ كفِعْلِ القُرَّاءِ المُتزهِّدِينَ المُبالِغِينَ في الإنكارِ ، ولا يُفسَحُ فيهِ على الإطلاقِ ؛ كفِعْلِ بعضِ المُستهتِرِينَ بهِ المُهمِلِينَ شروطَهُ وآدابَهُ ، المُقيمِينَ على الإصرارِ .

ونُفصِّلُ الأمرَ فيهِ تفصيلاً ، ونُوضِّحُ الماهيَّةَ فيهِ تحريماً وتحليلاً :

فأمَّا الدُّفُّ والشَّبَّابَةُ[3] وإنْ كانَ في مذهبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ فيهِما فُسْحَةٌ . . فالأَوْلىٰ : تركُهُما ، والأَخْذُ بالأَحْوطِ ، والخروجُ مِنَ الخلافِ .

وأمَّا غيرُ ذلكَ : فإنْ كانَ مِنَ القصائدِ في ذِكْرِ الجنَّةِ والنارِ ، والتشويقِ إلىٰ دارِ القَرارِ ، ووصفِ نِعَمِ المَلِكِ الجبَّارِ ، وذِكْرِ العباداتِ ، والترغيبِ في الخيراتِ . . فلا سبيلَ إلى الإنكارِ ؛ ومِنْ ذلكَ القَبيلِ : قصائدُ الغُزَاةِ

---

(١) في بعض النسخ : (مشاهدِ معاني تدل على الطريق) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٠٩٠) .

(٣) الشَّبَّابة : هي المُسمَّاة بـ (الناي) .

والحُجّاجِ في وَصْفِ الحجِّ والغَزْوِ ؛ ممَّا يُثِيرُ كامنَ العَزْمِ مِنَ الغازي ، وساكنَ الشوقِ مِنَ الحاجِّ

وأمَّا ما كانَ فيهِ ذِكْرُ القُدُودِ والخُدُودِ ووصفُ النساءِ . . فلا يليقُ بأهلِ الدِّياناتِ الاجتماعُ لمِثْلِ ذلكَ .

وأمَّا ما كانَ مِنْ ذِكْرِ الهَجْرِ والوَصْلِ والقطيعةِ والصَّدِّ ممَّا يَقرُبُ حملُهُ علىٰ أمورِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ مِنْ تَلَوُّنِ أحوالِ المُريدِينَ ودخولِ الآفاتِ على الطالبِينَ . . فمَنْ سَمِعَ ذلكَ وحَدَثَ عندَهُ نَدَمٌ علىٰ ما فاتَ ، أو تجدَّدَ عندَهُ عَزْمٌ لِمَا هوَ آتٍ . . فكيفَ يُنكَرُ سماعُهُ ؟!

وقد قيلَ : إنَّ بعضَ الواجدينَ كانَ يقتاتُ السَّماعَ[1] ، ويتقوَّىٰ بهِ على الطَّيِّ والوِصالِ[2] ، ويُثِيرُ عندَهُ مِنَ الشَّوقِ ما يُذهِبُ عنهُ لَهَبَ الجوعِ[3]

فإذا استمعَ العبدُ إلىٰ بيتٍ مِنَ الشعرِ وقلبُهُ حاضرٌ فيهِ ، ويسمعُ الحاديَ يقولُ مَثَلاً[4] : [من الوافر]

أَتُــوبُ إِلَيْـكَ يَـا رَحْمَـٰـنُ إِنِّـي ... أَسَأْتُ وَقَدْ تَضَاعَفَتِ ٱلذُّنُوبُ

فَـأَمَّـا مِـنْ هَـوَىٰ لَيْلَـىٰ وَحُبِّـي ... زِيَـارَتَهَـا فَـإِنِّــي لَا أَتُــوبُ

فطابَ قلبُهُ ؛ لِمَا يَجِدُهُ مِنْ قُوَّةِ عَزْمِهِ على الثَّباتِ ، في أَمْرِ الحقِّ إلى المماتِ . . يكونُ في سماعِهِ هٰذا ذاكراً للهِ تعالىٰ .

---

(١) الوجد : عبارة عن واردٍ يَرِدُ من الله على القلب ، ويُغيِّره من الهيئة التي [كان] عليها قبلُ بإحداث وصف من الحزن أو الفرح أو الشوق . من هامش (ح) .

(٢) الطَّيُّ : تعمُّد الجوع

(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ١٠٩١) .

(٤) البيتان لمجنون ليلىٰ في « ديوانه » (ص٣٦) ، والبيت الأول زيادة من (ي) .

قالَ بعضُ أصحابِنا : (كُنَّا نعرفُ مواجيدَ أصحابِنا في ثلاثةِ أشياءَ : عندَ المَسائلِ ، وعندَ الغَضَبِ ، وعندَ السَّماعِ)[1]

وقالَ الجُنيدُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (تنزلُ الرحمةُ علىٰ هـٰذهِ الطائفةِ في ثلاثةِ مواضعَ عندَ الأكلِ ؛ لأنَّهُم لا يأكلُونَ إلَّا عن فاقةٍ ، وعندَ المُذاكرةِ ؛ لأنَّهُم لا يتحاورُونَ إلَّا في مقاماتِ الصِّدِّيقينَ ، وأحوالِ النبيِّينَ ، وعندَ السَّماعِ ؛ لأنَّهُم يسمعُونَ بوَجْدٍ ويشهدُونَ حقاً)[2]

وسُئِلَ رُوَيمٌ رحمَهُ اللهُ عن وَجْدِ الصُّوفيَّةِ عندَ السَّماعِ ، فقالَ : يتنبَّهُونَ للمعاني التي تَعزُبُ عن غيرِهم ، فتُشيرُ إليهِم[3] : إليَّ إليَّ ، فيتنعَّمُونَ بذلكَ مِنَ الفَرَحِ ، ويَقَعُ الحجابُ للوقتِ ، فيعودُ ذلكَ الفَرَحُ بكاءً ؛ فمنهُم مَنْ يَخرِقُ ثيابَهُ ، ومنهُم مَنْ يبكي ، ومنهُم مَنْ يصيحُ[4]

(٦٣) ـ أخبرَنا أبو زرعةَ إجازةً ، عنِ ابنِ خلفٍ إجازةً[5] ، عنِ السُّلَميِّ قالَ : سمعتُ أبا سهلٍ محمَّدَ بنَ سليمانَ يقولُ[6] : (المستمعُ بينَ استتارٍ

---

(١) انظر « قوت القلوب » (٢/ ١٠٩١) .

(٢) رواه أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ١٠٩١) ، وأورده أبو نصر السراج في « اللمع » (ص٣٤٣) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٨٣) ، وقوله : (ويشهدون حقاً) لا خَلْقاً ؛ لأنَّ بواطنهم خَلَتْ من التعلُّق بالخلق ، وامتلأت من حبِّ الحقِّ ، فإذا سمعوا ممَّا كان بينهم وبين الحقِّ . . شاهدوا الحقَّ وانتهضوا إليه . من هامش (ح)

(٣) في (ج) : (فتسير) بدل (فتشير) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص٦٨٥) ، وأورده الخركوشي في « تهذيبه » (ص٣٣٥) .

(٥) سقط التصريح بالإجازة من غالب النسخ .

(٦) **أبو سهل** : هو الصُّعْلُوكي الأستاذ الكبير وإمام المسلمين في زمانه علماً وورعاً وزهداً رحمه الله تعالىٰ .

وتَجَلٍّ[١] ؛ فالاستتارُ يُورِثُ التَّلَهُّبَ[٢] ، والتجلِّي يُورِثُ المزيدَ[٣] ؛ فالاستتارُ يتولَّدُ منهُ حركاتُ المُريدينَ ، وهوَ مَحَلُّ الضَّعْفِ والعَجْزِ ، والتجلِّي يتولَّدُ منهُ السُّكُونُ للواصلينَ ، وهوَ مَحَلُّ الاستقامةِ والتمكينِ ، وكذلكَ مَحَلُّ الحَضْرةِ ؛ ليسَ فيهِ إلَّا الذُّبُولُ تحتَ مواردِ الهَيبةِ)[٤]

قالَ الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ : سمعتُ جدِّي يقولُ : (المستمعُ ينبغي أنْ يسمعَ بقلبٍ حَيٍّ ونَفْسٍ ميتةٍ ، ومَنْ كانَ قلبُهُ ميّتاً ونَفْسُهُ حيّةً . . لا يَحِلُّ لهُ السماعُ)[٥]

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر ١] : الصوتُ الحَسَنُ[٦]

---

(١) المراد بالاستتار احتجابُ نور الحقيقةِ بظهور صفات البشريَّة وتراكمِ ظُلُماتها ، وبالتجلِّي : انكشافُ شمس الحقيقة [عن] غُيُوم صفات البشريَّة بغَيبتها وزوالها . من هامش (ح) ، وفي هامش (ج) (أي : المستمع لا يخلو إمَّا أن يكون في حجاب وستر ، وهو يُورِثُ احتراقاً وحزناً واضطراباً ، وإمَّا أن يكون في تجلٍّ وكشف ، وهو يزيد في حاله وثباته ويقينه) .

(٢) أي : الاحتراق بنار الهجران والفقدان . من هامش (ح)

(٣) أي : التنعُّم بمزيد الوصال والوجدان . من هامش (ح) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص٦٨٦) ، والجملة الأخيرة فقط في « تفسير السلمي » (٢/ ٢٤٤) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٣٣٦) ، وجدُّ السلمي : هو الإمام القُدْوة الربَّاني شيخ نيسابور أبو عمرو إسماعيل بن نُجيدٍ السُّلمي النيسابوري ، وهو جدُّه لأمه انظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ١٤٦) ، وفي هامش (ح) : (من علامة موت القلب : نسيانُ الرب ، ونسيانُ الآخرة ، والانكبابُ إلىٰ أشغال الدنيا ، واتِّباعُ الهوىٰ) .

(٦) رواه الثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٢/ ١٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤) عن ابن شهاب رحمه الله تعالىٰ ، وانظر « النكت والعيون » (٤/ ٤٦٢)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ « للهُ تعالىٰ أَشَدُّ أَذَناً لِلرَّجُلِ ٱلْحَسَنِ ٱلصَّوْتِ بِٱلْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ قَيْنَةٍ إِلَىٰ قَيْنَتِهِ »(١)

نُقِلَ عنِ الجُنيدِ رحمةُ اللهِ عليهِ قالَ : رأيتُ إبليسَ في النومِ ، فقلتُ لهُ : هل تظفَرُ مِنْ أصحابِنا بشيءٍ أو تنالُ منهُم شيئاً ؟ فقالَ : إنَّهُ يَعسُرُ عَلَيَّ شأنُهُم ، ويَعظُمُ عليَّ أنْ أُصِيبَ منهُم شيئاً ، إلا في وقتَينِ ، قلتُ : أيَّ وقتٍ ؟ قالَ : وقتَ السَّماعِ ، وعندَ النَّظَرِ ؛ فإنِّي أسترقُ منهُم فيهِ ، وأدخلُ عليهِم بهِ

قالَ : فحُكِيتْ رُؤْيايَ لبعضِ المشايخِ ، فقالَ : لو رأيتُهُ قلتُ لهُ : يا أحمقُ ؛ مَنْ سَمعَ منهُ إذا سَمعَ ، ونَظَرَ إليهِ إذا نَظَرَ . أتربحُ أنتَ عليهِ شيئاً أو تظفَرُ منهُ بشيءٍ ؟! فقلتُ : صدقتَ(٢)

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٤٠) ، وأحمد (٦/ ١٩) ، وابن حبان (٧٥٤) ، والحاكم (١/ ٥٧١) عن سيدنا فَضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه ، والأَذَنُ : الاستماع ، وقولُهُ : (من صاحب قينة إلىٰ قينته) ؛ أي : من استماع مالك جارية مغنِّية إلىٰ غنائها ، وإطلاقُ القَيْنة على المُغنِّية علىٰ ما هو المتعارف ، وإلا ففي أصل كلام العرب : القَيْنةُ : الأَمَةُ مُغنِّيةً كانت أو غيرَ مُغنِّيةٍ ، والجمعُ : (القِيان) . من هامش (ح) .

(٢) أورد هـٰذه القصة الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٥٢١) ، ويشبه هـٰذه القصةَ ما رواه القشيري في « رسالته » (ص٦٩٧) عن أبي الحارث الأولاسي قال : (رأيتُ إبليس ـ لعنه الله ـ في المنام علىٰ بعض سطوح أولاسَ وأنا علىٰ سطح ، وعلىٰ يمينه جماعةٌ وعلىٰ يساره جماعة ، وعليهم ثيابٌ لِطافٌ ، فقال لطائفة منهم : قولوا ، فقالوا وغنَّوا ، فاستفرغني طِيبُهُ حتىٰ هممتُ أن أطرحَ نفسي من السطح ، ثمَّ قال : ارقصُوا ، فرقصُوا أطيبَ ما يكون ، ثمَّ قال لي : يا أبا الحارث ؛ ما أصبتُ شيئاً أدخلُ به عليكم إلا هـٰذا) ؛ وذلك من حيثُ اشتمالُهُ على الرياء والعُجب ؛ فإنَّ العبدَ يستفزُّهُ السماع حتىٰ يقوم قبل وقته ، فلا يكون مغلوباً ولا معذوراً ، وربَّما قام مغلوباً وسُرِّيَ عنه فلا يهونُ عليه أن يقعد ، ويتمادىٰ في التواجد مُتكلِّفاً ، فيكونُ مُرائياً ؛ لأنَّهُ فَعَلَ ذلك خوفاً من =

وروَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : كانتْ عندي جاريةٌ تُسمِعُني ، فدخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهيَ علىٰ حالتِها ، ثمَّ دخلَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ففرَّتْ ، فضَحِكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ عمرُ : ما يُضحِكُكَ يا رسولَ الله ؟ فحدَّثَهُ حديثَ الجاريةِ ، فقالَ : لا أَبْرَحُ حتىٰ أسمعَ ما سَمِعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأَمَرَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأَسْمعَتْهُ(١)

وذكرَ الشيخُ أبو طالبٍ المَكِّيُّ رحمَهُ اللهُ قالَ : (كانَ لعطاءٍ جاريتانِ تُلَحِّنانِ ، وكانَ إخوانُهُ يستمعونَ إليهما)(٢) ، وقالَ : (أَدْرَكْنا أبا مروانَ القاضيَ ولهُ جَوارٍ يُسمِعْنَ التلحينَ أَعَدَّهُنَّ للصُّوفيَّةِ)(٣)

وهٰذا القولُ نقلتُهُ مِنْ قولِ الشيخِ أبي طالبٍ المَكِّيِّ رحمَهُ اللهُ، وعندي اجتنابُ ذلكَ هوَ الصوابُ ، وهٰذا لا يسلمُ إلا بشرطِ طهارةِ القلبِ ، وغَضِّ البصرِ ، والوفاءِ بشرطِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، وما هٰذا القولُ مِنَ الشيخِ أبي طالبٍ المَكِّيِّ إلا مُستغرَبٌ عجيبٌ ،

= نسبته إلىٰ ضعف حاله وقلَّة وَجْده . انظر « إحكام الدلالة » (٤/ ١٤٦) ، وفي هامش (ح) عند قوله : (صدقت) : (وهٰذا يكونُ لأرباب النفوس المُطمئنَّةِ وأصحابِ القلوب المُحِبَّة المشاهِدة ، فهو لا يصيبُ منهم شيئاً ، ويربحُ علىٰ أرباب التلوين ؛ لبقايا نفوسهم ، وتطلُّعِهم إلى الأغيار) .

(١) رواه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (١٢٥٨) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٥٩) ، وابن طاهر المقدسي في « صفوة التصوف » (٣٣٥) ، وانظر « تنزيه الشريعة المرفوعة » (٢/ ٢٢٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٠٩٤) ، وتُلحِّنان : تُغنِّيان بالألحان .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٠٩٤) .

والتنزُّهُ عن مِثْلِ ذلكَ هوَ الصحيحُ .

وفي الحديثِ في مَدْحِ داودَ عليهِ السلامُ : أنَّهُ كانَ حَسَنَ الصوتِ بالنِّياحةِ علىٰ نَفْسِهِ ، وبتلاوةِ الزَّبُورِ ، حتىٰ كانَ يجتمعُ الجنُّ والإنسُ والطيرُ لسماعِ صوتِهِ ، وكانَ يُحمَلُ مِنْ مجلسِهِ آلافٌ مِنَ الجنائزِ(١)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في مَدْحِ أبي موسى الأَشْعَرِيِّ رضيَ اللهُ عنهُ : « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ »(٢)

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إِنَّ مِنَ ٱلشِّعْرِ لَحِكْمَةً »(٣)

ودَخَلَ رجلٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَهُ قومٌ يقرؤُونَ القرآنَ وقومٌ يُنشِدُونَ الشِّعْرَ ، فقالَ يا رسولَ الله ؛ قرآنٌ وشِعْرٌ ؟! فقالَ : « مِنْ هَـٰذَا مَرَّةً ، وَمِنْ هَـٰذَا مَرَّةً »(٤)

---

(١) رواه بنحوه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ١٠٠) عن وهب بن منبه رحمه الله تعالىٰ ، وروىٰ عن غيره أيضاً آثاراً تُؤيِّد المثبت ، وفي هامش (ح) : (الرُّوحُ إذا استمع الصوتَ الحسن واستلذَّ بذلك . . يذكرُ مخاطبة الحقِّ إيَّاه بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف ١٧٢] ، فحنَّ إلى العَود إلى الحضرة [الربَّانيَّة] ، وطار من الأوكار البشريَّة إلى الحضرة العِنْديَّة) .

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣/ ٢٣٦) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ورواه مسلم (٧٩٣/ ٢٣٥) عن سيدنا بريدة الأسلمي رضي الله عنه ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٣٠٧ـ٣٠٨) .

(٣) رواه البخاري (٦١٤٥) عن سيدنا أُبي بن كعب رضي الله عنه ، وروي عن غيره أيضاً ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٣٠٨) .

(٤) قال الغماري في « غنية العارف » (١/ ٣٠٩) : (لا أصل له ، وهو باطل) .

وأنشدَ النابغةُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبياتَهُ التي فيها : [من الطويل]

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وَلَا خَيْرَ فِي أَمْرٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَكِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ ٱلأَمْرَ أَصْدَرَا

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَحْسَنْتَ يَا أَبَا لَيْلَىٰ ، لَا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ » ، فعاشَ أكثرَ مِنْ مئةِ سنةٍ ، وكانَ أحسنَ الناسِ ثغراً(١)

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضعُ لحسَّانَ مِنبَراً في المسجدِ ، فيقومُ على المِنبَرِ قائماً يهجو الذينَ كانُوا يهجُونَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ رُوحَ ٱلْقُدُسِ مَعَ حَسَّانَ مَا دَامَ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »(٢)

ورأىٰ بعضُ الصالحينَ أبا العبَّاسِ الخَضِرَ قالَ : قلتُ لهُ : ما تقولُ في

---

(١) رواه الحارث بن أبي أسامة كما في « بغية الباحث » (٨٩٤) ، وتمَّام في « فوائده » (١٤٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ١٣٢) عن النابغة الجعدي ، والبيتان في « ديوانه » (ص٨٥) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٣٠٩ـ٣١١) ، والفَضُّ : الكسر .

(٢) رواه أبو داود (٥٠١٥) ، والترمذي (٢٨٤٦) ، وأحمد (٦/ ٧٢) ، والحاكم (٣/ ٤٨٧) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، ورُوح القُدُس : جبريل عليه الصلاة والسلام ، وسُمِّي بذلك ؛ لأنَّهُ كان يأتي الأنبياءَ بما فيه حياةُ القلوب ، فهو كالمبدأ لحياة القلوب ، كما أنَّ الرُّوحَ مبدأُ حياة الجسد ، والقدس صفة للروح ، وإنَّما أُضيف إليه ؛ لأنَّهُ مجبولٌ على الطهارة والنزاهةِ عن العيوب ، وقيل : القدس بمعنى المُقدَّس ؛ وهو الله ، وإضافة (الروح) إليه للتشريف ، ويُنافح : يُدافع ويُناضل .

السَّماعِ الذي يختلفُ فيهِ أصحابُنا ؟ فقالَ هوَ الصَّفاءُ الزُّلالُ الذي لا يثبتُ عليهِ إلا أقدامُ العلماءِ[1]

ونُقِلَ عن مِمْشاذَ الدِّينَوَرِيِّ قالَ رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقلتُ : يا رسولَ الله ؛ هل تُنكِرُ مِنْ هٰذا السَّماعِ شيئاً ؟ فقالَ : ما أُنكِرُهُ ، ولٰكن قُلْ لهُم يفتتحُونَ قَبْلَهُ بقراءةِ القرآنِ ، ويَختتِمُونَ بعدَهُ بالقرآنِ .

فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّهُم يُؤذُونَني ويَنبسِطُونَ ، فقالَ : احتمِلْهُم يا أبا عليٍّ ؛ هم أصحابُكَ ، فكانَ مِمْشاذُ يفتخرُ ويقولُ : كنَّاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2]

وأمَّا وجهُ الإنكارِ فيهِ : فهوَ أنْ يُرىٰ جماعةٌ مِنَ المُريدينَ دخلُوا في مبادئِ الإرادةِ ونفوسُهُم ما تمرَّنتْ علىٰ صِدْقِ المُجاهدةِ حتىٰ يحدثَ عندَهُم عِلْمٌ بظهورِ صفاتِ النَّفْسِ وأحوالِ القلبِ ؛ حتىٰ تنضبطَ حركاتُهُم

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/١٠٩٢) ، والغزالي في « الإحياء » (٤/٤١٧) ، والخَضِرُ حيٌّ عند جماهير أهل العلم ؛ قال ابن الصلاح في « فتاويه » (١/١٨٥) : (وأمَّا الخضر عليه السلام فهو من الأحياء عند جماهير الخاصَّة من العلماء والصالحين ، والعامَّةُ معهم في ذلك ، وإنَّما شذَّ بإنكار ذلك بعضُ أهل الحديث) ، وهو نبيٌّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، واختلفوا في كونه مرسلاً ، وانظر « تهذيب الأسماء واللغات » (١/١٧٦ـ١٧٧) ، وفي هامش (ج) عند قوله (هو الصفاء) : (يعني : هو في غاية اللَّطَافة يتغيَّر بأدنىٰ شيء ، وإذا كان في غاية الصفاء لم يكن محظوظاً به إلَّا أهلُ الصفاء) .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/١٠٩٢) ، والغزالي في « الإحياء » (٤/٤١٧) ، وليس فيه : (فقلت : يا رسول الله ؛ إنهم يؤذونني . . .) .

بقانونِ العِلْمِ ، ويعلمُوا ما لهُم وعليهِم .

حُكِيَ : أنَّ ذا النُّونِ رحمَهُ اللهُ لمَّا دَخَلَ بغدادَ دَخَلَ عليهِ جماعةٌ ومعَهُم قَوَّالٌ ، فاستأذنُوهُ أنْ يقولَ شيئاً ، فأَذِنَ لهُ ، فأنشدَ القَوَّالُ [من مجزوء الوافر]

صَغِيرُ هَوَاكَ عَذَّبَنِي فَكَيْفَ بِهِ إِذَا ٱحْتَنَكَا

وَأَنْتَ جَمَعْتَ مِنْ قَلْبِي هَوىً قَدْ كَانَ مُشْتَرَكَا

أَمَا تَرْثِي لِمُكْتَئِبٍ إِذَا ضَحِكَ ٱلْخَلِيُّ بَكَىٰ[(1)]

فطابَ قلبُهُ ، وقامَ وتواجدَ ، وسقطَ علىٰ جبهتِهِ والدمُ يَقطُرُ مِنْ جبهتِهِ ولا يقعُ على الأرضِ ، ثمَّ قامَ واحدٌ منهُم ، فنَظَرَ إليهِ ذو النُّونِ فقالَ ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الشعراء : ٢١٨] ، فجلسَ الرجلُ ، فكانَ جلوسُهُ لموضعِ صدقِهِ وعِلْمِهِ أنَّهُ غيرُ كاملِ الحالِ الصالحِ للقيامِ مُتواجِداً[(2)]

فيقومُ أحدُهُم مِنْ غيرِ بصيرةٍ وعِلمٍ في قيامِهِ ؛ وذلكَ إذا سَمِعَ إيقاعاً موزوناً بسَمْعٍ موزونٍ يُؤدِّي ما يسمعُهُ إلىٰ طَبْعٍ موزونٍ ، فيتحرَّكُ بالطبعِ الموزونِ للصوتِ الموزونِ والإيقاعِ الموزونِ[(3)] ، وينسبلُ حجابُ نَفْسِهِ المُنبسِطُ بانبساطِ الطَّبْعِ الموزونِ علىٰ وجهِ القَلْبِ ، ويَستفِزُّهُ النشاطُ المُنبعِثُ

---

(١) الأبيات للوزير الزيَّات في « ديوانه » (ص١٠٧) ، واحتنكَ : أَحْكم واستولىٰ ، والخَلِي : خالي القلب عن المحبّة والهوىٰ ، وفي (أ ، د ، ز ، ي) : (في قلبي) بدل (من قلبي) .

(٢) رواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٨/٣٩٣) ، وأورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٦٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٨٨-٦٨٩) ، والغزالي في « الإحياء » (٤/٤٩٦-٤٩٧) .

(٣) في (د) : (للضرب) بدل (للصوت) .

مِنَ الطبعِ ، فيقومُ يرقُصُ رَقْصاً مَوْزُوناً مَمْزُوجاً بتصنُّعٍ مُحرَّمٍ عندَ أهلِ الحقِّ ، ويَحسَبُ ذلكَ طِيبةَ القلبِ ، وما رأىٰ وجهَ القلبِ وطِيبتَهُ باللهِ تعالىٰ[1] .

ولَعَمْري ؛ هوَ طِيبةُ القلبِ ، ولٰكن قلبٌ مُلوَّنٌ بلونِ النَّفْسِ ، مَيَّالٌ إلى الهوىٰ ، مُوافِقٌ للرَّدىٰ ، لا يهتدي إلىٰ حُسْنِ النِّيَّةِ في الحَرَكاتِ ، ولا يعرفُ شروطَ صِحَّةِ الإراداتِ .

ولمِثْلِ هٰذا الرَّاقصِ قيلَ : (الرَّقْصُ نَقْصٌ) ؛ لأنَّهُ رَقْصٌ مصدرُهُ الطَّبْعُ ، غيرُ مُقترِنٍ بنيَّةٍ صالحةٍ ، لا سِيَّما إذا انضافَ إلىٰ ذلكَ شَوْبُ حركاتِهِ بصريحِ النِّفاقِ بالتودُّدِ والتقرُّبِ إلىٰ بعضِ الحاضرينَ مِنْ غيرِ نيَّةٍ ، بل بدَلالةِ نشاطِ النَّفْسِ مِنَ المُعانقةِ وتقبيلِ اليدِ والقَدَمِ ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الحركاتِ التي لا يعتمدُها مِنَ المُتصوِّفةِ إلا مَنْ ليسَ لهُ مِنَ التصوُّفِ إلا مُجرَّدُ زِيٍّ وصورةٍ .

أو يكونَ القَوَّالُ أمردَ تنجذبُ النفوسُ إلى النَّظَرِ إليهِ ، وتستلذُّ ذلكَ ، وتُضمِرُ خواطرَ السُّوءِ ، أو يكونَ للنساءِ إشرافٌ على الجمعِ ، وتتراسلُ البواطنُ المملوءةُ مِنَ الهوىٰ بسِفَارةِ الحركاتِ والرَّقْصِ وإظهارِ التواجدِ ، فيكونُ ذلكَ عينَ الفِسْقِ المُجمَعِ علىٰ تحريمِهِ ، وأهلُ المَوَاخِيرِ حينَئذٍ أَرْجىٰ حالاً ممَّنْ يكونُ هٰذا ضميرَهُ وحركاتِهِ[2] ؛ لأنَّهُم يرَوْنَ فسقَهُم ، وهٰذا

(١) فصَّل الإمام الزَّبيدي في « إتحافه » (٦/ ٥٦٧ـ٥٦٨) حكم الرقص ، وأورد أقوال الأئمَّة في ذلك ، وجعله دائراً بين التحريم والكراهة والإباحة ، وسيأتي عن المؤلف أنَّهُ قد يصير عبادةً في بعض صوره .

(٢) المَوَاخِير جمعُ (ماخور) ؛ وهو الحانة التي يُعاقَر فيها الخمرُ ويُباع ، أو هو بيت الرِّيبة ومجمعُ أهل الفسق والفساد .

لا يراهُ ، ويُريهِ عبادةً لِمَنْ لا يعلمُ ذلكَ .

أفترىٰ أحداً مِنْ أهلِ الدِّياناتِ يرضىٰ بهـٰذا ولا يُنكِرُهُ ؟!

فمِنْ هـٰذا الوجهِ توجَّهَ للمُنكِرِ الإنكارُ ، وكانَ حقيقاً بالاعتذارِ ، فكم مِنْ حركاتٍ مُوجِبةٍ للمَقْتِ !! وكم مِنْ نَهَضاتٍ تُذهِبُ رَوْنَقَ الوَقْتِ !! فيكونُ إنكارُ المُنكِرِ على المُرِيدِ الطالبِ يمنعُهُ مِنْ مثلِ هـٰذهِ الحركاتِ ، ويُحذِّرُهُ مثلَ هـٰذهِ المُجالساتِ ، وهـٰذا إنكارٌ صحيحٌ

وقد يرقصُ بعضُ الصادقينَ بإيقاعٍ ووزنٍ مِنْ غيرِ إظهارِ وَجْدٍ وحالٍ ، ووجهُ نيّتِهِ في ذلكَ : أنَّهُ ربَّما يُوافِقُ بعضَ الفقراءِ في الحركةِ ، فيتحرَّكُ بحركةٍ مَوْزُونةٍ غيرَ مُدَّعٍ بها حالاً ووَجْداً ، يجعلُ حركتَهُ في طَرَفِ الباطلِ ؛ لأنَّها وإنْ لم تكنْ مُحرَّمةً في حكمِ الشرعِ . . ولـٰكنَّها غيرُ مُحلَّلةٍ بحُكْمِ الحالِ ؛ لما فيها مِنَ اللَّهْوِ ، فتصيرُ حركاتُهُ ورَقْصُهُ مِنْ قَبيلِ المُباحاتِ التي تجري عليهِ ؛ مِنَ الضَّحِكِ والمُداعَبةِ ، ومُلاعَبةِ الأهلِ والأولادِ .

ويدخلُ ذلكَ في بابِ الترويحِ للقلبِ ، وربَّما صارَ ذلكَ عبادةً بحُسْنِ النيّةِ إذا نوىٰ بهِ استجمامَ النَّفْسِ ، كما نُقِلَ عن أبي الدرداءِ أنَّهُ قالَ : (إنِّي لأَستجِمُّ نَفْسي بشيءٍ مِنَ الباطلِ ؛ ليكونَ ذلكَ عَوْناً لي على الحقِّ)[1]

---

(1) رواه ابن معين في « تاريخه » (٥٤٠٥) ، والدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١٩٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦/٥٠١) ، ورواه ابن حزم في « طوق الحمامة » (ص٨٦) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً ، والباطل هو بالنسبة إلى الأحوال ، كما سيأتي بيانه بعد قليل في كلام المؤلف ، وفي هامش (ح) عند قوله : (عوناً على الحق) : (لأنَّ النفس إذا أُلزمتْ على الحقِّ الصِّرْفِ لا تصبر ، وربَّما تستنفر ، فلا بُدَّ من إرخاء العنان معها أحياناً حتىٰ تتعوَّد وتطمئنَّ ؛ ولذا يحبُّ الله=

ولِمَوضِعِ الترويحِ كُرِهَتِ الصلاةُ في أوقاتٍ ؛ ليستريحَ عُمَّالُ اللهِ ، وترتفقَ النُّفُوسُ ببعضِ مآربِها مِنْ تركِ العَمَلِ ، وتستطيبَ أوطانَ المَهَلِ .

والآدميُّ بتركيبِهِ المُختلِفِ ، وترتيبِ خَلْقِهِ المُتنوِّعِ بتنوُّعِ أصولِ خِلْقتِهِ ـ وقد سَبَقَ شرحُهُ في غيرِ هٰذا البابِ[1] ـ . لا تفي قُواهُ بالصبرِ على الحقِّ الصِّرْفِ ، فيكونُ التفسُّحُ في أمثالِ ما ذَكَرْناهُ مِنَ المُباحِ الذي يَنزِعُ إلىٰ لهوٍ ما . . باطلاً يُستعانُ بهِ على الحقِّ ؛ فإنَّ المُباحَ وإنْ لم يكنْ باطلاً في صِيغةِ الشرعِ ؛ لأنَّ حَدَّ المباحِ ما استوىٰ طَرَفاهُ واعتدلَ جانباهُ ، ولـٰكنَّهُ باطلٌ بالنسبةِ إلى الأحوالِ .

ورأيتُ في بعضِ كلامِ سهلِ بنِ عبدِ اللهِ رحمَهُ اللهُ يقولُ في وصفِهِ : (الصادقُ يكونُ جهلُهُ مَزيداً لعلمِهِ ، وباطلُهُ مَزيداً لحقِّهِ ، ودُنياهُ مَزيداً لآخرتِهِ)[2] .

ولهٰذا المعنىٰ حُبِّبَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ النساءُ ؛ ليكونَ ذلكَ حظَّ نَفْسِهِ الشريفةِ ، الموهوبِ لها حُظُوظُها ، المُوفَّرِ عليها حقوقُها ، لموضعِ طهارتِها وقُدْسِها ، فيكونُ ما هوَ نصيبُ الباطلِ الصِّرْفِ في حقِّ الغيرِ مِنَ المُباحاتِ المقبولةِ برُخْصةِ الشرعِ ، المردودةِ بعزيمةِ الحالِ في حقِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . مُتَّسِماً بِسِمَةِ العباداتِ .

= أن يُؤتىٰ رُخَصُهُ كما يحبُّ أن يُؤتىٰ عزائمه) .

(١) انظر (١/٣٠٨) وما بعدها

(٢) كأن يصرف ما آتاه الله تعالىٰ إلى المحتاجين لوجه الله تعالىٰ ، لا لإظهار السخاء ومحبّة المدح والثناء ، وإليه الإشارة بقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : « نعمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ » . من هامش (ح) .

وقد وَرَدَ في فضيلةِ النِّكاحِ ما يَدُلُّ على أنَّهُ عبادةٌ ؛ ومِنْ ذلكَ مِنْ طريقِ القياسِ : اشتمالُهُ على المصالحِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ؛ على ما أَطْنبَ في شرحِهِ الفُقَهاءُ في مسألةِ التَّخلِّي لنوافلِ العباداتِ[1]

فإذاً : يخرجُ هـٰذا الراقصُ بهـٰذهِ النِّيَّةِ المُتبرِّئُ مِنْ دعوى الحالِ في ذلكَ . . مِنْ إنكارِ المُنكِرِ ، ويكونُ رَقْصُهُ لا عليهِ ولا لهُ ، وربَّما كانَ بحُسْنِ النِّيَّةِ في الترويحِ يصيرُ عبادةً ، لاسيَّما إنْ أَضْمرَ في نَفْسِهِ فَرَحاً بربِّهِ ، ونَظَرَ إلىٰ شُمُولِ رحمتِهِ وعطفِهِ ، ولـٰكن لا يليقُ الرَّقْصُ بالشيوخِ ومَنْ يُقتدىٰ بهِ ؛ لما فيهِ مِنْ مُشابَهةِ اللَّهْوِ ، واللَّهْوُ لا يليقُ بمَنصِبِهِم ، ويُبايِنُ حالَ المُتمكِّنِ مثلُ ذلكَ

وأمَّا وجهُ منعِ الإنكارِ في السَّماعِ : فهوَ أنَّ المُنكِرَ للسَّماعِ على الإطلاقِ مِنْ غيرِ تفصيلٍ . . لا يخلو مِنْ أحدِ أمورٍ ثلاثةٍ : إمَّا جاهلٌ بالسُّنَنِ والآثارِ ، وإمَّا مُغترٌّ بما أُتيحَ لهُ مِنْ أعمالِ الأَخْيارِ ، وإمَّا جامدُ الطَّبْعِ لا ذوقَ لهُ فيُصِرُّ على الإنكارِ .

وكلُّ واحدٍ مِنْ هـٰؤلاءِ الثلاثةِ يُقابَلُ بما سوفَ يُقبَلُ

أمَّا الجاهلُ بالسُّنَنِ والآثارِ : فيُعرَّفُ بما أَسْلَفْناهُ مِنْ حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، والأخبارِ والآثارِ الواردةِ في ذلكَ[2] ، وفي حركةِ بعضِ

---

(١) أي : التخلِّي لنوافل العبادة عند عدم الحاجة والرغبة في الزواج ، وذهب السَّادة الشافعيَّة : إلىٰ أنَّ التخلِّي للنوافل أفضلُ من الزواج ، وذهب السَّادة الحنفيَّة : إلىٰ أنَّ النكاح أفضلُ من التخلِّي لنوافل العبادة . انظر « النجم الوهاج » (٧/ ١١) ، وللإمام الغزالي تفصيل نفيس أورده في « الإحياء » (٣/ ١٤٥ـ١٤٩) .

(٢) انظر (١/ ٤٨٩ـ ٤٩٢) ، و« غنية العارف » (١/ ٣١٧ـ٣١٨) .

المُتحرِّكينَ يُعرَّفُ رخصةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للحبشةِ في الرَّقْصِ ، ونَظَرِ عائشةَ إليهم معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، هـٰذا إذا سَلِمَتِ الحركةُ مِنَ المكارهِ التي ذَكَرْناها

وقد رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لعليٍّ : « أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ » ، فحَجَلَ ، وقالَ لجعفرٍ « أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي » ، فحَجَلَ ، وقالَ لزيدٍ : « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلاَنَا » ، فحَجَلَ[2]

وكانَ حَجْلُ جعفرٍ في قصَّةِ ابنةِ حمزةَ لمَّا اختصمَ فيها عليٌّ وجعفرٌ وزيدٌ[3]

---

(١) سبق أول الباب (١/ ٤٨٣) .

(٢) رواه أحمد (١/ ١٠٨) ، والبزار في « المسند » (٧٤٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٢٦) عن سيدنا علي رضي الله عنه ، والحَجْل : أن يرفع رجلاً ويقفز على الأخرىٰ من الفرح .

(٣) رواه الواقدي في « مغازيه » (٢/ ٧٣٨ـ ٧٣٩) ، وابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٨/ ١٥٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وأصل القصة في « صحيح البخاري » (٢٦٩٩) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما دون ذكر الحَجْل ، والقصة ـ كما في رواية ابن عباس ـ : أنَّ عُمارة بنت حمزة بن عبد المُطَّلب ـ وأمها سلمىٰ بنت عُميس ـ كانت بمكَّة ، فلمَّا قَدِمَ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلَّم عليٌّ النبيَّ فقال : علامَ تترك ابنة عمِّنا يتيمةً بين ظهري المشركين ؟ فلم ينهَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن إخراجها ، فخرج بها ، فتكلَّم زيد بن حارثة ، وكان وصيَّ حمزة ، وكان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم آخىٰ بينهما حين آخىٰ بين المهاجرين ، فقال : أنا أحقُّ بها ؛ ابنةُ أخي ، فلمَّا سمع بذلك جعفر بن أبي طالب قال : الخالةُ والدةٌ وأنا أحقُّ بها ؛ لمكان خالتها عندي أسماءَ بنتِ عُميسٍ ، فقال عليٌّ : أَلَا أراكم تختصمون في ابنة عمِّي وأنا أخرجتُها من بين أَظْهُر المشركين ، وليس لكم إليها نسبٌ دوني ؟! وأنا أحقُّ بها منكم ، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم « أنا أحكمُ بينَكُم ؛ أمَّا أنتَ يا زيدُ فمَوْلَى اللهِ ومَوْلىٰ رسولِهِ ، وأمَّا أنتَ يا عليُّ فأخي وصاحبي ، وأمَّا أنتَ يا جعفرُ=

وأمَّا المُنكِرُ المغرورُ بما أُتيحَ لهُ مِنْ أعمالِ الأخيارِ . يُقالُ لهُ : تَقرُّبُكَ إلى اللهِ تعالىٰ بالعبادةِ لنيَّتِكَ لا لشُغْلِ جوارحِكَ بها ، ولولا نيَّةُ قلبِكَ ما كانَ لعَمَلِ جوارحِكَ قَدْرٌ ؛ فإنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ ولكلِّ امرئٍ ما نوىٰ ، والنيةُ لنَظَرِكَ إلىٰ رَبِّكَ خوفاً أو رجاءً .

فالسامعُ مِنَ الشِّعْرِ بيتاً يأخذُ منهُ معنىً يُذكِّرُهُ ربَّهُ ؛ إمَّا فَرَحاً أو حُزْناً أو خوفاً أوِ انكساراً أوِ افتقاراً ، كيفَ تَقَلَّبَ قلبُهُ في أنواعِ ذلكَ ذاكراً لربِّهِ

ولو سَمِعَ صوتَ طائرٍ طابَ لهُ ذلكَ الصوتُ ، وتفكَّرَ في قدرةِ اللهِ تعالىٰ وتسويتِهِ حَنْجَرَةَ الطائرِ ، وتسخيرِهِ حَلْقَهُ[1] ، ومنشأِ الصوتِ ، وتأديتِهِ إلى الأسماعِ . . كانَ في جميعِ ذلكَ الفِكْرِ مُسبِّحاً مُقدِّساً ، فإذا سَمِعَ صوتَ آدميٍّ وحَضَرَهُ مثلُ ذلكَ الفِكْرِ ، وامتلأَ باطنُهُ ذِكْراً وفِكْراً . . كيفَ يُنكِرُ ذلكَ ؟!

حكىٰ بعضُ الصالحينَ قالَ : (كنتُ مُعتكِفاً في جامعِ جُدَّةَ على البحرِ ، فرأيتُ يوماً طائفةً يقولونَ في جانبٍ منهُ شيئاً[2] ، فأنكرتُ ذلكَ بقلبي وقلتُ : في بيتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ تعالىٰ يقولونَ الشِّعْرَ ؟!

فرأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ تلكَ الليلةَ وهوَ جالسٌ

= فشبيهُ خَلْقي وخُلُقي ، وأنتَ يا جعفرُ أَوْلىٰ بها ؛ تحتَكَ خالتُها ، ولا تُنكَحُ المرأةُ على خالتِها ولا علىٰ عمَّتِها » ، فقضىٰ بها لجعفر ، فقام جعفرٌ فحَجَلَ حولَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « ما هـٰذا يا جعفرُ ؟ » ، فقال : يا رسول الله ؛ كان النجاشي إذا أَرْضىٰ أحداً قام فحَجَلَ حوله ، فقيل للنبي : تزوَّجْها ، فقال : « ابنةُ أخي مِنَ الرضاعةِ » ، فزوَّجها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سلمةَ بنَ أبي سلمةَ ، فكان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول : « هل جزيتُ سلمةَ ؟ »

(١) في (ب) : (خلقه)

(٢) يقولون ؛ أي : ينشدون .

في تلكَ الناحيةِ وإلىٰ جنبِهِ أبو بكرٍ ، وإذا أبو بكرٍ يقولُ شيئاً مِنَ القولِ والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يستمعُ إليهِ ويَضَعُ يَدَهُ علىٰ صدرِهِ كالواجدِ بذلكَ ، فقلتُ في نَفْسي ما كانَ ينبغي لي أنْ أُنكِرَ علىٰ أولـٰئكَ الذينَ كانوا يسمعونَ ، وهـٰذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يسمعُ وأبو بكرٍ إلىٰ جنبِهِ يقولُ ، فالتفتَ إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يقولُ : هـٰذا حَقٌّ بحقٍّ ، أو حقٌّ مِنْ حقٍّ)(١)

بلىٰ ؛ إذا كانَ ذلكَ الصوتُ مِنْ أَمْردَ يُخشىٰ بالنظرِ إليهِ الفتنةُ ، أو مِنِ امرأةٍ غيرِ مَحْرَمٍ ، وإنْ وُجِدَ مِنَ الأذكارِ والأفكارِ ما ذَكَرْنا . . يحرمُ سماعُهُ ؛ لخوفِ الفتنةِ لا لمُجرَّدِ الصوتِ ، ولـٰكن يُجعَلُ سماعُ الصوتِ حَرِيمَ الفتنةِ ، ولكلِّ حرامٍ حَرِيمٌ ينسحبُ عليهِ حكمُ المنعِ لوجهِ المصلحةِ ؛ كالقُبْلةِ للشابِّ الصائمِ(٢) ؛ حيثُ جُعِلَتْ حَرِيمَ حَرامِ الوِقاعِ ، وكالخلوةِ بالأجنبيَّةِ ، وغيرِ ذلك .

فعلىٰ هـٰذا : قد تقتضي المصلحةُ المنعَ مِنَ السماعِ إذا عُلِمَ حالُ السامعِ وما يُؤدِّيهِ إليهِ سماعُهُ ، فيُجعَلُ المنعُ حَرِيمَ الحرامِ هـٰكذا

---

(١) رواه أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ١٠٩٢) ، وأورده الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٤١٧ـ٤١٨) عن طاهر ابن بلال الهَمَذاني الورّاق رحمه الله تعالىٰ ، وقولُهُ : (هـٰذا حقٌّ بحق) ؛ أي : هـٰذا السماعُ حقٌّ ليس بباطل ولهوٍ من قِبَلِ النفس ، بل هو فيضٌ يَرِدُ على القلب ، [وصيغةُ] الشكِّ من الراوي أو من الرائي . من هامش (ح) ، وفي هامش (ج) : (قوله : « أو » يكون الشك من الراوي ، ويحتمل : أنَّ الرسول عليه السلام قاله هـٰكذا ، معناه : أنَّ السامع في وقت البقاء لله يسمعُهُ به في مقام تجلِّي الذات ، وفي وقتٍ يسمع من الله في [مقام] تجلِّي الأفعال والصفات) .

(٢) أي : لزوجته .

وقد يُنكِرُ السَّماعَ جامدُ الطَّبْعِ ، عديمُ الذَّوقِ[1] ، فيُقالُ لهُ : العِنِّينُ لا يعلمُ لَذَّةَ الوِقاعِ ، والمكفوفُ ليسَ لهُ بالجمالِ البارعِ استمتاعٌ ، وغيرُ المُصابِ لا يتكلَّمُ بالاسترجاعِ ، فماذا تُنكِرُ مِنْ مُحِبٍّ تربَّىٰ باطنُهُ بالشَّوْقِ والمَحَبَّةِ ، ويرى انحباسَ رُوحِهِ الطيَّارةِ ، في مَضِيقِ قَفَصِ النَّفْسِ الأمَّارةِ ، يَمُرُّ برُوحِهِ نسيمُ أُنْسِ الأوطانِ ، وتلوحُ لهُ طوالعُ جنودِ العِرْفانِ ، وهوَ بوجودِ النَّفْسِ في دارِ الغُرْبةِ يتجرَّعُ كأسَ الهِجْرانِ ، يَئِنُّ تحتَ أَعْباءِ المُجاهَدةِ ، ولا يُحمَلُ عنهُ بسوانحِ المُشاهَدةِ[2] ؟! وكلَّما قَطَعَ منازلَ النَّفْسِ بكثرةِ الأعمالِ ، لا يَقرُبُ مِنْ كعبةِ الوِصالِ ، ولا يُكشَفُ لهُ المُسبَلُ مِنَ الحِجَالِ[3]، فيَستروِحُ بتنفُّسِ الصُّعَدَاءِ[4] ، ويرتاحُ باللائحِ مِنْ شِدَّةِ البُرَحاءِ[5]، ويقولُ مُخاطِباً للنَّفْسِ والشيطانِ ، وهما المانعانِ[6] : [من الطويل]

أَيَـا جَبَلَـيْ نَعْمَـانَ بِـٱللهِ خَلِّيَـا　　نَسِيمَ ٱلصَّبَا يَخْلُصْ إِلَيَّ نَسِيمُهَا
فَإِنَّ ٱلصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمَتْ　　عَلَىٰ قَلْبِ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُهَا
أَجِدْ بَرْدَهَا أَوْ تَشْفِ مِنِّي حَرَارَةً　　عَلَىٰ كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَمِيمُهَا
أَلَا إِنَّ أَدْوَائِـي بِلَيْلَـىٰ قَـدِيمَـةٌ　　وَأَقْتَـلُ دَاءِ ٱلْعَـاشِقِيـنَ قَـدِيمُهَـا

---

(١) وهـٰذا هو القسم الثالث من الذين أطلقوا المنعَ من السماع .
(٢) في (ج): (ولا تُحمل عنه) بدل (ولا يُحمل عنه)، وفي (ي): (ولا يُروَّح)، والكل صحيح .
(٣) الحِجال في الأصل : جمع (الحَجَلَة) ؛ وهو موضع يُزيَّن بالثياب وغيرها للعروس
(٤) الصُّعَداء : تنفُّسٌ ممدود طويل ، وقيل : هو التنفُّس بتوجُّع
(٥) البُرَحاء : الشِّدَّة والمشقَّة ، أو الحُمَّى الشديدة بسبب الحبِّ والهوىٰ .
(٦) الأبيات لمجنون ليلىٰ في « ديوانه » (ص٨٢) ، ونَعْمان : وادٍ وراء عرفة بين مكَّة والطائف يَصُبُّ في وَدَّان ، وفي هامش (ب) آخرَ الأبيات : (بلغ للجماعة على الشيخ أمين الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام)

ولعلَّ المُنكِرَ يقولُ : هلِ المحبَّةُ إلا امتثالُ الأمرِ ؟! وهل يُعرَفُ غيرُ هـٰذا ؟! وهل هناكَ إلا الخوفُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؟! ويُنكِرُ المحبّةَ الخاصَّةَ التي تختصُّ بالعلماءِ الراسخينَ والأبدالِ المُقرَّبينَ .

ولمَّا[1] تقرَّرَ في فَهْمِهِ القاصرِ أنَّ المحبَّةَ تَستدعي مِثالاً وخَيالاً ، وأَجْناساً وأَشْكالاً . . يُنكِرُ محبَّةَ القومِ ، ولا يعلمُ أنَّ القومَ بلغُوا في رُتَبِ الإيمانِ إلىٰ أتـمَّ مِـنَ المَحْسُـوسِ[2] ، وجـادُوا مِـنْ فَـرْطِ الكَشْـفِ والعِيـانِ بـالأرواحِ والنُّفُوسِ .

روىٰ أبو هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ ذَكَرَ غلاماً كانَ في بني إسرائيلَ علىٰ جبلٍ ، فقالَ لأمِّهِ : مَنْ خَلَقَ السماءَ ؟ قالتِ اللهُ ، قالَ ومَنْ خَلَقَ الأرضَ ؟ قالتِ اللهُ ، قالَ : ومَنْ خلَقَ الجبالَ ؟ قالتِ : اللهُ ، قالَ ومَنْ خَلَقَ الغيمَ ؟ قالتِ : اللهُ ، فقالَ : إنِّي أسمعُ لله شَأْناً ، ورمىٰ نَفْسَهُ مِنَ الجبلِ فتقطَّعَ[3]

فالجمالُ الأَزَليُّ الإلـٰهيُّ مُنكشِفٌ للأرواحِ ، غيرُ مُكيَّفٍ للعقلِ ، ولا مُفسَّرٍ للفهمِ ؛ لأنَّ العقلَ مُوكَّلٌ بعالَمِ الشَّهادةِ لا يهتدي مِنَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إلَّا إلىٰ مُجرَّدِ الوجودِ ، ولا يتطرَّقُ إلىٰ حَرِيمِ الشُّهودِ المُتجلِّي في طَيِّ

---

(١) ويجوز أن تُقرأ بالتخفيف ، كما ضُبطت كذلك في (و) .

(٢) يعني : إيمانهم بالله تعالىٰ أتمُّ من تصديقهم بالمحسوسات

(٣) رواه العقيلي في « الضعفاء الكبير » (٢/٢٣٩) ، وابن الأعرابي في « معجمه » (١٧٣٢) ، وقوام السنة في « الترغيب والترهيب » (٦٧٦) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وفي بعض المصادر والنسخ : (الغنم) بدل (الغيم) .

الغيبِ[1] ، المُنكشِفِ للأرواحِ بلا ريبٍ .

وهٰذهِ الرُّتبةُ مِنْ مُطالَعةِ الجمالِ رتبةٌ خاصَّةٌ ، وأعمُّ منها مِنْ رُتَبِ المَحبَّةِ الخاصَّةِ دونَ العامَّةِ[2] : جمالُ الكمالِ مِنَ الكِبْرياءِ والجلالِ ، والاستقلالِ بالمِنَحِ والنَّوَالِ ، والصِّفاتِ المُنقسِمةِ إلىٰ ما ظَهَرَ منها في الآبادِ ولازمَتِ الذاتَ في الآزالِ .

فللكمالِ جمالٌ لا يُدرَكُ بالحواسِّ ، ولا يُضبَطُ بالقياسِ ، وفي مُطالَعةِ ذلكَ الجمالِ[3] طائفةٌ مِنَ المُحبِّينَ خُصُّوا بتجلِّي الصِّفاتِ ، ولهُم بحَسَبِ ذلكَ ذَوْقٌ وشَوْقٌ ووَجْدٌ وسماعٌ ، والأوَّلُونَ[4] مُنِحُوا قِسْطاً مِنْ تجلِّي الذاتِ ، فكانَ وَجْدُهُم علىٰ قَدْرِ الوجودِ ، وسماعُهُم علىٰ حدِّ الشُّهودِ

حكىٰ بعضُ المشايخِ قالَ : (رَأَيْنا جماعةً ممَّنْ يمشي على الماءِ والهواءِ يسمعُونَ السَّماعَ ، ويَجِدُونَ بهِ ، ويُولَهُونَ عندَهُ)[5]

وقالَ بعضُهُم : (كُنَّا على الساحلِ ، فسَمعَ بعضُ إخوانِنا ، فجَعَلَ يتقلَّبُ على الماءِ يَمُرُّ ويَجِيءُ حتىٰ رجعَ إلىٰ مكانِهِ)[6]

ونُقِلَ أنَّ بعضَهُم كانَ يتقلَّبُ على النارِ عندَ السماعِ ولا يُحِسُّ بها[7]

---

(١) أي : طَيِّ غيب المعقول بعد طَيِّ شهادة المحسوس . من هامش (ح) .
(٢) المُفسَّرةِ بامتثال الأمر والنهي . من هامش (ح) .
(٣) أي : جمال الكمال . من هامش (ح) .
(٤) أي : الذين يحبُّون الله بجماله . من هامش (ح) .
(٥) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ١٠٩٦) .
(٦) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ١٠٩٦) .
(٧) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ١٠٩٧) .

ونُقِلَ أنَّ بعضَ الصُّوفيَّةِ ظَهَرَ منهُ وجدٌ عندَ السَّماعِ ، فأخذَ شمعةً فجعلَها في عينِهِ ، قالَ الناقلُ : فقَرُبْتُ مِنْ عينِهِ أنظُرُ ، فرأيتُ ناراً أو نوراً يخرجُ مِنْ عينِهِ يَرُدُّ نارَ الشمعةِ(١)

وحُكِيَ عن بعضِهِم : أنَّهُ كانَ إذا وَجَدَ عندَ السماعِ ارتفعَ مِنَ الأرضِ في الهواءِ أَذْرُعاً يَمُرُّ ويجيءُ فيهِ(٢)

ويقولُ الشيخُ أبو طالبٍ المَكِّيُّ رحمَهُ اللهُ في « كتابِهِ » (إنْ أَنْكَرْنا السَّماعَ مُجمَلاً مُطلَقاً غيرَ مُقيَّدٍ مُفصَّلٍ .. يكونُ إنكارُنا على سبعينَ صِدِّيقاً(٣) ، وإنْ كُنَّا نعلمُ أنَّ الإنكارَ أقربُ إلى قلوبِ القُرَّاءِ والمُتعبِّدينَ ، إلا أنَّا لا نفعلُ ذلكَ ، لأنَّا نعلمُ ما لا يعلمُونَ ، وسَمِعْنا مِنَ السلفِ مِنَ الأصحابِ والتابعينَ ما لا يسمعُونَ)(٤)

وهٰذا قولُ الشيخِ عن علمِهِ الوافرِ بالسننِ والآثارِ ، معَ اجتهادِهِ وتَحَرِّيهِ الصوابَ ، ولٰكن نبسُطُ لأهلِ الإنكارِ لسانَ الاعتذارِ ، ونُوضِّحُ لهُمُ الفرقَ بينَ سماعٍ يُؤَثَرُ وبينَ سماعٍ يُنكَرُ

سَمِعَ الشِّبْليُّ رحمَهُ اللهُ تعالى قائلاً يقولُ [من الطويل]

أُسَائِلُ عَنْ سَلْمَىٰ فَهَلْ مِنْ مُخَبِّرٍ ... يَكُونُ لَهُ عِلْمٌ بِهَا أَيْنَ تَنْزِلُ

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/١٠٩٧) .

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/١٠٩٧)

(٣) أي : على عدد كثير ؛ على قاعدة قول العرب في ذكر (السبعين) وإرادةِ العددِ الكثير ، لا التقييد بالسبعين . من هامش (ح) .

(٤) « قوت القلوب » (٢/١٠٩٨)

فزَعَقَ الشِّبْليُّ وقالَ : لا واللهِ ؛ ما في الدَّارَينِ عنهُ مُخبرٌ[١]

وقيلَ : الوَجْدُ سِرُّ صفاتِ الباطنِ ، كما أنَّ الطاعةَ سِرُّ صفاتِ الظاهرِ ، وصفاتُ الظاهرِ الحركةُ والسُّكونُ ، وصفاتُ الباطنِ الأحوالُ والأخلاقُ

وقالَ أبو نصرٍ السَّرَّاجُ : (أهلُ السَّماعِ علىٰ ثلاثِ طَبَقاتٍ : فقومٌ يَرجِعُونَ في سماعِهِم إلىٰ مُخاطَباتِ الحقِّ لهُم فيما يسمعُونَ

وقومٌ يَرجِعُونَ فيما يسمعُونَ إلىٰ مُخاطَبةِ أحوالِهِم ومقامِهِم وأوقاتِهِم[٢] ، فهم مُرتبِطُونَ بالعِلْمِ ومُطالَبُونَ بالصِّدقِ فيما يُشيرُونَ إليهِ مِنْ ذلكَ .

وقومٌ همُ الفقراءُ المُجرَّدُونَ الذينَ قطعُوا العلائقَ ، ولم تتلوَّثْ قلوبُهُم بمحبَّةِ الدنيا والجَمْعِ والمَنْعِ ، فهُم يسمعُونَ بطِيبةِ قلوبِهِم ، ويليقُ بهِمُ السَّماعُ ، فهم أقربُ الناسِ إلى السَّلامةِ ، وأسلمُهُم مِنَ الفتنةِ)[٣]

وكلُّ قلبٍ مُلوَّثٍ بحُبِّ الدنيا . . فسماعُهُ سماعُ طَبْعٍ وتكلُّفٍ[٤]

وسُئِلَ بعضُهُم عنِ التكلُّفِ في السَّماعِ ، فقالَ : هوَ علىٰ ضربَينِ : تكلُّفٌ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٦/ ٦٢) .

(٢) كما إذا سمع من القوَّال : (من الكامل)

إنْ كنتَ تطمعُ أنْ تفوزَ بوَصْلِنا ... فاهجُرْ تَطَلُّبَ غيرِنا تحظىٰ بنا

فيرجع في هٰذا السماع إلى الحقِّ يخاطبه بترك ما سواه والإقبالِ عليه بالكُلِّيَّة . من هامش (ح) .

(٣) اللمع (ص٣٥١) نقلاً عن بعضهم .

(٤) لا سماعُ قلبٍ ووَجْد . من هامش (ح) .

في المُستمعِ[1] لطلبِ جاهٍ[2] أو منفعةٍ دنيويَّةٍ ، وذلكَ تلبيسٌ وخِيانةٌ ، وتكلُّفٌ فيهِ لطلبِ الحقيقةِ ؛ كمَنْ يطلبُ الوجدَ بالتواجدِ[3] ، وهوَ بمنزلةِ التباكي المندوبِ إليهِ[4] .

وقولُ القائلِ : إنَّ هـٰذهِ الهيئةَ مِنَ الاجتماعِ بدعةٌ . . يُقالُ لهُ : إنَّما البدعةُ المَحْذُورةُ الممنوعُ منها بِدْعةٌ تُزاحِمُ سنَّةً مأموراً بها ، وما لم يكنْ هـٰكذا فلا بأسَ بهِ .

وهـٰذا كالقيامِ للداخلِ[5] ؛ إذ لم يكنْ ، وكانَ مِنْ عادةِ العربِ تركُ ذلكَ ؛ حتىٰ نُقِلَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يدخلُ ولا يُقامُ لهُ[6] ، وفي البلادِ التي فيها هـٰذا القيامُ عادتُهُم إذا اعتُمِدَ ذلكَ لتطييبِ القلوبِ والمُداراةِ[7] . . لا بأسَ بهِ ؛ لأنَّ تركَهُ يُوحِشُ القلوبَ ويُوغِرُ

---

(١) أي : بإظهار الوجد بالزَّعْقة . من هامش (ح) .

(٢) أي : اعتقادٍ فيه من الناظرين إليه ؛ ليتردَّدوا ويجيئوا له بالهدايا . من هامش (ح)

(٣) أي : بالموافقة مع الواجدين في الحركات ؛ اقتباساً من أنوار وَجْدهم ، واستئناساً بأحوالهم وذوقهم ؛ طلباً لحقيقة الوجد . من هامش (ح) .

(٤) أي : كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه (٤١٩٦) وغيره مرفوعاً عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « ابكُوا ، فإنْ لم تبكُوا فتباكَوا »

(٥) علىٰ قوم ، وهـٰذا بخلاف الاستقبال ؛ فإنَّهُ مأمور به ؛ قال عليه الصلاة والسلام لجماعة من توابع سعد بن معاذ رضي الله عنه كانوا بحضرته وأُخبر بمجيء سعد بن معاذ : « قُومُوا لسيِّدِكُم » ؛ أي : مستقبلين ؛ فالقيامُ للدخول غيرُ القيام إلى الاستقبال . من هامش (ح) .

(٦) رواه الترمذي (٢٧٥٤) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٩٤٦) ، وأحمد (٣/ ١٣٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٠٩٦) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٧) المرادُ من المُداراة : المُداراة الدينيّة . من هامش (ح)

الصدورَ ، فيكونُ ذلكَ مِنْ قَبيلِ العِشْرةِ وحُسْنِ الصُّحْبةِ ، ويكونُ بدعةً لا بأسَ بها ؛ لأنَّها لا تُزاحِمُ سنَّةً مأمورةً[1] ، واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أعلمُ بالصوابِ .

* * *

---

(1) في هامش (ب) : (بلغ مقابلةً) ، وفيه : (بلغ على الشيخ الحافظ جلال الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي)

الباب الثالث والعشرون

في القول في السماع رداً وإنكاراً[1]

قد ذَكَرْنا وجهَ صِحَّةِ السَّماعِ وما يَليقُ منهُ بأهلِ الصدقِ ، وحيثُ كَثُرَتِ الفتنةُ بطريقِهِ ، وزالتِ العِصْمةُ فيهِ ، وتصدَّىٰ للحِرْصِ عليهِ أقوامٌ قَلَّتْ أعمالُهُم ، وانفسدتْ أحوالُهُم ، وأَكْثَرُوا الاجتماعَ للسَّماعِ ، وربَّما يُتَّخَذُ للاجتماعِ طعامٌ تطلبُ النفوسُ الاجتماعَ لذلكَ ، لا رغبةً للقلوبِ في السَّماعِ كما كانَ مِنْ سِيَرِ الصادقينَ . . فيصيرُ السَّماعُ معلولاً تَركَنُ إليهِ النفوسُ ؛ طَلَباً للشهواتِ ، واستحلاءً لمواطنِ اللَّهْوِ والغَفَلاتِ ، وينقطعُ بذلكَ على المُريدِ

---

(١) قيل : كان الشيخ جمال الدين الخُوزِي مُغرىً ـ أي : مُولعاً ـ بالسماع ، فلمَّا وَقَفَ علىٰ هٰذا الباب . . كَتَبَ إلى الشيخ ـ أي : المؤلفِ السُّهْرُوَرْديِّ ـ هٰذه الأبياتَ : (من الكامل)

يا مَنْ حباهُ اللهُ صَفْوَ وِدادِهِ ... وأنالَهُ مِنْ قُربِهِ مأمولَهُ

ماذا النَّكيرُ على السَّماعِ لعاشقٍ ... جَعَلَ السَّماعَ إلى الحبيبِ رسولَهُ

ولقد علمتَ بأنَّ هٰذا موقفٌ ... يشكو المُحِبُّ إلى الحبيبِ عَلِيلَهُ

فأجابه الشيخ قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ :

إنِّي لأَعلمُ ما تقولُ وأرتجي ... لكَ قُربَ مَنْ تختارُهُ ووصولَهُ

وأرى السَّماعَ مُحلَّلاً لكَ دائماً ... لٰكنْ لغيرِكَ لا أرىٰ تحليلَهُ

يا حبَّذا قُربُ الحبيبِ ووَصْلُهُ ... لمُتيَّمٍ أضحىٰ لديهِ قتيلَهُ

« حاشية زين الدين خوافي » قدَّس الله سرَّه العزيز . من هامش (ح) ، وانظر ما سيأتي تعليقاً عن الغزالي (١/٥١٨)

الطالبِ طَلَبُ المَزيدِ ، ويكونُ بطريقِهِ تضييعُ الأوقاتِ[(١)] ، وقِلَّةُ الحظِّ مِنَ العباداتِ ، وتكونُ الرغبةُ في الاجتماعِ طَلَباً لتناولِ الشَّهْوةِ ، واستِرواحاً إلى الطَّرَبِ واللَّهْوِ والعِشْرةِ ، ولا يخفىٰ أنَّ هـٰذا الاجتماعَ مردودٌ عندَ أهلِ الصِّدْقِ .

وكانَ يُقالُ : (لا يَصِحُّ السَّماعُ إلا لعارفٍ مَكينٍ[(٢)] ، ولا يصلُحُ لمُرِيدٍ مُبتدِئٍ)[(٣)]

وقالَ الجُنيدُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (إذا رأيتَ المُرِيدَ يطلبُ السَّماعَ . . فاعلَمْ أنَّ فيهِ بَقِيَّةً مِنَ البَطالةِ)[(٤)]

وقيلَ : إنَّ الجنيدَ رحمةُ اللهِ عليهِ تَرَكَ السَّماعَ ، فقيلَ لهُ : كنتَ تسمعُ !! فقالَ : معَ مَنْ ؟ قيلَ لهُ : تسمعُ أنتَ لنفسِكَ ، فقالَ : مِمَّنْ ؟[(٥)].

لأنَّهُم كانُوا لا يسمعُونَ إلَّا مِنْ أهلٍ معَ أهلٍ ، فلمَّا فُقِدَ الإخوانُ تَرَكُوا ،

---

(١) قوله : (بطريقه) ؛ أي : بطريق السَّماع .

(٢) أي : مُتمكِّن من إصلاح حاله ورفعِ خَطَرات نفسه في سماعه . من هامش (ح)

(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ١٠٩٥) ، وفي هامش (ح) عند قوله : (مبتدئ) : (لا يعرف حال النفس ، ولا يدري ما البسطُ من القلب والنشاط من الطبع ، ولا يُفرِّق بينهما)

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٣٣٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٨٨) ، وأورده أيضاً في (ص١٤٣) عن أبي حفص الحداد رحمه الله تعالىٰ ، وقولُهُ : (فاعلم أنَّ فيه بقيةً من البطالة) في هامش (ح) : (وليس دائمَ الاشتغال باللهِ ، فيطلب استراحة النفس بالنَّغَمات والألحان ، وربَّما يدخل في أثناء ذلك الشيطان ، ويُلبِّس عليه الوجدان) .

(٥) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ١٠٩٥) ، وقوله : (ممَّن) ؛ أي : ممَّن أسمع السماع . من هامش (ح) ، وفي هامش (ي) نقلاً عن « الرسالة القشيرية » : (حُكي عن الجنيد رحمه اللهُ أنَّهُ قال: السماعُ يحتاجُ إلى ثلاثة أشياءَ: الزمانِ ، والمكان ، والإخوان) .

فما اختارُوا السَّماعَ حيثُ اختارُوهُ إلا بشروطٍ وقيودٍ وآدابٍ ؛ يذكرُونَ بهِ الآخرةَ ، ويرغبُونَ بهِ في الجنَّةِ ، ويحذَرُونَ مِنَ النارِ ، ويزدادُ بهِ طَلَبُهُم ، وتَحسُنُ بهِ أحوالُهُم ، ويتَّفِقُ لهُم ذلكَ اتِّفاقاً في بعضِ الأحايينِ ، لا أنْ يجعلُوهُ دَأْباً ودَيْدَناً حتىٰ يتركُوا لأجلِهِ الأورادَ

وقد نُقِلَ عن الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ في (كتابِ القضاءِ) : (الغناءُ لهوٌ مكروهٌ يُشبِهُ الباطلَ)[1] ، وقالَ : (مَنِ استكثرَ منهُ فهوَ سفيهٌ تُرَدُّ شهادتُهُ)[2]

واتَّفقَ أصحابُ الشافعيِّ على أنَّ المرأةَ غيرَ المَحْرَمِ لا يجوزُ الاستماعُ إليها ، سواءٌ كانتْ حُرَّةً ، أو مملوكةً ، أو مكشوفةَ الوجهِ ، أو مِنْ وراءِ حِجابٍ[3]

ونُقِلَ عنِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ كانَ يكرهُ الطَّقْطَقَةَ بالقضيبِ[4] ، ويقولُ (وضعَهُ الزَّنادقةُ ؛ ليُشغِلُوا بهِ عنِ القرآنِ)[5] ، وقالَ : (لا بأسَ بالقراءةِ بالألحانِ وتحسينِ الصوتِ بها بأيِّ وجهٍ كانَ)[6]

---

(١) الأم (٧/ ٥١٨)

(٢) الأم (٧/ ٥١٨) .

(٣) قال التاج السبكي في « الطبقات » (٨/ ٣٤١) : (قلت : والمشهورُ في المذهب المُصحَّح عندَ المُتأخِّرين : أنَّ الاستماعَ إلى الأجنبيَّة مكروهٌ غيرُ مُحرَّم) ، وانظر « الرد علىٰ من يحب السماع » للقاضي أبي الطيب الطبري (ص٢٧) .

(٤) هو ضرب القصب بعضه ببعض ، ويكون مُركَّباً من أربع قَصَبات يجيء منه صوت وطقطقة ، والواضعون الأوَّلون هم الزنادقة ، وما في بعض الحواشي مِنْ أنَّ المراد ضربُ القصب على الجلود . . لا يناسب حال السماع . من هامش (ح) بتصرف .

(٥) انظر « الرد علىٰ من يحب السماع » (ص٢٨)

(٦) الأم (٧/ ٥٢١)

وعندَ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ : إذا اشترىٰ جاريةً فوجدَها مُغنِّيةً . . فلهُ أنْ يَرُدَّها بهٰذا العيبِ ، وهوَ مذهبُ سائرِ أهلِ المدينةِ(١)

وهكذا مذهبُ الإمامِ أبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ : سماعُ الغناءِ مِنَ الذنوبِ(٢)

وما أباحَهُ إلا نفرٌ قليلٌ مِنَ الفقهاءِ ، ومَنْ أباحَهُ مِنَ الفقهاءِ أيضاً لم يَرَ إعلانَهُ في المساجدِ والبِقاعِ الشريفةِ .

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [لقمان : ٦] : قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (هوَ الغناءُ والاستماعُ إليهِ)(٣)

وقيلَ : قولُهُ : ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ [النجم : ٦١] ؛ أي : مُغنُّونَ ، روىٰ عكرمةُ عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : هوَ الغِناءُ بلغةِ حِمْيرٍ ؛ يقولُ أهلُ اليمنِ : سَمَدَ فلانٌ : إذا غنَّىٰ(٤)

---

(١) ما عدا إبراهيمَ بنَ سعد الزهريَّ ؛ فإنَّهُ ما كان يُحدِّث حتىٰ يسمع الطلبة الغناء ، وكان ممَّن يُفتي بتحليله . انظر « الرد علىٰ من يحب السماع » (ص٣٠) ، و« إتحاف السادة المتقين » (٦/ ٤٥٦)

(٢) انظر « الرد علىٰ من يحب السماع » (ص٣١) ، ونقل الزَّبيدي في « الإتحاف » (٦/ ٤٦٣) عن أبي حنيفة ما يَدُلُّ علىٰ إباحته ، وقال (وما ورد عنه بخلافه يُحمل على الغناء المقترنِ بشيء من الفُحْش ونحوه ؛ جمعاً بين القول والفعل) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢١٥٣٧) ، والحاكم (٢/ ٤١١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٢٣) ، وروي عن غيره أيضاً . انظر « الدر المنثور » (٦/ ٥٠٥-٥٠٨)

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٢/ ٥٥٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » =

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء : ٦٤] في قولِ مُجاهِدٍ : هوَ الغِناءُ والمزاميرُ(١)

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « كَانَ إِبْلِيسُ أَوَّلَ مَنْ نَاحَ ، وَأَوَّلَ مَنْ تَغَنَّىٰ »(٢)

وروىٰ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إِنَّمَا نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ فَاجِرَيْنِ : صَوْتٍ عِنْدَ نِعْمَةٍ ، وَصَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ »(٣)

= (١٠/ ٢٢٣) ، والبزار في « مسنده » (٤٧٢٤) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٥٩٤) عن عكرمة رحمه الله تعالىٰ من قوله .

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٧/ ٤٩٠) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » (٧١) .

(٢) قال في « الإتحاف » (٦/ ٥١٨) : (قال العراقي : لم أجد له أصلاً من حديث جابر ، وذكره صاحب « الفردوس » من حديث علي بن أبي طالب ، ولم يخرجه ولده في « مسنده » . انتهىٰ ، قلت : وكذا ذكر تلميذه الحافظ ابن حجر في « تخريج أحاديث الأذكار » عند قوله : وذكر أبو شجاع الديلمي في كتاب « الفردوس » عن علي رفعه أنَّ أول من تغنَّىٰ وزمر وحدا إبليس . . ما لفظُهُ : ولم أقف له علىٰ أصل ، ولا ذكر له ولده أبو منصور في « مسنده » سنداً . انتهىٰ)

(٣) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٣٨) ، والحاكم (٤/ ٤٠) ، ورواه الترمذي (١٠٠٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢٢٥١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٦٩) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، ورواه البزار في « مسنده » (٧٥١٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقولُه : (عند نعمة) ؛ أي : عند حادث فرح وسرور ، وفي النسخ ما عدا (أ ، ج) : (عند نغمة) بالمعجمة ، وبالإعجام ضبطها ابن الأثير في « النهاية » (١٠/ ٦٦٧٩) ، والمراد بالنغمة الصوت ، وقال الصنعاني في « التنوير شرح الجامع الصغير » (٧/ ٩) : (« عند نِعمة » : بالكسر والمهملة، وهو اللائق بقرينه ، ومَنْ قال إنَّهُ بالمعجمة . . فقد أَبْعَدَ روايةً ودراية ، والمراد : الأصوات عند الأفراح) .

ورُوِيَ عن عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : (ما تغنَّيتُ ، ولا تمنَّيتُ ، ولا مَسِسْتُ ذَكَري بيميني منذُ بايعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[1]

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ (الغِناءُ يُنبِتُ النِّفاقَ في القلبِ)[2]

ورُوِيَ أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما مَرَّ عليهِ قومٌ مُحرِمُونَ وفيهِم رجلٌ يتغنَّىٰ ، فقالَ : أَلَا لا سَمِعَ اللهُ لكُم ، أَلَا لا سَمِعَ اللهُ لكُم[3]

ورُوِيَ أيضاً أنَّ إنساناً سَأَلَ القاسمَ بنَ محمَّدٍ عنِ الغناءِ ، فقالَ أَنْهاكَ عنهُ وأكرهُهُ لكَ ، قالَ : أحرامٌ هوَ ؟ قالَ : انظُرْ يا بنَ أخي إذا مَيَّزَ اللهُ الحقَّ والباطلَ . . ففي أيِّهما يجعلُ الغِناءَ ؟[4]

وقالَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ : (الغِناءُ رُقْيَةُ الزِّنىٰ)[5]

---

(١) رواه ابن ماجه (٣١١) ، ورواه ضمن حديث طويل أبو يعلىٰ في « المسند » (٣٩٥٨) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وانظر « إحياء علوم الدين » (٤/٤٦٨).

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٢٣) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » (٣١) ، ورواه عنه مرفوعاً أبو داود (٤٩٢٧) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٤٧٤٦) مرفوعاً من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وانظر « البدر المنير » (٩/ ٦٣٣ـ٦٣٤) ، و« إحياء علوم الدين » (٤/ ٤٦٩ـ٤٧٠) .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٦٨) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » (٤٢) ، وانظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٤٧٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » (٤٤) ، وفي (ب ، هـ ، و) : (تجعل) بدل (يجعل) ، ويجوز أن يضبط أيضاً : (يُجعَلُ الغناءُ) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » (٥٥) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (٤٧٥٥) ، وانظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٤٧١ـ٤٧٢)

وعنِ الضَّحَّاكِ : (الغِناءُ مَفْسَدَةٌ للقلبِ ، مَسْخَطَةٌ للرَّبِّ)[1]

وقالَ بعضُهُم : (إيَّاكُم والغِناءَ ؛ فإنَّهُ يزيدُ الشَّهْوَةَ ، ويَهدِمُ المُرُوءَةَ ، وإنَّهُ لَينوبُ عنِ الخَمْرِ ، ويفعلُ ما يفعلُ السُّكْرُ)[2]

وهٰذا الذي ذَكَرَهُ هٰذا القائلُ صحيحٌ ؛ لأنَّ الطَّبْعَ الموزونَ يُفِيقُ بالغِناءِ والأوزانِ ، ويستحسنُ صاحبُ الطَّبْعِ عندَ السَّماعِ ما لم يكنْ يستحسنُهُ مِنَ الفَرْقَعَةِ بالأصابعِ والتصفيقِ والرَّقْصِ ، ويصدُرُ منهُ أفعالٌ تَدُلُّ علىٰ سَخَافةِ العقلِ

ورُوِيَ عنِ الحسنِ أنَّهُ قالَ : (ليسَ الدُّفُّ مِنْ سُنَّةِ المسلمينَ)[3]

والذي نَقَلَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ سَمِعَ الشِّعْرَ . . **لا يَدُلُّ علىٰ إباحةِ الغِناءِ** ؛ فإنَّ الشِّعْرَ كلامٌ منظومٌ وغيرَهُ كلامٌ منثورٌ ، فحَسَنُهُ حَسَنٌ وقبيحُهُ قبيحٌ ، **وإنَّما يصيرُ غِناءً بالألحانِ .**

وإنْ أنْصَفَ المُنصِفُ وتفكَّرَ في اجتماعِ أهلِ هٰذا الزمانِ ، وقُعودِ المُغنِّي بدُفِّهِ والمُشبِّبِ بشَبَّابتِهِ ، وتصوَّرَ في نفسِهِ هل وَقَعَ مثلُ هٰذا الجلوسِ والهيئةِ

---

(١) أورده ابن الجوزي في « تلبيس إبليس » (ص٢١٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » (٥٠) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (٤٧٥٤) عن يزيد بن الوليد الناقص مخاطباً بني أمية ، وفي هامش (ح) : (يُفهَمُ من هٰذه الأقوال : أنَّ الغناءَ المنهيَّ عنه : ما يكونُ مُشتمِلاً علىٰ ذكر النساء وأوصافِ أعضائها وحُسْنِها ؛ فإنها تُهيِّجُ النفس ، وبما يكونُ علىٰ طريقة أهل اللهو بما يعتادُهُ أهل الموسيقا ، وأمَّا تحسين الصوت بالأشعار ، بما يُهيِّجُ قلوبَ الأبرار بالنَّغَمات الطيِّبة والترجيعات اللَّطيفة . . فليس من ذلك القبيل) انتهىٰ بتصرف يسير

(٣) أورده ابن الجوزي في « تلبيس إبليس » (ص٢١٣) .

بحَضْرةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهلِ استحضرُوا قَوَّالاً وقَعَدُوا مُجتمعِينَ لاستماعِهِ . . لا شَكَّ بأنْ يُنكِرَ ذلكَ مِنْ حالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ ، ولو كانَ في ذلكَ فضيلةٌ تُطلَبُ . . ما أهملُوها

فمَنْ يُشِيرُ بأنَّهُ فضيلةٌ تُطلَبُ ويُجتمَعُ لها . . لم يَحْظَ بذَوْقِ معرفةِ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والصَّحابةِ والتابعينَ ، ويَستروِحُ إلى استحسانِ بعضِ المُتأخِّرينَ ذلكَ[1] ، وكثيراً ما يَغلَطُ الناسُ في هٰذا ؛ كلَّما احتُجَّ عليهِم بالسلفِ الصالحينَ الماضِينَ يحتجُّونَ بالمُتأخِّرينَ ، وكانَ السلفُ أقربَ إلىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهَدْيُهُم أَشْبهَ بهَدْيِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكثيرٌ مِنَ الفقراءِ يتسمَّحُونَ عندَ قراءةِ القرآنِ بأشياءَ مِنْ غيرِ غَلَبةٍ .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ عُروةَ بنِ الزُّبيرِ : قلتُ لجدَّتي أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُم : كيفَ كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يفعلُون إذا قُرِئَ عليهِمُ القرآنُ ؟ قالتْ : كانُوا كما وَصَفَهُمُ اللهُ تعالىٰ ؛ تدمعُ أعينُهُم ، وتَقشعِرُّ جلودُهُم ، قالَ : قلتُ إنَّ أُناساً اليومَ إذا قُرِئَ عليهِمُ القرآنُ خرَّ أحدُهُم مَغْشِيّاً عليهِ ، قالتْ : أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ[2]

ورُوِيَ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما مَرَّ برجلٍ مِنْ أهلِ العراقِ يتساقطُ ، قالَ : ما لهٰذا ؟ قالوا : إنَّهُ إذا قُرِئَ عليهِ القرآنُ وسَمِعَ ذِكْرَ اللهِ

---

(١) كالإمام الغزالي . من هامش (ح) ، وسيأتي تعليقاً تفصيل الغزالي في ذلك آخرَ الباب .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠١٦) ، وسعيد بن منصور في « سننه » (٩٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٩٠٠)

تعالىٰ . . سقط ، فقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : إنَّا لَنخشى اللهَ وما نسقطُ ، إنَّ الشيطانَ يدخلُ في جوفِ أحدِهِم ، ما هٰكذا كانَ يصنعُ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(١)]

وذُكِرَ عندَ ابنِ سيرينَ الذينَ يُصرَعُونَ إذا قُرِئَ القرآنُ ، فقالَ : بينَنا وبينَهُم أنْ يُقعَدَ واحدٌ منهُم علىٰ ظَهْرِ بيتٍ باسطاً رجلَيهِ ، ثمَّ يُقرَأَ عليهِ القرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ، فإنْ رمىٰ بنفسِهِ فهوَ صادقٌ[(٢)]

وليسَ هٰذا القولُ إنكاراً منهُم على الإطلاقِ ؛ إذ يتَّفقُ ذلكَ لبعضِ الصادقينَ ، ولٰكنْ للتصنُّعِ المُتوهَّمِ في حَقِّ الأكثرينَ ، وقد يكونُ ذلكَ مِنَ البعضِ تصنُّعاً ورِياءً ، ويكونُ مِنَ البعضِ لقُصُورِ عِلْمٍ ومُخامَرةِ جهلٍ مَمْزُوجٍ بهوىً ، يُلِمُّ بأحدِهِم يسيرٌ مِنَ الوجدِ ، فيُتبِعُهُ بزياداتٍ يجهلُ أنَّ ذلكَ يَضُرُّ بدِينِهِ ، وقد لا يُجهلُ أنَّ ذلكَ مِنَ النَّفْسِ ، ولٰكنَّ النَّفْسَ تسترقُ السمعَ استراقاً خَفِيّاً تُخرِجُ الوجدَ عنِ الحدِّ الذي ينبغي أنْ يقفَ عليهِ ، وهٰذا يُبايِنُ الصِّدْقَ[(٣)]

نُقِلَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ وَعَظَ قومَهُ ، فشَقَّ رجلٌ منهُم قميصَهُ ، فقيلَ لموسىٰ عليهِ السلامُ : قُلْ لصاحبِ القميصِ : لا يَشُقُّ قميصَهُ ويشرحُ قلبَهُ[(٤)]

---

(١) رواه بتمامه الثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٣/٤٣ـ٤٤) ، ودون قوله : (إن الشيطان . . .) أحمد في « الزهد » (١٠٧٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٣١٢) .

(٢) رواه الثعلبي في « الكشف والبيان » (٢٣/٤٤ـ٤٥) .

(٣) لأنَّ الصدق يقتضي أن يُرىٰ كما هو في الواقع . من هامش (ح) .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٤٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٩٠) ، والثعلبي في=

وأمَّا إذا انضافَ إلى السَّماعِ أنْ يُسمَعَ مِنَ الأَمْردِ . . فقد توجَّهتِ الفتنةُ ، وتعيَّنَ على أهلِ الدِّياناتِ إنكارُ ذلكَ .

قالَ بَقِيَّةُ بنُ الوليدِ (كانُوا يكرهُونَ النظرَ إلى الغلامِ الأَمردِ الجميلِ)[1]

وقالَ عطاءٌ : (كلُّ نَظْرةٍ يَهْواها القلبُ فلا خيرَ فيها)[2]

وقالَ بعضُ التابعينَ (ما أنا أخوفَ على الشابِّ التائبِ مِنَ السَّبُعِ الضَّاري . . خَوْفي عليهِ مِنَ الغلامِ الأَمردِ يقعدُ إليهِ)[3]

وقالَ بعضُ التابعينَ أيضاً : (اللُّوطِيَّةُ على ثلاثةِ أَصْنافٍ : صِنْفٌ ينظُرُونَ ، وصِنْفٌ يُصافِحُونَ ، وصِنْفٌ يعملُونَ ذلكَ العَمَلَ)[4]

فقد تعيَّنَ على طائفةِ الصُّوفيَّةِ الاجتنابُ مِنْ مثلِ هـٰذهِ الاجتماعاتِ ، واتِّقاءُ مواضعِ التُّهَمِ ؛ فإنَّ أمرَ الصُّوفيَّةِ صِدْقٌ كلُّهُ ، وجِدٌّ كُلُّهُ ؛ يقولُ

= « الكشف والبيان » (٢٣/ ٤٥ـ ٤٦) ، واللفظ فيها : (لا يشقُّ قميصه ليشرحَ لي عن قلبه) ، وفي بعض النسخ : (صدره) بدل (قلبه) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » (١٣٢) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (٥٠١٢) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (٣٤٨) عن بقية عن الوضين بن عطاء عن بعض التابعين .

(٢) رواه وكيع في « الزهد » (٤٨٢) ، وهنَّاد في « الزهد » (٢/ ٦٥٠) ، ومن طريقه ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (٢٩٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » (١٣٣) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (٥٠١٣) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٠١٩) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (٣٨١) عن أبي سهل رحمه الله تعالىٰ ، ورواه الديلمي في « الفردوس » (٣٤٢٥) مرفوعاً عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

بعضُهُم : (التصوُّفُ كلُّهُ جِدٌّ ، فلا تَخلِطُوهُ بشيءٍ مِنَ الهَزْلِ)[1]

فهٰذِهِ الآثارُ دَلَّتْ على اجتنابِ السَّماعِ ، وأَخْذِ الحَذَرِ منهُ ، والبابُ الأوَّلُ[2] بما فيهِ دَلَّ علىٰ جوازِهِ بشروطِهِ ، وتنزيهِهِ عنِ المَكارِهِ التي ذَكَرْناها ، وقد فَصَّلْنا القولَ ، وفَرَّقْنا بينَ القصائدِ والغِناءِ وغيرِ ذلكَ[3]

وكانَ جماعةٌ مِنَ الصالحينَ لا يسمعُونَ ، ومعَ ذلكَ لا يُنكِرُونَ علىٰ مَنْ يسمعُ بنيَّةٍ حَسَنةٍ ويُراعِي الأدبَ فيهِ[4]

* * *

---

(١) رواه السلمي في « طبقاته » (ص٣٥٧) ، والقشيري في « رسالته » (ص١٩٨) عن أبي علي الرُّوذْباري رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أي : البابُ الأوَّل المعقود للسماع ؛ وهو الذي قبل هٰذا ، لا الباب الأول من الكتاب .

(٣) انظر (١/ ٤٧٩) وما بعدها

(٤) في هامش (ب) : (بلغ السماع للجماعة على الشيخ أمين الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام)

قال الإمام الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٥٣٢ـ٥٣٣) في تحرير مسألة السماع : (فقد خَرَجَ من جملة التفصيل السابق : أنَّ السماعَ قد يكون حراماً محضاً ، وقد يكونُ مُباحاً ، وقد يكونُ مُستحبّاً ، وقد يكونُ مكروهاً .

أمَّا الحرام : فهو لأكثر الناس ؛ من الشُّبَّان ، ومَنْ غلبتْ عليهم شهوةُ الدنيا ، فلا يُحرِّكُ السماعُ منهم إلا ما هو الغالبُ علىٰ قلوبهم من الصفات المذمومة .

وأمَّا المكروه : فهو لمَنْ لا يُنزِّلُهُ علىٰ صورة المخلوقين ، ولٰكنَّهُ يتَّخذه عادة له في أكثر الأوقات علىٰ سبيل اللهو .

وأمَّا المباح : فهو لمَنْ لا حظَّ له منه إلا التلذُّذ بالصوت الحسن .

وأمَّا المستحبُّ : فهو لمَنْ غلب عليه حبُّ الله تعالىٰ ، ولم يُحرِّكَ السماعُ منه إلا الصفاتِ المحمودةَ) .

الباب الرابع والعشرون

في القول في السماع ترفعاً واستغناء

اعلَمْ : أنَّ الوجدَ يُشعِرُ بسابقةِ فَقْدٍ ؛ فمَنْ لم يَفقِدْ لم يَجِدْ ، وإنَّما كانَ الفقدُ لمُزاحَمةِ وجودِ العَبْدِ بوجودِ صفاتِهِ وبقاياهُ ، فلو تمحَّضَ عبداً تمحَّضَ حُرّاً ، ومَنْ تمحَّضَ حُرّاً أَفْلَتَ مِنْ شَرَكِ الوَجْدِ[1] ، فشَرَكُ الوَجْدِ يصطادُ البقايا ، ووجودُ البقايا لتخلُّفِ شيءٍ مِنَ العطايا

قالَ الحُصْريُّ رحمَهُ اللهُ : (ما أَدْوَنَ حالَ مَنْ يحتاجُ إلىٰ مُزعِجٍ يُزعِجُهُ !!)[2]

فالوَجْدُ بالسَّماعِ في حَقِّ المُحِقِّ . . كالوَجْدِ بالسَّماعِ في حَقِّ المُبطِلِ ؛ مِنْ حيثُ النَّظَرُ إلى انزعاجِهِ ، وتأثُّرُ الباطنِ بهِ ، وظهورُ أثَرِهِ على الظاهرِ ، وتغييرُهُ للعبدِ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ

وإنَّما يختلفُ الحالُ بينَ المُحِقِّ والمُبطِلِ : أنَّ المُبطِلَ يجدُ لوجودِ هَوَى

---

(١) بالوجود ؛ وهو عبارة عن غيبة وجود الواجد وفنائه عند غلبة نور الشهود . من هامش (ح) .

(٢) رواه السلمي في « طبقاته » (ص٤٣٢) عن أبي عمرو الزجاجي رحمه الله تعالىٰ ، وزاد : (السَّماعُ من ضعف الحال ، ولو قَوِيَ لاستغنىٰ عن السَّماع والأوتار) ، وقوله : (ما أدونَ حالَ . . .) ؛ لأنَّ احتياجَهُ إلى المزعج لوجود المُزاحِم لدوام شهوده . من هامش (ح) .

النَّفْسِ ، والمُحِقَّ يجدُ لوجودِ إرادةِ القلبِ[1] ؛ ولهـٰذا قيلَ : (السَّماعُ لا يُحدِثُ في القلبِ شيئاً ، وإنَّما يُحرِّكُ ما في القلبِ) .

فمَنْ مُتعلَّقُ باطنِهِ غيرُ اللهِ يُحرِّكُهُ السماعُ ، فيَجِدُ بالهوىٰ ، ومَنْ مُتعلَّقُ باطنِهِ مَحَبَّةُ اللهِ يَجِدُ بالإرادةِ إرادةَ القلبِ .

فالمُبطِلُ محجوبٌ بحجابِ النَّفْسِ ، والمُحِقُّ محجوبٌ بحجابِ القلبِ ، وحجابُ النَّفْسِ حجابٌ أَرْضيٌّ ظُلْمانيٌّ ، وحجابُ القلبِ حجابٌ سَمَاويٌّ نُورانيٌّ

ومَنْ لم يَفقِدْ بدوامِ التحقُّقِ بالشُّهودِ ، ولا يتعثَّرْ بأذيالِ الوجودِ . . لا يَجِدُ ولا يسمعُ ؛ ومِنْ هـٰذهِ المُطالَعةِ قالَ بعضُهُم (أنا رَدْمٌ كلُّهُ ؛ لا ينفذُ فيَّ قولٌ)[2]

ومَرَّ مِمْشاذُ الدِّينَوَريُّ رحمَهُ اللهُ بقومٍ فيهِم قَوَّالٌ ، فلمَّا رَأَوْهُ أَمسَكُوا ،

---

(١) فوَجْدُ المُبطِلِ يجذبه إلى الخلق ، ووَجْدُ المُحِقِّ يجذبه إلىٰ جَنَاب الحقِّ ، وكلا الوجدَينِ ممزوجان ؛ ذاك بباطلٍ وهـٰذا بحقٍّ . من هامش (ح) .

(٢) أورده الكلاباذي في « التعرف » (ص١٧٨) ، ومختصراً القشيريُّ في « الرسالة » (ص٢٤٠) ، وقولُهُ : (أنا رَدْمٌ كلُّهُ . . .) كذا رُسمت في جميع النسخ ، وضُبطت كذلك في غالبها ، وردمٌ ؛ أي : سَدٌّ بمعنىٰ مسدود ، والمعنىٰ : أنا مسدودٌ بجُمْلتي وكُلِّيَّتي عن أن أتأثَّر بسماعِ قوَّال ؛ لأنَّني غارقٌ في حضرة الحق ، وأفادنا أستاذُنا المُربِّي الدكتور ياسر القضماني عن بعض الأفغان أنَّ الجملة فارسية ، ولفظها هـٰكذا : (نا آرْ دَمْ كِلْ) ، والمعنىٰ : لم آتِ بأيِّ طينة أو تراب أو غبرة ، ثمَّ جاء بعد هـٰذا ما يُبيِّنه بالعربية فقال : لا ينفذ فيَّ قولٌ ؛ أي : لا يسمع ولا يجد كما قال المؤلف قبلُ ، وإذا ضُمَّتِ الكاف من (كلْ) صار المعنىٰ : لم آتِ بأي زهرة ، ولعل ما أُثبِتَ أقربُ إلى الصواب والسياق ، خصوصاً أنَّ بعض النسخ التي عُلِّق علىٰ هامشها بالفارسي ضبطتها كذلك، ولم تشر إلى الاحتمال الفارسي ، والله تعالىٰ أعلم .

فقالَ : ارجِعُوا إلىٰ ما كنتُم فيهِ ، فواللهِ ؛ لو جُمِعَتْ مَلاهي الدنيا في أُذُني . . ما شَغَلَ همِّي ، ولا شفىٰ بعضَ ما بي[1]

فالوَجْدُ صُراخُ الرُّوحِ المُبتلىٰ بالنَّفْسِ تارةً في حَقِّ المُبطِلِ ، وبالقلبِ تارةً في حَقِّ المُحِقِّ ، فمَثَارُ الوَجْدِ الرُّوحُ الرُّوحانيُّ في حَقِّ المُحِقِّ والمُبطِلِ

ويكونُ الوجدُ تارةً مِنْ فَهْمِ المعاني يظهرُ ، وتارةً مِنْ مُجرَّدِ النَّغَماتِ والألحانِ

فما كانَ مِنْ قَبيلِ المعاني يُشارِكُ النَّفْسُ الرُّوحَ في السَّماعِ في حَقِّ المُبطِلِ ، ويُشارِكُ القلبُ الرُّوحَ في حَقِّ المُحِقِّ .

وما كانَ مِنْ قَبيلِ مُجرَّدِ النَّغَماتِ تتجرَّدُ الرُّوحُ للسَّماعِ ، ولٰكن في حَقِّ المُبطِلِ تسترقُ النَّفْسُ السمعَ ، وفي حَقِّ المُحِقِّ يسترقُ القلبُ السمعَ

ووَجْهُ استلذاذِ الرُّوحِ النَّغَماتِ : أنَّ العالَمَ الرُّوحانيَّ مَجْمَعُ الحُسْنِ والجمالِ ، ووجودُ التناسُبِ في الأكوانِ مُستحسَنٌ قولاً وفعلاً ، ووجودُ التناسُبِ في الهياكلِ والصُّوَرِ ميراثُ الرُّوحانيَّةِ ، فمتىٰ سَمعَ الرُّوحُ النَّغَماتِ اللذيذةَ ، والألحانَ المُتناسِبةَ . تأثَّرَ بهِ ؛ لوجودِ الجِنسيَّةِ ، ثمَّ يتقيَّدُ ذلكَ بالشرعِ لمصالحِ عالَمِ الحِكْمةِ ، ورعايةُ الحدودِ للعبدِ عينُ المصلحةِ عاجِلاً وآجِلاً[2]

---

(1) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٦٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٩٤) ، وفي (ح) : (ولا سَفَىٰ) بدل (ولا شفىٰ) ، وكتب علىٰ هامشها : (سَفَتِ الريحُ الترابَ تَسْفِيهِ سَفْياً : إذا أَذْرته تذرية . « صحاح ») ، وهو بعيد ، والأقربُ ما أثبت ، والله تعالىٰ أعلم

(2) أمَّا عاجلاً فللخلاص من المزاجر الشرعيَّة والآثام اللائمة ، وأمَّا آجلاً فلتهيُّؤِ الجوابِ=

وَوَجْهٌ آخَرُ : أنَّهُ إنَّما يستلذُّ الروحُ النَّغَماتِ ؛ لأنَّ النَّغَماتِ بها نَطَقَ النَّفْسُ معَ الرُّوحِ بالإيماءِ الخَفِيِّ إشارةً ورَمْزاً بينَ المُتعاشِقَينِ ، وبينَ النُّفُوسِ والأرواحِ تَعَاشُقٌ أصليٌّ ، ينزِعُ ذلكَ إلىٰ أُنوثةِ النَّفْسِ وذُكُورةِ الرُّوحِ ، والميلُ والتعاشقُ بينَ الذكرِ والأُنثىٰ بالطَّبيعةِ واقعٌ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ، وفي قولِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ مِنْهَا ﴾ إشعارٌ بتلازمٍ وتلاصقٍ مُوجِبٍ للائتلافِ والتَّعَاشُقِ .

فالنَّغَماتُ يستلذُّها الرُّوحُ[١] ؛ لأنَّها مُناغاةٌ بينَ المُتعاشِقَينِ[٢]

وكما أنَّ في عالَمِ الحِكْمةِ كُوِّنتْ حوَّاءُ مِنْ آدمَ عليهِما السلامُ . . ففي عالَمِ القُدْرةِ كُوِّنَتِ النَّفْسُ مِنَ الرُّوحِ ، فهـٰذا التآلُفُ مِنْ هـٰذا الأصلِ ؛ وذلكَ أنَّ النَّفْسَ رُوحٌ حَيَوانيٌّ تجنَّستْ بالقُرْبِ مِنَ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ ، وتَجَنُّسُها بأنِ امتازتْ مِنْ أرواحِ جنسِ الحيوانِ بشرفِ القُرْبِ مِنَ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ ، فصارَتْ نَفْساً

فإذاً : تكَوُّنُ النَّفْسِ مِنَ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ في عالَمِ القُدْرةِ . . كتكوُّنِ حَوَّاءَ مِنْ آدمَ في عالَمِ الحِكْمةِ .

فهـٰذا التآلُفُ والتعاشُقُ ، ونِسْبةُ الأُنوثةِ والذُّكورةِ . . مِنْ ها هنا ظَهَرَ ، وبهـٰذا الطريقِ استطابَ الرُّوحُ النَّغَماتِ ؛ لأنَّها مُراسلاتٌ بينَ المُتعاشِقَينِ ،

= وقتَ السؤال يومَ العَرْض ؛ فإنَّ السؤالَ هناك على قانون الحكمة ؛ يُقال لِمَ فعلتَ ؟ وكيف فعلتَ ؟ ولمَنْ فعلتَ ؟ [ومَنْ] لم يتقيَّد بالشرع لا يتخلَّص . من هامش (ح) .

(١) لفظ (الرُّوح) مُذكَّر ، وبعضُهم أجاز فيه التأنيثَ والتذكير .

(٢) والمعشوقةُ إذا تكلَّمت بما يزدادُ به عِشْقُ العاشق رَمْزاً أو إيماءً . . لا شكَّ أنَّهُ يستلذُّ كلامَها ، والمُناغاةُ : المُغازلةُ ، والمرأةُ تُناغي الصبيَّ ؛ أي : تُكلِّمُهُ بما يُعجِبُهُ ويَسُرُّهُ . « صحاح » . من هامش (ح) .

ومُكالَمةٌ بينَهُما ، وقد قالَ القائلُ[1] : [من الطويل]

تَكَلَّمُ مِنَّا فِي ٱلْوُجُوهِ عُيُونُنَا فَنَحْنُ سُكُوتٌ وَٱلْهَوَىٰ يَتَكَلَّمُ

فإذا استلذَّ الرُّوحُ النغمةَ وَجَدَتِ النَّفْسُ المعلولةُ بالهوىٰ ، وتحرَّكَتْ بما فيها لحدوثِ العارضِ ، ووَجَدَ القلبُ المعلولُ بالإرادةِ ، وتحرَّكَ ما فيهِ لوجودِ العارضِ في الروحِ

شَرِبْنَا وَأَهْرَقْنَا عَلَى ٱلْأَرْضِ فَضْلَنَا وَلِلْأَرْضِ مِنْ كَأْسِ ٱلْكِرَامِ نَصِيبُ[2]

فنَفْسُ المُبطِلِ أرضٌ لسماءِ قلبِهِ ، وقلبُ المُحِقِّ أرضٌ لسماءِ روحِهِ .

فالبالغُ مَبْلَغَ الرجالِ ، والمُتجوهِرُ المُتجرِّدُ مِنْ أَعْراضِ الأحوالِ[3] . . خَلَعَ نَعْلَيِ النَّفْسِ والقلبِ بالوادي المُقدَّسِ[4] ، وفي مَقْعَدِ صِدْقٍ عندَ مَليكٍ مُقتدِرٍ استقرَّ وعَرَّسَ ، وأَحْرقَ بنورِ العِيانِ أَجْرامَ الألحانِ ، ولم يُصْغِ روحُهُ إلىٰ مُناغاةِ عاشقِهِ ؛ لشُغْلِهِ بمُطالَعةِ آثارِ محبوبِهِ ، والهائمُ المُشتاقُ ، لا يَسعُهُ كشفُ ظُلامةِ العُشَّاقِ .

ومَنْ هـٰذا حالُهُ لا يُحرِّكُهُ السَّماعُ رأساً

وإذا كانتِ الألحانُ لا تلحقُ هـٰذا الرُّوحَ معَ لَطَافةِ مُناجاتِها ، وخَفِيِّ لُطْفِ مُناغاتِها . . كيفَ يلحقُهُ السَّماعُ بطريقِ فَهْمِ المعاني وهوَ أكثفُ ؟! ومَنْ

---

(١) البيت للعباس بن الأحنف في « ديوانه » (ص٢٤٣) .

(٢) أورده أبو حيَّان التوحيدي في « البصائر والذخائر » (١/ ١٢١) ، وهو من الطويل .

(٣) قوله : (والمُتجوهِر) ؛ أي : الذي صار جوهراً مُجرَّداً عن موارد المُمكِنات ، مُنوَّراً بأنوار تجلِّيات الواجب ، مُنزَّهاً عن أَعْراض العوارض وتقلُّباتِ الأحوال . من هامش (ح) .

(٤) كنايةٌ عن الوصول إلىٰ حضرة القدس . من هامش (ح) .

يَضعُفُ عن حَمْلِ لطيفِ الإشاراتِ. . كيفَ يتحمَّلُ ثِقَلَ أعباءِ العباراتِ ؟!

وأقربُ مِنْ هـٰذا عبارةٌ تَقرُبُ إلى الأفهامِ : الوجدُ واردٌ يَرِدُ مِنَ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ومَنْ يُريدُ اللهَ لا يقنعُ بما مِنْ عندِ اللهِ ، ومَنْ صارَ في مَحَلِّ القُرْبِ مُتحقِّقاً بهِ . . لا يُلهِيهِ ولا يُحرِّكُهُ ما مِنْ عندِ اللهِ .

فالواردُ مِنْ عندِ اللهِ مُشعِرٌ ببُعْدٍ ، والقريبُ واجدٌ فما يصنعُ بالواردِ ؟!

والوجدُ نارٌ ، وللقلبِ الواجدِ بربِّهِ نُورٌ ، والنُّورُ ألطفُ مِنَ النارِ ، والكثيفُ غيرُ مُسيطِرٍ على اللطيفِ .

فما دامَ الرجلُ البالغُ مُستمِرّاً علىٰ جادَّةِ استقامتِهِ ، غيرَ مُنحرِفٍ عن وُجْهةِ معهودِهِ بنوازعِ وجودِهِ . . لا يُدرِكُهُ الوَجْدُ بالسَّماعِ ، فإنْ دَخَلَ عليهِ فتورٌ أو عاقَهُ قصورٌ بدخولِ الابتلاءِ عليهِ مِنَ المُبلِي المُحسِنِ . . يتألَّفُ[1] مِنْ تفاريقِ صُوَرِ الابتلاءِ وجودٌ يُدرِكُهُ الوَجْدُ لعودِ العبدِ عندَ الابتلاءِ إلىٰ حجابِ القلبِ ، فمَنْ هوَ معَ الحقِّ إذا زَلَّ وَقَعَ على القلبِ ، ومَنْ هوَ معَ القلبِ إذا زَلَّ وَقَعَ على النَّفْسِ

سمعتُ بعضَ المشايخِ يَحْكي عن بعضِهِم أنَّهُ وَجَدَ مِنَ السَّماعِ ، فقيلَ لهُ : أينَ حالُكَ مِنْ هـٰذا ؟ فقالَ : دَخَلَ عليَّ داخلٌ أَوْرَدَني هـٰذا المَورِدَ .

وقالَ بعضُ أصحابِ سَهْلٍ : صحبتُ سهلاً سنينَ ما رأيتُهُ تغيَّرَ عندَ شيءٍ كانَ يسمعُهُ مِنَ الذِّكْرِ والقرآنِ ، فلمَّا كانَ في آخرِ عُمُرِهِ قُرِئَ عندَهُ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ [الحديد : ١٥] ، فارتعدَ وكادَ يسقطُ ، فسألتُهُ عن

---

(١) في (هـ) : (يتولَّد) بدل (يتألف) .

ذلكَ ، قالَ : نعم ، لَحِقَني ضَعفٌ[1]

وسَمِعَ مرَّةً قَولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الفرقان ٢٦] ، فاضطربَ ، فسألَهُ ابنُ سالمٍ وكانَ صاحبَهُ ، قالَ : قد ضَعُفْتُ ، فقيلَ لهُ : إنْ كانَ هـٰذا مِنَ الضعفِ فما القُوَّةُ ؟ قالَ : القُوَّةُ أَلَّا يَرِدَ عليهِ واردٌ إلا يبتلعُهُ بقُوَّةِ حالِهِ ، فلا يُغيِّرُهُ الواردُ[2]

ومِنْ هـٰذا القَبيلِ : قولُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (هكذا كُنَّا حتىٰ قَسَتِ القلوبُ) ؛ لمَّا رأى الباكيَ يبكي عندَ قراءةِ القرآنِ[3]

وقولُهُ : (قَسَتْ) ؛ أي : تصلَّبتْ وأَدْمَنتْ سماعَ القرآنِ ، وأَلِفتْ أنوارَهُ ، فما استغربَتْهُ حتىٰ تتغيَّرَ[4] ، والواجدُ كالمُستغرِبِ ؛ ولهـٰذا قالَ بعضُهُم : (حالي قبلَ الصَّلاةِ كحالي في الصَّلاةِ) إشارةً منهُ : إلى استمرارِ حالِ الشُّهودِ ؛ فهكذا في السَّماعِ كقَبْلِ السَّماعِ .

---

(١) رواه أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٦٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٩٣) ، وأورده الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٥٢٤) عن محمد بن أحمد ابن سالم البصري عن أبيه أحمد ، وكان من أجلِّ تلاميذ التستري رحمهما الله تعالىٰ ، وفي « اللمع » و« الرسالة » : (خدمت) بدل (صحبت) ، وفي « اللمع » و« الإحياء » : (ستين سنة) بدل (سنين) ، وفي « الرسالة » : (سنين كثيرة) .

(٢) أورده بتمامه الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٥٢٥) ، ورواه أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٦٥) ، وأورده القشيري في « الرسالة » (ص٦٩٣) دون قوله : (فقيل له . . .) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٦٧٣)، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٣ـ٣٤)، والثعلبي في « الكشف والبيان » (١١/ ٤٦٤ـ٤٦٥) .

(٤) وفي هامش (ح) (عبَّر عن تمكُّنِ القلب بالاعتبار بقوله : « قَسَتْ » ، ولم يقل : « تمكَّنت » ؛ ستراً واحترازاً عن التزكية) .

وقد قالَ الجُنيدُ : (لا يَضُرُّ نقصانُ الوَجْدِ معَ فَضْلِ العِلْمِ ، وفَضْلُ العِلْمِ أتمُّ مِنْ فضلِ الوَجْدِ)[1]

وبَلَغَنا عنِ الشيخِ حمَّادٍ رحمَهُ اللهُ أنَّهُ كانَ يقولُ[2] : (البكاءُ مِنْ بقيَّةِ الوجودِ)[3]

وكلُّ هٰذا يُقرِّبُ البعضَ مِنَ البعضِ في المعنىٰ لمَنْ عَرَفَ الإشارةَ فيهِ وفَهِمَ ، وهوَ عزيزُ الفهمِ ، عزيزُ الوجودِ .

واعلَمْ : أنَّ للباكينَ عندَ السماعِ مواجيدَ مُختلفةً ؛ فمنهُم مَنْ يبكي خَوْفاً ، ومنهُم مَنْ يبكي شَوْقاً ، ومنهُم مَنْ يبكي فَرَحاً ؛ كما قالَ القائلُ[4] : [من الكامل]

طَفَحَ ٱلسُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّىٰ أَنَّنِي ... مِنْ عُظْمِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي

قالَ أبو بكرٍ الكَتَّانيُّ رحمَهُ اللهُ : (سماعُ العوامِّ علىٰ مُتابعةِ الطَّبْعِ ،

---

(١) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٨١) ، والغزالي في « الإحياء » (٤/ ٥٢٥) ، وقولُه : (أتمُّ من فضل الوجد) في هامش (ح) : (مع أنَّ فضلَ العلم يوزن بوجودٍ ما ، لٰكنَّ ذلك الوجود ليس وجوداً ظلمانياً يزاحم مجرَّد الشهود ، بل يزاحم صفو الشهود)

(٢) هو الشيخ العارف حمَّاد الدبَّاس شيخ الإمام المُربِّي أبي النجيب السهروردي . انظر (١/ ٤٤٦) تعليقاً .

(٣) لأنَّهُ من فقد الشهود . من هامش (ح) .

(٤) أورده السهيلي في « الروض الأنف » (٤/ ١٣٢) عن بعض المحدثين ، وقبله :

وردَ الكتابُ مِنَ الحبيبِ بأنَّهُ ... سيزورُني فاستعبرَتْ أَجْفاني

وبعده

يا عينُ صارَ الدمعُ عندَكِ عادةً ... تبكينَ في فَرَحٍ وفي أَحْزانِ

وطَفَحَ : امتلأ حتىٰ فاض .

وسماعُ المُريدينَ رَغْبةٌ ورَهْبةٌ ، وسماعُ الأولياءِ رؤيةُ الآلاءِ والنِّعَمِ[1] ، وسماعُ العارفينَ على المُشاهَدةِ ، وسماعُ أهلِ الحقيقةِ على الكشفِ والعِيانِ ، ولكلِّ واحدٍ مِنْ هـٰؤلاءِ مصدرٌ ومقامٌ)[2]

وقال أيضاً : (الواردُ يَرِدُ فيُصادِفُ شَكْلاً أو مُوافقةً ؛ فأيُّ واردٍ صادفَ شَكْلاً مازجَهُ ، وأيُّ واردٍ صادفَ مُوافِقاً ساكنَهُ)[3]

وهـٰذهِ كلُّها[4] مواجيدُ أهلِ السَّماعِ ، وما ذَكَرْناهُ حالُ مَنِ ارتفعَ مِنَ السَّماعِ .

وهـٰذا الاختلافُ يُنزَّلُ على اختلافِ أقسامِ البكاءِ الذي ذَكَرْناهُ ؛ مِنَ الخوفِ والشوقِ والفَرَحِ[5] ، وأَعْلاها بكاءُ الفَرَحِ ؛ بمثابةِ قادمٍ يَقدَمُ علىٰ أهلِه بعدَ طُولِ غُرْبتِهِ ؛ فعندَ رؤيةِ الأهلِ يبكي مِنْ قُوَّةِ الفَرَحِ وكثرتِهِ .

وفي البكاءِ رُتْبةٌ أخرىٰ أَعَزُّ مِنْ هـٰذهِ ، يَعِزُّ ذِكْرُها ، ويَكبُرُ نَشْرُها ؛

---

(١) في (ب ، ج ، و ، ح) : (والنعماء) .

(٢) رواه السلمي في « طبقاته » (ص٣٧٥) ، وقوله : (مصدر ومقام) فمصدرُ سماع العوامِّ : الطبعُ والنَّفس ، ومصدرُ سماع المريدين : القلبُ الممزوج بالنفس ، ومصدرُ سماع الأولياء : القلب المُخلَّص عن النفس المقترن بالعقل ، ومصدرُ سماع أهل الحقيقة : السِّرُّ المُصفَّىٰ عن الأكوان ، المُنوَّر بنور العِيان . من هامش (ح) .

(٣) رواه السلمي في « طبقاته » (ص٣٧٥) ، وقولُهُ : (ساكنه) : فيُعلم من هـٰذا : سِرُّ سكون الأكابر في حالة السماع ، ولم يكن مُزعِجاً له ومُحرِّكاً له ، وقولُهُ : (مازجه) ؛ أي : مازج الوارد ذلك الشكل الحادث ، فلم يبق الوارد علىٰ حَرَافته ؛ بسبب الممازجة ، وذلك الشكل لا يناسبُهُ ولا يوافقه فيكونَ مُزعِجاً له ومُحرِّكاً . من هامش (ح) .

(٤) أي : المذكورات من قول الكتَّاني وما قبله . من هامش (ح) .

(٥) الفرق بين الشوق والفرح [أنَّ] الشوقَ يُستعمل فيما يُرجىٰ وقوعُهُ ، والفرحَ يُستعمل فيما تحقَّق وقوعه . « كشف » . من هامش (ح) .

لقُصورِ الأفهامِ عن إدراكِها ؛ فربَّما يُقابَلُ ذكرُها بالإنكارِ ، ويُجفىٰ بالاستكبارِ[1] ، ولـٰكن يعرفُها مَنْ وَجَدَها قَدَماً ووُصُولاً ، أو فَهِمَها نَظَراً ومُثُولاً ؛ وهوَ بكاءُ الوِجْدانِ ، غيرُ بكاءِ الفرحِ ، وحدوثُ ذلكَ في بعضِ مواطنِ حَقِّ اليقينِ

ومِنْ حقِّ اليقينِ في الدُّنيا إلماماتٌ يسيرةٌ ، فيُوجَدُ البكاءُ في بعضِ مواطنِهِ ؛ لوجودِ تغايرٍ وتباينٍ بينَ المُحدَثِ والقديمِ ، فيكونُ البكاءُ رَشْحاً هوَ وصفُ الحَدَثانِ ؛ لوَهَجِ سَطْوةِ عَظَمةِ الرحمـٰنِ[2] ، ويَقرُبُ مِنْ ذلكَ مثلاً في الشاهدِ : قَطْرُ الغَمامِ ، بتَلَاقي مُختلِفِ الأجرامِ[3] ، وهـٰذا وإنْ عَزَّ مُشعِرٌ ببقيَّةٍ تقدحُ في صِرْفِ الفَناءِ .

نعم ؛ قد يتحقَّقُ العبدُ في الفناءِ مُتجرِّداً عنِ الآثارِ[4] ، مُنغمِساً في الأنوارِ[5] ، ثمَّ يرقىٰ منهُ إلىٰ مقامِ البقاءِ[6] ، ويُرَدُّ إليهِ الوجودُ مُطهَّراً[7] ،

---

(١) يُجفىٰ : يُعرض عنه ويُطرح ، وفي (هـ) ونسخة علىٰ هامش (د) : (ويخفىٰ) ، وفي هامش (ب) : (بلغ سماعاً وقراءة ونفعاً على الشيخ جلال الدين ، نفعنا الله به آمين ، كتبه الفقير عبد السلام)

(٢) الوَهَج في الأصل : حرُّ النار .

(٣) إذا تلاقتِ الأجرامُ الحارَّةُ مع الأجرام الباردةِ وتصادَمَتا . . يقعُ القطرُ والمطر ؛ فهـٰذا مثالٌ لما يَرِدُ من الواردات الحارَّة من وَهَج سَطْوة العَظَمة الإلـٰهيَّة ، علىٰ بقايا وجود الرُّوحانيَّة الإنسانيَّة ، التي هي باردةٌ بالنسبة إليها ، فيقعُ الدمعُ والبكاء . من هامش (ح)

(٤) أي : آثار الصفات ؛ وهي الأفعال . من هامش (ح) .

(٥) أي : أنوار الصفات . من هامش (ح) .

(٦) باستكمال الفناء في التجلِّيات الصفاتيَّة والذاتيَّة . من هامش (ح)

(٧) أي : عن دَنَس البشريَّة . من هامش (ح) .

فتعودُ إليهِ أقسامُ البكاءِ ؛ خَوْفاً وشَوْقاً ، وفَرَحاً ووِجْداناً ، بمُشاكَلةِ صُوَرِها ، ومُبايَنةِ حقيقتِها ؛ بفرقٍ لطيفٍ يُدرِكُهُ أربابُهُ[١] ، وعندَ ذلكَ يعودُ عليهِ مِنَ السَّماعِ أيضاً قِسْمٌ ، وذلكَ القِسْمُ مقدورٌ لهُ ، مقهورٌ معَهُ ، يأخذُهُ إذا أرادَ ، ويَرُدُّهُ إذا أرادَ .

ويكونُ هـٰذا السَّماعُ مِنَ المُتمكِّنِ بنَفْسٍ اطمأنَّتْ واستنارتْ ، وباينتْ طبيعتَها ، واكتسبتْ طُمَأنينتَها[٢] ، وأَكْسَبَها الرُّوحُ معنىً منهُ ، فيكونُ سماعُهُ نوعَ تمتُّعٍ للنَّفْسِ ؛ كتمتُّعِها بمُباحاتِ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ ، لا أنْ يأخذَ السَّماعُ منهُ أو يزيدَ بهِ ، أو يظهرَ عليهِ منهُ أَثَرٌ ، وتكونُ النَّفْسُ في ذلكَ بمثابةِ الطِّفْلِ في حِجْرِ الوالدِ ؛ يُفرِّحُهُ في بعضِ أوقاتِهِ ببعضِ مآربِهِ .

ومِنْ هـٰذا القَبيلِ نُقِلَ أنَّ أبا محمَّدٍ الرَّاشِنيَّ كانَ يَشغَلُ أصحابَهُ بالسَّماعِ[٣] ، وينعزلُ عنهُم ناحيةً يُصلِّي فيها ؛ فقد تطرُقُ النَّغَماتُ مثلَ هـٰذا

---

(١) وهو أنَّ قبلَ التحقُّق بالفناء وحصولِ البقاء . . كان أقسامُ البكاء لمزاحمة الوجود ووقوع الحجاب ، وبعدَهُ لا يكونُ كذلك ، بل يكونُ في حال زوال الحجاب ، ولـٰكنَّ الوجودَ الموهوبَ له يقتضي مُعايناً آخرَ فوق ما حصل أوَّلاً ، فيعودُ إليه من النهاية حالاتُ البداية ، كما قال سيِّد الطائفة قدَّس الله روحه وقد سُئِلَ ما نهاية هـٰذا الأمر ؟ قال : النهاية الرجوع إلى البداية ، ومن هنا يُعلَمُ : أنَّ الترقِّيات التي حَصَلتْ للنبي عليه الصلاة والسلام في مقام الرسالة والنبوَّة فوق الترقِّيات التي حصلت قبلها ، ويُفهَم أيضاً : أن النبوَّة أعلىٰ من الولاية . « حاشية زين الدين الخوافي » قدَّس الله سرَّهُ العزيز من هامش (ح) .

(٢) في (أ ، ج ، ز) : (واكتست) بدل (واكتسبت) .

(٣) الرَّاشِني : هو الإمامُ القدوة عبد الله بن محمد (ت ٣٦٧هـ) ، من تلامذة أبي محمد الجُريري ، ومن شيوخ السلمي ، وضُبِط في « طبقات الصوفية » (ص٥١٣) : (الراسبي) بالمهملة ثم الموحدة، والصواب المثبت، كما في « تبصير المنتبه » (٢/ ٦١٩) .

المُصلّي ، وتتدلّىٰ إليها النَّفسُ مُتنعِّمةً بذلكَ ، فيزدادُ مَوارِدُ الرُّوحِ مِنَ الأُنْسِ صفاءً عندَ ذلكَ ؛ لبُعْدِ النَّفْسِ عنِ الرُّوحِ في تمتُّعِها ؛ فإنَّها معَ طُمَأْنينتِها بوَصْفٍ مِنَ الأجنبيَّةِ بوَضْعِها وجِبِلَّتِها[١] ، وفي بُعْدِها تَوَفُّرُ أقسامِ الرُّوحِ مِنَ الفُتُوحِ ، ويكونُ طُرُوقُ الألحانِ سمعَهُ في الصلاةِ غيرَ حائلةٍ بينَهُ وبينَ حقيقةِ المُناجاةِ[٢] ، وفَهْمِ تنزيلِ الكلماتِ ، وتَصِلُ الأقسامُ إلىٰ مَحَالِّها غيرَ مُزاحِمةٍ ولا مُزاحَمةٍ ، وذلكَ كلُّهُ لسَعَةِ شَرْحِ الصَّدرِ بالإيمانِ ، واللهُ المُحسِنُ المَنَّانُ .

ولهٰذا قيلَ (السَّماعُ لقومٍ كالدَّواءِ ، ولقومٍ كالغِذاءِ ، ولقومٍ كالمِرْوحةِ)

ومِنْ عَوْدِ أقسامِ البكاءِ : ما رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأُبَيٍّ : « ٱقْرَأْ » ، فقالَ أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزِلَ ؟! فقالَ : « أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي »، فافتتحَ سورةَ (النساء) حتىٰ بَلَغَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، فإذا عيناهُ تَهمِلانِ[٣]

---

(١) لأنَّ ظلمانيَّتَها أصليّة ، ونورانيَّتَها عارضة . من هامش (ح) .

(٢) في بعض النسخ : (مُحيلة) بدل (حائلة)

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٣) ، ومسلم (٨٠٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وقولُهُ : (قال لأُبَيٍّ) كذا في جميع النسخ ، والمعروف بهٰذا السياق : أنَّهُ قاله صلَّى الله عليه وسلَّم لابن مسعود رضي الله عنه ، والمعروف من قصة أُبيٍّ : ما رواه البخاري (٣٨٠٩) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه قال : قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لأُبيٍّ : « إنَّ اللهَ أَمَرَني أنْ أقرأَ عليكَ : (لم يكنِ الذينَ كفروا مِنْ أهلِ الكتابِ) » ، قال : وسمَّاني ؟ قالَ : « نعم » ، فبكىٰ .

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استقبلَ الحَجَرَ واستلمَهُ ، ثمَّ وَضَعَ شفتَيهِ عليهِ طويلاً يبكي وقالَ : « يَا عُمَرُ ؛ هَا هُنَا تُسْكَبُ ٱلْعَبَرَاتُ »(١)

والمُتمكِّنُ يعودُ إليهِ أقسامُ البكاءِ ، وفي ذلكَ فضيلةٌ سألَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱرْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ »(٢)

ويكونُ البكاءُ في اللهِ(٣) ، ويكونُ للهِ(٤) ، ويكونُ باللهِ(٥) ، وهوَ الأتَمُّ ؛ لعَوْدِهِ إليهِ بوجودٍ مُستأنَفٍ موهوبٍ لهُ مِنَ الكريمِ المَنَّانِ في مقامِ البقاءِ ، واللهُ المُوفِّقُ(٦)

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٩٤٥) ، وابن خزيمة (٢٧١٢) ، والحاكم (١/ ٤٥٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

(٢) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٤٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٦) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٤٤) ، و« صفة النار » (٢٢٠) مرسلاً عن سالم بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ ، وقال العراقي في « المغني » (٣٨٦٥) : (وذكر الدارقطني في « العلل » أنَّ من قال فيه « عن أبيه » وَهِمَ ، وإنَّما هو عن سالم بن عبد الله مرسلاً ، قال وسالمٌ هٰذا : يُشبِهُ أن يكون سالمَ بن عبد الله المُحارِبيَّ ، وليس بابن عمر) .

(٣) في مقام المحبَّة . من هامش (ح) .

(٤) في مقام الإخلاص . من هامش (ح) .

(٥) في مقام البقاء بعد الفناء . من هامش (ح) .

(٦) في هامش (ب) : (بلغ مقابلةً ، بلغ قراءةً) ، وفيه (بلغ السماع للجماعة على الشيخ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي) ، وفيه : (بلغ على الشيخ الحافظ جلال الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام بن داود المقدسي) .

الباب الخامس والعشرون

في القول في السماع تأدباً واعتناء

ويتضمَّنُ هٰذا البابُ : آدابَ السَّماعِ ، وحُكْمَ التخريقِ ، وإشاراتِ المشايخِ في ذلكَ ، وما في ذلكَ مِنَ المأثورِ والمحذورِ

مبنى التصوُّفِ على الصِّدْقِ في سائرِ الأحوالِ[1] ، وهوَ جِدٌّ كلُّهُ ، لا ينبغي للصادقِ أنْ يتعمَّدَ الحضورَ في مَجْمَعٍ يكونُ فيهِ سماعٌ إلا بعدَ : أنْ يُخلِصَ النيَّةَ للهِ تعالىٰ ، ويتوقَّعَ بهِ مَزِيداً في إرادتِهِ وطَلَبِهِ ، ويَحذَرَ مِنْ مَيلِ النَّفْسِ لشيءٍ مِنْ هواها ، ثمَّ يُقدِّمَ الاستخارةَ للحضورِ ، ويسألَ اللهَ إذا عَزَمَ البركةَ فيهِ ، وإذا حضرَ يلزمُ الصِّدْقَ[2] ، والوَقارَ بسكونِ الأَطْرافِ[3]

قالَ أبو بكرٍ الكَتَّانيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (المُستمِعُ يجبُ أنْ يكونَ في سماعِهِ غيرَ مُستروِحٍ إليهِ ؛ بحيثُ يُهيِّجُ منهُ السَّماعُ وَجْداً أو شَوْقاً أو غَلَبَةً أو حَرَكَةً ، والواردُ إذا وَرَدَ عليهِ يُفنِيهِ عن كلِّ حركةٍ وسكونٍ)[4]

---

(١) في (ح) : (على الصدق في السماع وسائر الأحوال) ، وكذلك في (ي) ، إلا أنه زاد بعد كلمة (السماع) : (الصِّرف) ، وأشار إلىٰ هٰذه النسخة في هامش (د) .

(٢) مع الله بقطع النظر عن الخلق . **من هامش** (ح) .

(٣) وغَضِّ البصر وإطراق الرأس . **من هامش** (ح) .

(٤) رواه السلمي في « الطبقات » (ص٣٧٥) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٣٣٣) ، وزادا بعده : وأنشد علىٰ أثره : (من مخلع البسيط)=

ويتَّقي الصادقُ استدعاءَ الوجدِ ، ويجتنبُ الحَرَكةَ فيهِ مهما أَمْكَن ، لا سِيَّما بحَضْرةِ الشُّيُوخِ

حُكِيَ : أنَّ شاباً كانَ يصحبُ الجُنيدَ رحمَهُ اللهُ ، وكلَّما سَمِعَ شيئاً زَعَقَ وتغيَّرَ ، فقالَ لهُ يوماً : إنْ ظَهَرَ منكَ شيءٌ بعدَ هٰذا . . فلا تصحبْني ، فكانَ بعدَ ذلكَ يَضبِطُ نفسَهُ ، وربَّما كانَ مِنْ كلِّ شعرةٍ منهُ تَقطُرُ قطرةُ عَرَقٍ ، فلمَّا كانَ يوماً مِنَ الأيَّامِ . . زَعَقَ زَعْقةً وخَرَجَ روحُهُ[1]

فليسَ مِنَ الصِّدْقِ إظهارُ الوَجْدِ مِنْ غيرِ وَجْدٍ نازلٍ ، أوِ ادِّعاءُ الحالِ مِنْ غيرِ حالٍ حاصلٍ ، وذلكَ عينُ النِّفاقِ .

قيلَ : كانَ النَّصْرَاباذيُّ رحمَهُ اللهُ كثيرَ الوَلَعِ بالسَّماعِ ، فعُوتِبَ في ذلكَ ، فقالَ : نعم ، هوَ خيرٌ مِنْ أنْ نقعدَ ونغتابَ الناسَ ، فقالَ لهُ أبو عمرِو بنُ نُجيدٍ وغيرُهُ مِنْ إخوانِهِ هيهاتَ يا أبا القاسمِ !! زَلَّةٌ في السَّماعِ شَرٌّ مِنْ كذا وكذا سنةً نغتابُ الناسَ[2]

وذلكَ أنَّ زَلَّةَ السَّماعِ إشارةٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، وترويجٌ للحالِ بصريحِ المُحالِ[3] ، وفي ذلكَ ذنوبٌ مُتعدِّدةٌ .

= فالوجدُ والشوقُ في مكانِي قد مَنَعانِي مِنَ القَرَارِ
همـا مَعِـي لا يُفـارِقـانـي فـذا شِعَـاري وذا دِثَـاري

(١) رواه أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٥٨) ، ومن طريقه القشيري في « الرسالة » (ص٦٩٠) .

(٢) أورده بنحوه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٣٣٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٩٦) .

(٣) في النسخ ما عدا (د ، و) : (وترويح) بدل (وترويج) .

منها : أنَّهُ يكذبُ على اللهِ أنَّهُ وَهَبَ لهُ شيئاً وما وَهَبَ لهُ ، والكذبُ على اللهِ مِنْ أقبحِ الزَّلَّاتِ .

ومنها : أنْ يَغُرَّ بعضَ الحاضرينَ ، فيُحسِنَ بهِ الظَّنَّ ، والغُرُورُ خيانةٌ[1] ؛ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا »[2]

ومنها : أنَّهُ إذا كانَ مُبطِلاً ويُرىٰ بعينِ الصَّلاحِ . . سوفَ يظهرُ منهُ بعدَ ذلكَ ما يُفسِدُ عقيدةَ المُعتقِدِ فيهِ ، فتفسُدُ عقيدتُهُ في غيرِهِ ممَّنْ يَظُنُّ بهِ الخيرَ مِنْ أمثالِهِ[3] ، فيكونُ مُتسبِّباً إلىٰ فسادِ العقيدةِ في أهلِ الصلاحِ ، ويدخلُ بذلكَ ضررٌ على الرجلِ الحَسَنِ الظَّنِّ مِنْ فسادِ عقيدتِهِ ، فينقطعُ عنهُ مَدَدُ الصالحينَ ، ويتشعَّبُ مِنْ هـٰذا آفاتٌ كثيرةٌ يقفُ عليها مَنْ يبحثُ عنها .

ومنها : أنَّهُ يُحوِجُ الحاضرينَ إلىٰ مُوافقتِهِ في قيامِهِ وقُعُودِهِ ، فيكونُ مُتكلِّفاً مُكلِّفاً للناسِ بباطلِهِ ، وقد يكونُ في الجمعِ مَنْ يَرَىٰ بنورِ الفِراسةِ أنَّهُ مُبطِلٌ ، ويحملُ علىٰ نَفْسِهِ المُوافقةَ للجَمْعِ مُدارِياً

ويكثُرُ شرحُ الذنوبِ في ذلكَ ، فليتَّقِ اللهَ ربَّهُ ، ولا يتحرَّكْ ، إلا إذا صارتْ حركتُهُ كحركةِ المُرتعِشِ الذي لا يجدُ سبيلاً إلى الإمساكِ ، وكالعاطسِ الذي لا يَقدِرُ أنْ يَرُدَّ العَطْسةَ ، وتكونُ حركتُهُ بمَثابةِ النَّفَسِ الذي يَتنفَّسُ يدعوهُ إلى التنفُّسِ داعيةُ الطَّبْعِ قَهْراً

---

(١) في (أ ، ب ، ج ، د ، ز) : (والإغرار) بدل (والغرور) ، والقياس ما أثبته من باقي النسخ .

(٢) رواه مسلم (١٠١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) أي : فتفسد عقيدة المعتقد فيه في غير المُبطِلِ ممَّن يُرىٰ بعين الصلاح من أمثاله وأشباهه ، ويجوز أن يُقرأ : (ممن يُظَنُّ به الخيرُ) ، وقد ضبط بالوجهين في (و)

قالَ السَّريُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : (شَرْطُ الواجدِ في زَعْقتِهِ أنْ يبلغَ إلىٰ حَدٍّ لو ضُرِبَ وجهُهُ بالسيفِ لا يشعرُ فيهِ بوَجَعٍ)[1]

وقد يقعُ هـٰذا في حَقِّ بعضِ الواجدينَ نادراً ، وقد لا يبلغُ الواجدُ هـٰذهِ الرُّتْبَةَ مِنَ الغَيبةِ ، ولـٰكن زَعْقَتُهُ تخرجُ كالتنفُّسِ بنوعِ إرادةٍ ممزوجةٍ بالاضطرارِ

وهـٰذا الضبطُ مِنْ رعايةِ الحَرَكاتِ وردِّ الزَّعَقاتِ . . في تمزيقِ الثيابِ آكَدُ[2] ؛ فإنَّ ذلكَ يكونُ إتلافَ المالِ ، وإنفاقَ المِحالِ .

وهكذا رَمْيُ الخِرْقةِ إلى الحادي ؛ لا ينبغي أنْ يفعلَ إلا إذا حَضَرَتْهُ نيّةٌ يجتنبُ فيها التكلُّفَ والمُراءاةَ ، وإذا حَسُنتِ النيّةُ فلا بأسَ بإلقاءِ الخِرْقةِ إلى الحادي ؛ فقد رُوِيَ أنَّ كعبَ بنَ زُهيرٍ رضيَ اللهُ عنهُ دَخَلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المسجدَ ، وأنشدَ أبياتَهُ التي أوَّلُها [من البسيط]

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي ٱلْيَوْمَ مَتْبُولُ

حتى انتهىٰ إلىٰ قولِهِ فيها :

إِنَّ ٱلرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللهِ مَسْلُولُ[3]

---

(١) أورده بنحوه أبو نصر السرّاج في « اللمع » (ص٣٨١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٢٤٣) ، والغزالي في « الإحياء » (٥٢٨/٤) .

(٢) يعني : يجبُ على المريد رعايةُ الحركات وردُّ الزَّعَقات ، وضبطُهُما ما أمكن ، وهـٰذا الضبط والرعاية يصير مُؤكَّداً في حقِّ مَنْ ظَهَرَ له تمزيقُ الثياب . من هامش (ج) .

(٣) في نسخة علىٰ هامش (د) : (لَنُور) بدل (لَسيف) ، ويكون قوله : (مهند) خبراً ثانياً ، وعلى المثبت يجوز أن يكون صفة أو خبراً ثانياً .

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم « مَنْ أنْتَ ؟ » ، فقالَ : أشهدُ أن لا إلـٰهَ إلا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، أنا كعبُ بنُ زُهيرٍ ، فرمىٰ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بُردةً كانتْ عليهِ

فلمَّا كانَ زمنُ مُعاويةَ بَعَثَ إلىٰ كعبِ بنِ زُهيرٍ بِعْنا بُردةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعَشَرَةِ آلافٍ ، فوجَّهَ إليهِ : ما كنتُ لِأُوثِرَ بثوبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحداً ، فلمَّا ماتَ كعبٌ بَعَثَ معاويةُ إلىٰ أولادِهِ بعشرينَ ألفاً وأخَذَ البُردةَ(١) ، وهيَ البُردةُ الباقيةُ عندَ الإمامِ الناصرِ لدينِ اللهِ اليومَ(٢) ، أعادَ اللهُ بركتَها علىٰ أيَّامِهِ الزاهرةِ(٣)

وللمُتصوِّفةِ آدابٌ يتعاهدُونَها ، ورعايتُها حُسْنُ الأدبِ في الصُّحْبةِ والمُعاشَرةِ ، وكثيرٌ مِنَ السَّلَفِ لم يكونوا يعتمدُونَ ذلكَ ، ولـٰكنْ كلُّ شيءٍ استحسنُوهُ وتواطؤُوا عليهِ ولا يُنكِرُهُ الشرعُ . لا وجهَ للإنكارِ فيهِ .

فمِنْ ذلكَ : أنَّ أحدَهُم إذا تحرَّكَ في السَّماعِ ووقعَتْ منهُ خِرْقةٌ ، أو نازلَهُ

---

(١) رواه السِّلَفي في « الطيوريات » كما في « تاريخ الخلفاء » للسيوطي (ص٨٥) عن أبي عمرو بن العلاء رحمه الله تعالىٰ ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٧٠٦) عن عبد الرحمـٰن بن كعب رحمه الله تعالىٰ ، وليس فيه ذكر البردة وما بعدها ، وابن قانع في « معجم الصحابة » (٢/ ٣٨١) عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالىٰ .

(٢) هو الخليفة العباسي أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله (ت ٦٢٢هـ) ، وانظر « الكامل في التاريخ » (١٠/ ٣٩٨) .

(٣) وقال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » (ص٨٦) : (وقد كانت هـٰذه البردةُ عند الخلفاء يتوارثونها ويطرحونها علىٰ أكتافهم في المواكب جلوساً وركوباً ، وكانت على المُقتدِر حين قُتل وتلوَّثت بالدم ، وأظنُّ أنَّها فُقدت في فتنة التتار ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون)

وَجْدٌ ورمىٰ عِمامتَهُ إلى الحادي. . فالمُستحسَنُ عندَهُم مُوافقةُ الحاضرينَ لهُ في كَشْفِ الرأسِ إذا كانَ ذلكَ مِنْ مُتقدِّمٍ وشيخٍ ، وإنْ كانَ ذلكَ مِنَ الشُّبَّانِ في حَضْرةِ الشُّيُوخِ . . فليسَ على الشُّيُوخِ مُوافقةُ الشُّبَّانِ في ذلكَ ، وينسحبُ حكمُ الشُّيُوخِ علىٰ بقيَّةِ الحاضرينَ في تَرْكِ المُوافقةِ للشُّبَّانِ ، فإذا سكنُوا عنِ السَّماعِ يُرَدُّ إلى الواجدِ خِرْقتُهُ[1] ، ويُوافِقُهُ الحاضرُونَ برَفْعِ العمائمِ ، ثمَّ رَدِّها على الرؤوسِ في الحالِ للمُوافقةِ

والخِرْقةُ إذا رُمِيَتْ إلى الحادي هيَ للحادي إذا قَصَدَ إعطاءَهُ إيَّاها[2]

وإنْ لم يَقصِدْ إعطاءَ الحادي . . فقالَ بعضُهُم : هيَ للحادي ؛ لأنَّ المُحرِّكَ هوَ ، ومنهُ صَدَرَ المُوجِبُ لرَمْيِ الخِرْقةِ

وقالَ بعضُهُم : هيَ للجَمْعِ ، والحادي واحدٌ منهُم ؛ لأنَّ المُحرِّكَ قولُ الحادي معَ بَرَكَةِ الجَمْعِ ؛ فإنَّ بركةَ الجَمْعِ في إحداثِ الوَجْدِ لا تتقاصرُ عن قولِ القائلِ ، فيكونُ الحادي واحداً منهُم في ذلكَ .

رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ يومَ بدرٍ : « مَنْ وَقَفَ بِمَكَانِ كَذَا فَلَهُ كَذَا ، وَمَنْ قَتَلَ فَلَهُ كَذَا ، وَمَنْ أَسَرَ فَلَهُ كَذَا » ، فتسارعَ الشُّبَّانُ ، وأقامَ الشُّيُوخُ والوجوهُ عندَ الرَّاياتِ ، فلمَّا فَتَحَ اللهُ على المسلمينَ طَلَبَ الشُّبَّانُ أنْ يجعلَ ذلكَ لهُم ، فقالَ الشُّيُوخُ : كُنَّا ظَهْراً لكُم ورِدْءاً ، فلا

---

(١) في النسخ ما عدا (أ ، ج ، ز ، ي) : (سكتوا) بدل (سكنوا) ، وفيها أيضاً ما عدا (ج ، ح ، ي) : (يُرَدُّ الواجدُ إلىٰ خرقته) ، والمراد أنَّهُ ترد خرقة الواجد بغير اختياره ، وكذا خرقة من وافق الواجد . من هامش (ج) .

(٢) في النسخ ما عدا (أ ، ب ، هـ ، ز) : (إعطاءَها إيَّاه) ، والمثبت أنسب مع السياق

تذهبوا بالغنائمِ دُونَنا ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال : ١] ، فقَسَمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَهُم بالسَّويَّةِ[١]

وقيلَ : إذا كانَ القَوَّالُ مِنَ القومِ يُجعَلُ كواحدٍ منهُم ، وإذا لم يكنْ مِنَ القومِ فما كانَ لهُ قيمةٌ يُؤثَرُ بهِ ، وما كانَ مِنْ خِرَقِ الفقراءِ يُقسَمُ بينَهُم .

وقيلَ إنْ كانَ القَوَّالُ أجيراً فليسَ لهُ منها شيءٌ ، وإنْ كانَ مُتبرِّعاً يُؤثَرُ بذلكَ .

وكلُّ هٰذا إذا لم يكنْ هناكَ شيخٌ يحكمُ ، فأمَّا إذا كانَ هناكَ شيخٌ يُهابُ ويُمتثَلُ أمرُهُ . فالشيخُ يحكمُ في ذلكَ بما يرىٰ ؛ فقد تختلفُ الأحوالُ في ذلكَ ، وللشيخِ اجتهادٌ يفعلُ ما يرىٰ ، فلا اعتراضَ لأحدٍ عليهِ

وإنْ فداها بعضُ المُحبِّينَ أو بعضُ الحاضرينَ ، ورَضِيَ القَوَّالُ والقومُ بما رَضُوا بهِ ، وعادَ كلُّ واحدٍ إلىٰ خِرْقتِهِ . فلا بأسَ بذلكَ ، وإذا أصرَّ واحدٌ على الإيثارِ لِمَا خَرَجَ منهُ لنيَّةٍ لهُ في ذلكَ . يُؤثَرُ بخِرْقتِهِ الحاديَ .

وأمَّا تمزيقُ الخِرْقةِ المجروحةِ[٢] التي مَزَّقَها واجدٌ صادقٌ عن غَلَبَةٍ سلبتِ اختيارَهُ ، كغَلَبَةِ النَّفَسِ فيمَنْ يتعمَّدُ إمساكَهُ . فنيَّتُهُم في تفريقِها وتمزيقِها التبرُّكُ بالخِرْقةِ ؛ لأنَّ الوَجْدَ أَثَرٌ مِنْ آثارِ فَضْلِ الحقِّ ، وتمزيقَ الخِرْقةِ أَثَرٌ مِنْ آثارِ الوجدِ ، فصارتِ الخِرْقةُ مُتأثِّرةً بأَثَرٍ ربَّانيٍّ مِنْ حقِّها أنْ تُفدىٰ بالنُّفوسِ ،

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٣٧) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١١٣٣) ، وابن حبان (٥٠٩٣) ، والحاكم (٢/ ٣٢٧) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أي : المخروقة . من هامش (ج) .

وتُترَكَ على الرؤوسِ إكْراماً وإعْزازاً[1] ؛ قالَ الشاعرُ[2] : [من البسيط]

تَضُوعُ أَرْوَاحُ نَجْدٍ مِنْ ثِيَابِهِمُ ... يَوْمَ ٱلْقُدُومِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِٱلدَّارِ

وكـانَ رسـولُ اللهِ صلَّـى اللهُ عليـهِ وسلَّـمَ يستقبـلُ الغيـثَ ويتبـرَّكُ بـهِ ، ويقولُ : « حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ »[3]

فالخِرْقةُ المُمزَّقةُ حديثةُ العَهْدِ ، فحُكْمُ المجروحةِ : أنْ تُفرَّقَ على الحاضرينَ ، وحُكْمُ ما يَتْبَعُها مِنَ الخِرَقِ الصِّحاحِ أنْ يحكمَ فيها الشيخُ ؛ إنْ خَصَّصَ بشيءٍ منها بعضَ الفقراءِ فلهُ ذلكَ ، وإنْ خرَّقَها خِرَقاً فلهُ ذلكَ ، ولا يُقالُ إنَّ هـٰذا تفريطٌ وإسرافٌ ؛ فإنَّ الخِرْقةَ الصغيرةَ يُنتفَعُ بها في موضعِها عندَ الحاجاتِ كالكبيرةِ

ورُوِيَ عن أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ

---

(١) في نسخة على هامش (د) : (وتنزل) بدل (وتترك) ، وقال الغزالي في « الإحياء » (٤/٥٢٨) : (وأمَّا تمزيقُ الثوب فلا رُخصةَ فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعُدُ أن يغلب الوجد بحيثُ يُمزِّقُ ثوبه وهو لا يدري ؛ لغلبة سكر الوجد عليه ، أو يدري ولـٰكن يكون كالمُضطرِّ الذي لا يقدر على ضبط نَفْسه ، وتكونُ صورتُهُ صورةَ المكْرَه ؛ إذ يكون له في الحركة والتمزيق مُتنفَّسٌ ، فيضطرُّ إليه اضطرارَ المريض إلى الأنين ، ولو كُلِّفَ الصبرَ عنه لم يقدر عليه ، مع أنَّهُ فعلٌ اختياريٌّ ، فليس كلُّ فعلٍ حصولُهُ بالإرادة يقدرُ الإنسانُ على تركه ، فالتنفُّسُ فعلٌ يحصل بالإرادة ، ولو كَلَّفَ الإنسان نَفْسه أن يمسك النَّفَس ساعة . . لاضطرَّ من باطنه إلى أن يختار التنفُّسَ ، فكذلك الزَّعْقةُ وتمزيقُ الثياب قد يكونُ كذلك ، فهـٰذا لا يُوصَفُ بالتحريم) .

(٢) البيت للشريف الرضي في « ديوانه » (١/٥٤١) ، ويُقال : ضاعَ المسكُ يَضُوع ضَوْعاً : إذا تحرَّك فانتشرت رائحته ونفحت ، وفي (أ ، ز) ونسخة على هامش (د) : (تفوح) ، وفي نسخة على هامشها أيضاً : (عند) بدل (يوم)

(٣) رواه مسلم (٨٩٨) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

أُهدِيَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حُلَّةُ حريرٍ ، فأَرْسَلَ بها إليَّ ، فخرجتُ فيها ، فقالَ لي : « مَا كُنْتُ لِأَكْرَهَ لِنَفْسِي شَيْئاً أَرْضَاهُ لَكَ ، فَشَقِّقْهَا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ خُمُراً »[١]

وفي روايةٍ أتيتُهُ فقلتُ : ما أصنعُ بها ؟ أَلْبَسُها ؟ قالَ : « لَا ، وَلَـٰكِنِ ٱجْعَلْهَا خُمُراً بَيْنَ ٱلْفَوَاطِمِ » ، أرادَ : فاطمةَ بنتَ أسدٍ[٢] ، وفاطمةَ بنتَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وفاطمةَ بنتَ حمزةَ ، وفي هـٰذهِ الرِّوايةِ : أنَّ الهديَّةَ كانتْ حُلَّةً مكفوفةً بحريرٍ[٣]

وهـٰذا وجهٌ في السُّنَّةِ لتمزيقِ الثوبِ وجَعْلِهِ خِرَقاً

وحُكِيَ : أنَّ الفقهاءَ والصُّوفيَّةَ بنيسابورَ اجتمعُوا في دعوةٍ ، فوقعَتِ الخِرْقةُ ، وكانَ شيخَ الفقهاءِ الشيخُ أبو محمَّدٍ الجُوَينيُّ[٤] ، وشيخَ الصُّوفيَّةِ أبو القاسمِ القُشَيريُّ ، فقُسِمَتِ الخِرْقةُ علىٰ عادتِهِم .

فالتفتَ الشيخُ أبو محمَّدٍ إلىٰ بعضِ الفقهاءِ وقالَ سِرّاً : هـٰذا سَرَفٌ وإضاعةُ المالِ !! فسَمِعَ أبو القاسمِ القُشَيريُّ ، ولم يَقُلْ شيئاً حتىٰ فَرَغَتِ القِسْمةُ ، ثمَّ استدعى الخادمَ وقالَ : انظُرْ في الجَمْعِ ؛ مَنْ معَهُ سَجَّادةُ خِرَقٍ

---

(١) رواه مسلم (٢٠٧١) .

(٢) وهي أم سيدنا علي رضي الله عنهما

(٣) رواها ابن ماجه (٣٥٩٦) ، وقال الإمام النووي في « شرح مسلم » (١٤/ ٥١) : (وذكر الحافظان عبد الغني بن سعيد وابن عبد البر بإسنادهما أنَّ علياً رضي الله عنه قسمه بين الفواطم الأربع ، فذكر هـٰؤلاء الثلاث ، قال القاضي عياض : يُشبِهُ أن تكون الرابعة فاطمة بنت شيبة بن ربيعة امرأة عقيل بن أبي طالب ؛ لاختصاصها بعليٍّ رضي الله عنه بالمصاهرة وقُربِها إليه بالمناسبة . . .) .

(٤) وهو والد إمام الحرمين أبي المعالي الجويني رحمهما الله تعالىٰ .

ائتني بها ، فجاءَهُ بسَجَّادةٍ ، ثمَّ أَحْضرَ رجلاً مِنْ أهلِ الخِبْرةِ ، فقالَ : هـٰذهِ السَّجَّادةُ بكم تُشترىٰ في المَزادِ ؟ قالَ : بدينارٍ ، قالَ : ولو كانتْ قطعةً واحدةً كم تُساوي ؟ قالَ نصفَ دينارٍ ، ثمَّ التفتَ إلى الشيخِ أبي محمَّدٍ الجُوَينيِّ رحمَهُ اللهُ وقالَ : هـٰذا لا يُسمَّىٰ إضاعةَ المالِ[١]

والخِرْقةُ المُمزَّقةُ تُقسَمُ علىٰ جميعِ الحاضرينَ ؛ مَنْ كانَ مِنَ الجِنْسِ ، أو غيرِ الجِنْسِ إذا كانَ حَسَنَ الظَّنِّ بالقومِ مُعتقِداً للتبرُّكِ بالخِرْقةِ

روىٰ طارقُ بنُ شهابٍ أنَّ أهلَ البَصْرةِ غَزَوْا نهاوندَ ، وأَمَدَّهُم أهلُ الكُوفةِ ، وعلىٰ أهلِ الكُوفةِ عمَّارُ بنُ ياسرٍ ، فَظَهَرُوا ، فأرادَ أهلُ البَصْرةِ ألَّا يَقسِمُوا لأهلِ الكُوفةِ مِنَ الغنيمةِ شيئاً ، فقالَ رجلٌ مِنْ بني تميمٍ لعمَّارٍ : أيُّها الأَجْدعُ ؛ تُرِيدُ أنْ تُشارِكَنا في غنائمِنا ؟ فكَتَبَ إلىٰ عمرَ بذلكَ ، فكَتَبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ الغَنيمةَ لمَنْ شَهِدَ الوَقْعةَ[٢]

---

(١) قال الغزالي في « الإحياء » (٤/٥٢٩) : (فإن قلت : فما تقولُ في تمزيق الصُّوفيَّةِ الثيابَ الجديدةَ بعد سكون الوجد والفراغ من السماع ؛ فإنَّهُم يُمزِّقونها قِطَعاً صغاراً ويُفرِّقونها على القوم ، ويُسمُّونها الخرقة ؟

فاعلَمْ : أنَّ ذلك مباحٌ إذا مُزِّق قطعاً مُربَّعةً تصلح لترقيع الثياب والسَّجَّادات ؛ فإنَّ الكِرْباس ـ وهو ثوب من القطن الأبيض ـ يُمزَّقُ حتىٰ يُخاطَ منه القميصُ ، ولا يكون ذلك تضييعاً ؛ لأنَّهُ تمزيقٌ لغرض ، وكذلك ترقيعُ الثياب لا يمكنُ إلا بالقِطَع الصِّغار ، وذلك مقصود ، والتفرقةُ على الجميع ليعُمَّ ذلك الخيرُ مقصودٌ ، فهو مباح ، ولكلِّ مالكٍ أن يقطع كِرْباسَهُ مئةَ قطعةٍ ويُعطيَها لمئة مسكين ، ولـٰكن ينبغي أن تكون القِطَعُ بحيثُ يمكن أن يُنتفعَ بها في الرِّقاع ، وإنَّما مَنَعْنا في السماع التمزيقَ المُفسِدَ للثوب الذي يُهلِكُ بعضَهُ ؛ بحيثُ لا يبقىٰ مُنتفَعاً به ، فهو تضييعٌ محضٌ لا يجوز بالاختيار) .

(٢) رواه سعيد بن منصور في « سننه » (٢٧٩١) ، وابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٣/ ٢٥٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٥٠) ، ووَصَفَه بالأجدع ؛ لأنَّ =

وذَهَبَ بعضُهُم : إلىٰ أنَّ المجروحَ مِنَ الخِرَقِ يُقسَمُ على الجمعِ ، وما كانَ مِنْ ذلكَ صحيحاً يُعطىٰ للقوَّالِ ، واستدلَّ بما رُوِيَ عن أبي قَتادةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ لمَّا وَضَعَتِ الحربُ أَوْزارَها يومَ حُنينٍ[1] ، وفَرَغْنا مِنَ القومِ . قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ »[2]

وهٰذا لهُ وجهٌ في الخِرْقةِ الصحيحةِ ، فأمَّا المجروحةُ : فحُكْمُها إسهامُ الحاضرينَ والقسمةُ لهُم .

ولو دَخَلَ على الجمعِ وقتَ القِسْمةِ مَنْ لم يكنْ حاضراً . قُسِمَ لهُ ؛ روىٰ أبو موسى الأشعريُّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ قَدِمْنا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ خيبرَ بثلاثٍ ، فأَسْهَمَ لنا ، ولم يُسهِمْ لأحدٍ لم يَشْهَدِ الفتحَ غيرِنا[3]

ويُكرَهُ للقومِ حضورُ غيرِ الجِنْسِ عندَهُم في السَّماعِ ؛ كمُتزهِّدٍ لا ذَوْقَ لهُ

= إحدىٰ أذنيه قد جُدِعت ـ أي : قُطِعت ـ في بعض غزواته مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وفي رواية ابن منصور أنَّ سيدنا عماراً قال له : (خيرَ أُذُنَيَّ سببتَ)

(١) الأوزار : السلاح ، والوِزْرُ : ما يحملُهُ الإنسان ، فسُمِّي السلاح أوزاراً لذلك ، ولأنَّها تثقُلُ علىٰ لابسها « غريبين » . من هامش (ح) .

(٢) رواه البخاري (٣١٤٢) ، ومسلم (١٧٥١) ، والسَّلَب : هو الشيء المسلوب ، سُمِّي بذلك ؛ لأنَّهُ يُسلَب عن المقتول ، والمرادُ به : ثياب القتيل والخفُّ ، وآلات الحرب ، والسرج واللجام ، والسوار والمنطقة والخاتم والقصعة ، ونحوُ ذلك .

(٣) رواه بنحوه البخاري (٣١٣٦) ، ومسلم (٢٥٠٢) ، وبلفظه أبو عوانة في « المستخرج » (٦٨٧٨) .

مِنْ ذلكَ ، فيُنكِرُ ما لا يُنكَرُ ، أو صاحبِ دُنيا يُحوِجُ إلى المُداراةِ والتكلُّفِ ، أو مُتكلِّفٍ للوَجْدِ يُشوِّشُ الوقتَ على الحاضرينَ بتواجدِهِ

(٦٤) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ طاهرٌ ، عن والدِهِ أبي الفضلِ الحافظِ المَقْدِسيِّ ، قالَ : أخبرَنا أبو منصورٍ محمَّدُ بنُ عبدِ الملكِ المُظَفَّريُّ بسَرَخْسَ ، قالَ أخبرَنا أبو الفضلِ منصورُ بنُ نَصْرٍ الكاغَذيُّ السَّمَرْقَنْديُّ إجازةً(١) ، قالَ : حدَّثَنا الهيثمُ بنُ كُليبٍ ، قالَ : حدَّثَنا أبو بكرٍ عمَّارُ بنُ إسحاقَ ، قالَ حدَّثَنا سعيدُ بنُ عامرٍ ، عن شُعْبَةَ ، عن عبدِ العزيزِ بنِ صُهيبٍ ، عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : كُنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ نَزَلَ عليهِ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ فقراءَ أُمَّتِكَ يدخلُونَ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بنِصْفِ يَوْمٍ ، وهوَ خمسُ مئةِ عامٍ ، ففَرِحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقالَ : « أَفيكُمْ مَنْ يُنْشِدُنَا ؟ » ، فقالَ بَدَويٌّ : نعم يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « هَاتِ » ، فأنشدَ البَدَويُّ [من المنسرح]

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ ٱلْهَوَىٰ كَبِدِي ... فَلَا طَبِيبَ لَهَا وَلَا رَاقِي
إِلَّا ٱلْحَبِيبُ ٱلَّذِي شُغِفْتُ بِهِ ... فَعِنْدَهُ رُقْيَتِي وَتِرْيَاقِي

فتواجدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وتواجدَ الأصحابُ معَهُ ؛ حتىٰ

(١) في النسخ : (أبو علي الفضل بن منصور) بدل (أبو الفضل منصور) ، والمثبت من المصادر والمراجع ، وأبو الفضل : هو الإمام مسند سَمَرْقَنْدَ منصور بن نصر بن عبد الرحيم بن مَتٍّ السمرقندي الكاغَذي (ت ٤٢٣هـ) ، وفي النسخ ما عدا (و ، ز ، ح) : (الكاغَدي) بدل (الكاغَذي) ، وكلاهما جائز ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٣٦٨) ، و« تاج العروس » (٩/ ٤٦٢) .

سَقَطَ رداؤُهُ عن مَنكِبَيْهِ ، فلمَّا فرغُوا أَوَىٰ كلُّ واحدٍ منهُم إلىٰ مكانِهِ .

قالَ مُعاويةُ بنُ أبي سفيانَ : ما أحسنَ لَعِبَكُم يا رسولَ اللهِ !! فقالَ « مَهْ يَا مُعَاوِيَةُ ؛ لَيْسَ بِكَرِيمٍ مَنْ لَمْ يَهْتَزَّ عِنْدَ سَمَاعِ ذِكْرِ ٱلْحَبِيبِ » ، ثمَّ قُسِمَ رداءُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ مَنْ حَضَرَهُم بأربعِ مئةِ قطعةٍ[1]

فهٰذا الحديثُ أَوْرَدْناهُ مُسنَداً كما سَمِعْناهُ ووَجَدْناهُ ، وقد تكلَّمَ في صحَّتِهِ أصحابُ الحديثِ[2] ، وما وَجَدْنا شيئاً نُقِلَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُشاكِلُ وَجْدَ أهلِ الزمانِ وسماعَهُم واجتماعَهُم وهيئَتَهُم . . إلا هٰذا ، وما أحسنَهُ مِنْ حُجَّةٍ للصُّوفيَّةِ وأهلِ الزمانِ في سماعِهِم وتمزيقِهِمُ الخِرَقَ وقِسْمتِها أنْ لو صحَّ !! واللهُ أعلمُ .

ويُخالِجُ سِرِّي أنَّهُ غيرُ صحيحٍ ، ولم أَجِدْ فيهِ ذوقَ اجتماعِ النبيِّ صلَّى اللهُ

---

(١) صفوة التصوف (٤١٣) ، وسينصُّ المؤلف علىٰ عدم صحته ، وفي النسخ ما عدا (ح) : (من حاضرهم) بدل (من حضرهم) ، وفي « صفوة التصوف » (بين حاضرهم) ، وأمَّا دخولُ الفقراء قبل الأغنياء بخمس مئة عام . . فهو مشهورٌ صحيحٌ ، كما رواه الترمذي (٢٣٥٣) ، وأحمد (٢/ ٤٥١) ، وابن حبان (٦٧٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) والعِلَّةُ فيه : أنَّ في سنده عمارَ بن إسحاق ، وقد اتَّهمه الذهبي وغيره بوضع الحديث ، وأمَّا باقي رجاله فهم ثقاتٌ ، ودخول الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام . . صحيح رواه الترمذي (٢٣٥٣) ، وابن ماجه (٤١٢٢) ، وأحمد (٢/ ٤٥١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر « لسان الميزان » (٥٥٣٣) ، و« كشف الخفاء » (٢/ ١٤١) ، و« تنزيه الشريعة المرفوعة » (٢/ ٢٣٣)

عليهِ وسلَّمَ معَ أصحابِهِ وما كانُوا يعتمدونَهُ على ما بَلَغَنا في هـٰذا الحديثِ ، ويأبى القلبُ قَبولَهُ[1] ، واللهُ أعلمُ وأحكمُ بذلكَ[2]

❁ ❁ ❁

(١) زاد في (ج ، و ، ح) : (قال ابن عيَّاش : هـٰذا حديثٌ باطل لا يُحتجُّ به ، وهو من الأحاديث التي تُذكر ليُعلَمَ أنَّها موضوعة ولا يُعتبَرُ بها ، وفي إسناده جماعة مجهولون لا يُوثق بهم) ، وهو على هامش (أ ، ب ، هـ) دون إشارة تصحيح ، وكُتب على هامش (و) : (هـٰذا الكلام من قوله : « قال ابن عياش . . . » إلى آخر الباب . . ليس في نسخة قُرئت على الشيخ المصنف رضي الله عنه) .

(٢) في (ج) : (حفظ الله عباده المؤمنين عمَّا فيه غضبه) بدل (والله أعلم . . .) ، وفي (و) : (والله المستعان ، وعليه التكلان) ، وفي هامش (ب) : (بلغ مقابلةً) ، وفيه (بلغ سماعاً للجماعة على الشيخ أمين الدين عبد الملك ، بقراءة كاتبه عبد السلام) ، وفيه : (بلغ بقراءة كاتبه عبد السلام المقدسي على الشيخ الحافظ جلال الدين الشيرازي) .

الباب السادس والعشرون

في خاصية الأربعينية التي يتعاهدها الصوفية [1]

ليسَ مطلوبُ القومِ مِنَ الأربعينَ شيئاً مخصوصاً لا يطلبونَهُ في غيرِها[2] ، ولكن لمَّا طَرَقَتْهُم مخالفاتُ حكمِ الأوقاتِ . أَحَبُّوا تقييدَ الوقتِ

---

(١) والأربعينيّة : هي المشهورة في زماننا بـ (الخَلْوة) ، وسئل المؤلف رضي الله عنه : لِمَ لم يتقدَّم أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بهذا الفعل من اتِّخاذ الخلوة المخصوصة وإيثارها على كثير من أعمال البر .

فأجاب : بأنَّ أصحابَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم استغنَوا بملازمة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن الخلوة ، وكان ملازمتُهُم لحضرته والجهاد بين يديه أَوْلىٰ من كلِّ خلوة ، والخلوةُ مُعِينةٌ علىٰ دفع آفات النفس ومعرفة الزيادة من النقص ، وقد يتربَّى المريد بنَفَس الشيخ وصحبتِهِ من غير أن يدخل الخلوة أو ينحبس في بيتٍ مظلم ، بل يَسْري إليه من باطن الشيخ ما يستغني به عن الخلوة ، لكنَّ الخلوةَ تصلُحُ لبعض المريدين ، غيرَ أنِّي لا أحبُّ المريد أن يترك الصلاة في جماعة ، بل يحضر الفرض ويرجعُ إلىٰ خلوته ؛ حتىٰ لا تكونَ خلوتُهُ رهبانيّةً ، وأمَّا مَنْ ترك الجماعة وزعم أنَّهُ في الخلوة وأنَّهُ إن خرج يتشوَّش عليه خاطرُهُ وتتفرَّق جمعيَّتُهُ . فهذا ضالٌّ مُخطئ ، نعوذ بالله منه ، ومَنْ يُحسِّن له ذلك فهو عينُ الضلال وأتباع المحال ، بل ببركة المتابعة وابتغاءِ فضل الجماعة . . يعود عليه من النور والفتح أجلُّ ممَّا فاته في خلوته . من « أجوبة السهروردي » (ق/ ٢٣) ، وسيأتي في كلام المؤلف بعض ذلك

(٢) أي : في غير الأربعينيَّة ، بل مقصودُهُم الرجوعُ إلى الطهارة الأصليَّة ، والوصولُ إلى الحضرة الإلهيَّة ، وذلك يوجد بدوام العبوديَّة في جميع الأزمنة . من هامش (ج)

بالأربعينَ[1] ؛ رجاءَ أنْ ينسحبَ حكمُ الأربعينَ علىٰ جميعِ زمانِهِم ، فيكونُوا في جميعِ أوقاتِهِم كهيئتِهِم في الأربعينَ ؛ علىٰ أنَّ الأربعينَ خُصَّتْ بالذِّكْرِ في قولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَخْلَصَ لِلهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً . . ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ ٱلْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ »[2]

وقد خَصَّ اللهُ تعالى الأربعينَ بالذِّكْرِ في قِصَّةِ موسىٰ عليهِ السلامُ ، وأَمَرَهُ بتخصيصِ الأربعينَ بمَزِيدِ تبَتُّلٍ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

وذلكَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ وَعَدَ بني إسرائيلَ وهم بمصرَ أنَّ اللهَ تعالىٰ إذا أَهْلَكَ عدوَّهُم واستنقذَهُم مِنْ أيديهِم يأتيهِم بكتابٍ مِنْ عندِ اللهِ ، فيهِ تِبْيانُ الحلالِ والحرامِ ، والحدودِ والأحكامِ ، فلمَّا فَعَلَ اللهُ ذلكَ ، وأَهْلَكَ فِرْعونَ . . سألَ موسىٰ عليهِ السلامُ ربَّهُ الكتابَ ، فأَمَرَهُ اللهُ تعالىٰ أنْ يصومَ ثلاثينَ يوماً ؛ وهوَ ذو القَعْدةِ ، فلمَّا تَمَّتْ ثلاثونَ ليلةً أَنْكَرَ خُلُوفَ فمِهِ[3] ،

---

(١) ومن خواصِّ عدد الأربعين : انقلابُ النطفةِ علقةً ، والعلقةِ مضغةً ، والمضغةِ عِظاماً ، وكما يَتِمُّ بدايةُ فطرة الإنسان وتقلُّبات أطواره بهـٰذا العدد . . كذلك يتمُّ تقلُّبات أحواله بهـٰذا العدد حتىٰ يصير إلىٰ حَدِّ الكمال ، وهو الوجود الثاني في مقام البقاء بالله . من هامش (ج ، ح) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠١٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٨٥) مرسلاً عن مكحول رحمه الله تعالىٰ ، ووصله أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨٩) من حديث سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، ورواه القضاعي في « المسند » (٤٦٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وسيأتي مسنداً في (١/ ٥٨٩) ، وانظر « غنية العارف » (١/ ٣٥٦) .

(٣) الخُلُوف : تغيُّرُ رائحة الفم ، وفتح الخاء إمَّا غلط ، أو لغة رديئة انظر « تاج العروس » (٢٣/ ٢٦٦)

فتَسَوَّكَ بعُودِ خُرْنُوبٍ ، فقالتْ لهُ الملائكةُ : كُنَّا نَشَمُّ مِنْ فِيكَ رائحةَ المِسْكِ فأَفْسدتَهُ بالسِّواكِ ، فأَمَرَهُ اللهُ تعالىٰ أنْ يصومَ عَشَرَةَ أيَّامٍ مِنْ ذي الحِجَّةِ ، وقالَ لهُ : أَمَا عَلِمْتَ أنَّ خُلُوفَ فَمِ الصائمِ أَطْيبُ عندي مِنْ رِيحِ المِسْكِ[1]

ولم يكنْ صومُ موسىٰ تَرْكَ الطعامِ بالنهارِ وأَكْلَهُ بالليلِ ، بل طَوَى الأربعينَ مِنْ غيرِ أَكْلٍ ، فَدَلَّ : علىٰ أنَّ خُلُوَّ المَعِدَةِ مِنَ الطعامِ أصلٌ كبيرٌ في البابِ ؛ حتى احتاجَ موسىٰ عليهِ السلامُ إلىٰ ذلكَ مُستعِدّاً بهِ لمُكالَمةِ اللهِ تعالىٰ

والعلومُ اللَّدُنِّيَّةُ في قلوبِ المُنقطِعينَ إلى اللهِ تعالىٰ . . ضربٌ مِنَ المكالمةِ ، ومَنِ انقطعَ إلى اللهِ أربعينَ يوماً مُخلِصاً مُتعاهِداً نَفْسَهُ بخِفَّةِ المَعِدَةِ . . يفتحُ اللهُ عليهِ العلومَ اللَّدُنِّيَّةَ ، كما أخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ[2]

غيرَ أنَّ تعيينَ الأربعينَ مِنَ المُدَّةِ في قولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وفي أَمْرِ اللهِ تعالىٰ موسىٰ بذلكَ ؛ فالتحديدُ والتقييدُ بالأربعينَ والحكمةُ فيهِ . . لا يَطَّلعُ[3] أحدٌ علىٰ حقيقةِ ذلكَ إلا الأنبياءُ إذا عَرَّفَهُمُ الحقُّ ذلكَ ، أو مَنْ يَخُصُّهُ اللهُ بتعريفِ ذلكَ مِنْ غيرِ الأنبياءِ .

---

(١) أورده السمرقندي في « بحر العلوم » (١/ ٥٤٧) ، والثعلبي في « الكشف والبيان » (١٢/ ٤٩٧) ، والبغوي في « تفسيره » (٣/ ٢٧٥) .

(٢) وقد سبق قريباً في (١/ ٥٤٧) .

(٣) قوله : (فالتحديد) مبتدأ ، وقوله : (لا يطلع) خبره ، والجملة خبرُ قولِهِ : (أنَّ تعيين الأربعين) . من هامش (ح) .

ويلوحُ في سِرِّ ذلكَ معنىً واللهُ أعلمُ[1] ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالىٰ بتكوينِ آدمَ عليهِ السلامُ مِنْ ترابٍ . . قَدَّرَ التخميرَ بهٰذا القَدْرِ مِنَ العددِ ، كما وَرَدَ (خَمَّرَ طِينةَ آدمَ بيدِهِ أربعينَ صباحاً)[2] ، فكأنَّ آدمَ عليهِ السلامُ لمَّا كانَ مُستصلَحاً لعِمارةِ الدَّارَينِ ، وأرادَ اللهُ تعالىٰ منهُ عِمارةَ الدنيا كما أرادَ منهُ عِمارةَ الجنَّةِ . . كوَّنَهُ مِنَ الترابِ تركيباً[3] يُناسِبُ عالَمَ الحِكْمةِ والشَّهادةِ وهٰذهِ الدارَ الدنيا ، وما كانتْ عِمارةُ الدنيا تتأتَّىٰ منهُ وهوَ غيرُ مخلوقٍ مِنْ أجزاءٍ أرضيَّةٍ سُفْليَّةٍ بحَسَبِ قانونِ الحِكْمةِ .

فمِنَ الترابِ كوَّنَهُ ، وأربعينَ صباحاً خَمَّرَ طِينتَهُ ؛ ليَبعُدَ بالتخميرِ أربعينَ صباحاً بأربعينَ حجاباً مِنَ الحَضْرةِ الإلٰهيَّةِ ، كلُّ حجابٍ هوَ معنىً مُودَعٌ فيهِ يصلُحُ بهِ لعِمارةِ الدنيا ، ويتعوَّقُ بهِ عنِ الحَضْرةِ الإلٰهيَّةِ ومواطنِ القُرْبِ ؛ إذ لو لم يتعوَّقْ بهٰذا الحجابِ ما عُمِرَتِ الدنيا ، فتأصَّلَ البُعْدُ عن مقامِ القُرْبِ فيهِ ؛ لعِمارةِ عالَمِ الحِكْمةِ وخِلافةِ اللهِ تعالىٰ في الأرضِ .

فبالتَّبَتُّلِ لطاعةِ اللهِ تعالىٰ والإقبالِ عليهِ ، والانتزاعِ عنِ التوجُّهِ إلىٰ أمرِ المعاشِ بكلِّ يومٍ . . يخرجُ عن حجابٍ هوَ معنىً مُودَعٌ فيهِ ، وعلىٰ قَدْرِ زوالِ كلِّ حجابٍ ينجذبُ ويتَّخذُ منزلاً في القُرْبِ مِنَ الحضرةِ الإلٰهيَّةِ التي هيَ مَجْمَعُ العلومِ ومصدرُها ، فإذا تمَّتِ الأربعونَ زالتِ الحُجُبُ ، وانصبَّتْ إليهِ العلومُ والمعارفُ انصباباً

---

(١) في (د ، ي) : (في سرِّي لذلك) بدل (في سرِّ ذلك)

(٢) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠٠٦) ، وابن بطَّة في « الإبانة » (١٦٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٦٣) موقوفاً علىٰ سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه

(٣) في (ب ، د) (تكويناً)

ثمَّ العلومُ والمعارفُ هي أعيانٌ انقلبتْ أنواراً باتِّصالِ إكْسِيرِ نورِ العَظَمةِ الإلـٰهيَّةِ بها[١] ، فانقلبتْ أعيانُ حديثِ النَّفْسِ علوماً إلهاميَّةً[٢] ، وتصدَّتْ أجرامُ حديثِ النَّفْسِ لقَبولِ أنوارِ العَظَمةِ ، فلولا وجودُ النَّفْسِ وحديثُها ما ظهرتِ العلومُ الإلهاميَّةُ[٣] ؛ لأنَّ حديثَ النَّفْسِ وِعاءٌ وجوديٌّ مُستعِدٌّ لقَبولِ الأنوارِ[٤] ، وما للقلبِ في ذاتِهِ لقَبولِ العِلْمِ شيءٌ

وقولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ ٱلْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ ».. إشارةٌ إلى القلبِ باعتبارِ أنَّ للقلبِ وَجْهَينِ ؛ وَجْهاً إلى النَّفْسِ باعتبارِ توجُّهِهِ إلىٰ عالَمِ الشهادةِ ، ولهُ وجهٌ إلى الرُّوحِ باعتبارِ توجُّهِهِ إلىٰ عالَمِ الغيبِ ، فيستمدُّ القلبُ العلومَ المُكوَّنةَ في النَّفْسِ[٥] ، ويُخرِجُها إلى اللِّسانِ الذي هوَ تَرْجُمانُهُ

فظهورُ العلومِ مِنَ القلبِ ؛ لأنَّها مُتأصِّلةٌ فيهِ

وللقلبِ والروحِ مراتبُ مِنْ قُربِ المُلهِمِ سبحانَهُ وتعالىٰ فوقَ رُتبةِ

---

(١) الإكسير في الأصل : الكيمياء ، أو مادَّة تُحوِّل المعدن الرخيص إلىٰ ذهب وشراب يطيل الحياة في زعم الأقدمين .

(٢) أي كانت أعياناً ناقصة نفسانيَّة كيفيَّةً ، وجوديَّةً في الأصل ، فصارت علوماً إلهاميَّة باتِّصال النور اللطيف الإلـٰهيِّ بها ؛ كالنحاس الذي صار ذهباً بوصول الإكسير إليه . من هامش (ح) .

(٣) التي في غاية اللَّطَافة ؛ كالماء الصافي المُجرَّد عن الألوان ؛ فإنَّهُ لا يظهر منه نقشٌ وشكل . من هامش (ح) .

(٤) ولولا هـٰذا الوعاءُ الكثيف لم تثبتِ العلومُ الإلهاميَّة ، ولم تُفهم ولم تُعلم من هامش (ح)

(٥) في (د) : (المكنونة) بدل (المكونة)

الإلهامِ ، فالعبدُ بانقطاعِهِ إلى اللهِ تعالىٰ واعتزالِ الناسِ . يقطعُ مسافاتِ وجودِهِ ، ويستنبطُ مِنْ مَعْدِنِ نَفْسِهِ جواهرَ العلومِ

وقد وَرَدَ في الخبرِ « ٱلنَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، خِيَارُهُمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي ٱلْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا »[1]

ففي كلِّ يومٍ بإخلاصِهِ في العملِ للهِ يكشِفُ طبقةً مِنَ الأطباقِ التُّرابيَّةِ الجِبِلِّيَّةِ المُبعِدةِ عنِ اللهِ ، إلىٰ أنْ يكشِفَ باستكمالِ الأربعينَ أربعينَ طبقةً ؛ في كلِّ يومٍ طبقةً مِنْ أطباقِ حجابِهِ

وآيةُ صِحَّةِ هٰذا العبدِ ، وتأثُّرِهِ بالأربعينَ ، ووفائِهِ بشروطِ الإخلاصِ : أنْ يزهدَ بعدَ الأربعينَ في الدنيا ، ويتجافىٰ عن دارِ الغُرُورِ ، ويُنِيبَ إلىٰ دارِ الخلودِ ؛ لأنَّ الزهدَ في الدنيا مِنْ ضرورةِ ظهورِ الحِكْمةِ ، ومَنْ لم يزهدْ في الدنيا ما ظَفِرَ بالحكمةِ[2] ، ومَنْ لم يَظفَرْ بالحكمةِ بعدَ الأربعينَ . تبيَّنَ أنَّهُ أَخَلَّ بالشروطِ ولم يُخلِصْ للهِ تعالىٰ ، ومَنْ لم يُخلِصْ ما عَبَدَ[3] ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ أَمَرَنا بالإخلاصِ كما أَمَرَنا بالعملِ ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

(٦٥) ـ أخبرَنا الشيخُ طاهرُ بنُ أبي الفضلِ إجازةً[4] ، قالَ : أخبرَنا

---

(١) رواه البخاري (٣٣٨٣) دون قوله : (كمعادن الذهب والفضة) ، ومسلم (٢٦٣٨/ ١٦٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفقُهوا بالضم : صاروا فقهاء ، وبالكسر : فهموا

(٢) لأنَّ ميلَهُ إلى الدنيا من الجهل ؛ فإنَّ العاقلَ مَنْ يختار ما هو خيرٌ ، والآخرة خيرٌ من الدنيا . من هامش (ح) .

(٣) في (ي) : (ومَنْ لم يخلص لله ما عبد اللهَ) .

(٤) قوله : (إجازة) زيادة من (ب ، هـ ، ح) .

أبو بكرٍ أحمدُ بنُ خَلَفٍ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو منصورٍ الضُّبَعيُّ ، قالَ حدَّثَنا محمَّدُ بنُ أَشْرسَ ، قالَ : حدَّثَنا حفصُ بنُ عبدِ اللهِ ، قالَ : حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ طَهْمانَ ، عن عاصمٍ ، عن زِرٍّ ، عن صفوانَ بنِ عسَّالٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذَا كَانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ يَجِيءُ ٱلْإِخلَاصُ وَٱلشِّرْكُ يَجْثُوَانِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ[1] ، فَيَقُولُ ٱلرَّبُّ لِلْإِخْلَاصِ : ٱنْطَلِقْ أَنْتَ وَأَهْلُكَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ ، وَيَقُولُ لِلشِّرْكِ : ٱنْطَلِقْ أَنْتَ وَأَهْلُكَ إِلَى ٱلنَّارِ »[2]

(٦٦) ـ وبهـٰذا الإسنادِ قالَ السُّلَميُّ : سمعتُ عليَّ بنَ سعيدٍ وسألتُهُ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ سمعتُ [عليَّ بنَ] إبراهيمَ الشَّقيقيَّ وسألتُهُ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سمعتُ محمَّدَ بنَ جعفرٍ الخَصَّافَ وسألتُهُ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ أحمدَ بنَ بشَّارٍ عنِ الإخلاصِ ما هوَ[3] ؟ قالَ سألتُ أبا يعقوبَ الشُّرُوطيَّ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ أحمدَ بنَ غسَّانَ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ أحمدَ بنَ [عَطَاءٍ] الهُجَيْميَّ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ سألتُ عبدَ الواحدِ بنَ زيدٍ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ الحسنَ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ حُذيفةَ عنِ الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : سألتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ

---

(١) زاد في نسخة على هامش (ب) : (على الركب)

(٢) رواه ابن مردويه كما في « الدر المنثور » (٦/٣٨٦) عن سيدينا أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما ، والديلمي في « الفردوس » (٨٨٧٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) انظر ما علَّقته سابقاً في (١/ ٢٨٥) على قوله : (بشار) .

الإخلاصِ ما هوَ ؟ قالَ : « سَأَلْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عنِ ٱلْإِخلَاصِ مَا هُوَ ؟ قَالَ : سَأَلْتُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ عنِ ٱلْإِخلَاصِ مَا هُوَ ؟ قَالَ : هُوَ سِرٌّ مِنْ سِرِّي أَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي »(١)

فمِنَ الناسِ مَنْ يدخلُ الخَلْوةَ علىٰ مُراغَمةِ النَّفْسِ ؛ إذِ النَّفْسُ بطبعِها كارهةٌ للخَلْوةِ ، مَيَّالةٌ إلىٰ مُخالَطةِ الخَلْقِ ، فإذا أَزْعَجَها عن مَقَارِّ عادتِها ، وحَبَسَها علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ . يَعقُبُ كلَّ مرارةٍ تدخلُ عليها حلاوةٌ في القلبِ

قالَ ذو النُّونِ رحمَهُ اللهُ : (لم أَرَ شيئاً أَبْعثَ على الإخلاصِ مِنَ الخَلْوةِ ، ومَنْ أَحَبَّ الخَلْوةَ فقدِ استمسكَ بعمودِ الإخلاصِ ، وظَفِرَ برُكْنٍ مِنْ أركانِ الصِّدْقِ)(٢)

وقالَ الشِّبْليُّ رحمَهُ اللهُ لرجلٍ استَوْصاهُ : (الزَمِ الوَحْدةَ ، وامحُ اسمَكَ عنِ القومِ ، واستقبلِ الجدارَ حتىٰ تموتَ)(٣)

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ رحمَهُ اللهُ : (الوَحْدةُ مُنْيةُ الصِّدِّيقينَ)(٤)

ومِنَ الناسِ مَنْ ينبعثُ مِنْ باطنِهِ داعيةُ الخَلْوةِ ، وتنجذِبُ النَّفْسُ إلىٰ

---

(١) سبق تخريجه في (١/ ٢٨٥ـ٢٨٦) والتعليق علىٰ بعض رجاله .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٣٧٦) ، والسلمي في « الطبقات » (ص٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٠٥)

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (١٨٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٣١٧) ، والمُوصَىٰ : هو أبو العباس الدَّامَغَاني رحمه الله تعالىٰ .

(٤) رواه السلمي في « الطبقات » (ص١١٢) ، ومن طريقه البيهقي في « الزهد الكبير » (١٨٤) ، وزادا (والأُنسُ بالناس وحشتُهُم) ، وأورده القشيري في « الرسالة » (ص٣١٦) ، وفيه : (جليس) بدل (منية) .

ذلكَ ، وهـٰذا أَتَمُّ وأكملُ وأَدَلُّ علىٰ كمالِ الاستعدادِ .

وقد رُوِيَ مِنْ حالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . ما يَدُلُّ علىٰ ذلكَ فيما

(٦٧) ـ حدَّثَنا شيخُنا ضياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ رحمةُ اللهِ عليهِ إملاءً ، قالَ أخبرَنا الحافظُ أبو القاسمِ إسماعيلُ بنُ أحمدَ المُقرِئُ ، قالَ : أخبرَنا جعفرُ بنُ الحَكَّاكِ المَكِّيُّ ، قالَ أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ الصَّنْعَانيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ النَّقْوِيُّ[1] ، قالَ : أخبرَنا إسحاقُ الدَّبَرِيُّ[2] ، قالَ : أخبرَنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، عن مَعْمرٍ ، قالَ : أخبرَني الزُّهْريُّ ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ أوَّلُ ما بُدِئَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ . . الرُّؤْيا الصادقةُ في النومِ ، فكانَ لا يَرَىٰ رُؤْيا إلَّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبحِ ، ثمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ ، فكانَ يأتي حِراءً ، فيتحنَّثُ فيهِ الليالِيَ ذواتِ العَدَدِ ويتزوَّدُ لذلكَ[3] ، ثمَّ يَرجِعُ إلىٰ خديجةَ فيتزوَّدُ لِمِثْلِها ، حتىٰ فاجأَهُ الحقُّ وهوَ في غارِ حِراءٍ ، فجاءَهُ المَلَكُ فيهِ ، فقالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : اقْرَأْ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) هو الإمام المُعمَّر محمد بن أحمد الصَّنْعاني النَّقْوي (ت ٣٦٧هـ) صاحب إسحاق الدَّبَري ، ووقع في بعض النسخ : (البغوي) بدل (النقوي) ، وهو تصحيف ، والنَّقْوي : نسبة إلىٰ (نَقُو) قرية بصنعاء ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ١٤١) ، و« معجم البلدان » (٥/ ٣٠٠) .

(٢) هو الإمام المسند الصدوق أبو يعقوب بن إبراهيم بن عبَّاد الدَّبَري الصنعاني (ت ٢٨٥هـ) ، راويةُ الإمام عبد الرزاق الصنعاني ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٤١٦) .

(٣) التحنُّث : التعبُّد .

« فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي ٱلْجَهْدَ[1] ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ٱقْرَأْ ، فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي ٱلثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي ٱلْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ ٱقْرَأْ ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي ٱلثَّالِثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي ٱلْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ[2] : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ . . . ﴾ حتَّىٰ بَلَغَ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ـ٥] »

فرجعَ بها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تَرجُفُ بَوَادرُهُ[3] ، حتىٰ دَخَلَ علىٰ خديجةَ ، فقالَ : « زَمِّلُونِي ، زَمِّلُونِي » ، فزمَّلُوهُ حتىٰ ذَهَبَ عنهُ الرَّوعُ[4] ، فقالَ لخديجةَ : « مَا لِي ؟ » ، وأَخبرَها الخَبرَ ، فقالَ : « قَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ عَقْلِي » ، فقالتْ : كلَّا ، أَبْشِرْ ؛ فواللهِ ؛ لا يُخزِيكَ اللهُ أبداً ؛ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ[5] ،

---

(١) أي : بَلَغ الغطُّ منِّي الجهدَ ، ويجوز أن يُضبط أيضاً : (الجُهْدُ) بضم الجيم والرفع ؛ أي : بلغ الجُهْدُ مبلغَهُ . انظر « إرشاد الساري » (٧/ ٤٢٦)

(٢) أَرْسَلَني ؛ أي أطلقني ، فهـٰذه الغطَّاتُ الثلاثُ تصرُّفاتٌ من جبريلَ عليه السلام بأمرِ الحقِّ سبحانه في بشريَّته وروحانيَّته وسرِّه؛ ليتهيَّأ بها لكلام الله الذي يترقَّىٰ به بشره وروحانيَّه وسرُّهُ عليه الصلاة والسلام ؛ فإنَّ كلام الله يتضمَّن تجلِّيات الأفعال وتجلِّيات الصفات وتجلِّيات الذات ؛ فبكلِّ تصرُّفٍ تهيَّأ للفيوض الإلـٰهيَّة في المراتب الثلاث ، وهو عليه السلام تصرَّفَ في أصحابه ، وهم في التابعين ، وهم في أتباعهم ، وهـٰكذا إلىٰ أن يريد الله ، فكلُّ مَنْ لم يُتصرَّفْ فيه لا يقدر أن يَتصرَّفَ في غيره ، فالمُتصرِّفون في النفوس والقلوبِ والأرواح . . هم الوَرَثَةُ حقيقةً، يهتدي بهم مَنْ يقتدي بهم، ويتخلَّصُ من وجوده مَنْ يُسلِّم إليهم ، وأمَّا الجامد المحجوب الذي لم يُتصرَّفْ فيه وما سَلَّم لأحد . . فلا يصلح للاقتداء . من هامش (ح)

(٣) البوادر : جمع (بادرة) ؛ وهي اللحمةُ التي بين الكَتِف والعُنُق تضطرب عند الفزع

(٤) الرَّوع : الخوف والفزع

(٥) صلة الرحم : هي الإحسان إلى الأقارب علىٰ حسب حال الواصل والموصول ؛ فتارةً تكون بالمال ، وتارةً تكون بالخدمة ، وتارةً تكون بالزيارة والكلامِ وكفايةِ المهمَّات من هامش (ح)

وتصدُقُ الحديثَ[1] ، وتَحمِلُ الكَلَّ[2] ، وتَقْرِي الضَّيفَ ، وتُعِينُ علىٰ نوائبِ الحقِّ

ثمَّ انطلقَتْ بهِ خديجةُ حتىٰ أَتَتْ بهِ وَرَقَةَ بنَ نوفلٍ ، وكانَ امرأً تنصَّرَ في الجاهليَّةِ ، وكانَ يكتبُ الكتابَ العربيَّ ، وكَتَبَ بالعربيَّةِ مِنَ الإنجيلِ ما شاءَ اللهُ أنْ يكتبَ ، وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ ، فقالتْ لهُ خديجةُ : أي عمِّي[3] ؛ اسمَعْ مِنِ ابنِ أخيكَ ، فقالَ وَرَقَةُ : يا بنَ أخي ؛ ماذا ترىٰ ؟ فأخبرَهُ الخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فقالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[4] : هـٰذا هوَ النَّامُوسُ[5] الذي أُنْزِلَ علىٰ موسىٰ ، يا ليتَني فيها جَذَعاً أكونُ حيّاً حينَ يُخرِجُكَ قومُكَ[6] ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ؟! » ، قالَ وَرَقَةُ : نعم ؛ لم يأتِ أحدٌ قطُّ بما جئتَ بهِ إلا عُودِيَ وأُوذِيَ ؛ فإنْ يُدرِكْني يومُكَ أَنصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً[7]

---

(١) في النسخ ما عدا (ج ، ي) : (وتتصدَّق) بدل (وتصدق الحديث) .

(٢) الكَلُّ : الضعيف المنقطع واليتيم .

(٣) في (ب) : (أي بن عم) ، وفي (ي) : (يا بن عم) ، وهي رواية أبي ذر الهروي . انظر « إرشاد الساري » (٧/ ٤٢٧) .

(٤) زاد في (د) : (يا بن أخي) ، وسقطت من المصادر الآتية

(٥) زاد في (د) : (الأعظم) ، وفي (ي) : (الأكبر) ، وسقطت من باقي النسخ كما هو الرواية في المصادر الآتية ، والناموس : صاحب السِّرِّ ؛ وهو سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام .

(٦) الجَذَع : الشاب .

(٧) مصنف عبد الرزاق (٩٧١٩) ، ورواه البخاري (٦٩٨٢) ، ومسلم (١٦٠) .

وحَدَّثَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يُحدِّثُ عن فَتْرةِ الوَحْيِ ؛ فقالَ في حديثٍ : « فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا ٱلْمَلَكُ ٱلَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْباً[1] ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي ، فَدَثَّرُونِي ، فَأَنْزَلَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ . . . ﴾ إلىٰ ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر : ١ـ٥] »[2]

ونُقِلَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذَهَبَ مِراراً كي يُردِيَ نَفْسَهُ مِنْ شواهقِ الجبالِ ، وكلَّما وافىٰ لِذُرْوةِ جبلٍ لكي يُلقِيَ نَفْسَهُ منهُ . . تبدَّىٰ لهُ جَبْرَئيلُ عليهِ السَّلامُ فقالَ : يا محمَّدُ ؛ إنَّكَ رسولُ اللهِ حقّاً ، فيسكنُ لذلكَ جَأْشُهُ[3] ، وإذا طالتْ عليهِ فَتْرةُ الوَحْيِ عادَ لِمثْلِ ذلكَ ، فيتبدَّىٰ لهُ جَبْرَئيلُ فيقولُ لهُ مثلَ ذلكَ[4]

فهٰذهِ الأخبارُ المُنبئةُ عن بَدْءِ أَمْرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . هيَ الأصلُ في إيثارِ المشايخِ الخَلْوةَ للمُريدينَ والطالبينَ ؛ فإنَّهُم إذا أَخْلصُوا للهِ في خَلَواتِهِم يفتحُ اللهُ تعالىٰ عليهِم ما يُؤنِسُهُم في خَلْوتِهِم ؛ تعويضاً مِنَ اللهِ إيَّاهُم عمَّا تركُوا لأجلِهِ

---

(١) **جُئِثْتُ** : خِفْت ، وفي (ب) : (فجثيت) بدل (فجئثت) ، وفي (ح ، ي) : (فخشيت) ، وفي رواية الحموي والمستملي : (فجثثت) ؛ أي : سقطتُ وهَوَيت . انظر « إرشاد الساري » (٥/ ٢٧٨)

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٨) ، ومسلم (١٦١) .

(٣) **الجَأْش** : اضطراب القلب .

(٤) رواه البخاري (٦٩٨٢) ، وهو من تمام حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها السابق ، ولم يرد في « صحيح مسلم » .

ثمَّ خَلْوةُ القومِ مُستمِرَّةٌ ، وإنَّما الأربعونَ واستكمالُها لهُ أَثَرٌ ظاهرٌ في ظُهُورِ مبادئِ بشائرِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وسُنُوحِ مواهبِهِ السَّنِيَّةِ[1] ، واللهُ أعلمُ[2]

* * *

---

(١) السُّنُوح : مصدر (سَنَح) ؛ إذا ظهر أو جاد .

(٢) في هامش (ب) : (بلغ سماعاً للجماعة على الشيخ أمين الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام) ، وفيه : (بلغ على الشيخ الحافظ جلال الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام) .

الباب السابع والعشرون

في ذكر فتوح الأربعينية

وقد غَلِطَ في طريقِ الخَلْوةِ والأربعينيّةِ قومٌ ، وحرَّفُوا الكَلِمَ عن مواضعِهِ ، ودَخَلَ عليهِمُ الشيطانُ ، وفَتَحَ عليهِم بابَ الغُرُورِ ، ودخلُوا الخَلْوةَ علىٰ غيرِ أصلٍ مستقيمٍ ؛ مِنْ تأديةِ حَقِّ الخَلْوةِ بالإخلاصِ ، وسَمِعُوا أنَّ المشايخَ والصُّوفيّةَ كانتْ لهُم خَلَوَاتٌ ، وظَهَرَتْ لهُم كراماتٌ ووقائعُ ، وكُوشِفُوا بغرائبَ وعجائبَ ، فدخلُوا الخَلْوةَ لطلبِ ذلكَ ، وهٰذا عينُ الاعتلالِ ، ومَحْضُ الضلالِ

وإنَّما القومُ اختارُوا الخَلْوةَ والوَحْدةَ ؛ لسلامةِ الدِّينِ ، وتَفقُّدِ أحوالِ النَّفْسِ ، وإخلاصِ العَمَلِ للهِ تعالىٰ

نُقِلَ عن أبي عمرٍو الأَنْماطيِّ أنَّهُ قالَ[1] : (لن يصفوَ للعاقلِ فهمُ الأخيرِ إلا بإحكامِ ما يجبُ عليهِ مِنْ إصلاحِ الحالِ الأوَّلِ والمواطنِ التي ينبغي أنْ يعرفَ منها أمُزدادٌ هوَ أم مُنتقِصٌ ، فعليهِ أنْ يطلبَ مواضعَ الخَلْوةِ ؛ لكي لا يُعارِضَهُ شُغْلٌ فيُفسِدَ عليهِ ما يُرِيدُ)[2]

---

(١) قوله : (أبي عمرو) كذا في جميع النسخ ، وفي « تاريخ بغداد » (١٢/ ٧٣) : (أبي عمر)

(٢) في (ب) : (شاغل مشغل) بدل (شغل) ، وفي (د) (شاغل) .

(٦٨) ـ أخبرَنا طاهرُ بنُ أبي الفضلِ إجازةً[١] ، عن أبي بكرِ بنِ خَلَفٍ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميُّ ، قالَ : سمعتُ أبا [عثمانَ] المَغْرِبيَّ يقولُ[٢] : (مَنِ اختارَ الخَلْوةَ على الصُّحْبةِ . . ينبغي أنْ يكونَ خالياً مِنْ جميعِ الأذكارِ إلَّا ذِكْرَ ربِّهِ ، وخالياً مِنْ جميعِ المُراداتِ إلَّا مُرادَ ربِّهِ ، وخالياً مِنْ مُطالَبةِ النَّفْسِ مِنْ جميعِ الأسبابِ ، فإنْ لم يكنْ بهـٰذهِ الصِّفةِ فإنَّ خَلْوتَهُ تُوقِعُهُ في فتنةٍ أو بَلِيَّةٍ)[٣]

(٦٩) ـ أخبرَنا أبو زُرْعةَ إجازةً[٤] ، قالَ : أخبرَنا أبو بكرِ بنُ خَلَفٍ إجازةً[٥] ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ الرحمـٰنِ ، قالَ : سمعتُ منصوراً يقولُ : سمعتُ محمَّدَ بنَ حامدٍ يقولُ جاءَ رجلٌ إلىٰ زيارةِ أبي بكرٍ الورَّاقِ ، فقالَ لهُ : أَوْصِني ، فقالَ وجدتُ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ في الخَلْوةِ والقِلَّةِ ، ووجدتُ شرَّهُما في الكَثْرةِ والاختلاطِ[٦]

فمَنْ دَخَلَ الخَلْوةَ مُعتلّاً في دخولِهِ[٧] . . دَخَلَ عليهِ الشيطانُ ، وسَوَّلَ لهُ أنواعَ الطُّغْيانِ ، وامتلأَ مِنَ الغُرُورِ والمُحالِ ، وظَنَّ أنَّهُ علىٰ حُسْنِ الحالِ

وقد دخلتِ الفتنةُ علىٰ قومٍ دخلُوا الخَلْوةَ بغيرِ شروطِها ، وأَقْبلُوا علىٰ

---

(١) سقط التصريح بالإجازة من النسخ ما عدا (ب ، و ، ي)
(٢) في النسخ : (أبا تميم) بدل (أبا عثمان) ، والمثبت من المصدرين الآتيين .
(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (١٨٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٣١٤ـ٣١٥)
(٤) سقط التصريح بالإجازة من (أ ، د ، و ، ز) .
(٥) سقط التصريح بالإجازة من (أ ، د ، و ، ز) .
(٦) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (١٧٩) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٣١٥)
(٧) أي غير مخلص ، بل طالباً لتلك المُرادات النفسانية . من هامش (ح) .

ذِكرٍ مِنَ الأذكارِ ، واستجمُّوا نفوسَهُم بالعُزْلةِ عنِ الخَلْقِ[1] ، ومنعُوا الشواغلَ مِنَ الحواسِّ ؛ كفعلِ الرَّهابينِ والبَرَاهِمَةِ والفلاسفةِ .

وللوَحْدةِ وجَمْعِ الهَمِّ تأثيرٌ في صفاءِ الباطنِ مُطلقاً[2] ؛ فما كانَ مِنْ ذلكَ بحُسْنِ سياسةِ الشرعِ وصِدْقِ المُتابَعةِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . أَنْتجَ تنويرَ القلبِ ، والزُّهْدَ في الدُّنيا ، وحَلاوةَ الذِّكْرِ ، والمُعامَلةَ للهِ بالإخلاصِ مِنَ الصلاةِ والتِّلاوةِ وغيرِ ذلكَ

وما كانَ مِنْ ذلكَ مِنْ غيرِ سياسةِ الشرعِ ومُتابَعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . يُنتِجُ صفاءً في النَّفْسِ يُستعانُ بهِ على اكتسابِ علومٍ رياضيَّةٍ ممَّا تعتني بهِ الفلاسفةُ والدَّهريُّونَ خَذَلَهُمُ اللهُ تعالىٰ .

وكلَّما كَثُرَ مِنْ ذلكَ كَثُرَ البُعْدُ مِنَ اللهِ ، ولا يزالُ المُقبِلُ علىٰ ذلكَ يَستغوِيهِ الشيطانُ بما يكتسبُ مِنَ العلومِ الرياضيَّةِ[3] ، أو بما قد يتراءىٰ لهُ مِنْ

---

(١) استجمُّوا : أراحوا .

(٢) فإنَّ جناب الكريم أعلىٰ من أن يُخيِّب سائلاً حَصَرَ همَّهُ علىٰ جنابه ، وانقطع إلىٰ بابه ، فالمطالبُ النفسيَّة والمواهب المجازيَّة مبذولةٌ لكلِّ طالبٍ سائلٍ منقطعٍ مجموعِ الهمِّ ، وهي جزاء الأعمال الظاهرة والباطنة الدنيويَّة ، سواء كانت تلك الأعمال مشروعةً أو لا ، وأمَّا القلبيَّة والمواهب الحقيقيَّة . . فلا تصلح إلا لمَنِ اتَّبع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ظاهراً وباطناً ، جهراً وسرّاً ، فالميزانُ الذي يُعرف به الصحيحُ من السقيم من الأحوال ، والمِحَكُّ الذي يُميَّز به النَّبَهْرَج المغشوش من الجيِّد المسكوك من ديوان الملك المتعال ، المُيسَّر به تحصيلُ المرادات الحقيقيَّة في الحال والمآل . . إنَّما هو اتِّباعُ شريعة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فزِنْ به أحوالَ الرجال تكن آمناً من الخسران والضلال . من هامش (ح) .

(٣) ظنّاً منه أنَّهُ علىٰ حسن الحال ؛ بما أُتيح له من الوصول به إلىٰ هـٰذه الآمال ، فيُقال له : (من الرجز) =

صِدْقِ الخاطرِ وغيرِ ذلكَ . . حتىٰ يركَنَ إليهِ كلَّ الرُّكُونِ ، ويظنَّ أنَّهُ قد ظَفِرَ بالمقصودِ ، ولا يعلمُ أنَّ هـٰذا الفنَّ مِنَ الفائدةِ غيرُ ممنوعٍ مِنَ النَّصارىٰ والبَرَاهِمَةِ ، وليستْ هيَ المقصودَ مِنَ الخلوةِ ؛ يقولُ بعضُهُمْ : (الحقُّ يُرِيدُ منكَ الاستقامةَ وأنتَ تطلُبُ الكرامةَ !!)(١)

وقد يُفتَحُ على الصادقينَ شيءٌ مِنْ خوارقِ العاداتِ ، وصِدْقِ الفِرَاسةِ ، ويتبيَّنُ ما سيحدُثُ في المستقبلِ ، وقد لا يُفتَحُ عليهِم ذلكَ ، ولا يَقدَحُ في حالِهِم عدمُ ذلكَ ، وإنَّما يَقدَحُ في حالِهِمُ الانحرافُ عن حَدِّ الاستقامةِ

فما يُفتَحُ مِنْ ذلكَ على الصادقينَ . . يصيرُ مَزِيدَ إيقانِهِم(٢) ، والداعيَ لهُم إلىٰ صِدْقِ المُجاهَدةِ والمُعامَلةِ ، والزُّهْدِ في الدنيا ، والتخلُّقِ بالأخلاقِ الحميدةِ(٣)

وما يُفتَحُ مِنْ ذلكَ علىٰ مَنْ ليسَ تحتَ سياسةِ الشَّرْعِ . . يصيرُ سبباً لمَزِيدِ بُعْدِهِ وغُرُورِهِ وحماقتِهِ ، واستطالتِهِ على الناسِ ، وإزْرائِهِ بالخَلْقِ ، ولا يزالُ بهِ حتىٰ يخلعَ رِبْقةَ الإسلامِ عن عُنُقِهِ ، ويُنكِرَ الحدودَ والأحكامَ ، والحلالَ

= سوفَ ترىٰ إذا انجلى الغُبارُ ... أفرسٌ تحتَكَ أم حِمارُ

من هامش (ح) .

(١) سبق بنحوه في (١/ ٢٠٨) عن أبي علي الجوزجاني رحمه الله تعالىٰ .

(٢) في نسخة علىٰ هامش (د) : (سبباً لمزيد) بدل (مزيدَ) .

(٣) لعلمهم أنَّ هـٰذه المواهبَ بواسطة هـٰذه المكاسب بتقدير العزيز العليم ، فيزيدون المكاسبَ لازدياد المواهب التي تُقرِّبُهُم إلى الله وتُعرِّفُهُم بالله ، مُتيقِّنين بإنجاز [وعد] الله الكريم ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . ﴾ الآيةَ [العنكبوت : ٦٩] . من هامش (ح) .

والحرامَ ، ويظنُّ أنَّ المقصودَ مِنَ العباداتِ ذِكْرُ اللهِ تعالىٰ ، ويتركَ مُتابعةَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ يتدرَّجَ مِنْ ذلكَ إلىٰ تَلَحُّدٍ وتَزَنْدُقٍ ، نعوذُ باللهِ مِنَ الضَّلالِ .

وقد يَلُوحُ لأقوامٍ خيالاتٌ يظنُّونَها وقائعَ ، ويُشبِّهُونَها بوقائعِ المشايخِ ، مِنْ غيرِ عِلْمٍ بحقيقةِ ذلكَ ، فمَنْ أرادَ تحقيقَ ذلكَ فليعلَمْ : أنَّ العبدَ إذا أَخْلصَ للهِ تعالىٰ وأَحْسنَ النيَّةَ ، وقَعَدَ في الخَلْوةِ أربعينَ يوماً أو أكثرَ . . فمنهُم مَنْ يُباشِرُ باطنَهُ صفوُ اليقينِ ، ويُرفَعُ الحجابُ عن قلبِهِ ، ويصيرُ كما قالَ قائلُهُم : (رأىٰ قلبي ربِّي)[1]

وقد يَصِلُ إلىٰ هٰذا المَقامِ : تارةً بإحياءِ الأوقاتِ بالصَّالحاتِ ، وكَفِّ الجوارحِ وتوزيعِ الأورادِ مِنَ الصَّلاةِ والتِّلاوةِ والذِّكرِ على الأوقاتِ .

وتارةً يُبادِئُهُ الحقُّ ـ لموضعِ صِدْقِهِ ، وقُوَّةِ استعدادِهِ ـ مُبادأةً مِنْ غيرِ عَمَلٍ وُجِدَ منهُ[2]

وتارةً يَجِدُ ذلكَ بمُلازَمةِ ذِكْرٍ واحدٍ مِنَ الأذكارِ ؛ لا يزالُ يُردِّدُ ذلكَ الذِّكْرَ ويقولُهُ ، وتكونُ عبادتُهُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ بسُنَنِها الرَّواتبِ فحَسْبُ ، وسائرُ أوقاتِهِ مشغولةٌ بالذِّكْرِ الواحدِ ، لا يتخلَّلُها فُتُورٌ ، ولا يُوجَدُ منهُ قُصورٌ ، لا يزالُ يُردِّدُ ذلكَ الذِّكْرَ مُلتزِماً بهِ ـ حتىٰ في طريقِ الوضوءِ وساعةِ الأكلِ ـ لا يَفتُرُ عنهُ

---

(١) أورده الغزالي في « الإحياء » (٥/ ٥٤) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(٢) في (أ ، ز) (وخدمة منه) بدل (وجد منه) ، وفي (ب) : (من غير عمله وخدمته) .

واختارَ جمعٌ مِنَ المشايخِ مِنَ الذِّكْرِ كلمةَ : (لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ)

وهـٰذهِ الكلمةُ لها خاصِّيَّةٌ في تنويرِ الباطنِ وجَمْعِ الهَمِّ إذا داومَ عليها صادقٌ مُخلِصٌ[1] ، وهيَ مِنْ مواهبِ الحقِّ لهـٰذهِ الأُمَّةِ ، وفيها خاصِّيَّةٌ لهـٰذه الأُمَّةِ فيما :

(٧٠) ـ حدَّثَنا شيخُنا ضِياءُ الدِّينِ رحمةُ اللهِ عليهِ إملاءً ، قالَ : أخبرَنا أبو القاسمِ الدِّمَشْقيُّ السَّمَرْقَنْديُّ الحافظُ[2] ، قالَ : أخبرَنا عبدُ الدائمِ بنُ الحسنِ[3] ، قالَ : أخبرَنا عبدُ الوهَّابِ الدِّمَشْقيُّ[4] ، قالَ : أخبرَنا محمَّدُ بنُ [خُرَيمٍ][5] ، قالَ : حدَّثَنا هشامُ بنُ عمَّارٍ ، قالَ : حدَّثَنا الوليدُ بنُ مسلمٍ ، قالَ : حدَّثَنا عبدُ الرحمـٰنِ بنُ زيدٍ ، عن أبيهِ : أنَّ عيسى بنَ مريمَ

---

(١) لأنَّها لاشتمالها علىٰ نفي الكثرةِ وإثباتِ الوَحْدة . . تُزِيلُ آثارَ الأغيار والمُحدَثاتِ عن القلب ، وتفيضُ أنوارَ وحدانيَّة الحضرةِ عليه ، فإذا لازم علىٰ هـٰذه الكلمةِ تزولُ الآثار شيئاً فشيئاً ، وتزيد الأنوار يوماً فيوماً إلىٰ أن ينقلع سحابُ الحادث عن وجه شمس القديم ، فصارت آفاق الأنفس حينئذ ، وينجمع الهمُّ بل يزول ، ووافىٰ سير الشهود والوصول . من هامش (ح) .

(٢) هو الإمام المُحدِّث المفيد المسند إسماعيل بن أحمد بن عمر السَّمَرْقَنْدي الدمشقي البغدادي (ت ٥٣٦هـ) ، كان مسند خراسان والعراق ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٢٨) .

(٣) هو الإمام المُحدِّث أبو الحسين وأبو القاسم الهلالي الدمشقي القطَّان (ت ٤٦٠هـ) ، وانظر « تاريخ دمشق » (٣٤/ ١٠٤) .

(٤) هو الإمام المُحدِّث الصادق المعمَّر أبو الحسين بن الحسن بن الوليد الكِلابي الدمشقي (ت ٣٩٦هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ٥٥٧) .

(٥) هو الإمام المُحدِّث الصدوق مسند دمشق أبو بكر العقيلي الدمشقي (ت ٣١٦هـ) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٤٢٨) ، وفي النسخ : (خزيم) ، والصواب المثبت ، كما في المصادر والمراجع .

عليهِ السلامُ قالَ رَبِّ ؛ أَنبِئْني عن هـٰذهِ الأُمَّةِ المرحومةِ[١] ، قالَ : أُمَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، عُلَماءُ أَخفياءُ حُكَماءُ[٢] ، كأنَّهُم أنبياءُ ، يَرضَوْنَ مِنِّي بالقليلِ مِنَ العطاءِ ، وأَرْضىٰ منهُم باليسيرِ مِنَ العملِ ، وأُدخِلُهُمُ الجنَّةَ بـ(لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ) ، يا عيسىٰ ؛ هم أكثرُ سُكَّانِ الجنَّةِ ؛ لأنَّها لم تَذِلَّ أَلسُنُ قومٍ[٣] قطُّ بـ(لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ) كما ذَلَّتْ ألسنتُهُم ، ولم تَذِلَّ رقابُ قومٍ قطُّ بالسُّجُودِ كما ذَلَّتْ رقابُهُم[٤]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ إنَّ هـٰذهِ الآيةَ مكتوبةٌ في التوراةِ : (يا أيُّها النبيُّ ؛ إنَّا أَرْسَلْناكَ شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً ، وحِرْزاً للمؤمنينَ ، وكَنْزاً للأُمِّيِّينَ[٥] ، أنتَ عَبْدي ورَسُولي ، سَمَّيْتُكَ المُتوكِّلَ ، ليسَ بفَظٍّ ولا غليظٍ ، ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ[٦] ، ولا يَجْزي بالسيِّئةِ السيِّئةَ ، ولـٰكن يعفو ويصفحُ ، ولن أَقبِضَهُ حتىٰ تُقامَ بهِ المِلَّةُ المُعْوَجَّةُ ؛ بأنْ يقولوا : « لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ » ، ويفتحُوا أَعْيُناً عُمْياً[٧] ، وآذاناً صُمّاً[٨] ، وقُلُوباً غُلْفاً)[٩]

---

(١) المذكورةِ في الإنجيل من هامش (ح) .

(٢) في (ب ، ج) : (حلماء) بدل (حكماء) ، وجاء في بعض النسخ : (أحفياء) بدل (أخفياء) ، وفي (ي) ويحتمله في (د) : (علماء أخفياء أتقياء حكماء حلماء) ، والمثبت أقرب للمصدرين الآتيين .

(٣) أي : من الأمم السوالف . من هامش (ح)

(٤) رواه من طريق أبي القاسم الدمشقيِّ ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٣٨٢) .

(٥) في (د) : (للآمنين) .

(٦) السَّخَّاب : كثير الصِّياح والصوت ، ويجوز أن يقرأ بالصاد كما جاء في (ج)

(٧) عن مشاهدة وحدانيَّة الحقِّ تعالىٰ . من هامش (ح)

(٨) عن سماع كلام الحقِّ تعالىٰ . من هامش (ح) .

(٩) رواه البخاري (٤٨٣٨) ، وغُلْفاً : جمع (أغلف) ؛ وهو المُغطَّىٰ والمستور .

فلا يزالُ العبدُ في خَلْوتِهِ يُردِّدُ هـٰذهِ الكلمةَ علىٰ لسانِهِ معَ مُواطَأةِ القلبِ[١] . . حتىٰ تصيرَ الكلمةُ مُتأصِّلةً في القلبِ ، مُزيلةً لحديثِ النَّفْسِ ، ينوبُ معناها في القلبِ عن كلِّ حديثِ النَّفْسِ[٢]

فإذا استولتِ الكلمةُ ، وسَهُلَتْ على اللِّسانِ . . يتشرَّبُها القلبُ ، فلو سكتَ اللِّسانُ لم يسكتِ القلبُ ، ثمَّ تتجوهرُ في القلبِ[٣] ، وبتجوهرِها في القلبِ يَستكِنُّ نورُ اليقينِ في القلبِ ، حتىٰ إذا ذهبتْ صورةُ الكلمةِ مِنَ اللِّسانِ والقلبِ . . لا يزولُ نورُها[٤] ؛ لتجوهرِها ، ويتَّحدُ الذِّكْرُ معَ رُؤْيةِ عَظَمةِ

---

(١) أي : موافقة القلب .

(٢) معنى الكلمةِ بالنسبة إلى المبتدئ صاحبِ النَّفْس : (لا معبودَ غيرُ الله) ؛ لا يزالُ يَقصِدُ هـٰذا المعنىٰ إلىٰ أن تنتفيَ المعبوداتُ الباطلة التي هي أهويةُ النفس بالميل إلىٰ مُشتهَيات هـٰذه الدار ، وبالنسبة إلى المُتوسِّط صاحبِ القلب : (لا مطلوبَ ـ أو لا مُرادَ ، أو لا مقصودَ ، أو لا محبوبَ ـ غيرُ الله) ؛ لا يزالُ يقصدُ واحداً من هـٰذه المعاني بحسب مُقتضيات الأحوالِ إلىٰ ألَّا يبقىٰ في قلبه مطلوبٌ ومرادٌ ومقصود ومحبوبٌ غيرُ الله ، وينقطعَ من تشبُّثات النفس المائلة إلىٰ ما سوى الله ، فيستولي نورُ المذكور على القلب ، وينفتح إلىٰ مشاهدة وحدانيَّته تعالىٰ في صفحات الكائنات ، فيرىٰ قَيُّوميَّتَه وقيامَ كلِّ شيء به ، فيصيرُ أهلاً للمعنى الأخير المخصوصِ بأرباب النهاية ؛ (لا موجود إلا الله) ؛ فلا يزالُ يقول : (لا إلـٰه إلا الله) وينوي بأسره في نظر شهوده ، ثمَّ يضمحلُّ شهودُهُ ، ويتحقَّقُ معنىٰ قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ، ومعنىٰ قولِهِ عليه السلام : « كانَ اللهُ ولم يكنْ معَهُ شيءٌ » ، وفهمُ ما قال بعضُ الأولياء : (وهو الآنَ علىٰ ما كان عليه) ، ثمَّ ما يُرتَّبُ علىٰ هـٰذا المعنىٰ لا يدخل تحت (. . .) البيان . من هامش (ح) .

(٣) ويصيرُ نورُها كجوهرةٍ صافيةِ اللمعة ، أضوءَ من كلِّ الأنوار ، تُضِيءُ القلبَ في جميع الأطوار بالليل والنهار . من هامش (ح) .

(٤) أي : لا يزول عن القلب ، ويُسمَّىٰ تعاهد النور : ذكر السرِّ ، وفوق ذلك : ذكر سرِّ السرِّ المُسمَّىٰ عند ملوك الطريقة : الخفي ، وعلامة هـٰذا الذكر : الحَيْرةُ وغلبة السكر ؛ =

المذكورِ سُبْحانَهُ وتعالىٰ[١] ، ويصيرُ الذِّكْرُ حينَئِذٍ ذِكْرَ الذَّاتِ ، وهٰذا الذِّكْرُ هوَ المُشاهَدةُ والمُكاشَفةُ والمُعايَنةُ ؛ أعني ذِكْرَ الذَّاتِ بتَجَوْهُرِ نُورِ الذِّكْرِ[٢] ، وهٰذا هوَ المَقصِدُ الأَقْصىٰ مِنَ الخَلْوةِ[٣]

وقد يَحصُلُ هٰذا مِنَ الخَلْوةِ لا بذِكْرِ الكلمةِ ، بل بتلاوةِ القرآنِ ؛ إذا أَكْثَرَ مِنَ التِّلاوةِ ، واجتهدَ في مُواطأةِ القَلْبِ معَ اللِّسانِ[٤] ، حتىٰ تجريَ التِّلاوةُ على اللِّسانِ ، ويقومَ معنى الكلامِ قائماً مَقامَ حديثِ النَّفْسِ ، فيدخلُ على العبدِ سهولةٌ في التِّلاوةِ والصَّلاةِ ، ويتنوَّرُ الباطنُ بتلكَ السُّهُولةِ في التِّلاوةِ والصَّلاةِ، ويتجوهرُ نورُ الكلامِ في القلبِ ، ويكونُ منهُ أيضاً ذكرُ الذَّاتِ[٥] ،

= بحيثُ يصير مغلوباً كالسكران الطافح ، وهٰذان النوعان من الذكر فوقَ ذكر القلب واللسان ؛ ولهٰذا أشار سهل بن عبد الله قال : (ذكر اللسان لقلقة ، وذكر القلب وسوسة) . من هامش (ج) .

(١) في (ب ، هـ ، ي) : (ويتَّخذ) بدل (ويتَّحد) .

(٢) قوله : (ذِكْر الذَّات) ؛ أي : ذات المذكور ، ويُسمَّىٰ : ذكر الخفي ، وهو المرتبة الرابعةُ من أقسام الذكر ، وإنَّما سُمِّي ذكرَ الذات ؛ لأنَّ نورَ ذكرِ ذاتِ المذكور أثَّرَ في القلب ، وغَلَبَ عليه وأخذه عنه بحيثُ استغرق فيه ، وهٰذا الذكر عينُ المشاهدة والمكاشفة والمعاينة ، وذلك من تجلِّيات الذات ، وهو أَعْلى المقاصد وأسنى المطالب مِنَ الخلوة ، هنيئاً لأرباب المقاصد والعُلا ، هنيئاً لأصحاب المطالب والمُنىٰ . من هامش (ج) .

(٣) ثمَّ يصيرُ [أهلاً] للجلوة ، وتصيرُ جلوتُهُ خلوةً ، ولا يحجُبُهُ الخَلْق عن الحقِّ ، وهو معَ ذلكَ ضابطٌ لقلبه ، حارسٌ لنفسه ، عارفٌ بفَتَراته ، مُتدارِكٌ لغَفَلاته ، غيرُ مُغترٍّ بحاله ، طالبٌ للمزيد من فيضِ لطفِ الله وإفضالِهِ . من هامش (ح) .

(٤) مع مطالعة عظمة المُتكلِّم . من هامش (ح) .

(٥) أي : ويكون من المذكور ـ وهو تلاوة القرآن ـ ذكرُ الذات ، كما كان في الذكر بـ (لا إلـٰه إلا الله) .

ويجتمعُ نورُ الكلامِ في القلبِ معَ مُطالَعةِ عَظَمةِ المُتكلِّمِ سُبْحانَهُ وتَعَالَىٰ

ودونَ هٰذهِ المَوْهِبةِ[1] ما يُفتَحُ على العبدِ مِنَ العلومِ الإلهاميّةِ اللَّدُنِّيَّةِ[2] ، وإلىٰ حينِ بلوغِ العبدِ هٰذا المبلغَ مِنْ حقيقةِ الذِّكْرِ والتلاوةِ إذا صفا باطنُهُ . . قد يغيبُ في الذِّكْرِ مِنْ كمالِ أُنْسِهِ وحلاوةِ ذِكْرِهِ ؛ حتىٰ يلتحقَ في غيبتِهِ في الذِّكْرِ بالنائمِ[3]

وقد تتجلَّىٰ لهُ الحقائقُ في لِبْسةِ الخيالِ أوّلاً[4] ، كما تَنكشِفُ الحقائقُ

---

(١) أي : تجوهر الكلمة والكلام في القلب . من هامش (ح)

(٢) فيُعلَمُ : أنَّ مَنْ تقيَّد بالعلوم اللَّدُنِّيَّة ، سيَّما المناسبات الكونيَّة ، ولم يتحصَّن عينُ البصيرة عنها بتوجُّه السِّرِّ إلى الحضرة الأَحَدِيَّة . . لا يتجوهرُ نور الكلمة والكلامِ في القلب ، فلم يرقَ إلى الفناء الذاتيِّ واضمحلال الوجود بالكُلِّيَّة . من هامش (ح) .

(٣) قال في « شرح المشكلات » (ق/ ٤٣ـ ٤٤) : (واعلَمْ : أنَّ الأذكار أربعةٌ : ذِكْرٌ باللسان ، وفيه [المناجاة] ، وذكر بالقلب ، وفيه المحادثة ، وذكر بالسرِّ ، وفيه المراقبة ، وذكرٌ بالرُّوح ، وفيه المشاهدة .

واعلَمْ : أنَّ الأنوارَ التي تحصل من الأذكار أيضاً أربعةٌ : نورُ الإسلام ، ونور الإيمان ، ونور الإحسان ، ونورَ الإيقان ؛ فنورُ الإسلام يحصلُ مِنْ ذِكْرِ اللِّسان ، ونور الإيمان يحصل من ذكر القلب ، ونور الإحسان يحصل من ذكر السرِّ ، ونور الإيقان يحصل من ذكر الروح ، فنورُ الإسلام كنور الكواكب ، ونور الإيمان كنور القمر ، ونور الإحسان كنور الصبح ، ونور الإيقان كنور الشمس المشرقة المُظهِرة للأشياء كلِّها بأجناسها وأنوعها وسماتها وصفاتها ، فمَنْ فاز بنور الإسلام ولم يفز بغيره . . كمَنْ أدرك ركعةً مثلاً من صلاة الظهر أو العصر أو العشاء ؛ وهي الركعة الأخيرة ، فما فاتت منه تلك الصلاةُ وإن كانت الفضيلة ، ومن فاز بنور الإسلام والإيمان . . كمن أدرك منها ركعتين ، ومن فاز بنور الإسلام والإيمان والإحسان . . كمن أدرك منها ثلاث ركعات ، ومن فاز بنور الإسلام والإيمان والإحسان . . كمن أدرك منها ثلاث ركعات ، ومن فاز بنور الإسلام والإيمان والإحسان والإيقان . . كمن أدرك الركعاتِ الأربعَ ، وتمَّت وكَمَلَتْ صلاتُهُ في نفسها ، والله أعلم) .

(٤) أي : في غيبته في الذكر قبل غيبته عن الوجود . من هامش (ح)

للنائمِ في لبسةِ الخيالِ ؛ كمَنْ رأىٰ في المنامِ أنَّهُ قَتَلَ حيَّةً ، فيقولُ لهُ المُعبِّرُ تَظفَرُ بالعَدُوِّ ، فظَفَرُهُ بالعدوِّ كَشْفٌ كاشفَهُ الحقُّ بهِ ، وهـٰذا الظَّفَرُ رُوحٌ مُجرَّدٌ[1] صَوَّغَ ملكُ الرُّؤيا لهُ جَسَداً لهـٰذا الرُّوحِ مِنْ خيالِ الحَيَّةِ[2]

فالرُّوحُ الذي هوَ كَشْفُ الظَّفَرِ . إخبارُ الحقِّ ، ولِبْسةُ الخيالِ الذي هوَ بمثابةِ الجَسَدِ . مثالٌ انبعثَ مِنْ نَفْسِ الرَّائي في المَنامِ مِنِ استصحابِ القُوَّةِ الوَهْميَّةِ والخياليَّةِ مِنَ اليقظةِ ، فتُؤلِّفُ رُوحُ كَشْفِ الظَّفَرِ معَ جَسَدِ مثالِ الحيَّةِ ، فافتقرَ إلى التعبيرِ ؛ إذ لو كُوشِفَ بالحقيقةِ التي هيَ رُوحُ الظَّفَرِ مِنْ غيرِ هـٰذا المثالِ الذي هوَ بمثابةِ الجسدِ . ما احتاجَ إلى التعبيرِ ، وكانَ يرى الظَّفَرَ ويصحُّ الظَّفَرُ .

وقد يتجرَّدُ الخيالُ باستصحابِ الخيالِ والوَهْمِ مِنَ اليقظةِ في المنامِ مِنْ غيرِ حقيقةٍ[3] ، فيكونُ المنامُ أَضْغاثَ أحلامٍ لا يُعبَّرُ .

وقد يتجرَّدُ لصاحبِ الخَلْوةِ الخيالُ المُنبعِثُ مِنْ ذاتِهِ مِنْ غيرِ أن يكونَ وِعاءً لحقيقةٍ[4] ، فلا يُبنىٰ علىٰ ذلكَ ولا يُلتفَتُ إليهِ ؛ فليسَ ذلكَ واقعةً ، وإنَّما هوَ خيالٌ .

فأمَّا إذا غابَ الصادقُ في ذِكْرِ اللهِ تعالىٰ حتىٰ يَغيبَ عنِ المحسوسِ ؛

---

(١) عن الصورة الجسمية . من هامش (ح) .

(٢) في (ب ، ج ، د) : (صوَّر) بدل (صوَّغ) ، وفي (هـ ، ح) : (صاغ) .

(٣) أي : من غير أن يكون لذلك المُتخيَّل ثبوتٌ في نفس الأمر حتىٰ يقع بعد الرؤيا له ؛ كمن كان في خياله داعية وقوع شيء أو [عدم] وقوعه ؛ فيرىٰ ذلك المُتخيَّل وليس له حقيقة . من هامش (ح) .

(٤) أي : لا مستصحباً من اليقظة لبسةَ مثالٍ واقعٍ في الخيال ممَّا هو في عالم الصُّوَر الآفاقيَّة . من هامش (ح)

بحيثُ لو دَخَلَ عليهِ داخلٌ مِنَ الناسِ لا يعلمُ بهِ لغَيْبَتِهِ في الذِّكْرِ . . فعندَ ذلكَ قد ينبعثُ في الابتداءِ مِنْ نَفْسِهِ مثالٌ وخيالٌ ينفخُ فيهِ رُوحُ الكَشْفِ ، فإذا عادَ مِنْ غَيْبَتِهِ : فإمَّا يأتيهِ تفسيرُهُ مِنْ باطنِهِ موهبةً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإمَّا يُفسِّرُ لهُ شيخُهُ كما يُعبِّرُ المُعبِّرُ المنامَ[1] ، ويكونُ ذلكَ واقعةً ؛ لأنَّهُ كشفُ حقيقةٍ في لِبْسةِ مثالٍ .

وشَرْطُ صِحَّةِ الواقعةِ الإخلاصُ في الذِّكْرِ أوَّلاً[2] ، ثمَّ الاستغراقُ في الذِّكْرِ ثانياً[3] ، وعلامةُ ذلكَ : الزُّهْدُ في الدنيا ، ومُلازَمةُ التقوىٰ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ جَعَلَهُ بما يُكاشَفُ بهِ في واقعةٍ مَوْرِدَ الحكمةِ ، والحكمةُ تحكُمُ بالزُّهْدِ والتقوىٰ .

وقد يتجرَّدُ للذاكرِ الحقائقُ مِنْ غيرِ لِبْسةِ المثالِ ، فيكونُ ذلكَ كَشْفاً وإخباراً مِنَ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ ، ويكونُ ذلكَ تارةً بالرُّؤْيةِ ، وتارةً بالسَّماعِ ، وقد يسمعُ مِنْ باطنِهِ ، وقد يَطرُقُ ذلكَ مِنَ الهواءِ لا مِنْ باطنِهِ ؛ كالهواتفِ ؛ يعلمُ

---

(١) وينبغي أن يعلم : أنَّ تعبيراتِ المشايخ واقعاتِ المريدين . . ليستْ علىٰ طريقة تعبيراتِ المُعبِّرين مناماتِ العوامِّ على الدوام ؛ فإنَّ العوامَّ شأنُهُم رؤيةُ ما في عالَم الشهادة وما سيقع فيه ، وشأنَ الخواصِّ رؤيةُ ما في عالَم الغيب وعالَم النفس ، وقد يتطابق الآفاقي والأنفسيُّ وقد لا يتطابق ، والفرقُ بين الآفاقي والأنفُسي الصِّرف متعسِّر ، إلا علىٰ مَنْ جرَّب زماناً طويلاً واقعاته ، وميَّز بين مكاشفاته ، وكثيرٌ من الفقراء يَغلَطون في تعبيرات الواقعات ؛ فيحملون الأنفُسي على الآفاقي ، فيصيرون بعدم ظهور الآثار ضُحْكةَ أهل الإنكار ، وهم أحِقَّاءُ بالإعذار ، فيحترز السالك من داعية الاشتهار ، وليُخفِ ما يرىٰ من الأشياء عن الأغيار ، بل عن الأخيار ، قال بعض المشايخ : (سِرُّكَ لا يتجاوز زِرَّك) . من هامش (ح) .

(٢) حتىٰ تسلم من تسويلات الشيطان ؛ فإنَّ المخلصَ محفوظٌ . من هامش (ح) .

(٣) حتىٰ تسلم من تلبيسات النفس ؛ فإنَّ الاستغراقَ يتضمَّن [حضور] المذكور ، وعند ظهور نور المذكور تزول كلمة [النفس] ، فتزول تلبيساتها . من هامش (ح) .

بذلكَ أمراً يُرِيدُ اللهُ إحداثَهُ لهُ ولغيرِهِ ، فيكونُ إخبارُ اللهِ إيَّاهُ بذلكَ مَزِيداً ليقينِهِ ، أو يرىٰ في المنامِ حقيقةَ الشيءِ .

نُقِلَ عن بعضِهِم أنَّهُ أُتِيَ بشرابٍ في قَدَحٍ ، فوَضَعَهُ مِنْ يدِهِ وقالَ قد حَدَثَ في العالَمِ حَدَثٌ ، ولا أشربُ هـٰذا دونَ أنْ أَعْلَمَ ما هوَ ، فانكشفَ لهُ أنَّ قوماً دَخَلُوا مَكَّةَ وفتكُوا فيها .

وحُكِيَ عن أبي سليمانَ الخَوَّاصِ قالَ كنتُ راكباً حماراً لي يوماً ، وكان يُؤذِيهِ الذُّبابُ فيُطأطِئُ رأسَهُ ، فكنتُ أضربُ رأسَهُ بخَشَبةٍ كانتْ في يدي ، فرَفَعَ الحمارُ رأسَهُ إليَّ وقالَ اضْرِبْ ؛ فإنَّكَ علىٰ رأسِكَ تضربُ[1] ، قيلَ لهُ : يا أبا سليمانَ ؛ وَقَعَ لكَ ذلكَ أو سمعتَهُ ؟ فقالَ : سمعتُهُ يقولُ كما سَمِعْتَني[2]

وحُكِيَ عن أحمدَ بنِ عطاءٍ الرُّوذْباريِّ قالَ : كانَ لي مذهبٌ في أَمْرِ الطهارةِ ، فكنتُ ليلةً مِنَ اللَّيالي أستنجي إلىٰ أنْ مضىٰ ثُلُثُ الليلِ ولم يَطِبْ قلبي ، فضَجِرْتُ وبَكَيْتُ وقلتُ : يا ربِّ ؛ العَفْوَ ، فسَمِعْتُ صوتاً ولم أَرَ أحداً يقولُ[3] : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ العَفْوُ في العِلْمِ[4]

---

(١) أي : يصلُ أَثَرُ هـٰذا الضرب إليك وتجدُ غِبَّهُ ؛ لأنِّي ما أُقصِّر في حقِّكَ بحملي إيَّاك مع دفع المُؤذي عنِّي الذي يمنعني عن المشي وأنت تضرب علىٰ رأسي ولا ترحمني ، مع أنَّ الضرب على الرأس منهيٌّ عنه في الشرع ، وهـٰذا من قسم السماع من الغير . من هامش (ح)

(٢) رواه أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٩١) ، ومن طريقه القشيري في « الرسالة » (ص٧١٥ـ٧١٦) ، وعلىٰ هامش (ب) : (بلغ مقابلةً) .

(٣) الجملة صفة لقوله : (صوتاً) .

(٤) رواه أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٩١)، والقشيري في « الرسالة » (ص٧١٥)، ومن طريقه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/ ١٨) ، وزادا : (فزال عنِّي ذلك) .

وقد يُكاشِفُ اللهُ تعالىٰ عبدَهُ بآياتٍ وكراماتٍ ؛ تربيةً للعبدِ ، وتقويةً ليقينِهِ وإيمانِهِ .

قيلَ : كانَ عندَ جَعْفرٍ الخُلْديِّ رحمَهُ اللهُ فَصٌّ لهُ قيمةٌ[1] ، وكانَ يوماً مِنَ الأيّامِ راكباً في السُّمَيْرِيَّةِ في دِجْلةَ[2] ، فَهَمَّ أنْ يُعطِيَ المَلَّاحَ قِطْعَةً ، وحَلَّ الخِرْقةَ ، فوَقَعَ الفَصُّ في دِجْلةَ ، وكانَ عندَهُ دعاءٌ للضَّالَّةِ مُجرَّبٌ ، فكانَ يدعو بهِ ، فوَجَدَ الفَصَّ في وَسَطِ أوراقٍ كانَ يتصفَّحُها

والدُّعاءُ : هوَ أنْ يقولَ : (يا جامعَ النَّاسِ ليومٍ لا رَيْبَ فيهِ ؛ اجمعْ عَلَيَّ ضالَّتي)[3]

وسمعتُ شيخاً بهَمَذَانَ حكىٰ لي أنَّهُ كُوشِفَ في بعضِ خَلَواتِهِ بولدٍ لهُ في جَيْحُونَ كادَ يسقطُ في الماءِ مِنَ السفينةِ ، قالَ : فزَجَرْتُهُ فلم يسقطْ ، وكانَ

---

(١) الفَصُّ ـ بفتح الفاء وكسرها ، والأجود الفتح ـ ما يُركَّب في الخاتم من الحجارة الكريمة .

(٢) في النسخ ما عدا (د) : (السمارية) ، والسُّمَيرية : ضرب صغير من السفن ، وقال الصلاح الصفدي في « تصحيح التصحيف » (ص٣١٩) : (والعامة تقول : « سُمارية » لضرب من السفن بالألف ، والصواب : « سُمَيريَّة » منسوبة إلىٰ من عملها أوَّلَ الناس) .

(٣) أورده أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٩١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٧١٤) ، وقال أبو نصر السرَّاج بعده : (ثمَّ أَوْراني ـ وفي « الرسالة » : « أراني » ـ أبو الطيب العَكِّيُّ جزءاً قد جمع فيه ذكرَ كلِّ ضالَّة ردَّها الله إلىٰ مَنْ دعا بهٰذا الدعاء في مدَّةٍ قليلة ، فنظرت فيه ، وكان أوراقاً كثيرة) .

وقال النووي في « بستان العارفين » (ص١٤٤) : (قلتُ : وقد جرَّبتُ هٰذا الدعاءَ ، فوجدتُهُ نافعاً سبباً لوجود الضالَّة علىٰ قُرْب غالباً ، وأنَّهُ لم ينخرم ، وسمعت شيخنا أبا البقاء يقول نحو ذلك ، وهو عَلَّمنيه أوَّلاً) .

هـٰذا الشخصُ بنواحي هَمَذَانَ وولدُهُ في جَيْحُونَ ، فلمَّا قَدِمَ الولدُ أَخبرَ أنَّهُ كادَ يسقطُ في الماءِ ، فسَمِعَ صوتَ والدِهِ فلم يسقطْ .

وقولُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : (يا ساريةُ ؛ الجَبَلَ) على المِنْبَرِ بالمدينةِ ، وساريةُ بنهاوندَ ، وقد أَخَذَ ساريةُ نحوَ الجبلِ وظَفِرَ بالعَدُوِّ ، فقيلَ لساريةَ كيفَ عَلِمْتَ ذلكَ ؟ فقالَ : سمعتُ صوتَ عُمَرَ وهوَ يقولُ[١] (يا ساريةُ ؛ الجَبَلَ)[٢]

سُئِلَ ابنُ سالمٍ ـ وكانَ قد قالَ الإيمانُ أربعةُ أركانٍ : رُكْنٌ منهُ الإيمانُ بالقُدْرةِ ، ورُكْنٌ منهُ الإيمانُ بالحِكْمةِ[٣] ، ورُكْنٌ منهُ التبرُّؤ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ ، ورُكْنٌ منهُ الاستعانةُ باللهِ عزَّ وجَلَّ في جميعِ الأشياءِ ـ قيلَ لهُ : ما معنىٰ قولِكَ : الإيمانُ بالقدرةِ ؟

فقالَ : هوَ أن تُؤمِنَ ولا تُنكِرَ أَنْ يكونَ للهِ عبدٌ بالمشرقِ نائماً علىٰ يمينِهِ[٤] ، ويكونَ مِنْ كرامةِ اللهِ لهُ أَنْ يُعطِيَهُ مِنَ القُوَّةِ ما ينقلبُ مِنْ يمينِهِ علىٰ يسارِهِ فيكونَ بالمغربِ ؛ تُؤمِنَ بجوازِ ذلكَ وكونِهِ[٥]

وحكىٰ لي فقيرٌ أَنَّهُ كانَ بمكَّةَ ، فأُرجِفَ علىٰ شخصٍ ببغدادَ أَنَّهُ قد

---

(١) طوَّل الله تعالىٰ بساط الامتداد المكانيِّ بالقدرة ، فأسمعه صوت عمر كأنَّهُ في حضوره من هامش (ح) .

(٢) رواه أبو بكر الآجري في « الشريعة » (١٣٦٠) ، واللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة » (٢٥٣٧) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (٢٩٧) .

(٣) في (ب ، ج ، و) : (بالقَدَر . . . بالقدرة) بدل (بالقدرة . . . بالحكمة) .

(٤) في نسخة علىٰ هامش (د) : (قائماً علىٰ يمينه) ، وسقطت هـٰذه العبارة في « اللمع » وجميع النسخ ما عدا (هـ ، ح) .

(٥) رواه أبو نصر السرَّاج في « اللمع » (ص٣٩٠)

ماتَ[١] ، فكاشفَهُ اللهُ تعالىٰ بالرجلِ وهوَ راكبٌ يمشي في سوقِ بغدادَ ، فأَخْبرَ إخوانَهُ أنَّ الشخصَ لم يَمُتْ ، وكانَ كذلكَ ، حتىٰ ذَكَرَ لي هـٰذا الشخصُ أنَّهُ في تلكَ الحالةِ التي كُوشِفَ بالشخصِ راكباً ؛ قالَ : رأيتُهُ في السُّوقِ وأنا أسمعُ بأُذُني صوتَ المِطْرَقَةِ مِنَ الحدَّادِ في سوقِ بغدادَ

وكلُّ هـٰذهِ مواهبُ اللهِ سبحانَهُ ، وقد يُكاشَفُ بها قومٌ ويُعطىٰ ، وقد يكونُ فوقَ هـٰؤلاءِ مَنْ لا يكونُ لهُ شيءٌ مِنْ هـٰذا ؛ لأنَّ هـٰذهِ كلَّها تقويةٌ لليقينِ ، ومَنْ مُنِحَ صِرْفَ اليقينِ لا حاجةَ لهُ إلىٰ شيءٍ مِنْ هـٰذا .

فكلُّ هـٰذهِ الكراماتِ دونَ ما ذَكَرْناهُ ؛ مِنْ تَجَوْهُرِ الذِّكْرِ في القلبِ ، ووجودِ ذِكْرِ الذَّاتِ ؛ فإنَّ تلكَ الحِكْمَةَ فيها تقويةٌ للمُريدينَ ، وتربيةٌ للسَّالكينَ ؛ ليزدادوا بها يقيناً يُجذَبُونَ بهِ[٢] إلىٰ مُراغَمةِ النُّفُوسِ ، والسُّلُوِّ عن مَلاذِّ الدُّنيا ، ويُستنهَضَ منهُم بذلكَ ساكنُ عَزْمِهِم لعِمارةِ الأوقاتِ بالقُرُباتِ ، فيُرَوَّحُونَ بذلكَ ، ويُربَّوْنَ بطريقِهِ ، ومَنْ كُوشِفَ بصِرْفِ اليقينِ أُغنِيَ بهِ مِنْ ذلكَ[٣] ؛ لمكانِ أنَّ نَفْسَهُ أَسْرعُ إجابةً ، وأَسْهلُ انقياداً ، وأَتَمُّ استعداداً ، والأوَّلُونَ استُلِينَ بذلكَ منهم ما استَوْعَرَ ، واستُكشِفَ منهُم ما استَتَرَ .

وقد لا يُمنَعُ صُوَرَ ذلكَ الرَّهابينُ والبراهمةُ ؛ ممَّنْ هوَ غيرُ مُنتهِجٍ سُبُلَ الهُدىٰ ، وراكبٌ طريقَ الرَّدىٰ ؛ ليكونَ ذلكَ في حَقِّهِم مَكْراً واستدراجاً ؛

---

(١) الإرجاف في الأصل : الخوض في أخبار الفتن ونحوها من الأخبار السيئة .

(٢) أي : اليقين ، وفي بعض النسخ (بها) ؛ أي : الحكمة .

(٣) أي : الكرامات ، وقوله : (أُغني به) زيادةٌ من (هـ ، ح) .

ليستحسنُوا حالَهُم ، ويستقِرُّوا في مَقَارِّ الطَّرْدِ والبُعْدِ ؛ إبقاءً لهُم فيما أرادَ اللهُ منهُم مِنَ العمىٰ والضَّلالِ ، والرَّدىٰ والوَبالِ ؛ حتىٰ لا يَغتَرَّ السالكُ بيسيرِ شيءٍ يُفتَحُ لهُ ، ويعلمَ أنَّهُ لو مشىٰ على الماءِ والهواءِ لا ينفعُهُ ذلكَ حتىٰ يُؤدِّيَ حَقَّ التقوىٰ والزُّهْدِ في الدنيا

فأمَّا مَنْ تَعوَّقَ بخيالٍ ، أو قَنَعَ بمُحالٍ ، ولم يُحكِمْ أساسَ خَلْوتِهِ بالإخلاصِ . . فإنَّهُ يدخلُ الخَلْوةَ بالزُّورِ ، ويخرجُ بالغُرُورِ ، فيرفضُ العباداتِ ويستحقرُها ، ويَسلُبُهُ اللهُ لَذَّةَ المُعامَلةِ ، ويُذهِبُ عن قلبِهِ هيبةَ الشريعةِ ، ويُفتضَحُ في الدنيا والآخرةِ .

فَلْيعلَمِ الصادقُ : أنَّ المقصودَ مِنَ الخَلْوةِ : التَّقَرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بعِمارةِ الأوقاتِ ، وكَفُّ الجوارحِ عنِ المكروهاتِ

فيصلُحُ لقومٍ مِنْ أربابِ الخَلْوةِ إدامةُ الأورادِ وتوزيعُها على الأوقاتِ ، ويصلُحُ لقومٍ مُلازَمةُ ذِكْرٍ واحدٍ ، ويصلُحُ لقومٍ دوامُ المُراقبةِ ، ويصلُحُ لقومٍ الانتقالُ مِنَ الذِّكْرِ إلىَ الأورادِ ، ولقومٍ الانتقالُ مِنَ الأورادِ إلى الذِّكْرِ

ومعرفةُ مقاديرِ ذلكَ يعلمُها الشيخُ المصحوبُ المُطَّلِعُ على اختلافِ الأوضاعِ وتنوُّعِها ، معَ نُصْحِهِ للأُمَّةِ وشَفَقتِهِ على الكافَّةِ ، يريدُ المُريدَ للهِ لا لنَفْسِهِ ، غيرَ مُبتلىً بهوىٰ نَفْسِهِ ، ولا مُحِبٍّ للاستتباعِ ، فما يُفسِدُهُ مِثْلُ هٰذا أكثرُ مِمَّا يُصلِحُهُ ، اللَّهمَّ ؛ احفَظْنا[1]

❁ ❁ ❁

---

(١) في هامش (ب) : (بلغ قراءةً) ، وفيه : (بلغ السماع للجماعة على الشيخ أمين الدين ، بقراءة كاتبه عبد السلام) .

الباب الثامن والعشرون

في كيفية الدخول في الأربعينية

رُوِيَ أنَّ داودَ عليهِ السلامُ لمَّا ابتُليَ بالخطيئةِ خرَّ للهِ ساجداً أربعينَ يوماً وليلةً حتىٰ أتاهُ الغُفْرانُ مِنْ ربِّهِ(١)

قالَ الشيخُ رضيَ اللهُ عنهُ : قد تقرَّرَ أنَّ الوَحْدةَ والعُزْلةَ مِلاكُ الأمرِ ، ومُتمسَّكُ أربابِ الصِّدقِ ، فمَنِ استمرَّتْ أوقاتُهُ علىٰ ذلكَ . . فجميعُ عُمُرِهِ خلوةٌ ، وهوَ الأسلمُ لدينِهِ ، فإنْ لم يتيسَّرْ لهُ ذلكَ ، وكانَ مُبتلىً بنفسِهِ أوَّلاً ، ثمَّ بالأهلِ والأولادِ ثانياً . . فليجعلْ لنفسِهِ مِنْ ذلكَ نصيباً

نُقِلَ عن سفيانَ الثَّوْريِّ رحمَهُ اللهُ فيما روىٰ أحمدُ بنُ حَرْبٍ عن خالدِ بنِ زيدٍ عنهُ أنَّهُ قالَ : (كانَ يُقالُ : **ما أَخْلصَ عبدٌ للهِ أربعينَ صباحاً . . إلا** أَنْبتَ اللهُ الحكمةَ في قلبِهِ ، وزهَّدَهُ اللهُ تعالىٰ في الدنيا ، ورغَّبَهُ في الآخرةِ ،

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٢ ، ٤٧٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٣٨٥) ، **والصحيح** : أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الصغائر قبل النبوة وبعدها ، قال القاضي عياض في « الشفاء » (ص٦٩٤) : (وأمَّا قصَّةُ داود عليه السلام . . فلا يجب أن يُلتفت إلىٰ ما سطَّره فيها الإخباريُّون عن أهل الكتاب الذين بدَّلوا وغيَّروا ، ونقله بعض المُفسِّرين ، ولم ينصَّ الله علىٰ شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح) .

وبصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ[1] ، وبصَّرَهُ بداءِ الدنيا ودوائِها[2]

فلْيتعاهَدْ هـٰذا العبدُ نَفْسَهُ في كلِّ سنةٍ مرَّةً[3]

وأمَّا المُرِيدُ الطالبُ إذا أرادَ أنْ يدخلَ الخَلْوةَ[4] . . فأكملُ الأمرِ في ذلكَ[5] أنْ يتجرَّدَ مِنَ الدنيا ، ويُخرِجَ كلَّ ما يملكُهُ ، ويغتسلَ غُسْلاً كاملاً بعدَ الاحتياطِ للثوبِ والمُصلَّىٰ بالنظافة والطهارةِ ، ويُصلِّيَ ركعتَينِ ، ويتوبَ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ ذنوبِهِ ببكاءٍ وتضرُّعٍ ، واستكانةٍ وتَخَشُّعٍ ، ويُسوِّيَ بينَ السَّريرةِ والعَلانيةِ ، ولا ينطويَ علىٰ غِلٍّ وغِشٍّ وحِقْدٍ وحسدٍ وخيانةٍ

ثمَّ يقعدَ في موضعِ خَلْوتِهِ ، ولا يخرجَ إلا لصلاةِ الجمعةِ وصلاةِ

---

(١) هـٰذه الجملة زيادة من (د) .

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٨٧) عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ

(٣) فينقطعُ إلى الله ، ويشتغلُ بملازمة طاعته ، ويُجرِّبُ أحواله ، ويُفتِّشُ عمَّا عليه وما له ، فيعرفُ الزيادةَ من النقصان ، فيتداركُ ما أصابه من الخسران ، قبلَ وقوع الحِرْمان والخِذْلان ، أعاذنا الله منهما . من هامش (ح)

(٤) المريد الحقيقي : هو الذي يطلبُ اللهَ وحدَهُ ، فيتركُ ما سواه ، ويشتغلُ بالله على الإخلاص التامِّ والصِّدقِ الشامل ، غيرَ مُلتفتٍ إلىٰ عِوَض وغَرَض ، مع التسليم الدائم وعُلُوِّ الهِمَّة من هامش (ح) .

(٥) إنَّما قال : (أكمل الأمر) ؛ لأنَّ الطالبَ كما وصفنا يريدُ الوصول إلى الله ، فلا بدَّ له أن يترك ما يحجبُهُ عن الله ويُعوِّقُهُ عن ملازمة الله ، ولا شك أنَّ الدنيا هي الشبكة التي يصطادُ بها الشيطانُ الإنسانَ ، ويوقعه مواقع الحجاب والحرمان ، ويُزيِّن [للنفس] ما فيها من المشاهي والملاذِّ ، فمَنْ ترك الدنيا ولم يتجرَّد عنها ودخل في الخلوة . . لم يتمَّ أمرُهُ ، ولا يتخلَّص سرُّهُ ، وربَّما يقوم الشيطان بداعية الرئاسة وطلب المنزلة عند الناس ، [فيحيلُهُ] إلىٰ خوارق العادات ، ويُريه بواطلَ الخيالات ، ويجعلُهُ منشأ الضلالات ، وكلُّ هـٰذه المصائب وغيرها من الميل إلى الدنيا ، فلا بُدَّ من تركها مالِها وجاهِها . من هامش (ح)

الجماعةِ[1] ، وتركُ المحافظةِ علىٰ صلاةِ الجماعةِ غَلَطٌ وخطأٌ ، فإنْ وَجَدَ تفرقةً في خروجِهِ يكونُ لهُ شخصٌ يُصلِّي معَهُ جماعةً في خلوتِهِ[2] ، ولا ينبغي أنْ يرضىٰ بالصلاةِ مُنفرِداً البتَّةَ ؛ فإنَّ بتركِ الجماعةِ يُخشىٰ عليهِ آفاتٌ[3] ، وقد رَأَيْنا مَنْ يتشوَّشُ عقلُهُ في خَلْوتِهِ ، ولعلَّ ذلكَ بشؤمِ إصرارِهِ علىٰ تركِ صلاةِ الجماعةِ

غيرَ أنَّهُ ينبغي أنْ يخرجَ مِنْ خلوتِهِ لصلاةِ الجماعةِ وهوَ ذاكرٌ لا يَفْتُرُ عنِ الذكرِ[4] ، ولا يُكثِرَ إرسالَ الطَّرْفِ إلىٰ ما يرىٰ ، ولا يُصغِيَ إلىٰ ما يسمعُ ؛ لأنَّ القوَّةَ الحافظةَ والمُتخيِّلةَ كلوحٍ ينتقشُ بكلِّ مَرْئيٍّ ومسموعٍ ، فيكثُرُ لهُ لذلكَ الوَسْواسُ وحديثُ النفسِ والخيالُ[5]

ويجتهدُ أنْ يحضرَ الجماعةَ[6] بحيثُ يُدرِكُ معَ الإمامِ تكبيرةَ الإحرامِ ،

---

(١) فإنَّهُ إذا خرج لغير الصلاة فلا بدَّ مِنْ أن يشتغل بشيء يُفرِّقُ ضميره ويُفتِّر عزمه . من هامش (ح) .

(٢) والأَوْلىٰ : أن يكون شخصان يُصلِّيان معه . من هامش (ح)

(٣) فإنَّ متابعةَ السُّنَّةِ حِصْنٌ حَصينٌ للقلب والعقل والدماغ ، يستمدُّ حفظها من طوارق الشيطان ، ودواخلِ الآفات والخذلان . من هامش (ح) .

(٤) الذكرُ برفعِ الصوتِ جائزٌ بل مُستحبٌّ إذا لم يكن عن الرياء ؛ لتعليمِ الناس لإظهار الدين ، ووصولِ بركة الذكر إلى السامعين ؛ في الدُّور والبيوت والحيوانات ؛ وليوافق القائل من يسمع صوته ، ويشهدَ له يوم القيامة كلُّ رطبٍ ويابس سَمِعَ صوته ، وبعضُ المشايخ يختارُ إخفاءَ الذكر ؛ لأنَّهُ أبعدُ من الرياء ، وهـٰذا يتعلَّقُ بالنِّيَّة ؛ فمَنْ كان له نيَّةٌ صادقة فرَفْعُ صوتِهِ بقراءة القرآن والذكر أَوْلىٰ ؛ لما ذكرنا ، ومَنْ خاف من نفسه الرياءَ فالأَوْلىٰ إخفاءُ الذكر ؛ كيلا يقعَ في الرياء من هامش (ح) .

(٥) أي : بعد العود إلى الخلوة والاشتغال بالذكر . من هامش (ح) .

(٦) لينال تلك الفضيلة التي هي خير من الدنيا وما فيها . من هامش (ح) .

فإذا سَلَّمَ الإمامُ وانصرفَ ينصرفُ إلىٰ خَلْوتهِ

ويتَّقي في خروجِهِ استحلاءَ نَظَرِ الخَلْقِ إليهِ ، وعلمَهُم بجلوسِهِ وخَلْوتِهِ ؛ فقد قيلَ : (لا تطمَعْ في المنزلةِ عندَ اللهِ وأنتَ تُرِيدُ المنزلةَ عندَ الناسِ)[١]

وهٰذا[٢] أصلٌ ينفسدُ بهِ كثيرٌ مِنَ الأعمالِ إذا أُهمِلَ[٣] ، وينصلحُ بهِ كثيرٌ مِنَ الأحوالِ إذا اعتُبِرَ[٤]

ويكونُ في خَلْوتِهِ جاعلاً وقتَهُ شيئاً واحداً موهوباً للهِ تعالىٰ بإدامةِ فِعْلِ الرِّضا ؛ إمَّا تلاوةً ، أو ذِكْراً ، أو صلاةً ، أو مُراقبةً[٥] ، وأيَّ وقتٍ فَتَرَ عن هٰذهِ الأقسامِ ينامُ[٦] ، فإنْ أرادَ أن يُعيِّنَ أعداداً مِنَ الرَّكعاتِ ومِنَ التِّلاوةِ والذِّكْرِ شيئاً فشيئاً . فعَلَ ، وإنْ أرادَ أنْ يكونَ بحُكْمِ الوقتِ يعتمدُ أَخَفَّ

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص٤٠٧) ، ومن طريقه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٦٣) عن أبي بكر ابن يَزْدَانيار رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أي : اتقاءُ استحلاء نظر الخلق . من هامش (ح) .

(٣) قوله (الأعمالِ) ؛ أي : الأعمالِ الظاهرةِ التي يطَّلع عليها الخلقُ ، لا الأعمالِ المستورةِ عمَّا سوى الحق . من هامش (ح) ، وانظر ما سبق تعليقاً في (١/ ٣٩١) حول الفعل (ينفسد) .

(٤) لأنَّهُ إذا تَرَكَ ملاحظةَ الخلق واستحلاءَ نظرهم إليه .. انصلح حالُ صدقه وإخلاصِهِ ومحبَّتِهِ . من هامش (ح) .

(٥) يعني : صاحبُ الخلوة ينبغي أن يجعلَ جميعَ أوقاتِهِ في خلوته لله تعالىٰ ؛ بأنْ يصرفَهُ فيما يرضىٰ به الله تعالىٰ من أنواع الطاعات والعادات ؛ بحيثُ تصيرُ عادتُهُ من الأكل والشرب والنوم عبادةً ؛ طلباً لرضا الله تعالىٰ ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « نومُ العالِمِ عبادةٌ ، ونَفَسُهُ تسبيحٌ » . من هامش (ج) .

(٦) فإنَّ النوم عونٌ له يُجدِّد النشاط ، والعملُ إذا كان مع النشاط أكثرُ قبولاً ، [وهو] معنىٰ ما قال عيسىٰ عليه السلام : (حبَّذا نومُ الأكياس وفِطْرُهم) . من هامش (ح)

ما على قلبِهِ مِنْ هـٰذهِ الأقسامِ . . فَعَلَ ، فإذا فَتَرَ عن ذلكَ ينامُ ، وإنْ أرادَ أنْ يبقىٰ في سجودٍ واحدٍ أو ركوعٍ واحدٍ أو ركعةٍ واحدةٍ أو ركعتَينِ ساعةً أو ساعتَينِ . . فَعَلَ .

ويُلازِمُ في خَلْوتهِ إدامةَ الوضوءِ[1] ، ولا ينامُ إلا عن غَلَبَةٍ بعدَ أنْ يدفعَ النومَ عن نَفْسِهِ مرَّاتٍ ، فيكونُ هـٰذا شُغْلَهُ ليلَهُ ونهارَهُ[2]

وإذا كـانَ ذاكـراً لكلمـةِ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، وسَئِمَـتِ النفـسُ الـذِّكْـرَ باللِّسانِ . . يقولُها بقلبِهِ مِنْ غيرِ حركةِ اللِّسانِ ، وقد قال سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (إذا قلتَ : « لا إلـٰهَ إلا اللهُ » مُدَّ الكلمةَ ، وانظُرْ إلىٰ قِدَمِ الحقِّ فأَثْبِتْهُ وأَبْطِلْ ما سواهُ)[3]

ولْيَعلَمْ : أنَّ الأمرَ كالسِّلْسِلةِ تتداعىٰ حَلْقةً حَلْقةً ، فليكُنْ دائمَ التلزُّمِ بفعلِ الرِّضا[4]

---

(١) فإنَّ للوضوء نوراً عظيماً يذبُّ الشيطان منه ، وهو سلاحه . من هامش (ح) .

(٢) والذي وقع [بالتجربة] : أنَّ المبتدئَ إذا اختلىٰ لا بدَّ له من رعاية الشرائط الجُنيدية ؛ لأنَّهُ مُحتاجٌ إلىٰ تسخير الطبع الحيواني ، وذا بترك المنام مطلقاً ، وأمَّا المُتوسِّطُ صاحبُ القلب المسخر للطبع له أن ينام عن غلبةٍ لدفع ثِقَلِ النفس عن القلب ، وتخليصِ القلب عن تقاضي النفسِ حقَّها . من هامش (ح) .

(٣) يعني : بكلمة (لا إلـٰهَ) : ينفي عن القلب ما سواه ، ويطرحه علىٰ قفاه ، وبكلمة (إلا الله) : يُثبِتُ قدم الله بنعت (كان الله ولم يكن معه شيءٌ ، والآن كما كان) . من هامش (ج) .

(٤) من غير استعجال واستبطاء ، ومن [غير] تضجُّر وتسخُّط بالسَّدِّ والصَّدِّ وزوالِ الحال ، بل يكونُ دائمَ الرضا بما يفعلُهُ المحبوبُ المولىٰ ، وقد قيل : (الهجرُ باختيار المحبوبِ خيرٌ من الوصل باختيار المُحِبِّ) ، وهـٰذا لأنَّ اختيارَ المُحِبِّ بوجوده ، ووجوده حجاب علىٰ مشهوده . من هامش (ح)

وأمَّا قوتُ مَنْ في الأربعينيَّةِ والخَلْوةِ : فالأَوْلىٰ أنْ يقنعَ بالخُبْزِ والمِلْحِ[1] ، ويتناولَ كلَّ ليلةٍ رَطْلاً واحداً ، يتناولُهُ بعدَ العِشاءِ الآخِرةِ ، وإنْ قسمَهُ نصفَينِ يأكلُ أوَّلَ الليلِ نصفَ رِطلٍ ، وآخرَ الليلِ نصفَ رَطْلٍ ، فيكونُ ذلكَ أخفَّ للمَعِدَةِ ، وأعونَ علىٰ قيامِ الليلِ وإحيائِهِ بالذكرِ والصلاةِ ، وإنْ أرادَ أَخَّرَ فُطُورَهُ إلى السَّحَرِ

وإنْ لمْ يَصبِرْ علىٰ تَرْكِ الإدامِ . . يتناولُ الإدامَ ، وإنْ كانَ الإدامُ شيئاً يقومُ مَقامَ الخبزِ . . يَنقُصُ مِنَ الخبزِ بقَدْرِ ذلكَ ، وإنْ أرادَ التقلُّلَ مِنْ هٰذا القَدْرِ أيضاً . . ينقُصُ كلَّ ليلةٍ دونَ اللُّقْمةِ ؛ بحيثُ ينتهي تقلُّلُهُ في العَشْرِ الأخيرِ مِنَ الأربعينَ إلىٰ نصفِ رَطلٍ .

وإنْ قَوِيَ قَنَّعَ النفسَ بنصفِ رَطلٍ مِنْ أوَّلِ الأربعينَ ، ونَقَصَ يسيراً كلَّ ليلةٍ بالتدريجِ ، حتىٰ يُعيدَ فُطُورَهُ إلىٰ ربعِ رَطلٍ في العشرِ الأخيرِ

وقدِ اتَّفقَ مشايخُ الصُّوفيَّةِ علىٰ أنَّ بناءَ أمرِهِم علىٰ أربعةِ أشياءَ قِلَّةِ الطعامِ ، وقِلَّةِ المنامِ ، وقِلَّةِ الكلامِ ، والاعتزالُ عنِ الناسِ .

وقد جُعِلَ للجوعِ وقتانِ :

أحدُهُما : آخرُ الأربعِ وعشرينَ ساعةً ، فيكونُ الرَّطلُ لكلِّ ساعةٍ نصفَ أُوقيَّةٍ بأكلةٍ واحدةٍ[2] ، يجعلُها بعدَ العشاءِ الآخِرةِ ، أو يقسمُها أكلتَينِ كما ذَكَرْنا .

---

(١) لأنَّ الاقتصارَ علىٰ حدِّ الضرورة من ضرورة حال الطالب المُحِبِّ ، وما عدا الخبزَ والملحَ ليس بضروريٍّ ، والملحُ لرعاية السُّنَّة . من هامش (ح) .

(٢) في (أ ، ز) : (سدس أوقية) بدل (نصف أوقية) ، وفي (ج ، هـ ، و ، ي) : =

والوقتُ الآخَرُ على رأسِ اثنتينِ وسبعينَ ساعةً ، فيكونُ الطَّيُّ ليلتَينِ والإفطارُ في الليلةِ الثالثةِ[١] ، ويكونُ لكلِّ يومٍ وليلةٍ ثلثُ رِطلٍ .

وبينَ هـٰذَينِ الوقتَينِ وقتٌ ؛ وهو أنْ يُفطِرَ مِنْ كلِّ ليلتَينِ ليلةً ، ويكونَ لكلِّ يومٍ وليلةٍ نصفُ رِطلٍ .

وهـٰذا ينبغي أنْ يفعلَهُ إذا لم يُنتِجْ ذلكَ عليهِ سآمةً وضَجَراً ، وقِلَّةَ انشراحٍ في الذِّكْرِ والمُعاملةِ ، فإذا وَجَدَ شيئاً مِنْ ذلكَ فليُفطِرْ كلَّ ليلةٍ ويأكلِ الرِّطلَ في الوقتَينِ أو وقتٍ واحدٍ .

والنَّفْسُ إذا أخذتْ بالإفطارِ مِنْ كلِّ ليلتَينِ ليلةً ، ثمَّ رُدَّتْ إلىٰ إفطارِ كلِّ ليلةٍ . . تقنعُ ، وإنْ سُومِحَتْ بإفطارِ كلِّ ليلةٍ . . لا تقنعُ بالرِّطلِ وتطلبُ الإدامَ والشهواتِ ، وقِسْ علىٰ هـٰذا ؛ فهي إن أُطمِعَتْ طَمِعَتْ ، وإنْ قُنِّعَتْ قَنِعَتْ[٢] .

وقد كانَ بعضُهُم يَنقُصُ كلَّ ليلةٍ حتىٰ يَرُدَّ النَّفْسَ إلىٰ أقلِّ قُوتِها .

ومِنَ الصالحينَ مَنْ كانَ يُعيِّرُ القُوتَ بنَوى التمرِ ؛ يَنقُصُ كلَّ ليلةٍ نَواةً .

ومنهُم مَنْ كانَ يُعيِّرُ بعُودٍ رَطْبٍ ، وينقُصُ كلَّ ليلةٍ بقَدْرِ نَشافِ العُودِ

= (أوقية) ، وكذلك في (د) إلا أن فيها : (ساعتين) بدل (ساعة) ، والأُوقيَة : ربع رطل ، والرطل : مئة وثلاثون ـ وقيل : مئة وثمانية وعشرون ـ درهماً ، والدرهم : ثلاثة غرامات تقريباً

(١) في غالب النسخ : (فيكون طيَّ) بدل (فيكون الطي) .

(٢) في هامش (و) : وفيه قيل وأنشد : [من الطويل]

وما النَّفْسُ إلَّا حيثُ يجعلُها الفتىٰ فـإنْ أُطمِعَـتْ تـاقَـتْ وإلَّا تَسَلَّـتِ

ومنهُم مَنْ كانَ يَنقُصُ كلَّ ليلةٍ ربعَ سُبُعِ الرَّغيفِ ، حتىٰ يفنى الرغيفُ في شهرٍ

ومنهُم مَنْ كانَ يُؤخِّرُ الأكلَ ، ولا يعملُ في تقليلِ القوتِ ، ولـٰكن يعملُ في تأخيرِهِ بالتدريجِ ، حتىٰ تندرجَ ليلةٌ في ليلةٍ ، وقد فَعَلَ ذلكَ طائفةٌ حتى انتهىٰ طَيُّهُم إلىٰ سبعةِ أيامٍ ، وعشرةِ أيامٍ ، وخمسةَ عشرَ يوماً ، إلىٰ أربعينَ

وقد قيلَ لسهلِ بنِ عبدِ اللهِ : هـٰذا الذي يأكلُ في كلِّ أربعينَ وأكثرَ أكلةً أينَ يذهبُ لَهَبُ الجوعِ عندَهُ ؟ قالَ : يُطفِئُهُ النورُ .

وقد سألتُ بعضَ الصالحينَ عن ذلكَ ، فذَكَرَ لي كلاماً بعبارةٍ دَلَّتْ علىٰ أنَّهُ يجدُ فَرَحاً بربِّهِ ينطفئُ معَهُ لَهَبُ الجوعِ ، وهـٰذا في الخَلْقِ واقعٌ ؛ أنَّ الشخصَ يَطرُقُهُ فَرَحٌ وقد كانَ جائعاً ، فيذهبُ عنهُ الجوعُ ، وهـٰكذا في طَرَفِ الخوفِ يقعُ ذلكَ .

ومَنْ فَعَلَ ذلكَ ودَرَّجَ نَفْسَهُ في شيءٍ مِنْ هـٰذهِ الأقسامِ التي ذَكَرْناها . . لا يُؤثِّرُ ذلكَ في نقصانِ عقلِهِ واضطرابِ جسمِهِ ، إذا كان في حمايةِ الصِّدقِ والإخلاصِ ، وإنَّما يُخشىٰ في ذلك وفي دوامِ الذِّكْرِ علىٰ مَنْ لا يُخلِصُ للهِ تعالىٰ .

وقد قيلَ : (حدُّ الجوعِ : أَلَّا يُميِّزَ بينَ الخبزِ وغيرِهِ ممَّا يُؤكَلُ ، ومتىٰ عيَّنتِ النَّفْسُ الخبزَ فليسَ بجائعٍ)[1]

وهـٰذا المعنىٰ قد يوجدُ في آخرِ الحدَّينِ بعد ثلاثةِ أيامٍ ، وهـٰذا جوعُ

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/١٣٧٣) ، والغزالي في « الإحياء » (٥/٣٢٢) .

الصِّدِّيقينَ ، وطلبُ الغذاءِ عندَ ذلكَ يكونُ ضرورةً لِقوامِ الجسدِ والقيامِ بفرائضِ العُبُوديَّةِ ، ويكونُ هـٰذا حدَّ الضرورةِ لمَنْ لا يجتهدُ في التقليلِ بالتدريجِ ، فأمَّا مَنْ دَرَّجَ نَفْسَهُ في ذلكَ فقد يصبرُ علىٰ أكثرَ مِنْ هـٰذا إلى الأربعينَ كما ذَكَرْنا .

وقد قالَ بعضُهُم : (حدُّ الجوعِ : أنْ يبزُقَ ؛ فإذا لم يقعِ الذُّبابُ علىٰ بُزاقِهِ[1] . . يَدُلُّ علىٰ خُلُوِّ المَعِدَةِ مِنَ الدُّسُومةِ ، وصفاءُ البُزاقِ كالماءِ الذي لا يَقصِدُهُ الذُّبابُ)[2]

رُوِيَ أنَّ سفيانَ الثَّوْريَّ وإبراهيمَ بنَ أدهمَ رحمَهُما اللهُ كانا يَطْوِيانِ ثلاثاً ثلاثاً[3]

وكانَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ يَطْوِي ستّاً[4] .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ رضيَ اللهُ عنهُ يَطْوِي سبعةَ أيامٍ[5]

واشتَهَرَ حالُ جدِّنا محمَّدِ ابنِ عبدِ اللهِ المعروفِ بـ (عَمُّويَه) ، وكانَ

---

(١) زاد في نسخة علىٰ هامش (د) : (فهو جائع فإنه)

(٢) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٣٧٤) ، والغزالي في « الإحياء » (٥/ ٣٢٣) ، وقال بعده : (ومعرفة ذلك غامض ؛ فالصوابُ للمريد : أن يُقدِّرَ مع نفسه القَدْرَ الذي لا يُضعِفُهُ عن العبادة التي هو بصددها ، فإذا انتهىٰ إليه وقفَ وإنْ بَقِيتْ شهوتُهُ) .

(٣) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٣٧٦) ، والغزالي في « الإحياء » (٥/ ٣٢٥) .

(٤) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٣٧٦) ، والغزالي في « الإحياء » (٥/ ٣٢٥) .

(٥) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٣٧٦) ، والغزالي في « الإحياء » (٥/ ٣٢٥)

صاحبَ أحمدَ الأسودِ الدِّينَوَريِّ . . أنَّهُ كانَ يَطْوِي أربعينَ يوماً

وأقصىٰ ما بَلَغَ في هـٰذا المعنىٰ مِنَ الطَّيِّ : رجلٌ أَدْرَكْنا زمانَهُ وما رَأَيْناهُ ، كانَ في أَبْهَرَ ، يُقالُ لهُ : الزاهدُ خليفةُ ؛ كانَ يأكلُ في كلِّ شهرٍ لَوْزَةً ، ولم نسمعْ أنَّهُ بَلَغَ في هـٰذهِ الأُمَّةِ أحدٌ بالطَّيِّ والتدريجِ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، وكانَ في أولِ أمرِهِ علىٰ ما حُكِيَ ينقُصُ القوتَ بنَشَافِ العُودِ ، ثمَّ طوىٰ حتى انتهىٰ إلى اللَّوْزةِ في الأربعينَ[1]

فقد سَلَكَ هـٰذا الطريقَ[2] جمعٌ مِنَ الصادقينَ ، وقد يسلُكُ غيرُ الصادقِ هـٰذا ؛ لوجودِ هوىً مُستكِنٍّ في باطنِهِ ، يُهوِّنُ عليهِ تركَ الأكلِ إذا كانَ لهُ استحلاءُ نَظَرِ الخَلْقِ ، وهـٰذا عينُ النفاقِ[3] ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ .

والصادقُ ربَّما يَقدِرُ على الطَّيِّ إذا لم يعلمْ بحالِهِ أحدٌ ، وربَّما يَضعُفُ إذا عُلِمَ بأنَّهُ يَطوِي ؛ فإنَّ صدقَهُ في الطَّيِّ ونَظَرَهُ إلىٰ مَنْ يَطْوِي لأجلِهِ . . يُهوِّنُ عليهِ الطَّيَّ ، فإذا عَلِمَ بهِ أحدٌ تَضعُفُ عزيمتُهُ في ذلكَ ، وهـٰذا علامةُ الصادقِ ، فمهما أَحَسَّ في نفسِهِ أنَّهُ يُحِبُّ أنْ يُرىٰ بعينِ التقلُّلِ . . فليتَّهِمْ نَفْسَهُ ؛ فإنَّ فيهِ شائبةَ نفاقٍ

ومَنْ يَطْوِي للهِ خالصاً يُعوِّضُهُ اللهُ تعالىٰ فَرَحاً في باطنِهِ يُنسِيهِ الطعامَ ، وقد لا ينسى الطعامَ ، ولـٰكن لامتلاءِ قلبِهِ بالأنوارِ يَقْوىٰ جاذبُ الرُّوحِ

---

(١) ذكر الغزالي في « الإحياء » (٥/٣٢٦) أنَّ بعض رجال هـٰذه الطائفة طوىٰ إلىٰ ستين يوماً ، وأورد في ذلك قصة عجيبة .

(٢) أي : التقليل والطيّ . من هامش (ح) .

(٣) لأنَّهُ جَمَعَ بين نَظَرِ الخَلْقِ ونَظَرِ الحقِّ ؛ كالمنافق الذي يجمع بين مصلح الكفر والإيمان . من هامش (ح) .

الرُّوحانيُّ ، فيَجذِبُهُ إلىٰ مركزِهِ ومُستقَرِّهِ مِنَ العالَمِ الرُّوحانيِّ ، ويقفو بذلكَ عن أرضِ الشهوةِ النَّفْسانيَّةِ(١)

وما أَثَرُ جاذبِ الرُّوحِ إذا تخلَّفَ عنهُ جاذبُ النَّفْسِ عندَ كمالِ طُمَأْنينتِها ، وانعكاسِ أنوارِ الرُّوحِ عليها بواسطةِ القَلْبِ المُستنيرِ . . بأقلَّ مِنْ جاذبِ المِغْناطِيسِ للحديدِ ؛ إذِ المِغْناطيسُ يَجذِبُ الحديدَ لرُوحٍ في الحديدِ مُشاكِلٍ للمِغْناطِيسِ ، يَجذِبُهُ بنسبةِ الجِنْسيَّةِ الخاصَّةِ .

فإذا تجنَّستِ النَّفْسُ بانعكاسِ نُورِ الرُّوحِ الواصلِ إليهِ بواسطةِ القلبِ . . يصيرُ في النَّفْسِ رُوحٌ استمدَّها القلبُ مِنَ الرُّوحِ ، وأدَّاها إلى النَّفْسِ ، فيَجذِبُ الرُّوحُ النَّفْسَ بجِنْسيَّةِ الرُّوحِ الحادثِ فيها ، فتَزْدَري الأطعمةَ الدُّنيويَّةَ والشَّهواتِ الحيوانيَّةَ ، ويتحقَّقُ عندَهُ معنىٰ قولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَبيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي »(٢)

ولا يَقدِرُ علىٰ ما وَصَفْناهُ(٣) إلا عبدٌ تصيرُ أعمالُهُ وأقوالُهُ وسائرُ أحوالِهِ ضرورةً ، فيتناولُ مِنَ الطعامِ أيضاً ضرورةً ، ولو تكلَّمَ مثلاً بكلمةٍ مِنْ غيرِ ضرورةٍ . . التهبَ فيهِ نارُ الجوعِ التهابَ الحَلْفاءِ بالنارِ(٤) ؛ لأنَّ النَّفْسَ الراقدةَ

---

(١) يقفو : يتباعد .

(٢) رواه البخاري (١٩٦٥) ، ومسلم (١١٠٣) ، والبزار في « مسنده » (٩٠٠٨) واللفظ له عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) من الطي والتدريج ونسيان الطعام ، وامتلاء القلب بالأنوار . من هامش (ح) .

(٤) الحَلْفاء : نوع من النبات المُرّ ، وقلَّما تنبت إلا قريباً من ماء أو بطن واد ، وهي غليظة المَسّ ، لا يكاد أحدٌ يقبض عليها مخافةَ أن تقطع يده ، وقد يأكل منها الإبل والغنم أكلاً قليلاً ، وهي أحبُّ نبتٍ إلى البقر

تستيقظُ بكلِّ ما يُوقِظُها[1] ، وإذا استيقظتْ انتزعَتْ إلىٰ هواها

فالعبدُ المُرادُ بهٰذا[2] إذا فَطِنَ لسياسةِ النَّفْسِ[3] ، ورُزِقَ العِلْمَ. . سَهُلَ عليهِ الطَّيُّ ، وتداركَهُ المعونةُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، لا سيَّما إنْ كُوشِفَ بشيءٍ مِنَ المِنَحِ الإلٰهيَّةِ[4]

وقد حكىٰ لي فقيرٌ أنَّهُ اشتدَّ بهِ الجوعُ ، وكانَ لا يطلبُ ولا يتسبَّبُ ، قالَ : فلمَّا انتهىٰ جُوعي إلى الغايةِ بعدَ أيَّامٍ. . فُتِحَ عليَّ بتُفَّاحةٍ ، قالَ تناولتُ التُّفَّاحةَ وقصدتُ أكلَها ، فلمَّا كسرتُها كُوشِفْتُ بحَوْراءَ نظرتُ إليها عَقِيبَ كَسْرِ التُّفَّاحةِ ، فحَدَثَ عندي مِنَ الفَرَحِ بذلكَ ما استغنيتُ بهِ عنِ الطعامِ أيَّاماً ، وذَكَرَ لي أنَّ الحَوْراءَ خرجتْ مِنْ وَسَطِ التُّفَّاحةِ

والإيمانُ بالقُدْرةِ ركنٌ مِنْ أركانِ الإيمانِ ، فسَلِّمْ ولا تُنكِرْ

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ طَوَىٰ أربعينَ يوماً ظهرتْ لهُ القُدْرةُ مِنَ المَلَكُوتِ)[5]

وكانَ يقولُ (لا يزهدُ العبدُ حقيقةَ الزُّهْدِ الذي لا مَثْنَوِيَّةَ فيهِ[6]. .

---

(١) من مَشَاهِيها ، وشهوةُ الكلام لها قوة عظيمة كشهوة الطعام ، بل في بعضٍ أقوىٰ . من هامش (ح) .

(٢) أي : الطيِّ والتقليل بالتدريج . من هامش (ح) .

(٣) وضبطِها وإيقافِها علىٰ حدِّ الضرورة . من هامش (ح)

(٤) بورود الأنوار ، ومعرفة الأسرار والتجلِّيات ، وسائر الكرامات . من هامش (ح) .

(٥) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٣٧٦) ، والغزالي في « الإحياء » (٥/ ٣٢٥) دون نسبة ، وقال في تفسير قوله : (ظهرت له قدرةٌ من الملكوت) (أي : كُوشِفَ ببعض الأسرار الإلٰهيَّةِ) .

(٦) في (ج) و« القوت » : (مشوبة) بدل (مثنوية)

إلا بمُشاهدةِ قُدْرةٍ مِنَ المَلَكُوتِ)[١]

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المَكِّيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : (عَرَفْنا مَنْ طَوَىٰ أربعينَ يوماً برِياضةِ النَّفْسِ في تأخيرِ القوتِ ؛ كانَ يُؤَخِّرُ فِطْرَهُ كلَّ ليلةٍ إلىٰ نصفِ سُبُعِ الليلِ ، حتىٰ يطويَ ليلةً في نصفِ شهرٍ ، فيَطْوي الأربعينَ في سنةٍ وأربعةِ أشهرٍ ، فتندرجُ الأيامُ والليالي حتىٰ تكونَ الأربعونَ بمنزلةِ يومٍ واحدٍ)[٢]

وذَكَرَ أنَّ الذي فَعَلَ ذلكَ ظهرتْ لهُ آياتٌ مِنَ المَلَكُوتِ ، وكُوشِفَ بمعاني قُدْرةٍ مِنَ الجَبَرُوتِ ، تجلَّى اللهُ لهُ بها كيفَ شاءَ[٣]

واعلَمْ : أنَّ هـٰذا المعنىٰ مِنَ الطَّيِّ والتقلُّلِ لو أنَّهُ عينُ الفضيلةِ ما فاتَ أحداً مِنَ الأنبياءِ ، ولَكَانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَبلُغُ مِنْ ذلكَ إلىٰ أقصىٰ غاياتِهِ ، ولا شكَّ أنَّ لذلكَ فضيلةً لا تُنكَرُ ، ولـٰكن لا تنحصرُ مواهبُ الحقِّ في ذلكَ ؛ فقد يكونُ مَنْ يأكلُ كلَّ يومٍ أفضلَ ممَّنْ يَطْوِي أربعينَ يوماً ، وقد يكونُ مَنْ لا يُكاشَفُ بشيءٍ مِنْ معاني القُدْرةِ أفضلَ ممَّنْ يُكاشَفُ بها إذا كاشفَهُ اللهُ تعالىٰ بصِرْفِ المعرفةِ ؛ فالقُدْرةُ أثَرٌ مِنَ القادرِ .

ومَنْ أُهِّلَ لقُرْبِ القادرِ لا يستغربُ ولا يستكثرُ شيئاً مِنَ القُدْرةِ ، ويَرَى القُدْرَةَ تتجلَّىٰ لهُ مِنْ سُجُفِ أجزاءِ عالَمِ الحِكْمةِ[٤] ، فإذا أَخْلصَ العبدُ للهِ

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « القوت » (٣/ ١٣٧٦) .

(٢) قوت القلوب (٣/ ١٣٧٦) .

(٣) قوت القلوب (٣/ ١٣٧٦) .

(٤) السُّجُف : جمع (سِجاف) ؛ وهو السِّتْر .

تعالىٰ أربعينَ صباحاً ، واجتهدَ في ضَبْطِ أحوالِهِ بشيءٍ مِنَ الأنواعِ التي ذَكَرْناها مِنَ العملِ والذِّكْرِ والقُوتِ وغيرِ ذلكَ[1] . تعودُ بركةُ تلكَ الأربعينَ علىٰ جميعِ أوقاتِهِ وساعاتِهِ ، وهوَ طريقٌ حَسَنٌ اعتمدَهُ طائفةٌ مِنَ الصالحينَ .

وكانَ جماعةٌ مِنَ الصالحينَ يختارُونَ الأربعينَ أن تكونَ ذا القَعْدةِ وعشرَ ذي الحِجَّةِ ، وهوَ أربعونَ موسىٰ عليهِ السلامُ .

(٧١) ـ أخبرَنا شيخُنا ضِياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو منصورٍ محمَّدُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ خَيْرُونَ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ الحسنُ بنُ عليٍّ الجَوْهَرِيُّ إجازةً ، قالَ أخبرَنا أبو عُمَرَ محمَّدُ بنُ العبَّاسِ[2] ، قالَ حدَّثَنا أبو محمَّدٍ يحيى بنُ محمَّدِ بنِ صاعدٍ ، قالَ : حدَّثَنا الحسينُ بنُ الحسنِ المَرْوَزيُّ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ اللهِ بنُ المباركِ ، قالَ : حدَّثَنا أبو مُعاويةَ الضَّريرُ ، قالَ : حدَّثَنا الحجَّاجُ ، عن مكحولٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَخْلَصَ لِلهِ تَعَالَى ٱلْعِبَادَةَ أَرْبَعِينَ يَوْماً . ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ ٱلْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ »[3]

(١) في (ي) ونسخة علىٰ هامش (د) : (وتقليل القوت) بدل (والقوت) .

(٢) هو الإمام المُحدِّث الثقة ابن حيُّويه البغدادي الخزاز . انظر (١/ ٢٢١) .

(٣) سبق تخريجه في (١/ ٤٧) ، وفي هامش (ب) : (بلغ مقابلةً) ، وفيه : (بلغ قراءةً على الشيخ الحافظ جلال الدين ، كاتبه عبد السلام المقدسي)

محتوى الجزء الأول